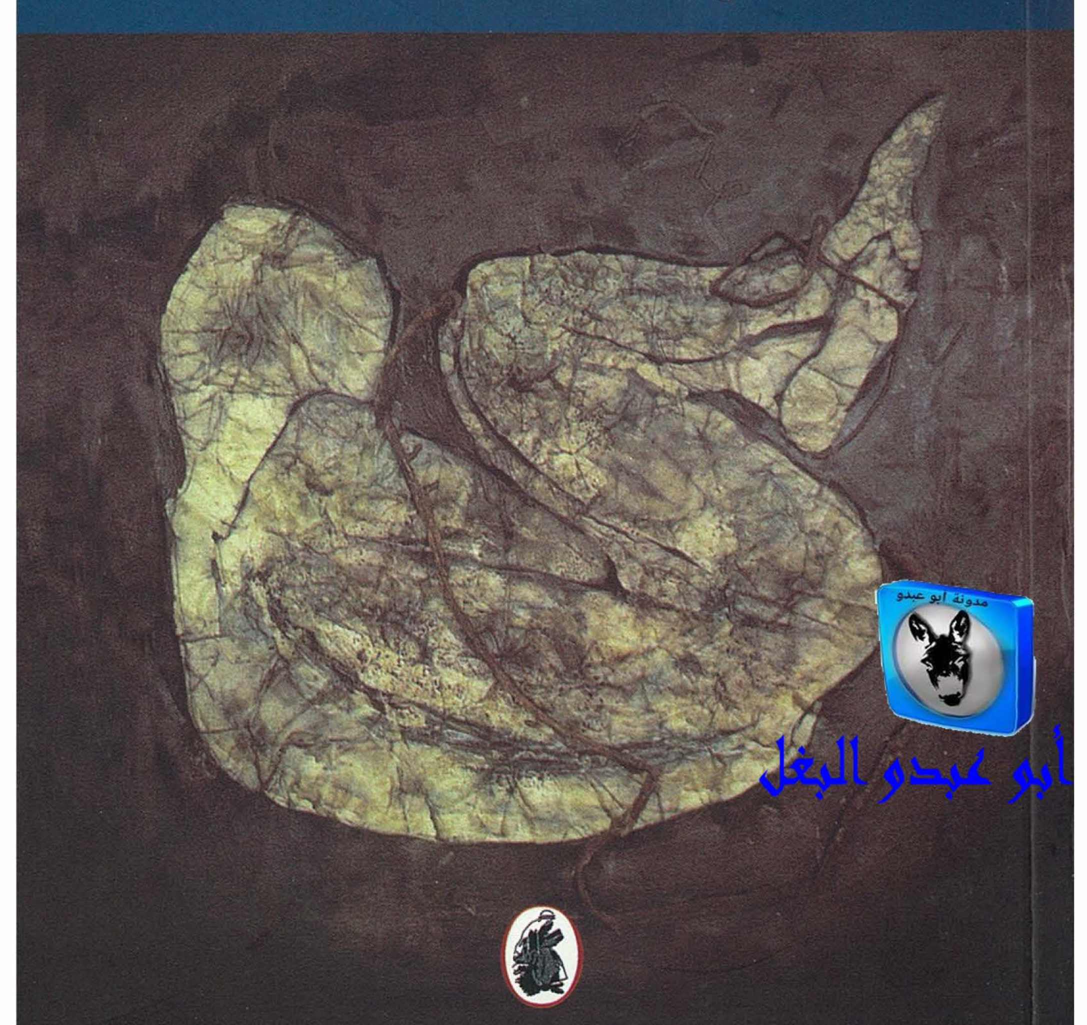
F A I S A L   A L - H O U R A N I

سيرة

فيصل حوراني

دروب المنفى (5)

أين بقيّة الحكاية؟



دروب المنفى
(5)

أين بقية الحكاية؟

دروب المنفى [٥] : أين بقيّة الحكاية ؟ / سيرة
فيصل حوراني / مؤلّف من فلسطين
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
سعيد ®
لوحة الغلاف :
توماس بريتسنغ / ألمانيا
الصفّ الضوئيّ :
مطبعة الجامعة الأردنيّة

ISBN 9953-441-25-1

سيرة سيرة

فيصل حوراني

دروب المنفى
(5)
أين بقيّة الحكاية؟



١

استهلال: معركة الكرامة

في صيف العام ١٩٦٨ ، فُصلت من حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم في سورية . وانطوت بهذا فترة من حياتي وابتدأت فترة من طبيعة مختلفة . وقد أفادني الفصل فائدة لم ينتبه لها الذين فصلوني ذلك لأنه حررني من التزامات العضوية . وبقي لي عملي في جريدة «البعث» ، كما بقي لي أن أكتب للإذاعة والتلفزيون .

في تلك الفترة ، ازدادت سياسة الحزب تشدداً . وضيّق التشدد بنود هذه السياسة فكادت تنحصر في عدد محدود من الشعارات . واشتدت هيمنة قيادة الحزب ليس على مراكز الحكم ومؤسساته وحدها ، بل على المنظمات الحزبية وسلوك الأعضاء وأوجه تفكيرهم ، أيضاً . وضاقت فرص الاجتهاد . فلم يكن غريباً أن أعدّ الخروج من الحزب نعمة . ولعلي لا أبالغ إن قلت لك إن كثيرين غيري كانوا تواقين إلى التمتع بمثل هذه النعمة ولم يبقهم في الحزب إلا أسر المألوف أو الخشية من فقدان الامتيازات أو الأمل بانصلاح الحال . ولك أن تعرف أنّ ما توفر لي من حرية التفكير والحركة المستقلين فاق المتوفر من الحرية لأي صحافي أو عضو في الحزب . ولاءمني الوضع الجديد ، بالطبع ، ولم أخف غبطتي ، حتى لقد بدا لبعض من يعرفونني أني تعمدت

استفزاز الذين أسخطتهم مواقفي ، لا لشيء إلا لأظفر بقرار الفصل . وأياً ما كان عليه الأمر ، فإني بقيت بعد الفصل كما كنت قبله المشاكس الذي لا يخشى العواقب ، واشتدت جرأتي على الجهر بقناعاتي .

كان نظام البعث قد امتص حتى ذلك الوقت زلزال حزيران / يونيو ١٩٦٧ وأوقف اندياحات السخط على الهزيمة . نجا النظام ، وأيقن كل من يعنيهم الأمر من أن الهزيمة السافرة لن تسقط سلطة الحزب . واختار سادة النظام أن يمعنوا في التعويض عن ما ألحقته الهزيمة بسمعتهم بالإفراط في التشدد . وقرنت قيادة الحزب التشدد السياسي بالدعوة إلى التقشف العام والشخصي ورفعت شعار كل شيء للمعركة . وأطلق صديقي د . يوسف زعيّن لحيته ولبس بذلة خاكية متواضعة ، فعل رئيس حكومة سورية ما فعله فيديل كاسترو الكوبي ، واكتفى بسيارة فولكس فاكن من أصغر طراز وراح يسوقها بنفسه وحظر استخدام السيارات الحكومية للأغراض الشخصية . ووجد أعضاء الحزب والجمهور أنفسهم مدعوّين إلى التبرع حتى بخواتم الخطوبة لمساندة المجهود الحربي . وصور الإعلام الحزبي والحكومي نجاة النظام من السقوط على أنه مكسب كبير تحقق ، وأبرزه بما هو دليل على أن الأمة العربية كلها ، وليس سورية وحدها ، قد نجت وكسبت . وقيل للناس إن عدوان حزيران/يونيو ١٩٦٧ استهدف إسقاط نظام البعث في سورية ونظام الرئيس عبد الناصر في مصر وزعزعة الأنظمة الوطنية التقدمية في البلاد العربية الأخرى . وما دام النظامان المستهدفان قد بقيا فهذا يعني أن المعتدين فشلوا في تحقيق هدف عدوانهم . وهناك من اشتطوا في القول ورأوا أن العرب قد انتصروا ، إذ أن هؤلاء عدّوا الثبات بعد الهزيمة انتصاراً .

أما احتلال إسرائيل للأرض وتشريدها السكان وبقية الآثار المروعة التي أحدثها العدوان ، فلم تظهر في الإعلام إلا بوصفها ظواهر عارضة . وقد أمعن

المسؤولون المدنيون والعسكريون ومروجو دعاياتهم في إزجاء التعهدات والجزم بأن إزالة آثار العدوان في المتناول ما دام النظامان قد بقيا . واشتط هؤلاء في تعهداتهم ومنّوا الجمهور بمواصلة المعركة إلى أن يُقضى على بؤرة العدوان ذاتها .

صور ما وقع في حزيران/يونيو ١٩٦٧ على أنه نكسة عابرة . التقط المهزومون لفظة النكسة ، هذه ، وأظن أن محمد حسنين هيكل كان هو أول من استخدمها ، وعمّموها ، وغُيبت لفظة الهزيمة من قاموس خطابهم .

وليس من العسير أن تحزر أني لم أكن من الذين أُخذوا بهذا التصوير ولا الذين قصروا في السخرية من مروجيه . ولك أن تعرف أن الذين تأثروا بالدعاية الرسمية كانوا قليلي العدد . وعندما لاحظت قيادة الحزب هذه الحقيقة ، نسبت قلة التأثير إلى قصور الإعلام والإعلاميين . وصار على المتطلعين إلى رضى القيادة من الإعلاميين أن يمارسوا جلد الذات . وجاء وقت راج فيه أن المسؤول الأول عن التقصير في توفير وسائل النصر هو الإعلام . ولأن جلد الذات ينفرني حتى لو توفر ما يسوغه ، فقد كانت لي مع جالدي الذات ، مع كثيرين منهم في واقع الأمر ، معارك مشهودة . ولو أمكنك أن تراجع أعداد «البعث» في تلك الفترة ، فستقع في واحد منها على مقال لي صدرته بعنوان فصيح الدلالة : «الإعلام العربي المظلوم» . في هذا المقال ، كررت ما سبق لي أن عرضته في اجتماع حضره عدد وافر من أعضاء قيادة الحزب الحاكم ، فقلت إن أكفأ إعلام في الدنيا هو الذي يعكس سياسة أصحابه في صورة صحيحة ، وتساءلت : لو جئنا بخيرة الإعلاميين ووفرنا لهم أنجع الوسائل فما الذي يملك هؤلاء أن يجيئوا به إن كانت السياسة ذاتها خائبة؟

في تلك الفترة ، أيضاً ، كبر حجم المقاومة الفلسطينية التي اشتهرت

بأسـمـاء شـتى أخـرى : الثـورة الفلسطينيـة ، أو العـمل الفـدائي ، أو الكفـاح المسلح ، وكـثـر عدد فصـائلهـا ، واتسع حضورها في الحيـاة العـامـة ، وتعـددت نشاطاتهـا ، وتحول معـارضوها السابقون إلى مؤيدين ، وطغت شـهـرتها على ما عداها من أشكال المجابهـة مع العدو ، وتبـارى حكام العـالم العربي ونـاسـه في إعلان تأييدهم لها واعتزازهم بها . احتاج الحكام إلى ما يصرف انتباه الجمهور عن قصورهم في مجابهة العدوان ؛ واحتـاج الجمهور إلى ما يعوض مشـاعر الإحـبـاط وخـيـبـات الأمل ؛ واحـتـاج الجـمـيع إلى مـا يكسـر زهو إسـرائيل بانتصارها ؛ فتـركـزت الأنظار على المقـاومة الفلسطينية وقُرعت الأجراس في دنيا العرب لها .

وبين الجميع ، كان الفلسطينيون هم الأكثر احتياجاً إلى ما يعزز حضورهم الخاص بعـد أن طال تجاهله ، كـمـا كـانوا بحـاجة ، أيضـاً ، إلى اسـتبـقـاء الأمل باستعادة وطنهم المغتصب ، وقد جاءتهم المقاومة بالوعد .

في هذا السياق ، شكلت معركة الكرامة محطة متميزة ، أعطت الأمل الفلسطيني حقنة منشطةً . ووفرت لـلإعـلام المادة التي يسـتـخـدمـهـا لاسـتـثـارة الحماسة ، وقدمت للمحبطين ما يعالج هواجسهم .

جرت المعركة بعد تسعة شـهور من الهزيمة . ففي الحادي والعشرين من آذار/ مـارس ١٩٦٨ ، اجـتـازت قـوة إسـرائيليـة يدعـمـهـا الطيـران نهـر الأردن وهاجـمـت مـواقع الفـدائيين الفلسطينيين عند القـرية التي تحـمـل هذا الإسم : الكرامـة . بدأ الهـجوم في الصـبـاح واسـتـمـر القـتـال طيلة النهـار . اسـتـشـرس المهاجـمون ، واستبسل المدافعون . وفي أول المساء ، رجعت القوة الإسرائيلية من حيث أتت . وبقي الفـدائيـون في المنطقـة التي أراد المهـاجـمـون إجـلاءهم عنهـا . وفي نهـار الكرامة هذا ، دفعت القوة المهـاجـمـة ثمناً لم تتوقع إسـرائيل المزدهيـة بانتـصـارها أن تـدفـعـه ، قـتلى وجـرحى ، إن اخـتلف الرواة في تحـديد

أعدادهم فقد كانوا وفق أي رواية كثيرين ؛ ودبابات وآليات عسكرية أخرى كثيرة عُطبت أو أُتلفت وبقي بعضها على أرض المعركة .

وصف الإسرائيليون هجومهم على الكرامة بأنه غارة تأديبية واجتهدوا في أن يقللوا من أهميته بعد فشله . الأردنيون تصوروا أن حجم الهجوم يعني أن اسرائيل أرادت إقامة رأس جسر ثابت شرقي النهر . ولمنع تحقيق هذا الهدف ، لعبت المدفعية الأردنية دوراً بالغ الأهمية في صدّ الهجوم . أما الفلسطينيون فقد ثبتوا في الدفاع بوسائلهم المحدودة وأحبطوا ما تصوروا أنه هدف الهجوم وهو إجلاؤهم عن الغور . من هنا ، تعددت الروايات بتعدد الأطراف المعنية بالأمر . لكن الجمهور المفتون ببسالة الفدائيين تشرب الرواية الفلسطينية . وهذه الرواية ، حتى في أقل طبعاتها تهويلاً ، أبلغت إلى الجمهور أن الإسرائيليين خسروا ٧٠ قتيلاً و١٠٠ جريح و ٤٥ دبابة و٢٥ مجنزرة و٢٧ آلية عسكرية أخرى ، وأن خمس طائرات إسرائيلية أسقطت .

رأى الجمهور أن العين واجهت المخرز دون تهيب ، فالتهب الحماس ، وارتفعت سمعة الفدائيين إلى درجة القداسة ، وتلقى العمل الفدائي من الدعم ما فاق أي تصور . قدمت الحكومات الكثير . ومنحت الأوساط الشعبية ما تقدر عليه وزيادة . وانجذبت ألوف جديدة من الشابات والشبان والكهول إلى صفوف المقاومة .

في هذا الجوّ ، ظفرت الوطنية الفلسطينية بما أنعشها . وهذه الوطنية هي التي شكلت الأرض المعنوية التي توحّد الفلسطينيون عليها بالرغم من تشتتهم . وبرزت منظمة التحرير والفصائل الفدائية بوصفها وطن الفلسطينيين المعنوي . واجتذب العمل الفدائي أعداداً متزايدة من شبان الأرض المحتلة فضلاً عن الوافدين من أماكن الشتات . وفي سورية والأردن ولبنان ، نبتت قواعد التدريب أو القتال وانتشرت بأسرع مما ينبت الفطر وينتشر . ودبّ

النشاط في التنظيمات الشعبية والمهنية ، وشكلت هذه قواعد تأييد وإسناد لما صار الثورة الفلسطينية .

والذين تحفظوا على العمل الفلسطيني المسلح قبل الهزيمة لم ينحُّوا تحفظاتهم فحسب ، بل بزّوا الآخرين في الحماس له . حركة القوميين العرب اندفعت إلى اللجّة فشكلت الجبهةَ الشعبيةَ لتحرير فلسطين . ولم يلبث أن حلت الجبهة المسلحة محل الحركة السياسية . بعثيو سورية ، بالرغم من أنهم حكام البلاد وجيش البلد موجود تحت إمرتهم ، شكلوا فصيلاً فدائياً أطلقوا عليه هذا الاسم المهيب : طلائع حرب التحرير الشعبية وميّزوه باسم قوات الصاعقة . بعثيو العراق ، هؤلاء الذين استفحل تنابذهم مع رفاقهم السابقين في سورية ، شكلوا جبهة التحرير العربية . جيش التحرير الفلسطيني ، هذا الذي لم تطلق عليه صفة الجيش إلا من باب التفاؤل بالمستقبل ، أسس قادته ميليشيا ميزوها باسم قوات التحرير الشعبية . وهذه وغيرها من الأسماء المستجدة سطعت إلى جانب الأسماء القديمة : «فتح» ، وتشكيلها المسلح قوات العاصفة ، وجبهة التحرير الفلسطينية ، وغيرها .

هذه النهضة العاصفة للعمل الفدائي عكست في المقام الأول وجهاً إيجابياً هو وجه الإرادة العربية العازمة على مقاومة العدوان الإسرائيلي ورفض الاستسلام للمعتدين ، تماماً كما أظهرت توق الفلسطينيين إلى تحرير وطنهم واستعادة حقوقهم . غير أن هذه النهضة انطوت على وجه آخر سلبي قلما جرى الانتباه له . فالأوهام التي تضخمت حول قدرات العمل المسلح الشعبي أسهمت في تعميم الاستهانة بالعمل السياسي ودور الجيوش النظامية . تصور بعضهم أن العين التي جرؤت على مواجهة المخرز قد نبت لها حقاً أنياب تفتقر الجيوش إليها . ثم إن التزاحم على التطوع في صفوف الفصائل المسلحة ، إن أظهر سعة الاستعداد للبذل والتضحية ، فقد انطوى هو الآخر على ما هو

سلبي وهو تساهل الفصائل في التدقيق في دوافع طالبي عضويتها وأخلاقهم وقدراتهم أو حتى وقائع ماضيهم . ومع تدفق التأييد والتبرعات على الفصائل ، اشتد تنافس هذه بعضها مع بعض ، فتفاقمت مخاطر التساهل . وبكلمات قليلة ، نشأ الوضع الذي صار بإمكان أيما أحد فيه أن يلبس زي الثورة ويستتر به ما قد يتعارض مع مدلوله .

وصلتني أنباء معركة الكرامة وأنا طريح الفراش في منزلي في دمشق . احتجزتني وقتها نوبة قاسية من نوبات آلام الظهر وقد انضاف إليها التهاب حاد في قزحية عيني الوحيدة . وألزمني صديقي الدكتور نشأت الحمارنة ، البعثي المستقيم حدّ التزمت وطبيب العيون البارع الذي لم أعرف في حياتي من هو أحرص منه على سلامة عيني ، أن أمتنع عن القراءة والكتابة حتى أساعده في السيطرة على الالتهاب الذي تؤججه صلة غامضة بين الداء الذي يستوطن ظهري وبين قزحية العين . وقد حرص الأصدقاء الذين يزورونني على تجنيبي الإثارة . غير أن الإذاعات التي تطنطن بالأنباء لم ترحمني . وبالرغم من حالة عيني ، أمليت مقالاً نشرته «البعث» وتعليقاً بثته الإذاعة أبديت فيهما ما أبداه غيري من حماس للنتائج الباهرة وقرظتُ الفدائيين وأشدتُ بمآثرتهم .

وفي اليوم التالي ، أيقظني من إغفاءة بعد الظهر هاتف ملحاح . كان على الخط العميد مصباح البديري . نسي هذا الصديق حاجتي إلى الهدوء وبادرني بنبرة مستثارة : «صاحبك أبو عمار ، ألم تسمع ما قاله ، فهل تحبّ أن تعرف دوره الحقيقي في المعركة ، أنا قادم الآن من الكرامة» . إذاً ، فهو ياسر عرفات من يضيق قائد جيش التحرير الفلسطيني بحديثه عن المعركة .

لكي تدرك دوافع مصباح ، عليّ أن أصف لك الأجواء التي كانت سائدة في ذلك الوقت . فقد كان نشاط النخبة منصباً على إعادة ترتيب أوضاع

منظمة التحرير . أنت تعرف أن المنظمة نشأت قبل حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ بثلاث سنوات وأن رئيسها الأول ، أحمد الشقيري ، حظي بدعم ملحوظ من الرئيس جمال عبد الناصر وهو الدعم الذي مكّنه من إنشاء المنظمة والبقاء على رأس قيادتها بالرغم من كثرة معارضيه . وقد بقي للشقيري هذا الدعم إلى أن وقعت الحرب ومال عبد الناصر مع العرب الذين مالوا إلى القبول بتسوية سياسية تنطوي على احتمال الاعتراف بإسرائيل مقابل سحب قواتها من الأرض التي احتلتها في الحرب الأخيرة . وفيما قبل عبد الناصر قرار مجلس الأمن الدولي الشهير ٢٤٢ ، جهر الشقيري برفضه القرار . صحيح إن الفلسطينيين ، إذا استثنينا منهم الشيوعيين ، رفضوا القرار كما رفضه رئيس منظمتهم ، إلا أن رفض الشقيري أفقده السند الرئيس الذي استند إليه ، ووجد الرجل نفسه مرغماً على الاستقالة . وباستقالة الشقيري ، خلت الساحة عملياً للبديل الوحيد القادر على قيادة المنظمة ، أي لممثلي الفصائل الفدائية أو من سمتهم الصحافة حملة البنادق . وكان من شأن الاستبدال أن يتم فور استقالة الشقيري في أواخر العام ١٩٦٧ ، لولا أن أطرافاً أخرى سعت إلى استبعاد حملة البنادق أو إلى مشاركتهم القيادة وكذلك لولا وجود معارضة واسعة داخل حملة البنادق أنفسهم ضد التورط في استلام قيادة م . ت . ف . رأى جمهور العمل الفدائي في المنظمة مؤسسة بيروقراطية غير ثورية . وقرّ في الأذهان أن المنظمة مسيرة بإرادة الدول العربية ، وليس بإرادة فلسطينية مستقلة . وآثر هذا الجمهور أن يظل العمل الفدائي ثورة تكتسح القيود وخشي أن يفضي استلام حملة البنادق قيادة المؤسسة البيروقراطية إلى طيّ روحهم الثورية . وكان على الناحية الأخرى فلسطينيون لم يحبذوا تسليم قيادة المنظمة الأم إلى حملة البنادق لأنهم خشوا أن يفضي ذلك إلى هيمنة «فتح» بالذات عليها . ومصباح البديري الذي انضمّ إلى قيادة

جيش التحرير وترقى فيها منذ عهد الشقيري حتى صارت له رتبة عميد كان واحداً من هؤلاء . ولعلك ما تزال تتذكر كيف نشأت صلتي بمصباح هذا وتوطدت صداقتنا منذ كان هو قائداً لسرية الخيالة في منطقة البطيحة السورية الواقعة على شاطئ بحيرة طبرية وهو ضابط في الجيش السوري وكنتُ أنا معلماً في مدرسة فيها ثم مديراً للمدرسة بين ١٩٥٧ و ١٩٦١ . وإذا كنت تتذكر البداية ، فلعلك تتذكر كيف تطورت أحوال صاحبي وأحوالي إلى أن صار هو ضابطاً رفيع المقام في جيش التحرير وصرت أنا صحافياً . وفيما تمتع مصباح برضى الشيوعيين عنه ودعم البعثيين له ، كنت أنا عضواً في حزب البعث وصديقاً للشيوعيين . وتوطدت صداقتي لمصباح ، واستمرت مساراتنا حتى وإن اختلفنا في هذا الشأن أو ذاك من الشؤون العامة وبضمن ذلك الاختلاف بشأن «فتح» ، وقبله الاختلاف بشأن الشقيري .

ستعرف مواقفي حين يتعلق الأمر بـ «فتح» . أما الشقيري فلك أن تعرف بوجيز العبارة أني لم أستسغ بعض أفكاره والكثير من أوجه سلوكه . وقد رأيت في الشقيري قومياً عربياً محافظاً فضقت به ، أنا الذي ضاق حتى بالقوميين الثوريين . وأخذت على الشقيري ما آخذه على غيره : المزايدة السياسية والولع باللفظية وإيثار فتنة البلاغة على صلادة الواقع ، ولم أتمكن من أن أغض الطرف عن استهانته بالعمل المنظم والقيادة الجماعية . وهكذا ، ما أن ظهرت فرصة الاستبدال حتى ملتُ مع الذين مالوا إلى تولية حملة البنادق ، وانهمكت في الجدل المتقد حولها ، وجندت نفسي لتسخيف المتخوفين من استلامهم مسؤولية قيادة م . ت . ف . وكانت صلتي بياسر عرفات وغيره من قادة «فتح» والفصائل الأخرى تمكنني من ممارسة بعض التأثير . أما مصباح فقد صبّ جهده في الاتجاه الآخر ، خصوصاً كلّما تعلق الأمر بإحلال «فتح» في الصدارة .

وإثر استقالة الشقيري، قبل أن تُستكمل شروط حلول حملة البنادق محلّه، أُوكلت رئاسة المنظمة في صورة مؤقتة إلى عضو اللجنة التنفيذية المحامي الفلسطيني حامل الجنسية الأردنية يحيى حمودة، وكان من أصدقاء مصباح. وقد بثّ تولي يحيى حمودة الرئاسة آمالاً مبالغاً فيها في أن تنتهج م. ت. ف. نهجاً سياسياً متعقلاً مختلفاً عن نهج الشقيري ونهج حملة البنادق كليهما. كان الرجل شيوعياً في وقت من الأوقات وهو لم يعاد الشيوعيين بعد استقلاله عنهم. وقد تطلع الشيوعيون وأصدقاؤهم، ومصباح من هؤلاء، إلى أن تجري الأمور في نحو يجنّب المنظمة الفلسطينية خطر المزايدات اللفظية التي اتسم بها عهد الشقيري ويحميها من خطر الروح المغامرة التي توجه خطى حملة البنادق. وحمل التطلع ذاته كل من تصور أن بالإمكان ترتيب وضع جديد تؤوي خيمة م. ت. ف. فيه الجميع وتسير في الوقت ذاته بخطى متزنة.

والحقيقة أن يحيى حمودة ابتدأ عهد رئاسته بالدعوة إلى تحقيق الوحدة الوطنية الفلسطينية تحت راية م. ت. ف. وأعطى الرجل إشارات ذات دلالة واضحة على التعقل السياسي. وفي عهد حمودة، تسنى لعدد أكبر من الضباط التقدميين، وفي عدادهم شيوعيون معروفون أو مكتومون، أن يتولوا مراكز بارزة في قيادة جيش التحرير وقوات التحرير الشعبية. وانتعش النشاط لاجتذاب الجمهور إلى الالتفاف حول المنظمة الأمّ، واتصل السعي إلى تمثيل الفصائل المسلحة في هيئاتها وقيادتها. لكن هذا لم يكن هو بالضبط ما تريده الفصائل، وخصوصاً منها «فتح». فالفصائل، وخصوصاً «فتح»، كانت أكثر تشدداً من الشقيري، فلم تسترح لتعقل حمودة، وكانت عازمة إن رضيت باستلام القيادة على الاستئثار بها وليس مجرد المشاركة فيها. وحين رفعت الفصائل شعار تثوير م. ت. ف. فقد عنى الشعار فرض هيمنة حملة البنادق

وفكرهم المتشدد عليها . وحدث أن نشرت «لوموند» الباريسية مقابلة مع رئيس المنظمة بالوكالة أظهر الرجل فيها بعض التعقل ، فأقامت الفصائل في وجهه الدنيا ولم تقعدها ، حتى لقد اضطر إلى تكذيب ما نشر على لسانه . وبهذا ، سجلت الفصائل نقطة ضد يحيى حموده وأظهرت قوتها ، فيما ظهر للعقلاء من المعولين عليه أنه ليس القائد القادر على تحدّي السائد . وما أن وقعت معركة الكرامة وأحاطها إعلام الفصائل بما أحاطها من دعاية ، حتى استخلص مصباح ما استخلصه غيره وأدرك أن الفصائل تتوخى استثمار النتائج لتحقيق مطامحها الكبيرة . وبدل أن يسلم مصباح بأن لا بدّ مما ليس منه بدّ ، استسلم لهاجس خوفه من هيمنة «فتح» وتجنّد للمجابهة . ومن هنا ، جاء حرص زائري على تسفيه الرواية التي تفنن ياسر عرفات في بثّها عن المعركة .

حاولت أن أهدئ صديقي المدفوع بسخطه ، وتذرعت بالمرض كي أحمله على اختصار الكلام . لكن مصباح تشبث بهاجسه : «قرأت مقالك ، ولا أرضى لك بأن تكون من الذين يتسترون على التهويش . لا بدّ من أن تعرف الحقيقة» ، قال هذا ، ثم شرع في بسط حقيقته هو أمامي .

قبل أيام من المعركة ، رصد الاستطلاع العسكري الأردني تحركات إسرائيلية غير عادية ، وأبلغت القيادة العسكرية الأردنية إلى قيادة جيش التحرير ما توفر لها من معلومات . وبدت القيادة الأردنية واثقة من أن الجيش الإسرائيلي يتهيأ للهجوم على المنطقة ودعت إلى اليقظة . ومن جانبه ، مرر مصباح المعلومات إلى قادة الفصائل الفدائية التي تملك قواعد في المنطقة ووضع قوات التحرير الشعبية في حالة تأهب . وعندما ابتدأ الهجوم ، تابع مصباح الوقائع الجارية في غور الأردن من مقرّ قيادة جيشه في دمشق ، ثم وجد من المناسب أن ينتقل إلى منطقة الاشتباك فتوجه إليها . وكانت حدة المعركة قد خفت والقوة المهاجمة قد تراجعت عندما اقتربت سيارة مصباح من

المنطقة ، فلم يتح له أكثر من أن يعاين نتائجها .

لم ينسب مصباح لنفسه هذا الدور العادي إلا مقدمة للتشنيع على ياسر عرفات . ففي طريقه إلى قرية الكرامة ، توقف مصباح عند نقطة تفتيش أقامها الجيش الأردني . ولما كان قائد جيش التحرير مخولاً دخول المنطقة ، فقد أُذن له بالعبور دون ممانعة . وقتها ، كما قال مصباح مشدداً على الألفاظ ، كان عرفات واقفاً عند هذه النقطة بانتظار أن يؤذن له بعبورها هو الذي لا يحمل صفة رسمية . وقد شرع مصباح في جولته فيما كان عرفات في الانتظار . وفي لحظة توجهه إلى سيارته للمغادرة ، وقعت عين مصباح على عرفات داخل المنطقة وسط حشد من الصحافيين وهو يروي وقائع المعركة مضمناً الرواية أنه هو الذي قادها ومبرزاً دور مقاتلي «فتح» دون سواهم .

ذكرت لك هذه الوقائع ، وأسهبت في إيراد التفاصيل ، لأقدم مثلاً على ما أردت استهلال الحديث به . كنّا إزاء صورة مركبة اختلطت فيها بسالة الفدائيين وحماس الجمهور ومنافسات الفصائل بعضها مع بعض ومشاحنات القادة الفلسطينيين وتأثيرات الدول العربية وما أفرزه الخليط مما هو إيجابي أو سلبي . ووجدتني في جو يصعب وصفه بكلمات اللغة المستقيمة .

ومنذ معركة الكرامة ، برزت المقاومة الفلسطينية بما هي عامل كاسح التأثير في الساحة الفلسطينية ومحيطها العربي . وتهيأت الفرصة لحملة البنادق فاستحوذوا على قيادة م . ت . ف . ليوجهوها وفق سياستهم المتشددة . وحدث هذا دون أن تكون الفصائل المسلحة موحدة وقبل أن تنضج سبل التفاهم في ما بينها أو تكفّ الدول العربية ذات المصالح والسياسات المتباينة عن التدخل في شؤون الساحة . وتشكلت مع هذا الخليط وسائل النشاط ضد إسرائيل : عمليات مؤلمة لدولة الاحتلال ؛ وأخرى إن كانت أقلّ إيلاماً فإنها لم تكن أقلّ صخباً ؛ وإعلام ناشط ، يغطي العمليات ، ويهوّل ، وتتبارى مراكزه

المتعددة في نسبة الأمجاد ، الحقيقية ، والأخرى المهولة أو المتوهمة ، إلى هذا الفصيل أو ذاك ، ويُدلُّ كل فصيل بما ينسبه مركزه الإعلامي إليه ؛ وجمهور مفتوح الآذان والأرواح لتلقي الروايات وتصديقها أو الاعتقاد بجدوى ترويجها حين يفطن إلى ما فيها من تهويل .

لم يأت أي من الفصائل من فراغ ؛ فقد انبثقت ، كلّها ، من واقع اللجوء وما يكتنفه من ملابسات : الجبهة الشعبية ، ثم الديمقراطية أفرزتهما حركة القوميين العرب فورثتا سمتها القومية المتشددة وما مازجها من توق اللاجئين الفلسطينيين إلى الثأر . الصاعقة ، ثم جبهة التحرير العربية ، انبثقتا من حزب البعث وحملتا سماته : الولع بالشعارات . جبهة التحرير الفلسطينية تمثلت بتوفيق قليل أو كثير توق الفلسطينيين المزمن إلى أن يصيروا شيئاً مذكوراً ومزجت دون توفيق بين الوطنية الفلسطينية والقومية العربية والفكر الاجتماعي المحافظ ولم تتعمق أياً منها . «فتح» ، وهي فصيل الفصائل إن جاز التعبير ، أو فصيل من لا فصيل له ، انبثقت من مخزون المشاعر التي راكمها اللاجئون منذ نكبتهم . وفي هذا المخزون ، تفاعل تأثير المعاناة القاسية والمديدة والتوق إلى الكرامة الشخصية في وجه المهانات والأمل باستعادة فردوس اكتسحته قوى باغية .

تأسست «فتح» على أيدي دعاة نشط معظمهم في مطلع شبابه في حركات سياسية دينية : الإخوان المسلمونْ في غزّة أو مصر ، حزب التحرير الإسلامي ، وما هو أقلّ شأناً . وعندما تعرضت الحركات الإسلامية إلى الانتكاس أمام صعود الفكر القومي وبروز الفكر الماركسي ، فقد هولاء القناعة بجدوى استمرارهم في حركاتهم الدينية ، وشرعوا في تأسيس الفصيل الفلسطيني وحقنوه بهذا المزيج من ا لفكر المحافظ والوطنية الفلسطينية الناشئة في حضن الفكر القومي ذاته . واجتذب المؤسسون عدداً من التقدميين ،

قوميين وماركسيين ، ممن ضاقوا بأحزابهم أو ضاقت أحزابهم بهم ، فأضاف هؤلاء إلى المزيج مقتبسات من شتى الأفكار المحليّة والعالمية . ومن هذا كلّه ، تشكلت المواقف المتوافقة أو المتداخلة أو المتباينة ، ونشأت ثورية «فتح» التي من نوع خاص : الثورية التي لم يفرز حال اللاجئين ما هو أشدّ منها تأثيراً على جموعهم . وقد كانت هذه ثورية متأججة دون شك ، إلا أنها افتقرت إلى مقومات كثيرة لا تتم نجاعة الثورية بدونها ولا تستقيم .

ولئن أضفى التعدد على «فتح» حيوية زائدة ، فقد صارت له أيضاً تأثيرات سلبية أخطرها الافتقار إلى التجانس ، ، وهذا هو ما أبقى منجزات «فتح» الإجمالية أقلّ دوماً من جهود ناسها ، وهو ما ولّد الحاجة إلى استدراك الفارق بالتهويل .

فتحت «فتح» صفوفها لكل من انجذب إليها ، فحوت الثوري والمحافظ ، التقدمي والرجعيّ ، الراغب في لعب دور في الحياة العامة والباحث عن منفعة شخصية ، المؤهل للكفاح والتضحية والمؤهل لجني المكاسب الشخصية على حساب تضحيات الآخرين ، الواثق مما هو مندفع فيه والمندفع مع التيّار دون بصيرة ، المتطلع إلى المستقبل والمشدود إلى الماضي ، الباحث عن النجاح والهارب من فشل قديم . ولم يلبث أن أثر حال «فتح» هذا على أحوال الآخرين في سياق التنافس بين الفصائل . فصار كل فصيل «فتح» مصغرةً كلما تعلق الأمر بالحاجة إلى اجتذاب الأنصار دون تدقيق .

وكانت الفصائل تتحالف إذا داهمها خطر محدق بالجميع أو حفزها على التحالف مطمح أو مطمع مشترك . لكن التحالفات المؤقتة لم تطفئ لهيب التنافس . ولم تكن المنافسات والمشاكل الملتهبة داخل كل فصيل على حدة أهدأ مما هي عليه بين الفصائل ولا كانت الخصومات أقلّ . فإذا أضفت تأثير التدخلات العربية ، الرسمي منها وغير الرسمي ، فلك أن تتصور إلى أي حدّ

بلغ تعقيد العلاقات وكيف تأججت المزايدات على كل صعيد .

في هذا الجوّ ، نشطت حركة تأسيس فصائل جديدة . «قردان وحارس» ، حسب المثل الذي كثيراً ما استحضر في ذلك الوقت ، ومكتب ، وآلة كاتبة ، وتليفون ، ومصدر تمويل ، واسم جديد على القائمة . وفي هذا الجوّ . نشطت حركة انقسام الفصائل . وهكذا ، نبتت أسماء كثيرة واكتظت الساحة بها . ولأن كل فصيل حرص على أن يتضمن اسمه كلمات فلسطين ، وجبهة ، وتحرير ، وما يماثلها ، فقد تشابهت الأسماء . وجاء في أواخر الستينات وقت ضمت فيه مفكرة هواتفي أسماء ما يزيد على أربعين فصيلاً واحتجت إلى أن أكتب إيضاحات إضافية أمام عدد كبير من الأسماء كي أُميّز أحدها من الآخرين . وفي عمان ، كما في دمشق ، ثم في بيروت ، انتشرت المكاتب القيادية والإدارية والإعلامية ، كما انتشرت مخازن السلاح والتموين . وأنشأ بعض الفصائل مكاتب في بغداد والقاهرة وعواصم الدول العربية الأخرى .

في غضون ذلك ، توسعت علاقاتي الشخصية بناس المقاومة . ولما كانت علاقاتي متينة مع ناس الفصائل الأولى منذ أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ، فقد تيسر لي أن أمدّ علاقاتي اللاحقة بسهولة . وما قصدت موقعاً لفصيل قديم أو مستجد إلا وقعت فيه على مسؤول أعرفه أو من السهل أن أتعرف عليه ، وكنت أحصل على أتم المساعدة . ومعظم شاغلي مراكز النفوذ كان من أبناء جيلي أنا ابن الثلاثين ، أو أكبر مني بسنوات . ولأني تعرفت على هؤلاء قبل أن يصيروا نجوماً أو يظنّوا أنهم صاروا مهمين ، فقد ألفت كما ألفوا هم أن أتعامل معهم بغير كلفة ، وتعاملت مع الجميع بنديّة بوصفي رفيقاً وليس صحافياً زائراً .

تميزت قيادات الفصائل جميعها بكثرة الشبان بين أعضائها . شبّان أنهوا الدراسة لتوهم أو قبل سنوات قليلة ، أو انقطعوا عنها . بعض هؤلاء عمل

لبعض الوقت في التدريس أو في وظائف أخرى ثم تفرغ للعمل الفدائي قبل أن تنضج خبرته أو يبلغ تكوين شخصيته تمامه . وجاء بعضهم إلى العمل الفدائي مباشرة من مقاعد الدراسة . وفي قيادة «فتح» ، أقدم الفصائل نشأةً ، لم يكن ثمة من يزيد عمره على الأربعين أو من تولى قبل العمل الفدائي مسؤوليات قيادية في مهنته ، وإن تولّى أي مسؤولية فلسنوات قليلة فقط . وانطبق الأمر ذاته على معظم قادة الفصائل الأخرى إن لم يكن عليهم كلهم .

أما الخبرة التي اكتسبها أي من هؤلاء في حركة سياسية أو طالبية فإنها لم تسعف كثيراً . ذلك أن هؤلاء ، وقد انتقلوا من مسار إلى آخر مختلف ، اندفعوا في تجربة جديدة لم تكن عدتهم للخوض فيها مكتملة . ولم يكن غريباً أن يندفع الوافدون من حركات سياسية إلى العمل الفدائي في تأليه السلاح والاستهانة بالعمل السياسي ، تماماً كما فعل الذين انضموا إلى العمل الفدائي دون تجربة سياسية . وقد التقى هؤلاء وهؤلاء عند أكثر الشعارات فتكاً بالجهد السياسي : الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين . واستعار الجميع الشعار العتيق «السياسة تنبع من فوهة البندقية» ، وروّجوا مفهوماً حرفياً له ، فصار التوسل بالسلاح بديلاً عن الاجتهاد الفكري وسداً في وجه الدعوة إلى اعتماد العقل .

وسط هذا الخليط ، برزت ظاهرة أخرى خطيرة ، فقبول المناصرين بغير تدقيق أباح حتى لممارسي النشاطات المشبوهة أن يظفروا بعضوية الفصائل ويتمتعوا بمجد الانضمام إلى صفوف الفدائيين . ومع شيوع استخدام الأسماء الحركية وسهولة الظفر بوثائق شخصية جديدة تطمس الأسماء الحقيقية ، أمكن حتى لذوي السوابق إخفاء الماضي عن العيون . وقد لاحظت بنفسي كيف خلَتْ ساحة المرجة في دمشق من ناس الحثالة . وصار من النادر أن تقع العين في ساحة المرجة مثلاً على لاعبي الكشاتبين والورقات الثلاث أو

مروجي الصور الفاضحة أو نشيطي السوق السوداء الذين كانت ساحة دمشق المركزية هذه تغصّ بهم في العادة . ولم يكن من النادر أن تقع عيني المدققة على واحد من هؤلاء وقد برز شأنه في فصيل فدائي . ولئن كان بين هؤلاء من تاب حقاً وصلح أمره ، فقد كان بينهم من واصل سيرته الأولى واستنبت في موقعه الجديد بذور الفساد ورعاها .

وإلى هؤلاء اجتذب المطهر الفدائي المحتاجين إلى التخلص من ماض سياسي ضار بسمعتهم أو ظروف اجتماعية يضيقون بها . أعضاء أحزاب محظورة يمينية أو يسارية متطرفة وجدوا الملاذ والحماية ، ولئن أخلص بعضهم للفصيل الذي آواه فإن بعضهم تستر بالعمل الفدائي واستثمر التسهيلات الممنوحة له في هذا البلد أو ذاك ليواصل خدمة الجهة التي نشأ فيها . وقد أسهم هذا في تأجيج حذر أجهزة الأمن العربية وغير العربية إزاء ما يدور على الساحة الفلسطينية . والكارهون لعيشهم في أسر متزمتة ، أو الذين ضاقوا بأعباء الدراسة ، أو التواقون للمغامرة ، أو الذين ترسلهم شتى أجهزة الأمن للتجسس ، هؤلاء ومن على شاكلتهم وجدوا أبواب الفصائل مفتوحة دون عوائق .

من هذا كلّه ، فلسطينيّة وعربيّة ومختلطة ، طيّبة وخبيثة ، المفيد منه والضار ، الماجد والمنحط ، تشكلت الساحة التي وجدتني منهمكاً في شؤونها . اختلط الحابل والنابل ، الشريف والخسيس ، المثابر والمغامر ، المبدئي والانتهازي ، المستقيم والوصولي ، المثالي والواقعي . وصار عليّ أن أجالد النفس ليبقى لي ما أحرص عليه من تميز وأحتفظ ببقائي في الساحة فلا تُنفرني سلبياتها .

أما على الصعيد السوري فقد استفحلت ازدواجية السلطة وانداحت تأثيراتها في كل مكان . وإلى تمايز مواقف كتلتي النظام إزاء المسائل السياسية

الداخلية ، تمايزت مواقفهما إزاء الساحة الفلسطينية ، أيضاً ، وكان التباين في بعض الحالات كبيراً . إلا أن دواعي التنافس جعلت الكتلتين كلتيهما بحاجة إلى التقرب من المقاومة الفلسطينية . ولم يتوان ناس الفصائل في استثمار الظاهرة . لقد صرت تعرف كيف تمركزت كتلة القيادة ، المسماة أيضاً كتلة المدنيين أو كتلة صلاح جديد ، في منظمة الصاعقة ، فكبر حجم هذه المنظمة ، وذلك على الصعيد السوري أكثر مما هو على الصعيد الفلسطيني . بينما تمركزت الكتلة الأخرى ، كتلة العسكر وفق أكثر تسمياتها شيوعاً ، أو كتلة الأسد ، نسبة إلى زعيمها حافظ الأسد وزير الدفاع ، في الجيش . وصار على ناس الفصائل المحتاجين دوماً إلى التعامل مع وزارة الدفاع والأجهزة الأمنية التابعة لها أن يراعوا هذا الوضع .

وبالرغم من أن وصف الحال بعبارات وجيزة متعذر ، فمن الممكن القول إن كتلة القيادة بدت أكثر انفتاحاً في تعاملها مع ناس الفصائل ، فيما بدت الكتلة الأخرى أكثر تحفظاً ، هذا إذا أبقينا في الاعتبار أن ناس الكتلتين كليهما لم يأذنوا لأي من الفصائل بالتصرف في سورية على هواه . وهذا القول لا يعني أن الانفتاح كان بغير قيود أو أن أجواءه خلت من المشاكل ، كما لا يعني أن التحفظ حال دون التعاون . لقد احتفظت الكتلتان بالتأييد المعلن للعمل الفدائي . وفي حالات غير قليلة ، أدى التنافس إلى توفير معونات إضافية لهذا العمل . غير أن تنابذ الكتلتين عوّد نشطاء الفصائل على السعي إلى النفاذ عبر مسننات الخلاف الحادة في البلد الذي يؤوي عدداً كبيراً من مؤسساتهم ، واستتبع نوعاً من اللعب على الحبال ، وكان هذا لعباً خطيراً . وما كان من شأن هذا الحال إلا أن يزيد الصورة على الساحة الفلسطينية تعقيداً واختلاطاً .

كنت مرتبطاً بالساحتين كلتيهما . فوجدتني كمن يعيش في دوامة ، بل

دوامات متلاحقة . ولئن كان في هذا الوضع لذائذ يتمتع بها التواق مثلي إلى الانهماك في المعامع ، فقد كانت له متاعبه أيضاً . وما أكثر ما تمتعت وأنا أخوِّض في الدوامات وأخطو فوق المسننات الحادة وأفلح في السير على رؤوس المسامير . لكن ، ما أكثر ما أرهقت نفسي وأشدّ ما سببته لها من أذى ، أيضاً !

٢
نفحات من غزة تصلني بالوطن وناسه

أفلح الشاعر السوري البعثي علي الجندي في اجتذاب الشاعر الفلسطيني الشيوعي معين بسيسو إلى دمشق والإقامة فيها . إغواء معين لم يحتج إلى جهد كبير . فهذا الغزّاوي الذي لم تحتل مدينته إلا للتو كان مسكوناً بروح مغامرة وتوق إلى التنقل لا يبيحان له أن يستقر في أي مكان . وعندما وقعت حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ ، كان معين قد قدم من غزّة في زيارة لبيروت فانقطعت سبل عودته إلى مسقط رأسه ، ووجد نفسه وقد انضمّ إلى جموع اللاجئين الفلسطينيين المبعدين عن وطنهم الممنوعين من العودة إليه . وصار على معين الذي خبر سجون مصر السياسية أن يجد مكاناً تتوفر فيه إقامة مأمونة ومصدر رزق . ولا بدّ من أن الشاعر الشيوعي كان مفتوناً بسمعة النظام السوري ، هذا الذي تضم حكومته وزيراً شيوعياً ذائع الصيت وينتهج أكثر السياسات تشدداً ضد الصهيونية والامبريالية والرجعية . فلم يكن صعباً أن يرحب معين بالعرض الذي حمله علي الجندي إليه فيحمل هو حقيبته ويتوجه إلى دمشق ويستقدم أسرته إليها .

في دمشق ، تعرف معين على محمد الجندي ، وكان هذا أفيد له من علي وأشدّ وفاءً . وقدم محمد الوافد الجديد إلى صفوة الأوساط السياسية

والإعلامية والثقافية في البلد وأضاف جهده في هذا المجال إلى ما فعله الشيوعيون وأصدقاؤهم ، فطاب لمعين المقام .

كان محمد الجندي مديراً عاماً لمؤسسة الوحدة الحكومية ورئيساً لتحرير جريدة «الثورة» التي تصدر عنها . وكان هذا الإنسان متميزاً من عدّة وجوه ؛ فهو في حياته الخاصة راهب عصيّ على الفساد ، دون أن يكون متزمتاً ضد انغماس سواه في اللذائذ . وفي السياسة ، كان محمد شديد التشبث بقناعاته ، يدافع عن مواقفه اليسارية بضراوة ، ويهاجم الخصوم بضراوة أشدّ ، لكنه لا يقفل أُذنيه إزاء الرأي الآخر . وكان هذا البعثي بريئاً من البغض الذي يختزنه بعثيون كثيرون لحلفائهم الشيوعيين . ومن هذه الناحية بالذات ، كان الرجل من أكثر الموالين لكتلة القيادة استقامة في التعامل مع الشيوعيين وأي يساريين آخرين ، فهو لا يتردد في بسط اختلافاته معهم ، لكنه لا يفرط بأي فرصة لعقد الصلات بهم وتمتين التحالف . وإلى هذا ، كان محمد الجندي حريصاً على رعاية من يتوسم فيهم موهبة أو كفاءة ؛ فهو بريء ، أيضاً ، من العيب الذي يصم رؤساء المؤسسات الذين يسدّون فرص التقدم أمام من يفوقونهم في الموهبة أو الكفاءة . وقد تجلت مزايا محمد الجندي كلها في حالة معين . فوفّر البعثيّ للشيوعي عملاً محترماً في جريدة «الثورة» ، وأولاه مسؤولية تحرير الصفحة الثقافية ، وأفرد له زاوية يومية على صدر الصفحة الأولى ، ووقف إلى جانبه إزاء سخط الساخطين على ما يكتبه الشيوعي حادّ اللسان . وسمى معين زاويته هذه «من شوارع العالم» ، وكانت زاوية أخّاذة ، ذلك أنها كانت نابضة بالحياة والطروحات المثيرة للجدل .

وإلى عمله في «الثورة» ، مدّ معين نشاطاته على غير مجال ، فكتب التعليقات السياسية للإذاعة كما كتب المسلسلات ، وكتب أعمالاً مسرحية عديدة ، لعلها جلّ ما كتبه للمسرح طيلة حياته . وزهت روح معين الشعريّة ،

فكتب وهو في دمشق باقة من أجمل قصائده . وفرد الشغوف باجتذاب الاهتمام حضوره على ساحات النشاط السياسي والثقافي والاجتماعي في العاصمة السورية ، وصار في كل منها نجماً . وكنت تجده في أي مكان يحلّ فيه ، في الليل كما في النهار ، مشغولاً بشيء ما وشاغلاً سواه بشيء ، لا يهدأ ، ولا يبيح لأحد حوله أن يهدأ . كان قدوم معين إلى دمشق أشبه بقدوم عاصفة ، وكانت انطلاقاته فيها أشبه بانطلاق الصواريخ من الراجمة ذات الفوهات المتعددة . وشملت علاقات معين ناساً من مختلف المستويات ، من ناس القمم أو ناس القيعان ، فكان بين أصدقائه حراس بوابات وموظفو استقبال وخدم مطاعم ومقاصف وسواقو سيارات ، مثلما كان بينهم زعماء سلطة ومعارضة وصحافيون وكتاب وممثلون وموسيقيون وأدباء من أي نوع أو درجة .

كانت لمعين شخصية مركبة . وعلى كثرة ما عرفت من الناس ، لم أعرف شخصاً واحداً يشبه معين . وفي كل واحد من وجوه شخصيته ، كان معين يذهب إلى حد النهاية إن كان للنهايات حدود . فهو يجدّ في مقام الجدّ فيبزّ أكثر الناس صرامة ، ويأسى فيذكر بالخنساء ، ويتبذّل فتتذكر أبا نواس . إن أقدم معين فهو أجرأ المغامرين ، وإن تحسّب فهو أعقل العقلاء ؛ يهاجم غيفارا فيأخذ عليه روح المغامرة ثم يكتب مسرحية عن غيفارا فيمجد فيه هذه الروح بالذات ؛ يشنّع على التقدميين فيجعلهم مسخرة المجالس ويدافع عنهم إلى حدّ المجازفة بالتعرض لأي أذى ؛ يطلق لسانه في انتقاد البعثيين ، شعراً ونثراً وحكايات ، ويكتب مدافعاً عن سياستهم كما لا يكتب غيره ؛ يهاجم عبد الناصر ويحمله أشنع المسؤوليات ويدافع عنه ويشتبك مع خصومه ومنتقديه . يحبّ معين فيذل نفسه لمن يحب ويبغض من أحبّه ذاته فيذلّه ببغضه له ؛ يصدق فيجيء بالصدق خالصاً من أي شائبة ، ويكذب فيهوّل وتتوه وأنت

تتابعه ؛ يمعن في الولاء فيبلغ حدّ التولّه ، ويشتط في الخصام فيبلغ حد القطيعة ؛ وكثيراً ما يأتي المتناقضات إزاء الشخص ذاته أو الموقف ذاته .

غير أن هذا الإنسان ، مع نوسانه الدائب بين نهاية ونقيضها ، انتظمت سلوكه عدة ثوابت وبلغ في ثباته أيضاً حدّ النهاية . فإيمان معين بالشيوعية ظل تام الثبات وكذلك حبّه للاتحاد السوفياتي . وولاء معين لقضية فلسطين شكل السمة الأشدّ ثباتاً في شخصيته . أما كرم معين وسخاؤه الذي يبلغ حدّ الإسراف وحفاوته بالضيوف والأصدقاء ولهفته على تقديم العون لأي محتاج إليه ، فظلت ثوابت لا يبدلها تبدل الظروف ولا تقلب الأحوال بين اليسر والعوز .

تعرفت على معين فور وصوله إلى دمشق . بحث هو عن الشيوعيين منذ وصوله ، وكان مستقبلوه الأوائل بعثيين ، وكنت أنا على صلة بالطرفين ، فما أسرع ما التقينا ، وكان من المتعذر أن لا أنجذب إليه أنا الذي قرأ له وسمع الكثير عنه قبل أن يلقاه .

وقتها ، كنت لا أجد الراحة من عناء المشاغل الكثيرة إلا حين تضمني جلسة ألفنا أنا ونخبة من الأصدقاء أن نعقدها في منزل واحد منا كل مساء تقريباً . كنّا شلّة متجانسة ، شكل الدكتور نبيه ارشيدات وحنّا مينه وسعيد حورانية والدكتور منير الحمارنة وسعيد مراد وأنا نواتها الدائمة . وكانت لقاءات الشلّة تجتذب آخرين ، نختار نحن بعضهم وتجيء ببعضهم ظروف طارئة . ولم يلبث أن انضم معين إلى النواة وصار المنزل الذي يقيم فيه واحداً من المنازل التي نسهر فيها .

أحببت أنا معين «على عيبه» ، كما ألفت أن أقول ، وتأثرت بغنى شخصيته وتعدد وجوهها . وقد ينبغي أن أقرّ بأن افتتاني بشخصية معين وما فيها من متناقضات أسهم في تليين تزمتي في الحكم على سلوك الناس

وأعتقني من أسر الحرص على الاستقامة الحادة . وبالرغم من أني لم أفلح في طيّ هذا الحرص ، فإني صرت أقرب إلى تفهم نزوات الآخرين . ونبيه الذي كان أكثرنا تزمتاً كلما تعلق الأمر باستقامة السلوك كان أكثرنا تساهلاً إزاء نزوات الشاعر الشيوعي ومباذله . وكلما شكا أحد سلوكاً لمعين ، كان نبيه يبتسم ويقول : «بابا» ، هذه التي سكنت لسانه لكثرة ما تعامل مع سكان حيّه من الأكراد ، ثم يضيف : «أهم ما في معين أن يظل يكتب ، شعره جميل ، وكتاباته مؤثرة ، لماذا تريد منه أكثر من هذا !» . حنّا مينه ، الحفيّ مثلنا بمعين ، لم يمحض الوافد الجديد على الشلّة حبّاً بغير تحفظ . كان حنّا ما يزال ذلك المنحدر من وسط يعلي شأن النزاهة واستقامة السلوك وقيم الفرسان ، حتى مع أنه هو نفسه ليس متزمتاً . وكان نموذج حنّا في الرجال هو الطروسي ، ذلك الذي جعل منه حنّا في «الشراع والعاصفة» فارساً مطيّته مركب بحري . ولئن كان معين فارساً في واحد من وجوهه ، هو ذلك الذي يبرز خصوصاً في الشأن العام ، فقد كانت له في الشؤون الخاصة أوجه سلوك أخرى . وقد أحبّ حنّا الوجه الأوّل وضاق بغيره ، ليس لأن حنّا غير متسامح ، فهو في واقع الأمر عميق الفهم لأوجه الضعف البشري ، ولكن لأن معين في رؤية حنا له لا يبذل جهداً للتسامي على ضعفه مع أنه مطالب بأن يراعي مكانته بما هو ، عند حنّا ، قدوة : «على عيني الشعر والشعراء ، الشيوعية والشيوعيون ، فلسطين وقضيتها ، النضال والثبات في المعتقلات» ، يقول حنّا هذا مستعيداً ما يتميز معين به ، ثم يستدرك : «لكن أن تكون حريصاً على هذا كله ، أن يكون لك مجده ، يعني أن تظل بين الأخيار أخيرهم» . يردّ حنّا بهذا الاستدراك على تسامح نبيه ، ويستريح فينحلّ تزمته ، فيرفع كأسه ويشملنا بنظرة غدت لتوّها متسامحة ، ويهتف : «كأسكم يا أحبائي ، وكاس حبيبنا معين !» .

سعيد حورانية لم يبزّنا جميعاً في حبّ معين ، فحسب ، بل بزّنا أيضاً

في تقدير موهبته الشعرية . كان سعيد حورانية في سلوكه فارساً ندر أمثاله ، معطاء ، وصادقاً ، وصريحاً ، وجريئاً في صراحته ، بل جارحاً ، وكان في استقامته صارماً كحدّ السيف . إلا أن هذا القاص المبدع كان أكثر من عرفت من الأدباء فهماً لدوافع البشر ونوازعهم ونزواتهم ، فكان شديد القدرة على فهم نقاط ضعفهم . وحين يتعلق الأمر بالمبدعين ، كان اهتمام سعيد ينصبّ على ما يحرر الموهبة أو يقيّدها ويحكم على السلوك بهذا المعيار . لم يتسامح سعيد حورانية أبداً إزاء الانحرافات أو النذالات ، أما النزوات التي لا تصدر عن روح منحرفة أو نذلة فكان يلتقط دلالتها على التوق إلى حياة غنيّة ، والحياة الغنية ، عنده ، هي المنبع الذي يمدّ الموهوب بمادة إبداعه . وما كان أشدّ ضيق سعيد بالأدباء الذين لا يدخلون في التجربة أو الذين تنحصر اهتماماتهم في مجالات ضيّقة . وعند سعيد حورانية هذا ، كان معين شاعراً مجبولاً بالموهبة . وقد رأى سعيد في نزوات الشاعر ما ينمّ عن التوق إلى إطلاق الموهبة . أما ما أخذه سعيد على معين فكان قصور الشاعر عن تمثل التجربة الغنية التي يغرف منها وتعجله في الكتابة والنشر وقلة صبره في مراجعة ما يكتبه وتنقيحه قبل نشره . وقد ظل سعيد على اعتقاده بأن معين ينتج شعراً ومسرحاً شعرياً أقلّ جودة مما تتيحه له موهبته ، ودأب على أن يصارح صديقه برأيه هذا ويحثه على المماهاة بين الموهبة وإبداعاتها . وبتأثير سعيد ومثابرته على انتقاد تعجل معين ، أو «لهوجته» ، كتب معين في دمشق بعضاً من أجمل قصائده .

سعيد مراد كان له مع معين شأن آخر ، أحبّه كما أحببناه ، وعُني بشعره دون أن يشارك سعيد حورانية افتتانه الزائد بموهبة معين الشعرية أو ضيقه بالفارق بين مستوى الموهبة ومستوى تجلياتها . رأى سعيد مراد أن هذا هو معين لا أكثر ولا أقل ، في موهبته كما في إنتاجه كليهما . وحياة الشاعر ، سلوكه

المتوثب ، تنقلاته بين نهاية ونقيضها ، الحكايات التي يعيشها والحكايات التي يرويها ، هي التي فتنت سعيد مراد ، ما يرضي الآخرين منها وما يسخطهم . وقد ألف سعيد مراد أن يردد كلما ذكر معين : «أجمل قصائد هذا الشاعر وأعظمها هي حياته هذه التي يعيشها» . وسعيد مراد ، هذا الذي تختزن ذاكرته كنوزاً من وقائع الحياة الثقافية العربية وشؤون روادها ، هو الذي استحضر زجلاً قديماً قاله صلاح جاهين في أوائل الخمسينات . في هذا الزجل ، وجه الفنان المصري تحية للشاعر الفلسطيني بمناسبة صدور ديوانه الأول . وكان سعيد مراد يردد مطلع هذا الزجل كلما تجلى الشاعر في مجلس وأشرقت روحه : «معين يا صوت الضحايا ، إرعد بصوتك معايا!» .

منير الحمارنة كان له شأن آخر معنا جميعاً وليس مع معين وحده . كان منير كثير المشاغل ، يفترس العمل في المؤسسة الاستهلاكية التي هو أحد مدرائها نصف وقته ، ويفترس العمل في الحزب الشيوعي الأردني أو للحزب الذي هو واحد من أنشط ناشطيه النصف الآخر ، وتنهكه واجبات الضيافة والعلاقات الاجتماعية التي يتولاها هو الحريص على أدائها على أتم وجه . فلم يكن منير ، إذاً ، من المواظبين باستمرار على جلساتنا ، بل كان ينضم إلينا حين تسعفه الظروف ، فقط ، وغالباً ما كان يجيء متأخراً . وبالرغم من أن شخصية منير لا تفتقر إلى المزاجيّة ، فقد كان أقلنا انشغالاً بهموم الأدب وأقلّ من هذا انشغالاً بهموم الأدباء أنفسهم ، واعتاد أن يتابع مساراتنا حين تتناول الأدب والأدباء بوصفها من المشاغل التي لا تعنيه إلا بمقدار ما تتصل بدور أصحابها في الحياة العامة . لكن منير كان يتدخل بتعليقات حاذقة ومبتكرة فيؤكد انتباهه التام إلى مدارات الأحاديث وينم عن فهم للأدب يشي بأكثر مما يظهر . وأما حين تنعطف مساراتنا ناحية السياسة والاقتصاد والهموم الاجتماعية فلا بد من أن ينتهي مجراها إلى سيطرة منير عليه ؛ كان هذا هو

مجال علمه وخبرته وميدان اختصاصه ، وكنّا نصغي إليه ونتعلم .

لم يقصر منير في إيلاء معين ما هو لازم من مجاملات ولا في إظهار الاهتمام به . لكن منير لم يكن يجامل الشاعر حين يمعن هذا في تهويلاته تماماً كما أن معين لم يكن يرتاح حين يمعن منير في أحاديثه المتخصصة . والواقع أن معين كان حذراً على الدوام من نظرة منير التي تتابعه وتخترقه وهو يروي حكاياته . وإذا استشعر معين برم منير بحكاية معينة ، كان يقطع الرواية ويرسل نحو المتبرم نظرة مجانبة ويسأل بلهجته الغزاوية ونبرتها المتميزة : «إيش يا دكتور !» ، يجعل تاء الدكتور طاء ، ويضيف : «مش راكبة على الماركسية اللينينية ؟» ، ولا ينتظر الإجابة . وكان منير يصمت ، فيظهر صمته أكثر مما كان سيظهره أي كلام أَنها فعلاً «مش راكبة» ، فيضطرب معين لأنه يدرك أن السلوك الذي نمت عنه الحكاية لا «يركب» لا على الماركسية اللينينية ولا على غيرها . أما إزاء التهويلات التي لا تخلو منها حكاية يحكيها معين والتي لا يكفي حتى الصمت البليغ للتعبير عن استنكارها ، فكان منير يفصح عن رأيه بطريقة لا يتقنها غيره ؛ يقاطع الرواية ، ويرفع كأسه فجأة ويدق به كأس معين دقة مجلجلة وهو يهتف : «أبو توفيق» ، وهذه هي كنية معين ، «اشرب كأس الصدق !» .

ذكرت لك هذا عن معين وسأذكر غيره لأزيدك معرفة به هو الذي يستحق أن يعرف ، ولأظهرك على شخصية إن كان لها فرادتها فإنها تكاد تكون ، أيضاً ، أنموذجاً يُستهدى به لمعرفة الساحة الفلسطينية التي امتزج فيها الأبيض والأسود كما لا يمتزجان في أي ساحة أخرى .

وها أنا ذا أستحضر واحدة من حكايات عديدة بطلها معين بدأت حين كان العمل الفدائي وعداً بارقاً بثّته رعود حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ . ففي ذات صباح ، في يوم دمشقي شتائي عاصف وماطر ، اتصلت صهباء البربري

بالدكتور نبيه ارشيدات. وصهباء، لمن لا يعرفها، هي واحدة من رائدات الكفاح الوطني الفلسطيني التقدمي، وهي أول معتقلة سياسية من قطاع غزّة تطبق عليها السجون المصرية، وهي زوجة معين، رفيقة عمره وراعية شؤونه المضطربة ومقيلة عثراته الكثيرة وحاميته من المصائب التي تسببها نزواته ذاتها. «الحق يا دكتور!»، قالت صهباء لنبيه، «معين ما جاش الليلة ع الدار». واتصل نبيه بي. ولم يكن أي منّا بحاجة إلى التقصّي لنعرف أين قضى معين ليلته. كما لم يكن لأي منّا أن يبلغ إلى زوجة صاحبه أن زوجها قضى الليلة في منزل امرأة أخرى.

في ذلك العام، أقمنا حفلة احتفاءً منّا بالذكرى الخمسينية لثورة أوكتوبر الاشتراكية العظمى، وهذا هو الاسم الرسمي للثورة التي سميت أيضاً الثورة البلشفية والثورة الروسية. نظمت الحفلة لجنةٌ كنت أنا عضواً فيها وكان فيها نخبة من الأدباء والرسامين والموسيقيين والممثلين والعلماء والسياسيين ومن في حكمهم. وقد توخينا أن يكون هذا احتفالاً يليق بالذكرى الجليلة ويحررنا من المزاج المأساوي الذي بثته هزيمة حزيران/ يونيو ويوفر فرصة للمتعة الراقية. كما توخينا أن يُظهر الاحتفال قوة اليسار وسعة امتداده في الوسط الثقافي وعمق التقدير العربي لدولة ثورة أوكتوبر. وهيأ الشيوعي الدمشقي ذو الاهتمام العميق بالشأن الثقافي، صديقنا الكاتب عبدالله عويشق، منزل أسرته الفسيح ذا الطراز العربي الجميل ليتمّ الاحتفال فيه. وضمّ المنزل ما يزيد على مائة وخمسين محتفلاً ومحتفلة مفتونين بالذكرى. وكانت هذه أمسية من نوع خاص لم أشهد قبلها ما هو أفتن منها. غابت الخطب والتحايا التقليدية، وحلّت الموسيقى، ونشط الرقص، تقليديُّه وحديثه، وتمتعنا بجو رومانسي قلما تيسر لنا مثله في مناسبة أخرى.

معين استهوته فكرة الإحتفال منذ البداية، فهو يحبُّ الاتحاد السوفياتي،

وثورة أوكتوبر عنده هي ثورة ثورات البشرية كلّها . وأنعش جوّ الاحتفال روح الشاعر فأطلق لمخزوناته كلها العنان ، وتألق حتى لقد كان نجم السهرة على كثرة منازعيه على النجومية فيها . وفي هذا الجوّ ، راقص معين سيّدة ألمانية تتكلم الإنجليزية التي يتكلمها هو أيضاً . وقعت السيدة بين يدي الشاعر وهو في ذروة انتشائه ، فلم يفطن الذي أدار جمال المرأة رأسه إلى ما ينبغي الانتباه إليه وهو أن مراقصته هي زوجة عالم سوري صديق لنا جميعاً . وما دامت الجميلة من بلد إشتراكي ، هو ألمانيا الديمقراطية ، فقد أباح معين لنفسه أن يتودد إليها للتو ، أليس هو أشهر محبّي البلدان الاشتراكية بين الفلسطينيين . وكما يقع في العادة ، في هذا المقام أو غيره ، وما دام معين قد شرع في شيء فلماذا لا يمضي إلى النهاية .

وهكذا ، عرض الشاعر إعجابه على المرأة التي التقاها لتوّه ، واشتط في التباهي ليظفر بإعجابها ويستأثر باهتمامها . فسمعت الألمانية المفتونة بمراقصة الشاعر الشهير ذي القامة الرشيقة والوجه المسكون بشتى التعابير أن مراقصها هو أعظم شعراء العرب ، وأفرسهم ، وأغناهم ، وأن المكتبات المنتشرة من المحيط إلى الخليج لا تكفّ عن مطالبة الناشرين بالمزيد من نسخ دواوينه ، وأن الأموال تنصبُّ على حساباته في البنوك العديدة بمختلف العملات ، الصعبة منها وغير الصعبة . وفهمت المرأة التي أدرك معين شدّة ميلها إلى المغامرة أن الشاعر الذي وفر لها فرصة العمر بمراقصته دائم الترحال مجبول بالتوق إلى التغيير والتجديد . وسال الافتتان من عيني الألمانية وهي تصغي إلى حديث المناضل البطل عن سجون أُعتقل فيها وعذابات تعرض لها وعن صموده وثباته على مبادئه . وقال معين للألمانية إنه دأب ، منذ تحرره من أسر السجون بعد عجز جلاديه عن ليّ إرادته ، على قضاء شتائه في بلد وصيفه في بلد آخر . وعدد معين أسماء أكثر البلدان ملاءمة للانطلاق والمغامرة . بكلمات

أقلّ ، تعلق معين بالمرأة ووضع نصب عينيه أن يحظى بإعجابها . ومنذ هذه الأمسية ، تفنن المولج في مغامرة جديدة في تصيّد الأسباب التي تبيح له الالتقاء بفاتنته ، واستفاد من صلته بزوج المرأة فصار يزورهما في منزل الزوجية ويطيل المكوث عندهما .

قد ينبغي أن تعرف أن زوج هذه المرأة كان رجلاً متين الشخصية ، فضلاً عن أنه يشغل وظيفة مرموقة في مؤسسة ثقافية محترمة ، وظيفة استحقها عن جدارة بحكم مؤهلاته وكفاءته على الرغم من صغر سنّه . سأسمي هذا الرجل نزيهاً وأضيف أنه يستحق هذه التسمية . وقد ألف نزيه أن يستقبل معين بترحاب . يجيء المفتون بالزوجة إلى المنزل فيظفر بما يظفر به الزائر المرموق ، ثم لا ينصرف إلا حين لا يبقى بدٌّ من الانصراف . وفي الليلة التي غاب معين فيها عن منزله ، كان قد مدد مكوثه في منزل الزوجين إلى ما بعد انتصاف الليل . ولما كانت تلك ليلة عاصفة ، فقد خشي نزيه على الزائر من مخاطر الرجعة فعرض عليه أن يبيت حيث هو . وما كان أحبَّ هذا العرض إلى قلب الشاعر المولّه وما أسرع ما استجاب له !

كانت الألمانية نائمة عندما بلغنا ، نبيه وأنا ، المنزل . أما معين فكان قد استيقظ لتوّه وجلس مع نزيه الذي أرجأ التوجه إلى عمله . وحملنا معين حملاً على أن يصلح حاله ، ونبهناه إلى قلق زوجته عليه ، وأوصيناه بأن لا يظهر ما يؤذي شعورها ، وكان هو على أي حال حريصاً على هذا . واتفقنا مع معين على أن يتوجه إلى منزله منفرداً ثم نجيء نحن لنصلح ما أفسده غيابه ونعالج أي مشكلة قد تطرأ بسببه . وعندما ولجنا منزل معين ، وجدنا المهموم بذنبه جالساً في ركن معتم وقد جلله صمت متهيب وغامض وألجم حركته ولسانه . لم يهتد هو إلى رواية تقنع الزوجة الأريبة فتستتر بالصمت والغموض . ولم تلحّ صهباء في الأسئلة فسكن الصمت أرجاء المنزل كلّه .

والتقط نبيه بذهنه الحاضر دوماً لإقالة عثرات أصحابه دلالة المشهد فتطوع بإنقاذ الموقف : «هل حكى لك ؟» . هدر نبيه بهذا السؤال بنبرة توحي بأن وراءه نبأً خطيراً . وثار فضول صهباء وتوقها إلى الاطمئنان فانفتحت عيناها على آخرهما وجاءت منها «إيش ؟» غزاوية خالصة ، ممطوطة ومتوجسة . وأدرك نبيه أنه استحوذ على مفتاح حل المشكلة فلم يتعجل الإجابة ، بل أمعن في بثّ الهواجس : «لو تأخرت دقيقة واحدة عن الاتصال بي ، ولو لم يستخدم فيصل علاقاته مع قادة الفدائيين لوقعت مصيبة» . عندها ، لم يعد لصبر صهباء المديد أن يظل مسعفاً : «ارحمني يا دكتور ، إيش الحكاية ؟» . فألقى نبيه جسده على الصوفا وقال بنبرة من نجا لتوّه من مصيبة : «نشّف معين ريقي ، هاتي لي كاس ماء ، وستعرفين الحكاية !» . وبعد الماء ، طلب نبيه فنجان قهوة . وفي هذه الأثناء تخلقت الرواية الملائمة .

روى نبيه لصهباء المندهشة أن معين قضى ليلته هائماً في شوارع المدينة لأن هاجساً خطيراً سيطر عليه منذ تصور أن دوره في الحياة الوطنية شاعراً ليس كافياً فعزم على التوجه إلى الأرض المحتلة والانضمام إلى ثوّارها الذين يقاومون الاحتلال في جبال الخليل . وقال نبيه إن معين أيقظ صديقه ياسر عرفات من نومه وأقنعه بأن يتدبر أمر إيصاله إلى معاقل الثوار ، وأننا ، هو وأنا ، أدركناه وهو ينتظر استكمال مستلزمات الرحلة ، ولولا تدخلي ، أنا فيصل ، وقوة حجتي ودالّتي على ياسر عرفات لكان معين الآن في السيارة التي هيئت لنقله . وعقبت صهباء التي تصورنا أنها صدقت الرواية : «معين فيه الخير ، بس إيش لزومها حكاية الخليل . معين شاعر وقائد سياسي ، وهذا ليس قليلاً أبداً» .

أدخلتنا هذه الإجابة في جدل مع صهباء المسلحة بحكمتها الثاقبة فيما معين صامت . وقال نبيه ما هو صحيح تماماً : «يعتقد أبو توفيق الحبيب أن

الفدائيين يبذلون دمهم وهو لا يبذل غير الحبر» . وشاء منجد صاحبه أن يضيف جديداً يقتبسه مما كان معين يردده في ذلك الوقت حول هذه النقطة . غير أن اندفاعة مفاجئة من معين الذي أنقذته حكاية جبال الخليل من حرجه أوقفت نبيه : «فهمها يا دكتور ، فهمها ! كيف يضحي الثوار بحياتهم ويظل معين بسيسو شاعر المقاومة قاعداً يلوك الكلام . لم يبق للفلسطينين غير الجبال» . واستغرقتنا المفاضلة بين الكلمة والسلاح فغابت حكاية مبيت معين خارج منزله . وبالرغم من الحجج التي عرضناها مما أوجبته طبيعة الموقف ، تشبث معين بالقول إن دوره شاعراً غير كافٍ وحده ، وإن الرغبة في الالتحاق بمعاقل الثوار مستولية عليه .

وعلى أي حال ، لم تتلاش هذه الرغبة التي أوقدتها الحاجة إلى التستر على مسلك محرج قبل أن ينجم منها شيء مفيد . والحقيقة أن نبيه لم يبتكر حكاية جبال الخليل من فراغ إذ أنه استحضرها لأن خلايا فدائية كانت تتحصن آنذاك في هذه الجبال وتقوم بعمليات جريئة صارت حديث الناس في كل مكان . ومنذ ذلك اليوم ، زاد حضور معاقل الخليل وفدائييها في اهتمامات معين . وراح الشاعر يتابع أنباء العمليات بانتباه زائد وفتنة في نحو خاص بطولات الفدائي الشهير باجس أبو عطوان . والرواية الوحيدة التي كتبها معين طيلة حياته كانت عن جبال الخليل وكان باجس هذا هو بطلها .

قد يشوقك أن تعرف بقية حكاية معين مع الألمانية ، فلتعرف إذاً ، ما اكتشفناه نحن بعد أن دخل شأن هذه المرأة دائرة اهتماماتنا . فقد اتضح أن الألمانية امرأة عابثة ، وأن علاقتها بنزيه كانت قد اهتزت قبل أن يلقاها معين ، وأن نزيه شرع فعلاً في تدبر أمر طلاقهما دون ضجيج . وعندما لاحظ نزيه قوة تعلق الشاعر الفلسطيني بالعابثة ، خشي على الشاعر من أن يؤذيه هوسه ، وجاء إلى نبيه حاثاً إياه على التدخل لحماية صاحبه . قال نزيه إنه ماض في

إجراءات الطلاق بالتعاون مع صديقنا المشترك القنصل العام لجمهورية ألمانيا الديمقراطية ألفرد مارتر ، وقد اتفق هو والقنصل على أن يجري تسفير المرأة فور إتمام الطلاق . وقال نزيه إنه يربأ بالشاعر الكبير أن يقع في حبائل امرأة تبحث عن سبب يحول دون تسفيرها . ومن نزيه ، عرف نبيه أن معين وعد المرأة باستخدام نفوذه ليبقيها في دمشق حتى لو اقتضى الأمر أن يتزوجها .

كان هذا بعداً جديداً للحكاية ، جديداً وخطيراً ، أُخذ به نبيه وأُخذت أنا به أيضاً . لم يعد الأمر أمر حكاية طريفة نتسلى بمتابعتها كما ألفنا أن نتسلى بنزوات صديقنا . وصار لا بدّ من فعل أي شيء لطيِ الحكاية . وهكذا ، عقدنا مشاورات وأجرينا اتصالات من وراء ظهر معين ، وتعاون معنا الفرد مارتر . وفي المحصلة ، تم الطلاق وسُفِّرت المطلقة إلى ألمانيا الديموقراطية .

عندها ، تذكر معين دعوة كانت قد وجهت إليه من اتحاد الكتاب الألمان الديمقراطيين لزيارة برلين ، فتوجه إلى القنصلية بأمل أن يحصل على تأشيرة زيارة . لكن ألفرد مارتر العارف بالحكاية كلّها تذرع بالحاجة إلى الاتصال باتحاد الكتاب ما دامت الدعوة قديمة ، ثم أبلغ إلى معين أن الاتحاد مستعد لاستقباله بعد ستة شهور وليس قبل ذلك . وأغاظ هذا الإرجاء معين حتى كاد ينفجر من الغيظ . وحين تواطأنا مع ألفرد على الإرجاء ، قدرنا أن ستة شهور مدة كافية لكي ينسى معين خلالها ستّ نزوات وليس نزوة واحدة . ولم يطق المحموم بنزوته الانتظار ، فغافل يقظتنا وسافر فجأة إلى بلغاريا . ولما لم نكن بغير حيلة ما دام ألفرد مارتر إلى جانبنا ، فقد سمع معين من القنصل الألماني الديمقراطي في صوفيا ما سمعه من نظيره في دمشق : «بعد ستة شهور» .

يوم عودته إلى دمشق ، اتصل معين بي من المطار : «هل ما يزال في صفحتك مكان لمقال كتبته وأنا في الطائرة ؟» . حملت النبرة لهيب غضب فأثارت هواجسي . وجاء معين بغضبه إلى مكتبي من المطار مباشرة ومعه

مقال تصدره هذا العنوان : «الكلب الأبيض أخو الكلب الأسود» . ساوى معين بين المسؤولين الألمان الديمقراطيين والألمان الاتحاديين جاعلاً الاشتراكيين في المرتبة ذاتها من السوء التي يضع فيها ، هو الشيوعي ، الرأسماليين . واحتوى المقال على غمز شديد القسوة بالقوميساريين السياسيين الذين لا يقيمون وزناً لمشاعر بني البشر .

لم ينشر المقال . كان كافياً أن أذكّر معين بشيوعيته وما يمكن لأعداء الشيوعية أن يكسبوه من مقاله . فطوى الساخط أوراقه ، ورماني بنظرة يمتزج فيها الغيظ والإذعان لمتطلبات المصلحة الشيوعية ، ونتر حقيبته نتراً وانصرف . ولم يحتج الأمر لانقضاء ستة شهور ، فقد نسي معين الحكاية كلها للتو ، ولم يجئ على ذكرها بعد ذلك أبداً .

في نهاية أي مطاف ، لم يحترم معين امرأة في الدنيا بمقدار ما احترم صهباء ولم يحبّ امرأة بأعمق أو أدوم مما أحبّ رفيقة عمره . كان المدفوع بنزواته يشرّق ويغرّب لكنه يظل مشدوداً إلى شريكة كفاحه .

ولم يثبت معين على شيء مثلما ثبت على إيمانه بالشيوعية ولم يحب بعد فلسطين بلداً بمقدار ما أحبّ الاتحاد السوفياتي . وقد وقع أن مال معين في الشيوعية إلى ناحية أو أخرى ، وربما ساءه هذا أو ذاك من مواقف شيوعي ما أو غيره ، إلا أن إحساسه بالانتماء إلى الشيوعية ، هكذا بالإجمال ، ظل هو الأدوم وهو الذي رسم أكثر ما في سلوكه أصالة . أما فلسطين وقضيتها فظلتا بالنسبة لمعين في مركز اهتماماته كلها ، بهما يبدأ عنده أي شيء وبهما ينتهي .

حضور معين العاصف في دمشق انتهى كما تنتهي أي عاصفة : فجأة ، وانطفأ عندما بلغ ذروته . فبعد مسؤوليته عن الصفحة الثقافية والشهرة التي تحققت لزاويته اليومية ، أوكل محمد الجندي إلى معين مسؤولية رئاسة تحرير

«الثورة» . وهذا منصب لم يتول مثله في ظل حكم البعث إلا بعثي ، ولا بد من أن محمد الجندي أغاظ كثيرين حين أولاه إلى شيوعي ، غير أن فترة تولي معين رئاسة التحرير لم تمتد إلى أكثر من أسبوع واحد أُقصي في نهايته عن الصحافة السورية كلّها .

في هذا الأسبوع ، أتى معين ما لا يحتمله أي قائد بعثي . وسأوجز لك هنا واقعتين : أول ما فعله معين يوم توليه المسؤولية وآخر ما فعله قبل إقصائه .

ففي يوم تسميته رئيساً للتحرير لبى معين دعوة إلى الغداء وجهها له العقيد عبد الكريم الجندي . وقد باح العقيد الذي يحبّ معين ويرتاح إليه ببعض هواجسه وكاشفه بما جمعته أجهزة الأمن السورية من معلومات عن نشاطات المعارضين السوريين لنظام البعث وما يفعلونه في سعيهم لإسقاط هذا النظام . وفي اليوم التالي ، ظهر أول عدد يشرف عليه معين من أعداد جريدة «الثورة» وقد تصدر صفحته الأولى على عرضها كله باللون الأحمر عنوان من كلمة واحدة : المؤامرة ، وامتدت تحته عناوين تكشف مساعي «السوريين البيض» الذين يتآمرون لإسقاط النظام . وحملت الجريدة إلى القراء ما بقي في ذاكرة معين من حديث عبد الكريم الجندي . ولأن الناس ، كما وصفتهم أنا في تعقيبي الساخر على الضجة التي أحدثها العدد في البلاد ، كانوا شديدي التوق إلى مؤامرة تسقط العهد القائم ، فقد نفد عدد الثورة من السوق خلال ساعة واحدة وصار يباع في السوق السوداء بسعر فاق سعره الرسمي بمائة ضعف .

لم يحم معين من مغبّة هذا الذي فعله إلا صدق عبد الكريم الجندي ؛ فقد أقرّ المسؤول نافذ الكلمة هذا بأنه حكى لمعين ما حكاه ثم نسي أن يلفت نظره إلى أنه ليس للنشر .

وقبل أن ينقضي آخر أيام الأسبوع ، جاء إلى معين صديقه الملحق

الثقافي في قنصلية ألمانيا الديمقراطية وأبلغ إليه أن رئيس الجماعة النازية الجديدة في ألمانيا الفدرالية موجود في بغداد حيث دعي إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات فيها . وزود الملحق الثقافي صديقه معين برزمة من الوثائق التي تبين كم هي مجرمة هذه الجماعة وحرضه على أن يكتب شيئاً ضد رئيسها المتستر بتأييده للعرب والذي يحمل لقب بروفسور .

هنا ، قد ينبغي لك أن تعرف أن بعض العرب كان مفتوناً حقاً بالنازيين الجدد . ومع انحياز الغرب انحيازاً كاسحاً لإسرائيل وعدائه المقيت للعرب ، بالغ الذين لا يدققون في طبائع القوى السياسية في الافتتان بهوس حفنات النازيين الجدد وما يتوسمونه من معارضتهم لسياسة إسرائيل . وفي هذا السياق ، تلقى زعيم الجماعة الألمانية دعوة لزيارة العراق . وقال الملحق الثقافي الديمقراطي لمعين إن الرجل قادم إلى سورية وحثّه على الكتابة ضده .

لم يكن معين بحاجة إلى من يحثه على الكتابة ضد أي نازيين ، فتجند للمهمة بعزيمة ، وكتب مقالاً ضد البروفسور النازي ، وختم المقال بالتعبير عن أمله بأن تمتد يدٌ تلقي القبض عليه وهو يعبر حدود سورية وتعيده إلى بلده . ووصف معين الولع بالنازيين الجدد بأشنع الأوصاف وشتم المولعين بهم .

ومع الضجة التي أثارها مقال معين ، معها فقط ، عرفنا ما كتمه عنه صديقه الملحق الثقافي . فالبروفسور النازي لم يكن قادماً إلى سورية من تلقاء نفسه ، بل تلبية لدعوة رسمية . والذي وجه الدعوة إلى البروفسور كان هو الدكتور إبراهيم ماخوس ، رجل قيادة حزب البعث النافذ نائب رئيس الحكومة وزير الخارجية ، وليس أحداً غيره ، وماخوس هو الذي وضع الأمر أمام القيادة في هذا النحو : «الثورة» جريدة حكومية فمن الذي يحدد خطوات الحكومة في السياسة الخارجية ، صحافي ليس حتى عضواً في الحزب الحاكم أو مواطناً من مواطني البلد أم وزير الخارجية .

وهكذا ، وجد معين نفسه خارج الصحافة السورية ، عاطلاً عن العمل ومفلساً فضلاً عن أنه كان مثقلاً بالديون . ولو لم يكن لمعين معجبون به بين قادة البعث ولو لم يكن صديقه ورئيسه في العمل محمد الجندي شجاعاً ووفياً لربما لحق به أذى أشد .

البطالة ، والخسارة المفاجأة للمنصب الرفيع وامتيازاته المادية والمعنوية ، وشماتة الشامتين الكثيرين جعلت المتوتر المزمن كتلة هياج فصار علينا نحن أصدقاءه أن نجند أنفسنا لتهدئته والتسرية عنه . وقد أججت هياج معين إشاعةٌ قال مروجوها إن الشاعر المقهور توجه إلى الكويت والتجأ إلى أحضان أُمراء النفط . ولكم تأذى معين من هذه الفرية الظالمة ! .

وها أنا ذا أتذكر واقعة بطلها معين المهتاج . فقد كنّا نسهر في حديقة مطعم صيفي في وسط البلد اسمه كازينو الصفا ، فقدم إلى مائدتنا بعثيّ فلسطيني هو المهندس عاصم خليفة . وكان عاصم المحبّ لمعين قادماً لتوّه من مكان سمع فيه الإشاعة واستاء ففوجئ بوجود معين في الحديقة ، الوجود الذي يدحض الإشاعة ، فشاء أن يعبر عن تقديره لمعين غير عارف بالطبع بمزاجه . وقد أخطأ عاصم الوسيلة ، فبدأ وهو واقف إزاء معين في هذا النحو : «قيل لي إنك رميت نفسك في أحضان أمراء النفط . . .» وأراد أن يكمل . غير أن معين الذي لم ينتبه إلى أن محدّثه إنما كان يسخر من مروجي هذا القول انفجر في وجه عاصم وقاطعه وقال على مسمع من الحشد الذي يكتظ به المكان الفسيح : «اسمع يا كلب المخابرات ، أنا معين بسيسو ، كرابيج عبد الناصر ذاتها لم تذلني فأنا لا أخشى كلاب السلطة البعثية» . وتلبست الحالة معين فأمعن في شتم السلطة بأشنع عبارات وأجهر صوت ولم يأبه بمحاولات عاصم إيضاح موقفه الحقيقي . وفيما معين ممعن في الشتم ، أخذ المحتشدون في المكان يبرحونه واحداً إثر واحد وجماعة إثر جماعة حتى خلا إلا منا

نحن المرغمين على البقاء إلى جانب صديقنا . وبالرغم من خلوّ المكان وانصراف عاصم ذاته يائساً وساخطاً ، لم يتوقف معين إلا بعد أن أفرغ مخزونه كلّه ، وعندها عاد إلى نفسه ، سألني ، أنا المعدود عنده خبيراً بسلوك الحكام البعثيين : «هل تظن أنهم سيحبسونني؟» .

لم يحبس معين ، إلا أن بقاءه في دمشق صار متعذراً بعد أن انسدت فرص العمل . والمدهش أن معين ذهب بعد هذه الواقعة إلى الكويت فعلاً ، لم يذهب إلى حضن أي أمير وما كان لأمير نفط أن يحتضن شاعراً شيوعياً لا يخون الشيوعية ، بل ذهب إلى شقيقه عابدين الذي يعمل هناك والذي اعتاد أن يقيل عثرات أخيه الشاعر كلما تعثر . ومن الكويت إلى موسكو ، في واحدة من الزيارات المتواترة لعاصمة بلد الاشتراكية الأول ، وهناك ، التقى معين صديقاً قديماً له هو مراد غالب سفير مصر لدى الاتحاد السوفياتي . ومراد الذي كان يحتفظ بعلاقة طيبة مع رئيس تحرير «الأهرام» محمد حسنين هيكل هو الذي توسط لمعين وأمن له عملاً في الجريدة العربية الكبيرة ، فانتقل معين إلى الإقامة في القاهرة ثم لحقت صهباء والأولاد به وبدأت الأسرة مرحلة جديدة أخرى من مراحل تطوحها على دروب المنفى .

لم أتعفف عن انتقاد سلوك أو غيره لمعين ولم يخل الأمر في أي وقت من سلوك أنتقده . وكثيراً ما عارضت رأياً أو غيره من آراء صديقي هذا ، بل جاء وقت كدنا فيه نتخاصم . إلا أني تمتعت برفقة معين ، وظللت أتمتع بلقاءاتي معه بعد أن بارح دمشق . وإلى المتعة ، تعلمت من معين أشياء كثيرة . كان الشاعر الذي يكبرني باثنتي عشرة سنة أغنى مني تجربة وأشدّ حرارة في التعاطي مع الحياة ، وكان من الطبيعي أن أتأثر به . ولك أن تعرف أني تعلمت مما اعترضت عليه في سلوك معين بمقدار ما تعلمت من إيجابياته ، وربما أكثر .

ومعين هو الذي وصلني بناس الحركة الوطنية في قطاع غزّة بأكثر مما فعل

أي غزاوي آخر حتى ذلك الوقت . وعبر معين ، عرفت واحداً من شيوخ الحركة الوطنية التقدمية وهو حمدي الحسيني عندما جاء إلى دمشق زائراً كما عرفت كثيرين من أفتى شبانها .

تابعت ما يجري في الأرض المحتلة عبر وسائل الإعلام وروايات الوافدين منها ، وكان لمعين الفضل في تعريفي بأوائل الوافدين . وعرفت ما لا بدّ من أنك صرت تعرفه ، وهو أن المقاومة المبكرة نهضت أول ما نهضت في قطاع غزة . سبق القطاع الضفة ، خصوصاً في المقاومة المسلحة . أخذت المنظمات السياسية المبادرة . وكانت في القطاع عندما داهمه الإسرائيليون وحدات من جيش التحرير الفلسطيني فقاومت الغزو الإسرائيلي كما قاومته الوحدات المصرية . وعندما حلت الهزيمة وانسحب المصريون ، انفرط عقد وحدات جيش التحرير لكن نثارها بقي وتمثل في مجموعات مسلحة شكلت النواة التي رفعت السلاح في وجه المحتلّين . وبمبادرة من شيوعيي القطاع ، تشكلت فيه الجبهة الوطنية المتحدة ، فرعت هذه كما رعى غيرها نشاطات المقاومة ، السري منها والعلني .

ولأن جيش إسرائيل المنتصر كان في أوج قدرته على الفتك ، ولأن سلطات الاحتلال عزمت على اجتثاث المقاومة أياً كانت الوسيلة ، فقد اتقد صراع ضارٍ استقتل فيه الطرفان : المقاومون ووسائلهم القليلة وخبرتهم الغضّة ؛ وجيش الاحتلال وآلة فتكه الرهيبة . هذه المقاومة المبكرة للاحتلال هي التي حملت للمهزومين الوعد بأن المنتصرين لن يتمتعوا أبداً بالراحة أو الاستقرار . وفي تعجلها تصفية المقاومة قبل أن تتصلب نواها المسلحة وتتحد ، لجأت إسرائيل ، مع وسائلها الأخرى ، إلى الإجراء الذي لم تكف عن اتباعه ، فراحت تبعد أي نشيط تتصور أنه من قادة المقاومة إن لم تعتقله أو يبتعد هو بنفسه حين تضيق عليه حلقة المطاردة . وبين أوائل الذين لوحقوا فخرجوا من

غزة اثنان من قادة حزبها الشيوعي ، حزب معين ، هما عطية المقداد «أبو طلعت» وعبد الرحمن عوض اللّه «أبو حيدر» .

جاء المبعدان دمشق ليلقيا زميلهما في قيادة الحزب . وقتها لم تكن موارد معين التي يتفنن في تبديدها قد هيأت له أن يستأجر منزلاً مستقلاً فكان يقيم ومعه أفراد أسرته في منزل عديل له ، فاستضفت أنا زميليه في منزلي وسعدت بذلك . وبهذا ، بدأت صلاتي الشخصية بنشيطي العمل الوطني في قطاع غزة .

كان عطية المقداد معلم مدرسة . وهو رجل حاد الطبع متشدد في أحكامه على الآخرين مثلما هو متشدد في أوجه سلوكه وتفكيره كلها ؛ يجادل فيبدو كمن يقاتل ، وينتقد فيبدو كمن يرجم حجارة . وكانت معايير عطيه ضيقة فضلاً عن أنها صارمة ؛ وهو من الصنف الذي يمكن وصفه بأنه الذي لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب أو أي شهر آخر . وبالرغم من هذه السمات ، اجتذبتني في الرجل مزايا ألفت أن أقدّرها حتى وأنا أضيق بسلوك أصحابها . فهو ، مع صرامته وتجهمه الدائمين ، مباشر العبارة ، صريح لا يلتوي في القول ، وهو عفيف النفس صارم في المطابقة بين سلوكه ومعتقده ، لا يمالئ ولا يراوغ . حتى مع معين ، وهو من فتح لزميليه في دمشق أبواب العلاقات التي حظيا بها ، كان أبو طلعت صارماً وكان يرى في الشاعر المتفلت من الضوابط شخصاً لا يصلح للعمل الحزبي . وكان تركيز معين على ذاته ومزجه الشخصي بالعام موضع انتقاد عطية الدائم . والواقع أن معين كان يهاب هذا الرجل ولا يحبّه .

عبد الرحمن عوض اللّه كان هو الآخر معلم مدرسة . لم يكن أبو حيدر أقل تشدداً من زميله حين يتعلق الأمر بالسلوك الشخصي ، غير أنه بدا أميل إلى التسامح إزاء نزوات الشاعر وكان هو نفسه من الذين يكتبون الشعر . وعبد الرحمن هذا كان شاباً لا يكبرني إلا ببضع سنوات ، سكنه حبُّ الشيوعية

وتعلق هو بمُثلها المتداولة كأنه صوفيّ يسكنه الوجد . وقد خبر الشاب سجون مصر معتقلاً فيها مع الشيوعيين المصريين . وكان أبو حيدر في السجن نموذجاً لشيوعي قادم من مجتمع مغلق ومحافظ : التزام كامل بما يعدّه هو المبدأ ، وتزمت في الولاء إلى حدّ السذاجة ، ومعرفة شحيحة بالشؤون النظرية ، شيوعية على السماع إن جاز التعبير ، أو على الفطرة بتعبير أدق . وكان جهل الشاب بما وصلت إليه أحوال المجتمعات المتقدمة لافتاً للنظر . وهل يمكن أن لا يلفت النظر هذا الانبهار الشديد إزاء ما قد يبهر حقاً وإزاء ما لا يبهر إلا ذوي الفطرة الصافية !

لم يكن هذا الذي سيصير واحداً من أصدقاء العمر من أبناء غزّة الأصليين ، فهو لاجئ فيها وفد إليها مع أُسرته طفلاً ، كما وفدتُ أنا مع أُسرتي في العام ١٩٤٨ ، قادماً من أسدود ، وفيها تعلم ثم التحق بالأونروا معلماً في إحدى مدارسها . وكما فعل كثيرون من أبناء جيله ، سعى عبد الرحمن إلى تحسين ظروف حياته في اللجوء ، وانتسب ، وهو يعمل ، إلى جامعة القاهرة ودرس اللغة العربية وأدبها ، إلا أنه ، مثله مثل المنتسبين إلى الجامعة عن بعد ، لم يعرف من الحياة الجامعية سوى أيام الامتحانات وهواجسها . أما الماركسية التي تعلق بها هذا الشيوعي بالفطرة ، فلم يتسن له أن يلمّ بنظريتها إلا عبر ما تلقاه منها على أيدي رفاقه الشيوعيين المصريين في السجن .

أحببت عبد الرحمن هذا منذ عرفته ، جذبني إليه إخلاصه الصافي للقضية التي يتولاها وتوقه إلى أن يفعل جديداً من أجلها في كل يوم جديد ، وفتنتني براءته مثلما فتنتني قدرته على التعلم . كانت حياة التشرد والخبرات التي وفرتها لي تجربة سورية الغنية والتقلبات المتواترة والأسفار قد قضت على براءة ابن القرية الذي كنته أنا وأطفأت حسّ الدهشة فيّ . فطاب لي أن أقع

على عبد الرحمن وأراقب دهشته حين يكتشف ما لم يعد يدهشني ، مثلما طاب لي أن أراقب فيما بعد انفلاته أولاً بأول من أسر البراءة .

لم يعترف أي من الأحزاب الشيوعية ، إذا استثنينا بعض المنظمات المصرية ، بالحزب الشيوعي في قطاع غزّة . تفرق الشيوعيون الفلسطينيون الذين شتتتهم نكبة ١٩٤٨ ، فالذين بقوا منهم حيث نشأت إسرائيل ضمهم الحزب الشيوعي الإسرائيلي ، والذين آوتهم الضفة الغربية أو لجؤوا إلى ضفة الأردن الشرقية أسسوا مع رفاقهم الأردنيين الحزب الشيوعي الأردني ، والآخرون الذين التجؤوا إلى بلدان أخرى التحقوا بالأحزاب الشيوعية الناشئة فيها . وكانت هذه جميعها أحزاباً معترفاً بها في إطار الحركة الشيوعية العالمية . شيوعيو غزة وحدهم ، من كان منهم من سكان القطاع ومن لجأ إليه ، أسسوا حزبهم الصغير هذا وعانوا ما عانوه مما عاناه الشيوعيون الآخرون وربما أكثر ، دون أن يظفروا باعتراف الأحزاب الشقيقة بحزبهم . هل حُرم حزب غزة من الاعتراف به لأن الأحزاب الأخرى عدّته ملحقاً بمصر ، أم لأنها لم توافق على برنامجه ، أم لأنها لم تأبه لوجوده ، أم لأن قطاع غزّة لم يكن جزءاً من دولة قائمة؟ لا أملك إجابة يقينية . وكل ما أنا متيقن منه أن اسم الحزب برز مجدداً في سياق بروز مقاومة غزة للاحتلال الإسرائيلي وصار من الممكن طرح مسألة الاعتراف به . غير أن موقف هذا الحزب من قرار مجلس الأمن الشهير ٢٤٢ عقّد المسألة . فالحزب الغزّاوي تميز عن نظرائه العرب وغير العرب بالجهر بمعارضته قرار مجلس الأمن . وقد انطوت هذه المعارضة على معارضةٍ لموقف الاتحاد السوفياتي المؤيد للقرار . ولم تتحمس الأحزاب الشيوعيّة للاعتراف بحزب غزّة حتى مع انتباهها إلى دوره في المقاومة .

وعندما طرح عطية وعبد الرحمن ومعهما معين المسألة من جديد ، ساندهم في دمشق آخرون تقدمهم نبيه ارشيدات المفتون بالمقاومة الغزاوية

للاحتلال الإسرائيلي ودور شيوعيي غزة فيها . وانضممت أنا إلى المساندين . وأوصلنا الأمر إلى خالد بكداش المعترف به عميداً لشيوعيي المنطقة وليس أميناً عاماً للحزب الشيوعي السوري وحده . وفي مقابل جهودنا ، وقف كثيرون ضد منح حزب غزّة الاعتراف به . وكانت تحفظات الحزب الشيوعي الأردني هي الأصلب . وقد عدّ هذا الحزب اعتراض شيوعيي غزّة على القرار ٢٤٢ سبباً لرفض الاعتراف به . وفي الحوار مع بكداش ، قال الشيوعي الكبير : «لو كنت شيوعياً في غزّة لربما أجزت لنفسي رفض قرار مجلس الأمن . غير أن القرار بالنسبة لنا سلاح نضغط به على إسرائيل بقوة الشرعية الدولية لحملها على الانسحاب ، سلاح مع أسلحة أخرى ، وهو ليس قراراً مقدساً» . وقال بكداش ما بقي محفوراً في ذهني : «ليست الوثائق هي ما يقدسه الشيوعي ، بل المبادئ ، يا رفاق !» . ولكي لا يصطدم بكداش بأي شيوعيين آخرين ، تعهد أن يقدم حزبه لشيوعيي غزة أي مساعدة يقدر عليها ، ورأى أن المطلوب للتوّ هو إيصال صوت المقاومة إلى الخارج والظفر بالتأييد العالمي لها . أما إعلان اعتراف رسمي بالحزب الغزّاوي فقد رأى بكداش إرجاءه إلى أن تنضج ظروفه : «نحتاج إلى وقت كي يقتنع الآخرون . ولا ينفعنا ولا ينفع شيوعيي غزة أن ينفرد حزبنا وحده بالاعتراف بهم ، ليثبتوا حضورهم الواقعي فيصير الاعتراف تحصيل حاصل ، عندهم الجبهة الوطنية المتحدة فليستخدموا رايتها ، فهذا مهم مثلما هو ممكن» .

أول نشاط عالمي وفّر المفتاح الشيوعي السوري لشيوعيي غزة المشاركة فيه جرى في برلين عاصمة ألمانيا الديمقراطية ، حيث عقد مجلس السلم العالمي أحد مؤتمراته الكبيرة . وقد آثر الذين سعوا لتمثيل جبهة غزة الوطنية في هذا المؤتمر أن يمثلها عبد الرحمن عوض اللّه وليس عطية المقداد . وتوجب على عبد الرحمن أن يستعد لأول سفراته إلى أوروبا . لقد كان في غزة مثل دارج : «من

حَرْ حَا إلى الدودجْ» ، وهو مثل يصور حال من ينتقل فجأة من امتطاء ظهر الحمار إلى امتطاء سيارة دودج الفاخرة . وقد كان هذا ، في نحو ما ، هو حال عبد الرحمن حين اقتضى الأمر أن يحتك القادم من غزة المغلقة المحافظة بالمجتمع الأوروبي في سُرَّةِ أوروبا ، برلين بالذات .

تعاونا ، نبيه ومنير وأنا ، في إعداد صاحبنا للانتقال من حَرْ حَا إلى الدودج في صورة لائقة . وكان في هذا ما يشبه إعداد بدوي للزواج بأميرة . وفي نهاية مساع وجدالات طويلة ، تزود عبد الرحمن بما يلزم من عدّة ومعلومات أضافها إلى إخلاصه ورغبته في النجاح وذهب بها إلى برلين . والحقيقة أن الرجل أدى المهمة على أتمّ وجه ممكن . ولا بدّ من أن صدق القادم من حرارة التجربة قد عوّض قلة خبرته . وهو على أي حال لم يُضعْ دقيقة واحدة دون أن يستثمرها في ما هو مفيد . ولا بأس في أن أُقرّ بأن قدرة عبد الرحمن على التصرف السديد في أول مهمة من نوعها يتولاها قد أثارت عجبي بمقدار ما عززت إعجابي به : وفّر للمخلصين فرص المبادرة تر العجب !

وها أنا ذا أتذكر صاحبي ونحن في منزلي بعد عودته من برلين ، وهو يروي لي وقائع رحلته ، وتعابيرالدهشة تتوالى على صفحة وجهه . ولعل العائد من احتكاكه الأول بالغرب أدرك أن ما أدهشه لم يدهشني ، فشاء أن يجيء بواحدة تحملني على الاندهاش مضحياً بما ظن أنها الحاجة إلى التكتم على نقائص الشيوعيين . واجهني صاحبي بعينين مفتوحتين ورأس مائل ، يميله كلما هم بقول ما هو خطير ، ثم قال هامساً دون أن نكون في خلوتنا تلك بحاجة إلى الهمس : «بس يا رفيق ، شفت في برلين شيء غريب» ، وانتظر أن أستحثه ، فلما لم أفعل نسي حذره ولم يعد يهمس : «الناس هناك ، في البلد الاشتراكي ، تقبّل بعضها في الشوارع دون حياء!» . أدركتُ دون شك سبب دهشة صاحبي الذي يعدّ تقبيل الرجل غير زوجته إباحية حتى لو

جرى في الخفاء ويرى أن هذه الإباحية لا تليق بمجتمع يقارع الإمبريالية ويبني الشيوعية . غير أني لم أنفعل كما توقع المندهش ، ويبدو أنه تصور أني لم أدرك ما يرمي هو إليه فهتف : «اللّه أكبر ، شيوعية وقلة أخلاق !» . كان عبد الرحمن منفعلاً كأن الشيوعية كلها في خطر ، فحاولت تهدئته ، وقلت إن لكل مجتمع عادات قد لا يستسيغها مجتمع آخر ، والناس في المجتمعات الأخرى يأخذون هذه الأمور ببساطة ولا يستقبحونها كما قد يستقبحها مجتمعنا ، فاشتد انفعال صاحبي ، ونفث دخان سيجارته بعصبية ، وقال ، مورداً ما عدّه أقبح من أي قبيح : «أنا لا أحدثك عن عامة الناس هناك ، الشيوعيون ، أيضاً ، يفعلونها ، رأيتهم بعينيّ ، الرفاق ، يا رفيق ! » .

كثر تردد عطية وعبد الرحمن على دمشق ، هما اللذان توزع وقتهما بينها وبين عمان . وعبر صلات زائريّ بغزّة ، تعرفت على كثيرين وفدوا منها للالتقاء بهما وتيسرت لي من جديد أقنية لإيصال أخباري إلى أمي المقيمة فيها وتلقّي أخبارها . قبل هذه الأقنية ، وكما لا بد من أنك تتذكر ، كان الطالب البعثي الذي درس في جامعة دمشق إميل صبيح هو الذي يتولى هذه المهمة في روحاته إلى غزة وغدواته منها . غير أن إميل استقر في دمشق بعد تخرجه من الجامعة وشغل هو البعثي منصباً حكومياً فيها وأقعدته مشاغله عن السفر إلى غزّة واستقدم أسرته إلى دمشق . فانقطعت صلتي بأمي عدّة سنوات .

وهنا ، أستطرد لأقول لك إن حظي حين يتعلق الأمر بتوقي المزمن إلى الالتقاء بأمي كان تعيساً . فارقت أمّي يوم فارقت غزة في العام ١٩٤٩ . وكان التفكير بزيارة غزة في السنوات التالية ترفاً لا تبيحه الظروف . وعندما حصلت على عمل مستقر في العام ١٩٥٧ وصار بالإمكان بعد ذلك توفير نفقات الرحلة ، وجدتني منهمكاً في العمل العام وصار اسمي ، أنا الذي صار بعثياً ،

في قائمة الممنوعين من دخول مصر التي لا يمكن الوصول إلى غزّة إلا عبرها . ثم جاء الاحتلال الإسرائيلي فانسدت المنافذ عليّ وعلى غيري . أما أمي فقد غرقت في شؤون أسرتها وزوجها الثاني . وتواتر اضطراب أحوال هذه الأسرة مع اضطراب أحوال القطاع واللاجئين فيه . ولم تتمكن أمي من المجيء إلى دمشق فبقيت محرومة من الالتقاء بي وبوالديها وأخواتها وإخوتها . وكان أخواي ابنا أمي من زواجها الثاني ، قد كبرا ، فارقت محمد ورباح فيما الأول في أول مشيه والثاني في القماط ، وتوالت السنون وتوجه الأخوان إلى دراستهما الجامعية في القاهرة دون أن ألقاهما .

ولم أكن أنا الوحيد في دمشق التائق إلى رؤية أمي وابنيها . فجدي عبد المجيد المتجه نحوالسبعين كان هو الآخر شديد التوق إلى الالتقاء بابنته وحفيديه . افترق جدي عن ابنته في العام ١٩٤٨ ، في الظروف التي رويت لك تفاصيلها . وقتها ، كانت الخصومة التي اشتعلت بين جدي وأمي بسبب الخلاف على مصير ميراثها من أبي ما تزال تسمم العلاقة بين الاثنين فافترقا وهما متخاصمان . ومنذ العام ١٩٤٨ ، جرت مياه كثيرة تحت جميع الجسور وغسلت ضغائن كثيرة غير أنها لم تطفئ أسى جدي وندمه على تسببه في إحناق ابنته الكبيرة عليه ، وظل الجدّ تواقاً توقاً يفصح عنه بلا مواربة إلى الظفر بسامحتها له . وكان الجد يفصح عن حنينه إلى الغائبة كلما اشتدت عليه أوجاع الفراق بالرغم من أنه ابن جيل يتحرج ناسه من الإفصاح عن مشاعرهم خصوصاً أمام الصغار . ولم يرد ذكر أمي مرة أمام الجد إلا غطت وجهه سحابة كمد لا تخطئ أي عين استخلاص دلالتها . ولم تجر أي مقارنة بين أمي وأي من أخواتها إلا انحاز الجد إليها هي ؛ إذا ذكر الجمال فإن «لبقة» ، عند جدي ، هي «أجمل نساء الأرض قاطبة» ، وإذا ذكر الذكاء ، أو الكرم ، أو الأخلاق ، فهي دائماً الفائزة .

أما جدتي مدللة ، فلا توجد لغة تستوفي وصف حنينها إلى ابنتها البعيدة وحفيديها . وعلى تكتمها المزمن حين يتعلق الأمر بالمشاعر ، لم تتحفظ الجدّة في الجهر بشوقها إلى الغيّاب : «يا رب خلّني أرهم مرة واحدة قبل أن أموت وخذ روحي !» . كانت الجدة تبثّ هذا الدعاء بمثابرة وتردفه بالاستنجاد بالرسل والأنبياء والأولياء وجميع الصالحين كي يتشفعوا لها عند ربّ العالمين فيستجيب لدعائها . ولم أزر جدتي مرة إلا جعلت هي ذكر أمي أهم موضوعات اللقاء ولعنت الزمان الذي تفرق فيه شمل أهل فلسطين وتشتتت الأسر . وكان يحدث أن أجيء إلى جدتي بأحد القادمين من غزة فتستقبله استقبال صديق عزيز وتفرط في الترحيب وهي تكرر «يا ريحة لبقة !» ، وتغالب تأثرها كي لا تفيض الدموع التي تحرص على كتمانها . حتى معين الذي تاق إلى رؤية جدتي لكثرة ما حدثته عنها ، استقبلته الجدّة بوصفه «من ريحة لبقة» مع أنه لم ير أمي أبداً .

كانت تلك كلّها نفحات من غزّة تتوالى فتعزز حضور الوطن البعيد في روحي أنا المحروم من الإقامة فيه وتبقيني على صلة بناسه أنا البعيد عنهم .

٣

الأردن، لبنان، الأعداء، الأصدقاء

في ظل اتساع نفوذ المنظمات الفدائية ، تيسر لي كما تيسر لغيري من الفلسطينيين حرية تنقل لم نتمتع بمثلها من قبل . ومع انتشار قواعد الفدائيين ومكاتبهم في الأردن ، أمكن أن أزور هذا البلد دون عوائق . وقد اتخذت من عمان مدينة إقامة ثانية بعد دمشق وصرت أجيء إليها مرة واحدة على الأقل كل أسبوع . وهكذا ، استعدت الصلة بالحورانيين الذين تجمعت غالبيتهم في الأردن وأتيح لي أن أتحرى ما طرأ على أحوالهم منذ انفصلت عنهم في العام ١٩٤٨ .

غادر الحورانيون المسمية وهم مئات ، خمس مئات أو ست ، على الأكثر . وها هو العدد قد ربا فصار ألوفاً ، ثلاثة ألوف أو أربعة على أقل تقدير . والذين كانوا تلاميذ مدرسة أو فلاحين منصرفين إلى الزراعة احتملوا آلام دروب المنفى وواصلوا السعي إلى التواؤم مع الظروف المستجدة وتطوير حياتهم فيها . وأنهى كثيرون من الذين غادروا المسمية الصغيرة أطفالاً مثلي تعليمهم الثانوي وتخرج بعضهم من الجامعات ، فصار منهم معلمون وموظفون ومحامون وأطباء ، وصحافيون ، وتوزع الآخرون على مهن شتى أو أنشؤوا أعمالاً وأداروا تجارات . أقام بعض هؤلاء في قطاع غزة ، ووجد بعضهم فرصته في الأردن ،

وتبع آخرون الفرص المتيسرة في بلاد أخرى فتوزعتهم دول الخليج النفطية ، ومنهم من وصل إلى ليبيا والجزائر والمغرب أو إلى بلدان غير عربية . وبين الحورانيين ، كان عمر الحوراني صحافياً عمل لبضع سنوات في دمشق مسؤولاً عن العلاقات العامة في وكالة الأنباء السورية «سانا» ثم عيّن بعد بروز العمل الفدائي مديراً لمكتب الوكالة في عمان فرجع إليها وإلى أسرته فيها . ولأن صداقة حميمة ربطتني بعمر منذ إقامته في دمشق ، فقد صار منزله في عمان هو المنزل الذي أوثر أن أحلّ فيه ومكتبه هو المكتب الذي أوثر أن أستخدمه .

كان عمي محمد وأختاه عمتاي نظيرة وفوزية وأمهم هم أقرب أقربائي إليّ بين المقيمين في الأردن . وهؤلاء هم الذين نجوا من الموت عندما تعرض منزل الأسرة في الفالوجة أثناء محاصرة الإسرائيليين لها في العام ١٩٤٨ إلى الغارة الجوية التي أودت بجدي سلمان وبقية أبنائه . وحين فارقتُ أسرة أبي هذه ، وهي أسرتي الأولى ، في واحدة من مصادفات زمن الحرب في ذلك العام ، كان محمد طفلاً مثلي فهو لا يكبرني إلا بسنتين أو ثلاث . إلا أن الظروف الاستثنائية أسلمت الطفل إلى فتوة مبكرة وجعلته ربّ ما بقي من أسرته وهو ما يزال ابن اثنتي عشرة سنة . أما حين استعدت صلتي بالأسرة منذ العام ١٩٦٨ ، فكان محمد قد صار معلم مدرسة في الاونروا وقد تزوج ، وكانت فوزية ونظيرة قد تزوجتا وصار لكل منهم أطفال .

وها أنا ذا أتذكر المرة الأولى التي لقيت فيها عمي محمداً في منزله في المدينة الأردنية الشمالية إربد . وقتها ، طلب عدد من أصدقائي الكتاب السوريين أن يزور قواعد الفدائيين في الأغوار الأردنية بصحبتي ، فاستجبت للطلب . وفيما انصرفت إلى تهيئة إعدادات الرحلة ، تراجع بعض طالبيها . وعندما توجهنا إلى الأردن ، كان بصحبتي اثنان منهم فقط : المخرج والناقد السينمائي الذي يكتب الرواية صلاح دهني ، والقاص بديع بغدادي ، وكان

كل منهما مسكوناً بحمى التأييد الكاسح للكفاح المسلح توّاقاً إلى الوقوع على قصص جديدة يكتبها تمجيداً لهذا الكفاح .

زودتنا قيادة جيش التحرير الفلسطيني بالوثائق المناسبة ، فاجتزنا الحدود بيسر أدهش صاحبيّ . وانطلق لسان بديع بغدادي ، بسبب هذا ، في الثناء على الكفاح المسلح والتأكيد على أنه هو الوسيلة الوحيدة الناجعة لإلغاء الحدود بين بلاد العرب ، وليس لتحرير فلسطين فقط . وكان في انتظارنا في الرمثا سيارة عسكرية ومرافقون أرسلهم صديقي العقيد بهجت الأمين قائد قوات التحرير الشعبية ، الميليشيا التي أنشأها جيش التحرير والتي تنتشر قواعدها في الأغوار . وقادنا المرافقون إلى مكتب العقيد الذي ينتظرنا في إربد . وقد هيأ العقيد نفسه لمرافقتنا بنفسه في الجولة على القواعد . يومها ، تنقلنا من قاعدة إلى التي تليها ، وزرنا قواعد تابعة لفصائل شتى ، وأجرينا حوارات متنوعة مع فدائييها . ثم بتنا في آخر قاعدة تيسر لنا الوصول إليها بعد منتصف الليل . وفي الصباح ، تابعنا الجولة إلى أن حلّ الليل .

لم يكن ما نشاهده أو نسمعه جديداً عليّ أنا كما هو بالنسبة لصاحبيّ . ولئن تركز اهتمام الكاتبين السوريين على تقصّي وقائع البطولات التي يجترحها فدائيو الأغوار والتعرف على مشاعرهم وهم في أشداق المخاطر ، فقد ركزت اهتمامي على استدراج رجال القواعد إلى مناقشات سياسية . كنت معروفاً بأني واحد من المثابرين على الدعوة إلى القبول بالقرار ٢٤٢ . وكانت مثابرتي تسبب لي مشاحنات مع ناس النخبة ، ومنهم رفيقا الرحلة . فشئت أن يعرف الرفيقان موقف ناس القواعد . وقد ينبغي أن أذكر لك أن الرفض الفلسطيني للقرار ٢٤٢ ومبدأ التسوية السياسية كان ، آنذاك ، في خريف ١٩٦٨ ، واسعاً . وقد أظهرت ردود غالبية الفدائيين على آرائي معارضة حازمة لما أدعو إليه . أما الذين أيدوني أو أظهروا تفهمهم لي فكان من اليسير أن أحزر

أنهم شيوعيون أو من أصدقاء هؤلاء . غير أني التقطت شيئاً حرصت على أن أجتذب انتباه الكاتبين إليه . فقد لاحظت أن ردود رجال القواعد المعترضين لم تنطو على أي اتهام لي بالخيانة أو بما يعادلها من التهم التي يرميني بها ناس المكاتب أو المثقفون .

لقد تمت الجولة في نحو جمع فيه صلاح وبديع أعمق ما يمكن أن يخرج به كاتبان من انطباعات . ولعلك تعرف أن بديع خصص عدداً من قصصه للحديث عن الفدائيين . كما لعلك تعرف أن الفيلم الروائي الطويل الوحيد الذي أخرجه صلاح للسينما تحدث عن المقاومة الفلسطينية للاحتلال الإسرائيلي .

وها أنا ذا أتذكر حكاية سمعناها في إحدى القواعد فلم تبارحني دلالتها بعد ذلك . حدثنا شاب مكتمل النضج أنه كان في عداد مجموعه كُلِّفت عبور نهر الأردن إلى الضفة الغربية والقيام بعملية ضد موقع إسرائيلي . وكان على فدائيي المجموعة أن يعبروا النهر فرادى ليقللوا فرص وقوع مجموعتهم كلها في قبضة من قد يتربص بهم في الناحية الأخرى . وقد عبر الشاب الماء ثم زحف ليصعد إلى الحافة وجعبة ذخيرته على ظهره وبندقيته مصوبة إلى أمام وسبابته على زنادها ، كما توجب التعليمات تحسباً لأي مفاجأة . وعند بلوغ الشاب ذروة الحافة ، برقت إزاءه وسط العتمة عينا إسرائيلي بندقيته هو الآخر مصوبة وسبابته على الزناد . كانت تلك لحظة أدرك الفلسطيني فيها أنه هو والإسرائيلي في خطر . وكان أمام الشاب ، مثلما هو الأمر أمام عدوّه ، واحد من احتمالين : أن يقتل كل منهما الآخر أو أن ينجوا كلاهما . ودون أن يتبادل العدوّان سوى النظرات التي برقت في العتمة ، انتهى كل منهما إلى القرار ذاته .

كان ضمير صاحب هذه الحكاية ما يزال يعذّبه ، وقد طلب مني أن

أجيب أنا داعية التسوية السياسية على هذا السؤال : هل تصرّف تصرّفاً سليماً أم أن تراجعه انطوى على جبن ؟ يومها ، سمع معذب الضمير إجابة من شأنها أن تريحه . أما أنا الذي قلت ما قلته وقتها بدافع التخفيف عن الشاب فلم أكن واثقاً تماماً من أني أصدرت أصوب حكم على سلوكه . وظل سؤال الشاب يشغلني . وفي زيارة تالية للقاعدة ذاتها ، افتقدت هذا الشاب فبادرت بالسؤال عنه . فقال قائد القاعدة بنبرة من ينبئ بخبر عادي . «استشهد ، طلب أن يعبر النهر وحده ، وداهم كميناً إسرائيلياً واستشهد أثناء الاشتباك» .

في ختام جولتي مع الكاتبين الصديقين ، قدت صاحبيّ إلى منزل عمي في إربد . تعمدت أن أجيء إلى عمي في نهاية الجولة كي لا أشغله بما أنشغل به أو أثير هواجسه بشأن ما قد يتصور أنها مخاطر أتعرض لها حين أزور القواعد المعرضة دوماً للقصف الإسرائيلي والغارات . واخترت الوقت المتأخر كي لا أكلّف العم مشقة إعداد وليمة ، مستذكراً ما يستقر في ذاكرتي من آداب الضيافة : ضيف المساء ليس له عشاء . فاجأت العم ، إذاً ، مفاجأة ، ولا بد من أن قدومي عليه أبهجه . غير أن تعابير الوجه والنظرات الصارمة والنظرات اللائمة عكست استياء احتجت إلى بعض الوقت حتى أهتدي إلى التفسير الصحيح له . استاء عمي لأني بمجيئي ومعي ضيوف إلى منزله في وقت متأخر لا أتيح له فرصة إكرامي وإكرامهم بوليمة فاخرة . والوليمة عند العم لا تصير فاخرة إلا إذا حضر المنسف وجلله لحم خاروف كامل . كان الوقوع على خاروف في إربد في هذا الوقت متعذراً . وكان قصّابو البلدة قد أقفلوا حوانيتهم فصار من المتعذر أيضاً الحصول على لحم للمنسف حتى لو غضّ العم النظر عن الخاروف الكامل . وحين طلبت من عمي أن يأخذ الأمر بيسر ولا يتحرج ، لا مني صراحة أمام صاحبيّ : «أفسدتِ الإقامةُ في المدن ابنَ أخي فنسي تقاليد أهله» . وبالرغم من عسر الوقت ، أكلنا في تلك الليلة

منسفاً !

لم يصعب عليّ أن ألتقط ما بدا لي واضحاً في شخصية عمي محمد : انجبلت الشخصية بالتقاليد الموروثة . ووجد العم في التشبث بهذه التقاليد فخره وعكس تشبثه بها حرصه على الانتماء وتوقه إلى التعويض عن الماضي الذي اغتصب اغتصاباً . ولكم ذكرتني شخصية عمي بشخصية أبيه جدي سلمان ؛ الابن الناجي تقمص شخصية الوالد الراحل وجعلها قدوة وصار يعدّ الاستهانة بأي من القيم أو التقاليد التي كانت سائدة في المسمية نقيصة . وإذا تذكرت كم كان جدي سلمان سخياً في إكرام أي ضيف فليس لك أن تندهش إزاء مسلك العم !

في تلك الليلة ، التقيت زوجة جدي الراحل ، أم محمد . لشدّ ما تبدلت المرأة التي حفظت مخيلتي صورة مهوّلة لها ، ولكم كان التباين كبيراً بينها وبين تلك الصورة ! ففي إربد ، بعد عشرين سنة على دروب المنفى ، وجدتني ليس أمام امرأة جد كان حضورها يرعبني ، بل أمام أم فرحة بقدومي ، تعانقني ، وتتملا وجهي ، وتتحسس جسدي ، كأنها تبحث عن الطفل الذي كنته ويبهجها أنه نما . رسمت أثقال السنين تأثيراتها على وجه المرأة وجسدها وشخصيتها : الوجه الصبيح شابته التجاعيد والزوائد المتهدلة تحت الحنك والكمد الذي يجلل تقاسيمه . والقامة المديدة فقدت رشاقتها . أما توفز الأعصاب الذي كنا ضحاياه فقد حلّ محلّه الميل إلى الاستكانة . فقدت المرأة المنزلة التي كانت لها بوصفها زوجة المختار عزيز الجانب ، فخالط شيء من الاستكانة شخصيتها دون أن يمحو عزّة النفس : «شف ! أين كنّا وأين صرنا ، راح العزّ وراح الجاه ،لكن ، اللّه كريم» . وحين بكت وضحة الصغيرة لأنها استحضرت ذكرى رشاد أبي وسلمان أبيه وزوجها ، فقد شعرتُ بأنها تبكي كل ما فقدته أو افتقرت إليه حياتها في الغربة ، وأدركت أني قريب منها .

في الصباح ، جاءت عمتي فوزية ، أقبلت عليّ وهي تضحك وتبكي وتملأ المنزل بصخب الترحيب . وشاءت عمتي المهووسة بحبّ أقربائها أن أذهب معها إلى منزلها في عين الباشا حتى تقوم بواجب الضيافة . كانت فوزية من هذا الصنف الذي يسمونه «أخت رجال» ، وكان ولعها بأداء الواجب شديداً . وقد حزنت عمتي حين أدركت أني لن أصحبها ، ولم تكفّ عن الإلحاح إلا بعد أن تعهدت أن يكون منزلها هو أول منزل أجيء إليه في رحلتي التالية .

ها أنت ذا ترى كيف يسر العمل الفدائي للفلسطينيين فرص وصل أشتاتهم بعضها ببعض . وكان هذا بين مكتسبات العمل الفدائي الاجتماعية أميزها ، وكانت له آثاره السياسية ، لأن استعادة الصلات أنعشت الإحساس بوحدة الشعب وعززت الأمل باستعادة الوطن المفقود ووسعت فرص التعاون بين الأشتات المتباعدة .

كثرة عدد الحورانيين في عمان وكثرة المشاغل التي أغرق فيها لم يبيحا لي أن ألقى أقربائي كلهم . لقيت بالطبع أولئك منهم الذين لهم صلات بالعمل الفدائي . ووضعت الظروف آخرين في طريقي بالصدفة فتعرفت عليهم . وبقي عدد من لقيتهم قليلاً . واشتكى كثيرون ما عدوه قصوراً مني أو إهمالاً أو تكبراً . وقارن هؤلاء بين سلوكي وسلوك عبدالله الحوراني الذي يحرص على الصلات العائلية أكثر مني بالرغم من أن مشاغله مماثلة لمشاغلي وليست أقلّ منها . ولم تكن المقارنة بالطبع لصالحي . وجاء وقت صار لا بدّ فيه من استرضاء المستائين . فسألت عمر الذي ثابر على حثّي على المبادرة عن أكبر الحورانيين في عمان سنّاً ومقاماً ، فعرفت أنه من كان في المسمية المختار الثاني المنافس لمختارها الأول جدي سلمان وهوالعم عبد الحميد ، فعزمت على زيارته . وهيأ عمر للزيارة بحيث يجيء الراغبون في التعرف عليّ إلى دار المختار .

هنا ، علي أن أكاشفك بأني تصورت أن الحورانيين معنيون بي بوصفي ابن العائلة النابه الذي يظهر اسمه في الصحف والإذاعة . ولهذا ، توقعت أن يجيء كثيرون . والحقيقة أن عدد من جاؤوا فاق توقعي . غير أن معظم هؤلاء جاء بدافع التعرف على ابن رشاد حفيد سلمان ، وابن لبقة ابنة عبد المجيد ، ولم يجتذبه أي من مزاياي الشخصية . واستقبلت القادمين وأنا واقف . ووقف عمر بجانبي ليقدم لي آل الحوراني بأسمائهم ويذكر درجة القرابة التي تجمعني بأي منهم . وقام عمر بهذه المهمة على أتم وجه ، وأعفاني من التحرج كلما سألني أحدهم أو إحداهن هذا السؤال المربك في العادة : «هل تعرف من أنا ؟» . مرة واحدة صمت عمر ؛ أقبلت علي كهلة بادية اللهفة واحتضنتني بمودة زائدة وهي تبكي وتردد : «يا ريحة لبقة !» . وصار علي أن أستجيب للهفة المرأة دون أن أعرف من هي . ويبدو أن حرجي انعكس في استجابتي وأن المتلهفة أدركت سرّ صمت صاحبي فتطوعت بتقديم الإيضاح : «أنا فاطمة رفيقة أمك الروح بالروح ، وفي البلد كانوا يلقبونني بأم خريّان» . نسي عمر ، إذاً ، اسم المرأة ولم يحضره إلا لقبها القبيح هذا فآثر الصمت . أما هي فغلّبت الحاجة إلى تعريفي بنفسها على أي حرج ، فكانت فطنة وجريئة ، فلم أنسها بعد ذلك أبداً .

لبنان هو الآخر يسّر لي نفوذ حملة البنادق السفر إليه بعد الحظر المديد . ضاق لبنان بالفلسطينيين الذين التجؤوا إليه منذ العام ١٩٤٨ فحظر قدوم المزيد . وكان على الفلسطيني إن احتاج إلى زيارة لبنان أن يحصل على إذن مسبق يوافق عليه وزير الداخلية نفسه ، وهو إذن لا يحصل عليه إلا الذين يسندهم صاحب نفوذ كبير أو يقدّمون رشوة كبيرة . وأنا أتذكر أني احتجت مرة في العام ١٩٦٦ إلى إرسال ابنتي لينا إلى بيروت لإجراء اختبار طبّي . كانت المريضة رضيعةً لم تكمل سنتها الأولى ، ولكن إجراءات الحظر لا تميز

بين الأعمار المختلفة . ولأن الحاجة كانت ملحة ، فقد استنجدت بصديقي زميل المهنة مدير مكتب منظمة التحرير في بيروت شفيق الحوت ورجوته أن يتوسط للحصول على إذن للرضيعة وأمها . وبعد أيام ، اتصل شفيق وأفهمني أن طلب الإذن للأم صعّب المسألة وقد يعرقلها ، واقترح أن تقتصر المساعي على طلب إذن للرضيعة ، فقبلت اقتراحه وفي البال أن بالإمكان إرسال ابنتي إلى بيروت مع أي صديق غير فلسطيني . وبعد شهر ،اتصل شفيق : تعذر الحصول على الاذن . ثم جاءت مناسبة عامة اجتذبت عدداً من الصحافيين اللبنانيين إلى دمشق . وشاء هؤلاء أن يردّوا لي جميل الخدمات التي وفرتها لهم ، فلم أطلب سوى شيء واحد ، تدخلهم أو تدخل مؤسساتهم لتوفير إذن الزيارة . وبالرغم من هذا كلّه ،لم يأت أي إذن .

رويت لك هذا لتعرف أن فتح طريق لبنان أمام الفلسطينيين بنفوذ حملة البنادق كان مكسباً كبيراً قدّر الجمهور أهميته تقديراً صحيحاً فزاد التفافه حولهم وتأييده لهم .

لم يكن لي في لبنان أقرباء . غير أن كثيرين من أصدقائي ومعارفي كانوا لبنانيين أو مقيمين في لبنان . وقد ازداد العدد مع اضطراد إنشاء القواعد الفدائية في البلد والمكاتب في عاصمته . ولعلك تعرف أن الأمر ابتدأ بإنشاء قواعد فلسطينية في منطقة العرقوب الجبلية في الجنوب ، وهي المنطقة التي أشهرتها الصحافة الأجنبية باسم «أرض فتح» وأطلقت عليها الأدبيات الفلسطينية هذا الاسم المهيب : عش النسور . وقريباً من عش النسور هذا ، نشأت في بلدة النبطية عدّة مكاتب إدارية ، وتعزز الوجود الفدائي في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين ، بالطبع . ثم تمدد الوجود المسلح بمضي الوقت حتى شمل مدن لبنان ومناطقه كلها تقريباً .

في ذلك الوقت ، كانت بيروت قد صارت مركزاً يلجأ إليه عرب كثيرون

ضاقوا بالحياة في بلدانهم لسبب أو غيره ، مثقفون وسياسيون ورجال أعمال وطلاب عمل . وإلى هؤلاء ، اجتذبت بيروت أعداداً وافرة من المغامرين والأفاكين والباحثين عن المتع التي لا تتاح في مجتمعاتهم المحافظة . وبهذا وذاك ، بجهود اللبنانيين والوافدين ، ولأسباب أخرى عديدة ، صارت بيروت عاصمة للمال والثقافة في آن واحد مثلما صارت عاصمة للجريمة وشتى النشاطات السوداء . واكتسبت بيروت شهرة عاصمة الصحافة ، أيضاً ، صحافة اللبنانيين أنفسهم وصحافة العرب ، صحافة الأنظمة العربية التي تروج لسياساتها ، وصحافة المعارضة التي تفضح هذه السياسات .

حصلت على بطاقة من جيش التحرير الفلسطيني وقعها صديقي مصباح البديري الذي صار عميداً ، وبطاقة من «فتح» وثالثة من جبهة التحرير الفلسطينية . وحملت هذه البطاقات أسماء مستعارة متعددة . وذلك بالإضافة إلى بطاقة طلائع حرب ا لتحرير الشعبية ـ قوات الصاعقة التي تحمل اسمي الحقيقي . وصار بإمكاني أن أدخل لبنان بيسر شديد وأستخدم هذه البطاقة أو تلك وفق تبدل الأحوال . وقد حرصت على أن تكون الرتبة المنوّه عنها في أي بطاقة متواضعة . فأنا حسب بطاقة جيش التحرير رقيب في هذا الجيش . وحسب بطاقة فتح مناضل عادي ، وهكذا حسب بقية البطاقات . فعلت هذا تحسباً لأي متاعب قد يثيرها استخدام الاسم الحقيقي ولكي لا تجتذب الرتبة أي انتباه . وتواترت زياراتي للبنان وتنوعت دوافعها : متابعة الشؤون الفلسطينية المتنامية في هدا البلد ، والالتقاء بالأصدقاء ، وتعزيز الصلة بالصحافة ، والتسوق ، والتزود بالكتب التي لا يجدها القارئ في سورية . ولك أن تعرف أن ما ظفرت به في هذا المجال لم يكن امتيازاً انفردت به أو خُصَّ به عدد قليل . فقد أباحت الفصائل الفدائية لأي صاحب حاجة فلسطيني أن يظفر ببطاقاتها ويتمتع بامتيازاتها ، حتى وإن لم يكن عضواً في أي منها .

وحين أستحضر أسماء أصدقائي الأوائل من اللبنانيين ، فلا بدّ أن يبرز في المقدمة أسماء ثلاثة منهم ربطتني بهم علاقة دائمة : طلال سلمان ، ونايف خير الدين ، وحسن قريطم .

نشأ طلال سلمان في أسرة فلاحية في قرية شمسطار في البقاع ، وكان أبوه دركياً متقاعداً حين تعرفت أنا على ابنه . وفي وقت ما ، انجذب ابن الأسرة الريفية المتواضعة إلى بيروت مدفوعاً بالرغبة في أن يصير شيئاً مذكوراً . وقد كان طلال حين سمعت أنا باسمه قد انجذب إلى أجواء القوميين العرب . ولا بدّ من أن هذا حدث بتأثير دعوة عبد الناصر إلى القومية العربية ، فطلال الذي تعرفت أنا عليه كان ناصرياً يتباهى بناصريته ، وكان قد غدا صحافياً يوطد حضوره في صحافة لبنان أو صحافة العرب في لبنان . كما يبدو أن صديقي الفلسطيني غسان كنفاني صاحب الاسم الشهير في الصحافة والأدب هو الذي هيأ الفرصة الأولى للشاب اللبناني . وها أنا أتذكر أن أول من حدثني عن طلال كان غسان . فقد انتبه الذي هيأ له انتشار حركة القوميين العرب في لبنان مكاناً متميزاً في صحافته إلى قدرات الريفي الوافد إلى العاصمة وطموحه فشجعه على التقدم . وكان هذا هو ، على أي حال ، دأب غسان مع الذين يتوسم فيهم النباهة فيدفعهم على طريق الحَرف في الصحافة أو الأدب . والواقع أن طلال بدأ مسيرته الصحافية في إعلام حركة القوميين العرب الذي كان غسان هو المسؤول عنه . غير أن طموح الشاب وتوقه إلى تحسين ظروف حياته دفعه إلى البحث عن مجال أرحب وأوفر دخلاً على أن لا يوجب عليه المجال الجديد أن يهمل ناصريته أو يتخلى عن ولائه للقومية العربية . كان طلال ، كما وصفه غسان وهو يحدثني عنه قبل أن أتعرف عليه ، شاباً يوازن بين المبدئية والمصلحية فيطوِّع كلاً منهما لمتطلبات الأخرى ويحرص على أن لا يبتذل نفسه . ولم تكن هذه السمات مما يكفي لاجتذابي

أنا إلى الاتصال بصاحبها .

وهكذا ، التقيت طلال ، أول ما التقيته ، دون تدبير مسبق . جرى اللقاء في مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط ، المصرية ، «أشا» . وقدمني مدير المكتب صديقي فتوح الشريف إلى زواره الذين سبقوني إليه وكان طلال واحداً منهم . وما أن سمعت الاسم حتى برق في البال وصف غسان كنفاني لصاحبه فلم أستطع إلا أن أتفحصه في ضوء رأيي المسبق فيه ، رأيي السلبي كما صرت تعرف . وسواء تم ذلك بتأثير الرأي المسبق أو بتأثير الحديث المباشر ، فقد ضقتُ بطلال ضيقاً مضاعفاً ، ضقت خصوصاً بما وجدته تبايناً صارخاً بين متناقضين : مصلحية يجهد صاحبها في سترها ومبدئية يشتط في التزمت لها . كان الحديث يدور حول موضوع الساعة : القرار ٢٤٢ والمواقف المختلفة منه . وقد استفزني تشدد طلال في هجومه على هذا القرار وتشدده في الوقت ذاته في الدفاع عن عبد الناصر أشهر الموافقين عليه . ولأنك تعرف أني لا ألجم رد فعلي فبإمكانك أن تحزر كيف عاملت طلال في لقائي الأول به هذا !

كان صديقي الصحافي المصري مصطفى الحسيني كاتب «روز اليوسف» الشهير بين حاضري لقائنا . وكان مصطفى قد انجذب وقتها إلى العمل الفدائي فترك مكتبه المريح في القاهرة وتطوع لمساعدة «فتح» وانضم إلى جهاز إعلامها . وكنت أحبّ مصطفى حباً لم يوهنه اختلافنا في بعض الآراء . وكان مصطفى قد تعرف على طلال قبلي ورضي بصحبته . وحين ضمنا منزل فتوح الشريف حيث أُعدّ غداؤنا ، تعمد مصطفى أن ينفرد بي وانتقد جفوتي إزاء طلال . لم يختلف رأي مصطفى في صاحبه عن رأي غسان فيه . غير أن مصطفى جذب انتباهي إلى ما هو جدير بالانتباه : «صحافة لبنان بمعظمها ساحة ارتزاق وميدان تنافس على الشهرة ، وإذا تشبثت بمعاييرك الصارمة فلن

يبقى لك فيها أصدقاء كثيرون» . وعن طلال ، قال مصطفى : «إنه ابن هذه الساحة ونتاج الفكر القومي الذي يبث مبدئيات صارمة ويجيز التفلت منها» . وبعد هذا ، جاءت النصيحة ، هذه التي يقدمها مصطفى عادة بنبرة من يقدم تقريراً : «تعرّف على صاحبنا جيداً ، ستكتشف فيه مزايا كثيرة يفتقر إليها أبناء ساحته ، ففيه أريحية ابن البلد ، وفيه هذا الحرص على أن يحقق مصالحه الخاصة دون أن يتعارض سعيه إليها مع ما يرى أنه المصلحة العامة ، وأنا واثق من أنكما ستصيران صديقين» .

كان مصطفى فصيحاً في وصفه لشخصية طلال أريباً في حثه لي على الإنتباه إلى سمات صاحبنا الإيجابية وإغفال ما عداها . والواقع أننا ، طلال وأنا ، صرنا صديقين بأسرع مما توقع أيما أحد ، واتسعت صلاتنا الشخصية واكتشفنا كم هي كثيرة الاهتمامات والقناعات المشتركة التي تقربنا الواحد من الآخر . وصرت أحلّ في منزل طلال كلما جئت إلى بيروت . وصار هو يحل في منزلي حين يجيء إلى دمشق . وتواترت سفراتنا معاً أو لقاءاتنا المرتبة مسبقاً في عدد آخر من عواصم العرب ، نشترك معاً في النشاطات العامة المتاحة ، ونتعاون ، ونتبادل الخبرات ، ونتمتع بالصداقة التي راحت تتوطد مع الأيام .

طلال هو الذي عرفني على نايف خير الدين فعرفت فيه لبنانياً أحببته حباً صافياً . كان نايف وهو ابن بلدة رياق القريبة من قرية طلال موظفاً متواضع الرتبة في محطة القطارات في بلدته . وكانت هذه محطة لا يعبرها سوى قطار واحد قليل الركاب ، فلم يكن فيها ما يوجب مداومة موظفيها على العمل . وهكذا ، لم يخصص نايف لعمله في المحطة إلا أقل الأوقات فبقي له وقت كثير من أجل النشاطات الاجتماعية والسياسية التي ينهمك فيها . وقد تباينت شخصية نايف في وجوه عديدة مع شخصية طلال . انتسب نايف إلى

الحزب الشيوعي اللبناني ، وبرز بين شيوعيي منطقته بصفته من أشدّهم مبدئية وتشبثاً بالطهرية . وانتهى نايف إلى ما ينتهي إليه معظم الطهريين أمثاله ؛ تبع انشقاقاً عن الحزب ، وأنشأ مع المنشقين تنظيماً مستقلاً ميّزه أصحابه باسم جديد وظلوا يعدون أنفسهم الشيوعيين الأصحاح ويرمون شيوعيي الحزب الذي تركوه بشتى التهم . ولأمر ما ، لعله إلفة الجيرة أو رفقة أيام الصبا أو أي شيء من هذا القبيل ، ارتبط نايف بعلاقة صداقة مديدة مع طلال ، فتوفرت لي فرصة التعرف عليه . جاء الاثنان مرة إلى منزلي معاً ، واجتذبتني شخصية صاحب صاحبي منذ عرفته ونشأت بيننا صداقة فاقت في صفائها صداقتي مع طلال . وما زرت لبنان مرة إلا عرّجت على رياق وتمتعت بصحبه نايف وكرم ضيافته . وتبادلت أسرتانا الزيارات .

حسن قريطم «أبو بشار» ، وهو القائد المخضرم في الحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني ، ثم في الحزب اللبناني بعد استقلاله عن السوري ، كان له شأن آخر . فأبو بشار أكبر مني سنّاً وأغنى تجربة وله في ساحة العمل الشيوعي مكانة لم يتحقق لي مثلها في أي ساحة . ينحدر الرجل من وسط بيروتي شعبي وتكنز شخصيته أجود سمات هذا الوسط ، الأريحية ، والنباهة ، واستقامة السلوك ، وسماحة النفس ، والوفاء للأصدقاء ، وقد انضاف إليها خبرة المناضل المحترف وعلم القائد الشيوعي وسعة اطلاعه على أحوال بلده ومحيطه وأحوال العالم . كان حسن قريطم عضواً في المكتب السياسي للحزب . واختلف الرجل مع رفاقه حول أشياء كثيرة مثلما اختلف عنهم . أخذ حسن على رفاقه اللبنانيين ، بين ما أخذه عليهم ، تنكرهم للرفاق السوريين وابتعادهم عن النهج الذي جمع الطرفين . والحقيقة أن عدداً من قادة الحزب الشيوعي اللبناني فعلوا الكثير مما قد يكون مشروعاً بالمقاييس الشيوعية أو غير مشروع لدفع حزبهم في اتجاه التمايز عن توأمه السوري . ثم أبرز المجرى

اللاحق للتطور مسائل جديدة اختلف الجانبان بشأنها فتعمقت الفجوة بينهما . وبالإجمال ، رأى حسن المتميز بالوفاء للرفاق السوريين أن معظم قادة الحزب اللبناني سلك في نحو لا ينسجم لا مع الشراكة القديمة ولا مع متطلبات التضامن في الوضع المستجد . واستاء حسن لأن رفاقه اللبنانيين استأثروا بما كان مشتركاً بين الحزبين من أملاك وانفردوا بالهيمنة على الصحف التي كانت للجانبين ومنعوا الجانب السوري حتى من نشر آرائه أو أنباء نشاطاته فيها . ودأب حسن ، وهو المتشدد حدّ التزمت كلما تعلق الأمر بمبادئ السلوك الشيوعي ونقاوة الفكر الماركسي اللينيني ، على انتقاد رفاقه اللبنانيين بحدّة ومعارضتهم بقسوة . أما هم فعدّوا رفيقهم الساخط عليهم بكداشياً واتهموه بأنه مستزلم لخالد بكداش وجافوه على هذا الأساس . وبمضي الوقت ، اتسع الخرق واستعصى على محاولات رتقه ، فاستقل حسن ومعه قادة يشاركونه الرأي عن الحزب وشكل هؤلاء تنظيمياً شيوعياً موازياً للحزب وجهروا بالخصومة وأمعنوا فيها . وكانت تلك معمعة من المعامع التي صرت تعرف كم أنجذب إليها .

في هذه المعمعة وعقابيلها ، ضنّ بكداش على مجموعة قريطم بالاعتراف بهم ، لكنه لم يضنّ بتأييده لأطروحاتهم . كان بكداش صارماً في تشبثه بتقاليد العلاقات بين الأحزاب الشيوعية : «قد نختلف مع أي حزب شقيق ، إلا أننا لا نسيء إليه ولا ننقل خلافنا إلى العلن ولا نؤيد الانشقاق» . سمعت هذا الكلام من فم بكداش وعرفت كيف تحدد الموقف : «نقدّر المتفقين معنا في الرأي من الشيوعيين اللبنانيين ، وإذا انفصل هؤلاء عن حزبهم فهذا شأنهم ، نفهم ضيقهم ببعض مواقف الحزب لكننا لا نعترف بوجود حزبين شيوعيين في بلد واحد ولا نلغي اعترافنا بالحزب الذي تعترف به الحركة الشيوعية العالمية» .

عرفني نبيه ارشيدات على حسن قريطم وتوقع أن أرتاح إليه . وكان نبيه محقاً . فعلى تقدمه في المراتب القيادية وانهماكه في نشاطات النخب ، لم تبارح حسن الروح التي ورثها من منبته الشعبي . كانت لغة الرجل بسيطة ونفّاذة ، مباشرة وصريحة ، تمتح من العاميّة البيروتيّة أحدّ تعابيرها ولا تتكلف أي تزويق ، وكذلك كان سلوكه وتعامله مع الآخرين ، يودّ أحداً فيفصح عن ودّه دون مجاملات ولا يعف عن الانتقاد إن استحق صاحبه الانتقاد ، ويبغض أحداً فيجبهه بالبغض دون تهيب لكنه لا ينكر مزاياه . يغرقك أبو بشار بكرمه حين تسعفه الإمكانيات ويقتصد حين لا تسعفه ولكن كرم روحه يظل هو هو في الحالتين ، فيّاضاً وغامراً .

أحبني حسن قريطم كما أحببته وخصني بمعاملة متميزة وألف أن يكاشفني بما يفكر به أو يفعله . وما أكثر الآفاق التي جَلَتْها أحاديث الرجل فزادتني معرفة بأحوال لبنان ! بصيرة عميقة ، وعين نقادة ، ودوافع نزيهة ، وتجرد مما هو شخصي ، وسلاح نظري فعال ، ومتابعة دؤوبة ، فما الذي يمكن الركون إليه أكثر من هذا ! كان المنزل الذي تستقر فيه أجواء الألفة محطة أستريح فيها كلما جئت إلى بيروت وأتعبني التخويض بين النقائض . وكانت الحديقة التي يعتني حسن وزوجته بورودها عناية مثابرة عشاً لمساراتنا : الهدوء ، والنقاوة ، وصدق المشاعر . فكنت أعيد هنا تجميع أشتاتي وأنعم بالحفاوة والمعرفة وأتصرف على سجيتي . وما كان أحوجني في بيروت إلى محطة فيها هذا العش !

٤

هواجس حول وحدة الشعب الفلسطيني

عملي في الجريدة طرأت عليه متاعب جديدة ضاق صدري بها . فصار السفر إلى الأردن أو لبنان وسيلة للفرار . وحين لا يوفر عملي فرصة السفر ، كنت أتبع أسبابي ، أو أختلق سبباً ، وأفرّ .

أما المتاعب الجديدة فقد حلت حين نحّت قيادة الحزب رئيس التحرير الذي حدثتك عنه الدكتور ناجي الدراوشة وعينت أسعد صقر محلّه . أفرط ناجي في انحيازه إلى كتلة العسكر فاستبدلته القيادة بواحد من المفرطين في الولاء لكتلتها . كان أسعد وزيراً للإعلام ولم يفلح في قيادة الوزارة ذات المهام الحساسة . وما أن تبدلت الحكومة حتى فقد الرجل منصبه . ويبدو أن القيادة لم تجد ما توكله إلى رجلها هذا أفضل من رئاسة تحرير «البعث» . فصار لي هذا الرئيس الجديد ، واقتضى الأمر أن تتضاعف معاناتي .

تستحق شخصية هذا الوجه من وجوه اليسار البعثي أن أعرّفك بها بشيء من التفصيل . لقد جبلت هذه الشخصية من مزيج ، إن كان في عناصره ما هو متجانس بعضه مع بعض فقد حوى الكثير مما هو متباين : تأثير الموروث من أمجاد العروبة ، الحقيقي منها والمتوهَّم ، وتأثير الفكر القومي المعاصر ، ما روجه منه ساطع الحصري أو ميشيل عفلق أو زكي الأرسوزي أو آخرون على

شاكلتهم . كان المجبول من هذا المزيج مفتوناً في نحو خاص بالأمجاد العربية السالفة وأفكار زكي الأرسوزي المعاصر . وفي هذا كلّه ، كان الرجل متعصباً تعصباً يجعل فكره وسلوكه كليهما حادين ويبغّضه بكل من يختلف معه في الرأي أويتبع سلوكاً مختلفاً . أبغض أسعد كل من ليس بعثياً ، وأبغض من البعثيين أنفسهم كل من ليس موالياً لكتلته ، وأبغض من هؤلاء كل من لا يوالي ناساً بعينهم في هذه الكتلة ولا يشاركه الإعجاب بهم . لم يزد ما جمع أسعد بالكتلة وشعاراتها اليسارية على الروابط الشخصية التي ربطته بعدد من ناس الكتلة . حتى هؤلاء كان بينهم من ضاقوا بحدّة رفيقهم وجفوة سلوكه وفظاظته في التعامل مع الآخرين . وكان هو يظن أنه هو الأشدّ إخلاصاً والأقوم سلوكاً وظل يتجاهل ملاحظات رفاقه حول سلوكه ويمعن في الفظاظة دون رادع .

وها أنا ذا أتذكر افتتاحية كتبها رئيس التحرير هذا في ذكرى استيلاء البعثيين على السلطة في العراق . فقد استحضر المفتون بقسوة رفاقه العراقيين المذابح التي اقترنت بهيمنتهم على السلطة وكان الشيوعيون في مقدمة ضحاياها ؛ نسي ما استجد على فكر فريقه اليساري الذي تنصل من مسؤولية المذابح ونسبها إلى اليمين العفلقي ، وأغفل التطوات الكثيرة التي أفضت بفريقه إلى التعاون مع الشيوعيين ، ولم يجد ما يقوله في تمجيد الذكرى أفضل من مهاجمة الشيوعيين والتباهي بنجاح الهجوم البعثي عليهم في بغداد . وفي هوسه بما لم يعد كثيرون مهووسين به ، وصف صاحب الافتتاحية الشيوعيين بأنهم «حمر مستنفرة فرّت من قسورة» ، فأدهش قراء الجريدة وأثار سخط بعضهم وسخرية بعضهم الآخر . ولم يأبه أسعد برد فعل القراء ، بل تباهى بأنه اقتبس من القرآن الكريم هذا الوصف لأنه أشد الأوصاف انطباقاً على أعداء حزب البعث .

لم يحمل لي أسعد صقر أي مشاعر طيبة ، بل أبغضني بغضاً لم يجتهد في تمويهه ، وأبغض ، أيضاً ، اثنين آخرين في الجريدة هما ألصق كتّابها بي : أديب خضور وبرهان غليون غير البعثيين . ضاق الرجل ضيقاً شديداً بما نكتبه نحن الثلاثة ، واستغرب قبول قيادة حزبه وجودنا في الجريدة وتوفيرها الحماية لنا ، وذلك كله قبل أن يتولى رئاسة التحرير . فلم يكن غريباً ، إذاً ، أن نتوجس أسوأ النتائج حين جاء هذا المبغض إلى الجريدة وصار مسؤولاً مباشراً عنا . والواقع أن الرجل تعجل السعي للتخلص منّا فلم تستجب القيادة لمسعاه ، فحاول أن يطوعنا لكتابة ما يريد هو فلم نرضخ . وأجج الفشل بغض الرجل لنا فقام بما هو مشروع وما هو غير مشروع لتسليط الأذى علينا .

في سياق ذلك ، وجه رئيس التحرير إلينا نحن الثلاثة أمراً إدارياً يحدد حجوم المقالات التي ينبغي أن يكتبها كل منا وعددها وموضوعاتها . وقد توخى الرجل أن يشوّه سمعتنا عند القراء غير آبه لحقيقة أن سمعة الجريدة ستسوء هي الأخرى . وبين أغرب ما اشتمل عليه الأمر الإداري ، كانت مطالبة كل منا بأن يكتب كل أسبوع مقالاً طويلاً يملأ ما يزيد على نصف صفحة في الجريدة وآخر قصيراً بحجم عامود واحد وثالثاً يشغل حجماً بين الحجمين . أما محتوى المقالات فقد أوجب الأمر الإداري أن يكون مفعماً بالروح القومية . فإذا أخذت في اعتبارك أن مقاييس صاحب الأمر للروح القومية هي من النوع الذي يضيق به حتى قومي متشدد ، فلك أن تتصور قسوة ما عانيناه !

آنذاك ، كان فرسان الكتابة الذين استقطبهم رئيس التحرير الأسبق طيب الذكر إميل شويري ، ومنهم سعد اللّه ونوس ، قد غادروا الجريدة الواحد تلو الآخر ولم يصمد في الميدان المتعب سوانا نحن الثلاثة ، وكنّا ، أديب وبرهان وأنا ، نشكل فريقاً متجانساً في العمل حتى مع اختلافنا في الآراء وتنوع

اهتماماتنا . وفي المكان غير الفسيح الذي تشغله الجريدة ، خُصصت لنا حجرة واحدة نعمل فيها مجتمعين ، فكنا نتبادل الآراء ونتشاور ونتعاون باستمرار . ولما صرنا ثلاثتنا مستهدفين ، قوي تضامننا . وكان في هذا ما أجج بغض رئيس التحرير لنا وجعله يطاردنا مطاردة بالأوامر والعقوبات .

جاء أديب خضور من أوساط الناصريين . أما برهان غليون فكان معدوداً في المستقلين وكان ولعه بالماركسية في بدايته ، وأما أنا المطرود لتوي من الحزب فلم أكن أموه ولعي بالماركسية أو أتهيب الجهر بصداقتي مع الشيوعيين . ولأننا لم نستجب لمحاولات إذلالنا وتطويعنا ، فقد أعلنها أسعد صقر حرباً مجلجلة ضدنا . ثم ازداد الطين بللاً حين انضم سعيد حمامي إلى شلتنا . ولئن كنا نحن الذين طالت مماحكاتنا مع رئيس التحرير قد تدربنا على مواجهة سخطه ، فقد افتقر سعيد المستجد إلى الصبر ، وطال النزاع واحتدم وتنوعت وسائله .

أطرف الوسائل تمثل في عمليات التجسس . في البداية ، أوجب رئيس التحرير على الذين يمالئونه أن يترصدونا . ولأن هؤلاء معروفون ، فقد أمكن أن نضللهم أو نستخدمهم في نقل أنباء مضللة إلى رئيسهم . ثم خطا رئيس التحرير خطوة أخرى ، تذاكى الرجل فاستخدم وافداً جديداً أوصاه بأن يتظاهر بصداقتنا . سأذكر الوافد الجديد هذا باسمه الأول ، محمد . وقد كان محمد بعثياً قدم من طرابلس لبنان سعياً إلى الظفر بعمل مريح في ظل حكم الحزب في سورية ، وتوفرت له الفرصة في «البعث» . حياته العملية بدأها محمد في طرابلس منذ كان صبياً ، فقد عمل في دكان لبيع اللحوم يملكه أهله وأتقن المهنة فيما تابع الدراسة إلى أن ظفر بشهادة جامعية وسجل نفسه طالباً في الدراسات العليا للظفر بالماجستير . ضمّ رئيس التحرير الوافد الجديد إلى القسم الذي نعمل فيه نحن الثلاثة وأفهمه أن استمراره في العمل وتمتعه

بالامتيازات الاستثنائية مرهونان بنجاحه في إيذائنا .

ولك أن تعرف أن الشاب الطرابلسي لم يفتقر إلى المواهب والمزايا ، وخصوصاً خفة الدم ، غير أن قدرته على الكتابة لم تبلغ الدرجة التي تجعله نداً لأي منّا . ومع حرصه على استرضاء رئيس التحرير ، أولى محمد كثيراً من جهده للظفر بالماجستير وأخفى الأمر عن رئيسه حتى لا يعدّ هذا انصرافه إلى الدراسة معطلاً لأدائه واجبات العمل . لكن محمد لم يستطيع أن يخفي الأمر عنّا ، ثم لم يلبث أن أدرك أننا قادرون على مساعدته في تطوير أدائه المهني كما في دراسته ، فتشبث بالفرصة وأظهر لنا وداً زائداً حتى وهو يتجسس علينا . ولأننا أخلصنا لمحمد النصح كما كنّا سنفعل لأي زميل في وضعه ، فقد بلبلته أريحيتنا وأوجعت ضميره . وإلى هذا ، كان محمد عاشقاً يضنيه عشقه . فأجير القصابين علق طرابلسية أبى أهلها أن يزوجوها له ، وهو لايجد في دمشق من يبوح لهم بلواعجه سوانا . وهكذا ، جمعنا بمحمد رسالتُه الجامعية وعشقُه . وقد أولينا عشق صاحبنا اهتماماً لم يقلّ عن اهتمامنا بالرسالة . وبهذا ، اشتد بلبال الموكل بالتجسس علينا ووجع ضميره . وفي هذا الوضع ، لم يظفر رئيس التحرير من جاسوسه إلا بأقلّ القليل ، فسخط عليه وعامله بامتهان . وكنا نشهد هذه المعاملة ونحن لا نعرف السبب ، فنشفق على محمد ونواسيه . كنت أنا مستشار محمد الأثير لشؤون الغرام ، وصار برهان مستشاره لشؤون دراسته ، وتولى أديب تدريبه المهني . ومنذ انضم سعيد إلى الشلة ، تخصص في تحريض محمد ضدّ رئيس التحرير . وبجهودنا ، كما بدأبه هو ، حل محمد مشكلتيه كليهما : أتم إعداد رسالته الجامعية ، وجاءت الحبيبة إلى دمشق واحتفلنا بالزواج الباهر .

في غضون ذلك ، تقوت صلتنا بمحمد ، ولم يحتمل الطرابلسي وجع ضميره إزاءنا ، فدعانا إلى منزله وحرر صدره من مخزونه الموجع . يومها ، بكى

الشاب كما يبكي طفل أساء إلى أهله ، وأقرّ بما قام به ضدنا كلِّه ، وكاشفنا بعجزه عن تحدي رئيس التحرير الذي يملك لقمة عيشه بعد أن صارت العودة إلى طرابلس متعذرة خشية أن يتعرض هو أو زوجته لانتقام أهلها الساخطين . وتوقع محمد أن ننفر منه . غير أننا عذرنا صاحبنا ، بل لقد أكبرنا فيه جرأته على الإقرار بالذنب الشنيع . وفوجئ المذنب بموقفنا المتفهم وأنعش التحرر من وجع الضمير خفة دمه : «ما رأيكم في أن أصير جاسوساً مزدوجاً ، أخلص الولاء لكم ، ونضحك على رئيس التحرير» .

بعد الفشل المتواتر ، فاجأنا رئيس التحرير بحزمة من القرارات تذكر بقرارات الانقلابات العسكرية : قرار بوقفي عن الكتابة وتحويلي إلى قسم الأخبار ؛ قرار يلزم برهان المستقلّ بكتابة مقالات تلتزم بخط الحزب السياسي كما يفهمه رئيس التحرير ؛ وقرار يحوّل أديب إلى مصحح للأغلاط المطبعية . أما سعيد فكان وقتها قد ترك الجريدة وتفرغ للعمل في «فتح» ليعاني على أيدي منغِّصين آخرين .

استعدت ، إذاً ، صلتي القديمة بقسم الأخبار أنا الذي سبق لي أن تناوبت رئاسته مع الصحافي الفلسطيني كمال تفاحة أيام رئاسة إميل شويري لتحرير الجريدة . وتحدى أديب حماقة أسعد صقر بطريقة فعالة ، فانكب على تصحيح الأغلاط بمثابرة حسنت مردود هذا العمل تحسيناً ملحوظاً ، واستحق احترام الجميع له وظفر بتعاطفهم التام معه . وتعجل برهان غليون إنفاذ المشروع الذي كان يعد العدّة لاستكماله ، فغادر سورية كلّها وتوجه إلى باريس حيث أنهى دراساته العليا وواصل الكتابة وانصرف إلى التدريس والتأليف .

حمل سلوك رئيس التحرير معظم المعنيين بالأمر على التعاطف معنا . وكان أشدّ ما ساء الرجل أن مكتب أديب الذي بقي هو ومحمد وحدهما في الحجرة المشتركة قد تحول إلى محجة يؤمها المتعاطفون معه والساخطون على

التعسف . وبدل أن يراجع الرجل نفسه ، أمعن في الحماقة فأصدر أمراً جديداً أوجب على أديب أن يداوم في المطبعة التي تشغل قبو مبنى مجاور وحظر عليه دخول مقرّ الجريدة . وقد انتقل أديب فعلاً إلى القبو وحظي فيه بأتم الترحيب والتكريم من العاملين في المطبعة كلّهم . وكان لهذا وقع الفضيحة . وفي سعينا لتكبير الفضيحة وتغذية الاهتمام بها ، وجه أديب رسالة خطية إلى رئيس التحرير مكتوبة بلغة ديوانية منتقاة يطلب فيها أن يُصرف له ما يوجب القانون السوري صرفه للعاملين في المطابع . فأصدر رئيس التحرير قراراً مكتوباً بصرف بيضة وكأس حليب لأديب كل يوم . وحرصنا على أن يقرأ المنشغلون بالشأن العام في دمشق نص الرسالة ونص القرار . وتندرنا وتندروا هم بحماقة رئيس التحرير . وجلجلت في البلد فضيحة نقل كاتب متميز مثل أديب إلى العمل في المطبعة ومنعه من الكتابة . وفي غضون ذلك ، اشتد أذى أسعد صقر لي : تحريض ، وعقوبات إدارية متلاحقة ، ومهانات .

وفي كل حال ، كان أشدّ ما يؤذيني هو اضطراري لحضور اجتماعات التحرير التي يرأسها الرجل ويرغمني على حضورها بحكم سلطته الإدارية . كان هذا رجلاً مولعاً بعقد الاجتماعات وإطالتها ، وكان يتمتع بجلد مرؤوسيه بأفكاره . ولعل كل ما ألحقه الرجل بي من أذى كان وقعه عليّ أهون من الاستماع إليه في الاجتماعات التي يكون هو في العادة المتحدث الوحيد فيها . وقد سيطرت على الرجل نظرية لم يمل من عرضها وتكرار العرض في كل اجتماع . وقوام النظرية أن فشل العرب في استعادة أمجادهم السابقة ناجم من سبب واحد وحيد ، وهذا السبب هو إفراطهم في شرب الشاي . وعند الرجل أن الشاي هو الذي يقعد أمة العرب عن اللحاق بالأمم الأخرى المتقدمة . يتحدث أسعد صقر عن العرب جملة ويأخذ عليهم أنهم يشربون الشاي مرات عدّة كل يوم فيبددون الوقت دون طائل ، كما يأخذ عليهم أنهم

يغلون شايهم غلياً فيجيء الشراب أسود ثقيلاً فيبلد الأذهان ويثقل الهمم، فتنسد سبل استعادة الأمجاد الغابرة، فتتقدم الأمم الأخرى ويظل العرب متخلفين.

صاحب هذه النظرية كان هو نفسه شارب شاي مواظب، ولم يكن يكفّ حتى خلال شرحه لنظريته عن طلب كأس شاي وراء الآخر وتجرعه بتلذذ ظاهر. بل إن الرجل كان يطلب الشاي للمشاركين في الاجتماع دون استشارتهم ويجيل نظره فيهم كأنما ليتأكد من أنهم يتجرعونه بغير امتعاض. وحين قلت مرة إن العرب يشربون القهوة أيضاً، قذفني الرجل برد حازم: «القهوة شيء مختلف، فهي تجلو الدماغ وتنشط الهمة»، وتصور أنه أفحمني واسترخت تعابير وجهه المشدود وطلب دورة شاي جديدة، هو الذي لم يشرب القهوة، أبداً، أمامي.

وبعد أن فشلت في وقف مسلسل المضايقات، طويت كبريائي، أو قل إني تجاوزت حساسيتي الزائدة، وتوجهت إلى د. يوسف زعين وسألته هذا السؤال: «هل يتقصدني رفيقكم بالأذى تنفيذاً لتعليمات من القيادة التي فصلتني من الحزب، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا تصارحني القيادة بعدم الرغبة في وجودي في الجريدة فأستقيل وأستريح وأريح؟». كنت أعرف أن الأمر «ليس كذلك»، وكنت عازماً على الفرار من الجوّ الثقيل وأردت بسؤالي الاستفزازي أن أهيئ الرجل الذي طالما حماني للاستماع إلى رغبتي. كان في المتناول فرصة العمل في المؤسسات الفلسطينية. غير أني كنت ألزم نفسي مبدأ لا لزوم له فأرفض أن أتقاضى أجراً عن نشاطي في ساحة المقاومة الفلسطينية. كنت أتطلع إلى فرصة أخرى يوفرها لي الصديق الذي أستفزّه بسؤالي. لم يؤخذ د. زعين بالاستفزاز، بل أكد ثقته بي وتقدير القيادة لكفاءتي ونسب ما أتعرض له إلى ما هو معروف من طبع أسعد صقر. ورأى

زعين أن أبقى في «البعث» . وبعد حديثي هذا مع رئيس الحكومة الصديق ، توقف مسلسل العقوبات وعاد إليّ حق الكتابة . أما ما لم يتوقف فهو فظاظة رئيس التحرير وبغضه الشديد لي وضيقي به .

مع هذه المعاناة ، صار السفر نعمة . وقد اشتدت حاجتي إلى الانعتاق بعد أن غادرنا برهان وانشغل أديب في البحث عن عمل جديد ، وفقدت طرافات محمد جاذبيتها . وهكذا ، بهذا الدافع وغيره ، لم يمرّ أسبوع واحد دون أن أتوجه إلى عمان أو بيروت . ووفر لي التنقل أوسع الفرص لمتابعة الشأن الفلسطيني وتقصّي تفصيلاته والتعرف على دخائله وتمتين صلتي بناسه . حتى لقد تصور كثيرون أني متفرغ لهذا الشأن وحده . وانتهى الأمر إلى أن صرت معدوداً في العارفين بدقائق الساحة الفلسطينية وخفاياها فضلاً عن معرفتي بالشأن السوري . وإلى هذا عُرف عني أني لست ممن يستثمرون الأسرار حين يبوح بها من يفتحون قلوبهم لي . وقد أفادني هذا كله فائدة كبيرة ، خصوصاً اكتساب الثقة وتشجيع القادة على البوح . شيء آخر أفادني ، شيء له صلة بطبعي الذي يضيق بالكذب والتضليل . فقد كنت أتوقف عن الإصغاء لأي متحدث أياً كانت منزلته حين أدرك أنه يهول أو يريد استخدامي لترويج أنباء غير صحيحة . وانتهى الأمر بيني وبين معظم من أتصل بهم إلى اتفاقات قوامها شرط واضح : تُروى لي الوقائع الصحيحة وللراوي أن يحدد ما يجوز نشره وما لا يجوز فألتزم أنا رغبته . وما أكثر القصص التي وقعت لي مع القادة الذين يسعون إلى ترويج الأكاذيب عبر الصحافيين ! . وكانت كل قصة تبدأ باحتجاج مني حازم ضد الكذب واحتجاج من الراوي غاضب على اتهامي إياه بأنه يكذب فتنتهي إما بجفوة وإما باتفاق على تجنب الكذب . وبإمكاني أن أزعم أني نجحت في تطويع عدد من القادة فظلوا حريصين على توخي الصدق معي . كما أن بإمكاني الإقرار

بأني فشلت في تطويع آخرين ولم تسمح لي الظروف بمجافاتهم فظل علي أن أصغي إليهم حتى وأنا أعلم أنهم يهوّلون . وها أنا ذا أستحضر أمثلة : كم كان الاتفاق على شرطي الأثير سهلاً مع خالد الحسن ؛ وكم كابدت إلى أن توصلت إلى الاتفاق مع نايف حواتمه ثم لم يلتزم به ؛ وكيف تعذر التوصل إلى أي اتفاق مع ياسر عرفات !

سمعت باسم خالد الحسن أول مرة في أواسط الخمسينات . كنت أنا ولداً أعيش مع الأسرة في دمشق وأنتمي إلى تنظيم عرب فلسطين السري مع أولاد أقسموا على أن يحرروا فلسطين وأراقب جهود الكبار الذين أتهمهم بشتى التهم وأعدهم مقصرين في العمل لتحريرها . وكان خالد شاباً يعيش هو الآخر مع أسرته التي التجأت إلى دمشق ويسعى إلى تحرير الوطن الذي أُخرج منه . نشأ خالد في أُسرة محافظة . وعندما أَسس الشيخ تقي الدين النبهاني حزب التحرير الإسلامي وأنشأ الحزب منظمة سرية له في دمشق ، انتمى خالد إليه وبرز بوصفه ناشطاً لصالح الحزب مسكوناً بالتوق إلى التحاور مع الآخرين ومجادلتهم حول شتى الشؤون . لا أعرف كيف نشأت العلاقة بين خالد وخالي نافذ ، وأغلب ظني أنهما تعارفا عبر صديقهما المشترك نمر المصري الذي يكبرهما في السن والذي كان آنذاك أبرز دعاة حزب التحرير في العاصمة السورية . وقد ألف خالد أن يزور منزلنا بمفرده أو في صحبة آخرين ويختلي بخالي . وكما يفعل الصغار حين يرون الكبار منهمكين في أمر غامض ، كنت ، أنا الذي كان لي أمري الغامض أيضاً ، أتسقط ما يدور وراء الباب . وانطبع صوت خالد الحسن المتميز في ذاكرتي مثلما انطبعت صورة الوجه المتموج دوماً بالتعابير والقامة الطويلة المهيبة والحركات التي تبثّ شتى الإيحاءات .

ثم حدث أن انفصلتُ أنا عن الأسرة كما تعرف وسافر خالد إلى الكويت

فلم أعد ألتقيه أو أسمع عنه . ولأمر ما ، لم أربط بين خالد وشقيقه الأصغر بلال حين تعرفت على الأخير ، كما لم أربط بينه وبين شقيقه الآخر هاني حين عرفت أن هاني انضم إلى هايل عبد الحميد «أبو الهول» في ألمانيا ثم انضم الاثنان إلى «فتح» . الربط تمّ بعد أن توثقت صلتي بالدكتور نبيه ارشيدات واتضح لي أن أم خالد التي تغرّب أولادها عن منزل الأسرة لا تثق بطبيب في دمشق إلا بالشيوعي نبيه ولا توكل شأنها الصحي لسواه . ونبيه هو الذي نبهني إلى الصلة بين خالد وإخوته الآخرين وكان يضرب أسرتهم مثلاً على تنوع الآراء داخل الأسر الفلسطينية ، خالد المنتمي إلى حزب ديني وبلال الناشط في حركة القوميين العرب ، ثم الجبهة الديمقراطية وهاني الواقف بين الحدّين .

قطع خالد صلته بحزب التحرير الإسلامي وانضم إلى مؤسسي «فتح» وصار من أنشط الداعين إلى أن يتولى الفلسطينيون زمام المبادرة لتحرير وطنهم . وصرت ألتقي الرجل كما ألتقي غيره من قادة الفصائل الفلسطينية إلى أن شاء سعيد حمامي أن يوثق صلتي بهذا الذي رأى سعيد فيه قائداً متميزاً . وبالرغم من تطرفه اليساري ، أُعجب سعيد بالقائد المعدود في اليمينين والتصق به أكثر مما التصق بأي قائد سواه . وأخذ سعيد على عاتقه مهمة تعريف اليساريين بخالد وكان لديه ما يسوغ حماسه للمهمة : العمل الوطني يجمع اليسار واليمين . وكان في خالد ما يجذب أمثالنا إليه . فقد تميز الرجل باهتمامه بالشأن السياسي في وقت طغي فيه الاهتمام بالبندقية وكان غيره من الفتحاويين يتباهى باستهانته بالسياسة .

وفي أول سهرة نظمت لتمتين التعارف بيننا ، اجتذبني إلى خالد الحسن مزايا أخرى ؛ لم تبهرني آراؤه السياسية ، بل بهرني حرصه على أن يجلو مواقفه بوضوح ويدافع عنها باستقامة . وأعجبني في الرجل إدراكه لحجم الدور

الذي يلعبه الكفاح المسلح ، الحجم الحقيقي وليس المتوهم ، وتصوره أن الكفاح المسلح لازم لجذب الانتباه إلى حال الفلسطينيين وتقوية الاهتمام بحقوقهم . أما أسلوب الرجل في الحوار فبدا واضحاً أنه ما يزال متأثراً بأسلوب التحريريين وإن أعجبني تماسكه وتوخيه الانتقال من مقدمة إلى نتيجتها دون فجوات . وأما طول النفس في الحوار والحرص على استخلاص ما هو مشترك والرغبة في معرفة الرأي الآخر فقد كانت أميز ما ميز خالد الحسن عن نظرائه .

عرض خالد آراء كثيرة أعدّها أنا خاطئة ، غير أن هذا لم يقلل من انجذابي إليه . وها أنا ذا أتذكر أن حوارنا تناول نقطة احتدم جدلنا بشأنها . كان الرجل يرى في استفزاز الفلسطينيين لإسرائيل وسيلة لدفع الدولة العدوة إلى التحرش بالعرب ، كما يرى أن هذا التحرش سيحمل الدول العربية على الرد فيورطها في الصراع ويوجب عليها أن تستعد له سواء كانت هذه الدول راغبة فيه أو لم تكن ، فتظل القضية الفلسطينية بهذا حيّة إلى أن يجيء الوقت الذي يميل ميزان القوىٰ فيه لصالح العرب . جعل خالد من هذه الفكرة التي لها أنصارها الآخرون نظرية وشغل نفسه بها . وقد اشتهرت هذه باسم نظرية التوريط ، وعُني هو بشرحها وتطويرها . أدرك أبو سعيد ما هجس به غيره وهو أن الفلسطينيين غير قادرين لوحدهم على تحرير وطنهم ، ورأى أن الدول العربية متقاعسة ، فالتقط فكرة توريط هذه الدول وفُتن بها . أما أنا فكان من رأيي أن التوريط حين يقصد لذاته بمعزل عن حساب موازين القوى والتنسيق مع العرب الآخرين لن يقود إلا إلى الكوارث . وكنت أهجس بنوعين من الكوارث ، كوارث يلحقها العربُ الذين يأبون أن يتورطوا بالفلسطينيين ، وأخرى أشدّ تلحقها إسرائيل بالجميع . وكنت أرى أن السياسة الفلسطينية الصحيحة هي تلك التي تتوخى تحقيق أقصى درجات التنسيق مع العرب . ولم يكن خالد الحسن يعترض على رأيي هذا ، إلا أنه تصور أن جهد

الفلسطينيين لتوريط العرب سوف يدفع الدول العربية دفعاً إلى توخي التنسيق معهم .

تكرر اللقاء ، ثم تواترت اللقاءات باضطراد متزايد . جاء أبو سعيد إلى منزلي مرات مع سعيد حمامي ، ثم آثر أن يجيء وحده . كان يطيب للرجل أن يلقاني بعد أن يفرغ من مشاغل نهاره وهمومه فنتسارّ ونتحاور . وكان الحوار يشتد أو يتعقد عند نقطة أو غيرها إلا أنه لا يخلف أي ضغائن . ولأني اكتشفت أن لزائري شهية طيبة ، للطعام كما للشراب ، فقد ألفت أن أعدّ له بنفسي أطباقاً خاصة وأخصه بأفخر المشروبات فيطيب الحديث ويصير أكثر حميمية . وقد ظل هذا هو شأني مع خالد الحسن حتى بعد أن ساءت علاقته بسعيد حمامي . وحين طلب سعيد أن أجاريه في مجافاة خالد الحسن ، أبيت الاستجابة لنزوة صديقي .

في ذلك الوقت ، كنت قد صرت معروفاً بأني صحافي مؤيد للسوفيات وداعية مثابر إلى توسيع العلاقات معهم . ولئن أَعجب هذا بعض الذين يعرفونني فقد ساء آخرين . وراجت حولي إشاعات كثيرة تضمّن بعضها اتهامي بأني أغلب الولاء للسوفيات على أي ولاء آخر . أما خالد الحسن فكان مبغضاً للشيوعية وكان بغضه هذا ينعكس على موقفه من الاتحاد السوفياتي . غير أن انهماك الرجل في العمل الوطني الواسع أدخل تأثيرات جديدة على موقفه ونبهه إلى حاجة العمل الوطني الفلسطيني إلى الدعم السوفياتي . كان أبو سعيد في هذه الناحية يمينياً حقاً كما كان براغماتياً . لكن تصور القائد الذي صاره الرجل لشرور الشيوعية لم يطمس عنده حقيقة ما يقدّمه الاتحاد السوفياتي للعرب من معونات . وكثيراً ما جادل أبو سعيد محاوريه بشأن دوافع السوفيات إلى الاهتمام بالشرق الأوسط وانتقد هذا أو ذاك من أوجه سياستهم ونجاعتها ، غير أنه لم ينكر أهمية المساعدات التي يقدمونها للعرب .

إلا أن القائد الذي كان يتولى مهمة تمتين علاقات «فتح» بالمملكة العربية السعودية وغيرها من الدول المحافظة ويحقق في هذا المجال نجاحات مضطردة حرص على أن لا يُشتهر عنه ميله إلى توسيع العلاقات مع الاتحاد السوفياتي. وإلى هذا، بل في مقابله، تأثر الرجل باعتقاد ساد آنذاك في «فتح» كما في غيرها، اعتقاد عددته أنا ساذجاً، وكان قوامه أن بالإمكان حمل السوفيات حملاً على مطابقة موقفهم إزاء إسرائيل مع الموقف الفلسطيني وإقناعهم بضرورة العمل لإزالة إسرائيل من الوجود. وكان أبو سعيد بين الذين تصوروا أن الحوار مع السوفيات حين تدعمه الحجج الفلسطينية الباهرة سوف يؤدي إلى هذه المطابقة. وكان الرجل يأخذ عليّ ما يعدّه هو دفاعي المستميت عن الموقف السوفياتي المؤيد لقرار مجلس الأمن الدولي ٢٤٢، فكان الحديث عن البلد الاشتراكي يشغل، إذاً، حيزاً واسعاً في حواراتي معه. ولم أستبعد أن يكون محاوري قد تأثر بالإشاعات التي تتناولني. كما لم أستبعد في أول تعارفي بخالد الحسن أن يكون ممن تصوروا أني أغلب فعلاً الولاء للسوفيات على الولاء للوطن. وكما حدث مع غير أبي سعيد، صبرت نفسي على ما توجسته من شكوك فيّ إلى أنْ لاحت أول فرصة لوضع الأمر في نصابه السليم.

تمّ هذا عندما شاء أبو سعيد أن يستفيد من علاقتي الشخصية الحميمة بالسفير السوفياتي في دمشق، نور الدين محي الدينوف، فطلب مني أن أرتّب له لقاءً مع هذا السفير. وكان هذا بالنسبة لي طلباً مألوفاً ومشروعاً ومفهوم الدوافع، وكثيراً ما أديت مثل هذه الخدمة لعدد آخر من قادة الفصائل. غير أن صيغة الطلب أسخطتني بعض الشيء، إذ أنها وشت بشكوك صاحبي بشأن علاقاتي بالسوفيات. ولأكثر من سبب، كتمت سخطي. غير أني بيت في نفسي أمراً، ونقلت رغبة القائد الفتحاوي إلى صديقي محيي الدينوف.

وواجهني محي الدينوف بأن طالب اللقاء يميني معاد للسوفيات ، وبدا غير ميّال إلى الالتقاء به . وحاججت أنا بأن هذا رأي في الرجل غير دقيق ، وأضفت أن من واجب السفير أن يحاور قائداً له وزن خالد الحسن أياً ما كان عليه رأيه فيه . ولم أترك محي الدينوف إلا بعد أن تحدد موعد اللقاء المطلوب . جرى هذا فيما أبو سعيد خارج دمشق . فتعمدت أن أتصل بمكاتب «فتح» العديدة ، الواحد إثر الآخر ، وأترك في كل مكتب رسالة : استجاب السفير السوفياتي لطلب الأخ خالد ، وسيكون في انتظاره . . .

قد يصعب عليك أن تدرك مغزى سلوكي هذا بتمامه . فبسمعة خالد الحسن بما هو يميني معادٍ للسوفيات ، وبما أفضت إليه المنافسات والنمائم الفلسطينية حين بلغت حدّ اتهامه بأنه عميل للسعوديين أو حتى للأميركيين ، أثار طلبه الالتقاء بالسفير السوفياتي ما توخيته أنا من ضجّة وعدّه بعضهم فضيحة واتسع اللغط حوله . وعندما رجع صاحب الطلب إلى دمشق ، فوجئ بالحكاية المجلجلة في كل مكان . وتعجل الرجل المجيء إلي ، وبادرني ساخطاً : «ما هذا الذي فعلته بي ؟» .

هنا ، جاء أوان وضع الأمر في نصابه : إذا أذن أبو سعيد لنفسه بأن يؤخذ بإشاعات الساحة المفتونة بالنمائم فيظن أني مستخدم لدى الـ ك . ج . ب . فمن حقي أنا أن أصدق الإشاعات فأعدّه مستخدماً لدى الـ س . آي . اي . فتكون واحدة بواحدة ، ثم لا نجد ما نفعله سوى أن يشتم أحدنا الآخر كما يفعل قليلو العقل الكثيرون في ساحتنا . أما إذا شاء الرجل أن نتعامل كما يتعامل شركاء الهم الواحد فيختلفون على أشياء ويتفقون على غيرها ويتعاونون فسيجد فيَّ شريكاً نزيهاً وصديقاً مخلصاً . قلت هذا لزائري الساخط ودعوته إلى البتّ في هذه النقطة حتى لا تشوب الهواجس السخيفة علاقتنا .

يومها ، أظهر خالد الحسن قدرته على طيّ انفعاله المتعجل مثلما أظهر

تواضعه ، ومنذ ذلك الوقت استقامت مساراتنا وتعززت القاعدة : ثقة متبادلة ، وتبادل صريح للآراء والمعلومات ، واتفاق على ما يروّج أو لا يروج منها . لم أحد أبداً عن الالتزام بهذه القاعدة . ولم يكذب علي أبو سعيد في أي مرة ولم يخدعني أبداً ولا ضنّ علي بأي معلومة مفيدة . وصار من عادة هذا الصديق كلما احتاج إلى التخفف من أثقال مخزونه أن يلقاني ويبوح بما يثقل عليه ويستمع إلى ملاحظاتي . كما صار من عادتي أن أبحث عن القائد المستقيم كلما احتجت إلى التدقيق في أي معلومات .

ولو توجب أن أصف خالد الحسن بكلمات قليلة لقلت إن الرجل كان واحداً من القادة القليلين الذين يوائمون بين قناعتهم وسلوكهم ، وكان في هذا من أكثرهم عصرية وأجدرهم بالاحترام .

نايف حواتمه ، أبو النوف حسب الكنية الشائعة ، أو أبو خالد كما يحبّ هو أن يُكنّى ، كانت لي معه تجربة من نوع مختلف . وقد أجهدت نفسي كثيراً كي أصل إلى اتفاق مع الرجل على القاعدة التي ذكرتها لك ، ولكنني لم أفلح في إلزامه هذه القاعدة بالرغم من موافقته عليها .

قدم نايف إلى الساحة الفلسطينية من شرق الأردن . وهو ابن مدينة صغيرة ، لكنه أيضاً ابن المجتمع الذي تأخر انتقاله من البداوة إلى الحضر . وهو المجتمع الذي لم يتحقق له هذا الانتقال إلا بتأثير التطورات العاصفة التي ألمت بالشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى والتطورات اللاحقة للقضية الفلسطينية ، العاصفة هي الأخرى . وبما هو انتقال متعجل تمّ بتأثير عوامل طارئة أكثر مما هي أصيلة ، فقد بقي مضطرباً ومختلطاً ، فحل الجديد دون أن تتحقق له الغلبة أو يكفّ القديم عن التأثير . وعندما انتقل الفتى نايف إلى بيروت من أجل الدراسة ، لم يكن بعد بدوياً ، لكنه لم يكن بريئاً من تأثير المجتمع الذي ينحدر منه ، وهو لم يبرأ من هذا التأثير في أي وقت من الأوقات

اللاحقة . واحتلّ الموروث تأثيره في الفتى ثم في الرجل الذي صاره الفتى ، في أفكاره ، وسلوكه ، وطرائق تعامله مع الناس والأشياء والوقائع . وقد انتسب نايف إلى حركة القوميين العرب وبرز بين نشطائها . ولئن هيأ النشاط في منظمة سياسية لصاحبنا فرص التماسّ مع أفكار العصر واكتساب عادات سلوك متقدمة ، فإن فكر الحركة القومي المتزمت وعصبويتها التنظيمية وعداءها للمنافسين والخصوم لم تهيئ ما يكفي لإبعاد الشخصية كثيراً عن البداوة .

كانت شعارات : دم ، حديد ، نار ، وهي أقانيم الحركة المقدسة ، ونداءات الثأر التي لونت سياسة الحركة منسجمة مع الموروث البدوي ، فعززت تأثيره على صاحبنا . وعندما انجذبت الحركة إلى تأييد الرئيس جمال عبد الناصر ودعوته العربية القومية ، تصرفت إزاء الزعيم ذي الفكر المتقدم حقاً على فكرها بوصفه سيّد القوم ، فحلّ زعيم الأمة عند أعضاء الحركة محل سيّد العشيرة البدوية . ولم يكن غريباً أن تؤيد الحركة من إجراءات الزعيم ما اعترض عليه المصريون والعرب الآخرون المستنيرون . ولعلك تعرف أن حركة القوميين العرب أيّدت من سياسات عبد الناصر أكثرها مجافاة للديمقراطية وهللت لبطشه بالإخوان المسلمين ، والشيوعيين ، والبعثيين ، والديمقراطيين من صغار البرجوازيين أو كبارهم ، تماماً كما هللت لبطشه بالرجعيين . وفي مساندتها لعبد الناصر ، عملت الحركة على إثارة حسّ القوم لدى الجمهور ضد خصوم سيد القوم . بالرغم من هذا ، فإن انهماك الحركة في التيار الناصري الواسع أحدث تأثيره فيها . فقد انطوى هذا التيار على كثير مما هو عصري وتقدمي . بل لعل هذه أن تكون أهمّ سماته . فانعكس الأمر على أعضاء الحركة ونوّع التوجهات داخلها وأنبت فيها بذور الاهتمام بشؤون الجمهور الاجتماعية والمعيشية . ولأن درجات التأثير تفاوتت من عضو إلى آخر ، ولأن التأثير ذاته زعزع القناعات القديمة ، فقد صار لا بدّ من أن تهتز الحركة وتتعرض

لانشقاقات متوالية . وفي المحصلة ، مال جسم الحركة الرئيس إلى تلوين الطروحات القومية المتعصبة بسمات الطروحات التقدمية .

ومع التأثير المضطرد للفكر الاشتراكي ، وخصوصاً الماركسي ، انضاف لون آخر ، فتراكمت الألوان وتداخلت . وعند إضافة أي لون جديد ، بارح الحركة عدد من ناسها المتشبثين بالقديم وانجذب إليها ناس جدد ، خصوصاً من طلبة الجامعات والمدارس في لبنان وسورية وغيرهما . وفيما الحركة واقعة تحت تأثير الألوان المتوائمة أو المتباينة ، أعلن عبد الناصر توجهه الصريح نحو الاشتراكية واتخذ التدابير الاقتصادية والاجتماعية المشهورة في سياق هذا التوجه . وكان العيار هذه المرة أثقل من أن تبقى الحركة بعده موحدة . ونشأ الجدل ، وامتدّ ، واحتدم . وتمايزت المواقع تمايزاً أخذ يحتدّ . واشتد تمايز اليسار عن اليمين . وانتهى الأمر بجسم الحركة الرئيسي إلى أن يندفع ناحية اليسار دون أن يبرأ من التزمت القومي . ثم لم يلبث أن وقع التطور الرئيسي الذي حلّ في هدي التأثير الكاسح لهزيمة العرب في حزيران/يونيو ١٩٦٧ : قفزت الحركة إلى أمام عبد الناصر بعد أن حملته مسؤولية الهزيمة . وجهرت الحركة بالميل إلى الماركسية دفعة واحدة وانجذبت خصوصاً إلى الماوية ، وخاصمت عبد الناصر ذاته فيما استمرت في مخاصمة البعثيين . وكان نايف حواتمة في مقدمة القافزين إلى سرج الماركسية الذين اتهموا الآخرين ، الناصريين والبعثيين ، بأنهم برجوازيون صغار يتحدثون عن الاشتراكية ولا يؤمنون بها .

هذه القفزة زادت ، بالطبع ، بلبال الحركة فهزتها أفقياً وعامودياً هذه المرة . وغادر الحركة عدد من الموسرين ، وانفض عنها عدد من المناصرين ، وبقي الذين استمرؤوا القفز ، فلم يكفوا عن الاندفاع من موقع متطرف إلى آخر أشد تطرفاً . وفي هذا السياق ، قفزت الحركة من تحفظها السابق على الكفاح المسلح الفلسطيني ، وهو التحفظ الذي أملاه في حينه ولاء الحركة لعبد

الناصر ، وحركة القوميين العرب هي التي روجت مع «فتح» أكثر الشعارات فتكاً بالعمل السياسي : الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد وهو استراتيجية وليس تكتيكاً ؛ والسياسة تنبع من فوهة البندقية ، وما إلى ذلك ، وكان نايف ، أو قل إنه بقي في مقدمة المروجين . وفي هدي تقديس البندقية ، أسست الحركة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين لتكون فصيلها المسلح . ثم لم يلبث أن ألغى وجود الجبهة والجبهات المماثلة التي أنشأتها فروع الحركة في غير بلد وجودَ الحركة ذاته وطمس ذكره . وفي هذا ، أيضاً ، كان نايف في المقدمة وبرز بوصفه من يساريي الجبهة . ومع توالى القفزات وما تحدثه من بلبلة ، صار نايف زعيماً معترفاً به لهذا اليسار .

اليسار الذي تزعمه نايف اختلف مع الأمين العام للجبهة د . جورج حبش . وتبلور حول الرجلين تياران تخاصما ، ثم تقاتلا بالسلاح . وانتهى هذا كله ، على عجل يعكس شخصية نايف المتعجلة ، بانقسام حاد . فاستقلّ نايف وفريقهُ عن الجبهة الأم ، وتأسست الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين وصار نايف أميناً عاماً لها . ثم سقط من هذا الاسم كلمة الشعبية وبقي الاسم الذي اشتهرت به : الجبهة الديمقراطية .

عدّ نايف وناس فريقه ولادة جبهتهم ولادة لليسار الفلسطيني الجديد ، ولم يكتفوا بمخاصمة حركتهم السابقة بل خاصموا أيضاً اليساريين الفلسطينيين والأردنيين جميعهم وعدّوهم أقل ثورية من أن يُحتسبوا في صفوف اليسار . وعندي : أنشأ نايف قوماً من نوع جديد ونصب نفسه سيد هذا القوم . وقد اقترن هذا التطور بوقائع دامية وأخرى غير مألوفة ، وأثار بهذا اهتماماً يفوق حجم الجبهة الوليدة ، فتهيأ لنايف أن يصير نجماً جديداً في الساحة ، وطاب له أن يتميز عن نجومها العديدين .

سأصارحك بأني لم أسمع باسم نايف حواتمه قبل ولادة الجبهة

الديمقراطية إلا عرضاً . ولعل انتباهي إلى وجود نايف بدأ منذ انتبهت إلى تبجحه وهو يعين نفسه زعيماً لليسار فوق أي يسار . ولا تستوعب ذاكرتي تاريخ أول اجتماع ضمني مع الأمين العام للجبهة الديمقراطية . ولا بد من أن يكون لقاؤنا الأول قد جرى في وقت ما من أواخر العام ١٩٦٨ أو أوائل ١٩٦٩ . في ذلك الوقت ، كانت الاشتباكات التي اقترنت باستقلال الجبهة الديمقراطية عن الجبهة الشعبية ما تزال تقلق عمان . وكان للجبهة الأم قبل انقسامها قاعدة هي في واقع أمرها شقة في بناية ملاصقة لمسكن قريبي عمر . وقد ثابر أنصار حواتمه على مهاجمة الشقة لتحريرها من أنصار د . حبش . وغالباً ما وقعت الهجمات في الليل . فكانت لعلعة الرصاص تؤرق نوم القاطنين في الجوار . وقد وعدت عمر الذي أقيم في منزله أن أبذل جهدي لتحرير أسرته وجيرانه من المخاوف وتمكينهم من الظفر بنوم مريح . ولا بدّ من أن يكون سعيد حمامي هو من لجأت إليه وهو الذي رتب اللقاء بحواتمه .

كان سعيد حمامي ، شأنه شأن معظم الفتحاويين ، مع أي عمل يضعف د . جورج حبش ويخفف غلواء مزايداته ، فكان واحداً من الذين شجعوا نايف في البداية دون أن يقلّ ضيقه بتبجحه عن ضيقي أنا به . وفي اللقاء الذي شارك فيه سعيد ، كان من الطبيعي أن أتحدث أنا بصراحة جعلها السخط قاسية وأحتجَّ على الهجمات السخيفة وأندد بمخاطرها على الأبرياء الذين ليس لهم نوق أو جمال في الخلاف الناشب بين الجانبين المتخاصمين . ولم يؤخذ نايف بما قلته ، بل عدّ حرب اليسار ضد اليمين حرباً واجبة ، وقال إن على الجماهير أن تنهمك فيها انتصاراً لليسار الممثل لمصالحها بدل أن تتأذى من مخاطرها ، واحتج على احتجاجي ، واتهمني بأني متخاذل يشجع الآخرين على التخاذل أمام اليمين . كل هذا واليمين عند نايف هو د . جورج حبش وفريقه .

ولكي تعرف طبيعة المشاعر التي تناوبتني وأنا أستمع إلى سيد اليسار هذا ، لا بد من أن تعرف أن أنصاره كانوا محدودي العدد وأن تأثيرهم في الساحة الفلسطينية كان أضأل من أن يبيح لسيدهم قليلاً أو كثيراً من المباهاة . ولم يكن غريباً ، إذاً ، أن أخرج من اللقاء بأسوأ الانطباعات .

اشتط نايف في الاكتساء بالسمات الماركسية ، واختص نفسه بأكثرها إثارة للجدل . ولأن الرجل لم يعرف من الماركسية وتطوراتها إلا نتفاً مجتزأة ومتفرقة ، فإن ماركسيته لم تبدل سمات البداوة والتعصب القومي المستقرة في شخصيته . وكان في شخصية الرجل ختل لعله من موروث البداوة الغابرة أو مكتسبات القفز المتواتر من موقع إلى غيره ، فلم يكن للعلاقة معه أن تستقيم . وكان في الشخصية هذا الشيء الذي لا أجد له اسماً ، الشيء الذي يجعل المتسم به عاجزاً عن إظهار تميزه إلا بالتهويل من شأن نفسه والتهوين من شأن غيره . وقد ألف نايف أن ينسب ما يرويه إلى معلومات خاصة تلقاها بسبل لا يفصح عنها أو إلى مصادر رفيعة الشأن خصته هو وحده بالمعلومات . وما أكثر ما كانت تتكرر في روايات نايف عبارات كهذه العبارات : عندنا تقارير ، جاءنا من عبد الناصر ؛ طلبنا من البعثيين ؛ قلنا للسوفيات ؛ أبلغ الصينيون إلينا ، اتصل بنا كاسترو ليخبرنا . فإذا دققت في الأمر ، كما صرت أنا أفعل ، فستكتشف أن التقارير كتبها عضو في الجبهة مستغرق في الصدام مع اليمين ؛ وما جاء من عبد الناصر ليس سوى المستخلص خطأً أو صواباً من مقابلة أجراها الزعيم الكبير مع صحيفة أجنبية قرأ نايف ترجمة لها ؛ وما قاله هو للسوفيات لا يعدو كونه حديثاً أجراه هو مع صحافي سوفياتي أو بياناً أصدرته الجبهة وأوصلت نسخة منه إلى السفارة السوفياتية ؛ وما أبلغه إليه الصينيون هو ما قاله مراسل «شينخوا» وهو يحثه على انتقاد الموقف السوفياتي ؛ واتصال كاسترو ليس سوى اتصال أجراه واحد من العاملين في

السفارة الكوبية . ولكلام نايف نبرة واحدة لا تتبدل إلا حين يخرجه الحنق عن طوره فيفيض لسانه بالموروث القديم وتحتدّ النبرة .

وها أنا ذا أتذكر يوماً أصدرت الجبهة الديمقراطية فيه بلاغاً عسكرياً روى أن قواتها المسلحة الثورية خاضت مع قوات الاحتلال الإسرائيلي معركة امتدت على خط في الأغوار طوله مائة وعشرون كيلو متراً . وقد سمى البلاغ هذا الخط الجبهة الحمراء . وكان من السهل أن أدرك سر هذا التهويل وهذه التسمية . فقبل أيام ، روى بلاغ صدر عن قوات العاصفة الفتحاوية أن هذه القوات اشتبكت مع القوات الإسرائيلية على خط طوله ثمانون كيلو متراً ، وسمى البلاغ الفتحاوي هذا الخط الجبهة الخضراء .

ذهبنا ، سعيد حمامي وأنا ، إلى نايف حواتمة ، وتحدثنا عن مخاطر التهويل البغيض والأوهام التي يغرق العمل الفدائي جمهوره بها . كان بلاغ «فتح» قد استند إلى قليل جداً مما هو صحيح . فقد وقعت بضع عمليات متفرقة في أغوار الضفة الغربية فوصل التهويل الفتحاوي بين المواقع المتباعدة فجعلها جبهة وأشعل فيها معركة . واحتذى التهويل الديمقراطي بتهويل «فتح» ونافسه ، فتميز عنه إذ جعل الجبهة أطول وكساها باللون الأحمر دون أن تكون قوات الديمقراطية قد قامت في ذلك اليوم بأي عملية . وكما نددنا بتهويل «فتح» أمام قادتها ، نددنا بتهويل الديمقراطية أمام نايف . وفاجأنا ردّ فعل لم نتوقع أن يبلغ تلك الدرجة من المكابرة : «بلاغ فتح كاذب مائة في المائة . أما بلاغنا فليس فيه حرف واحد زائد على الحقيقة» . عندها ، لم يعد بمقدور أي شيء أن يحبس السخط . وقد انفجر سخطي . فسمع نايف منّي ما أظن أنه لم يسمع مثله من أحد قبلي . ولدهشتي ، تطامن الرجل بدل أن يثور إزاء ثورتي عليه ، وراح يهدئني : «إذا كان البلاغان كاذبين فلماذا ينصبُّ الهجوم علينا وحدنا ولا تُهاجم «فتح» هي الأخرى» .

يومها ، كررت عرضي على نايف : «لماذا لا تريحني وتستريح منّي فنتفق على القاعدة التي أتعامل بها مع غيرك» . وأظهر نايف استعداده للاتفاق ، أظهره على طريقته : «نحن لا نخفي عنك الحقائق أبداً» . وتصورت أني ظفرت بشيء يمكن أن أبني عليه اتفاقاً أوضح وأرسخ . وفي أحاديثه معي ، مال نايف بعدها إلى التواضع وارتفعت نسبة الصدق . لكن هذه الأحاديث لم تبرأ أبداً من التهويل ولم يتسنّ لي أن أطمئن في أي لقاء معه إلى صدق رواياته . وانتهى أمري مع الجبهة الديمقراطية على هذا النحو : صرت أستمع إلى نايف فأعرف ما الذي تريد الجبهة ترويجه ، ثم أتوجه إلى ياسر عبد ربه الأمين العام المساعد للجبهة الملتزم بقاعدتي فأستخلص الحقائق الصافية . وفي هذا النحو ، نشأت بيني وبين ياسر صداقة قدّر لها أن تدوم .

أما من تعذر علي حمله على الالتزام بأي قاعدة فهو ياسر عرفات . كان هذا من أول أمره رجلاً يتعذر إلزامه أيّ قواعد ثابتة . قد لا يقول عرفات لا لأي اقتراح ، بل إنه غالباً ما يقول نعم حين تعرض عليه تفاهماً حول أي شيء . وكثيراً ما تقترن نعم عرفات بحماس ظاهر . وقد كان هذا هو شأن الرجل معي عندما تبسطت في الحديث معه مرة وعرضت قاعدتي عليه . غير أن هذا الرجل لا يلزم نفسه أي شي لا بالنعم ولا باللا ، وليس من السهل إحراجه بعد ذلك ، فهو لا يتوخى أن يشيع عنه أنه صادق مثلما لا يتهيب أن يشاع عنه أنه مهوّل . عرفات رجل السمعة المختلطة ، وهو يستفيد مما تجيء به السمعة الحسنة والأخرى السيئة وما يجيء به اختلاط السمعتين . وهو القائد الذي يحرص أتمّ الحرص على أن يحتفظ بهامش المناورة مفتوحاً إلى أقصى مدى ممكن .

لا بدّ من أنك تتذكر كيف تعرفت أنا على ياسر عرفات في أواسط الستينات قبل أن يصير الزعيم المشهور الذي تعرفه أنت . وقتها ، كان عرفات

يكثر المجيء إلى دمشق ويطيل المكوث فيها ويتابع نسج العلاقات مع المسؤولين السوريين وتأسيس مواقع «فتح» بين الأوساط الفلسطينية فيها . كان هذا رجلاً جمّ النشاط ، يصل عمل الليل بعمل النهار ، ويترصد الفرص السانحة ، ويخلق فرصاً جديدة ، ولا يفوت الاستفادة من أي فرصة . وكان هو الذي يجيء إلى مكتبي في الجريدة ، إذ لم يكن له في دمشق ، بعد ، مكتب مطروق أذهب إليه ؛ كان يصابحني أو يماسيني ، حسب الأحوال ، أو يصابحني ويماسيني في يوم واحد ؛ وكان يحتاج إلى خدمة أو غيرها مما يمكن أن أؤديه فأؤديها ، فكان يذكرني بالخير في غيابي كما في حضوري ويفرطُ في الثناء عليّ .

قد يرى غيري في عرفات شخصية عصية على الفهم . وقد يفشل من لم يكابد حالة اللجوء الفلسطينية في فهم هذه الشخصية . أما أنا ، ابن هذه الحالة وثمرتها ، الغارق بكليتي فيها ، فما أسرع ما فهمت الرجل وما أيسر ما قرأت مكونات شخصيته ! وقد توفر لي من المعرفة بشخصية الرجل ما حصنني ضد تهويلاته . أما ما احتجت لبعض الوقت كي أتحصن ضد تأثيره فهو براعة عرفات في خلق أشياء كبيرة من أشياء صغيرة أو اختلاق أشياء من لا شيء . والحقيقة أن قدرة الرجل في هذا المجال كادت تكون بغير حدود . وهناك سمة أخرى ، أهمّ من هذه وأخطر ، احتجت لوقت أطول لكي أتيقن من أني أدركتها إدراكاً سديداً . فقد تبين لي أن الرجل بارع في خلق الأجواء التي ترغم المحيطين به على تأييده حتى وهم يعرفون أنه يهوّل أو يختلق . وكثيراً ما تبنى بعضهم رواية أو أخرى لعرفات ، موقفاً أو غيره ، وروّجه وهو يتصور أن في ترويجه خدمة جليلة للنفس أو الفريق الذي ينتمي إليه المروّج أو القضية الوطنية . وقد امتلك عرفات قدرة فذّة على معرفة طبائع الذين يحتك بهم واستخلاص ما هو نبيل أو خسيس في دوافعهم وإيلاء كل منهم المهمة التي تلائم طبعه . وكان عرفات في هذا بالذات أبرع الذين عرفتهم في حياتي

وأقدرهم .

شيء آخر بزّ عرفات فيه نظراءه جميعاً هو التعويل على الصلات الشخصية وإحلال العلاقة الخاصة في تأسيس الولاء لشخصه محل الدعوة العامة والمماهاة بين الولاء لشخصه والولاء للقضية العامة . وفي هذا المجال لم يتهيب عرفات أن يسلك بما لا يتفق مع سلم القيم المتداولة ، ولم يشغل نفسه بالتماهي مع هذه القيم أو ادعاء الالتزام بها . ولا يمكن الادعاء أبداً بأن عرفات كان في أي وقت مهووساً بما يعدّه بعضهم مكارم الأخلاق أو مشغوفاً بإلزام ناسه إيّاها . لم يتردد عرفات في دفع الخسيس من ناسه دفعاً لعمل ما يتواءم مع خساسته إن كان في هذا ما يجلب فائدة أو يحل مشكلة . ولم يتساهل عرفات نفسه في إلزام المستقيم من ناسه بمعايير الاستقامة حين يحتاج إلى إنفاذ مهمة لا ينفذها إلا ذو سمعة طيبة . الطامحون إلى المجد ، المبدئيون ، صادقو الوطنية ، يستخدمهم عرفات في الاتجاه الذي تتوفر فيه الفرص لتلبية طموحاتهم . والطامعون في المال ، وأصحاب الشهوات ، والتواقون إلى المغامرة ، وأضرابهم ، يوفر عرفات لهم الفرص ، يوفرها الرجل غير الهيّاب بمثابرة يعتقد معها أي واحد منهم أن القائد معني بتلبية حاجاته هو شخصياً ومنصرف إلى توفير أتمّ الفرص له : العمليات العسكرية للتواق إلى القتال ، والخطر منها للمقدام ؛ السفر لمحبّ الترحال ؛ مواجهة الخصوم ؛ شغل المناصب القيادية ؛ البروز في وسائل الإعلام ؛ مراكمة الثروات ؛ التجسس على الآخرين ؛ وغيرها ؛ لكل حالة الأشخاص الذين يستهويهم الاستغراق فيها .

وبمقدار ما يتعلق الأمر بي ، استخلص هذا الرجل الذي لا يفوته الانتباه لشيء أني أحرص أكثر ما أحرص على نظافة السمعة ، وأدرك أني عصيّ على الإفساد بالمغريات الشخصية حذرٌ إزاء شبهات التورط فيها ، سريع التأذي

إزاء أي معاملة تفتقر إلى الاحترام . قال عرفات هذا لي فأسرتني دقة استخلاصه ، وقاله عني لغيري فطوقني به ، ولم يكفّ ، بالطبع ، عن استخدامي كما يستخدم سواي . اكتشف الرجل فيّ خصلة لم أكن أنا نفسي قد فطنت بعد إلى تأثيرها الشديد عليّ ، فآثرني بمعاملة لا تنطوي على الاحترام الكامل فقط ، بل توحي لي بأنه يخصني أنا وحدي بهذه المعاملة وهذا الاحترام . كان عرفات يستقبلني فور وصولي إليه أياً كانت مشاغله حتى لو جئت على غير موعد ، فكان لا يلقاني إلا باشّاً أياً ما كان عليه مزاجه ، ولا يقبل أن أغادر مجلسه لأتيح الفرصة لوافد جديد أياً ما بلغته مكانة هذا الوافد . وكان عرفات يحرص في حالة كهذه الحالة على استبقائي وإشراكي في مداولات مجلسه حتى لو تناولت المداولات الجارية أُموراً لا ينبغي أن يطلع عليها صحافي . وبقي لي دائماً الحق في أن أختلي بعرفات ، أو أخاطبه وشوشة في حضور الآخرين ، كلما وجدت أنا ضرورة لذلك . وفي كل الأحوال ، كان الرجل المشهور بامتزاج اللين والقاسي في خطابه لا يخاطبني إلا بتوقير شديد ، ولا يندبني ، لا في السر ولا في العلن ، إلا لمهمات نظيفة لا يثقل أداؤها على أي ضمير . وإذا ندبني الرجل لمهمة فكان يطلبها مني بصيغة رجاء . وإذا اقترحت أنا مهمة أقوم بها ، كان الرجل يقرن قبوله اقتراحي بإظهار إعجابه به وامتنانه لمبادرتي .

واكتشف عرفات فيّ خصلة أخرى هي حرصي على أن يصغي القادة إلي بانتباه ويوسعوا صدروهم لانتقاداتي حتى حين تكون شديدة القسوة ، فكان يتيح لي أتم الفرص .

في مقابل هذا ، كان عرفات يلزمني ما يعلم أني ألزم نفسي إياه وهو الحرص على السلوك الذي أتصور أنه نافع للقضية الوطنية . كان الرجل يروي وقائع أعرف ما فيها من تهويل ، وكان يورد روايته في سياق يبدو معه التهويل

لازماً لخدمة القضية ، فيضمن أني سأغض الطرف عن هذا التهويل وأني لن أتعفف عن ترويج الرواية أو المصادقة عليها بالصمت . وحين كنت أفاتح عرفات بأمر فيدرك أني مطلع على وقائع يسوؤه نشرها ، كان يواجهني بنظرة يجبهني مغزاها قبل أن يفصح عن هذا المغزى بالكلام : «أهذه أشياء تنشر ، هل تريد أن يشمت بنا أعداء الشعب الفلسطيني !» .

وبعد أن كبر العمل الفدائي ونمت قدراته واتسعت شعبيته ولم يعد لازماً التذرع بأن الجهر بانتقاد السلبيات يضرّ به ، بارحني الحرص على التكتم على ما يسيء إلى السمعة أو قل إن رأيي في هذه المسألة تبدّل . وقد فاتحت عرفات برأيي هذا متصوراً أن بإمكاني إقناعه به : من الخطر أن تبقى السلبيات بغير انتقاد ، التجاوزات ، وأوجه السلوك الشاذ ، والاستفزازات التي يتعرض لها سكان المدن والقرى على أيدي ناس الثورة ، والروايات المهولة عن معارك وإنجازات متوهمة ، وغير هذا مما يماثله مما هو كثير في واقع الأمر . قلت هذا وأضفت إليه أن الإيغال في هذا السلوك يفقد الثورة صدقيتها ويدفع الجمهور إلى الإحباط . ورويت لعرفات ما عرفته عن سلبيات الثورة الجزائرية وما ذكره لي أصدقاء فيتناميون عن سلبيات ثورتهم . وقلت إن سلبيات الثورة الفلسطينية فاقت أي حد يمكن غض النظر عن مخاطرة وقد غطى التهويل على الوقائع والمنجزات الحقيقية حتى كاد يطمسها . وحذرت من أن المتحدثين باسم الثورة صاروا على وشك أن يفقدوا تأثيرهم على الجمهور . كنا في خلوة ظفرت بها بناءً على طلبي لأني شئت أن يفيض مخزوني من دون تحرج . يومها ، أصغى عرفات إليّ دون مقاطعة . وعندما بادر إلى الحديث ، بدأ بالتعبير عن احترامه لدوافعي وامتنانه لصراحتي وتفهمه لما يشغل بالي ويقلقني ، وشكرني لأني لم أخف عنه انتقاداتي التي تتصل بسلوكه هو بالذات . أما عندما ناقش الرجل الانتقادات ذاتها ، فقد تفنن في استعراض

المسوغات التي تفسر وجود السلبيات كما تفسر صعوبة إزالتها . وتوخى الرجل إقناعي بأن هذه السلبيات أقل خطورة مما أتصور وأضأل حجماً ، فيما الإيجابيات كثيرة وعميقة التأثير .

وعن السلبيات التي تتصل بسلوكه هو ، أقر الرجل بصواب انتقاداتي لبعضها ناسباً وجودها واستمرارها إلى كثرة مشاغله وضغط الظروف القاهرة ، وخالفني بشأن بعضها الآخر .

قلت أنا ، مثلاً ، إن «الألَبَنْده» التي يلجأ هو إليها لاجتذاب الأنصار وتزيين المواقف والتحايل على المشاكل والعقبات غدت ضارة فضلاً عن أنها صارت مكشوفة وفقدت تأثيرها . استخدمت هذا التعبير العامي المصري «الألبنده» لأن عرفات لا يتقن إلا اللهجة المصرية ولأني لم أقع على تعبير مفهوم أدق منه . ورويت واقعة كانت حديثة العهد متوخياً إظهار خطر شيوع الألبنده هذه في سلوك ناس الثورة . فقد اتصل بي أحدهم من عمان ورجاني أن أهيئ لعقد مؤتمر صحافي كبير . قال الهاتف إن الفدائيين قد خاضوا لتوهم معركة مشرّفة في الأغوار وأسقطوا طائرة حربية إسرائيلية وسيحمل عاقدو المؤتمر إلى دمشق قطعاً من حطام هذه الطائرة . كان هذا حدثاً يستحق لو صدقت الرواية أن ينعقد من أجله مؤتمر صحافي . فقد أتعبت السيطرة الإسرائيلية الجوية الفدائيين ، وليس قليلاً أن يتمكن هؤلاء من إسقاط طائرة بوسائلهم المحدودة . فاستثمرت صلتي بوزير الإعلام السوري ومساعديه كلهم . وهُيئت القاعة الكبيرة في مبنى الإذاعة والتلفزيون لاستقبال الثوار الفلسطينيين وغنيمتهم . ومن حسن الحظ أن طرأ ما أرغمني على الذهاب إلى المبنى أبكر من الموعد فتسنى لي أن ألتقي القادمين من الأغوار قبل أن يلتقيهم أي صحافيّ غيري . وقدّم واحد من هؤلاء نفسه لي على أنه قائد المعركة وهو يعلم أني أعلم أنه إعلامي وليس مقاتلاً . كان القائد المزعوم يلفّ

رأسه بالكوفية بغير إتقان ويتمنطق بمسدس كبير الحجم وقد قال إنه هو الذي سيتحدث إلى الصحافيين . وبسط «الألبنداويّ» أمامي قطعة معدنية قُصّت من خزان البنزين الإضافي الذي تحمله الطائرات المغيرة وتتخفف منه عادة بعد أن ينفد بنزينه . وكان في القطعة أكثر من مائة ثقب زعم رجل الكوفيّة أن رشاشات الثوار الموجهة نحو الطائرة هي التي أحدثتها . وكان تصديق هذا الزعم يعادل أن أصدق أن بالإمكان أن تنصب مائة طلقة على نصف متر مربع من جسم طائرة حربية وهي في الجو أو أن الطائرة توقفت في الجو لتمكن الثوار من صبّ رصاصهم في هذه القطعة .

رويت الحكاية لعرفات فتلقاها بابتسامة حذرة . ثم كررت : «ضرر الألبندة أكثر بكثير من منافعها . التهويل قد يجلب منافع ، لكن منافعه مؤقتة أما ضرره فدائم» . وصارحت عرفات بأملي في أن يبدأ هو بنفسه ويفعل شيئاً لوقف الشطط . غير أن رد فعل الرجل أعادني إلى ما كنت فيه : «أهذا كل شيء ؟» ، وقبل أن أدرك مرمى السؤال ، أضاف عرفات بنبرة حملت أكثر ما يمكن لعبارة واحدة أن تحمله من استنكار : «الآن تضايقك الألبنده ، هل نسيت أني بهذه الألبنده صنعت لكم ثورة ، لا تكن مثالياً !» .

تابعت الظاهرة الخطرة بانتباه ومثابرة وواجهت استفحالها كما فعل كثيرون غيري وذلك كله دون طائل . لقد نبع الميل إلى المبالغة والتهويل من حاجة متأصلة فتعذر لجمه أو وقفه عند حدّ . إنها الحاجة إلى تعويض حرمان الماضي وقصور ذات اليد في الحاضر . هل نسيت ما رويته لك عن يوسف ابن خالي وما قاله لأبناء قرية كرتيا حين جئنا إليها في العام ١٩٤٨ أطفالاً لاجئين بعد أن اقتلعنا الظلم من قريتنا ، المسمية ، وألقى بنا في التيه والعوز . ألم يزعم يوسف أن أباه امتلك في قريتنا خيولاً وأن خيول أبيه المزعومة كانت تسابق الريح فتسبقه . هل وصلت إليك أحاديث اللاجئين عن بيارات

البرتقال وبساتين الزيتون وكروم العنب التي خلفها كل واحد منهم في البلاد ، عن الأمجاد والبطولات التي اجترحوها ، وعن الدور والقصور . ياسر عرفات وغيره من القادة هم يوسف ابن خالي وقد كبر ، هم ممثلو اللاجئين المحرومين ومرآتهم التي تعكس حاجتهم إلى التعويض عن الحرمان . كان أحمد جبريل ، مثلاً ، قادراً على إدهاش مستمعيه لساعات متصلة بروايات عن وقائع كلها مختلقة ، ومثله كان غيره . كلام يدور بالعامية ، أو بالفصحى ، بالعربية أو بغيرها ، ويصور إنجازات تحققت وخططاً في قيد الإعداد ومشاريع في قيد التنفيذ دون أن يسنده من واقع الحال إلا أوهن الأسانيد . ولو جاز أن أتقصى أسماء الذين فعلوا الشيء ذاته لتوفرت لك قائمة تضم عدداً كبيراً من قادة الصف الأول والثاني والثالث والأخير . ولم يكن ياسر عرفات إلا سيّد الجميع أو قل إنه كان الممثل الأمثل لحالة اللجوء . وعرفات ليس هو الذي علم الآخرين سحر التهويل إلا أنه هو الذي برّ الجميع في استخدامه . ولقد كان الرجل في هذا المجال داهية وأي داهية !

والآن ، بإمكانك أن تدرك لماذا فشلت في إلزام عرفات بالقاعدة التي ألزمت بها آخرين . وعليّ أن أقر بأن فشلي مع الرجل كان كاملاً وأني كففت حتى عن المحاولة .

وما دمنا بصدد الحديث عن ياسر عرفات فينبغي القول إن هذا الوجه من أوجه شخصيته ليس هو الذي جعل له الجاذبية التي اشتهر بها . فقد كانت للرجل إلى ما تقدم كله مما قد تعدّه سلبياً أو إيجابياً وجوه إيجابيتها سافرة . وعندي ، إن أهم ما تحلى به عرفات تمثل في جرأته على المبادرة حين ينطلق في اتجاه ما يراه هو صائباً حتى لو صدمت مبادرته الآخرين . وفي هذا المجال ، تحلى عرفات بالقدرة على التقاط اللحظة التي يكون للمبادرة فيها تأثير كبير . وما أكثر ما التقط عرفات اللحظات المناسبة للانطلاق فلم يتهيب إزاء العقبات !

وقد تمكن عرفات من اختراق غابة العلاقات المتشابكة والمصالح وأوجه السلوك والأفكار المتضاربة داخل «فتح» وبين الفصائل ووسط الساحة الفلسطينية كلها والأخرى العربية ثم الدولية ، وجعل من وجوده ونشاطه فيها جميعها ضرورة يحتاج إليها حتى الذين يختلفون معه أو يضيقون به . وتمكن عرفات من أن يبقى بين الفلسطينيين الأول في أي شأن وبين القادة العرب الندّ حين لا يكون الأول أيضاً . ولو شئت أن أصف لك الرجل بكلمات قليلة ، مع تعذر الإحاطة بشخصيته بقليل أو كثير من الكلمات ، لقلت إنه كان المهول الأول بين المهولين والصادق الأول بين الصادقين ؛ يحجم حين يحجم فيبز أوهن الاستسلاميين ، ويقدم حين يقدم فيبزّ أشجع الشجعان ، يسرف في تشجيع الفساد فيذكرك بأفسد سلاطين بني عثمان ، ويتشدد في محاسبة المستقيمين فيذكّر بأبخل البخلاء ؛ يفعل الشيء ونقيضه بحساب ، ويسيطر عليه معياران أخشى أن لا ثالث لهما عنده : توطيد مكانته ونفوذه ودفع القضية التي أعطاها عمره كله إلى ما يرى هو أنه صالح لها . وقد وصفت أنا عرفات مرة ، بين مازح وجاد ، بأنه الصادق في كلّ شيء حتى حين يكذب والكاذب في أي شيء حتى حين يصدق . وها أنا ذا أرى بعد الخبرة المديدة أن الرجل هو هذان الاثنان وغيرهما مما هو كثير ومتنوع . ومن غير النادر أن يتصور مراقب لتقلبات سلوك عرفات الظاهرية وتبايناتها أن في سلوك الرجل وقيمه ما هو هابط أو متخلف . غير أن هذا المراقب ذاته لن يكاد يستقر على تصوره حتى يشهد عرفات وهو يتبع أرقى مستويات السلوك وأشدّها استقامة وألصقها بروح العصر .

لقد تنبأت منذ وقت مبكر بأن عرفات سيظل الرجل الأقوى في الثورة الفلسطينية مهما تبدلت الظروف ، وسيظل الأول ، ليس لأنه يجد لكل حالة لبوسها ، بل لأن الاستعداد للبوس أي حالة موجود فيه . اللاجئ الأول هو الرجل الأول في ثورة اللاجئين .

لقد شغلتني السمات التي تميز حالة اللجوء منذ انتبهت إلى التباينات السافرة في شخصيات ناس الثورة الفلسطينية . ووجدت في التأثير المتواتر لحالة اللجوء ما يفسر أن يكون الشخص الواحد صادقاً وكاذباً ، مستقيماً ومختالاً ، وفياً ومهملاً ، مقداماً وجباناً ، شريفاً وخسيساً في آن واحد . وخشيت من أن يؤدي تفاقم هذه الحالة واستطراد تأثيرها إلى تبديد وحدة الشعب الفلسطيني كما يؤدي إلى تبديد وحدة الشخصية الفردية .

وفي مناقشات مع الأصدقاء حول هذه الحالة وتجلياتها ، وقعت على تفسير أقنعني بمقدار ما أثار هواجسي . صديقي د . منير الحمارنة كان هو أول من هداني إلى هذا التفسير . فافتقار اللاجئ إلى الارتباط بشكل واحد من علاقات الإنتاج يفقد الشخصية مرتكزها فيغيّب سماتها الأصلية ويشتت وحدة تكوينها . وإذا أضفت إلى هذا أن اللاجئ الفلسطيني الواحد قد يتأثر بمقدار أو غيره بعدد كبير من أنواع علاقات الإنتاج دون أن يكون أي منها خاصاً به فستدرك لماذا تتفاقم الحالة وتشتد التباينات . يأبى الفلسطيني ، عموماً ، أن يقرّ بتأثير هذه الحالة لأن إقراره يتعارض مع حاجته للانتماء إلى وطن وماضٍ له في هذا الوطن ومستقبل . ويعزّي الفلسطيني نفسه بأنه لاجئ إلى مجتمعات عربية من نوع مجتمعه الأصلي وهي جميعها تنويعات متجانسة لأمة واحدة . ويغفل الفلسطيني أن الأمة هذه مجزأة على عدة بلاد ودول لكل واحدة منها سلطة وسوق وعلاقات إنتاج مختلفة عن الأخرى . وقد تعزز اقتناعي بهذا التفسير في هدي ملاحظتي لسمات القادمين إلى الخارج من الأرض المحتلة . فقد لاحظت بسهولة السمات المشتركة للقادمين من قطاع غزّة والسمات المشتركة للقادمين من الضفة وبرء شخصياتهم من تباينات كثيرة تسم شخصيات الشتات .

وفيما أنا مشغول بقناعتي هذه مفتون باهتدائي إليها ، تصادف أن طلب

مني يوسف فيصل الأمين العام المساعد للحزب الشيوعي السوري أن أكتب لجريدة الحزب «نضال الشعب» . فتعجلت البوح بما اكتشفته وكتبت مقالاً جعلت له هذا العنوان «من هو الشعب الفلسطيني ؟» . صغت المقال بصيغة أسئلة تشير إلى الأفكار وختمته بهذا السؤال : ما هو الأشدّ تأثيراً في تعزيز وحدة شعب أو تبديدها ، الرغبات أم علاقات الإنتاج ، وهل يتشكل الشعب حسب رغبات العاملين في الحقل الوطني أم أن تأثير علاقات الإنتاج هو الذي يشكله ؟ ولم تنشر «نضال الشعب» هذا المقال ، أو قل إن صديقي يوسف فيصل لم يشأ أن يحمّل جريدة حزبه مسؤولية ما تنطوي عليه أسئلتي من هواجس ، فاعتذر بأن الوقت غير ملائم لإثارتها . وغاظني الاعتذار ، وقلت للقائد الشيوعي : «سترى أن الصحافة الفلسطينية ذاتها ستنشر مقالي» . والواقع أني أنا الذي نشر المقال في «صوت فلسطين» التي يصدرها جيش التحرير الفلسطيني وأشارك في تحريرها .

وأثار نشر المقال لغطاً وردود فعل ساخطة ، ووصل أمره إلى عرفات . وفي السياق ذاته ، نشرت في المجلة في عدد آخر مقالاً جعلت له هذا العنوان : «الثورة الفلسطينية ولدت واقفة على رأسها» . في هذا المقال ، ذكّرت بأن ثورات التحرير تنشأ عادة داخل أوطانها المحتلة وتطلب الدعم من الخارج ويضمنه دعم اللاجئين المبعدين عن الوطن . أما الثورة الفلسطينية فقد نشأت في الخارج وسط اللاجئين وها هي تَنشُدُ دعم ناس الوطن . هذا المقال أثار سخطاً أشد من سابقه . وانتهى الأمر بوقف المجلة عن الصدور ثم لم تعاود الصدور إلا بعد أن تبدلت هيأة تحريرها وأقصيت أنا عنها . وكان عرفات هو الذي أوقف صدور المجلة وبدل هيأة تحريرها ، لكنه لم يفاتحني في أمر أي من المقالين ولا جرؤت أنا على مفاتحته . لقد أدركت أني تورطت في قول ما لا يقال وتعجلت الإفصاح عن الهواجس فتقبلت العقوبة وتجنبت المزيد من الإحراج .

٥
غور الصافي وعش النسور

استفزت عمليات الفدائيين حكام إسرائيل . حصل هؤلاء الحكام على نصر سريع في حرب حزيران/يونيو . وتوقع الجنرال موشي دايان الذي طوّبه الجمهور الإسرائيلي بطلاً لإسرائيل أن يجيئه العرب مستسلمين وهيأ قائمة الشروط . لكن ، بدل المستسلمين ، جاء فدائيون عازمون على المقاومة ومفعمون بروح التحدي والمغامرة . وأفسد بروز العمل الفدائي على حكام إسرائيل متعتهم بالنصر ، ومسّ صلفهم ، وأوهن العوامل التي استند إليها تعنتهم ، وخلق لهم مشكلة أمنية مقلقة ومتفاقمة . وفي مواجهة الفدائيين ، لم تقعد إسرائيل إلى أن يصلوا إلى المناطق التي يسيطر عليها جيشها ، بل بادرت إلى مداهمة تجمعاتهم وقواعد تدريبهم وانتشارهم وقطع الطرق عليهم .

ظنّت إسرائيل في البداية أنها إزاء بيضة يمكن تهشيمها بسهولة . وبالرغم من استخدام أقسى مطارق جيش إسرائيل لتهشيم ما وصف بأنه بيضة ، فقد فشلت إسرائيل في وقف نمو العمل الفدائي وصار على حكامها أن يفكروا في الأمر بجديّة أكبر . ولم يلبث أن قفز العمل الفدائي إلى مقدمة الهموم التي تنشغل إسرائيل بها وتشغل مؤسساتها الأمنية والسياسية . وشحذت إسرائيل قواها ورفعت المطارق . وبعد أن أظهرت معركة الكرامة أن الهجمات البريّة

ليست تلك النزهات التي تصورها قادة الجيش الإسرائيلي ، اقتصد هؤلاء في إرسال الوحدات العسكرية البرية عبر خطوط وقف إطلاق النار ، وأوكلوا المهمة إلى سلاح طيرانهم المتفرد في السيطرة على الأجواء ، دون أن يكفّوا عن التهديد باجتياح مناطق تواجد الفدائيين في الأغوار وغيرها .

لم يتوفر للفدائيين السلاح الكافي لمقاومة الغارات الجوية المثابرة . وفي البداية ، تعرض المستهدفون بأفتك سلاح طيران في المنطقة إلى خسائر موجعة . غير أن هذا الوضع لم يدم إلى الأبد . بل سرعان ما تعلم المعرضون للمطاردة كيف يتفادون تأثير الغارات . قد لا تتمكن العين من الفتك بالمخرز ، إلا أنها تستطيع أن تتفادى فتكه بها حين تتسلح بما يكفي من الحذر والدراية . والحقيقة أن الغارات الجوية على قواعد الفدائيين فقدت تأثيرها بمضيّ الوقت . وقد خبرت بنفسي كيف نظم مقاتلو القواعد شؤونهم بحيث تتصل نشاطاتهم المألوفة مع وجود الطائرات فوق رؤوسهم وصخبها الذي يملأ الأجواء . وغالباً ما كانت قذائف الطائرات تحطّ على مواقع جرى إخلاؤها من المقاتلين أو أخرى موهت تمويهاً لتضليل الطيارين . وكثيراً ما عجزت الطائرات المغيرة حتى عن إيقاف نقاش أنهمكُ فيه مع مقاتلي قاعدة .

ويبدو أن الإسرائيليين أدركوا حتى وهم لا يكفون عن التبجح أن ما تصوروه بيضة هشة كان في الواقع سمكاً يعيش في محيط تصعب الإحاطة به . وبدل أن يستخلص هؤلاء العظة الصحيحة ، استدرجوا إلى البحث عن السمك في المحيط ، ولم يكفوا عن المحاولة . وصرنا نسمع في كل يوم وعيداً متكرراً بالهجوم على مناطق الفدائيين ووعوداً متكررة بالقضاء عليهم في أوكارهم ذاتها . وظل ثبات العين في مواجهة المخرز معجزة متحققة ، وكذلك قدرة الفدائيين على الاستمرار في القيام بعمليات موجعة لإسرائيل والتطوير المضطرد لوسائلهم . غير أن المحتاجين لتضخيم الإنجازات والتهويل لم يكتفوا بما

هو متحقق وملموس بل استمرؤوا الإمعان في التهويل ، حتى أوجد الكذب معايير لقياس المنجزات بدت معها المنجزات الفعلية ضئيلة الحجم .

وها أنا ذا أتذكر يوماً بلغ فيه إحساسي بالتأذي في الجريدة حداً فوق الطاقة واشتد توقي إلى مغادرتها . كان سعيد حمامي وقتها ما يزال معنا في «البعث» ولم يكن ضيقه أخفّ من ضيقي . يومها ، التفتّ نحو سعيد وأنا أحسّ تضجّره وسألته عما إذا كان راغباً في السفر إلى عمان . وجاء الجواب على الفور : «يا ليت !» . كنّا بحاجة إلى سبب يقنع رئيس التحرير بإعتاقنا . وقد سبق أن استخدمنا الأسباب الممكنة جميعها وصار لا بد من الوقوع على سبب جديد . وفيما أنا مشغول الذهن بالبحث عن سبب ، قادتني قدماي إلى أجهزة استقبال الأنباء ، فوقعت فيها على نبأ جعلني أهتف على طريقة أرخميدس : «وجدتها» . وما وجدته كان بلاغاً فلسطينياً ينبئ الجمهور بأن معركة كبيرة تدور منذ ساعات مع الدبابات الإسرائيلية التي اخترقت خط وقف إطلاق النار في غور الصافي جنوبيّ الأردن . وهذا هو النبأ الذي حملته واقتحمت به حجرة رئيس التحرير : «موشي دايان يوالي منذ أيام تهديداته باقتحام أغوار الأردن ، وها هي الدبابات الإسرائيلية تهاجم غور الصافي ، وأنا أخشى أن يكون الهجوم على الغور الجنوبي بداية لهجوم عام . . .» . أخذ رئيس التحرير الذي لا يعرف الكثير عن الشأن الفلسطيني أو الإسرائيلي أو الأردني بتماسك التحليل الذي قدّمته . وعندما رجعت إلى سعيد ومعي إذن السفر المطلوب لي وله ، اندهش صديقي وشاء أن أطلعه على الحيلة التي استخدمتها . إلا أني ، وقد راق مزاجي ، لجأت إلى المزاح : «بدّل رئيس التحرير موقفه منّا ، انتهى إلى الاقتناع بكفاءتنا وصار يحبنا» . وجلجلت في مقر الجريدة ضحكة سعيد الساخرة المتميزة ، حتى لقد خشيت أن تفضحنا .

بلغنا عمان قبل حلول المساء . وكان أول ما فعلناه أن جلنا على مكاتب

الفصائل الفدائية واستمعنا إلى ما رُوي لنا من وقائع المعركة الجارية في غور الصافي . بدأنا بمكتب الصاعقة ، فنحن لم ننس أننا مندوبا جريدة «البعث» ، وانتهينا في مكتب لـ «فتح» يشغله خليل الوزير «أبو جهاد» . ولو لم نضع في حسابنا أن الروايات مهوّلة لتصورنا أن حرباً طاحنة تدور فعلاً في ذلك الغور النائي . وما أن فرغنا من الاستماع إلى ما رواه صديقنا أبو جهاد حتى خلونا ، سعيد وأنا ، إلى نفسينا في ركن في المكتب ورحنا نمحص الروايات ، وحذفنا منها الكثير ، واستبقينا ما رأينا أنه يصلح لتقرير صحافي لا يضعنا في خانة المهوّلين . وتصدر تقريرنا صفحة الجريدة الأولى في اليوم التالي وتصدره عنوان يعلن أن مندوبي «البعث» ينقلان الأنباء من أرض المعركة .

وقبل أن أفارق القائد الفتحاوي ، أبديت رغبتي في أن أزور غور الصافي ، وجاراني سعيد ، فأعد أبو جهاد ما يلزم لنقلنا في الصباح التالي إلى المنطقة . وعلى هذا ، غادرت المكتب فيما بقي سعيد فيه . وتوجهت إلى منزل قريبي الصحافي عمر الحوراني الذي ألف أن أفاجئه في أي وقت .

كانت الاشتباكات بين الجبهتين الشعبية والديمقراطية في صراعهما للسيطرة على الشقة القريبة من منزل عمر قد توقفت منذ بعض الوقت . إلا أن شباب الجبهة الديمقراطية الذين يسيطرون على الشقة ظلوا حذرين خشية أن يعاود شباب الشعبية محاولتهم لاستعادتها . وكان المسيطرون على الشقة يتناوبون الحراسة حول المبنى والسهر على شرفة الشقة ومراقبة محيطها . وكان هؤلاء يتبادلون الأحاديث عبر المسافات التي تفصلهم بعضهم عن بعض ويطلقون في الهواء زخات رصاص ليساعدهم على مغالبة النعاس . وظل من غير المتيسر أن يتمتع المرء بنوم هادئ ، فامتد سهرنا ، عمر وأنا ، واسترسل حديثنا .

هنا ، يجدر أن تعرف أنت عن عمر هذا أكثر مما عرفت حتى الآن .

يكبرني عمر بما لا يقل عن عشر سنوات فهو قد غادر المسمية ، إذاً ، شاباً وكان له فيها مساهمات في النشاط الوطني ضد الجيش البريطاني وعصابات الصهيونيين المسلحة . وعلى دروب المنفى ، تنقل عمر كما تنقل غيره من مكان إلى مكان ، ثم انتهى المطاف به إلى الإقامة في الأردن والغرق في ما غرق فيه اللاجئون من شؤون وشجون . وفي وقت مبكر من شبابه ، انتسب عمر إلى الحزب الشيوعي الأردني ويبدو أنه كان بين أعضاء الحزب من النشيطين الصلبين . أقول : يبدو ، لأن عمر لم يحدثني بنفسه أبداً عن هذه الفترة من حياته وقد سمعت عنها من غيره . وقد عانى عمر المتاعب التي تكبدها الشيوعيون أبناء جيله ، فلوحق ، وسجن ، وطرد من الأعمال التي تيسرت له ، وانسدت في وجهه سبل الحصول على لقمة العيش . وفي هذا كله ، صمد عمر بمقدار ما يمكن للإنسان الصلب أن يصمد ، ولم ينكسر . ثم جاء وقت تغلبت فيه حاجة ربّ الأسرة الذي صاره عمر على تشبثه بعضوية الحزب فجمد نشاطه فيه أو أذن الحزب له بذلك ، دون أن ينقلب على حزبه ؛ كما فعل آخرون أذلتهم الحاجة إلى اللقمة أو الرغبة في الهناء . وبطريقة ما ، تدبر الرجل أمر الحصول على عمل في السعودية وأمكن أن يستمر فيه بضع سنوات سدد خلالها ديونه وكادت حياته تشهد شيئاً من الاستقرار . لكن هذا المسار انقطع فجأة ، ويبدو أن ماضيه الشيوعي لاحقه فخسر عمله في السعودية ورجع إلى عمان . وفي بحثه عن مصدر رزق تعذر الظفر به في الأردن ، جاء عمر إلى دمشق ووفر له نفوذ عبدالله الحوراني ، وهو من كان من البعثيين ذوي النفوذ في سورية ، وظيفة في وكالة الأنباء السورية «سانا» التي يديرها صديقنا المشترك حسين العودات .

مارس عمر مسؤولية وظيفته بنجاح وحظي برضى رؤسائه وزملائه ومودتهم . وصار على الرجل الذي أبعده العمل عن أسرته من جديد أن يقسم

دخله الشهري بينه هو المقيم في دمشق وبينها هي الباقية في عمان . وما أن فتحت «سانا» مكتباً لها في عمان بعد اتساع النشاطات الفدائية حتى برز عمر بوصفه أكفأ المرشحين لتولي هذا المكتب . وقد ينبغي أن أذكر لك أن عمر عوض قلة تأهيله لمهنة الصحافة بالمثابرة والإخلاص والاستفادة من علاقاته الشخصية الواسعة ، فانتظم في عمله وبقي له رضى وكالته عليه .

لم أكن قد نمت أكثر من ساعتين حين أيقظني رنين الهاتف وأيقظ أهل المنزل كلهم . كانت الساعة هي الخامسة ، والمتحدث كان سعيد ، وقد اتصل ليقول إن السيارة صارت في الطريق إليّ وعليّ أن أذهب إلى غور الصافي وحدي لمتابعة وقائع القتال ، أما هو فسيبقى في عمان ليتابع الأصداء السياسية . فعلها سعيد ، إذاً ، بي ، ولم يترك لي فرصة للنكوص !

طاب لي وأنا أجتاز المنطقة التي أجهلها أن أتملى الأمدية المفرودة أمامي وأستجلي ما يتلامح في الصحراء من أخيلة وأسرار . وخففت لذة الاكتشافات متاعب الرحلة . وصمدت إرادتي أنا معطوب الظهر للآلام التي يلحقها تهزز اللاندروفر بمفاصلي وما تزيده الريح الصرصر التي تنفذ من شقوق الأبواب . وفي نهاية أربع ساعات متصلة وسفر على طريق ضيق وقديم ، وجدتني في قرية لا يميزها شيء بعينه عن قرى كثيرة عرفتها . كنّا قد بلغنا الطفيلة . وهدانا أحد المارة إلى منزل صغير قائم في نهاية صف من المنازل على مرتفع يبدأ الصعود إليه من ساحة القرية ، وقال : «قائد الفدائيين يقيم هناك» . واتضح أن المقصود بهذا الوصف هو قائد وحدة جيش التحرير الفلسطيني المرابطة في هذا الموقع ، أو أنه بعبارة أدق هو قائد وحدة قوات التحرير الشعبية التابعة لهذا الجيش . وما أن ولجت مدخل المنزل حتى فاجأني رجل يلبس بذلة ميدان ولا يعلق الشارات الدالة على رتبته بأن هب من مجلسه وقال وهو يحتضنني بمودة عارمة : «الأستاذ فيصل عندنا ، اللّه أكبر !» . وإزاء ما أظهره رد فعلي

المندهش ، قدم الرجل إيضاحه : «أعرفك منذ أيام غزة ، أيام الشجاعية وزقاق المنطار ، أيام كنّا أولاداً نقلد الجيوش بألعابنا» . كان مستقبلي الحفيّ هو النقيب سالم أبو عمرو . وقد تذكرت بالطبع أيام غزة وألعابنا ، إلا أني لم أتذكر الطفل الذي كانه المحتفي بي وإن سعدت بوقوعي في هذا المكان النائي على رفيق مثله . وشئت أن أظهر استجابتي لعاطفة مستقبلي الحميمة وسمعتني أقول له : «شايف يا سالم أين أوصلتنا دروب المنفى . يمكن أن نلتقي في أي مكان إلا المكان الذي نتوق إلى العودة إليه !» .

كان سالم أعلى مقاتلي الثورة في المنطقة رتبة والوحيد بينهم المتخرج من كلية عسكرية . وقد عقد المقاتلون من مختلف الفصائل قيادتهم للنقيب دون أن يصدر بهذا قرار من أي صاحب قرار . وقد عرض سالم أن أبقى عنده كي يقوم بالواجب ، والواجب هنا أيضاً هو واجب الضيافة . ولكي يغريني بقبول العرض ، تعهد سالم أن يستدعي أي شخص أحتاج إلى مقابلته : «كل ما تريد معرفته ستعرفه» .

اختلى سالم بي فيما انصرف معاونوه إلى إعداد منسف يليق بمقام «أستاذنا الفاضل» كما وصفني . وقال النقيب الذي بدا مغتاظاً مما روته البلاغات الرسمية : «سأروي لك ما وقع ، ولك أنت ، وأنت سيّد الصحافيين ، أن تقدر ما يصلح للنشر وما لا يصلح» . واستعان سالم بخارطة عسكرية واسترسل في روايته .

في فجر اليوم السابق ، أرسل النقيب دورية في مهمة روتينية . وبعد ثلاث ساعات أو أربع ، بلغت الدروية نقطة تشرف على غور الصافي ولاحظت أن وحدة دبابات إسرائيلية ، حوالي عشرين دبابة ، قد اخترقت خط وقف إطلاق النار وراحت تتقدم في أرض الغور . وقد تعجلت الدورية العودة إلى الطفيلة وأبلغت النبأ فأبلغه النقيب إلى القيادة في عمان . وكانت تلك هي

البداية التي انطلق معها سيل الكلام عن معركة غور الصافي في عمان . أما في الطفيلة ، فقد استدعى النقيب مسؤولي الوحدات الفدائية قليلة العدد المرابطة هناك وشاورهم في الأمر فمالوا جميعهم إلى ضرورة التوجه إلى الغور ومواجهة الدبابات . وقد أدرك النقيب أن القوى والوسائل المتوفرة تجعل مواجهة عشرين دبابة في سهل مكشوف مخاطرة لا مسوغ لها ، إلا أنه لم يجرؤ على الجهر برأيه حتى لا يتهم بالجبن . وفي محاولة لتعويض نقص الإمكانيات ، استنجد النقيب الفلسطيني بقائد القوة العسكرية السعودية المرابطة في الجوار التي أُرسلت إلى الأردن لمساندته .

ويبدو أن القائد السعودي الذي يكرر سالم اسمه مقروناً بلقب أمير لم يكن مخولاً بالمبادرة إلى الاشتباك مع الإسرائيليين فاستمهل إعطاء رده ، فانقضت ساعات أخرى في الانتظار . ثم جاء رد الأمير وتعذر اشتراك وحداته في القتال . كما يبدو أن حجب الإذن بالقتال أوقع الأمير الذي وصفه سالم بأنه رجل طيب في الحرج إزاء جيرانه العازمين على المخاطرة . ولعل في هذا ما يفسر قرار الرجل : «أرغب في أن أذهب معكم وأرى كيف تقاتلون» . وقد جاء الأمير مع سائقه في سيارة جيب عسكرية تحمل مدفعاً من عيار ١٠٥ م الذي كان آنذاك شهيراً .

في غضون ذلك ، اتصل مسؤولو الوحدات الفدائية بقيادات فصائلهم في مدينة الكرك أقرب مدن شرق الأردن إلى الطفيلة ، فجاءهم في آخر النهار شاحنة تحمل قرابة عشرين مقاتلاً مع بنادقهم . وفي المحصلة ، توفر للمعركة قرابة خمسين مقاتلاً فدائياً ونصف هذا العدد من جنود جيش التحرير ومتطوعي قوات التحرير الشعبية ، وذلك إضافة إلى الأمير السعودي وسائقه . وعقد سالم اجتماعاً لمسؤولي الوحدات قبل التحرك ؛ كان يأمل ، كما صارحني ، في أن ينتبهوا إلى ضآلة العدد وقصور الإمكانيات فيتعقلوا . إلا أن

هؤلاء تشبثوا بما عزموا عليه . ولم يجرؤ هو على الاعتراض . وهكذا ، توجهت نحو غور الصافي مع حلول المساء قافلة من الشاحنة التي قدمت من الكرك والسيارات الصغيرة تتقدمها سيارة الأمير التي ركب فيها سالم أيضاً . وعندما بلغت القافلة نقطة على منحدر الغور لا تستطيع السيارات أن تجتازها ، توقفت السيارات وانحدر ركابها ناحية السهل وسط ظلام دامس وهم يتحسسون مواقع أقدامهم تحسساً .

عند هذه النقطة من الرواية ، توقف سالم من تلقاء نفسه ؛ ظن محدثي أن لدي ما أقوله فتوقف ، فلما احتفظت بصمتي قاله هو : «حُطّ نفسك في مكاني ، أن تجازف أو تُتهم بالجبن ، ما هو الأهون !» . ولم أحطّ نفسي في أي مكان ، بل تابعت الإصغاء ، فعرفت أن النقيب اختار ما يجنّبه سوء السمعة ، وشاء أن يتدارك ما يمكن تداركه في اللحظة الأخيرة ، فدعا مرافقيه إلى التروّي في اندفاعتهم وسط الظلام : «لا بدّ من أن نقوم بالاستطلاع» . وتطوع بعضهم بالقيام بالمهمة ، وحاجج آخرون بأنها غير ممكنة ما دام من المتعذر رؤية أي شيء . ولم يكن المتطوعون للاستطلاع قد ابتعدوا عن الجماعة لأكثر من بضع خطوات حين أضاءت السهل قذائفُ إنارة باهرة أطلقتها الدبابات . ولحظتها ، اكتشف العازمون على مواجهة الدبابات أنهم يقفون ويتجادلون وهم محاطون بها ، ودهمتهم المفاجأة فجروا عائدين إلى حيث تركوا السيارات على سفح المنحدر . وكان هذا ، كما لاحظت أنا لأحرر محدثي من حرجه ، تصرفاً صائباً ، إذ ما الذي كان بإمكان حملة بنادق أن يفعلوه في مواجهة عشرين دبابة مدججة بالأسلحة ومحيطة بهم . في غضون ذلك ، تحمس سائق الأمير الذي كان قد بقي في الجيب فأطلق رمية من المدفع المنصوب عليها فجاءه من الناحية الأخرى ردّ قاتل : قذيفة دمرت الجيب والسائق . واستشهد خمسة مقاتلون وهم يحاولون بلوغ سيارتهم ، ونجا الآخرون وعادوا إلى الطفيلة .

صمت سالم فظننت أنها استراحة ، فلما طال صمته سألته عن بقية الحكاية ، فقال : «هذا هو كل شيء» ، ثم كرر : «نعم ، كل شيء» . وحين رأى محدثي أنني لم أقتنع ، أضاف : «ما جرى بعد ذلك لا أهمية له . فإن أردت أن تعرف متى جرت ، إذاً ، المعركة فاسمع : لم تجر أيُّ معركة !» . وكل ماجرى هو أن النقيب أرسل في الصباح دورية كلفها استطلاع المنطقة «ومن المتوقع أن ترجع الدورية في أي لحظة» .

والواقع أن الدورية رجعت ونحن متحلقون حول المنسف ، فاستمعت إلى تقريرها بنفسي . فقد وصلتْ هذه الدورية إلى النقطة المشرفة على الغور ولم تشاهد في السهل أي دبابة ، وما من أحد يستطيع تحديد الوقت الذي انسحبت الدبابات فيه . وقبل أن أغادر الطفيلة ، جاء من أبلغ إلى سالم أن عاهل العرش الأردني ومعه كبار المسؤولين ومعهم كبار آخرون وفدوا من السعودية قد جاءوا جميعهم إلى المعسكر السعودي حيث يجري الاحتفال بوداع جثمان السائق الشهيد . وعرض سالم أن أصحبه لحضور هذا الاحتفال غير أن مزاجي لم يكن يأذن لي بالاحتفال بميت أو حيّ .

لا أجد حاجة لوصف مشاعري بعد هذه الرحلة . يكفي أن تعرف أن أشدّ ما أسخطني كان هو استمرار البلاغات في التحدث عن معركة جارية حتى بعد رجوعي إلى عمان . وفي المساء ، في مقرّ خليل الوزير ، أعددنا ، سعيد وأنا ، تقريراً صحافياً أكثر تواضعاً من سابقه ، ثم فرغ لنا أبو جهاد فأفرغت سخطي أمامه بما في ذلك سخطي عليه . وما زاد أبو جهاد على أن تبسم ، ثم قال : «الإعلام ، مثل السلاح ، مهم» . أما سعيد الذي لمته على زوغانه فقد ضحك : «كان على واحد منّا أن يشربها فشربناها لك» . في ذلك المساء ، سمع أبو جهاد منّي ما سبق أن سمعه مني ياسر عرفات وغيره بشأن أضرار التهويل . إلا أن القائد الفتحاوي لم ينس حتى أن يعاتب : «في

رسالتكما إلى الجريدة أمس لم توفيا دور «فتح» في المعركة حقّه» .

ما أصعب أن تكون صحافياً يكتب عن ثورة تحرر وطني منتمياً إلى هذه الثورة ملتزماً أن لا تقول ما قد يضرّ بسمعتها ! لم أكتب عن غور الصافي ؛ لم أشأ أن أجاري المهولين ، ولم أجرؤ على ذكر الحقيقة كاملة . غير أني لم أفوت المناسبة دون تعليق . وقد كتبت مقالاً حذرت فيه من التهويل والكذب بإطلاقهما ودعوت إلى ممارسة النقد لأن المقاومة الفلسطينية بحاجة إليه . أما في أحاديثي الشفهية فما كان لشيء أن يلجم لساني .

وبعد شهور لا أتذكر الآن عددها ، عانيت خبرة مماثلة في موقع آخر غير غور الصافي . ففي غضون هذه الشهور ، بلغ ضيقي في «البعث» حداً تعذر معه الاستمرار ، فتبعت أول فرصة لاحت للمغادرة . وكانت تلك فرصة وفرها لي مرة أخرى د . يوسف زعين الذي لم يكف عن الاهتمام بأمري . فقد عرض عليّ الرجل أن أتولى مسؤولية رئاسة تحرير «الطلائع» التي تصدرها منظمة الصاعقة . وكانت هذه حتى ذلك الوقت أقرب إلى نشره داخلية منها إلى مجلة ، فشاء د . زعين ورفاقه أن يطوروها ، وندبني هو للمهمة وضمن لي أن أتولى المسؤولية الكاملة عن التحرير . وكان لي في إعلام الصاعقة أصدقاء أبادلهم المودة والاحترام ومنهم المسؤول عن هذا الإعلام الذي أكد لي بدوره حاجتهم إلى خبرتي وتعهد أن لا يثقلوا على بأي تدخل في شؤون التحرير . وشجعني عبداللّه الحوراني على قبول العرض . كان قريبي وصديقي هذا قد استقال كما تعرف من منصبه هو الذي كان المدير العام للإذاعة والتلفزيون واختار لنفسه بنفسه موقعاً ثانوياً دون أن يكفّ عن النشاط في الحقل العام . وقد تعهد عبداللّه أن يكتب للمجلة ويشجع آخرين على الكتابة . وتلقيت تشجيعاً ذا مغزى خاص من أنيس الخطيب ، هذا الذي كان في الخمسينات بين مؤسسي عرب فلسطين ثم غدا بين أبرز نشطاء «فتح» . وقد تعهد هو

الآخر أن يكتب للمجلة . وفي المحصلة ، مع فريق متجانس ومحترم التفّ حول «الطلائع» ، تطورت المجلة شكلاً ومضموناً وتعود المسؤولون على عدم التدخل في شؤونها . وصارت «الطلائع» مجلة وطنية تتجاور فيها الآراء المتعددة وتتحاور ، واتسع انتشارها وارتفع ما يطبع منها من ثلاثة آلاف نسخة إلى عشرين ألفاً .

والجديد الذي عاينته مما يماثل تجربة غور الصافي وقع وأنا مستغرق في تطوير المجلة ، وقد وقع في جنوب لبنان على قمم العرقوب وليس في الغور في جنوب الأردن .

وقتها ، اقتحمت مدرعات إسرائيلية منطقة العرقوب وداهمت إحدى عشرة قرية فيها . وقال المتحدث العسكري الإسرائيلي إنها حملة تأديبية هدفها ملاحقة الفدائيين الذين سماهم المخربين . أما إعلام الفصائل الفلسطينية فقد شرع في الحديث عن معركة كبيرة . فعزمت على أن أعاين بنفسي ما يجري . ورغب فتوح الشريف الصحافي المصري الذي صرت تعرفه في أن يصحبني . وتصادف أن اتصل بي العميد محمد الشاعر لشأن من الشؤون فعرف ما عزمنا عليه ، فرغب هو الآخر في المشاركة في الرحلة إلى العرقوب ، وعرض أن نتوجه إلى المنطقة في سيارته العسكرية . ولعلك ما تزال تتذكر هذا الضابط الفلسطيني الذي سرح من الجيش السوري في عهد وحدة سورية ومصر بدعوى أنه شيوعي . لقد تقلبت الأحوال بالضابط المسرح والملاحق إلى أن تشكل جيش التحرير فانضم إليه ، ثم احتاجوا في سورية إلى خبرته في التحصين فأعادوه إلى الجيش السوري بعد هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧ وأوكلوا إليه مهمة تحصين الجبهة الجديدة .

بانضمام العميد المتنفذ إلينا ، توفرت ، إذاً ، وسيلة الانتقال المأذون لها بالتنقل بين سورية ولبنان دون عوائق ، كما اكتملت الصحبة الطيبة والخبرات

اللازمة . وبقي علي أن أحصل على ورقة الإجازة التي تخولني اجتياز الحدود اللبنانية . ولأني ، أنا الذي كان على عجل ، لم أجد المخول بمنح الإجازات في قيادة جيش التحرير ، فقد توجهت إلى مقر قيادة «فتح» لأحصل على الإجازة منها . وكان صديقي الطبيب الذي تعرفتُ عليه في الجزائر ، ممدوح صيدم «أبو صبري» ، قد صار عضواً في لجنة «فتح» المركزية وصار له هذا اللقب الجليل : القائد العام لقوات العاصفة . فقصدتُ مكتبه في المقر . ولأني جئت ومعي فتوح الشريف إلى المقر دون موعد مسبق ، فقد استوقفنا مرافق لا يعرف طبيعة صلتي بقائده إلى أن يستأذنه في إدخالنا عليه . ويبدو أن المرافق لم يذكر اسمي بل اكتفى بالقول إن بالباب صحافيين ، فاتخذ أبو صبري الوضع الذي يلائم قائداً عسكرياً منصرفاً لإدارة معركة ، ثم أذن بإدخالنا عليه . وكان صديقي مولياً ظهره إلى الباب فلم يرنا ، هو الذي أحس بدخولنا ، ولم يلتفت ، بل تابع ما شرع فيه ، فراح يضع سماعة هاتف ويلتقط أخرى ويصدر أوامر توحي بأن القتال محتدم على أشدّه . وكان طريفاً هذا الذي اصطنعه صديقي ليبهر الصحافة ، وقد راقبت المشهد لبعض الوقت ثم نقرت على كتفه بأصبعي : «فتوح وأنا ، ليس هنا غرباء» . ورحب أبو صبري بنا بأريحيته المعهودة دون أن يبدو عليه أي تحرج . وكانت تلك هي نقطة البداية فقط في الرحلة التي توخيت أن تكون رحلة لتقصي الحقائق .

بلغنا منطقة العرقوب فيما كانت المدرعات الإسرائيلية قد شرعت في العودة من حيث أتت بعد أن أمضت الليلة السابقة فيها ، وتسنى لنا أن ندخل كل قرية فور انسحاب الإسرائيليين منها فنحصل على أدق المعلومات وأكثرها طزاجة ونتفحص رد فعل سكان القرى . وفي موقع بعينه على قمة مشرفة ، قعد العميد الشاعر بنا لنراقب المنسحبين . ورصد العسكري الخبير الآليات المغادرة ليقدر حجم الوحدة الإسرائيلية ، فاستخلص أنها كتيبة دبابات معززة .

لم يلاحق الإسرائيليون الفدائيين ولم يظفروا بأي واحد منهم . فقد تمكن الفدائيون من النجاة والتواري عن الأنظار في المنطقة الوعرة أو الانسحاب إلى مناطق آمنة . وبدل الفدائيين ، استهدف المهاجمون سكان القرى اللبنانيين لتخويفهم وتحذيرهم من التعاطي مع أي فدائيين . وحين لقيناهم ، كان فلاحو العرقوب محتفظين بحبهم للفدائيين وتأييدهم لقضيتهم . لكن المشاعر الطيبة شابها سخط ظاهر وخيبة أمل : تحملنا كل شيء من أجل عيون الثوار الفلسطينيين ، القصف الإسرائيلي ، وغارات الطيران ، والمداهمات ، وضغوط المكتب الثاني اللبناني وانتقامه ، وتعطيل أعمالنا وبوار المواسم ، وذلك كله والكثير غيره لأننا توسمنا أن يرفع الفدائيون رؤوسنا ويعوضونا عن تقاعس الجيش وقعوده عن مواجهة إسرائيل . الآن ، بعد هذه التجربة ، ما الذي يمكن أن نقوله . سمعنا هذا كله في كل قرية . وكان الأسى هو أبرز ما عايّنّاه .

لم يقل الفلاحون إنهم توقعوا أن يخوض الفدائيون معركة مكشوفة مع الدبابات الإسرائيلية ، كل ما في الأمر أنهم ترقبوا أن يوقع الفدائيون الأذى بالمهاجمين . وقد توزعت الكتيبة الإسرائيلية وتعزيزاتها على وحدات صغيرة احتلت كل واحدة منها قرية وقضت الليل فيها . وكان في متناول الفدائيين أن يشوّشوا حركة هذه الوحدات بين القرى أو يباغتوها بعد أن حلت فيها أو يلاحقوها وهي تتراجع منسحبة . لكن هؤلاء ، وهم الذين بوغتوا ، لم يكونوا آنذاك قد دربوا ليتصرفوا في مثل هذه الحالة ، وما من شيء من هذا المتوقع قد وقع . بلغت الوحدات القرى دون عوائق . وتولى المحتلون جمع أهل كل قرية في ساحتها أو مسجدها أو منزل مختارها ، وتلوا من قوائم جلبوها معهم أسماءً بعينها واعتقلوا أصحابها . وفي كل قرية ، بات جنود الاحتلال حيث تيسر ، ثم نهضوا في الصباح وقد شبعوا نوماً ، واغتسلوا ، وحلقوا ذقونهم ، وتناولوا الإفطار ، وتحدثوا إلى السكان من جديد ، وكرروا التحذيرات والإنذارات

وتوعدوا بأنهم سيعتقلون في كل مرة قادمة أي شخص يساعد الفدائيين وسيهدمون منزله ، ، ثم انسحبوا بعد هذا كله ومعهم المعتقلون ، بانتظام وأمان كما جاءوا . ثلاثون ساعة استغرقتها العملية ، اختفى الفدائيون خلالها فلم ير الفلاحون حركة ولم يسمعوا حسّاً .

لم نكن نحن الثلاثة الوحيدين الذين هرعوا إلى المنطقة ، وإن كنّا السباقين . وما أكثر الذين وصلوا بعدنا ، قادة فصائل ، ورجال دعاية ، وصحافيون ، وفضوليون من كل نوع ! وفي عودتنا على الطريق الذي جئنا عبره ، اجتذب انتباهي ما فعله الإعلاميون الموكلون بتهيئة الميدان لاستقبال الصحافيين . وقد اكتشفت يومها بالذات أن في الإعلام الفصائلي خبراء مهمتهم وضع لمسات بعينها لإضفاء شيء من الصدقية على الروايات التي يبثها المتحدثون الرسميون باسم الفصائل . وقد وقع نظري ، وذلك على سبيل المثال ، على قطعة معدنية يوحي شكلها بأنها جزء من دمار دبابة ، فاستوقفتُ سيارتنا وصممت على معاينة هذا الشاهد . وكانت تلك قطعة من آلية ما دهنت بنجمة داوود شعار إسرائيل . ولو لم ألمس بيدي الدهان فأجده طرياً لتوهمت أنا نفسي أنني إزاء شاهد حقيقي على وقوع معركة .

وبعد أن صرنا خارج المنطقة ، اقترحت على صاحبيّ أن نتوجه إلى النبطية فنزور صديقنا العميد مصطفى سعد الدين وهو من كان يتولى قيادة قوات الصاعقة في جنوب لبنان . وما أن استقرت سيارتنا فوق السهل واستقامت حركتها حتى رأينا قبالتنا قافلة سيارات متجهة إلى حيث كنّا وقد لفها الغبار وهي منطلقة بأقصى سرعة . وفي سيارة القافلة الأولى ، لمحت ياسر عرفات . وفي نقطة أخرى في السهل ، وقعنا على سيارة متوقفة . وكان أحمد جبريل قد ترجل من هذه السيارة وقعد قريباً منها وهو يتفحص شيئاً ما متروكاً على الأرض .

دخلنا مقر العميد مصطفى فتبين أن صاحبي يعقد مؤتمراً صحافياً . والتقطت ما يرويه العميد وهو يجاري البلاغات الرسمية ، فرسمت بيديّ حركة تعبر عن استهجاني لشططه . ومسّد هو حنكه في حركة يرجوني بها أن لا أحرجه ، وتعجل اختتام الرواية ، وتفلّت من أسئلة الصحافيين ، ثم جاء إلينا وتلقاني فارداً ذراعيه . ولأن صاحبي يعرف حدّة لساني ويخشاها فقد تشاغل بصاحبيّ والاستفسار عما قد نرغب في أكله أو شربه . وحين أرغمت العميد إرغاماً على الانتباه إلى ما أودّ قوله ، لم يتح لي المجال ، بل بادرني هامساً : «أبو أسامة هنا ، وهو راغب في أن يراك وحدك» . وأبو أسامة هذه ، حين ترد مجردة من الإضافات ، فهي تعني أن اللواء صلاح جديد وليس أحداً غيره هو المقصود .

كنت تحت التأثير المؤسي لما لمسته من خيبة أمل فلاحي العرقوب . ولك أن تعرف أن مشاعر الفلاحين كانت وحدها في مركز اهتمامي ، فهم الذين يشكلون إطار الحماية اللازم للوجود الفدائي الفلسطيني في المنطقة . وكان هذا هو أول ما تحدثت عنه أمام القائد السوري الذي عودني على الإصغاء إلى انتقاداتي بصدر رحب .

بعدها ، طرقتُ موضوعاً آخر ظل يشغل بالي منذ زرت غور الصافي : لماذا تصر دعاية الفصائل الفدائية على اختلاق إنجازات للفدائيين في مجال الدفاع عن حدود هذه الدولة العربية أو تلك ؛ ألا يترتب على مثل هذه الدعاية أن يقرّ في الأذهان أن الفدائيين موكلون حقاً بالدفاع عن الحدود ؛ وما الذي تفضي إليه الحكايات المختلقة ، ألن يعتقد الناس أن الفدائيين قادرون على أداء مهمات الجيوش ؛ وما الذي ينجم من هذا الاعتقاد حين يظهر العجز ، هل سينجم منه شيء سوى خيبات الأمل واضطرار الموكلين بالدعاية إلى الإمعان في اختلاق الحكايات الباهرة للتستر على العجز . سمّت البلاغات ما جرى

في العرقوب معركة عشّ النسور ، قالت إن ثلاثة ألوية إسرائيلية مدرعة ومعززة داهمت عشّ النسور هذا فتصدى لها نسور العشّ وأرغموها على الانسحاب . وزعمت البلاغات أن المعتدين تكبدوا خسائر فادحة . فلنفرض أن الرأي العام قبل الرواية وصدق أن جماعات من الفدائيين الحالّين في لبنان دون رضى سلطاته قد قامت بما يعجز عنه جيش البلد ، فأي أوهام ستنشأ وتتضخم ، وما الذي سيقع حين يكتشف الرأي العام أن الفدائيين عجزوا عن مواجهة كتيبة معززة واحدة ، وأي تأثير سيبقى بعد هذا للإنجازات الفعلية الحقيقية التي يصنعُها الفدائيون ، هذه التي يجترحها خيرة الفدائيين بصمت وتواضع وتجيء على قدّ الحال . ثم ما هي الآثار التي يخلفها التهويل المتواتر على شخصيات الفدائيين أنفسهم . ألا يُخشى حين تتوفر للفدائيين جوائز زائفة أن يصير الهدف هو الظفر بالزائف والاستزادة منه . لماذا لا يقال للفدائيين بصراحة إن عليهم أن يتواروا عن الأنظار حين تداهمهم الدبابات ، أن يفروا من وجهها كي ينجوا بأنفسهم ويتمكنوا بعد ذلك من العودة لنهش ما يمكن نهشه منها . وإن وجد الفدائيون إعلاماً يحارب دون أن يحاربوا ، يهول ويختلق ويقوم بالعجائب وينسبها إليهم ، فلماذا لا تحل فيهم روح التقاعس وتنمو روح التبجح بالأكاذيب . يخلق الكذب بطولات كاذبة وأعشاش نسور وعقبان ومعارك تشغل جبهات ، ويطغى الزيف أولاً بأول على الأصيل حتى يطمسه ، وتفقد البطولات الحقيقية ، هذه التي هي ليست قليلة ، ألقها وتأثيرها .

بسطت آرائي هذه باستفاضة أمام اللواء صلاح . وقلت إن الفدائيين والذين في حكمهم غير مطالبين بمواجهة الجيش الإسرائيلي في المعارك المكشوفة . قلت إننا حين ندرّب هؤلاء على اقتناص ما يمكن اقتناصه من جنود العدو ومعداته دون المخاطرة بالدخول في مواجهات مكشوفة إنما ندربهم على ما هو صواب تماماً .

لم يقاطعني أبو أسامة أبداً بالرغم من أني استرسلت في حديث طويل . والذي قطع استرسالي كان هو أحمد جبريل . وقد أنسى أشياء كثيرة عاينتها في حياتي ، لكني لا أنسى أبداً هذا المشهد : ولج أبو جهاد ، وهذه هي كنية أحمد جبريل ، الباب وهو ينفض ملابسه بهيأة من ينفض غبار معركة فرغ منها للتو . والمدهش أن ملابس الرجل كانت مغبرة حقاً . وما أن أتم أحمد المصافحات وجلس قبالة اللواء صلاح حتى راح يقص حكاية المعركة ويركز على دوره في إدارتها . ولم يفت الذي كست وجهه تعابير شتى أن يؤكد على أن دوره في إدارة المعركة ودور فصيله في خوضها كانا أكبر من دور ياسر عرفات و«فتح» وأن يتهم عرفات بالكذب . لم يقل أحمد إنه اشترك في القتال بنفسه أو أنه لم يشترك . أبقى المتحدث هذا الجانب من الحكاية غامضاً واكتفى بدلالة الغبار . وفيما كان أحمد مسترسلاً في روايته ، رسم صلاح جديد على ثغره ابتسامته الشهيرة ، هذه التي يفوق غموضها غموض ابتسامة مونا ليزا الجيوكندا ، وظل يرمقني بنظرات تقول لي : صبر نفسك !

وبحضور أحمد جبريل ، لم يعد ممكناً أن أتم الحديث الذي بدأته . وقد اكتفيت بأن أبلغت إلى صلاح جديد عزمي على أن أنشر في «الطلائع» الحقيقة كما عاينتها . فهزّ القائد المسؤول رأسه هزّة متأنية ، وأرسل ناحيتي نظرة لا تفصح عن رأي بعينه . وكان معنى هذه النظرة أن الأمر متروك لتقديري ولي أن أتصرف كما أريد .

وقبل انصرافي ، رجوت اللواء صلاح أن يستقبل العميد محمد الشاعر . قلت إن من المحرج لي أن أحظى أنا بمقابلة طويلة ويُحرم صاحبي حتى من مجرد تبادل التحايا . لكن اللواء صلاح لم يؤخذ بحجتي ولم يستجب لرجائي حتى بعد أن كررته . كان هذا القائد البعثي لا يستريح لا للشاعر ولا لمصباح البديري ولا لكثيرين من أبناء دورتهما الشهيرة . وعندما رجعت إلى

صاحبيّ رحلتي ، وجدت العميد الشاعر مستاءً حتى لقد كانت عضلات وجهه تختلج . وفيما هو يغالب مشاعره ، قال صاحبي هذا إنه عازم ما دام قد صار في لبنان على زيارة الأستاذ أحمد الشقيري . والمعروف أن الشقيري اعتاد أن يمضي صيف كل عام في لبنان وهو يملك في الجبل داراً فسيحة وجميلة تتوسط حرشاً يشغل قمة تعلو قرية كيفون وفيها يقيم . وكان الشاعر من زوار دار الزعيم الفلسطيني المواظبين وله على الزعيم دالّة خاصة . ويبدو أن الشاعر أراد أن يعوض سوء معاملة الزعيم السوري له بالحفاوة التي تنتظره في منزل الزعيم الفلسطيني . ولم أجد من اللائق أن أفارق الصاحب الذي جئت إلى لبنان في سيارته . ولما كنت أنا الآخر من زوار منزل الشقيري المألوفين ، فقد عزمت على التوجه إليه . ورحب فتوح بالفرصة . فحملتنا السيارة إلى كيفون .

في الطريق ، حين توقفنا لنأكل لقمة في أحد مطاعم الجبل ، تذكر فتوح حكاية لقائه الأول بالشقيري ، وكان هذا في غزة قبل احتلال الإسرائيليين لها . أوفدت «أشا» فتوح لتغطية أنباء رحلة إلى غزة يقوم بها من كان آنذاك رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية . وهناك ، شهد فتوح واحداً من المهرجانات الخطابية واستمع إلى الزعيم البليغ وهو يخطب في الجمهور . وتحدث الشقيري عن صلة مصر بفلسطين وتأثير حرب ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ في الحفز على التطورات التي بدلت وجه مصر . وترقرقت الدموع في عيني فتوح وهو يتابع الخطيب . وعند مقطع بعينه في الخطبة ، لم يملك فتوح السيطرة على مشاعره . فقد تساءل الشقيري : «من أين جاء الضباط الأحرار ، من أين جاء عبد الناصر وصحبه؟» . طرح الشقيري السؤال بعد أن أفاض في وصف تضحيات الجيش المصري في الحرب ضد الصهيونيين والدفاع عن فلسطين وفي وصف بطولة عبدالناصر ورفاقه وما كابدوه في حصار الفالوجة ، ثم هتف ، مجيباً بنفسه على سؤاله : «من فلسطين ، نعم من فلسطين انطلقت

الشرارة التي حرقت الفساد والمفسدين وأجلتْ قوات الاحتلال البريطاني عن مصر وفتحت للعرب دروب العزّة والكرامة» . وعندها ، فاضت دموع فتوح فيضاً .

سألت الصحافي المصري ، متأثراً بالمزاج الذي كنت فيه ، ما إذا كان أي خطيب فلسطيني قد أبكاه مرة أخرى بعد تلك المرة في غزة . كنت أعرف الإجابة ، لكنني أردت أن أساعد صاحبي على التخفف من مخزونه المماثل لمخزوني . ويبدو أن فتوح تحرج بوجود الضابط الكبير معنا فتملص من تقديم إجابة مباشرة . و«بلاش إحراج أمّال !» .

وفي دفء المطعم ، فاضت الذكريات . فتذكرنا إسماعيل شموط هذا الذي رسم فجائع الفلسطينيين كما لم يرسمها أحد قبله ، وتذكرنا أن معرضاً له سيفتتح بعد ساعة في بيروت في فندق الكارلتون ، فقررنا أن نذهب إليه قبل أن نذهب إلى كيفون . وفي المعرض ، استقبلنا اللاجئ الجدلاوي الذي صار أشهر الرسامين الفلسطينيين بحفاوته وأدبه . وتفرجت أنا لأول مرة على اللوحات الأصلية التي كنت أرى نسخها المطبوعة معلقة في المنازل كما تفرجتُ على لوحات جديدة . وسعدت باهتمام الجمهور بإسماعيل ولوحاته . كنت إزاء إنجاز أصيل واهتمام نابع من القلوب فتعدل مزاجي . وحين يُذكر إسماعيل شموط فلا بد من أن تذكر تمام الأكحل ، زميلة دراسته وزوجته ورفيقة عمره وشريكته في أي معرض . كان إسماعيل يملأ الجوّ بتواضعه وابتسامته التي توحي إليك بأنك تتفضل عليه حين تزوره . وكانت تمام تزيّن هذا الجو بترحيبها المدروس واعتدادها بنفسها المبرأ من الغطرسة ونظراتها المتيقظة على الدوام وضحكتها التي لا تنطلق على السجية إلا بعد أن تنحلّ تحفظاتها .

بمزاجنا المعدل ، حللنا في دار الشقيري مع حلول المساء ، فوجدنا أنفسنا

وسط حشد من الزوار اكتظ بهم بهو الاستقبال الفسيح . كان هؤلاء ممن يوصفون عادة بأنهم من علية القوم ، رجال مال وأعمال ، ورجال ثقافة ، وسياسة ، وما إلى ذلك . وقد ميّزنا المضيف ، نحن القادمين إليه من خارج لبنان ، بمعاملة خاصة واختلى بنا في حجرة مكتبه ، وهنا بادأنا الرجل بفصحاه المنمقة : «كيف الأهل في الشام؟» . لم نتوقف عند حديث الأهل في الشام ، بل استحضرنا أحداث يومنا . واستمع الشقيري إلى ملاحظاتنا بانتباه كامل وسجل بعضاً منها في دفتر يومياته ، ثم استعد للإجابة على أسئلتنا واستفساراتنا . وها أنا ذا أتذكر إجابة الشقيري حين سألته أنا عن رأيه في العمل الفدائي ومستقبله . حفظت نص العبارة لأهميتها ولكثرة ما رددتها كلما طرأ ما يذكرني بها . وما أكثر ما طرأ مما يذكر برأي الشقيري هذا : «العمل الفدائي سيل ماء منحدر إلى البحر ، قد تنبت على جوانبه بعض الأعشاب ويصدر عنه كثير من الضجيج ، لكنه إلى البحر ينتهي» .

وقتها ، لم أجار الزعيم الفلسطيني في رأيه . لقد عولت على العمل الفدائي بالرغم من السلبيات الكثيرة ، لم أعلل نفسي بأماني كثيرة أو كبيرة كما فعل كثيرون سواي . ولم أحلّق مع أي وهم كما حلق كثيرون سواي أيضاً . لكني توقعت أن يلعب العمل المسلح دوراً في التأكيد على الحضور الفلسطيني بين الأطراف ذات الصلة بالصراع ، وأملت في أن يؤدي النضال الداخلي إلى تجويد أساليب العمل المسلح وتحريره من الشوائب والسلبيات . غير أن عبارة الشقيري البليغة أثرت فيّ دون شك حتى وإن لم تبدل توقعي وأملي .

وفي دمشق ، وجدت أن أحد مرؤوسي قد كتب حكاية «عش النسور» مستقياً وقائعها من البلاغات الرسمية وأرسلها إلى المطبعة لتنشر في عدد «الطلائع» التالي . كان هذا هو الكاتب البعثي الفلسطيني عبد الرحمن غنيم

الذي هو شاعر أيضاً ، وهو من الكتاب الذين لا يفرقون بين متطلبات الإعلام ومتطلبات الدعاية . كان عبد الرحمن هذا مولعاً بموضوعات الحرب النفسية ، وكان لا يأبه لما هو حلال أو حرام كلما تعلق الأمر بما يعده هو حاجات هذه الحرب . وقد تبنى عبد الرحمن ، مثلاً ، حكاية الألوية الإسرائيلية المدرعة الثلاثة التي قالت البلاغات أنها داهمت العرقوب ، مع أنه يعرف أن إسرائيل لا تحشد في مواجهة حدود لبنان على طولها كلها سوى لواء واحد . وعندما سألته كيف أجاز هذا التهويل ، قال عبد الرحمن إنه فعل ما يفعله غيره وأضاف أنهم على صواب . والحجة التي أوردها فتى الحرب النفسية أن جمهورنا هو جمهور «الزير سالم» و«أبو زيد الهلالي» ، المعتاد على التهويل ، والحكايات المهولة هي وحدها التي تجتذبه وتثير حميته . وقال عبد الرحمن إن الحرب النفسية هي حرب أيضاً وفي الحروب يباح أي شيء بما في ذلك الكذب ، الكذبة قذيفة مفعولها يساوي مفعول القنبلة . واتهمني صاحب القذائف النفسية بأني أتشبث بمثالية لا تنفع أحداً ، ونصحني بأن أقرأ أكثر مما قرأت حتى الآن عن الحرب النفسية وقوانينها .

بالطبع ، سحبت تقرير عبد الرحمن من المطبعة ، ليس لأني ضد أن يُقذف العدوّ بأي قذيفة ، بل لأن العدو لا يقرأ «الطلائع» ولأني ضد تضليل قرائها . ثم صدرت «الطلائع» وفيها تقرير حمل توقيع العميد محمد الشاعر وتضمن وصفاً لوقائع الحملة الإسرائيلية مستخلصاً مما رأى صاحبه رؤية العين أو سمعه من شهود العيان . وكان هذا هو الأسلوب الذي اعتمدناه حتى يستخلص القارئ الحقيقة دون أن نجبه المتحدثين الرسميين مباشرة بكذبهم . وقد ختم الشاعر تقريره برأي خلاصته أن الحملة لو قامت بها وحدة عسكرية عربية في ظروف مماثلة لربما خسرت عُشر آلياتها بسبب وعوة الطرق . وفي المقال الافتتاحي الذي أكتبه أنا ، حذرت من مخاطر الكذب وقاربت فكرتي

التي صرت تعرفها بشأن مخاطر تحويل الفدائيين إلى حرّاس حدود .

ووسط بحر الإعلام المثقل بالخوارق والحكايات المهوّلة والبطولات الزائفة ، سطعت الحقيقة في عدد «الطلائع» هذا ، فبدا العدد متميزاً واجتذب اهتماماً واسعاً ، وقد أسخط العدد ياسر عرفات كما أسخط كثيرين غيره . ولم ينصبّ السخط على العدد وحده ، بل على ما رحنا نرويه شفاهة مما لم نجرؤ على نشره مكتوباً . والواقع أن الغيظ قد أطلق لساني بغير قيود ، فانطلق منه كلام أحد بما لا يقاس من الكلام المكتوب .

هذا الكلام الشفهي بلغ مسامع عرفات ، وبلغه أيضاً ما قلته في دار الشقيري أمام الزوار وبعضهم من ممولي «فتح» ، وذلك كله قبل أن يصل إليه عدد المجلة فيشحذ حنقه . واتصل عرفات بالدكتور زعيّن واشتكى من أجواء قال إنه يجري تعميمها في سورية للإساءة إلى سمعة «فتح» . وعندما صدر عدد «الطلائع» ، صار بيد عرفات ما يعزز شكواه ، فكررها مستشهداً بما كتبناه . وكنت أنا قد التقيت د . زعين فور عودتي من لبنان وكررت أمامه ما قلته لصلاح جديد وزدت عليه . وفي ردّه على شكوى عرفات ، قال د . زعيّن عنّي إنني موكل برئاسة تحرير المجلة ولي كامل الحرية في التصرف . ونصح زعين الزعيم الفلسطيني بالتنبه إلى مخاطر التهويل وأخذ ما تقوله «الطلائع» بعين الاعتبار .

وفي صباح اليوم التالي ، تلقيت مكالمة من مكتب عرفات : «الختيار يطلبك فتعال إليه !» . والختيار كما هو لفظها بالعامية كلمة تعني الرجل الكبير وكان استخدامها في وصف عرفات قد بدأ يشيع حتى قبل أن يبلغ الرجل الأربعين .

سهل علي أن أتنبأ بما سيقوله أبو عمار لي وجهاً لوجه بعد أن لم تنفع الشكوى من بعيد . سيقول زعيم الثورة إن اتهام ثورة الشعب الفلسطيني

بالكذب فيه إساءة للشعب وتضحيات مقاتليه كما أن فيه خدمة للعدوّ والخصوم المتربصين بهذه الثورة في كل مكان . وسيذكر الخبير بالضرب على الأوتار الحساسة أن في الدعاية لنشاطات الثورة ما يشجع المتبرعين لها على دفع المزيد فتتمكن الثورة من الوفاء بالالتزامات المالية الكثيرة التي أعرف أنا أنها تضطلع بها علناً وسراً . وسيؤكد الرجل الذي يميزني بمعاملة خاصة على أن أبوابه بقيت مفتوحة لي وقد كان بإمكاني أن أنقل ملاحظاتي إليه بدل اللجوء إلى التشهير . سيقول عرفات هذا كله وما يماثله في حضور آخرين فأتحرج من معارضته أو الدخول في جدل معه وأتعهد أن أراعي سمعة الثورة . ولكي أتجنب الحرج ، اتصلت بفتوح : «الختيار يطلبنا لمقابلته» . وهكذا ، ذهبت بصحبة الصحافي المصري ، فضمنت أن يتجنب القائد الفلسطيني توجيه اللوم لي .

وجدت في مجلس عرفات عدداً من الذين أعرفهم ومنهم سعيد حمامي الذي غدا من المقربين جداً إلى الزعيم . وحين دخلت المجلس ، قدمت فتوح ليدخل قبلي ثم تبعته ، فهل أدرك عرفات ما توخيته حين لم أجئ إليه بمفردي ؟ لست أدري . لكني لا أستبعد هذا الاحتمال . والواقع أن الرجل هبّ لاستقبالنا باشاً ، وأخلى لنا مكانين بجانبه ، وتجاهل أنه استدعاني وحدي وقال إنه استدعانا كلينا ليخصنا وحدنا ، نحن أقرب الصحافيين إليه ، بحديث عن عش النسور ووقائع لم تنشر من قبل . بدّل عرفات ، إذاً ، خطته ، وعرض كعادته صفقة عرضاً غير مباشر : أحكي ما تنفردان بنشره فينفعكما السبق الصحافي وتسامحان وأسامح . وبدل معاتبتي أو لومي ، استغل عرفات وجود الصحافي المصري فشاء أن يعلمني ، أنا الفلسطيني ابن الثورة ، كيف تُروى الوقائع في نحو تستفيد الثورة منه . وما كان أعجب ما رواه الرجل في ذلك اللقاء !

استخدم عرفات التعابير العسكرية التي راحت تخالط حديثه منذ صار المتحدث الرسمي باسم «فتح» وحكى حكايات وقائع اتصلت على مدى ثلاثين ساعة منذ بداية الحملة على العرقوب حتى نهايتها : معارك في قرى العرقوب، أو حولها، أو على الطرق، بطولات، صبر على الشدائد، وأساليب ابتكرها الفدائيون أو وجهتهم إليها القيادة. كنت أواجه الراوي نصف متنبه إلى الحكي وأركز الانتباه على قسمات وجهه والتعابير التي تتعاقب عليه. وما كان أفتن صدق هذا الرجل وهو يحكي حكياً لا يربطه بما وقع فعلاً إلا أوهن الروابط! قد تخطئ فهم وصفي هذا لياسر عرفات، بل إنك قد لا تفهمه على الإطلاق. غير أني لا أجد في اللغة تعبيراً أصوب. كان الرجل يحتدّ فعلاً حين يحتدم اشتباك يتحدث هو عنه، ويثور إذا وضعت روايته أحد أبطاله في مأزق، ويبتهج حين ينقذه. كانت نبرة الصوت وتعابير الوجه ودورة المقلتين وحركات الأطراف تتبدل مع تطورات الوقائع فتعكس تبدل مشاعر الراوي. وما كان لغير العارف بعرفات والوقائع الأصلية أن يشك في صحة ما يرويه.

ساق الرجل روايته في نحو يظهر أن الفدائيين المشتركين في الاشتباكات قد أُنهكوا. وعندما تصور أن هذا الانطباع تحقق، خفض رأسه وصمت لحظات، ثم عاد إلى مواجهتنا وفي عينيه بريق فاتن، وابتسم ابتسامة عريضة، واسترخى بهيأة من يستسلم لفضولنا، ثم قال: «لاحظتم أني لم أحك على ما جرى خلال ثلاث ساعات من الساعات الثلاثين». لم أكن قد لاحظت شيئاً، غير أني بقيت كغيري صامتاً فيما أكمل هو: «الآن ستعرفان سراً لم يعرفه الإعلام». وفي ترجمتي الخاصة لهذه العبارة، أدركت أن محدثنا سيقصّ حكاية وردت إلى خاطره وهو مطرق. وهذا هو ما فعله الرجل. فقد روى كيف أنه وصل إلى الموقع الذي يشغله رجال المدفعية

المضادة للطيران ، «فلقيتُ الواحد منهم ، يا والداه ! ، مش قادر يحرّك رقبته» ، وذلك كما ينبغي أن نفهم لطول ما أبقى رأسه مرفوعاً ناحية السماء وهو يلاحق الطائرات الإسرائيلية بنظره وقذائف مدفعه . ولأنه أدرك أنه استحوذ على دهشة سامعيه ، قال عرفات بنبرة ذات مهابة خاصة لاجئاً إلى الفصحى لأول مرة في حديثه ذاك : «كان أمامي أن أتخذ قراراً تاريخياً ، وقد اتخذته» ، ثم لم يعطنا الذي فرض حديثه علينا الصمت والترقب فرصة الاستفسار ، بل تابع بنبرة متأنية : «وأجريت تبديلاً لكامل القوات أثناء المعركة» .

لحظتها ، لمعت في ذهني مقارنة : خيول ياسر عرفات تسابق البرق في وعور العرقوب ، فأين منها خيول يوسف ابن خالي محمد التي كانت تسابق الريح وحده في سهول المسمية ! ويبدو أني سرحت مع المقارنة . وعندما استعدت الانتباه كان ثغر الراوي منفرجاً عن ابتسامة عريضة ونظره يدور علينا وهو يقول وقد استعاد العامية المصرية : «دي ما عملهاش أي جيش في المنطقة» . عندها ، أدلى سعيد حمامي باستدراك : «إلا الجيش الإسرائيلي» . فقال عرفات دون أن ينظر ناحية المستدرك الذي ربما شاء أن يعيدنا إلى الواقع : «أيوه ، الجيش الإسرائيلي عملها مرة واحدة» .

ولعل من المفيد أن أحدثك عن انطباع فتوح ورد فعله بعد حكاية عش النسور هذه . فقد أيد فتوح العمل الوطني الفلسطيني بكليته . وجنّد الصحافي المتحمس نفسه وموظفي مكتبه ومراسليه لتوزيع الأنباء الفلسطينية . وعلى شدّة ذكائه وفطنته ، اندفع فتوح في هذا المجال بغير تروٍ . وكان يكفي أن يشتمّ الرجل في أي نبأ ما يخدم العمل الفدائي حتى يتبناه دون تمحيص . أما بعد ما سمعه فتوح مني عن غور الصافي ، ثم بعد ما عايناه معاً في العرقوب ، ثم بعد هذه المقابلة ، فقد انقلب الحماس الشديد إلى حذر شديد . وصار الصحافي المصري يعدّ إلى الألف قبل أن يتبنى أي نبأ ، ولم

يعد ذلك الإنسان الانفعالي الذي تبكيه خطبة أو يستثيره بلاغ .

وها أنا ذا أتذكر صاحبي في موقف عابر وإن كان بالغ الدلالة . جرى هذا في يوم تلا مقابلتنا لعرفات . يومها ، توجهنا ، هو وأنا ، إلى زيارة مكتب م . ت . ف . في دمشق ، فقابلنا عرفات بالصدفة وهو خارج على عجل من المكتب . لم يأبه فتوح لتعجل الزعيم الفلسطيني المغادر ولا لحشد المرافقين والحراس المتأهبين للحركة ، بل اعترض طريق الخروج وأرغم عرفات على التوقف . وبنبرة سافرة السخرية ، وجه فتوح هذا السؤال إلى عرفات : «أرجو أن لا تقول لي إن النبأ ليس للنشر ، أنا عرفت أنه صار عندكم طيران» . عرفات الذي يتعذر إحراجه تجاهل السخرية ، وتجاهل الإشارة السافرة إلى تهويلاته ، وحمّل نبرة صوته أقصى ما يمكن أن تحمله من جديّة ثم قال : «هل هذا خبر يجوز نشره يا فتوح !؟» .

هذا الرد جعل فتوح يهتف على مسمع من كثيرين : «يا والداه ، طلع أشطر منّي» . وكلما روى فتوح هذه الحكاية أو تكرر ما يذكره به ، كان هو يكرر هتافه : «يا ولداه ، طلع أشطر منّي» .

٦

أيهما أهم: أبو العبد أم أبو عمار

دولة داخل الدولة ، صفة أُطلقت على الوجود الفلسطيني المسلح في الأردن . ولئن لم تتطابق الصفة مع واقع الحال ، فقد كان ثمة ما يسوغ الانتباه إلى اتساع هذا الوجود وازدياد تأثيره ونفوذه . فمنذ العام ١٩٦٧ ، توسع الوجود الفدائي في الأردن ، كما في سواه ، باضطراد . وفي الأردن بالذات ، حيث الأغلبية الفلسطينية والنسبة الكبيرة من الأردنيين المؤيدين للعمل الفدائي ، أقامت الفصائل من المنشآت والمكاتب والأجهزة ما له لزوم وما هو فائض عن أي لزوم . وبسطت الثورة الفلسطينية تأثيرها على مناحي الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية في البلاد ، وأنشأت مؤسسات تقدم الخدمات للجمهور وتنافس مؤسسات الدولة وتتدخل في الشؤون العامة . وتوسعت الفصائل في إنشاء ما سمي بالميليشيا ، وصار السلاح في متناول أي يد . وتفاقمت أوجه السلوك التي يمليها الامتلاك المفاجئ للقوة بعد طول حرمان وكبت . ولئن كان الانتماء إلى أي فصيل ميسوراً لأي راغب فيه كما صرت تعرف ، فقد كان الانتماء إلى أي ميليشيا أيسر .

ومع توفر التأييد الشعبي الكاسح للعمل الفدائي وبهوت سلطة الدولة الخارجة لتوها من هزيمة مستنكرة ، اجتذبت الفصائل شتى أنواع الناس : ذوي

الدوافع النزيهة والفاسدين . ومع وجود فصائل عدّة وتنافسها ، بقي بإمكان أي شخص يلفظه فصيل أن يحطّ بسهولة في فصيل آخر . وزادت فرص الاندساس في الفصائل أمام الذين ترسلهم أيّ من المؤسسات الأمنية العربية أو الأجنبية التي تترصد العمل الفلسطيني وتكلفهم شتى المهام التخريبية . وعندما صرنا في الوقت الذي أوصلنا إليه سياق هذا الحديث ، أي في أواخر العام ١٩٦٩ ، كانت معالم دولة الفدائيين القائمة داخل الدولة قد تبلورت وبلغت الخصومات بينها وبين الدولة الأردنية أشدّها . ولا أبالغ إن قلت لك إن دولة الفدائيين هذه بدت أكثر صخباً وأقدر على اجتذاب الأضواء من دولة الحكومة . وهذا كلّه ، إن انطوى على مخاطر تهدد العمل الفدائي ودولة الحكومة ، فقد كان بالإمكان أن تتغلب عليه عقالة العقلاء لو لم يقترن بسياسات خاطئة على الجانبين . فعلى الجانب الفلسطيني ، اختلطت المزايدة والدعوات المغامرة والشطط في الأوهام مع النوايا السليمة فصارت هذه وتلك هي قوام السياسة . وعلى الجانب الآخر ، كان ثمة التهيب من مجابهة إسرائيل والسعي إلى استرضائها والخوف من أن يستثيرها النشاط الفلسطيني ، وكان هذا كله وغيره مما يماثله هما قوام سياسة هذا الجانب . غاب صوتُ العقل من جانب ، أو كاد ، وغابت العزيمة من الجانب الآخر ، أو كادت . ولم تجتذب السياسة المتهاونة مع إسرائيل الجمهور ، فاجتذبته الدعوة إلى الكفاح المسلح . أُهملت رغبة الجمهور في المقاومة على جانب وبولغ في استثمارها على الجانب الآخر . واختلط الحابل بالنابل . وواءم الاختلاط أهداف الطماعين والانتهازيين على الجانبين وتعددت وسائل هؤلاء وأساليبهم الظاهرة أو المستترة في استثمار الظرف واستجلاب المنافع .

هذا الوضع أوقع أعباء ثقيلة على كواهل المحتفظين بهدي العقل . وقد برز بين هؤلاء كثيرون حملوا الأعباء بأمانة وصبروا على الاتهامات التي يوجهها

المزايدون إليهم ، وتصدّوا للسلبيات . إلا أن وضع اليد على الرابط بين السلبيات وبين السياسات المغامرة أو الاستسلامية لم يتسنّ إلا لقليلين ، ولهذا ، تبددت جهود كثيرة استهدفت مقاومة السلبيات دون أن تنتبه إلى خطأ السياسة . وظلّت السلبيات تتفاقم حتى مع تعاظم الجهود المبذولة لمقاومتها .

كان الشيوعيون بين القليلين الذين انتهبوا إلى خطر المزايدة فضلاً عن انتباههم كغيرهم إلى خطر التهاون . وقد حذر الشيوعيون من التطرف مثلما حذروا من الاستسلام ، وخاضوها أو قل : خاضها معظمهم معركة على الجانبين ؛ دفع المقاومة الفلسطينية في اتجاه التعقل ؛ ودفع السلطات في اتجاه مقاومة الاحتلال . وحين أستحضرُ ما تعرض له الشيوعيون من شتى الاتهامات ، فإني أستحضر معه جرأة الذين تصدوا للسائد وجازفوا بتحدي موقف السلطة ومشاعر الجمهور معاً . وبالرغم من مضيّ عشرات السنين على وقائع تلك الفترة ما أزال مسكوناً بإعجابٍ لا يبهت بشجاعة القائد الشيوعي فهمي السلفيتي . وقد تميز هذا القائد الفلسطيني في الحزب الشيوعي الأردني بصفاء بصيرته ووضوح رؤيته للواقع وسداد قراءته لمعطياته واستنباط أصوب الآراء التي تستشرف المستقبل . احتمل أبو سليم التهم القاسية دون أن يتهيب تأثيرها على سمعته ، وفعل الكثير من أجل إعلاء صوت العقل ومواجهة المزايدات . لاحقت الاتهاماتُ الرجل الشجاع ، اتهامات رماه بها وطنيون وقوميون منتقلون حديثاً إلى اليسار وآخرون من شتى الأصناف ، فلم يقعده طغيان أفكارهم عن سعيه إلى تخطيئها .

مخاطر التطرف والمغامرة فاقمها التنافس بين الفصائل المتعددة وتنافس هذه الفصائل منفردة ومجتمعة مع السلطة . هنا ، صار تعدد المواقع واختلاطها أعقد من أن يحيط بهما أي متقصٍ لتفاصيلهما مهما كانت براعته في

التـقـصّي . وقـد ألفت أن أردد حـيث أحلّ : «هذا زمن اخـتـلاط المواقع» . ومنافسـات الفـصـائل مع السلطة تدرجت إلى أن بلغت حد الاشـتـبـاكـات المسلحة . حلّ جو مجبول جبلاً بالتحديات والشكوك والاستفزازات المتبادلة ، فصار من شأن أي احتكاك حتى لو كان صغيراً أن يشعل حرائق كبيرة .

وفي واحـدة من سـفـراتي إلى عـمـان ، أنهيت مـشـاغل يومي الأول ، ثم سـهرت مع عـمـر في منزله حتى الفجر ، وكـان من شـأني أن أنام إلى ساعـة متأخرة لو لم توقظني لعلعة الرصاص ودوي القنابل في الساعة السابعة . قال عمر وهو يغالب حاجته إلى الاستمرار في النوم : «يوم آخر من المشاكل» . في هذا اليوم ، بدأ الأمر باشتباك وقع قرب مركز البريد وسط المدينة . ثم لم يلبث أن انداحت الاشـتـبـاكـات فـشـملت أي مكان فـيـه مـسلحـون تابعـون لأي من الفصائل ومسلحون تابعون لأي من مؤسسات السلطة .

تابعت الأنبـاء عـبـر الإذاعـات والاتصـالات التي أمكن أن أجـريهـا بالهـاتف . ولـم تلبّ هذه المتابعة توقي إلى مـعـرفة مـا يجـري مـعـرفة يقـينيـة ، وهي ، بالطبع ، لم تحمل إليّ ما يطمئن . ألم أقل لك إني آليت على نفسي ألا أصدق إلا ما أراه رأي العين أو أستقيه من مصدر أثق بصدقه ثقة شخصية . وبالرغم مما ينطوي عليه الأمر من مخاطرة ، نقلني عمر بسيارته إلى المقرّ الذي يستخدمه إعلاميو «فتح» . كـانت الشلة الـتي أعرفـهـا كلهـا هناك يتصدرها البعثي السـابق الذي التحق بـ «فتح» ناجي علوش وصديقه اللصيق به حنّا مقبل . ولـم يكن أي من هذين الاثنين يطيقني ، خصوصاً في الأوقات التي يلعلع فيها الرصاص فتلعلع معه أفكارهما التي أعترض أنا عليها ، ولم يكن حالي مع الآخرين أفضل . رأى هؤلاء فيّ استسلامياً يدعو إلى القبول بقرار مجلس الأمن الدولي ٢٤٢ ويقبل بأن يحصل الشعب الفلسطيني على بعض وطنه وحقـوقه وليس عليـها كلها كـما يريدون هم . أمـا أنا فكنت أرى في

أصحابي هؤلاء مهووسين بالتطرف توفر لهم الأجواء السائدة فرص التباهي بالهوس بوصفه عقيدة وتجسيده سياسة خاطئة يُدعى الجمهور إلى التضحية من أجل الدفاع عنها . بالرغم من ذلك ، ظل من الممكن في حالات كثيرة أن نجد ما هو مشترك لنعمله مجتمعين .

لم أجد لدى الإعلاميين أنباء أكثر كثيراً مما عرفته قبل أن أجيء إليهم . ولئن لم يشبع الحديث مع هؤلاء فضولي فقد أفادني في معرفة المزاج السائد والتحليلات الرائجة والتنبؤات . وكرر هؤلاء مقولتهم عن السلطة الرجعية الاستسلامية وواجب الثورة الفلسطينية في إسقاطها . وكان هؤلاء من الذين ألفت أن أسميهم ناس الخطوة الأولى ، فهم يعدّون أي شيء يحققونه أو يتوخون تحقيقه خطوة أولى نحو تحرير فلسطين ، يقولون هذا حتى لو تعلق الأمر بندوة ينظمونها ، وقد كرروا أمامي وهم يدعون إلى إسقاط النظام الأردني القول إن إسقاطه هو الخطوة الأولى لتحرير فلسطين . هؤلاء وأمثالهم ظلوا مشجعين مثابرين للاصطدام مع السلطة ، ولم يكونوا أقل مثابرة في هذا الاتجاه من نظرائهم من ناس السلطة الذين كانوا يتعجلون تصفية الحساب مع الوجود الفلسطيني المسلح في البلاد . ولأن السلاح عند الإعلاميين الذين أتحدث عنهم كان مقدساً في حدّ ذاته ، فقد اعتقد هؤلاء أن في مجرد اللجوء إليه بركة ما بعدها بركة ، وتصوروا أن السلاح وحده هو الذي يحقق رغباتهم ، فالسلاح ، عندهم ، هو الذي يسقط النظام ، وينشئ سوفييات العمال والفلاحين والجنود ، ويحوّل شرق الأردن إلى قاعدة للثورة العربية العارمة ، فتمدّ الثورة ألقها في دنيا العرب وتتداح أصداؤها في العالم ، ويكون في أي من هذه الخطوات الخطوة الأولى التي لا بدّ منها لتحرير فلسطين .

كنت أقول للذين يترسمون على غير هدى خطوات الثورات الروسية والصينية والفيتنامية والكوبية إن الناس غير الناس والبلاد غير البلاد وكذلك

الظروف الذاتية والموضوعية . وكانوا هم يستهينون بما أقول : «نعرفك ، أنت مثل الشيوعيين ، ناس الظروف الذاتية والموضوعية هؤلاء !» ، ويطلقون عليّ أقبح النعوت . استقر في أذهان زملائي أن الثورة هي التي تصنع الظروف وأن رغبات الثوار هي التي تملي التطورات وتحدد مناهج العمل . وعند هؤلاء ، كانت الثورة تتمثل في صخب البنادق ، وقد توهموا أن الإرادة الثورية لا تصير إرادة أو ثورية إلا إذا توخت بلوغ الحدود القصوى .

يومها ، حين كرر ناجي علوش عرض يقينه بأن أوان هيمنة الثورة على السلطة في الأردن قد أزف ، رجوت زميلي هذا أن يقنعني بما يقنع ، وليس بالأوهام . طلبت من المفرط في يقينه أن يشرح لي كيف يرى أن الوضع في الأردن مهيأ لما كانت الصين مهيأة له . ودعوت ناجي إلى أن يبصر ما أبصره ، الوضع كما يرتسم في الواقع وليس في الأذهان الطموحة : الفدائيون موزعون على فصائل عدّة ، منقسمة ومتنابذة ، مسلحون بأسلحة أفتكها مدافع الهاون ، ومحاطون بدول عربية منقسمة في الرأي على مسائل عديدة منها مسألة إسقاط النظام الأردني ، وإسرائيل ذات الموقف الحاسم في هذا الشأن والقدرات . والجمهور في الأردن ملتف حول الفدائيين لأنهم تصدوا لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي فإن تعلق الأمر بمسألة إسقاط النظام فهو مختلف تماماً ، ومن الملحوظ بسهولة أن أغلبية الجمهور لا تستصوب توجيه الجهود أو تبديدها في الصراع مع السلطة . فكيف يجوز لعاقل أن يتخطى الواقع ويتبع رغباته وحدها ؟ قلت هذا ، وطرحتُ سؤالي بهدف أن أجعل موقفي واضحاً .

وسأتعبك لو أني عرضت الشروح التي تبسط ناجي في عرضها . قد يكفيك أن تعرف الموجز . فقد أقرّ ناجي بأن من يتصور هو أنهم هم الثوار الحقيقيون قليلو العدد والإمكانيات المتوفرة لهم قليلة . وقال ناجي عن الفكر الذي يصفه هو بأنه المنحرف إنه هو الغالب . أما العدو فأقر ناجي بأنه في ذروة

القوة مثلما أقر بأن الظروف المحيطة ، العربية والدولية ، غير مسعفة . لكن ناجي رأى أن على الثوريين الحقيقيين أن يستنفروا إراداتهم وطاقاتهم فيخلصوا الساحة الفلسطينية من يمينييها الاستسلاميين ويسارييها الانتهازيين ويواصلوا الكفاح لدكّ ركائز الرجعية في الأردن والقضاء على نظامها وتحرير البلاد العربية الأخرى في النحو ذاته وتوحيد العرب في دولة واحدة والتحالف مع ثوريي العالم واستنهاض هممهم ليفعلوا الشيء ذاته في بلدانهم ، فيصير القضاء على إسرائيل بهذا كله ممكناً .

كان التباين بين الإقرار بالمقدمات وبين الاستخلاصات صارخاً إلى حد لا يطاق . وفي تعقيبي على هذا التباين ، رويتُ طرفة ألف الشاعر عبد الكريم الكرمي «أبو سلمى» أن يستحضرها كلما استفزّه ظرف مماثل : معلم مدرسة قال لتلاميذه إن الدرس سيكون عن حيوان ضئيل الحجم ناعم الجلد له ذيل دقيق يعيش في المنازل متخفياً ويخاف القطط وأول حرف من اسمه هو الفاء ، فمن يعرفه ؛ فتسابق الصغار إلى النطق بالإجابة : «الفار» ، لكن صوت المعلم أسكتهم : «لا ، إنه الفيل» . وبهذه الطرفة أردت أن أختم حديثنا دون ضغائن . إلا أن حنّا مقبل ، هذا الذي سأحتاج إلى صبر سنوات مديدة حتى يصير من أعزّ أصدقائي ، تصدى يومها لي . ارتسمت على وجه حنّا تعابير استهانة سافرة خالطها حنق أسفر ، وخرجت كلماته من بين الأسنان : «الثورات لا تنجح بالحسابات الباردة بل بإرادات الثوار الملتهبة . لينين هو الذي أشعل الثورة الروسية ، وليس علماء الاجتماع الروس ، أشعلها حماسه وليس علمه الذي لم يطلع عليه الجمهور . أصحاب الإرادة وليس المنظرون هم الذين أشعلوا الثورة الفرنسية ، كاسترو كان طبيباً ولولا حماسه لما انتصرت ثورة كوبا ولما لحق الشيوعيون به» .

بعد هذا ، جاء دور الشعر الثوري ليسند الكلام عن الإرادة الثورية . لست

أهزل كما قد تتصور . فقد ظل خالد أبو خالد صاحب القصائد الحماسية والصوت المرنان صامتاً يتابع الحديث ويؤمّن على كلام أصحابه بإيماءات من رأسه . وعندما فرغ حنّا من تعقيبه وما فيه من تعريض بحساباتي ، انبرى خالد ، وهو من أصدقائي ، لإتمام المهمة وإن تميز عن الآخرين بأنه شاء أن يدافع عني ، فجاء بدفاع هجومهم عليّ أرحم منه . خالد هذا عمل في مطلع شبابه في الكويت وكان فيها إن لم تخنّي الذاكرة مذيعاً أو شيئاً من هذا القبيل . وجاء خالد إلى دمشق حين كان يوسف الخطيب ثم عبدالله الحوراني متنفذين في هيأة الإذاعة والتلفزيون السورية فتسنى للفلسطيني الشاب أن يصير مذيعاً في الإذاعة السورية ويبرز بين الشعراء الطالعين . وفي دمشق ، نشأت علاقتي بخالد وانتظمت . وقد اشتهر خالد في الأيام الستة لحرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ بظهوره على شاشة التلفزيون ليقرأ الأخبار وهو يلبس زي القتال ويعلق على كتفه بندقية كلاشنيكوف . وبعد الحرب ، التحق خالد بمقاتلي «فتح» وانضم إلى قاعدة من قواعدهم في الأغوار وصار قائداً للقاعدة . إلا أن خالد لم يقطع صلته بالإعلام . ولست أتذكر كم طال مكوث الشاعر في القاعدة لكني أتذكر أن حضوره في الوسط الإعلامي ظل وحده هو البارز . وفي تصديه للدفاع عني ، قال خالد : «تظلمون أخانا حين تتصورون أنه من المتخاذلين ؛ وكل ما في الأمر أنه واقع تحت تأثير الشيوعيين الكلاسيكيين وإن واجبنا أن ننقذه من تأثيرهم» . دافع خالد عني في هذا النحو المغيظ ثم قرأ آخر قصيدة كتبها بعد أن قال إن الوحي جاءه بها وهو في القاعدة .

كان في الحديث ، في الدفاع كما في الهجوم وفي القصيدة ، ما رفع ضيقي إلى الذروة . وما أن عرفت أن أحدهم مغادر المكان بسيارته حتى رجوته أن يأخذني إلى المكان الذي يتوجه إليه . وهكذا ، وجدتني في مكتب للصاعقة في جبل اللويبدة ، وكان فيه ممن أعرف الضابط في الجيش السوري

النقيب الفلسطيني صلاح معاني . ولعلك ما تزال تتذكر صاحب هذا الاسم الذي كان في العام ١٩٦٦ ملازماً ثانياً مرؤوساً لرفعت الأسد ، شقيق وزير الدفاع في سورية ، وقدم ضدي ، أنا الذي كنت رئيساً لدائرة التوجيه السياسي في الإذاعة والتلفزيون ، شهادة كاذبة لصالح رفعت فطُردت من الوظيفة . كان صلاح قد انتدبَ للعمل في الصاعقة ، وكان هذا هو لقائي الأول به بعد تلك الواقعة . ولأني كنت تحت تأثير الكلام الذي سمعته في إعلام «فتح» ، فقد بادرت صلاح : «أنتم أيضاً تريدون أن تحرروا العالم كله بهذه البندقية» . وقد عنيت بندقية رأيتها مسنودة إلى مكتب الضابط البعثي . ولم يدرك صلاح سبب مبادأتي له بهذه السخرية ، وتصور أني أشير إلى ملصق موضوع قربه وقد كتبت عليه عبارة «السياسة تنبع من فوهة البندقية» ، فقال متفلتاً : «أنا لا أفهم في السياسة ولا أتدخل فيها ، ولست أنا الذي جلب الملصق ، فارحمني من لسانك !» .

لم يكن الملصق الذي نبهني رد النقيب إلى وجوده من صنع الصاعقة بل كان من صنع الجبهة الديمقراطية . ويبدو أن شخصاً ما جلب الملصق إلى هذا المكان ولعله شاء أن يظهرتماثل الآراء بين الطرفين . أما الرد على ملاحظتي فتولاه شخص من الحاضرين لا أعرفه : «وأين العيب في هذه الحكمة ، ألا تستند السياسة إلى القوة ؟» . ولأني خشيت أن أتورط ثانية في جدل من نوع الجدل الذي فررت منه ، فقد تابعت بالأسلوب الذي بدأت به : «أستغرب لماذا تنبع السياسة عندكم من فوهة البندقية بالذات ، البندقية ليست أفتك الأسلحة ، فلماذا لا تقولون إن السياسة تنبع من راجم الصاروخ ، أليس الصاروخ هو الأقوى» . وقد أُخذ مُحدثي بإجابة لم يتوقعها ، فلم يعرف كيف يواصل الجدل ، فنظر إلى صلاح مستنجداً به . إلا أن صلاح الأذكى ، على ما بدا لي ، من رفيقه لم يفتح الباب لجدل لا يتقنه ، بل وجه الحديث إلى

الموضوع الذي أدرك أني منشغل به : «هل عرفت أين وصلت الاشتباكات ؟» ، قال هذا بنبرة تظهر أنه مستعد لإطلاعي على أدق التفاصيل .

في وسط المدينة ، عند تقاطع شارع الأمير محمد مع شارع السلط ، قرابة السابعة صباحاً ، تحاذت سيارتان ، واحدة فيها رجال شرطة وأخرى فيها فدائيون . وفي لحظات التوقف بانتظار أن يأذن شرطي المرور بانطلاق الحركة ، وقع تلاسن بين الفريقين لم يُعرف سببه بعد . وعندما انفتح الطريق تبعت إحدى السيارتين الأخرى ، وانتهى الأمر بتبادل إطلاق النار قرب مركز البريد . واجتذبت لعلعة الرصاص مسلحين من هذا الفريق ومسلحين من الفريق الآخر ، واتسع الاشتباك ، ثم انداح حتى شمل معظم أنحاء المدينة . ومنذ الصباح ، بُذلت الجهود في اتجاهين متضادين : الذين ينمّون الكره على الجانبين أجّجوا المشاعر ودفعوا باتجاه التصعيد وتوسيع دائرة الاقتتال ؛ والمتخوفون من مخاطر الاقتتال نشطوا في السعي إلى التهدئة . وهكذا ، تضاربت الاتجاهات والأوامر على كل من الجانبين ، فاشتد الاضطراب وصارت السيطرة على الوضع أصعب .

وكأنما خشي صلاح أن أظن أن الصاعقة هي التي بدأت الاشتباك فتعمد أن يرجع إلى البداية : «تلك السيارة الفدائية عند التقاطع كانت فتحاوية» ، فقلت «ما الفرق ما دام الجميع انجرّ إلى المعمعة» . وعقب صلاح متشبثاً بحرصه على تجنب الجدل : «معك حق ، والمصيبة أن . . .» وشاء أن يتم العبارة إلا أنه تذكر شيئاً : «هل تعرف عنصراً في «فتح» اسمه الحركي المصيبة؟» . بالنسبة لي كانت هذه هي الصفة التي أطلقها فلاحو منطقتي في فلسطين وأنا طفل على شرطي شرير تفنن في إيذائهم ثم قتلوه ، كما كانت اسماً يتردد كلما تندرنا بالأسماء الحركية الغريبة التي يحملها بعض الفدائيين . وعاجلني صلاح بإيضاح : «المصيبة ، هذا ، هو الذي تلاسن مع

رجال الشرطة في الصباح» .

مع الغروب ، أفلحت الجهود المتعقلة في تطويق الاندفاع الجهنمي للنار . وعرفت أن تحقيقاً حول الأحداث يدور في مكتب صلاح خلف «أبو إياد» فتعجلت الوصول إليه . وهناك رأيت هذا المصيبة . كان موقد الشرارة الأولى قد أقرّ قبل وصولي بأنه لاحق فعلاً سيارة الشرطة بعد اجتياز التقاطع وعزا السبب إلى أن رجال الشرطة شتموه وشتموا جميع الفدائيين . ولما سأل أبو إياد الرجل عمن بدأ التلاسن عند التقاطع ، أقرّ المصيبة دون تردد بأنه هو الذي وجه الشتيمة الأولى لشرطي يجلس بجوار السائق . فتساءل أبو إياد ، بصبره المشهود به في تقصي التفاصيل : «لماذا شتمت الشرطيّ ، هل يجوز لفدائي أن يشتم شرطة البلد ؟» . ويبدو أن المصيبة استشعر نبرة السخط في سؤال القائد ولم تعجبه ، وكنت أنا وقتها قد دخلت على المشهد . ونتر المصيبة رأسه نترة تشي بمشاعره إزاء السؤال وقال متحدياً ، بنبرة متبجحة :«شتمته لأنه بحرني ، ولو كان الكلاشنيكوف جاهزاً لقتلته» . و«بحرني» ، هذه ، تعني أنه نظر إلي أو تفرس فيّ بغير ود . وكانت تلك بحرةً تبعها إرعاب مدينة طيلة نهار بكامله وتأجيج العداوات بين الفريقين وتأسيس عداوات جديدة ، وهذا كله قبل أن نتحدث عن الخسائر المادية أو البشرية .

لم يكن لأي استفزاز أن يوقد نار الفتنة ، لو لم توزع التطورات السابقة الطرفين على معسكرين متباغضين ، ولو لم يوجد على الجانبين ناس لهم مصلحة في تأجيج العداء . وإذا جاز لي أن أحدد دوافع العداء ، فسأبدأ بالرئيس منها ، كما فعلت في كل ما كتبته عن أحداث تلك الفترة . إنه التنافس حول المسؤولية عن تقرير مستقبل الشعب الفلسطيني . أما التنافس على السلطة في الأردن وتأثير التجاوزات التي تجلت في سلوك بعض الفدائيين أو ناس السلطة وما إلى ذلك ، فإنها عوامل تالية لا ترتقي إلى

مستوى العامل الرئيس .

هذا الحكم الذي يتوخى استخلاص لبّ المسألة لا ينفي اختلاط تأثير العوامل المتعددة أو بروز تأثير عامل منها في وقت أو حال وعامل غيره في وقت وحال آخرين . والحقيقة أن وضعاً غريباً نشأ بعد هزيمة ١٩٦٧ التي نتج عنها بين ما نتج أن ضعف النظام ونما العمل الفدائي الفلسطيني في الأردن . وإلى كونه غريباً ، كان هذا الوضع شائكاً أيضاً . بدأ الأمر حين شاء ناس المقاومة أن يتحرروا من القيود التي تفرضها السلطات الرسمية على حركتهم . وكانت هذه القيود ، كما لا بد من أنك تعرف ، شديدة القسوة قبل ١٩٦٧ . ثم تطور الأمر مع ضعف السلطة فأخذت سلطات المقاومة تحل محل سلطات النظام ، تأكلها أولاً بأول ، فيما سعى ناس النظام إلى مقاومة ظفر المقاومة بأي سلطة . بدا أمر ناس النظام بالسعي إلى تجاوز ضعفه واستعادة سلطاته المفقودة ، ثم تطور إلى أن صار الهدف هو حرمان المقاومة من أي سلطة . وبمضيّ الوقت ، بالضغوط التي اشتدت على الجانب الفلسطيني من أصدقائه المبغضين للنظام الأردني والضغوط التي اشتدت على النظام الأردني من مبغضي المقاومة الفلسطينية ، وخصوصاً من إسرائيل ، اكتمل التناقض . فبرز على الجانب الفلسطيني الدعوة إلى إسقاط النظام الأردني . وكانت هذه في جوهرها ، كما رأيته أنا ، دعوة إلى أن تتولى م . ت . ف . أو قيادة المقاومة الفلسطينية مسؤولية الشعب الفلسطيني كله وصياغة مستقبله . وتأسس على جانب النظام مطلب التخلص من الوجود الفلسطيني المسلح أو من هذه الدولة الآخذة في النمو داخل الدولة . وكان هذا ، في جوهره ، كما رأيته أنا أيضاً ، مطلباً يعني أن يستأثر الأردن بتمثيل فلسطينييه ويصوغ مستقبلهم وفق سياسته هو ويمنعهم هم وإخوانهم الآخرين من إتيان ما يستفزّ إسرائيل .

في غضون ذلك ، ضمّ الجانب الفلسطيني فرقاء سعوا بالوسائل المستقيمة

والأخرى الملتوية إلى إحباط التوجه إلى إسقاط النظام . فعل بعضهم ذلك لأنه رأى أن إسقاط النظام مطلب غير واقعي أو أنه لا لزوم له أو أنه يندرج في سياق المطالب التي تمليها السياسات المزايدة كلها . وفعل ذلك آخرون منهم متنفذون في قيادة «فتح» نتيجة حسابات محلية وإقليمية ودولية أظهرت تعذر حلول المقاومة الفلسطينية محل النظام إلا إذا شاءت المقاومة أن تواجه مخاطر ومسؤوليات لا تقدر عليها . وعلى الجانب الآخر ، في غضون ذلك أيضاً ، شاء بعض ناس النظام أن يستفيدوا من ضغوط المقاومة عليه لتحقيق غرض أو غيره مما له صلة بتوزع مواقع النفوذ والمنافع .

مرة أخرى ، فوق هذا كله ، قبله وبعده ، كانت م . ت . ف . منذ شغل حملة البنادق مواقع القيادة فيها حريصة على تأكيد حقّها في تمثيل الشعب الفلسطيني كله أينما وجدت تجمعاته المتعددة واكتساب المسؤولية التامة عن صياغة مستقبله فيما بقي النظام الأردني مصراً على أنه هو ممثل الفلسطينيين في الضفتين الشرقية والغربية ، أي معظم الفلسطينيين ، المسؤول عن صياغة مستقبلهم .

وبمقدار ما يجوز لي أن أتحدث عن الجانب الذي انتميت إليه ، فإن بإمكاني أن أجزم أن قائداً مثل ياسر عرفات لم يدعم في أي وقت جهداً يستهدف حقاً إسقاط النظام الأردني حتى حين جارى عرفات بعض الذين يدعون إلى إسقاطه أو شاركهم دعوتهم . لكن عرفات المسكون أكثر من غيره بهاجس انتزاع حق م . ت . ف . في تمثيل شعبها وصياغة مستقبله دعم الضغوط على النظام الأردني كلما اقتضى الأمر توجيه ضغوط من أجل انتزاع مزايا أو صلاحيات أكثر لـ م . ت . ف . و«فتح» أو حرمان ناس النظام من الاستئثار بحق تمثيل الفلسطينيين ، بعضهم أو كلهم في الشأن السياسي . والحق ، عندي ، أن ياسر عرفات كان في هذه النقطة على صواب تام .

وأياً ما كان عليه الأمر ، فإن كثافة الوجود الفلسطيني المسلح في عمان والمدن الأخرى بلغت حداً فاق كثافته في الأغوار وزاد على ما توجبه حاجات العمل ضد الاحتلال الإسرائيلي . وقد وقعت البلاد في أسر مسلسل الأفعال وردود الأفعال : الوجود المسلح الفلسطيني يثير حذر السلطة ويدفعها إلى مواجهته في السر والعلن . وإجراءات السلطة تثير حذر الفصائل الفلسطينية فتؤجج نشاطها لتكثيف هذا الوجود ، توتر مضطرد ونشاط ونشاط مقابل متصاعدان دون توقف . وفي هذا المسلسل الشيطاني ، نمت مشاعر البغض على الجانبين . وتوجب على الجمهور ، وهو المؤيد بالإجمال لنشاط المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الاسرائيلي ، أن يدفع ثمناً مضاعفاً ، فيعاني من تجاوزات الفدائيين ومن إجراءات السلطة . وفيما ثابر النظام على تعبئة ناسه في الجيش والمدن والقرى والبوادي ضد الفدائيين وراحت دعايته تضخم سلبيات سلوكهم ، نشط الفدائيون لتعبئة الناس ضد السلطة وتهاونها في مواجهة العدو الإسرائيلي .

وفي طيّات هذا الصراع ، استدرجت المقاومة أو اندفعت إلى ما يشغلها عن مواجهة الاحتلال . بل إن منجزات مواجهة الاحتلال صارت لها وظيفة جديدة ، فجرى استخدامها لإبراز قصور النظام في هذا المجال . وفي بعض الحالات ، عند بعض الفصائل ، بل عند الكثير منها ، فاق الجهدُ الموجهُ ضد النظام الجهدَ الموجهَ ضد إسرائيل ووجد ما يسوغ هذا حين وجهت الفصائل للنظام تهمة التواطؤ مع إسرائيل . وفي التحريض ضد النظام ، برّزت الجبهتان الشعبية والديمقراطية الآخرين وفعل التنافس بينهما فعله في تأجيج المزايدة . وفي هذا التنافس ، بزت الجبهة الديمقراطية الجبهة الأم واشتطت ليس في الدعوة إلى إسقاط النظام فقط بل في تحديد النظام البديل . ولم تتصور الديمقراطية البديل أقلّ من نظام اشتراكي ، السلطة فيه لسوفييات العمال

والفلاحين والجنود على غرار النظام الذي أنشأته الثورة البلشفية في الاتحاد السوفياتي . قد تصطدمك غرابة الدعوة إلى نظام السوفييات في بلد طبقته العاملة ما تزال في أول أطوار النشوء وفلاحوه متشبثون بالنظام العشائري أكثر من تشبث البدو أنفسهم به وجيشه مؤسسة أنشأها النظام وفصلها على قدّ حاجاته . وقد تجد هذه الدعوة مجرد طرفة استهوت الذين استهوتهم الماركسية دون أن يفهموها أو يدرسوها . أما في حينه ، فكانت هذه دعوةً مغيظة للعقلاء من اليمينيين واليساريين على حد سواء . وقد انطوت الدعوة هذه على استفزازات أثارت مؤيدي المقاومة ومؤيدي السلطة من هؤلاء على حد سواء ، أيضاً .

وها أنا ذا أتذكر احتفال الجبهة الديمقراطية بعيد ميلاد لينين . تصور القافزون لتوّهم من خانة التعصب القومي إلى خانة الماركسية أن يساريتهم لا تستقيم إلا إذا غالوا في تكريم ذكرى مؤسس الدولة الاشتراكية الأولى ، ففعل هؤلاء في الأردن كما في غيره ما كان لينين نفسه سيعترض عليه لو شهده . ففي دمشق ، على سبيل المثال ، علقت الجبهة على جدران المدينة ملصقاً حمل صورة لينين وتحتها كلام منسوب إليه موضوع بين أقواس لتأكيد النسب ، وهو كلام يصف إسرائيل بأنها دولة الرجعية والعدوان والتوسع . كنت أسير مع سعيد حمامي في أحد شوارع دمشق حين وقع نظرنا على الملصق . ولكم أغاظنا كلينا أن تنسب الجبهة إلى من له شهرة لينين كلاماً لم يقله أبداً وتغفل أن الرجل توفي قبل إنشاء دولة إسرائيل بخمسة وعشرين عاماً فلم يتسن له ، إذاً ، أن يشهد قيامها أو أن يكوِّن رأياً فيها . وتصورنا للوهلة الأولى أن معدّي الملصق لا يعرفون أن لينين رحل عن دنيانا منذ زمن طويل . وتوجهنا إلى مكتب الجبهة الديمقراطية عازمين على تصحيح معلوماتهم . ولدهشتنا ، لم يؤخذ المسؤول الذي استقبلنا هناك بهذا التزوير الفاضح أو

اكتشافنا له ، بل قال ببساطة مغيظة : «نحن في الجبهة الديمقراطية واثقون من أن لينين لو عاش حتى قيام دولة إسرائيل لقال عنها هذا الكلام الذي نسبناه إليه» .

أما في الأردن ، فقد غطى شعار «كل السلطة للمقاومة» جدران أي منطقة مأهولة وصل إليها أعضاء الجبهة الديمقراطية ، وذلك على غرار «كل السلطة للسوفيات» البلشفي الشهير . واشتمل الاحتفال بعيد ميلاد لينين في الأردن على وقائع أخرى استفزت أعتى الصابرين . وفي مدينة السلط بالذات ، المدينة التي ولد فيها نايف حواتمة إن لم تخنّي الذاكرة ، استخدم المحتفلون بعيد لينين مذياع المسجد وأطلقوا منه شعاراتهم اليسارية المتطرفة ، ودعوا الناس إلى تمجيد المحتفى به وأذاعوا مقتبسات من أقواله ، مزوّرة وغير مزوّرة .

ولك أن تعلم أن دعوة الداعين إلى إسقاط النظام والاستيلاء على السلطة اقترنت بمفارقة موجعة كشفها السلوك الفعلي لناس الفصائل . فقد أظهر السلوك ذاته عجز الفصائل عن إقامة النظام الشعبي الديمقراطي المستجيب لمصالح الجمهور الذي تبشر بإقامته ، بل أظهر عجزها عن إقامة أي نظام . وما تزال ذاكرتي تختزن وقائع يصعب عليّ أن أسردها لك ، ليس لأنها كثيرة بل لأني أعفّ عن مجرد ذكرها . لقد رويت لك بعض الأمثلة مما أجزت لنفسي أن أرويه . ولا بأس في أن تعرف مثلاً آخر لتتّضح لك الصورة ، على أن لا تطمع في المزيد .

ألف الخطاب الفصائلي أن يصف الاستيلاء على أي شيء بأنه تحرير له ، حتى لو تعلق الأمر بالاستيلاء على ممتلكات شخصية . سأستعير هذا التعبير وأحدثك عن يوم من أيام التحرير الموجعة . ففي هذا اليوم ، حرر مسلحو الفصائل الذين انتشروا في شوارع عمان كل سيارة وقع نظرهم عليها ،

وأُنشئت ورشات بدّلت معالم السيارات ، ووجد عدد كبير من السيارات المحررة طريقه إلى خارج الأردن .

يومها ، بدأت العملية مع الصباح : دوريات متفرقة من المسلحين راحت تنتقي سيارات بعينها فتوقفها وتنزل ركابها منها بتهديد السلاح و . . . تحررها . ومع الضحى واشتداد حرارة الجو ، تطور الأمر ، فصار التحرير يتم دون انتقاء ، وزادت وتيرته . ومع حلول الظهيرة القائظة وتدني عدد السيارات المنطلقة في الشوارع ، وقع تطور آخر ، فصار المسلحون يبحثون عن السيارات المتوقفة حتى في مرائب الدور .

كنت في عمان شاهداً تابع الوقائع في غير موقع . وتجولت مع مصطفى الحسيني وطلال سلمان في المدينة التي تضافر عليها الحرّ والرعب فكتما أنفاسها . ولما تعذر على أي منّا التعامل مع ما يجري بروح صحافية مهنية ، فقد انهمكنا مع المنهمكين في الاعتراض عليه ومحاولة وقفه . كان طلال كدأبه حين يتصرف بدافع مشاعره الشخصية وليس المهنية يدقق في النوازع الأخلاقية ، فيما رحت أنا أركز كعادتي على الجانب السياسي وأنسب فساد السلوك إلى السياسات الخاطئة التي توجهه . ووازن مصطفى كعادته هو الآخر بين النوازع المتعددة . وشكلنا نحن الثلاثة ما يشبه لجنة لتقصي الحقائق ولبنا هنا وهناك في أرجاء المدينة ومكاتب القادة بحثاً عنها .

مشاغل عرفات الكثيرة وتفلّته من الإدلاء بأي شيء قاطع الدلالة لم يسمحا بإجراء حديث مستقصٍ معه . وقد اكتفى عرفات بأن أوحى إلينا في كلام متعجل أن الأمر فلت من رقابة القيادة وقال إنه يواصل الجهد لاستعادة السيطرة . وعندما واجهنا عرفات بما عرفناه وقلنا له إن «فتح» هي المجلّية في العملية وقد ظفرت بالحصة الأكبر من غنائمها ، ردّ الرجل وهو يتعجل الخلاص منا : «الذي حكى لكم كاذب» . وعندما ألحفنا مؤكدين على أننا

اعتمدنا على ما شاهدناه بأنفسنا أو سمعناه من مصادر موثوقة ، ردّ عرفات مستشاراً : «كذبوا عليكم ، فراغ عين وحسد !» .

بحثنا عن نايف حواتمه فبدا لنا أن الرجل يتهرب منا . وما أن عرفنا أن رجل اليسار الجديد موجود في مكتب الصاعقة في اللويبدة حتى اقتحمنا المكتب دون إخطار مسبق وباشرنا الهجوم دون مقدمات . وكان أول ما رد به نايف على هجومنا أنه نفى مشاركة أعضاء جبهته في العملية . وقد وصف نايف ما يجري بأنه نهب وسفالة ، وقال إن الاعتداء على ممتلكات الناس الشخصية منافٍ للمناقب الثورية التي رُبّي أعضاء الجبهة عليها . وأعلن نايف أن قيادة الجبهةً وضعت على عاتقها مهمة وقف النهب وإعادة السيارات المنهوبة إلى أصحابها . وقبل أن يجيء دوري لمواجهة محدثنا بما أعرفه ، اقتحم ياسر عمرو المجلس . كان أبو ثائر هذا ما يزال وقتها بعثياً مسموع الكلمة في حزبه فضلاً عن أنه من وجهاء آل عمرو . ويبدو أن الرجل الذي بحث هو الآخر طويلاً حتى وقع على نايف قد سمع وهو مقبل على مجلسنا ما قاله الأمين العام للجبهة الديمقراطية عن المناقب الثورية وأخلاق الثوار ، فقد بادأه دون تحية ، بنبرة صوته الحادة التي جعلها الانفعال أحدّ : «أيوه يا أبو خالد ، إحك زي ما بودك عن الثورة والمناقبية الثورية !» ، ثم وجه الخطاب إليّ : «انشر له ما يريد ، فالكل يكذب !» . وبعد هذه المداهمة ، أفصح ياسر عمرو عن قصده ، فاتضح أن مسلحين من الجبهة الديمقراطية حرروا بين ما حرروه سيارة يملكها رجل من آل عمرو . وقد عرف أبو ثائر أسماء الذين استولوا على السيارة والمكان الذي نقلوها إليه . وحاصر وجيه آل عمرو المستاء وجيه القوم اليساري بما يعرف : «جماعتك أعطت السيارة هناك لصاحب كاراج سداداً لدين عليكم» . وقبل أن ينطق حواتمه بأي رد ، رماه أبو ثائر بالتهمة الأوجع : «لا تقل لي إنك مش عارف ، شبابك أخذوا السيارة للرجل بأمر منك !» . ولئن

كان في مقدروي أن أشهد بأن حواتمه لا يسهل إحراجه ، كما لا يسهل حمله على الصمت فإني أشهد أن هذا الموقف أحرجه وجعله يصمت .

يومها ، زرت مكتب الأنصار ، الفصيل المسلح الذي أنشأه الشيوعيون وجعلوا له هذا الاسم الشهير بعد أن اشتدت الضغوط عليهم ودفعتهم إلى مجاراة حملة البنادق . فارقت صديقيّ الصحافيين وجئت إلى أصدقائي الشيوعيين وحدي . واستقبلني في المكتب قائد الأنصار عبد العزيز العطّي وكان صديقي أبو الوليد هذا يعرف أني أيدت الرأي الآخر حين اختلف الشيوعيون بشأن مجاراة حملة البنادق ؛ لقد أيدت رأي فهمي السلفيتي الذي رأى في التوسع في التسلح خارج الأرض المحتلة انصرافاً عن مقاومة الاحتلال في الميدان الرئيس ومضيعة للوقت والجهد ومجلبة للمتاعب التي لا لزوم لها . وكان العطّي واحداً من الذين يأخذون عليّ مبالغتي في التخوف من السلبيات ، فيما آخذ أنا عليه إفراطه في التعويل على الإيجابيّات . ولكي لا يتيح لي أن أهاجمه في يوم تجلى فيه تأثير السلبيات بتمامه ، بادأني أبو الوليد بالقول إن قيادة الأنصار كانت يقظة وقد تشددت في مراقبة سلوك الأعضاء ومنعتهم من المشاركة في العملية القبيحة الجارية . وفي معرض تأكيده على تميز الأنصار ، روى أبو الوليد أن جماعة منهم تورطت بالاستيلاء على سيارة وجاءت بها إليه فأمر هو بإعادة السيارة إلى صاحبها دون توان وقرّع الذين نهبوها .

كان صديقي ينشد الطهرية ويحرص على أن أعلم أن أيدي الشيوعيين بقيت طاهرة . لكن هذا لم يكن هو ما يشغل بالي ، وقد أحنقني تركيز الرجل عليه واعتقاده بأنه ظفر بالبراءة ، فجبهته بحنقي : «هذه المرة جاءوا بالسيارة إليك ظانين أنك تجيز ما أجازه الآخرون ، فما الذي يمنع أن يفعلوها في مرة قادمة دون أن تعلم ويفلت الأمر من يدك كما أفلتت الأمور من يد عرفات

نفسه» . ولا أدري ما الذي جعلني قاسياً على صديقي ، الحنق الطارئ أم القناعة الراسخة : «لا تظل الأيدي نظيفة حين يبيح الإنسان لنفسه أن يخوض في مستنقع» .

صديق آخر تعمدت أن أزوره في ذلك اليوم هو العميد عبد الرزاق اليحيى ، كان صديقي القديم الذي نحاه انقلاب داخلي عن قيادة جيش التحرير الفلسطيني قد صار وقتها قائداً لما سمي قيادة الكفاح المسلح الفلسطيني . وكانت هذه مؤسسة يفترض أن تتولّى المهام التي تضطلع بها الشرطة العسكرية في الجيوش فتراقب سلوك الفدائيين وتحلّ الضبط والربط . أما عملياً فكانت تلك تسمية لمؤسسة يرأسها العميد عبد الرزاق دون أن يكون لها أو له حول يذكر أو طول . وقد جئت إلى عبد الرزاق أول المساء بعد نهاري الطويل المضني لأتخفف من أوجاع روحي . وكان هو قد عاد لتوّه من اجتماع طارئ انعقد برئاسة عرفات مع قادة الفصائل كلهم . وبالنبرة التقريرية التي تغلب على حديثه ، قال عبد الرزاق لي إن المجتمعين اتخذوا قراراً يقضي بإعادة السيارات المنهوبة إلى أصحابها ، وعندما ذكَّرهم هو بأن معظم السيارات غادر البلد أو تبدلت معالمه أجاب عرفات بأن هذه مسألة تمكن معالجتها فيما بعد والمهم الآن أن يعرف الناس أن قيادة الثورة لا تجيز ما حصل . وروى لي عبد الرزاق الذي لا يفوته أبداً الانتباه إلى ما هو طريف في أي شأن أن عرفات أمر بأن تتجول سيارة فيها مذياع وتدعو أصحاب السيارات إلى التوجه إلى قيادة الكفاح المسلح للتبليغ عن السرقات . ثم تبسم قائد الكفاح المسلح ، محدثي ، وأضاف : «أصحابك الذين تعرفهم نفذوا الأمر بالطريقة إياها التي ينفذون بها الأوامر حين لا تعجبهم ، ركَّبوا المذياع على سيارة هي ذاتها مسروقة» .

في موازاة الهوس بالسلاح وإطلاق الشعارات من فوهات البنادق ، شاعت

الاستهانة بالعمل التنظيمي والجهد السياسي . وأنا أستحضر كلما تذكرت مخاطر هذه الإستهانة حكاية رواها لي عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوداني وأول شيوعي عربي ينتخب عضواً في برلمان ، حسن الطاهر زروق ، وهي حكاية لم تغب عن ذاكرتي أبداً . فقد نظمت في الخرطوم ندوة فكرية دُعي إليها مفكرون وقادة سياسيون من بلدان عربية عدة . وقد حرص منظمو الندوة على أن تمثل المقاومة الفلسطينية فيها بوفد كبير ، فحضرها وفد تصدره البعثي السابق عضو لجنة «فتح» المركزية فاروق القدومي . وكان موضوع الندوة الوعاء التنظيمي للثورة العربية . وأُعطيَ للقائد الفتحاوي حق إلقاء كلمة في جلسة الافتتاح مثله مثل كبار الشخصيات والمفكرين الذين تكلموا فيها . فما الذي قاله رجل الكفاح المسلح هذا أمام نخبة رجال الفكر والسياسة العرب في افتتاح ندوة فكرية . قد لا تصدق ما ستقرؤه ، لكني أُصدّق حسن الطاهر زروق فقد عرفته رجلاً لا يكذب . وقد روى لي حسن أن ممثل «فتح» هذا توجه إلى المنبر بحركة صاخبة وهو يتزيّا بزي المقاتلين ويلفّ رأسه بكوفية حمراء وأمسك الميكروفون بيده إمساكة مَن يطبق على مقبض خنجر ، ووجه إلى الحاضرين نظرة أراد لها أن تتقد بشرر الكفاح ، ثم افتتح كلمته بهذه العبارة : «إخرس يا قلم ولعلع يا رصاص !» . ويبدو أن حسن ، هذا الذي لا يسكت على ضيم ، كان أشدّ من صدمتهم العبارة حنقاً ، فقذف هذا السؤال في وجه الخطيب : «لماذا تجيء ، إذاً ، إلى ندوة لا يستخدم فيها غير الكلام ؟!» . إلا أن خطيب الكفاح المسلح كان ممعناً في صخبه فلم يتوقف للإجابة على السؤال .

والواقع أن عدداً من سَقَطِ الأحزاب العقائدية الذين انفضّوا عن أحزابهم أو أقصتهم هي عن صفوفها ، لسبب أو غيره ، قد التف حول هذا النوع من قادة الفصائل المسلحة وغذى لديهم الاستهانة بالحسابات الواقعية والتخطيط

والعمل المنظم ، وحثّهم على الإمعان في التطرف والمغامرة وتقديس السلاح ، وزيّن لهم الأعمال الشاذة التي تجري باسم الكفاح المسلح . وإلى هذا ، أثّرت على العقول المسكونة بهوس التفلت من قيود الحسابات والتقديرات المتأنية فكرة ساذجة بمقدار ما هي مؤذية : كل من لا يشغله الهمّ الذي يشغلنا أو الظلم الواقع علينا هو مقصّر ومستحق للّوم على تقصيره ، كل من ليس معنا هو ضدنا . وفي هدي هذه الفكرة ، سوغت أعمال شاذّة بما فيها أعمال تندرج في باب الجرائم . وقد جرى التوسع في تطبيق الفكرة الخاطئة حتى شمل العالم بأسره . وصور مروجو الفكرة أن هذا العالم يتجاهل وجود الشعب الفلسطيني ويتنكر لحقوقه ، واستخلصوا أن من حق الفلسطيني ، إذاً ، أن يأتي أي عمل انتقامي أو يفعل أي عمل يرغم العالم على الانتباه إلى وجوده . وبمضي الوقت ، تأسست على هذه الفكرة الخاطئة مصالح لقادة وفصائل . واستمرأ هؤلاء الإمعان في الأعمال الشاذة ، تجارة هدفها الكسب ، أو الشهرة ، أو تسجيل النقاط في المنافسة مع الخصوم . وهذا كله ، بتداخل الشخصي والعام في الدوافع إليه ، هو الذي أفرز إلى جانب السلبيات المحلية ما أسماه أصحابه العمليات الخارجية ومنها ، بل من أقبحها ، خطف الطائرات واسترهان الأبرياء .

وفي مراقبتها لما يجري ، أظهرت السلطات الأردنية حزماً كاملاً في التصدي لدعوة إسقاط النظام ، وتصرفت إزاء التجاوزات والسلوك السلبي في نحو بدا معه أنها مغلوبة على أمرها . فعلت السلطات ، إذاً ، ما أملاه عليها إدراكها أن السلوك المنفلت من الضوابط يستفزّ الجمهور فيوهن تأييده للعمل الفدائي ويضعف الاستعداد للدفاع عنه ، واستثمرت أي تجاوز أو سلوك خاطئ في الأردن أو خارجه لتغذية السخط ضد الوجود الفلسطيني المسلح وإظهار مخاطر الدعوة إلى إسقاط النظام . ولم يحتج ناس النظام إلى ذكاء استثنائي

وهم يراكمون النقاط لصالحه . وقول الجانب الفلسطيني إن السلطات دست عملاءها بين صفوف المقاومة وكلفتهم تشجيع السلبيات قد يكون صحيحاً كلّه أو بعضه . إلا أن صحة هذا القول لا تلغي حقيقة أن الأرض كانت ممهدة للمدسوسين . فلو لم يستمرئ ناس المقاومة الشطط في الاتكاء على القوة المتحققة لهم في الأردن والتفلت من معايير السلوك الثوري الصائب ويشتهر ذلك عنهم ، لما أمكن لأي سلطة أن تسوّئ سمعتهم .

وقد بلغ الأمر حداً افتقد فيه الناس فرصة الحياة المستقرة والنوم الهادئ . وانتهى معظم الناس ، بمن فيهم خصوم السلطة الحكومية ، إلى الضيق باستهانة المقاومة بسلطة القانون واستخفاف بعض ناسها بقيم السلوك الاجتماعي .

والحاصل أن أسباباً كثيرة تضافرت فجعلت الاضطراب عاماً وقسمت العرب عربين أو عرباناً عدّة وشدّدت التمايز بين المعسكرات المتنابذة ولم تبح لصوت العقل أن يفعل فعله .

إني أتذكر حواراتي مع قادة الفصائل في تلك الفترة وكيف أقرّ جميعهم بوجود التجاوزات ومخاطرها ثم بدوا عاجزين عن وقف الانحدار . وفي تفسير العجز تكمن حقيقة ذات وجهين . وقد تمثل الوجه الأول في أن عدداً من القادة أباح بعض التجاوزات ليظفر بولاء التابعين له ، وعندما اتسع الرتق ، تعذّر وقف الأتباع عند حدّ ، لأن الفساد أنشأ مؤسسته وصار على أي قائد أن يأخذ قوتها بعين الاعتبار . أما الوجه الثاني فتمثل في أن بعض القادة كان أسير وهمه بإمكانية إسقاط النظام فتصور أن تعميم الفوضى يظهر النظام بمظهر العاجز عن توفير الاستقرار ويسهل إسقاطه .

النزيهون كانوا كثيرين ، ولو أحصيتَ النسب العددية لاتضح أن نسبتهم هي الأعلى . غير أن جهد هؤلاء بقي قليل التأثير في إصلاح ما فسد . ولئن

أيّدت الكثرة الدعوة إلى وقف السلبيات فإن جل ناسها لم ينتبهوا إلى دور السياسات الخاطئة في تهيئة الجو لاستشراء الفساد وتضييق فرص مقاومته . وبغياب الانتباه إلى الصلة بين السياسة ونتائجها ، حكمت الأغلبية على جهدها بأن يظل قليل الفعالية . وإلى هذا ، وقع كثيرون في أسر التهيب من إلحاق أي ضعف بالصف الوطني وتصوروا أن الانتقاد سيصير سلاحاً يستخدمه الأعداء والخصوم فاقتصدوا في الجهر به وضاعت فرصة تنظيم معارضة مثابرة ومقتدرة ضد السلبيات . ومن النزيهين من عزّوا أنفسهم بأنهم إزاء ظاهرة عابرة أفرزها الانفلات المفاجئ من الكبت وأن الأمور لن تلبث أن تتوازن ولن يلبث أن تمحو حسنات العمل الفدائي السيئات . وهناك من عزّوا أنفسهم بما هو أيسر من هذا فركزوا انتباههم على الإيجابيات وهوّنوا خطر السلبيات . أما أقلية النزيهين الذين لم يعللوا أنفسهم بالوهم ، الأقلية التي حملت السلم بالعرض كما بالطول ، فقد ضاع صوتها وسط اختلاط الأصوات والنوازع والأهداف ، ولم تفلح في وقف التردي .

والذين تفلتوا من القيم الإيجابية أخذتهم العزّة بالإثم فأطلقوا نعوتاً مهيبة على نشاطاتهم الشاذة وتوسموا أن يؤيدهم الرأي العام . لقد رأيت ، كيف وُصف النهب بأنه تحرير . ولعلك عرفت أن أعمال ترويع الأبرياء وصفت بأنها هجمات ضد الرجعية والصهيونية والإمبريالية . وقد وُصف خرق القانون بأنه تمرد على سطوة البرجوازية . كما وصفت أعمال إقلاق راحة الناس وإلحاق الاضطراب بسعيهم إلى لقمة العيش وحرمانهم حتى من النوم بأنها استنفار للحس الثوري وتعبئة .

أضف إلى ما تقدم كلِّه شيئاً كان تأثيره في مفاقمة الحالة شديداً . فمعظم المتنفذين من حملة البنادق ، الصالح منه أو الطالح ، المصيب أو المخطئ ، كان قليل الخبرة في العمل العام قليل المعرفة بأحوال العالم والقيم

السائدة فيه والتطورات الجارية في ساحاته المتعددة . ومعظم القادة افتقر إلى الخلفيات الثقافية التي يستلزمها التصدي لعبء قضية كبيرة ومعقدة ، أي أنه افتقر إلى ما يحصِّن ضد الزلل . وقد غلبت في الوعي السائد أفكار عتيقة أو ساذجة أو مقتبسات مجتزأة من الجديد ومعرفة ضئيلة بحاجات الثورة . ومع الفقر المريع في هذا المجال ، وجد من صوّر للقادة أنهم هم طليعة الأمة العربية والطليعة الأهم بين الطلائع الثورية في العالم . واعتقد كثيرون أنهم فعلاً كذلك وتعزّز إعجابهم بأنفسهم وقلّت فرص اكتساب الخبرات وتصحيح المسارات .

وها أنا ذا أتذكر طرفة وزعتها متوخيّاً بها تصوير حالة انتفاخ الذات التي كنت أشهدها ماثلة أمامي . لا أتذكر متى أنطقني ضيقي بالحالة بهذه الطرفة ، ولا بد من أن أكون قد ألفتها بعد أن انتخب خالد الفاهوم أول مرة رئيساً للمجلس الوطني الفلسطيني . وكان خالد هذا قبل اشتهار أمره معلم مدرسة في سورية وكانت له ما لأمثاله من مساهمات في العمل العام . وحين كنت ما أزال عضواً في حزب البعث قيل لنا في التنظيم الحزبي إن هذا المعلم كان مخبراً سرياً لدى أجهزة الأمن السياسي في عهد وحدة سورية ومصر ثم ورثته الأجهزة البعثية بعد استلام البعثيين للسلطة . والواقع أن البعثيين استخدموا وزن سورية في الساحة الفلسطينية كي يظفر خالد الفاهوم بالمنصب الجليل وذلك بصرف النظر عن صواب ما قيل لنا عن صلته بالأجهزة أو عدم صوابه . والطرفة التي أرويها لك تقول إن خالد الفاهوم هذا ، أو أبو العبد كما هي كنية الرجل ، هو أهم رجل في العالم . أما كيف يصير المفروض بنفوذ الدولة السورية رئيساً للمجلس الوطني الفلسطيني أهم رجل في العالم كله فبيان ذلك ، في الطرفة ، بسيط . ففي معتقد المسلمين أنهم خير أمة أخرجت للناس ؛ وفي معتقد العرب أنهم طليعة المسلمين ؛ وفي معتقد الفلسطينيين

أنهم طليعة العرب ؛ ومنظمة التحرير الفلسطينية هي طليعة الفلسطينيين ؛ والمجلس الوطني الفلسطيني هو أهم هيئات المنظمة ؛ فلماذا لا يكون رئيس المجلس هو أهم رجل في العالم .

هذه الطرفة طورها شفيق الحوت وجعلها أطرف وأوقع دلالة . كانت لشفيق زاوية يومية في جريدة «المحرر» البيروتية يوقعها باسم «ابن البلد» ، وقد نشر شفيق الطرفة في زاويته بعنوان «ثاني أهم رجل في العالم» . وبهذا ، أحلّ شفيق ياسر عرفات في المحل الأول ، محتفظاً بالدلالة الأصلية للطرفة ، وموحياً بأن تخطي عرفات غير جائز حتى في مجال السخرية . ومنذ ذلك الوقت ، دأبتُ على طرح هذا السؤال كلما اشتد ضيقي بتباهي الفلسطينيين بدورهم : إذا كان ناس المقاومة الفلسطينية هم طليعة العالم فمن هو الأهم فيهم : أبو العبد أم أبو عمار . وأبو العبد كما صرت تعرف هي كنية خالد الفاهوم ، وهي ، أيضاً ، التي يمكن أن يتكنى بها واحد من كل أربعة فلسطينيين أو خمسة .

٧

رجل الشيء ونقيضه

قبل أن أصل بك إلى أحداث أيلول / سبتمبر ١٩٧٠ الفاصلة . يحسن ان أحدثك حديث العمل الفلسطيني المسلح داخل إسرائيل والأرض التي احتلتها في العام ١٩٦٧ . إنك هنا ، أيضاً ، إزاء حديث ذي شجون . وقد ينبغي أن تعرف منذ البداية أن هذا العمل حقق منجزات أوجعت الإسرائيليين وحرمت المحتلّين من الاستقرار .

صاغت الفصائل الفلسطينية تصوراتها للعمل المسلح في هدى دوافعها وظروفها الخاصة بطبيعة الحال ، وتأثرت إلى هذا تأثراً قوياً بأجواء عالمية مجدت الكفاح المسلح ضد الأعداء الاستعماريين أو الطبقيين واشتطت في التعويل عليه . واندفعت الفصائل في الشطط بحكم طبائعها وإن لم تسعفها الظروف في المطابقة بين ما تتصوره وبين ما تطمح إليه . ولعلك تعرف أن أفكار ماوتسي تونغ اليسارية كانت آنذاك في إبان رواجها . والقول الساذج الذي روجه ماو : « الأمبريالية نمر من ورق» صار هادياً لمستسهلي المغامرة في كل مكان ، خصوصاً أنه أخذ بمعزل عن دلالته في مجرى الثورة الصينية العام وفكرها . وفي ذلك الوقت ، سطعت أيضاً شهرة المغامرة التي أقدم عليها ارنستو تشي غيفارا في بوليڤيا وقد حولها الثوريون اليساريون إلى أمثولة وتنادوا

للاقتداء بها . لم يستوقف هؤلاء أن مغامرة غيفارا انتهت نهاية مأساوية دون أن تحقق على الأرض شيئاً يذكر . إن ما استوقف اليساريين كان مجد الاستشهاد وحده ، وما فتنهم كان الإقدام على المغامرة . وفيديل كاسترو زعيم الثورة الكوبية التي اكتسب غيفارا نفسه خبرته في صفوفها كان ما يزال أسير الزهو بنجاح ثورته المسلحة في إسقاط ديكتاتورية باتيستا فكان مثابراً على الحض على استخدام السلاح ضد الظلاّم في أي مكان . أما نجاحات الثورة الفيتنامية المتعاقبة فقد أحدثت تأثيرها دون أن يهتم كثيرون بما كان وراءها من حسابات صائبة وجهد تنظيمي وسياسة صحيحة . ركز ناس الثورة الفلسطينية انتباههم على عمل الثورة الفينامية المسلح وتداولوا ما هو صحيح وما هو مهوّل عن ابتكاراته واجتزؤوا من عبره ما يلائم نزعتهم إلى تأليه السلاح ، وأغفلوا الانتباه إلى ما عداه ، وأغفلوا خصوصاً أن الثورة الڤيتنامية حظيت بمساندة ثلاث قوى جبّارة : الاتحاد السوڤياتي ، والصين الشعبية ، والرأي العام العالمي المعادي للاستعمار .

هنا ، من المفيد أن تتذكر الاعتقاد الذي تداولته الأجيال الفلسطينية المتعاقبة منذ نجاح الحركة الصهيونية في إنشاء إسرائيل . فقد قرّ في الأذهان أن العجز عن إحباط المشروع الصهيوني نجم من افتقار أهل فلسطين إلى السلاح اللازم وإفتقارهم إلى حرية استخدام السلاح القليل الذي كان بحوزتهم . وعندما لاحت فرصة الظفر بسلاح ، ثم عندما توفرت حرية استخدامه ، كما صار عليه الحال في الأردن بعد حرب ١٩٦٧ ، كاد حمل السلاح أن يتحول إلى هدف في حدّ ذاته وكاد هوس استخدامه يطغى على ما عداه . ولم يكن غريباً أن تضع الفصائل مادة في الميثاق الوطني الفلسطيني تنص على أن الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد إلى تحرير فلسطين . كما لم يكن غريباً أن يوصف هذا الكفاح في المادة ذاتها بأنه استراتيجية وليس

تكتيكاً ، أي بالعبارة التي تكاد تعادل القول بأنه هدف وليس وسيلة . وفي ظل الاعتقاد بوحدانية الطريق ، امتهنت وسائل الكفاح الأخرى ، وامتهنت الأساليب التي تجعل استخدام السلاح ناجعاً . ومع الهوس بالسلاح والاستخفاف بالسياسة والفكر والاستهانة بالتنظيم واستبعاد الحسابات كأنها نجس لا يجوز للثوري أن يقترب منه ، ضؤلت فرص الإصلاح بمقدار ما ضؤلت فرص مراكمة الخبرات وتطويرها حتى في مجال استخدام السلاح . أما ما هو أخطر من كل ما تقدم فتمثل في اقتصار التمجيد على شكل واحد من أشكال العمل المسلح والاستهانة بما عداه . مجّدت المقاومة الفلسطينية العمل المسلح الذي تقوم به هي واستخفّت بدور الجيوش العربية . وأدى هذا إلى خطر مضاعف : استفزاز العسكريين وتبهيت أمل الجمهور في أن تقوم الجيوش ذات يوم بواجبها . ولم يكن غريباً ، إذاً ، أن يبهت تعاطف العسكريين الأردنيين ، ثم السوريين ، ثم اللبنانيين مع المقاومة الفلسطينية أولاً بأول وأن ينجح أي خصم للمقاومة في تأليب نسبة كبيرة من العسكريين ضدها .

أدركت الفصائل ما هو صحيح ، وهو أن شرعية وجودها في المحيط العربي تتعزز بمقدار ما تنجح في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي وتوقع أذىً بالمحتلين . إلا أن السلبيات التي أتحدث عنها تضافرت فجعلت إنجازات المقاومة حتى في هذا المجال ، بل خصوصاً في هذا المجال ، أقل من طموحها ومن الإمكانيات المرصودة ومن آمال الجمهور . ولكي لا يظهر أن حجم المنجز هو أقل من المتوقع ، لجأت الفصائل جميعها إلى المبالغة في تصوير ما تقوم به ؛ احتاج الجميع إلى اختراع حكايات فلم يقصّر أحد في اختراعها .

ومن الضروري أن تعرف أن الفصائل التي كان لها وجود في الضفة أو قطاع غزة قبل الاحتلال قامت فور وقوعه بنشاط جاد ، مسلح وغير مسلح ، ورفعت راية المقاومة الأولى . غير أن معظم التحركات الأولى افتقرت إلى

الخبرة أو اتسمت بالتعجل في إثبات الوجود . وقد سهّل هذا وذاك على سلطات الاحتلال مواجهة المقاومة وإيقاع خسائر ملموسة في صفوف المقاومين ووضع اليد على تنظيماتهم وتفكيك العديد منها . وفي سياق العمل لتعويض الخسائر وإدامة المقاومة ، حاولت قيادات الخارج أن تقيم صلات مأمونة مع مقاومي الأرض المحتلة ، وجرت محاولات لتسريب عناصر من الخارج إلى الداخل ونقل أسلحة ووسائل دعم . غير أن هذه المحاولات التي لم ينجح منها إلا القليل اتسمت هي الأخرى بقلة الخبرة والتعجل وتأثرت بالتنافس الضارّ بين الفصائل وافتقرت إلى المثابرة الصبورة ، فبقيت إنجازاتها أقلّ من المطلوب لإشعال ثورة مسلحة داخل الأرض المحتلة .

وفي واقعة مبكرة ، لعلها الأولى في هذا المجال ، تجلت رغبة «فتح» في تنظيم الاتصال بالأرض المحتلة . جرت هذه الواقعة بعد وقوع الاحتلال بوقت قصير . كانت الفوضى غالبة ومعابر نهر الأردن ما تزال تشهد حركة شديدة : النازحين الفارّين من مخاطر الاحتلال وكذلك الراجعين إلى الأرض المحتلة لتفقد شتى الشؤون . وكانت الرقابة الإسرائيلية على المعابر ما تزال غير محكمة . وقتها ، تدبر ياسر عرفات أمر الحصول على بطاقة عضوية في منظمة تُعنى بشؤون النازحين وتحوط كي لا يكشف أمره وعبر جسر ألنبي ، وأسعفه الحظ فلم يتعرف الإسرائيليون على شخصيته . وهكذا دخل عرفات الضفة وتجول فيها وعاين أحوالها بأم عينيه واتصل بالذين أمكن أن يتصل بهم . لم يمكث عرفات طويلاً في الضفة ؛ كان من المتعذر أن يفلت الرجل من ترصد أجهزة الأمن الإسرائيلية لو أطال المكوث مثلما كان من المتعذر أن يغالب طبعه ويغيب عن مركز القيادة الذي تشكل في الخارج . وأوثق الروايات يظهر أن جولة الرجل في الضفة يمكن أن تحسب بالأيام . وقد تسلل بعد عرفات فتحاويون آخرون .

وفي واقعة أخرى مبكرة ، أرسلت حركة القوميين العرب التي ستنبثق منها الجبهة الشعبية ثلاثة من أعضائها من قادة الاتحاد العام لطلاب فلسطين وكلفتهم العمل لتنظيم المقاومة الشعبية ضد الاحتلال . وقد نجح الثلاثة الذين هم من سكان الضفة أصلاً في التسلل إليها واحداً إثر الآخر ، إلا أنهم ثلاثتهم وقعوا في قبضة الأمن الإسرائيلي بعد وصولهم بوقت قصير ولم يتسن لأي منهم أن يحقق ما كلف به ، ولم يمكن حتى عقد اجتماع لهم لأن اعتقالهم تم في المكان الذي جاؤوا ليعقدوا أوّل اجتماعاتهم فيه . كان هؤلاء هم تيسير قبعة ، وأسعد عبد الرحمن ، وأحمد خليفة ، وكانوا بين أوائل المتسللين إلى الأرض المحتلة الذين حوكموا أمام محكمة عسكرية إسرائيلية وحكم عليهم بالسجن .

في قطاع غزة المنفصل عن الضفة والذي تفصله عن مصر صحراء سيناء المحتلة هي الأخرى ، كان تنظيم الاتصال بين الخارج والداخل أصعب . إلا أن الوضع على هذه الناحية تميز من وجوه عدّة عن وضع الضفة . فقد بقي هنا مقاتلون مدربون وبعض سلاح مما توفر أيام الإدارة المصرية للقطاع خصوصاً مما كان في حوزة جيش التحرير الفلسطيني . وكان بإمكان تنظيمات الشيوعيين والقوميين العرب و«فتح» أن تستفيد مما لم يقع في قبضة المحتلين . أضف إلى هذا أن الخبرة المتبقية من تجربة مقاومة القطاع للاحتلال الإسرائيلي قصير الأمد في العام ١٩٥٦ بدت نافعة . ففي ذلك العام ، اتحد المقاومون في جبهة وطنية واحدة وابتكروا وسائل للاتصال مع مصر التي كانت سيناؤها آنذاك أيضاً محتلة وحصلوا على عونها . والواقع أن العمليات المسلحة ضد الاحتلال الإسرائيلي للقطاع في العام ١٩٦٧ ، نشطت فور وقوعه . غير أن الإسرائيليين لم يكونوا هم الآخرون بغير خبرة . فلم يُقدّر لنوى المقاومة الأولى أن تنتظم في مجرى واحد وتستمرّ ، بل نجح الإسرائيليون في قمعها الواحدة تلو الأخرى ،

وفتكت سطوة المحتلين بالخلايا المسلحة .

لقد دفعت الفصائل الفلسطينية ثمناً باهظاً لاندفاعاتها الأولى : كشف المحتل الخلايا السرية ، وصفّى عدداً من مناضليها ، واكتظت المعتقلات بالأسرى الذين عوملوا معاملة المجرمين ، وتشتت النشطاء أو أبعدوا عنوة . وفقدت أسر كثيرة معيليها ، وتراكمت الأعباء ، وضاقت فرص التصدي للمحتل بالسلاح . وبهذا ، وقع عبء إعداد العمليات المسلحة على ناس الخارج في المقام الأول ، فيما نبتت في الأرض المحتلة تقاليد العصيان والمقاومة السلبية .

والواقع أن ناس الخارج ، خصوصاً المنهمكين في تنظيم مقاومة الاحتلال غير المهووسين بالأضواء والاستعراض ، بذلوا جهداً كان في عدد من الحالات خارقاً لتنشيط المقاومة المسلحة في الداخل . وتواترت المحاولات لإيصال الأسلحة والمقاتلين المدربين إلى الأرض المحتلة من الخارج ، عبر الجولان السوري المحتل ، أو نهر الأردن ، أو جنوب لبنان ، أو عبر صحراء سيناء الفسيحة ، غير أن عوامل كثيرة فعلت فعلها فجعلت حصاد هذه المحاولات أقل من الجهود المبذولة فيها وأقلّ بكثير من المطلوب أو المأمول . يشار في جانب إلى يقظة أجهزة الاحتلال ووفرة وسائل المراقبة المتوفرة لها وتطورها المضطرد وخبرتها في استقصاء المعلومات ومتابعتها . ويشار في الجانب الآخر إلى نقص الخبرة ، وضآلة الوسائل المتوفرة ، واضطرار الفلسطينيين إلى العمل في بلاد لا سيادة لهم فيها ولا سلطة ، وتأثير روح المزايدة والهوس بالمنجزات التي تبهر الأنظار أكثر من غيرها .

وفي المحصلة ، تعذر على الفلسطينيين إقامة قواعد ثابتة ومأمونة في الداخل لينطلق منها عمل مسلح مثابر . ولم يبق في المتناول في أغلب الأحوال ، إلا العمليات التي يقوم بها متسللون من الخارج ، وهؤلاء كان عليهم

أن يجتازوا المعابر المائية أو الجبلية أو الصحراوية التي ترصدها أجهزة الدول العربية من جهة وأجهزة إسرائيل من الجهة الأخرى . فإن نجح هؤلاء في اجتياز معبر وأفلتوا من الرقابات ؛ الأمر الذي لم يكن متيسراً إلا في حالات قليلة ، فقد كان عليهم أن يسيروا بأثقالهم من التموين والسلاح مسافات طويلة غالباً ما تكون أماكن وعرة غير مطروقة إلى أن يصلوا إلى الهدف المحدد لهم . فإن وصل هؤلاء إلى الهدف فقد يكون محروساً حراسة توجب عليهم الاشتباك قبل أن يلحقوا به أي أذى ، وقد يسعفهم الحظ فينفذوا ما خططوا له . وبعدها ، قد يعود من المتسللين من قُدِّر له النجاة وقد يقع آخرون في قبضة المحتل . وإذا وقع أحد في القبضة فأمامه ما لا بد من أنك صرت تعرفه : التعذيب الذي قد يبلغ حدّ القتل أو إحداث إعاقات دائمة ، والمحاكم العسكرية وقضاتها المشحونون بالبغض ، والقوانين الجائرة ، والأحكام التي تسلم ضحاياها إلى سجون يذكرك وجودها بأظلم العهود في تاريخ البشرية . وهذا المصير قد يتعرض له أي مواطن في الأرض المحتلة يقدم للمقاومين أي مساعدة أو تشتبه سلطات الاحتلال بأنه يقدمها ، فضلاً عن المواطنين الذين يبادرون إلى المقاومة دون صلة بالخارج .

في نشاطات المتسللين كما في نشاطات مقاومي الداخل وفي مساعدات مواطني الأرض المحتلة لأولئك وهؤلاء ، يقع المرء على الحكايات التي ترسم أمجد ما في التجربة الفلسطينية وأشدّه دلالة على تجذر وجود الشعب الفلسطيني في وطنه وتوق لاجئيه إلى العودة . هذه الحكايات نسجها عمل ألوف النساء والرجال والفتيات والفتيان وشجاعتهم وتضحياتهم واستهانتهم بالمخاطر وتعلقهم بالحرية . وقد رفد هذا العمل إرث التضحيات والبطولات في ثقافة الشعب . وهو الذي أقلق المحتلّ ، كما أنه هو الذي صعّب على الخطاب الإسرائيلي تسويق مقولته عن الاحتلال النظيف . وكانت

الحكايات تنتشر بين جموع الفلسطينيين المشتتين ، تتداولها المجالس الخاصة والعامة ، وتتغذى بها أرواح التواقين إلى الخلاص من ذل اللجوء فيتعزز أملهم في العودة إلى الوطن ويتقوى ولاؤهم للحركة الوطنية وفصائلها الفدائية . وقد امتدّ تأثير النشاط الفدائي في كل مكان فيه فلسطينيون في أي بلد في العالم . وبدا أن الشعب المشتت لا يستعيد ألق الروح الذي أطفأه الشتات ، فحسب ، بل يستعيد وحدته أيضاً ، ويعزز حضوره في ساحة الصراع العربي - الإسرائيلي ، ويجتذب الانتباه إلى حقوقه ، ويراكم النقاط على طريق الظفر بها . وهذا هو بالذات ما أثار أعمق الخشية في إسرائيل التي تغتصب هذه الحقوق .

لم يكن غريباً ، إذاً ، أن تصب إسرائيل جانباً من جهدها الرئيس في مواجهة نشاطات الفدائيين ، وما أكثر ما فعلته إسرائيل في هذا المجال ! وكلما تقدم هذا الجهد وتطورت أساليبه ووسائله ، صار التسلل أصعب واشتدت أكلافه ، وصارت فرص الحركة في الداخل أصعب وارتفع عدد الضحايا . كثيرون أغارت عليهم الطائرات الإسرائيلية قبل أن يبدؤوا الحركة . كثيرون داهمهم القصف وهم على الطرق . كثيرون جابهتهم الكمائن قبل أن يعبروا . كثيرون ردتهم الرشاشات عن مواقع العبور . كثيرون ممن عبروا أرغموا على الارتداد . كثيرون ممن أفلحوا في التقدم اكتشف المترصدون بالفدائيين آثارهم قبل أن يبلغوا أهدافهم . كثيرون جوبهوا بمن يكمن لهم عند الهدف . وفي كل حالة ، أصيب فدائيون وسقط شهداء وزادت أعداد الأسرى .

صور الشهداء والملصقات التي تمجد تضحياتهم انتشرت في كل مكان ، في شوارع المخيمات والقرى والمدن ، واكتظت بها جدران المنازل وصارت علامة فارقة . فإن قدمت على حيّ تكثر فيه صور الشهداء فلا بد من أن يكون حياً يقطنه فلسطينيون . وكثرت الجنازات ، جنازات حقيقية تتقدمها أجداث

الذين سقطوا على الدروب قبل بلوغ المعابر ، وأخرى رمزية تكرّم الذين لم يمكن استعادة أجداثهم . وفي كل جنازة ، سار ألوف أو عشرات ألوف وراء نعوش مجللة بالعلم الفلسطيني وهتفوا ممجدين الاستشهاد ومحيين الكفاح . وما أوضح ما كان بالإمكان استخلاصه من وفرة الملصقات والجنازات : ضخامة التضحيات واستعداد الجمهور لاحتمال المزيد ، وقد كان هذا كلّه ملهماً .

ومع تزايد مصاعب التسلل ، لجأت الفصائل إلى أسلوب أيسر وأقل كلفة . لم تتوقف عمليات العبور ، ولم يفتقر بعضها إلى النجاح ، غير أن الأسلوب الجديد حلّ إلى جانب الأسلوب السابق . فقد حصلت الفصائل على المدافع وراجمات الصواريخ ، وكان أخصها الهاون والكاتيوشا . وصار بالإمكان توجيه القذائف إلى الناحية الأخرى دون المخاطرة بالتسلل . وغني عن البيان أن القصف عن بعد أحدث من الضجيج أكثر مما أحدث من الخسائر . ثم إن القذيفة المنطلقة عن بعد نحو مستوطنة أو قرية قد تبلغ الهدف وقد تخطئه ، خصوصاً حين كان يطلقها مدفعيون قليلو الخبرة . وإن بلغت القذيفة هدفها فهي قد تصيب عسكريين كما أنها قد تصيب مدنيين ، خصوصاً حين توجه مطلقيها سياسة لا تنشغل بالتمييز بين الجانبين . أباح الإسرائيليون لأنفسهم ، قبل قيام دولتهم وبعدها ، استهداف المدنيين ، بل إنهم تقصدوا في معظم الحالات استهداف المدنيين بالذات ، وبعض هذه الحالات شهير ، واستهدفوا من المدنيين أكثرهم براءة . وقد خلّف هذا السلوك أسى مزمناً في الروح الفلسطينية ، وصار من الصعب أن يمتنع المقاومون عن إيقاع الأذى بأيّ إسرائيليين .

القصف الفلسطيني ، خصوصاً ما استهدف المناطق المأهولة ، أوقع الرعب داخل إسرائيل . ولئن استطاعت سلطات الاحتلال أن تهون من شأن

العمليات التي يباشرها الفدائيون بالتكتم عليها أو التقليل من نتائجها ، فقد بدت عاجزة عن إخفاء وقائع القصف المجلجل أو آثاره . وفي ردها على القصف ، كثفت إسرائيل غارات طائراتها على المواقع الفلسطينية في الأردن ولبنان حيث لا تواجهها مضادات فعالة ، وقامت بغارات قليلة لكنها محكمة على عدد من المواقع الفلسطينية في سورية .

خطر الطيران الإسرائيلي ألجأ القاصفين إلى أسلوب التفخيخ . صارت الصواريخ تُفخخ مع جهاز توقيت يطلقها بعد ابتعاد مفخخيها عنها : أي بعد أن يصيروا بمنجى من انتقام الطيران . ولما لم يكن بالإمكان إحكام توجيه القذائف المفخخة فما أكثر ما كان يقع منها في أماكن خالية . بالرغم من هذا ، بقي الضجيج المرعب في حد ذاته ، وظل من الممكن أن تقع قذائف في أماكن موجعة . وفي الرد على هذا التطور ، شدّدت إسرائيل غاراتها على قواعد الفدائيين ووسعت انتقامها من المدنيين ، فزادت الغارات على المخيمات والأماكن المأهولة بالمدنيين الفلسطينيين وغيرهم . ومنذ صار المقاتلون أفضل تدريباً على الاحتماء من الغارات الإسرائيلية ، اشتدّ الانتقام الإسرائيلي من المدنيين العزّل خارج الأرض المحتلة وداخلها .

في هذه الحرب المتصلة بين العين غير المسلحة إلا بالرموش وبين المخرز الفتاك ، كان شيء حقيقي يتشكل ، وكانت تنشأ أيضاً أوهام . وبالقدرة الفذّة على الاحتمال ومواصلة العراك الذي لا تتكافأ فيه موازين القوى ، نمت على الجانب الفلسطيني مشاعر الثقة بالنفس والاعتزاز بها . وبهذا كما بغيره مما صرت تعرفه ، توطدت مكانة م . ت . ف . وفصائلها كما نما الاتجاه إلى توطيد استقلالها ، وصارت المنظمة هي الكيان الذي يجمع الفلسطينيين ويعوضهم الافتقار الى وطن مستقل . وفي مقابل هذا ، أدى الاهتمام بالعمل الفدائي إلى تغذية الأوهام بشأن قدراته ، كما أدى تشكّي إسرائيل المستمر من

مخاطره عليها إلى توسيع هذه الأوهام .

ولكي تجد الأوهام ما يسوغها ، وفي كل فترة أدت فيها المصاعب المتراكمة إلى تقليص المنجزات الفعلية للعمل الفلسطيني المسلح ، اشتدت الحاجة إلى المبالغات وانضاف هذا إلى العوامل الأخرى الحافزة على المبالغة ، فاشتط المتحدثون في تهويل الروايات التي يبثونها . والذين رسموا أهدافاً أكبر من القدرات وروجوا شعارات كبيرة ووجدوا أنفسهم بحاجة إلى ما يتباهون به لم يتعففوا حتى عن اختلاق الروايات اختلاقاً . وهنا بالذات أكثر مما في غيره ، تجلّى خطأ السياسة المزايدة وأخطارها .

ولو أن المتحدثين اكتفوا بإبراز ما يتحقق فعلاً لكان فيه ، حسب رأيي ، ما يكفي لإثارة الإعجاب وتنشيط الهمم واستقطاب الاهتمام والتأييد ، وذلك شريطة أن ترسم الأهداف على قدر القدرات .

أما وقد اشتط الجميع في رسم الأهداف حتى مع تواضع إمكانياتهم ، فقد صاروا أسرى ما رسموه ، وصار لا بدّ من اختلاق منجزات حجمها يساوي حجم الشطط في رسم الأهداف . وبمضيّ الوقت ، مع استمرار الأضواء والتمجيد واشتداد التنافس ، صار الشطط عادة حاكمة وانفلت من الضوابط . لقد حدثتك عن معارك الجبهة الخضراء ذات الكيلومترات الثمانين والأخرى الحمراء ذات الكيلومترات المائة وعشرين . وفي المتناول أمثلة أخرى كثيرة من هذا النوع ، بل أكثر شططاً وأشدّ تهويلاً .

صارت تلك حمأة لم ينج منها إلاّ قليلون . وغالباً ما كان هؤلاء مغلوبين على أمرهم إزاء طغيان روح المزايدة ، فكانوا يمضغون امتعاضهم ويتوجعون . ومن حقّي عليك أن تعرف أني كنت من هؤلاء ، وإن لم ألجم لساني أو قلمي عن الجهر بالشكوى والتحذيرات .

وكان بين آل الحوراني في عمان شخص سأسميه : شحادة . كان هذا

شاباً أنهى التعليم الثانوي ولم يتمكن من الدراسة في جامعة إذ لم تمكنه موارد أسرته الفقيرة من الدراسة . وقد بحث شحادة طويلاً عن فرصة عمل ، سنة بل سنوات ، كان شاباً قوي البنية ، طول وعرض ومهابة ، وكان نبيهاً فضلاً عن أنه متعلم ، إلا أن الفرص ظلت ضئيلة فلم يعرف العمل المريح ولم يستقر في عمل واحد ولم يتوفر له دخل يفي ولو بالضرورات . وفي غضون ذلك ، تزوج شحادة كما يتزوج أمثاله ، وجاء الأولاد ، وانضاف واجب إعالة الأسرة المستجدة إلى واجبه في إعالة ذويه الذين يعيش معهم في منزل واحد ، وتكاثفت الأعباء ، واشتد العوز . وقد بقي هذا هو حال شحادة إلى أن انضمّ إلى «فتح» فراح الحال يتبدل . ولم يلبث أن طلق شحادة العوز كما طلقه شبان كثيرون من أمثاله . وانتظمت أحواله ، وكثر الخير في المنزل المستقل الذي صار له وفي منزل ذويه . في هذا الوقت ، تعرفت أنا على شحادة . والذين وصلوني بالشاب قالوا إنه واحد ممن عرفوا كيف يستفيدون من الظروف المستجدة . وعندما سألت شحادة عن موقعه والمهمة التي يتولاها ، جمجم جمجمة أثارت فضولي ، فحثثته على البوح ، فأمعن في الغموض . وكان أن تصورت أن الشاب انضم إلى جهاز الرصد الثوري في «فتح» وطولب بأن يبقي الأمر سراً أو أنه يتولى مهمة سرية أخرى من هذا القبيل . ولم أكف عن الاهتمام بحكاية شحادة إلى أن عرفتها فعرفت بها الكثير الذي سأحدثك حديثه .

ففي سعيها إلى الظفر بحكاية تبثها بلاغات المتحدثين العسكريين ، اتبعت الفصائل ، بين ما اتبعته ، أسلوباً قد تجده غريباً إلا أنه كان في ظروف تلك الفترة عادياً . عينت الفصائل مندوبين لها يداومون على العمل قرب جسر الملك حسين ، أو جسر ألنبي الواصل بين ضفتي الأردن المحتلّة منهما وغير المحتلة ويتسقطون الأنباء من أفواه القادمين من الأرض المحتلة . كان

شحادة يتوجه إلى الجسر في الصباح وينافس زملاءه في الاستئثار بأكبر عدد من القادمين واستدراجهم إلى الحديث ويحاول أن يلتقط أي إشارة إلى أي شيء يمكن للمتحدث العسكري باسم «فتح» أن يستفيد منه : ألم تسمع صوت انفجار أو إطلاق نار ، ألم تر حريقاً ، ألم تصادف ناساً فارّين من ملاحقة أو متوجهين إلى هدف ما ؟ وغالباً ما تحولت الإجابات بنعم إلى بلاغات عن عمليات فدائية : تفجير موقع ، أو اشتباك ، أو حرق آخر ، أو مداهمة ، أو ما إلى ذلك مما تواترت حكاياته .

وبمضيّ الوقت ، مع حاجة شحادة إلى استرضاء رؤسائه والظفر بمكافآت وعطايا أكثر ، صار مندوب الجسر هذا خبيراً في طرح الأسئلة التي تستدرج إجابات ترضي الرؤساء وتلبّي حاجتهم إلى حكايات جديدة : حدثني قادم جاء من منطقتك أنه صحا في الليل على صوت إطلاق نار ، فهل سمعت أنت ما سمعه هو أم أن نومك ثقيل ؟ قال لي ناس من قريتك إنهم أمّنوا الحماية لفدائيين هاجموا المعسكر الإسرائيلي القريب ، فهل سمعت أنت هذه الحكاية أم أن أهل قريتك لا يأتمنونك على الأسرار ؟ ثم بمضيّ مزيد من الوقت ، صار لشحادة كما صار لغيره من المندوبين زبائنه الخاصون به ، وصار هؤلاء أقرب إلى المخبرين المواظبين ، فهم يتسقطون الأنباء بالطريقة التي يتسقطها هو أو يختلقونها اختلاقاً ، ويبلغون إليه الحصيلة ، فتتواتر البلاغات . ومن هؤلاء المخبرين من عرف الطريق إلى مندوبين عدّة فكان يكرر النبأ ذاته لكل واحد منهم ، فتصدر الحكاية ذاتها في بلاغات أكثر من فصيل واحد وتتخاصم الفصائل حول نسبها . وقد سألت شحادة مرة : «ألا يزعجك أن تساهم في نشر الكذب وتعميم الأوهام الضارة وإفساد الناس ؟» . فابتسم شحادة ابتسامة الفطين حين يواجه غرّاً وقال بجدية تامة «يا ابن العم ! لم أشبع اللقمة إلا في هذه الأوقات ، فهل تريد أن أرجع إلى أيام العوز ويجوع

عيالي» .

لا شك في أن المقاومة الفلسطينية كان فيها متسع للصادقين ، متسع فسيح في واقع الأمر . وأنا أعرف كثيرين سلكوا بنزاهة وتحدثوا دائماً باستقامة دون أن يجوعوا أو يجوع أولادهم . قلت هذا لشحادة فأثاره ما عدّه تعريضاً منّي بسلوكه واستفز حاجته لتبرير ما يعمله : «لست أنا الذي يريد الكذب . هم ، في مكتب المتحدث العسكري ، يريدونني أن أكذب . إنهم يريدون بلاغات ، وإذا لم أجئ أنا بالحكايات فما أكثر الذين يتمنون أن يحلّوا محلّي !»

حين كان شحادة يدقق في الروايات في أول عهده بعمله ، كان يعود إلى رؤسائه بحصيلة يعدونها هم شحيحة أو يعود خالي الوفاض ، فكان الرؤساء يتهمونه بالتقصير ويقرعونه ويعيرونه بأن مندوبي فصائل أصغر من «فتح» أنشط منه وأوفر حصيلة . وكثيراً ما كان رؤساء شحادة يخترعون حكايات من عندهم أو يستقون حكاياتهم من إشارات موحية ترد في وكالات الأنباء العامة حين لا يجيئهم شحادة وأمثاله بما يكفي . قال شحادة : «لم ينبني من الصدق إلا زعل الرؤساء وخسارة المكافآت ، فلماذا لا أفعل ما يفعله غيري» .

أسلوب آخر لجأت الفصائل إليه لزيادة حصتها من الأمجاد . فقد جرت الاستعانة بالذين اكتسبوا مع الوقت تسمية مقاولي العمليات . وكان هؤلاء خليطاً من حسني النية وسيئيها ، من الراغبين في إزعاج الاحتلال ومن الراغبين في الارتزاق . كان الواحد من هؤلاء يجيء إلى أحد الفصائل ويعرض فكرة عملية وتقديره لأكلافها ويتعهد القيام بها لحساب هذا الفصيل . فإذا دفع الفصيل الأكلاف ، أدى المقاول ما تعهده أو أوكل المهمة إلى غيره ، أو زعم زعماً أنه أدّاه وظفر الفصيل ببلاغ جديد . ولم يكن من النادر أن يعرض مقاول طماع الفكرة على غير فصيل واحد ، فيصدر عن عملية واحدة ، منجزة أو مدعاة ، بلاغات عدّة ويتبع ذلك اختصام الفصائل

على حقوق الأمجاد . وقد جاء وقت كثرت فيه الخصومات التي من هذا النوع وتسببت في إثارة فضائح موجعة . ثم تدخل الحريصون على إطفاء أسباب التوتر في علاقات الفصائل بعضها ببعض ، واتفق الجميع على أن يصير حق نشر البلاغ للمتعاقد الأول مع المتعهد . غير أن هذا الاتفاق أبقى ثغرة تعبر منها الخصومات ، إذ كيف يمكن التيقن من الأولوية . وانتهى الأمر باتفاق جديد ، فصار على أي فصيل مزمع على القيام بعملية أن يودع خطتها في ظرف مغلق عند رئيس المجلس الوطني خالد الفاهوم الذي يكتب على الظرف تاريخ إيداعه لديه . فإذا تبين أن المتعهد باع حق النشر لأكثر من فصيل ، ظفر بالحق صاحب التاريخ الأسبق .

مرة أخرى ، لكي لا تخطئ الفهم ، أكرر القول إن المنجزات الحقيقية لم تكن قليلة . إلا أنها السياسات الخاطئة ، وهي التي أطلقت حمى المزايدة ، فأطلقت المزايدة حمى التهويل واحتاج المهوّلون إلى وسائل فابتكروها . ولقد تعلمت أنا الدرس منذ وقت مبكر : لا يمكن أن ينجم من سياسات خاطئة إلا ممارسات من نوعها .

وقد اقتضى حجم البطولات التي راج الحكي عليها بحق أو بغير حق أن يكون بين ناس المقاومة عدد كبير من الأبطال . واقتضى التهويل أن تكون البطولات خارقة للعادة ويكون الأبطال خارقين . ولن تخطئ إن استخلصت ما انتهى إليه الأمر فعلاً بسبب هذا . فالأبطال الحقيقيون ، وهم في العادة ناس مثل كل الناس وغالباً ما يكونون متواضعين ، بقوا في الظل ، فيما سطعت أضواء الحكايات الزائفة وتركزت الأضواء على الأبطال الزائفين .

أضرب لك أمثلة .

قاعدة في الأغوار ، قائمة في مكان تستره صخوره أوتكتنفه أجمة ، يشغلها متطوعون اجتذبتهم إلى المقاومة رغبة حقيقية في التصدي

للاحتلال ، يقودها مسؤول اجتذبته الرغبة ذاتها ففعل ما فعله مرؤوسوه فترك مقعد الدراسة في جامعته ، أو ترك وظيفته أو عمله الخاص ، والتحق بدورة للتدريب وحرص على الاستفادة منها واكتساب أوفى خبرة ، فلفت نظر قائد متفهم فظفر بما يستحقه حتى صار رئيساً للقاعدة ، فركّز جهده في تنظيم نشاط قاعدته واستبقى فيها المقاتلين الملائمين ونحّى غيرهم ، واستثمر الحماس والإخلاص ، فقامت القاعدة بما ينبغي القيام به لإقلاق العدوّ ، تفحصت الفرص المتاحة بتبصر ، واستطلعت الأهداف الممكنة ، واستوفت المعلومات اللازمة عنها ، وأعدت لعملياتها بإتقان وبما يتلاءم مع الإمكانيات ، فنجحت بعض عملياتها وفشلت أخرى ، وتم هذا كله بغير ضجيج ودون تبجح .

وقاعدة أخرى قائدها لم يلتحق بأي دورة وإذا التحق بدورة فإنه لم يبذل أي جهد لاكتساب الخبرات ، بل تزلف وخادع المتنفذين وكسب رضاهم فظفر بمنصب يستحقه غيره . مسؤول مثل هذا سوف يفتح أقنية اتصال عديدة مع القادة الكبار والمسؤولين عن المال وعن الإعلام ، ويختار لقاعدته موقعاً يسهل وصول الزوار إليه والتمتع بالحفاوة فيه ، ويغرق مكاتب المتحدثين الرسميين ورجال الإعلام بأنباء عن عمليات تقوم بها قاعدته ، ويحرص على استضافة القادة والصحافيين وتوفير الضيافة الباذخة لهم . وإذا وجد صحافيّ حريص على التيقن من صدق الروايات فإنه سيظفر بمعاملة خاصة فيُدعى إلى المكوث في القاعدة وتجري في حضوره نشاطات توحي بالاستعداد لعملية متميزة وبأن أمر تنفيذها قد يصدر في أي لحظة فيتاح له أن يشهدها . وحين يصدر الأمر المرتقب فلا بدّ من أن يكون هذا في عتمة ليل بهيم حين يكون الصحافي غارقاً في النوم ، فيوقظ بجلبة ، ويتوجب عليه أن يسير مسافة طويلة وهو نصف نائم وعاجز عن الرؤية ثم يجد نفسه وهو يعبر مخاضة ماء فيستخلص أنه يعبر

نهر الأردن ، فيشتد خوفه ويشتد فضوله في آن ، وحين تبرق أمام عينيه التماعات القذائف وتمتلئ مسامعه بضجيجها فسيستخلص أنه يشهد اشتباكاً حامي الوطيس . وفي هذا الوضع لا بدّ من أن يسمع الصحافي تحذيرات : انبطح ! أحط رأسك بيديك ! انهض واجر لكن ليس في خط مستقيم ! وحين يعود الصحافي مع العائدين إلى القاعدة لن يكون قد شهد في واقع الأمر سوى مناورة دون أن يقول له أحد إنها مجرد مناورة . وسيكتب هذا الصحافي قصة طويلة .

لكن ، لأنه ليس بالإمكان خداع الصحافيين كلهم ، فقد اتبعت وسائل للتحوط ضد يقظة اليقظين . وفي هذا المجال ، اشتهرت الوسائل التي اتبعت مع الصحافيين العرب . فذوو الأهمية من هؤلاء كانوا يستقبلون بحفاوة من قبل قادة الصف الأول ويحاطون بالاهتمام . وفي هذه الحالة ، كان القائد يقرّ بوجود السلبيات ثم يتفنن في الحديث عن المصاعب ويخلط بين هذه وتلك في نحو تظهر السلبيات معه كأنها نتيجة المصاعب وليست من فعل فاعل فاسد . والصحافيون الأقل أهمية كان أمرهم يترك إلى قادة الصف التالي ، فتفيض عليهم أحاديث هؤلاء ، وقد يوكلون أمر أي منهم إلى قائد قاعدة من الصنف المخادع الذي حدثتك عنه . أما الصحافيون غير المهمين فكان يتولاهم الذين يتصيدون أي صحافي ليغرقوه بالحكايات الخارقة ، وما كان أكثر هؤلاء !

وفي الأحوال كلها ، ظل بالإمكان إطفاء اليقظة بالرشوة حين لا تنفع الوسائل الأخرى . وهذه لم تكن تسمى بالطبع رشوة ، فهي نفقة رحلة ، أو هدية ، أو مكافأة لقاء أتعاب ، أو دعم لصحيفة الصحافي ، أو ما شئت من الأوصاف اللائقة . وأكثر الرشوات فتكاً بالضمائر كانت تدفع لذوي الأسماء الكبيرة في الصحافة ويقول دافعها لمتلقيها : أعرف أن قلبك معنا ، وأعرف أن

يدك نظيفة ، ولهذا السبب اخترتك أنت بالذات لمساعدتنا ، والمبلغ الذي أسلمه لك موضوع بتصرفك لمعالجة الصحافيين الذين لا يخدمون أحداً إلا إذا قبضوا ، أنت أعرف منا بأبناء المهنة وأرجو أن تؤدي لنا هذه الخدمة ! وفي ذاكرتي أسماء صحافيين كبار اغتنوا بهذه الوسيلة .

أما الصحافيون الأجانب ، أي غير العرب ، فقد اختلف أمرهم . مراسلو المؤسسات الإعلامية التابعة للدول الاشتراكية لم يحظوا إلا بالقليل من العناية الخاصة . استقر في الأذهان أن هؤلاء يتبعون التعليمات التي تمليها حكومات دولهم على صحافتها فلاحاجة للعناية بأشخاصهم . وقد غلبت روح الاستهانة بهؤلاء ودورهم ولم يكونوا بمعظمهم مرحباً بهم في مجالس القادة الفلسطينيين إلا حين يكون أحد القادة في صدد التوجه في زيارة إلى دولة الصحافي الاشتراكي أو إيصال رسالة غير مباشرة إلى حكومتها . وكان لي في هذه المسألة رأي مختلف عن السائد . وعندي الصحافي هو الصحافي ودوره مؤثر في الرأي العام في بلده ومؤثر على صناع القرار فيه إن كانت مؤسسته حكومية أو خاصة وأياً ما كانت عليه صفة النظام القائم في البلد . وقد تعاملت مع صحافيي الدول الاشتراكية بوصفهم ، على العموم ، أصدقاء للشعب الفلسطيني راغبين في إيصال صوته إلى جماهير بلادهم . ولأني حررت نفسي من تهيب الاتهام بالتبعية ، فقد تعاملت مع الأصدقاء بما يستحقه الأصدقاء وفتحت لهم أبواب منزلي ومكتبي كما فتحت لهم قلبي ومخزن معلوماتي ومكنون عقلي .

آثرت هؤلاء بهذا كله على غيرهم من الأجانب ، بل عاملتهم كما أعامل أصدقائي من الصحافيين العرب ، واكتسبت ثقة كثيرين منهم .

وها أنا ذا أتذكر صديقاً من هؤلاء عزيزاً عليّ هو التلفزيوني الهنغاري ألايوش كروديناك . درس ألايوش اللغة العربية وأتقن التحدث بها بطلاقة قلما

توفرت لمستعرب ودرّس هذه اللغة في جامعة بودابست لبضع سنوات قبل أن تجتذبه مهنة الصحافة فيتفرغ لها . وحين تعرفت أنا على ألايوش ، كان هو صاحب برنامج بانوراما نصف الشهري ، ولعله أشهر برامج التلفزيون الهنغاري وأشدها اجتذاباً للمشاهدين ومشتري البرامج الهنغارية .

تميز ألايوش بفطنة ظاهرة وذكاء حاد وانفتاح ذهن واسع ، كما تميز بالجرأة في متابعة الأحداث وملامسة المواضيع الحساسة وارتياد مناطق الخطر . وقد اجتذبت سخونة الأحداث التي تواترت في منطقتنا منذ العام ١٩٦٧ ألايوش هذا ، فكثرت زياراته وتعرفت أنا عليه في دمشق في وقت ما من العام ١٩٦٩ . لقائي الأول به تم في سفارة بلده في العاصمة السورية . دعتني السفارة لحضور استقبال نظم تكريماً لوفد رسمي ترأسه سيدة عضو في قيادة الحزب الشيوعي الهنغاري ، وكان هو هناك ، وهو الذي تولى ترجمة حواري مع السيدة . وكان أن سألتني هذه السيدة عن رأيي في نشاط السفارة فأجبت ، محملاً نبرة صوتي المغزى الذي توخيت إبرازه : «إنها المرة الأولى التي أعرف أن لبلدكم سفارة في دمشق» . وأعجبني أن الترجمة نقلت المغزى بتمامه . ولئن بُهتت السائلة فلم تطرح أي سؤال آخر وسخط السفير فصمت ، فإن ألايوش امتدح صراحتي . فكانت تلك بداية طيبة لعلاقة بين صحافيين يعشقان الجهر بالحقائق ولا يقيمان وزناً للياقات الدبلوماسية .

يومها ، طلب ألايوش أن أجمعه بواحد من قادة «فتح» النافذين ، لم يكن أبو عمار أو أبو إياد أو أبو جهاد أو أبو سعيد في البلد . ومحمود عباس «أبو مازن» عدّ استقبال صحافي من هنغاريا مضيعة للوقت ، ولم تنفع محاولتي إقناعه . وكان هؤلاء هم الذين أعدهم أنا النافذين من أعضاء لجنة «فتح» المركزية من بين الذين يمكن العثور عليهم في دمشق . ولكي لا أخيب رجاء الهنغاري أو أظهر أمامه بمظهر العاجز ، اتصلت بفاروق القدومي «أبو لطف» ،

صاحب «إخرس يا قلم» ، فقد كان بعد أي حساب عضواً في اللجنة المركزية وكان قد بدأ يبرز بوصفه واحداً من القادة الفتحاويين الذين يلتقيهم الصحافيون . رحّب القدومي بطلبي إلا أنه اشترط أن أقدمه باسم إبراهيم المغربي ؛ وضع الشرط مسبقاً لمعرفته أني أستسخف استخدام اسم حركي لرجل يعرف الجميع اسمه الحقيقي أكثر مما يعرفون الاسم الذي يتستر به . ولعلّي بسبب هذا أهملت الشرط حتى نسيته ، ولم أبلغه إلى صاحبي الهنغاري .

جئت بالهنغاري في الموعد . وكان أبو لطف في الانتظار وقد أعد نفسه إعداداً خاصاً : البذلة الخاكية ، والكوفية الحمراء التي تغطي الرأس وأجزاء من الوجه ، والنظارات الداكنة ، والمسدس ، وحزام الذخيرة في الوسط ، وما إلى ذلك . وبدأ أبو لطف بمصافحتي أنا ضاغطاً على يدي ضغطة أرادها ذات مغزى ، وقدم نفسه بصوت جهير قبل أن أقدمه أنا : إبراهيم المغربي ، فلم يعد من اللائق أن أقول للهنغاري إننا في حضرة فاروق القدومي . وظن الهنغاري أننا إزاء واحد من مساعدي القائد الفتحاوي وتعامل معه على هذا الأساس ؛ صافحه بغير تركيز واستجاب لدعوته إلى الجلوس ثم بقي صامتاً منتظراً أن يظهر فاروق القدومي . ولما لم يظهر أحد بل شرع أبو لطف فيما بدا أنه سيكون كلاماً طويلاً ، تساءل الهنغاري : «ألن نقابل السيد القدومي ؟» . وجاء الرد : «فاروق القدومي انتهى منذ انتسب إلى الثورة ، الكفاح المسلح خلقه خلقاً جديداً ، أنت الآن أمام إبراهيم المغربي» . ولم أملك أن أكتم ضيقي بالأداء المصطنع ، فعقبت بغير حذر : «اخرس يا قلم ولعلع يا رصاص !» ثم ندمت لأني ظننت أن تعقيبي سيسوء الرجل . إلا أن المفتون بزيّ المقاتلين لم يفطن إلى السخرية بل قال بنبرة متأنية : «تمام !» ، ثم جلجل : «نعم ، الكلام للرصاص ، أحسنت يا رفيقي القديم !» . والتقط الهنغاري دلالة هذا الحوار

كلها وقال ببرود : «أوه ، أنت ، إذاً أبو لطف !» .

ابتدأ ألايوش المقابلة التي سجلتها كاميرا التلفزيون بالتساؤل عن مغزى إصرار «فتح» على اعتبار الكفاح المسلح الطريق الوحيد لتحرير فلسطين ، مضمناً التساؤل استغرابه لاستبعاد الوسائل الأخرى . فجاءت الإجابة شرحاً ختمه أبو لطف بسؤال يتضمن دهشته إزاء استغراب السائل : «ألا تنبع السياسة من فوهة البندقية ؟» . فطرح ألايوش سؤاله التالي : «هل تعدّ نفسك ماوياً ؟» .

وكانت الماوية حين يذكرها شيوعي من بلد اشتراكي أوروبي معدودة تهمة . إلا أن القدومي لم ينتبه إلى هذا المرمى ، فقال : «ماوتسي تونغ على الرأس والعين ، قائد فذٌّ لشعبه ، ونحن نستفيد منه ونقتدي بمسيرته الكبرى» . ويبدو أن الهنغاري شاء أن يتيقن من صواب ما استخلصه ، فطلب من القائد الفتحاوي المفتون بالماوية أن يحدثه عن برنامج «فتح» الاجتماعي . وعند هذا السؤال ، اتخذ القدومي هيأة المرغم على التكتم : «لماذا تريد أن تعرف هذا البرنامج ؟» . فقال ألايوش مظهراً دهشة ممزوجة باستخفاف ظاهر بمحدثه : «أنا صحافي ، مهنتي تتطلب أن أتعرف على مواقف الآخرين» . ولم يبدل القدومي هيأته بل أمعن في التكتم : «نعم ، لنا برنامج اجتماعي ، إلا أننا لا نعلنه» . وقبل أن يطرح السائل الذي اشتد اندهاشه أي سؤال جديد ، أضاف القائد : «إعلان برنامجنا الاجتماعي سيؤدي إلى وقوع خلافات حوله فيؤثر على وحدة حركتنا . المرحلة مرحلة كفاح مسلح ينهمك فيه الجميع . أما الإعلان عن البرنامج الاجتماعي فيجيء بعد التحرير وليس قبل ذلك» .

بعد هذا الإيضاح ، أشار ألايوش إلى رجل الكاميرا كي يوقف التصوير ، ثم لم يتحفظ في إظهار استهانته . وها أنا ذا أتذكر كيف وقف صاحب القامة الطويلة الرشيقة ، وكيف ملأت ابتسامة فصيحة الدلالة وجهه ، ثم كيف

توجه نحو محدثه وأحاطه بذراعيه كما يفعل المرء مع طفل أوقعته سذاجته في خطأ ، ثم كيف قال : «طمأنتني ، فأنا أعرف الآن أنك لست حتى ماوياً» ، ولدهشتي أنا الذي تحرجت إزاء سخرية الصحافي بالقائد الذي قدمته له ، لم ينتبه القدومي إلى ما تنطوي عليه العبارة من تعريض به ، بل عدّها مديحاً ، وازدهى ، وقال : «نحن في الثورة الفلسطينية هكذا ، نأخذ ما يفيدنا من أي نظرية ونحتفظ بنظريتنا الخاصة» .

بعدها ، واصل ألايوش الحديث دون تصوير وأباح لنفسه أن يتحدث بصفته صديقاً للمقاومة الفلسطينية ، فتبسط في عرض آرائه وأطلق لصراحته العنان على آخره . وفي ختام حديثه ، عاد ألايوش إلى حكاية الماوية ، لم يسخر بل تكلم بجدية : «ماو ، وحزبه ، وحكومته ، على ما بيننا وبينهم من خلافات ، لهم برامج معلنة ، وهم لا يعتمدون على البندقية وحدها» . قال الهنغاري هذا ، ونهض وهو يمد يده للمصافحة ويهتف : «يا سيد إبراهيم المغربي ، لقد تمتعت بلقائي بك» . أما القدومي الذي صافح مودعه دون أن يخفي برمه فقد أنطقه ضيقه بكلام وجهه إلي أنا : «لماذا تجيء إليّ بأعداء الكفاح المسلح الموافقين على وجود إسرائيل هؤلاء . لا أريد أن أرى وجه صاحبك مرة ثانية» . نسي المتستر غير الفطن أن صاحبي المومأ إليه الواقف بجانبنا يتقن العربية . وكم أثر فيّ رد الصحافي الأريب ، فهو لم يظهر أي حنق ، بل فرد على وجهه ابتسامة ملأته وقال للحانق عليه : «أما أنا فسأسعى إلى مقابلتك مرة أخرى حين ترغمك التجربة على تبديل رأيك» . وفيما القدومي مبهوت وقد فطن إلى قلة فطنته ، قال ألايوش وهو ما يزال يبتسم : «آمل أن تكون عندما ألقاك ثانية قد اقتنعت بأن السياسة الصحيحة هي التي تنبع من الفهم الصحيح للمصالح ، وليس من فوهة بندقية ولا فوهة بركان» .

الوافدون من المؤسسات الصحافية الغربية الكبيرة كانوا عصيين على

الرشوة ، ولا أظن أن ناس المقاومة الفلسطينية نجحوا في رشوة كثيرين منهم . بعض الوافدين من الغرب كانوا مندوبين لصحف تصدرها هيئات يسارية متطرفة صغيرة وفقيرة ، وهؤلاء كانوا مؤيدين للمقاومة راغبين في عمل شيء ينفعها لكن تأثيرهم على الرأي العام في بلادهم كان ضئيلاً . وكان قصارى ما يمكن أن يتلقاه الواحد من هؤلاء أن يستضيفه إعلامي فلسطيني ليقيم في منزله وأن تبيح له مكاتب الإعلام استخدام وسائل الاتصال المتوفرة لديها دون مقابل . موفدو صحف الأحزاب الشيوعية ذات الوزن في دولها ، الفرنسي أو الإيطالي على سبيل المثال ،كانوا هم الآخرون مؤيدين للمقاومة بدرجة أو بأخرى وكانوا يعدّون تغطية أنبائها أو ترويج ما يرونه إيجابياً من أفكارها خدمة أممية يملي الواجب عليهم أداءها ، وكان ناس المقاومة ينظرون إلى هؤلاء وكأن ولاءهم مضمون فلا يخصونهم بعناية زائدة .

أما الذين حظوا بأتمّ الاهتمام فكانوا من موفدي المؤسسات الصحافية الغربية الكبيرة ، الأوروبية والأميركية ، وخصوصاً الناطقة بالإنجليزية أو الفرنسية . وهؤلاء لم يكن من المتعذر رشوتهم فحسب ، بل كان من الصعب أيضاً تضليلهم . لم يكن هؤلاء هم الأذكى أو الأكفأ بين صحافيي العالم ، كما أشاع مفتونون غير مدققين ، بل إن مواقفهم المسبقة ضد المقاومة حصنتهم إزاء دعايتها .

كان الواحد من هؤلاء يبحث بحثاً مثابراً عن السلبيات ويغفل الإيجابيات متعمداً ، ومنهم من وضعت مؤسسته في تصرفه ميزانيات مرموقة للحصول على ما يتوخاه من معلومات . وأقل هؤلاء انحيازاً ضد المقاومة كان هو الذي قد يذكر الإيجابي إلى جانب السلبي ،لكنه يمر على الإيجابي مرور الكرام ويسلط قلمه على السلبيات .

غير أن الأمر حتى بين هؤلاء لم يخل من استثناءات ، من صحافيين

غربيين تمتعوا بدرجة عالية من النزاهة وأكسبتهم متابعتهم لمسائل الصراع العربي - الإسرائيلي وشؤون المنطقة الرغبة في إنصاف الضحايا .

وها أنا ذا أتذكر من هؤلاء الصحافي البريطاني ما يكل آدامز وتقاريره في «الغارديان» اللندنية . زار مايكل قطاع غزة المحتل أواخر العام ١٩٦٧ أو أوائل ١٩٦٨ . وكان مايكل إلى نزاهته شجاعاً ، فتحدى المشاعر المنحازة إلى إسرائيل ووصف ما عاينه ، وحكم بأن سلوك المحتلين الإسرائيليين لا يختلف عن سلوك النازيين الذي عاينه بنفسه . وبعد غزة ، زار مايكل مصر ثم لبنان ، واعتزم زيارة سورية . تصور الصحافي الذي صار هدفاً للإعلام المؤيد لإسرائيل أن أبواب سورية مفتوحة له ، لكنه فوجئ عند الحدود بأن دخوله إلى البلد ، هو الصحافي البريطاني ، متعذر ما لم يحصل على إذن مسبق من وزارة الإعلام وتأشيرة دخول . ويبدو أن أحداً ما في القاهرة أو بيروت كان قد زود مايكل برقم هاتفي فاستنجد بي . واستنجدتُ أنا بوزير الإعلام . ولم يدهشني أن الوزير لم يعرف من هو صاحب هذا الاسم ، مايكل آدامز ، فمعظم وزراء الإعلام جاء من مواقع لاصلة لها بالمهنة . وعوّلت على شيء واحد : أن يقتنع الوزير بسلامة دوافعي حين أخفّ لإنجاد صحافي من دولة إمبريالية ، أنا الذي لا يتهمني أحد بالانحياز إلى هذه الإمبريالية أو التقصير في مقارعتها . وكان مما دل على حسن السلوك أن مايكل جاء إلى مكتبي في «البعث» ليشكرني . وشئت أن يظفر الرجل بأوفر الإحترام ، فطلبت من رئيس التحرير أن يستقبله . وكان هذا آنذاك هو د . ناجي الدراوشة وهو مثله مثل الوزير لا يعرف من هو الزائر وقد تهيب استقبال صحافي بريطاني ولم تنفع شروحي . وتكرر الأمر بصورة أو بأخرى مع مسؤولين بعثيين آخرين . أما في أوساط المقاومة الفلسطينية فقد لقي مايكل أتم الترحيب . وقتها ، كتب مايكل بإفاضة عن جولته هذه ، إلا حين تعرض لحكام سورية البعثيين ، فقد أوجز

الوصف : «يحكون كثيراً ، ولا يفعلون إلا القليل» .

ديڤيد هيرست بريطاني من «الغارديان» أيضاً ، جاء إلى المنطقة وأقام فيها واستغرقته شؤونها . تمتع ديڤيد بدرجة عالية من النزاهة ، وقد لا أبالغ إن قلت إنه أنزه من لقيت في حياتي من الصحافيين الغربيين . وتميز ديڤيد بحرص شديد على تدقيق أي معلومة تصل إليه والتثبت من صوابها ، ولم يكن من السهل تضليله . وظل هذا الرجل عصياً على الفساد ، ولم يركن في أي شيء يكتبه إلا إلى نوازع ضميره .

إذا نحينا الاستثناءات ، فسيبقى العام . وقد تبنى الإعلام الغربي مقولة أن إسرائيل هي الضحية التي تدافع عن نفسها إزاء العرب الذين يعتدون عليها ويهددون وجودها . وفي هدي هذه المقولة ، ضؤل الاهتمام بالمدلولات الصحيحة للوقائع بما فيها الوقائع التي يشاهدها صحافي بأم عينه ، وأهملت حقيقة أن إسرائيل هي التي تعتدي على العرب وتحتل في كل اعتداء أجزاء جديدة من أرضهم وتزرع الدمار والبطش وتشرد المواطنين أو تروعهم وتذلهم . ومن الحق الإقرار بأن الأقوال المتبجحة والدعوات المزايدة في الجانب العربي قد استخدمت بما هي أدلة تسوّغ هذه المقولة . غير أن أقوالاً ودعوات من هذا النوع لم يكن لها أن تقلب صورة الواقع رأساً على عقب لو لم ينحز الغرب لإسرائيل وتتفق مصالحه مع مصالحها في العدوان على العرب والعمل على إخضاعهم ، ولو لم تتجند الصحف الممثلة لهذه المصالح في حملة ضارية قوامها التضليل . وقد وفرت اللغة الفلسطينية المزايدة الكثير مما يبحث عنه صحافيون منهمكون في الحملة . لكن هذا لا ينفي أن هؤلاء أغفلوا حقائق لا يغفلها إلا منحاز : هوّنوا من وقائع العدوان الإسرائيلي الصارخة وتصيدوا أخطاء مقاوميه .

وفي كل حال ، إن كان لسلبيات المقاومة خطرها في مجال الإعلام

الخارجي ، فهذا الخطر لم يكن في نظري ، هو الأشد . وعندي تمثل الخطر الأساس في تأثير السلبيات على ناس المقاومة أنفسهم . حدثتك عن ظاهرة بروز الأوهام وبإمكانك أن تتصور مضارها . فتصور إلى هذا ما أحدثه التهويل واختلاق الأمجاد اختلاقاً من تشويه للحقائق والقيم وتعميم للزيف ! خذ هذا المثل الذي عاينت أنا تجلياته في أي مكان رحت إليه : تنسب بطولة ما لشخص ما دون أن يجترح ما يسوغ نسبتها إليه ، فيتصرف بوصفه حقاً بطلاً ويشتط في المباهاة ، ويطالب بحقوق الأبطال وامتيازاتهم ويزايد بالطبع على الأبطال الحقيقيين . ولأن الظفر بسمة البطولة وامتيازاتها يتطلب إدامة الولاء لمختلقي الروايات الزائفة القادرين هم أنفسهم على منح الامتيازات ، فقد تصدر المنافقون المستزلمون لذوي النفوذ الصورة حتى صارت علاقات الاستزلام هي البارزة . وبفعل هذا العامل ، كما بفعل غيره مما يماثله ، توزع الناس على شلل وكتل متنافسة على المنافع الشخصية ، واكتسحت القيم الزائفة القيم الأصيلة وطغت روح الاستسهال .

هذه الحالة شحذها الوضع الذي آلت اليه جموع اللاجئين خلال مسيرتهم الطويلة منذ مفارقتهم أرض الوطن ، فقدت الجموع ما كان لها في الوطن ، وعانت القمع والحرمان والإذلال ، وافتقرت حياتها إلى مقومات الحياة الطبيعية المستقرة ، فمالت إلى القبول بأي تعويض حتى لو كان تعويضاً زائفاً . اختلط الأصيل في شخصية اللاجئ بالزائف ، مثلما اختلط التليد الراسخ منذ زعزعته النكبة بالمستجد القلق ، وصار من الممكن أن يكون الشخص الواحد أصيلاً وزائفاً في آن ، مقداماً وهياباً ، صادقاً وكاذباً ، مستقيم السلوك ومنحرفه ، حكيماً وسفيهاً ، متحمساً للحقيقة والوهم كليهما . . الخ .

وما من قيادة فلسطينية تمثلت هذه الحالة بمقدار ما تمثلتها قيادة «فتح» . أتقن الفتحاويون التصرف باستقامة مثلما أتقنوا التصرف بالتواء دون أن

يستوقفهم التباين الصارخ . ووسط قادة «فتح» ، برز ياسر عرفات بوصفه أصدقهم تمثلاً للحالة وتمثيلاً لها ، فلم يكن غريباً ، إذاً ، أن يتقدم الصف ويصير الأول فيهم حتى دون قرار منهم . قدّم الرجل بسلوكه النموذج الأسطع ، ففتن الآخرين وحملهم على الاقتداء به ، وكان في كل فتحاوي شيء من عرفات ، شيء مما هو بارز في شخصية هذا الرجل .

استثار القائد ما هو إيجابي في نفوس المحيطين به ، فعل هذا بتواضعه الذي لا يهم أن يكون طبيعياً أو مصطنعاً ما دام مستمراً ، فعله بتقشفه الظاهر في عيشته وحرصه على مظاهر السلوك المستقيم وتضحيته الدائمه بمستلزمات الحياة المريحة ، تماماً كما فعله بجرأته وإقدامه وحتى بقسوته . ومع هذا ، جنباً إلى جنب ، دغدغ عرفات ما هو سلبي في النفوس أيضاً ، . فتغاضى عن النقائص ، وشجع النوازع الشخصية ، ووفر الفرص كي يعوض أنصاره الحرمان الطويل ، وتساهل إزاء أي أساليب يتبعونها ، واعتنى بتوفير التغطية الإعلامية التي تمجد حتى الرديئين ، ولم يكن غريباً أن أول موقع تميز عرفات به عن باقي زملائه في اللجنة المركزية لـ «فتح» كان إعلامياً .

كنت تنظر إلى عرفات من زاوية فتستخلص أنه أشدّ القادة استقامة وأكثرهم تقشفاً وأوفرهم تضحية بالهناء الشخصي وأبعدهم نظراً وأقدرهم على استثارة الجموع ودفعها إلى الانهماك في المعامع . ولم يكن استخلاصك هذا غلطاً كلّه . فإذا نظرت إلى الرجل من زاوية أخرى فسترى أنك إزاء قائد لا يحلل ولا يحرم ولا يلزم نفسه قيمة بعينها أو مبدأ بعينه وقد لا يرى أبعد من أنفه ، رجل براغماتي يدير الأمور يوماً بيوم ولا ينشغل بالحسابات والتقديرات البعيدة . وكان عرفات منذ أول أمره قائداً فرداً يهتم بين أول ما يهتم به بتعزيز سلطاته . وقد ثابر الرجل على هذا منذ كان في الخمسينات زعيماً لرابطة الطلاب الفلسطينيين في القاهرة ، واكتسح الذين نافسوه أو اعترضوا طريقه في

أي وقت كما اكتسح الذين تخوّفوا من مخاطر فرديته . وما أكثر ما فعله عرفات مما هو مقبول أو غير مقبول ، مشروع أو غير مشروع . حتى صارت له المكانة التي عرفته أنت وهو يتمتع بها . وهذا كله جرى دون أن يكف الرجل عن الانتباه إلى مزاج الجمهور ليجاريه أو يعمل على تبديله بما يوائمه ، ودون أن يتورع عن استثمار السلبيات التي يخدمه وجودها ، تماماً كما يستثمر الإيجابيات .

ولئن ماثل بعض زملاء عرفات زميلهم منذ البداية لأن الظروف التي أبرزته وأبرزتهم كانت متماثلة ومتزامنة ، فقد وجد آخرون بعد ذلك جاروه مجاراة لأنهم لم يجدوا وسيلة أنجع للتمتع بموقع نفوذ أو منفعة . وقد شجع هو هؤلاء بالطبع ، دون أن يكفّ عن مراقبتهم كي يبقيهم أدنى منه مكانة .

وفي المشروع الذي انهمك فيه عرفات وإخوانه ، استخلص هؤلاء أن الكفاح المسلح ضد إسرائيل هو الأداة الأوقع تأثيراً في مجال إزعاج العدو ، وهو أيضاً الوسيلة الأشد فعالية في استثارة همم الجمهور الفلسطيني وتلبية توقه العميق إلى إثبات الحضور وتأكيد الذات والظفر بالأمجاد . وقد حقق عرفات الربط المحكم بين ضجيج البندقية واستقطاب ولاء الجمهور . وبزّ عرفات الجميع في الحرص على اضطراد العمليات المسلحة ، بصرف النظر عن منجزاتها الفعلية ، كما بزّ الجميع أيضاً في ابتكار الروايات ذات التأثير الطاغي . وها أنا ذا أشهد أن ياسر عرفات أفلح أكثر مما أفلح غيره في هذه المجالات جميعها .

٨
ضافي الجمعاني في مواجهة مبادرة روجرز

قبل انقضاء سنتين على هزيمة حزيران / يونيو الموجعة ، كانت مصر قد بدأت تتعافى من وجع الهزيمة . وفي آذار / مارس ١٩٦٩ ، شرعت مصر في حرب استنزاف على جبهة سيناء المحتلة . باشرت مصر هذه الحرب فيما كانت أعمال إعادة بناء الجيش جارية ليل نهار . واشتملت الحرب على عمليات متنوعة ومتناغمة : قصف على المواقع الإسرائيلية شرقي قناة السويس ، وإغارات تقوم بها وحدات كوماندوس في عمق سيناء ، كما اشتملت على عمليات يقوم بها فدائيون فلسطينيون بالتنسيق مع مصر وبمساعدتها .

تأثيرات حرب الاستنزاف ، وقد تضافرت مع تأثيرات المقاومة الفلسطينية ، أظهرت بوضوح أن هزيمة حزيران/يونيو لم تدفع العرب إلى رفع راية الاستسلام ولن تدفعهم إليه . وإلى هذا ، أظهرت حرب الاستنزاف فعالية التعاون الذي اتسع بين مصر والاتحاد السوفياتي ، وأشرت إلى اتجاه الرياح ، ففي المتناول إعادة بناء جيش مصر وتحديثه ، فضلاً عن جيش سورية ، وفي هذا ما فيه من نذر لإسرائيل المزدهية بانتصارها الكبير .

ومنذ اشتعال هذه الحرب ، فعلت الولايات المتحدة الكثير لوقفها وحماية

إسرائيل من تأثيراتها . وفي حزيران/ يونيو ١٩٧٠ ، بعد خمسة عشر شهراً من بدء حرب الاستنزاف ، قدم وليم روجرز وزير الخارجية الأميركي المبادرة التي اشتهرت باسمه ، وأول بنودها الدعوة إلى وقف إطلاق النار .

جاءت مبادرة روجرز فيما حماس الجماهير العربية ، وأخصها الفلسطيني ، للقتال في إبّانه . وكان خليط الوقائع والرغبات الذي يشكل صورة المنطقة قد غذّى الثقة بأن الجانب العربي امتلك زمام المبادرة وصار قادراً على إلحاق الهزيمة بجيش إسرائيل وإطفاء صلف المعتدين . وقد توقع أغلب الناس أن يرفض الرئيس جمال عبد الناصر ، وهو الذي اتخذ المبادرة إلى القتال واستعاد بها كامل شعبيته في دنيا العرب ، مبادرة روجرز ، أي أن يرفض وقف إطلاق النار قبل تحرير الأرض المحتلة . وفي السياق ، بل في المقدمة ، أعلنت قيادة م . ت . ف . إدانتها للمبادرة الأميركية وحثّت على رفضها . ونجحت الدعاية التي انصبّت على أرض ملائمة في خلق حالة بدا معها أن القبول بمبادرة روجرز ليس أقلّ من خيانة . غير أن عبد الناصر لم يعبأ بالاعتراضات أو الإدانات والتهم . كان الرئيس المصري المكتوي بنار أذل هزيمة في تاريخ مصر الحديث أعرف الناس بواقع الحال ومتطلبات الاستمرار في المواجهة الاستراتيجية ضد العدوان الكبير ، فقبل المبادرة .

هيج القبول بالمبادرة الأميركية المشاعر الفلسطينية ضد الزعيم العربي . صُدم الجمهور الفلسطيني بالقبول وثار سخطه . وفي سورية ، لم تكن الاعتراضات أقلّ ولا كانت الصدمة أخفّ أو ثورة المشاعر . وفي الأردن ، رحبت السلطة بالمبادرة ، فيما العلاقات بينها وبين المقاومة الفلسطينية متدهورة إلى أدنى قاع ، فانضاف سبب جديد لتشديد البغضاء والتوتر بين السلطة وبين المقاومة ، وبدا أن الانفجار وشيك الوقوع .

جارت «الصاعقة» التي أرأس أنا تحرير الصحيفة الناطقة باسمها الفصائل

الفلسطينية في الحملة على عبد الناصر . غير أن رد فعل الفصيل الفلسطيني البعثي هذا تأثر برغبة سورية في الاحتفاظ بعلاقاتها الطيبة مع مصر بالرغم من الإختلاف على المبادرة . أما الحملة الفلسطينية العامة على عبد الناصر فكانت شنيعة شناعة لا يسوغها أي حساب سديد . وقد ضقت أنا بهذه الحملة ضيقاً انفجر معه سخطي المتراكم ضد المزايدات السياسية كلّها ، وفاض .

لم أستسغ مبادرة روجرز ، فقد كنت من الذين يشكون في أي مبادرة تجيء من الجانب الأميركي ، ولدي أسباب عميقة لتغذية هذا الشك . إلا أني لم أجد في قبول مصر المبادرة ما يسوغ الحملة عليها ، خصوصاً بعد ما أطلع عبد الناصر منتقديه من حلفائه العرب على دوافعه العملية للقبول بها . اقتنعت بأن من حق الرئيس المصري المثقل بأعباء الوضع المعقد أن يناور ، ومن حقه على الجمهور أن يفهم حاجته إلى المناورة . إلا أن الجهر بهذا الرأي ، بما هو رأي مخالف للمزاج الفلسطيني العام ، انطوى على مجازفة كبيرة . بالرغم من هذا ، أقدمت كالعادة ، على فعل ما أملته قناعتي . وفي سعيي للتحوط ضد أذى المجازفة ، لجأت ، كالعادة أيضاً ، إلى د . يوسف زعيّن وأجريت معه مناقشة طويلة ومعمقة . ولما كان د . زعين عارفاً أتمّ معرفة بدوافع مصر لقبول المبادرة الأميركية ، فقد سهُل التفاهم معه والحصول على وعد منه بحمايتي ضد المزايدين . ولكي تدرك مغزى هذا الوعد ، عليّ أن أقول لك إن د . زعين كان ، هو نفسه ، ضد مبادرة روجرز ، ولم يكن مرتاحاً لقبول مصر بها ، إلا أنه تعهد حمايتي . وفي المناقشات التي أجريناها داخل هيأة كتاب «الطلائع» ، بدا هؤلاء ، ومنهم أنيس الخطيب ، الفتحاوي ، متفقين على أمرين : التميز عن المزاج العام والجهر بالتحذير من مخاطر العراك مع مصر .

وهكذا ، برز صوت «الطلائع» وحيداً ضدّ تيار عارم . وزاد عدد قراء المجلة

واتسع الاهتمام بموقفها الفريد . حذرنا من مخاطر الدخول في خصومة مع عبد الناصر ، وأكدنا على ضرورة الاحتفاظ بأطيب العلاقات معه في كل ظرف . وفيما نحن مستغرقون في المعمعة ، فوجئت باتصال من مكتب السفير المصري في دمشق ، ممدوح جبّة ، يبلغ إلي أن سعادة السفير راغب في زيارتي . لم تكن لي صلة بهذا السفير ، لكني رحبت ، بالطبع ، بالزيارة . ومن الذي لا يرحب بزيارة سفير أكبر دولة عربية ! واتصلت بفتوح الشريف ، فاكتشفت أن صديقي مطلع على رغبة السفير وأنه سيصحبه في زيارته لي . وقال فتوح بنبرة من يقدم إيضاحاً عادياً : السفير مكلف من مكتب الرئيس في القاهرة بتقديم الشكر على موقف «الطلائع» ونقل تحيات الرئيس جمال عبد الناصر إلى رئيس تحريرها وكتّابها .

أطنب السفير كثيراً في المدح ، وكرر أمامي شرح مبررات القيادة المصرية للقبول بمبادرة روجرز : شنّت مصر حرب الاستنزاف ، مجازفةً بالتعرض للخسائر التي تعرضت لها فعلاً ، من أجل رفع المعنويات وتوفير الجوّ الملائم لعملية إعادة بناء الجيش وتطوير الروح القتالية فيه وإبراز الحضور في ميدان الصراع والإستفادة من هذا كله في الضغط على المعتدي . ومما لا شك فيه أن العمليات المصرية أزعجت إسرائيل وأثرت على موقفها العسكري والسياسي . لكن هذا وذاك تحققا بمقدار بعينه لم يتجاوزاه . لقد استهدفت العمليات المصرية مواقع الجيش الإسرائيلي في سيناء المحتلة وألحقت بها ضربات موجعة ، لكن إمكانيات مصر قصّرت عن بلوغ الداخل الإسرائيلي وإيجاعه . أما إسرائيل في ردها على العمليات المصرية فقد كان الداخل المصري مفتوحاً أمام طيرانها المتفوق ، وهو داخل مكتظ بالسكان . وقد صبّت إسرائيل على عمق مصر ضربات موجعة لم ينج حتى تلاميذ المدارس الصغار من فتكها . هذا الوضع أقنع السوفيات بضرورة تزويد مصر بنوع جديد متطور من الصواريخ

المضادة للطائرات، وصار المصريون بحاجة إلى وقف إطلاق النار حتى يتمكنوا من بناء القواعد اللازمة لهذه الصواريخ. وفي هذه الحاجة يكمن االدافع الأول والأهم والأعجل تأثيراً بين دوافع القبول المصري بمبادرة روجرز.

تحدث السفير ليس بمنطق ممثل الدولة المعنية بالأمر، فحسب، بل بخبرة الضابط العسكري الذي كانه أيضاً، وأسعده أن يجدني متفهماً لشروحه، أنا الذي سبق لي أن سمعتها من غيره. ثم ختم الرجل حديثه بالعرض المألوف: «أنا في تصرفكم لأداء أي خدمة أقدر عليها». لحظتها، تدخل فتوح، ويبدو أنه أعدّ نفسه لهذا مسبقاً؛ ابتسم صديقي وتساءل: «ألا يدهشك يا سعادة السفير أن هذا الإنسان المتفهم الذي يقف مع مصر بجرأة ممنوع من زيارة مصر؟». أحرجني تدخل صاحبي على هذا النحو. فوجود اسمي في القائمة المصرية السوداء لم يكن غائباً عن البال، إلا أني لم أستطب استثمار زيارة تتصل بموضوع عام جليل لإثارة شأن شخصي، وقد خشيت أن يبدو الأمر كأنه مقايضة. ولم يعد بالإمكان طيّ الموضوع وقد فتحه فتوح وأثار دهشة السفير الذي هتف بعفوية: «مش معقول!». وعندما فهم الرجل المجبول بطيبة أبناء البلد المصريين أن غير المعقول واقع، بدا محرجاً أشدّ الحرج، فأطرق برأسه، وراحت أصابعه تعبث بسبحته. وشئت أن أحرر زائري من حرجه فقلت: «هذه أصغر من أن ينشغل بها رجل له مكانتك». وحاولت أن أوجه الحديث إلى نقطة أخرى، فسألت السفير عن رأيه في الموقف السوري المعترض هو الآخر على مبادرة روجرز. غير أن السفير لم يستجب لمحاولتي، بل التفت ناحية فتوح، وقال: «حكاية المنع اللعينة هذي أتعهد أنا معالجتها». ولم يوجه زائري نظره إليّ إلا حين نهض لينصرف وقال: «لك عهدي أن تزور مصر في أقرب فرصة».

استخدم الفلسطينيون وسائل إعلامهم الكثيرة للتحريض ضد عبد

الناصر ، وبضمنها إذاعة فلسطين التي وضعت مصر موجاتها تحت تصرفهم والتي تبثّ برامجها من القاهرة . وفي الرد على الحملة ، أقفلت مصر هذه الإذاعة وضيقت على النشاط الفلسطيني في مصر ، وبدا أن علاقات الطرفين أحدهما بالآخر تدخل في أزمة مستحكمة . وفي سياق تشديد الحملة الفلسطينية ، دُعي المجلس الوطني إلى الانعقاد في دورة استثنائية وتقرر أن يجتمع المجلس في عمان ، وليس في القاهرة كما جرت عليه العادة منذ ما بعد ١٩٦٧ ، وتحدد يوما ٢٧ و ٢٨ آب/ أغسطس ١٩٧٠ موعداً لعقد الدورة .

وقتها ، كنت في المجلس عضواً مراقباً الأمر الذي لم يعن شيئاً عملياً سوى الحق في شهود الجلسات . وقد بكرتُ في الذهاب إلى عمان . كان الجميع هنا مهتاجين . وكل شيء كان مضطرباً والتجافي بين ناس السلطة وناس المقاومة كان قد بلغ ذروته . وكان يكفي أن تنظر إلى الوجوه لتدرك كم صارت الهوة بين الجانبين عميقة . استعدادات السلطة لتصفية الحساب مع المقاومة صارت في تمامها . وتحدي المقاومة للسلطة أفلت من أي قيود . أما الهياج ضد عبد الناصر فكان في إبّانه . والمظاهر الاستثنائية كانت هي الطاغية : التواجد الكثيف للمسلحين ، والحواجز ، والمتاريس ، والسلوك المتوتر على كل صعيد ، هذا كله وما يماثله كان تام الحضور . أما ما كان غائباً أو مغيباً وراء الضجيج فهو صوت العقل .

ولما كنت بحاجة إلى الاستئناس بصوت عاقل حتى لا أفقد أنا الآخر عقلي ، فقد التمسته عند الذي لا تعوزه الرؤية السديدة في أي ظرف ، فهمي السلفيتي . كانت علاقتي بالرجل قد توطدت خلال زياراتي المتعاقبة لعمان وزياراته هو لدمشق . وكان صديق العمر الأثير منير الحمارنة قد وطد هو الآخر علاقته بقائده الشيوعي وأسهم في توثيق علاقتي أنا به . وها أنذا أتذكر السهرة التي ضمتنا في ذلك الظرف في منزل زوجين صارا من أعزّ أصدقائي

هما القائدة الشيوعية ذات الشخصية المتينة إميلي نفاع وزوجها ورفيقها في قيادة الحزب طبيب الأسنان د . خالد الحمشاوي . وإلى صاحبي المنزل الحفيين بالضيوف ، حضر السهرة منير كما حضرها معين بسيسو الذي وقعت عليه في عمان بعد طول انقطاعي عنه . كان معين قد انتهى بعد مغادرته دمشق إلى الإقامة في القاهرة حيث وفر له رئيس تحرير «الأهرام» محمد حسنين هيكل فرصة عمل في جريدته الكبيرة . وقد جاء معين إلى عمان ، مثلي ، بمناسبة انعقاد دورة المجلس ومن أجل الالتقاء بأصدقائه الذين لا تتوفر فرص اللقاء بهم إلا في مثل هذه المناسبة . وكان معين وقتها ، كشأنه في معظم الأوقات ، وكغيره ، مضطرباً ، وقد توزعت مشاعره وكذلك آراؤه بين الجوّ الفلسطيني الغالب وبين ما يختزنه من شيوعيته ، فبدا إزاء المتعقلين متطرفاً وإزاء المتطرفين متعقلاً ، دون أن يقرّ له قرار .

هذه السهرة شهدها إلى من ذكرتهم من الشيوعيين الأردنيين الأمين العام للحزب فؤاد نصار ومعه وقاره الذي لا يبارحه لا في الجلسات العامة ولا الخاصة ، كما حضرها صديقي عضو قيادة الحزب الصحافي آمال نفاع وتعقله الدائم . وبوجودي أنا ووجود معين ، اصطخب الحديث وما كان لأي حديث أشترك أنا فيه أو يشترك فيه معين إلا أن يصير صاخباً ، فكيف وقد جرى ذلك الحديث في ظل الهياج العام . وفي حضور القادة ، تحدث معين بما هو قائد هو الآخر . وكان هذا يقتضي معين أن يتوخى الوقار ، غير أن الوقار لا يلائم الشاعر المتوقد والفلسطيني المهتاج . وتوالت مداخلات معين المتضاربة : أبدى ضيقه بقبول عبد الناصر مبادرة روجرز ، تارة ، وضيقه بقصور الفلسطينيين عن تفهم دوافع الزعيم ، تارة أخرى ؛ هاجم السلطة الأردنية بعنف مرة ، وهاجم سلوك المقاومة واستفزازها للسلطة ، مرة أخرى ، وهكذا من موقف إلى نقيضه . ازدواجية معين لم تعجب فهمي السلفيتي ، وقد اعترض أبو سليم على معين

أشدّ ما اعترض حين حاول هذا أن يبرهن على صواب سياسة المقاومة بالاستناد إلى مسوّغات ماركسية لينينية . وتلقى معين من السلفيتي كلاماً صريحاً وقاسياً ، ففوجئ ، وسخط ، ولجم لسانه برماً ، ولم يتدخل في الحديث بعد ذلك . وكعادته لم يأبه أبو سليم لسخط مناظره ، بل واصل الهجوم واتهم معين بأنه يبتعد كثيراً عن الشيوعية حين يسوغ السياسات المغامرة والسلوك الشاذ . وما كان لأي تهمة أن تؤذي معين بمقدار ما تؤذيه هذه التهمة بالذات : الابتعاد عن الشيوعية . ولئن بدا الشاعر عاجزاً وسط تأييد الحاضرين كلهم لآراء السلفيتي ، فقد اختزنها في نفسه واحدة ضد القائد الذي تصور هو أنه استهان بشيوعيته . ولك أن تعرف أن معين حقق انتقامه فور أن واتته الفرصة ، وذلك بعد سنتين أو ثلاث من هذا الحديث . وفي أحد كتبه ، هذا الذي حمل عنوان «دفاتر فلسطينية» ، قال معين في وصف فهمي السلفيتي إنه خان الشيوعية ، وليس أقل من ذلك !

في زيارتي تلك لعمان ، حثني أبو سليم أكثر مما فعل في أي مرة سابقة على تشديد الجهد ضد المزايدة والأوهام . كان صاحبي يعدني بين العقلاء وشاء أن يسلحني بالأمل ، فجاءت نصيحته لي بمثابة نبوءة : «لا تخف من مزايدات المزايدين واتهامهم إياك بالتهاون في الشأن الوطني ، سيجيء وقت ترى فيه هؤلاء أنفسهم في مقدمة المفرطين بالحقوق الوطنية المتهافتين على التفاهم مع إسرائيل ، وسيتهمونك هم أنفسهم بأنك متشدد !» . والفكرة المحورية التي تشبث أبو سليم بأولويتها كانت هي هذه : الأهم من أي مهم هو لجم اندفاعه التوسع الإسرائيلي وإرغام إسرائيل على التراجع ؛ انحسار الاحتلال الإسرائيلي هو أهم ما في الأمر . ومن أجل أن يتحقق هذا الهدف ، دعا الرجل إلى أن تنسق جهود المقاومة الفلسطينية ومصر وسورية لتشكل نواة لتضامن عربي ضدّ الاحتلال ، وأن ينتظم التعاون مع الاتحاد السوفياتي

ويتوطد . وكان من رأي الرجل أن هذا الهدف لا تحققه الجعجعة اللفظية ولا صخب البنادق التي توجه إلى غير إسرائيل ولا الشعارات المزايدة ، بل تحققه السياسات التي ترسم للعمل الوطني أهدافاً ممكنة التحقيق . وعند السلفيتي ، كانت السياسة الصحيحة هي تلك التي تستهدف تحقيق تسوية سياسية تحرر الأرض العربية التي أحتلت في العام ١٩٦٧ وتصون حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره بحرية ولا تغفل واقع وجود إسرائيل وقوتها وقوة الذين يوفرون لها الحماية ووجود ملايين اليهود المتشبثين بالعيش فيها .

يومها ، أنبت حديث السلفيتي في ذهني الفكرة التي سيغنيها الوعي والخبرة بمضيّ الوقت : أذنت التطورات التي تعاقبت منذ ما بعد الحرب العالمية الأولى لليهود الذين تجمعوا على أرض فلسطين بتقرير مصيرهم فصارت لهم إسرائيل . وحالت الظروف دون أن يقرر الشعب الفلسطيني مصيره ويقيم دولته . والوقت الآن هو وُقت العمل لتصحيح الخطأ قبل أن يتفاقم أمره . لا أهمية قصوى للجدل حول شرعية قيام إسرائيل أو عدم شرعيته ، ولا مجال لنكران حق يهود فلسطين في تقرير المصير فقد تقرّر مصيرهم وانتهى الأمر . التصحيح يتم بتركيز الجهود على ما يمكّن الشعب الفلسطيني من تقرير مصيره . وحين يتمكن الشعب الفلسطيني من تقرير مصيره ففي هذا ضربة في الصميم للصهيونية وبرنامجها العدواني التوسعي . وسيقوم وضع جديد غير ملائم لأي توسعيين . وما أشد ما انطبعت في ذهني من عبارات السلفيتي هذه العبارة : «الصهيونيون هم الأعداء . وهؤلاء لن يتورعوا عن ارتكاب أي جريمة لمنع شعب فلسطين من التأكيد على ذاته وتقرير مصيره بحريّة» .

في نحو مختلف ، انهمكت في جدل شاق مع ناس الفصائل المسلحة ، وسمعت سيل شتائمهم لعبد الناصر وتبجحاتهم بشأن القدرة على إحباط

مؤامرة يرون هم أنه واقف على رأس الضالعين فيها . رأى هؤلاء في مبادرة روجرز مؤامرة يشترك فيها عبد الناصر وحكام الدول العربية الآخرون ، وأخصهم الأردنيّون ، ومعهم إسرائيل والصهيونية والامبريالية العالمية وليس الأمبريالية الأمريكية وحدها .

ولأني صرت أضيق ضيقاً شديداً بالرؤية التآمرية للتطورات ، فقد تطلعت إلى الظفر بمحطة راحة من الجدل العقيم حين لبيت دعوة للغداء وجهها فؤاد نصار لي ولمعين والذين شاركوا في السهرة السابقة . غير أن ما تطلعت إليه لم يتحقّق ، أو قل : إنه لم يتحقق بتمامه ، فقد انضم إلى الغداء ثلاثة لم يكونوا في السهرة : فايق ورّاد «أبو محمد» وإسحق الخطيب «أبو إسماعيل» وعيسى مدانات . وثلاثتهم أعضاء في قيادة الحزب . وفي المظهر ، فقط ، تماثل حديث الغداء مع حديث السهرة . أما في الجوهر فإن كلام هؤلاء الثلاثة اشتمل على إيماءات تشي بتأثرهم بالوضع السائد . لم يقل أي واحد من هؤلاء إن المزايدين على صواب ، إلا أن كلامهم أظهر افتتانهم بالتأييد الشعبي لسياسة المقاومة التي هي سياسة مزايدة . لم يقل أحد إن الكفاح المسلح الفلسطيني ، هذا الذي صرت أنت عارفاً بشأنه ، هو الذي سيحرر الأرض المحتلة ، إلا أن روح الاستهانة بالدول العربية وجيوشها النظامية تسربت عبر الكلام . لم يعلن أحد حماسه لشعار تحرير فلسطين من النهر إلى البحر وإزالة إسرائيل من الوجود ؛ لم يقل أحد إن هذا هو شعار واقعي أو أن من الجائز رفعه لمعارضة الدعوة إلى إزالة آثار عدوان ١٩٦٧ . لم يعترض أحد اعتراضاً سافراً على القرار ٢٤٢ الداعي إلى تسوية سياسية ، غير أن التشكيك بإمكانية التوصل إلى تسوية بسط ظله . لم يدافع أحد عن شطط المقاومة في استخدام السلاح داخل المدن الأردنية ، إلا أن الحديث تركز على حاجة الجمهور إلى البنادق كي تحميه من عسف السلطة . وبهذا كله ، لاح ذلك الميل الذي أقلقني وجوده

إلى تسويغ ممارسات المقاومة وسياستها ، غير السليم منها ، مثل السليم .

سهل عليّ بالطبع أن ألتقط الفارق بين حديث هؤلاء الثلاثة وبين حديث السلفيتي . أما حديث فؤاد نصار على الغداء فقد ماثل حديثه في السهرة . إلا أن الأمين العام للحزب بدا لي متحفظاً في الإدلاء بما يشي بميل إلى هذه الجهة أو ميل إلى أخرى . وأدركت أني إزاء قيادة حزب منقسمة في الرأي أو موشكة على الانقسام وأمين عام يحاول أن يبقي العصى في يده ويوازن بين طرفيها . ولم أجدني محايداً ، بل وجدتني متعاطفاً مع الرأي الذي يعرضه السلفيتي ، ساخطاً على الرأي الآخر .

وفي أيام التحضير لدورة المجلس ، لم يكن لحواراتي مع ناس الفصائل أن تنفعني أو تنفعهم . في الجبهة الشعبية ، حيث التشنج الأشدّ ضد عبد الناصر ، لم أجد من هو مستعد حتى للحوار معي . كان أصدقائي أنفسهم من أعضاء الجبهة يضيقون بما يعدّونه بثّي لروح الاستسلام . وكان زكريا أبو سنينة زميل النشاط في رابطة الطلاب ما أن يسمع مني جملة أو جملتين حتى ينصرف . أما تيسير قبعة فلم يكن يحاور إلا بالشتائم . وأما حكيم الجبهة جورج حبش فلم يستقبلني . ولئن قبل أصدقائي في الجبهة الديمقراطية محاورتي فلأنهم يحبّون الجدل ويتصيدون فرصه تصيداً ، لكن الحوار معهم لم يقدم ولم يؤخر ، فهم متمترسون وراء شعاراتهم فرحون بها ، وإن جابهتهم بما يخالفها فلن تظفر منهم إلا بالشفقة عليك ، وذلك في أحسن الأحوال . كان هؤلاء يتصرفون على أساس أن زمن الشعارات الكبيرة هو زمنهم هم بالذات . وكان حواتمه المنساق مع اهتمامه المستجد بالماركسية يشخص الحالة في الأردن بمقارنتها مع حالة روسيا وهي تتجه نحو ثورتها البلشفية ويبشر بقرب انتصار سوفيات العمال الأردنيين والفلاحين والجنود .

وقد ذهبت إلى حواتمه ، ليس لأني أملت في حوار مفيد ، بل لأنه كان

من المهم الالتقاء برجل يتصور أنه موشك على أن يقود الجمهور الساخط في عمان إلى قصر الحمّر ، قصر ملك الأردن ، ويسقط ملكه كما قاد لينين جمهور بطرسبرغ إلى قصر الشتاء في العام ١٩١٧ وأسقط قيصره . وذهب معي سعيد حمامي الذي قلما رأيت حواتمه في تلك الفترة إلا وهو معي . كنت يائساً من إمكانية حمل نايف على أخذ انتقاداتي الجادة بعين الاعتبار فلجأت إلى السخرية المبطنة . ولمّا كرر الرجل مقارنته الشهيرة عارضته بمقارنة أخرى : «أنا أرى أن الوضع يشبه الوضع الذي سبق ثورة ١٩٠٥ الفاشلة في روسيا ، وليس ثورة ١٩١٧ الظافرة» . لم أكن أرى الوضع في هذا النحو أو أجد وجهاً للمقارنة بين الأردن وروسيا . لكنني اخترعت المقارنة اختراعاً لأربك تحليلات الماركسي المستجد . وأعجبت هذه المقارنة سعيد حمامي الذي أدرك ما رميت إليه وتسلم الحديث . وأمعن سعيد في استنباط أوجه شبه بين ١٩٠٥ روسيا و١٩٧٠ الأردن . وأتقن سعيد الاستنباط حتى لقد أثر على مناظرنا وكاد يؤثر عليّ أنا الذي أدركت أنه يسخر . ولم يهتد حواتمه إلى ما يرد به ، فزاغ : «روح الاستسلام تحجب عنكما رؤية قدرات الجماهير . لكن حتى لو كان الأمر كما تقولان ، فإن ثورة ١٩٠٥ شكلت المقدمة التي لا بدّ منها لنجاح ثورة ١٩١٧» . تورط أبو خالد فأطلق لساني بسخرية سافرة : «هل أفهم من كلامك أن على الحركة الثورية أن تخطط لقيام ثورة فاشلة ، لأن الفشل مقدمة لا بدّ منها للنجاح !» .

في «فتح» ، كان اختلاط الآراء وغموض الرؤية واضطرابها أشد ، وكانت قواعد الفصيل الأكبر تفور بالحماس ، وقد بزّ يساريّو «فتح» يمينها في الهياج والتهييج ضد عبد الناصر ، واستخلصوا أن هذا هو أوان السعي للخلاص من النظام الأردني الذي أيد هو الآخر مبادرة روجرز . تصور المتحمسون أن إنشاء سلطة في الأردن رافضة للمبادرة وتحالف هذه السلطة مع سورية الرافضة

سيميلان بالكفة العربية كلّها ناحية الرفض ويرغمان عبد الناصر على التراجع . وبقي لهؤلاء وهمهم ، فاعتقدوا أن الاستيلاء على السلطة أمر في المتناول لم يبق من أجل بلوغه إلا أن تتخذ القيادة القرار اللازم .

من يساريي «فتح» ، قابلت وقتها ناجي علوش ، أنت تعرف أن ناجي كان بعثياً قبل أن ينضم إلى «فتح» ، ولك أن تعرف أنه كان في البعث معدوداً من المتشددين . وقد أضاف ناجي إلى أفكار البعث القومية مقتبسات من الماوية والتروتسكية والجيفاريّة ونقل الحصيلة إلى «فتح» . وفي هذا الفصيل المفتقر إلى النظريين من غير السلفيين ، برز ناجي بروزاً لم يتحقق له في حزب البعث . وكانت قيادة «فتح» تنبهر بتنظيرات المنضمين إليها من سقط الأحزاب اليسارية ، فتوفرت لناجي فرصة ترويج أفكاره وصار معدوداً بين نجوم اليسار الفتحاوي . وفي ذلك الوقت ، أوكلت القيادة إلى ناجي مهمة استطابها هو لأنها تليق بيساريته ، فصار مسؤولاً عن ما سمي تنظيم الميليشيا في عمان . وفي حديثي معه ، بدا ناجي واثقاً من أن عبد الناصر جاسوس أميركي ضالع في مؤامرة لتصفية القضية الفلسطينية ، وليس أقلّ من هذا . وشدد ناجي على أهمية المبادرة لإسقاط النظام الأردني ، وتكررت عبارة الخطوة الأولى لتحرير فلسطين . ولكي يقنعني بوفرة الإمكانيات اللازمة لإسقاط النظام ، قال ناجي إن تحت إمرته هو شخصياً ستين ألف مسلح من أعضاء الميليشيا وهم مستعدون كغيرهم للانقضاض على النظام . ولم يفت ناجي أن يعرّض بموقف عدد من قادة «فتح» الرافضين لاتخاذ القرار المناسب ويندد خصوصاً بموقف ياسر عرفات .

ولما سألت الإعلامي الذي هو ، أيضاً ، شاعر والذي صار قائد ميليشيا عن دقة الرقم الذي ذكره ومدى متانة تنظيم الميليشيا ، لجأ إلى ما يلجأ إليه أمثاله حين نجبههم بما قد يبطل تصوراتهم الرغبية ، فاتهمني بضعف إيماني

بالسلاح وقدرة الجماهير المسلحة على إتيان العجائب ، ولم يقر بما أعرفه أنا عن افتقار الميليشيا إلى التنظيم والتدريب أو بالأفكار والسياسات المشتتة التي توجه الجموع فتبلبلها .

ولم يتسن لي أن أختلي بأي من أصحاب القرار في «فتح» ، إذ أنهم جميعهم كانوا مستغرقين في المشاغل الطارئة . وقد خصني خليل الوزير «أبو جهاد» بتحية متوددة حين انضممت إلى الحشد الذي تغصّ به حجرة مكتبه وأفرد لي مكاناً قريباً منه ، لكنه لم يفرغ لي ولو للحظة . وهتفت لياسر عرفات ، وقلت صراحة إني طامع في خلوة ، فرد بحماس : «تعال حالاً» . وعندما جئت ، وجدت رجل «فتح» الأول رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير القائد العام لقوات الثورة محاطاً بحشد غير متجانس . وكان في الحشد قادة فلسطينيون وأردنيون وعرب آخرون ومسؤولون من مختلف المستويات ، كما كان فيه صحافيون وموظفون في مكتب القائد وناس من شتى الأصناف . وابتدرني عرفات بالسؤال الذي أتوقعه : «كيف يرى الإخوان في سورية الأمور ؟» . وكنت على يقين من أن الرجل يعرف ما أعرف أنا وأكثر إلا أنه شاء أن يسمع زواره مني ما سبق أن رواه هو لهم . ولم أكن في مزاج يأذن بأن أدخل في اللعبة ، فزغت عن الإجابة . ولم أظفر بالخلوة التي توخيت أن أحدّثه فيها عن هذا الأمر بالذات .

المشهد ذاته تكرر تقريباً عند صلاح خلف . ترحيب وحفاوة ، وحشد غير متجانس . هنا ، تميزت زيارتي بحديث هامس . وضع أبو إياد في أذني سؤالاً عن تقديري لانعكاس الخلافات الداخلية في سورية على الموقف إزاء ما يجري في الأردن ، وسمع مني إجابة هامسة : ستتفاقم الخلافات كلما اشتد تأزم الوضع هنا ، ومن غير المستبعد أن ينشق البعثيون بعضهم عن بعض . ووضعت في أذن محدثي بدوري السؤال الذي يقلقني : إلى أين سيفضي

هذا الجنون ؟ وتلقيت الرد المهموس : تلفّ الدوامة الجميع بغير رحمة وما من أحد يعرف ما ستؤول إليه الأمور ، إلا الله .

وبحثت عن محمود عباس «أبو مازن» فلم أقع عليه ، وفي ظني أنه كان سيخصص لي خلوة أياً كانت الظروف .

في هذا الجو ، تسنى لي أن أتعرف على الدكتور عصام السرطاوي . درس هذا الفلسطيني اللاجئ إلى العراق الطبّ وتخصص في جراحة الأعصاب في الولايات المتحدة وبلغ في تخصصه درجة رفيعة . غير أن المسكون بالهاجس العام لم يمارس اختصاصه المتميز ، وما أن رجع إلى المنطقة التي تلفّها الأزمات حتى بحث لنفسه عن دور فيها . وقد قاد البحث صاحبه إلى القاهرة ، وفيها وقع عصام على شلّة من اللاجئين السياسيين العرب الذين تؤوي عاصمة عبد الناصر كثيرين منهم . وكان أعضاء الشلّة يعانون من الرتابة ويبحثون عن تسليات يزجون بها وقت فراغهم المديد . وكان لهؤلاء مجلس دائم في مقهى لبّس في وسط المدينة وفيه التقاهم عصام وباح لهم برغبته في مقابلة عبد الناصر والاهتداء بإرشاداته فأوهموه بأنهم قادرون على تحقيق رغبته وأوقعوه في قبضة عبثهم .

وقال المتسلون بالرجل إنهم أبلغوا أمره إلى الرئيس عبد الناصر ، وأوهموه بأن الرئيس معجب بطموحه ومواهبه ، ومنوّه بموعد قريب . وكان طموح عصام أن يؤسس فصيلاً فلسطينياً جديداً ، متصوراً أنه قادر على أن يأتي بما يبزّ الفصائل القائمة . غير أن المتسلين بالشاب المتحمس أفهموه أن الرئيس يرى أن الساحة مكتظة بالفصائل المتفرقة وأنه يتمنى أن يفعل القادم الجديد شيئاً لتوحيدها . وفي هذا ، مع إيهام عصام بأن عبد الناصر متابع لجهده ، تبلورت فكرة : أن يؤسس عصام الهيأة العاملة لتوحيد المنظمات الفلسطينية . وصاغ عصام فكرته في مشروع مكتوب سلمه لجلساء لبّس وقرنه بمذكرة إيضاحية .

وبعد أخذ ورد اقتضتهما طبيعة اللعبة والحاجة إلى التسلية ، جاء المتسلون آخر الأمر بالبشارة لعصام : أعجب المشروع الرئيس وفتنته المذكرة وتعهد تقديم الدعم . وأطلق عصام دعوته لتوحيد الفصائل وأنشأ الهيأة العاملة على توحيدها وجنّد لها همته الطازجة .

توهم العازم على التوحيد أن الاستجابة ستكون واسعة ، إذ ما الذي يمنع أن يستجيب الناس إلى دعوة جليلة ! لكن التوزع على فصائل عدّة ، هذا الذي أنبتته مصالح متباينة ، كان قد أنبت بدوره مصالح تعزز الفرقة ، فلم يقع عصام إلا على قليلين . ثم لم يلبث أن صار للفصيل الذي أسسه عصام مصالح تدفعه إلى الاستمرار بدون التوحيد . وبالرغم من أن الفصيل الجديد ظل محدود عدد الأعضاء ، فإن عصام لم ينكص . ولم يلبث أن انهمكت الهيأة العاملة في حمى المزايدات الرائجة واشتهر أمر عصام وفصيله بأنهما من أشدّ المتشددين . وكما يحدث كلما ظهر فصيل جديد ، سعى الصحافيون الذين يجوبون الساحة إلى التعرف على زعيمه . وبين هؤلاء ، كان صحافي مصري غريب الأطوار بعض الشيء مختلط الدوافع هو سعد زغلول فؤاد الأشدّ اندفاعاً نحو عصام . وعلى كثرة ما حاولت أن أتقصى دوافع سعد الذي أعرفه فإني لم أصل إلى يقين فنسبت الأمر إلى غرابة أطواره وغرابة أطوار عصام ذاته .

ولعل من المفيد أن تعرف شيئاً من تاريخ المصري غريب الأطوار هذا . فقد كان سعد صحافياً في دار الهلال في القاهرة عندما ثار الضباط الأحرار واستولوا على السلطة في مصر . وربطت سعد بواحد من مشاهير هؤلاء الضباط هو أنور السادات صلة خاصة يبدو أنها نشأت قبل الثورة . وعندما أذنت قيادة الثورة بقيام عمليات مسلحة ضد القواعد البريطانية في منطقة قناة السويس للضغط من أجل إرغام قوات الاحتلال البريطاني على الجلاء عن

مصر، انهمك سعد في هذا المجال، ليس بوصفه صحافياً فقط بل بوصفه فدائياً أيضاً. وآثر سعد أن يعمل منفرداً، فراح يستثمر صفته الصحافية ليجول في المنطقة ويتصيد فرصة الإيقاع بهذا أو ذاك من البريطانيين. وقد ضرب سعد مرة ضربة كبيرة، ذلك أنه وقع على بريطاني يلبس ملابس مدنية لم تستر سمته العسكرية. وقع سعد على البريطاني صدفةً في أحد بارات المنطقة، فداهمه، واعتقله، ونقله إلى القاهرة بسيارته واحتفظ به في شقته التي يشاركه السكن فيها طالب طبّ من معارفه. ارتهن سعد البريطانيّ في الشقة وقرر أن يبلغ أمره إلى أنور السادات. ولأن سعد خشي أن يفلت البريطاني من يدي طالب الطب أثناء غيبته هو عن الشقة فقد نصحه بأن يحقن الرهينة بمخدر. وما أن واجه سعد السادات حتى اتضح أن المرتهن ضابط عالي الرتبة في المخابرات البريطانية وأن بريطانيا التي تفاوض المصريين على الجلاء تطالب بجلاء مصيره وتهدد بقطع المفاوضات إن تعرض لأي سوء. وبدل أن يتلقى سعد التقريظ الذي توقعه، داهمه حنق السادات وتقريعه وتهديده إيّاه باقتياده إلى السجن. والأخطر من هذا وقع حين وصل رجال المخابرات المصرية إلى الشقة وعاينوا ما حل بالمرتهن فيها. فقد حقن طالب الطب أسيره بكمية كادت تودي بحياته ولم يبح لنفسه، هو المؤتمن على سر خطير، أن ينقله إلى المستشفى لإسعافه. ولحقت بجسد البريطاني ودماغه أضرار لم يعد من الممكن تلافيها. ولهذا السبب، آثر الجانب المصري مواصلة الادعاء بأن لا علم له بمصير الرجل. ثم طويت المسألة بعد أن عجز الجانب البريطاني عن التقاط أي دليل يدين المصريين. ولم يلبث أن ظهر الضابط في شوارع باريس وقد اعتلّ جسده وفقد الذاكرة.

سمعت هذه وغيرها من حكايات سعد من أصدقائي المصريين قبل أن ألقاه. ثم تسنى لي أن ألقى غريب الأطوار هذا حين وصل فجأة إلى دمشق،

واتصل بي على رقم هاتفي الذي زوده به صديق مشترك ، وطلب أن يحلّ في منزلي وصارحني بأنه بحاجة إلى الاختفاء عن الأنظار لبعض الوقت . ومن فم ضيفي ، سمعت حكاية جديدة . فقد رافق سعد جماعة من أنصار أحمد جبريل أثناء تنفيذها عملية اختطاف طائرة إسرائيلية في أجواء أوروبا والتوجه بها الى الجزائر . ويبدو أن الصحافي المصري قد رافق الخاطفين دون إذن من المخابرات المصرية التي كانت على صلة بالعملية وأنه اطلع على ما لا يجوز الاطّلاع عليه من أسرار العملية ، فصار ملاحقاً . وبقي سعد مختفياً في منزلي ، حيث تأسست صداقتنا ، إلى أن سُويت أموره مع ملاحقيه .

وعندما تقرب سعد بعد ذلك من هيأة عصام العاملة ، أوهم زعيم الهيأة بأنه معجب به راغب في أن يصير من أنصاره فمنحه عصام غير الخبير بألاعيب هذا النوع من الصحافيين عضوية الهيأة وأولاه ثقته بعد أن أقسم سعد كما يقسم أي عضو على أن يطيع الأوامر ويصون الأسرار . ولم يحتج سعد إلى وقت طويل ليكتشف ضآلة حجم الهيأة وسذاجة الأفكار التي توجهها ، فانطفأ فضوله وترك الهيأة وأطلق لسانه بالسخرية من عصام . نسي الصحافي قسمه ، وجانبه الحذر ، و أفرط في الاستهانة بالهيأة وزعيمها . ولم يرَ عصام في سلوك سعد أقلّ من مؤامرة دبرتها الرجعية والصهيونية والامبريالية للإساءة إليه وإلى مهمته الجليلة ، فاحتسب سعد جاسوساً وتصرف إزاءه على هذا الأساس . وهكذا ، اعتقلت الهيأة سعداً وحبسته في مكان معزول وحققت معه وأخضعته لتعذيب قاسٍ ، وصدر حكمها عليه بالإعدام .

كان من الممكن أن يختفي سعد إلى الأبد لو لم يعلم صديقه وصديقي سعيد حمامي بأمره . وقد حثني سعيد على التحرك لإنقاذ صاحبنا قبل أن يُنفذ فيه حكم الإعدام . وكان أن اتبعنا أقصر الطرق وأنجعها فأبلغنا الأمر إلى

ياسر عرفات الذي يعرف سعداً معرفة شخصية منذ كان هو الآخر منهمكاً في عمليات المصريين ضد القوات البريطانية في قناة السويس . وبدوره ، اتبع عرفات أقصر الطرق ، فأرسل جماعة مسلحة من «فتح» فحررت صاحبنا . ونجا سعد من الإعدام وبقي له من التعذيب تأثير ضربة شديدة تلقاها على رأسه والكوابيس التي ظلت تلاحقه . وبعد أن ظفرنا بإنقاذ صاحبنا ، قدرنا أن عصام ، الذي رضخ على مضض لتدخل عرفات ، قد لا يكفّ عن ملاحقة من يعدّه هو جاسوساً . وفي تلك الزيارة إلى عمان ، ارتأينا ، سعيد وأنا ، أن نتوجه إلى عصام ونحاوره ونليّن سخطه . وهذا هو ما أوصلني إلى عصام وهيأ لي فرصة التعرف عليه .

وجدتني إزاء رجل تضطرم في شخصيته حزم من المتناقضات دون أن يبدو عليه أنه متناقض مع نفسه . كان الرجل يلبس زي المقاتلين ، إلا أن زيّه هذا كان صارخ الأناقة حتى ليمكن الظن بأنه وصل للتو من باريس من عند بيير كاردان ؛ وكان ينتقي لحديثه ألفاظاً منتقاة من قاموس الثقافة الرفيعة حتى حين يتحدث عن القتل أو إبادة الآخرين ؛ وكان يجلس وراء مكتب أنيق حلّت فوقه أدوات لا تقل أناقة ، فيما وقف خلفه حارسان مسلحان جهمان يفرطان في إظهار اليقظة وأسندت بندقية جاهزة للإطلاق بقربه هو على حافة المكتب . وقد تلقانا عصام بلياقة إلا أنه لم يجاملنا . ولئن استخدم الرجل في حديثه معنا تعابيره المنتقاة فإن هذا لم يجعل الحديث أقلّ قسوة . أخذ عصام علينا تدخلنا في شأن قال إننا لا نعرف ملابساته ، وألمح إلى أننا قد نكون ، نحن نفسينا ، جاسوسين مثل سعد . ولكن حال عصام معنا تبدل وانقلب إلى النقيض حين قلنا له إننا نجيئه راغبين في التفاهم حريصين على أن لا يتورط هو العالم المثقف في ما يتورط فيه الجهلاء . وإذا بنا إزاء محدث بارع ، متمتع بمعرفة موسوعية ، في العلوم والآداب والفنون . ولم تكن هذه حالة

ازدواج شخصية من أي نوع ، بل حالة شخصية مركبة من نوع خاص . ولئن لم أظفر في هذا اللقاء بصداقة عصام فإن باب الظفر بها لم يبق مغلقاً .

الصحافيون الذين توافدوا لتغطية أنباء الدورة الاستثنائية للمجلس الوطني الفلسطيني ، كان لي بينهم معارف وأصدقاء كثيرون فصار لا بد من أن أنشغل بهم .

جاء طلال سلمان من بيروت . بقي صديقي اللبناني مسكوناً بعواطفه الناصرية بالرغم من معارضته لمبادرة روجرز وقبول عبد الناصر لها ، كما بقي على التزامه تأييد المقاومة الفلسطينية بالرغم من هجومها الشرس على عبد الناصر ، وبقيت له عواطفه الخاصة التي تشدّه إلى الجبهة الشعبية وأمينها العام د . جورج حبش ، بالرغم من أن هذه الجبهة بزّت الجميع في الحملة على الرئيس المصري . توزعت مشاعر طلال ، أو قل إنها تباينت بين ثقته بسلامة حس عبد الناصر القومي وحكمته وبين اعتقاده بأن مشروع التسوية الأميركية مؤامرة والقبول به خطيئة . وكان من المثير مراقبة ردّ فعل طلال الذي عدّ قبول عبد الناصر المبادرة مناورة وأيد حق المقاومة في الاعتراض عليها ووازن بين تبايناته بالدعوة إلى إطفاء الخصومة بين الجانبين .

من مصر ، جاء كثيرون ؛ بعضهم جاء بدافع الفضول الشخصي ، وبعضهم أرسلته المؤسسات الإعلامية التي تملكها الدولة . وقد انتقت المؤسسات رسلها من بين المشهود لهم بأنهم أصدقاء حميمون للمقاومة الفلسطينية . وقد ضم الحشد عدداً كبيراً من نجوم الصحافة المصرية . وكان من هؤلاء محمد عودة وأحمد بهاء الدين ولطفي الخولي وحسين عبد الرازق وأمين هويدي ومصطفى الحسيني ومصطفى نبيل ، كما كان منهم جلال السيد وإحسان بكر ومكرم محمد أحمد وآخرون لا تحضرني الآن أسماؤهم . وكان هؤلاء من الذين ألفوا أن يلقوا أتم الحفاوة من قادة الساحة الفلسطينية ، إلا أنهم عوملوا هذه المرة

بجفاء ظاهر . ويبدو أن الغضب المنفلت من أي ضابط قد أجج موجة عداء ضد السياسة المصرية فشمل أيّ مؤيد لهذه السياسة وأي ساكت عنها ، كما شمل هؤلاء الصحافيين الذين دعوا إلى رأب الصدع . وقد تهيب حتى أعقل القادة من التجذيف ضد التيار ، ولم يجرؤ قائد فلسطيني على إظهار الترحيب المألوف بالصحافيين المصريين .

حاولنا ، أنا والذين لم تأكل الموجة الهائجة عقولهم ، أن نفعل شيئاً لكسر الأجواء التي أحيط بها أصحابنا . فراجعنا قادة كثيرين وحثثناهم على التمييز بين الإختلاف في الرأي وبين متطلبات الاعتراف بالجميل والاحتفاظ بصداقة الأصدقاء المجربين . لكننا لم نلق إلا استجابات حييّة أو وعوداً لا يلبث أن يتنصل أصحابها منها . وكان أجرأ القادة على اتباع السلوك المطلوب هم الذين قبلوا أن يستقبلوا هذا أو ذاك من صحافيي مصر دون إعلان .

والحاصل أني وجدتني محرجاً إزاء هذا الوضع كأنني أنا الموكل باستقامة العلاقات مع صحافيي مصر وانتظام تدفقها . وفي سعيي المثابر إلى تحقيق شيء ، أي شيء ، توجهت إلى قائد الصاعقة ، عضو القيادة القومية لحزب البعث الحاكم في سورية ، الأردني ضافي الجمعاني . لم تكن صلتي بهذا القائد أوثق من صلتي بغيره ، لكني ظفرت منه بما لم أظفر به من سواه . وحين زرته ، كان أبو موسى ، وهذه هي كنية الرجل ، قد رجع لتوه من مصر . شارك الرجل في الوفد الذي ترأسه عرفات ، الوفد الذي شكل على عجل قبل أيام من افتتاح دورة المجلس الوطني وتوجه إلى الاسكندرية وأجرى مع عبد الناصر محادثات مستفيضة بأمل إنقاذ ما يمكن إنقاذه .

وقتها ، وسط ضجيج الحملة على عبد الناصر ، استشعر ياسر عرفات وعدد من القادة الآخرين المخاطر المحدقة ، وخشي القادة ، خصوصاً ، أن يستثمر النظام الأردني الفرصة فيبادر إلى تصفية حساباته بالقوة مع المقاومة . فتشكل

الوفد على عجل وسافر أعضاؤه متعجلين وقف التردي مجازفين بمواجهة سخط الجمهور الفلسطيني عليهم ، حتى أنهم في عجلتهم وارتباكهم لم يحملوا معهم حقائب سفر . وقد روى لي أبو إياد الذي لقيته فور عودة الوفد إلى عمان تفاصيل اللقاء مع عبد الناصر . كان الرئيس مستاءً من ضراوة الحملة التي استهدفته وشناعتها ، فخالف عادته المألوفة في استقبال وفد يرأسه عرفات ، فلم يظهر خارج حجرة مكتبه ليرحب به كما جرت عليه هذه العادة ، بل رتب الإستقبال بحيث يدخل أعضاء الوفد الحجرة فيما هو جالس وراء مكتبه ولم يقف لتحية القادمين عليه إلا بعد أن اقتربوا منه . وفي هذا الجو المشحون بالاستياء ، مدّ عبد الناصر للمصافحة يداً مسترخية ، وجلس فور انتهاء المصافحات ، ثم أخذ يعبث بأصابعه برزمة جرائد موضوعة أمامه ، وتساءل : «إذاً ، . يا أبو عمار ، عبد الناصر خائن ؟» . وإزاء شدّة الاستنكار الذي ينطوي عليه السؤال ، هتف عرفات : «خائن يا ريّس من يقول عنك إنك خائن» . ولم يؤخذ عبدالناصر بمحاولة التهدئة هذه ، بل استلّ واحداً من أعداد الرزمة وعرضه على زواره وهو يقول : «إنها جريدتكم ، جريدة ، فتح ، هي التي تقول هذا» . وكان مانشيت عريض باللون الأحمر يتصدر عدد جريدة «فتح» واصفاً القبول بمبادرة روجرز بأنه خيانة .

هذه المواجهة أربكت عرفات بالطبع . فراح الزعيم الفلسطيني المحرج والمثقل بأعباء المسؤوليات يردد عبارات غير مكتملة فيما هو مشغول بالبحث عن عبارة ملائمة دون أن يهتدي إليها . وزادت حراجة الموقف ، وبدا أعضاء الوفد كأنهم واقعون في مصيدة خانقة . وضافي الجمعاني هو الذي حرر الوفد من المصيدة . فهذا الرجل الذي يحتفظ بفطرة البداوة واجه عبد الناصر بنظرة مباشرة وهتف بغير مقدمات وغير استئذان : «نعم أخطأنا ، وجئنا الآن لنستسمح ونطلب المعذرة ، والكريم هو من عذر !» . وما كان لشيء أن يثقب

الدائرة البغيضة إلا صدق هذا الرجل .

وما أن فرغ أبو إياد من روايته حتى استحضرتُ ما أعرفه من أريحية ضافي الجمعاني وشهامته فتوجهت لتوي إليه واقترحت عليه أن يستقبل الصحافيين المصريين . لم يكن أبو موسى من محبّي الأضواء ، وقد تصورت أني محتاج لجهد كبير كي أقنعه باستقبال صحافيين . غير أن الرجل لم يحوجني إلى الإفاضة ، فقد أدرك الوضع بسهولة وقدر دوافعي وأيدها وفاضت نخوته : «هؤلاء إخواننا وواجبهم علينا كبير» . يومها ، أصدر أبو موسى تعليماته لمعاونيه ، فحجز هؤلاء مطعماً كبيراً ، ودعا المصريين جميعهم إلى وليمة عشاء علنية ، وخولني أن أدعو إليها من أشاء .

وليمة العشاء شهدت واحداً من أصدق الحوارات العلنية التي جرت في ذلك الظرف . انفتحت القلوب على القلوب دون بغضاء فجرى حوار من أصرح الحوارات التي شهدتها في حياتي . وها أنا ذا أتذكر هيأة أحمد بهاء الدين المفتون بصدق مضيفه وبساطته وصراحته وهو يسأل السؤال الحساس : «هل تنوون حقاً إسقاط العرش الأردني ؟» ، فأتذكر إجابة ضافي الموجزة : «لا» . وقد انداح صدى هذه الـ «لا» في المكان الفسيح وبسط صمتاً مفاجئاً أحكمته مخالفة هذه الإجابة لما هو رائج بشأن موقف المقاومة الفلسطينية وسورية كليهما . وبعد لائه البليغة ، توجه أبو موسى إلى سائله : «ألا تحبّ أن تعرف لماذا لا نريد إسقاط العرش» . فظهر التوق إلى المعرفة على وجوه الحاضرين جميعهم ، ولا بدّ من أنه كان بينهم من توقعوا أن يتلقوا شرحاً مستفيضاً . أما أبو موسى فقدم شرحه في جملة واحدة : «إن أسقطنا العرش فسنتهاوش عليه» . وبالرغم من أن معظم المصريين لا يعرف لفظة نتهاوش البدوية العامية هذه ، فقد كان المعنى جليّاً . ومع ذلك ، تطوعت أنا بتقديم إيضاح : «أراد أبو موسى أن يقول إن الفصائل الفلسطينية ليست متفاهمة ولا

موحدة إلى الدرجة التي تجيز لها الأمل باستلام السلطة . ولو أمكن حقاً إسقاط النظام الأردني فلن يلبث أن يتعارك مسقطوه في ما بينهم فتحلّ الفوضى» . وقد أصغى أبو موسى إلى إيضاحي بادي الإعجاب به ثم هتف : «تمام ، عداك العيب يا طيب !» .

في الجوّ المحموم الذي كان يعصف بعمان ، شاعت حكاية اعتذار ضافي الجمعاني لعبد الناصر والوليمة التي أقامها بعد ذلك للصحافيين المصريين وما قاله فيها ، فأججت سخط المزايدين على الرجل الطيب . ولأن الرجل كان عضواً في قيادة الحزب الذي يحكم سورية ، فقد ذهب الذين يستنبطون أشياء كبيرة من وقائع عادية إلى حدّ الزعم بأن سورية موشكة على تبديل موقفها الرافض لمبادرة روجرز والانضمام إلى القابلين بها . كل هذا ، دون أن يكون الجمعاني أقلّ تشدداً إزاء السياسة الأميركية من سواه أو تكفّ سورية عن معارضتها أيّ دعوة إلى التسوية مع إسرائيل .

وفي هذا الجو ، انعقدت دورة المجلس الوطني الفلسطيني التي سميتها أنا الدورة المجنونة .

٩

القتال والإذاعة وجهاز الحاج مطلق

كان مجمع النقابات المهنية في عمان يشغل المنبى الذي ما يزال يشغله الآن . وكان هذا المبنى ينتصب منفرداً وسط براري منطقة الشميساني التي لم تكن مأهولة . هنا ، احتشد أعضاء المجلس الوطني ، العاملون والمراقبون ، وزعماء الحركة الوطنية الأردنية ، والمراسلون الصحافيون ، والضيوف الكثيرون ، ومن يحفّون بهؤلاء جميعاً من حراس ومرافقين ومساعدين وفضوليين . اكتظ المبنى بالناس حتى صار من العسير أن يجد القادم المتأخر مكاناً يقف فيه ، كما اكتظ بالضجيج حتى صار من الصعب أن يسمع متحدث صوت محاوره ما لم يلجأ كل منهما إلى الصياح . وعندما دعي الأعضاء إلى دخول قاعة الاجتماع ، تزاحم المحتشدون على شغل مقاعد القاعة ووجد بعضهم مكاناً يقف فيه في ممراتها ، وبقي كثيرون خارجها .

وقفت وراء المقاعد . ومن موقفي ، راقبت ما يجري في القاعة ، وخصوصاً ما يجري على المنصة التي تتصدر الجهة المقابلة وبقيت على صلة بالمنتشرين خارجها . وقد تناوب على المنبر الراغبون في إفراغ ما يثقل على أجوافهم ، فسال كلام كثير . وبدا لي أنني إزاء مباراة يتنافس فيها المزايدون دون ضوابط . دون كيشوتات أحصنتهم الرغبات والأوهام ورماحهم الجمل الطنانة . كان

بإمكان أيما أحد أن يتكلم ، ضيفاً أو عضواً ، مدعواً أو طارئاً . فقد تعذر على رئيس المجلس التمييز بين طالبي الكلام أو المبادرين إليه دون طلب لكثرة العدد . وكان بإمكان أي متكلم أن يقول أي كلام ، في الموضوع الذي انعقدت الدورة لمناقشته أو في أي موضوع آخر .

وأنا أتذكر واحداً من المتكلمين أدهشني وجوده بيننا قبل أن يدهشني كلامه . قُدّم هذا إلى الحاضرين بوصفه أميركياً يمثل حركة الفهود السود في الولايات المتحدة . وكانت هذه وقتها حركة ذائعة الصيت . فثار فضولي : ما الذي جاء بممثل هذه الحركة إلى اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني . لم يرد السؤال بغير سبب . فقد كنت أعرف أن الحركة التي تناضل من أجل حقوق الأميركيين الأفارقة تتجنب ما يثير ضدها سخط اليهود ولا يشغلها ما يشغل أيما عرب أو يوقع الخصومات بينهم . فتقصيت الأمر ، فوقعت على الحكاية وسرّها . فقد التقى جماعة من إعلاميي «فتح» في بيروت جماعةً من السواح الأميركيين ذوي البشرة السوداء . فاغتنم الإعلاميون الفرصة وساوموا أفراد الجماعة : ندفع أكلاف إقامتكم في لبنان وننقلكم إلى عمان ونوفر لكم فيها إقامة طيبة ، وكل هذا مقابل أن يلقي واحد منكم كلمة هناك ، نكتبها نحن له . وكان الذي ألقى الكلمة جهير الصوت ، طنان النبرة ، كثير الحركة . ويبدو أن الرجل تصور نفسه في مشهد تمثيلي وأن تسليط أضواء المصورين عليه عزز تصوره ، فملأ القاعة صخباً ، وأجج الهياج العام بأشدّ مما فعل أي متكلم . ولم ينتبه إلا قليلون بعد ذلك إلى البيان الذي أصدرته حركة الفهود السود ونفت فيه أن يكون أي من أعضائها موجوداً في الشرق الأوسط لأي غرض كان .

وفيما توالت الخطب على المنبر ، نشطت الحوارات في الكواليس ، وحاول المتعقلون التقليل من أذى الهياج العام . لكن ، ما من أحد جرؤ على الجهر بمخاوفه . وكان أعضاء الوفد الذي التقى عبد الناصر في عداد هؤلاء .

الشاذ الوحيد عن هذا الجوّ كان هو الزعيم الأردني سليمان النابلسي . جيء بالرجل الى الاجتماع بعد ممانعة منه ، فجاء إليه مكرهاً وأخرج بعض ما في جوفه ، فكان مختلفاً عن غيره . وها أنا ذا أتذكر الملابسات : إتخذ أبو فارس ، وهذه هي كنية الرجل الكبير ، موقفاً ثابتاً في تأييد المقاومة الفلسطينية وساند حقها في التواجد في الأردن ومقاومة الاحتلال الإسرائيلي انطلاقاً من أرضه . غير أن الرجل لم يخف ضيقه بالتجاوزات ولم يقصر في التحذير من مخاطرها . وكان أشد ما ضاق به زعيم الحركة الوطنية الأردنية هو محاولة المقاومة جعل هذه الحركة تابعة لها . وقد بلغ ضيق الرجل ذروته حين انفجر الهياج ضد عبد الناصر وأظهر معارضته السافرة للحملة التي استهدفت الزعيم العربي الكبير . وعندما تلقى أبو فارس الدعوة لحضور دورة المجلس الوطني ضيفاً كبير الشأن ، تردد في قبولها . وهو الذي قال لي إنه خشي أن يعدّ حضوره تأييداً للهجوم على عبد الناصر فآثر الابتعاد . وعندما افتتحت الدورة ، افتقد كثيرون حضور الرجل . ولتدارك الأمر ، توجه وفد من قيادة المقاومة إلى منزل النابلسي وهاتفه عرفات مدعّماً مهمة الوفد وراجياً إياه أن يحضر . جرى هذا فيما كان أبو فارس يعالج أساه بالكؤوس التي يبدو أنه أفرط في تناولها لشدة الأسى . ولأن العلاج الذي لجأ إليه يلين الإرادة ، فقد استجاب النابلسي للرجاء وجاء مع الوفد إلى الاجتماع ثم تحامل على نفسه ووقف على المنبر . وفي كلمته ظل الرجل صريحاً وجهر بموقفه بتمامه .

وتحتفظ ذاكرتي بطرفة رواها أبو فارس في معرض انتقاده لاستهانة المقاومة بالحركة الوطنية الأردنية . قال الرجل إنه كان عائداً ذات مساء إلى منزله بعد سهرة في الجوار ففوجئ بأن جماعة فلسطينية مسلحة أقامت حاجزاً قريباً من المنزل . وعندما جاء الأمر المألوف : «قف ، من أنت ؟» ، ظن صاحب الاسم الشهير أن ذكر اسمه سيفتح له الطريق مع الترحيب ، فجهر

بالاسم إلاّ أن الطريق لم ينفتح ، بل جاء أمرٌ جديد بنبرة منذرة : «انبطح !» . وعزّ على الزعيم أن ينبطح فصرخ بنبرة المستاء : «ولك ، أنا أبو طز !» . ولدهشة الرجل ، فتحت «أبو طز» هذه الطريق . وكان مغزى الطرفة سافراً لمن يعرف الوضع : فأبو أي شيء حتى وهو أبو طز ، أي أيُّ منتسب إلى المقاومة أهم عند ناسها من سليمان النابلسي .

والواقع أن كلمة النابلسي على اضطرابها بسبب حاله لم تبق بغير تأثير . إلا أن تأثيرها في القاعة تلاشى بعد أن توالى على المنبر كثيرون من فرسان الجمل الثورية مظهرين أن أي «أبو طز» مقاوم لا بد من أن يعد في هذا المزيج من الجنون والاستهانة أهم من أي عاقل .

محصلة الدورة تمثلت في بيان وقرارات صادق عليها الحاضرون ، الأعضاء وغير الأعضاء ، بالتصفيق دون عدّ الأصوات . وقد تكرر هنا التعبيرعن ما صرت تعرفه من مواقف . وجرى التأكيد على أن المقاومة الفلسطينية هي الطليعة الثورية للأمة العربية كلها . وكلفت القرارات القيادة الفلسطينية تشكيل هيأة شعبية عربية تمثل أمة العرب وتقود نضالها ضد الصهيونية والامبريالية والعملاء . استخدمت كلمة العملاء وتكررت للدلالة على القابلين بمبادرة روجرز ولم يُسم عبد الناصر باسمه . وقد أفلحت جهود المتعقلين القليلين في شيء واحد : تجنب ذكر عبد الناصر باسمه في معرض إدانة سياسته .

لاحظ أن هذا وقع قبل أيام من حلول أيلول/سبتمبر ١٩٧٠ . وتصور ، إذاً ، كم كان التباين صارخاً بين القول وبين واقع الحال !

مثابرتنا على مواجهة الشطط في التعامل مع الصحافيين المصريين أفلحت في اجتذاب الانتباه إلى مخاطر الخصومة مع مصر . وقد نجحنا في اكتساب تأييد عدد آخر من القادة لإجراء حوار مع هؤلاء ، فلم يبق أبو موسى وحيداً

في هذا المجال . وقد انتظمت بعد انفضاض دورة المجلس ندوة حوار مفتوح مع الصحافيين المصريين . وانضم إلى الندوة عدد من المفكرين والمسؤولين الفلسطينيين . وفي الحوار ، تعرض المصريون لاستفزازات كثيرة ، لكنهم صبروا ، وكنت أنا أحثهم على الصبر . وقد كررت أمام الأصدقاء ما سمعته مراراً من خالد بكداش : «الفلسطيني ابن شعب مظلوم وعلينا أن نعينه في أي ظرف ولا يجوز أن نقاطعه بسبب أخطائه أو نكف عن تقديم العون له . خطأ المظلوم يعامل بالسعي المثابر لتصحيحه ، وليس بالعقوبات» .

في الحوار ، برز أحمد بهاء الدين . انطلق المشهود له بالحكمة والتعقل من حبّه الثابت للفلسطينيين وصدقه في التعامل معهم وحرصه على أن تستقيم ممارساتهم وتصير أكثر نجاعة ، وواجه المزايدات بأناة وتبصر ، وكسب أتمّ الاحترام . أما فرسان الجمل الثورية فكان منهم كثيرون ، وقد ملؤوا القاعة بصخب لا غناء فيه .

أتذكر من المتحدثين واحداً كان من نجوم العمل الفلسطيني هو الخليلي المقيم في عمان عبد الخالق يغمور وهو واحد من مؤسسي م . ت . ف . شغل عبد الخالق منصب أمين سر اللجنة التنفيذية في عهد رئاسة الشقيري للمنظمة ، وبقي طيلة حياته المديدة رافضاً لأي حل للقضية الفلسطينية إلا أن يكون الحل الذي يفضي إلى تحرير فلسطين بكاملها وإزالة دولة اسرائيل وإعادة اليهود غير الفلسطينيين إلى البلاد التي وفدوا منها . وفي موقفه هذا ، انطلق الرجل من مقولات ثابتة لا تزعزعها في ذهنه أي تبدلات : جاء اليهود بمعظمهم إلى البلاد غزاة في حماية الاحتلال البريطاني لها ، اغتصبوا أرض الشعب الفلسطيني وممتلكات ناسه وحقوقه وواصلوا العدوان والتوسع وأبوا أن يقرّوا لأهل البلاد بأي حقوق ، ولا حل إلا بإعادتهم من حيث جاءوا . وكان الرجل كما ينبغي أن يقال صادقاً في إيمانه بهذه المقولات ، لم يزعزع إيمانه أيّ

كلام عن الواقعية وموازين القوى وتشابك العلاقات الإقليمية والدولية . وفي الحوار ، وقف عبد الخالق ليدحض ما عرضه أحمد بهاء الدين المؤيد لحل يستند إلى الشرعية الدولية وما عرضه فلسطينيون يدعون إلى قيام دولة ديمقراطية واحدة في فلسطين يعيش العرب واليهود فيها بحقوق متساوية : «تريدون أن أقبل دولة واحدة وأعيش مع اليهود فيطيل ابني شعره ويصير له شاليش وتلبس ابنتي البنطلون القصير ، هذا رابع المستحيلات» . ختم الرجل مداخلته في هذا النحو ، ثم غادر المنصة ساخطاً على الذين يدفعون الأمور في هذا الاتجاه . وقد ملت ناحية أحمد بهاء الدين حين عانيت أساه إزاء ما سمعه ، واجتذبت انتباهه إلى صعوبة إقناع الفلسطينيين بما يعرضه . فهز أحمد رأسه هزّات متأنية دون أن يقلّ أساه .

قلت لك إني سميت دورة المجلس ، هذه ، الدورة المجنونة ، ولعلك اقتنعت بأني لم أبالغ .

بعد عاصفة الدورة ، جاءت العواصف الأشد . تصور عبد الناصر أن الشروح التي تبسط في عرضها كافية لجعل دوافعه إلى قبول مبادرة روجرز مفهومة ، وتوقع أن يعمد قادة المقاومة إلى إطفاء الهياج . وقد ساء الرجل المثقل بالمسؤوليات الكبار أن يبقى الهياج وأن يشار إليه هو في بيان المجلس الوطني بما يشكك فيه ويضعه في منزله عملاء الأمبريالية . ولم يكن للجانب الأردني العازم على حسم ازدواجية السلطة في البلاد أن يجد جواً أنسب له من جو القطيعة بين م . ت . ف . ومصر ليصفّي حساباته المتراكمة مع المقاومة . بلغ الطين درجة من البلل أحالته وحولاً يغوص فيها الناس حتى الأنوف . ثم لم يلبث أن أقدمت الجبهة الشعبية على الفعلة التي زادت هذا الطين بللاً فطمرت وحوله الرؤوس : اختطفت الجبهة ثلاث طائرات ركاب جامبوجيت أميركية دفعة واحدة وجاءت بها وبركابها إلى مطار المفرق

العسكري الأردني ، دون غيره ، ثم فجرت الطائرات على أرض المطار في استعراض للحماقة لا مثيل له ، واحتجزت الركاب في فندق في عمان ، ودعت الصحافيين للتفرج عليهم وعلى رعبهم .

إزاء هذه الفعلة الأسوأ بين أفعال الإرهاب ، يجدر أن أتوقف لأجلو لك مغزى إشارات سبق أن وردت في حديثي هذا إليك . فقد مارست جهات فلسطينية أخرى أعمال خطف الطائرات في وقت أبكر . وكانت الذريعة التي تُعلن هي هذه التي صرت تعرفها : العالم مؤيد للصهيونية ، منحاز لإسرائيل ، غير مكترث بمأساة الشعب الفلسطيني ، فمن حق الفلسطينيين ، إذاً ، أن يأتوا أي فعل يجتذب الانتباه إلى هذه المأساة ويرغم الغافلين على الاهتمام بمطالبهم . ويبقى بعد هذا أن كل عملية خطف كانت لها دوافع تتعلق بالظرف الذي جرت فيه ، وأن التنافس بين الفصائل على اجتذاب الأضواء فعل فعله . وقد انضاف إلى هذا كله دوافع دول عربية بعينها فجعل هذه الدول تؤيد عملية أو تشجع أخرى .

عملية الخطف الأولى ، هذه التي سبقت الإشارة إليها عندما رويت لك حكاية الصحافي المصري سعد زغلول فؤاد ، استهدفت طائرة ركاب مملوكة لشركة العال الإسرائيلية التي تملكها حكومة إسرائيل . في هذه العملية ، امتزج دافع مصري مع الدوافع الفلسطينية وتجلى في هذا المزيج أوجع ما في ظروف الهزيمة التي تعرض لها العرب في حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ . كانت جبهة التحرير الفلسطينية ، وزعيمها أحمد جبريل ، متحدة آنذاك مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وكان الذين أعلنوا وحدتهم بحاجة إلى الأضواء وإلى ما يظهر تميزهم . أما مصر فكانت قد ضاقت بالانتقادات المثابرة التي يوجهها إليها الرئيس الجزائري هواري بومدين . فهذا الرئيس ، وهو من قاد جيش التحرير الجزائري في حرب استقلال بلده ، تشدد في انتقاد قبول مصر

لوقف إطلاق النار كما تشدد في انتقاد قبولها القرار ٢٤٢ بعد ذلك . رأى بومدين أن مصر وسورية كانتا قادرتين على مواصلة القتال حتى لو أدى الأمر إلى احتلال القوات الإسرائيلية حلب في شمال سورية وأسوان في جنوب مصر . آمن الرجل بمقولة نقطة الزيت هذه التي تضعف كلما تمددت ، واعتقد أن تمدد قوات إسرائيل على بقاع عربية أوسع سوف يضعفها فيسهل القضاء عليها . وراح الرئيس الجزائري يحرض على استئناف القتال ويأخذ على مصر بالذات ميلها إلى القبول بالتسوية السياسية ويحرجها . من هنا ، التقت رغبة مصر في إطفاء المزايدة الجزائرية مع الرغبة الفلسطينية في إعلاء الصوت ، وتم تنظيم خطف الطائرة الإسرائيلية بالتعاون بين الجانبين ، وجيء بها وبركابها الذين كان بينهم موظفون اسرائيليون حكوميون إلى مطار الجزائر . وكان الهدف سافراً : إحراج الجزائريين . والحقيقة أن صوت الانتقاد الجزائري خفت بعد ذلك . فقد اضطر الرئيس بومدين إلى السماح بعودة الطائرة وركابها سالمين إلى إسرائيل ، واستوعب الدرس ، وتواضع . أما أحمد جبريل الذي نسبت العملية كلها ، بالطبع ، إلى جهده وحنكته فقد وجد وسط حمى المزايدات الفلسطينية ما يتباهى به .

وفي عملية الجامبو جيت الثلاث ، هذه التي وقعت بعد انفكاك وحدة جبهة التحرير الفلسطينية والجبهة الشعبية ، انضافت دوافع عديدة إلى الدافع الثابت . وقد شاءت الجبهة الشعبية أن تظهر عجز السلطات الأردنية فتسوغ العمل على استبدالها ، كما شاءت أن تفاقم التأزم القائم لتحمل المترددين على الانغماس في العمل لإسقاط النظام . وفي العلن ، أرادت الجبهة أن تظهر ما تؤمن به ، وهو أن الأمبريالية الأميركية نمر من ورق . وأياً ما كان عليه الأمر ، فقد عكست العملية حالة الجنون العام السائدة وفاقمتها . ولم يحسب الخاطفون حساب النتائج الأخرى ؛ أليست الامبريالية مجرد نمر من ورق ، فأي

أذى يمكن لنمر ورقي أو لأتباعه أن يلحقوه بثوار مقدامين !

وكـان من الطريف ، إن جـاز أن نرى طريفـاً في أي جـريمة ، أن الرهائن جمعوا في بهو الفندق وأرغموا على الاستماع إلى شروح طويلة تظهر عدالة المطالب الفلسطينية وحق الفلسطينيين في التمتع بالحرية وتحثهم على تأييدها . وقد استمع الرهائن إلى هذه الشروح وهم محاطون ببنادق الخاطفين . وكان د . جورج حبش هو من قدّم هذه الشروح . وقد بسط حكيم الجبهة شروحه بتأن واستفاضة .

تبعت الخطف الأحداثُ المروعة الأخرى التي لم يتسن لي للأسف أن أكون من شهودها في مركزها . فبعد مشهد الفندق الذي وصفته لك ، غادرت عمان ساخطاً وقرفاً ، ورجعت إلى دمشق ، وفيها تابعت التطورات . انضاف السخط العالمي على الفلسطينيين الذين توجب أن يدفعوا جميعهم ثمن جريمة ارتكبها نفر منهم إلى استياء عبد الناصر ومؤيدي مبادرة روجرز ، فتوفر عامل إضافي قوّى عزم السلطة الأردنية على تصفية الحسابات المتراكمة .

والإنذار ذو الدلالة الحاسمة في هذا المجال جاء حين أقيلت الحكومة القائمة وتشكلت في الأردن حكومة طارئة رئيسها وأعضاؤها عسكريون . وقد التقطت مغزى الإنذار كما التقطه غيري ، فتعجلت الفراغ من تحضير عدد «الطلائع» للطبع حتى أتمكن من السفر إلى عمان . إلا أن الوضع انفجر بأعجل حتى من عجلتي .

وفي المساء الذي سبق اندلاع القتال في عمان ، وصل كمال ناصر إلى دمشق قادماً من عمان . كان هذا الشاعر المسكون دوماً بهواجس متجددة قد بتّ صلته التنظيمية مع حزب البعث دون أن تنبّ صلته بالفكر الذي نشأ عليه ، وصار كمال واحداً من قادة م . ت . ف . المشهورين مثلما صار قريباً من «فتح» لصيق الصلة بزعيمها ياسر عرفات . وكعادته كلما جاء إلى دمشق ،

حل كمال في فندق قاسيون الذي يشغل الطوابق العليا في المبنى الذي تشغل جريدة «البعث» طابقه الأول، فخففت إلى لقائه. كان من الغريب بالنسبة لمن لا يعرفون كمال أن يبرح، وهو القائد، موقعه ويبتعد عن مركز الأحداث المداهمة، وهذا هو ما بدأنا الحديث به. ولم أر صديقي مضطرباً في أي وقت ومستثاراً وحائراً مثلما رأيته في ذلك المساء. يقيناً أن الرجل لم يكن أبداً من الهادئين، إلا أن اضطرابه بلغ في ذلك الوقت حداً أخافني أنا الذي أعرفه أتم معرفة. وقد استشعر هو هواجسي، لكنه، وهو المستغرق في هواجسه، لم يرحمني: «أعرفك، أنت واليساريين أصحابك، دعاة الثبات في المعامع الخطيرة، لا بدّ من أنكم تتهمونني بالجبن، لكن اسمع!». ولم أكن أتهم صاحبي بأي شيء، لكنني سمعت.

كرر كمال ما يعرفه كلانا عن المزايدات والفوضى والاستهتار والافتقار إلى استعداد حقيقي لمجابهة المخاطر المحدقة، عن الخلافات والمشاحنات بين الفصائل، عن غياب التقدير الصحيح لقوة النظام الأردني. واستحضر الشاعر ما ألف أن يردده: «الثورة يصنعها المجانين»، وأضاف: «نعم، قلت هذا وما أزال أقوله، لكن على أساس أن يوجهها العقلاء». ثم فاض الأسى: «الآن، لم يبق أحد عاقلاً».

وفي سياق تسويغ خروجه من عمان في هذا الظرف، روى كمال حكاية قد تكون براعته في القصّ قد أضفت عليها شيئاً من المبالغة إلا أن هذا لا ينفي أن تكون وقائعها ذات الدلالة صحيحة تماماً. شهد كمال قبل خروجه اجتماعاً حضره حشد من القادة والمسؤولين والخبراء. دعا عرفات إلى هذا الاجتماع لدراسة الوضع الذي برز فور تشكيل الحكومة العسكرية وإعداد خطط المواجهة المرتقبة. ووقع خلال مناقشة الخطط خلاف بين العميد عبد الرزاق اليحيى وضابط آخر بشأن المكان الذي ينبغي أن ترابط فيه كتيبة من

كتائب الثورة . كان على مائدة الاجتماع الكبيرة خريطة بحجم المائدة . وكان عبد الرزاق يشير إلى نقطة على الخريطة ، فيما يشير الضابط الآخر إلى نقطة بعيدة عنها ، ويتشبث كل منهما برأيه . وضاق كمال بالجدل الذي ينهمك الجميع فيه حول مسألة لا يفهمها ، هو الذي ليس له في العسكرية لا باع ولا ذراع . ضيق كمال أنهضه عن مقعده وحمله على التجول في قاعة الاجتماع بانتظار أن ينتهي هذا الجدل . فلما امتدّ الخلاف وبدا أنه بلا نهاية ، تقدم كمال نحو المائدة وأشار إلى نقطة لا على التعيين وقال : «أنا أرى أن توضع الكتيبة هنا» . وعند هذه النقطة في روايته ، توقف كمال عن السرد وجبهني بعينين مفتوحتين على آخرها وهدر : «كنت أسخر ، فهل تدري ما الذي حصل ، وافق الضابطان كلاهما على اقتراحي وأقره الحاضرون جميعهم وقالوا إني عبقري» . ولم يترو كمال ليعرف رد فعلي ، بل أضاف بنبرة من يحدّث نفسه : «كيف تريدني أن أأتمن هؤلاء الناس على حياتي !» .

جاء آخرون بعدي إلى كمال وسمعوا حكايته . وقد أشاع بعض هؤلاء أنه أحرج القائد الشاعر حين اتهمه بالفرار من أرض المعركة فتركه كمال برهة ثم رجع ومعه جواز سفره وواجه لائميه به : «اقرؤوا ما هو مكتوب ، كمال بطرس ناصر ، وليس عنتر بن شداد !» .

حكاية كمال عزز مضمونها حكاية أخرى رواها لي العميد عبد الرزاق اليحيى في جلسة مكاشفة ضمتنا فيما بعد . وقتها ، سألت العميد عن مدى صواب ما رواه كمال عن ما جرى في الاجتماع ، فما زاد عن أن ابتسم وقال : «اسمع واحدة غيرها جرت في الاجتماع ذاته !» ، فسمعت : تباينت ردود فعل القادة الفلسطينيين إثر تشكيل الحكومة العسكرية . رأت الأغلبية أن تشكيل حكومة عسكر يسدّ الطريق أمام أي مفاوضات مع النظام ، فيما رأت أقلية تحسست فداحة الخطر أن بالإمكان المناورة لاستدراج الحكومة إلى جولة

مفاوضات . وقال أبو إياد ، وهو من أصحاب هذا الرأي : «في أقلّ الأحوال سنكسب وقتاً نستفيد منه لإصلاح العلاقة مع عبد الناصر ولإتمام استعداداتنا» . وبدا عرفات ميالاً إلى هذا الرأي دون أن يفصح عن أي ميل . وفيما النقاش محتدم ، رنّ في القاعة جرس هاتف ملحاح . وكان على الخط رئيس حكومة العسكر نفسه ، . وفهم المستمعون من حديث عرفات مع رئيس الحكومة أن الرجل يملي شروطاً ويعرض التفاوض إن التزمت المقاومة الفلسطينية مسبقاً بها . وهمس العميد عبد الرزاق في أذن عرفات حاثاً إياه على قبول العرض . إلا أن أغلبية الحاضرين هاجت وماجت وراحت تحثّ عرفات صراحة على إقفال الخط في وجه مملي الشروط . ووصل الأمر بأحد الحاضرين إلى أن قفز ناحية عرفات وأخذ يلكزه لكزاً في جنبه ويحثّه على الرفض . وبالطبع ، لم يأذن هذا الجوّ بإجراء محادثة مثمرة من أي نوع ، بل كان من شأنه أن وتّر عرفات زيادة على ما هو متوتر . وانتهى الأمر إلى أن صار عرفات نفسه يزعق في وجه رئيس الحكومة بما يزعق به الآخرون : «الإملاءات مرفوضة» .

في فجر اليوم الذي تلا حديثي مع كمال ناصر ، باشر الجيش الأردني هجومه ، واشتعلت الاشتباكات في عمان ، ثم انداحت فشملت كل مكان في الأردن توجد فيه قوات للمقاومة ، وصار الأردن ساحة قتال .

أيقظني هاتف مبكر من نومي الكابوسي . كان الجهد المتواصل والتوتر الشديد قد أسلماني إلى نوبة من نوبات الألم الشديدة ، الألم الذي يستوطن عامودي الفقري حتى بدون ذلك ، وتعذر أن أنام نوماً هادئاً ، فلم أغف في ليلة الترقبات تلك إلا هنيهات طاردتني خلالها الكوابيس . وأتاني على الهاتف صوت عبد الله الحوراني ، وقد اكتسى عمقاً إضافياً يعكس أساه : «وقع ما توقعنا ، تعال إلى الإذاعة ، عندي إخوان كثيرون ، ونحن في انتظارك !» .

فاجأني أن يتكلم عبد الله من هيأة الإذاعة والتلفزيون السورية هو الذي كان قد استقال من رئاستها قبل حوالي ثلاث سنين . غير أن هذا لم يكن مهماً . وقد تعجلت الاستعداد . وبدأت بابتلاع حفنة من الحبوب المهدئة للألم ووضعت البقية في جيبي .

تطور النزاعات بين المقاومة الفلسطينية والأردن أحدث في سورية اضطراباً لم يحدث مثله في أي بلد آخر . حتى بدون هذا ، كان لسورية أسبابها للنزاع مع النظام الأردني ، فكيف وقد تصرفت القيادة السورية بوصفها حليفاً ثابتاً للمقاومة . وقد وجدت القيادة البعثية في المقاومة شريكاً تتماثل سياسته المتشددة مع سياستها ووجدت في موقف المقاومة إزاء النظام الأردني ما يسند الموقف السوري ضد الأنظمة العربية المحافظة . وكان بين ناس القيادة السورية كثيرون تحمسوا للدعوة إلى إسقاط النظام الأردني واستخفوا بأخطارها . غير أن ازدواجية السلطة في سورية ذاتها ، الازدواجية التي وزعت ناس الحزب والحكم على كتلتين متنافستين ومتنابذتين ، فعلت فعلها في هذا المجال أيضاً ، فتفاوتت درجات الحماس للمقاومة ، وتباينت المواقف إزاء الدعوة إلى إسقاط النظام الأردني . وهكذا ، صار من شأن أي قرار يُتخذ في القيادة حول الصدام الذي وقع للتو أن يؤجج الخلاف بين الكتلتين . وقد أظهرت كتلة القيادة وزعماؤها ، اللواء صلاح جديد رجل الحزب القوي ود . نور الدين الأتاسي رئيس الدولة ود . يوسف زعين رئيس الحكومة حماساً صريحاً لإنجاد المقاومة في قتالها مع جيش الأردن ، فيما تحفظ اللواء حافظ الأسد وزير الدفاع وزعيم الكتلة الأخرى على زج جيش سورية في القتال مع جيش البلد الشقيق الجار . بكلمات أخرى ، اشتد التباين بين أغلبية المدنيين وأغلبية العسكر في قيادات الحزب والحكم . وتحدت الأولى الثانية . واتخذت قيادة الحزب قرارها وطلبت من الأسد بوصفه وزيراً للدفاع وقائداً عاماً للجيش أن

ينفذه .

وفي سياق دعم المقاومة ، وضعت القيادة التي كان وزير الأعلام حمود القباني في عداد أعضائها موجات الإذاعة السورية كلّها في تصرف المقاومة الفلسطينية : ألغيت «هنا دمشق» كلية وحل محلها على الأثير «صوت فلسطين ، صوت اللجنة المركزية لحركة المقاومة» . وندبت القيادة عبد الله الحوراني الذي كان ما يزال عضواً في الحزب ليشرف على هذا الصوت . وكعادته كلما واجه معمعةً ، طلب عبد الله مني أن أكون بجانبه ، فصرت بمثابة نائب له . وقد كنت بالنسبة لعبد الله معاوناً طيباً يمكن الركون إليه وتحميله أشق الأعباء والاستفادة من نصيحته كلما تعلق الأمر بأي شأن حساس .

يقيناً أن حافظ الأسد لم يكن ضد المقاومة الفلسطينية لكنه تميز بحدّة انتقاده للعديد من أوجه سلوكها وسياستها . وهو لم يكن ضد أن تستخدم سورية نفوذها لتوفير الحماية الممكنة للمقاومة ، إلا أنه عارض إقحام الجيش في حرب مع الأردن وتحسب إزاء المخاطر وتخوف ردود الفعل الإقليمية والدولية . ولكن إصرار القيادة على تنفيذ قرارها أدى الى توجيه القوات السورية لاقتحام حدود الأردن بهدف التدخل في القتال لصالح المقاومة بالطبع . وبوجود الخلاف والمحاذير ، جرى تمويه هذا التدخل ، لكنه كان تمويهاً ساذجاً . فقد أُعلن رسمياً أن جيش التحرير الفلسطيني هو الذي تحرك لإنجاد إخوانه ، وليس جيش سورية ، ولم يستر هذا التمويه شيئاً ، كما أن استخدام هنا صوت فلسطين بدل هنا دمشق لم يخف حقيقة أن الموجات المستخدمة هي سورية كلها . أما لماذا لم يرفض الأسد تنفيذ قرار القيادة فلأنه كان ملزماً بتنفيذ قرار اتخذته أغلبية قيادة هو عضو فيها ، ولأن رفضه سيعني تمرداً صريحاً لم يكن هو قد أتم استعداداته له ، ولأن الجوّ الشعبي المفعم بالحماس

للمقاومة لم يكن ملائماً لتمرد من هذا النوع . وهكذا ، أشرف الأسد على تنفيذ ما يقع ضمن صلاحياته ، لكن بغير حماس وبغير اقتناع ، وراح يراقب مسلك القيادة ويحصي عثراتها ، ويحملها مسؤولية المجازفة الخطيرة ، ويراكم ضدها النقاط .

لم يحتج عبد الله إلى أن يشرح لي هذه الملابسات التي يعرف أني أعرفها ولا بدّ من أخذها بعين الاعتبار . اكتفى عبد الله بالإشارة إلى حراجة الوضع . ولكي أطمئن قريبي ، قلت له إننا نسير في حقل من البيض القائم على رؤوس مسامير وأنا أعي أن علينا أن نتوخى الدقة . وكرر عبد الله أمامي ما أوصاه به د . زعيّن : «تجنب ما يمكن أن يؤجج الخلافات الداخلية في البلد !» . وما كان أعقدها من مهمة !

اتصلنا بفصائل المقاومة كلها وطلبنا منها أن ترسل إلى الإذاعة من تنتدبهم من كتّابها ، فجاء من هؤلاء عدد كبير . وتطوع آخرون من تلقاء أنفسهم . وجاء آخرون بحكم صلتهم الشخصية بي أو بعبد الله ، أو بدافع الفضول . وبإضافة هؤلاء إلى العاملين أصلاً في الإذاعة السورية ، توفر حشد كبير فيه أكفاء وغير أكفاء . وكان هذا الحشد كافياً لتشغيل إذاعات عدة منشغلة بمواضيع مختلفة وليس فقط إذاعة واحدة منشغلة بموضوع وحيد . وتوجب أن نقيم في مبنى الإذاعة ليل نهار ، ذلك أن البث اتصل على مدار الساعة دون أي توقف . ولئن بدأنا العمل بعدد يفيض عن الحاجة ، فقد جاء إلينا المزيد من المتطوعين في كل يوم جديد . وبمضي الأيام واحتدام المعمعة ، اشتد الزحام واشتد معه الضجيج ، فزادانا رهقاً ، ولم يعد واحدنا قادراً حتى على أن يغفو بهدوء على كرسيّه ، حتى لو هدّه التعب هداً .

الميزة الوحيدة وسط هذا الرهق وفرتها لنا رعاية حمود القباني وزير الإعلام وسخاؤه . فقد جنّد هذا الإنسان الذي لا ينسى نفسه للخدمة

الدائمة دون أن يتدخل في ما نفعل أو نقول . وعندما لاحظ حمود أننا لا نتناول وجبات منتظمة لأن أحداً لم يفطن إلى حاجتنا إليها أمر بأن تجيئنا الوجبات الثلاث يومياً من أجود مطاعم المدينة وفيها ما يفي بالحاجة ويفيض ، ولم ينكص عن مكرمته حتى بعد أن زاد عددنا وصار عشرات كثيرة . وسأعرف مع غير قليل من الحرج أن الوزير الأريحي أنفق على طعامنا خلال أسبوعي الاشتباكات في الأردن كل ما هو مخصص لوزير الإعلام من نفقات خاصة خلال ما بقي من السنة المالية .

هنا ، أجدني مدفوعاً إلى الاستطراد خارج الشأن العام لأروي لك ما فعله حمود مما يتصل بي شخصياً . ففي أشدّ أيام القتال في عمان قسوة ، أي في الثاني والعشرين من أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠ ، ولدت ابنتي ليلى ، ثالثة زهراتي وأصغرهن . وكنا قد اتخذنا التدابير اللازمة لنقل الوالدة إلى المستشفى ، إلى دار التوليد التابعة لجامعة دمشق ، فلم يعد من الصعب أن تنتقل إليه دون معونتي أنا المنهمك في العمل وتضع المولودة دون أن أكون بجانبها . وعندما جاءني النبأ الطيب على الهاتف ، سرقت من مشاغلي ساعة ، وتوجهت إلى دار التوليد . وهناك ، أنبأني الطبيب بأن الوالدة بحاجة ماسة إلى حقنة خاصة تأخذها خلال وقت قصير ، وهي حقنة مرتفعة الثمن ولا تتوفر في صيدليات دمشق ولا بدّ من جلبها من لبنان فوراً ، ولكي لا تفسد على الطريق لا بدّ من جلبها في وعاء مبرّد بالثلج . وعندما رجعت إلى الإذاعة ، رحت أبحث عبر الهاتف عن وسيلة لجلب الحقنة فيما أنا أحصي الليرات التي في جيبي وأفكر بالاقتراض لإكمال الثمن المطلوب . فالتقط حمود الحكاية . وبعد ساعات فقط ، صارت الحقنة في حوزة الطبيب . فقد أرسل حمود سيارته وسائقه إلى لبنان ، ثم رفض فوق هذا أن أدفع التكاليف : «إنها هديتي إلى الوالدة» . ومع الحقنة ، أرسل الرجل باقة ورد .

لا أدري كم كان جهدنا مفيداً فيما لغة القتال هي السائدة وهي التي ترسم المصائر ،لكني أعرف أنه كان جهداً كبيراً . وحين حوصرت المقاومة في عمان ، دخل جيش سورية على خط القتال ، وتواجهت دباباته سوفياتية الصنع مع دبابات الجيش الأردني أميركية الصنع ، وامتدّت الحرائق . والذي أملك الجزم به أن دور الإذاعة نفع في التأكيد للمحاصرين على أنهم ليسوا متروكين لوحدهم وأن إخوانهم في الخارج يضعون ثقلهم في الميدان . أما سورية فقد جازفت حتى باستقلالها ذاته وهي تنجد المقاومة .

لم تكن مشاكلنا بحجم المشاكل التي يواجهها المحاصرون لكنها لم تكن أقل تعقيداً أو تنغيصاً . وأول ما كابدناه وأوجعه كان اضطرارنا إلى متابعة أحداث تخصنا دون أن نكون في مركزها . وقد علمتني التجربة أن مكابدة المحاصر أخفّ وقعاً من مكابدة من يقلق عليه عن بعد . ولكم أسفت لأني لم أكن بين المحاصرين ! أما كثرة العمل ، وغياب فرص الراحة ، وفوضى التوجيهات المتباينة التي تجيء من الفصائل ، والافتقار إلى العدد الكافي من المحترفين الأكفاء على كثرة الموجودين ، فكانت مشاكل ألفنا مواجهتها وكان عناؤها مما يمكن احتماله . وأما المرور عبر الحساسيات الناجمة من ازدواجية السلطة في سورية فكان في صعوبة مرور جمل من ثقب إبرة حين لا يكون الجمل مطواعاً ولا يكون الثقب سالكاً .

مع الفصائل ، وخصوصاً مع «فتح» ، أي مع الناس الذين يتصرف معظمهم وكأن المعمعة الجارية «طوشة» عرب تنفع فيها الفزعات ، تواترت المشاكل بسبب الاختلاف حول مفاهيم العمل الإعلامي وأسلوب الإذاعة . ثورية الإذاعة عند ناس الفصائل كانت تعني مجاراة العواطف المهتاجة وتأجيج ما يفترض أنه ساكن منها ، والتهويل ، والنداءات والبيانات الإنشائية الحماسية الطويلة ، ولا بدّ من أن يُبثَّ هذا كله بالزعيق . كان

أحسن المذيعين عند الفصائل هو أعلاهم صوتاً ، وأجود الكتاب هو أصوبهم إنشاءً وأحرصهم على العبارات ذات الطنين ، وأنجع ما يتوخاه الإعلامي هو إثارة الحماس بالصياح . ولأننا ، عبد الله وأنا وآخرين من أمثالنا ، كنّا نرى الأمر على نحو مختلف ، فما أشدّ ما صعب التفاهم ، وما أكثر ما نشب من مشاحنات !

ولما كان خالد الحسن في دمشق ، فقد استنجدت به ليعينني على زاعقي «فتح» . غير أن القائد الفتحاوي الذي وضعته الظروف بعيداً عن مركز القتال خشي على سمعته ولم يشأ أن يصدم ناس فصيله . وظل من الممكن أن أتفاهم مع الرجل الصديق شخصياً ، أما تدخله لتصحيح الوضع فظل قليل الفعالية . أنيس الخطيب ، وهو من هو من مسؤولي «فتح» المتفهمين وإعلامييها الأوائل ، كان تواقاً ، مثلنا ، إلى أن تتوخى الإذاعة مخاطبة العقول وتتجنب الإثارة والتهويل . إلا أن أنيس كان في سربه ، خصوصاً في ذلك الظرف المشحون بالإثارة ، عازفاً يكاد أن يكون منفرداً . ولم يكن أنيس على أي حال هو من أوكلت إليه «فتح» مهمة قيادة إعلامييها في الإذاعة . فهذه المهمة تولاها رجل يكتب الشعر ويوقع قصائده باسم «فتى الثورة» ونعرفه بكنيته : أبو هشام . وكان أبو هشام من أكثر إعلاميي «فتح» افتتاناً بالصوت العالي والتعابير الطنانة .

نشأ أبو هشام هذا في أوساط اللاجئين في قطاع غزة نشأة دينية محافظة ، ثم انضم مثلما انضم كثيرون أمثاله إلى «فتح» ، وتحققت له فيها مكانة لم ترتق به إلى صف القادة الكبار ولم تبقه بين متواضعي المرتبة . ولأمر ما ، كانت للرجل دالّة على قادة كبار ، وكان هؤلاء يقدمونه على كثيرين أكفأ منه . أما شعر الرجل فكان نظماً معظمه متواضع القيمة ، يقرضه ، ويستفيد من مكانته فيروّجه ترويجاً واسعاً . وللرجل مما يمكن أن يشكل

استثناءً من مستواه الشعري المتواضع قصيدة كتبها بقصد التشنيع على ما يعدّه موقفاً من الشيوعيين معارضاً للكفاح المسلح . وقد أراد كاتب القصيدة أن يسخر من شعار المطرقة والمنجل لظنه أنه يعارض شعار البندقية . لكن جهل الرجل بمواقف الشيوعيين أنشأ قصيدة بدت كأنها كتبت لتعكس موقفهم الحقيقي . وهي على أي حال القصيدة الوحيدة من قصائد الرجل التي اجتذبت الانتباه وشاعت على نطاق واسع . ولأني أدركت أن صاحبنا قصد شيئاً فانتهى إلى نقيضه وأحسن من حيث شاء الإساءة ، فقد اقترحت على الإذاعة السورية أن تجعل القصيدة أغنية . وتولى فنان ناشئ من أصحابي هو الفلسطيني فتحي صبح تلحين القصيدة وغناها بصوته وأجاد إجادة متميزة . ونتج من هذا أغنية صارت وقتها على كل لسان : «أنا يا أخي آمنت بالشعب المقيد والمكبل/ وحملت رشاشي لتحمل بعدي الأجيال منجل» . وحين كنت أقول لمن لا يعرفون فتى الثورة شخصياً إن صاحب هذه القصيدة مسكون بعداء مزمن للشيوعيين ، كان هؤلاء يندهشون . حتى نبيه ارشيدات الذي بزّ الجميع إعجاباً بالقصيدة والأغنية ، ظن أني أشنع على الرجل من باب الدعابة ليس إلا . وقد توزعت مشاعر أبي هشام إزائي بين امتنانه لترويجي قصيدة له واستيائه لترويجي حكاية تناقض مضمونها مع موقفه ، ولم تستقم مشاعره تجاهي في أي وقت .

وفي المعمعة التي أحدثك حديثها ، بقي أبو هشام لبضعة أيام يمارس دوره موجهاً لإعلاميي «فتح» ، من مكتبه دون أن يجيء إلينا . ولما لم تنعكس أوامر الموجه في عمل الإذاعة ، فقد ظن الرجل أن الفتحاوي الآخر أنيس متواطئ معنا ، فجاء إلى الإذاعة بنفسه . جلب أبو هشام أوراقه معه وأقلامه واصطحب عدداً وافراً من المرافقين . وصل الرجل بعد أن اكتظت الحجرات المخصصة لنا بشاغليها ، ولم يشأ أحد أن يخلي مكانه للقادم المعتدّ

بنفسه المصر على أن يصدّره الآخرون عليهم . فلم يقع أبو هشام على مكتب خالٍ يجلس إليه . وشاء عبد الله أن يلزم الرجل حداً بعينه فوفر له مكتباً ، لكنه لم يهتم بأن يكون المكتب في صدر الحجرة ، فجلس أبو هشام حيث انتهى به المجلس وكان مجلسه قرب الباب . وكان في هذا وحده ما يكفي لإثارة سخط ممثل الفصيل الأكبر وإكساء وجهه تكشيرة لم تبرحه طيلة مكوثه بيننا . وأشرع الرجل أقلامه ، وفرد أوراقاً بيضاء كثيرة وراح يسودها الواحدة تلو الأخرى ، وهو محاط بمرافقيه الملزمين بالوقوف بجانبه . وفرض المنصرف إلى التفكير والكتابة على مرافقيه أن يظلوا مستنفرين في خدمته ، فإذا احتاج إلى تنظيف أنفه مثلاً فعلى أحد المرافقين أن يناوله منديلاً ، وإذا اشتهى القهوة أو رغب في كاس ماء فعلى مرافق ما أن يهرع إلى المقصف . أما إذا جفّ القلم أو نفد الورق فعلى المرافقين أن يخفوا إلى الحركة دون توان . هذا السلوك كان من شأنه في ظرف آخر أن يستثير التعليقات الساخرة وليس أكثر . أما في ذلك الظرف فإن سلوك الرجل أثار السخط وأوقع ناس «فتح» كلهم في الحرج . وقد ملت مرة على أنيس المحرج كغيره وقلت : «في «فتح» بلايا من كل نوع ، فلماذا لم يرسلوا لنا بلية أهون من هذه» . فزفر أنيس أساه دون أن يفارقه ظرفه : «هذه أو غيرها ، لماذا لا تقنع بما قسمه الله !» .

وكان من محاسن الصدف أن استدعي عبد الله مرة للتشاور مع رئيس الحكومة ، فطال غيابه ، وحللت أنا محله لوقت كان كافياً للتصرف مع ممثل الفصيل الأكبر بما أملاه علي ضيقي وضيق غيري بسلوكه . ولك أن تعرف أني تعمدت استفزاز الرجل لعلي أحمله على مفارقتنا ، ولم يكن إنفاذ عزمي صعباً ، فما أيسر استفزاز هذا النوع من الناس ! أرسل إليّ أبو هشام النصوص التي كتبها ، فقرأتها بإمعان قراءة المترصد وأشرت على الأخطاء التي تبيح منع إذاعتها ، وما كان أسهل أن أقع على الكثير منها . وهكذا عادت الأوراق إلى

مسوِّدها ، وقد تصدرتها هذه العبارة مني : «هذا إنشاء ينتمي إلى زمن فات وانقضى ، فضلاً عن أنه ركيك ولغته ليست إذاعية» . وراقبت رد الفعل . ورأيت كيف نفث أبو هشام نفثة كادت تطير الأوراق التي أمامه حتى لقد تحفز مرافقوه لالتقاطها ، وسعدت بذلك . ثم تكرر الأمر مرة ثانية وثالثة . وما أن رجع عبد الله حتى أرسل الرجل إليه النصوص ذاتها بعد أن أدخل عليها ما ظن أنها تحسينات أو كتبها من جديد . واستشارني عبد الله المتحرج من الرفض ، فكتمت عنه ما فعلته في غيابه ، وقلت بحزم أعرف أن عبد الله سيأخذه بعين الاعتبار : «لا يجوز رمي المستمع المشدود إلى أحداث خطيرة بمواعظ ونداءات سخيفة» . فنحى عبد الله الأوراق جانباً وأهملها . وقد تحامل أبوهشام على نفسه لبعض الوقت ، ولكن صبره نفد ، فتحامل على كبريائه وجاء بنفسه إلى عبد الله مستفسراً ، فانتقى قريبي كلماته بحذر : «اكتب شيئاً جديداً ، أو كلف أحد الإخوان الفتحاويين بالكتابة !» .

كان في هذا ، بالرغم من التأدب الذي عكسته نبرة عبد الله ، ما طفح به الكيل الطافح قبله . وقد ارتعش أبو هشام ، عضلات وجهه ارتعشت ، وأصابع يديه ، وارتعش صوته : «هذه مؤامرة على «فتح» ، تظنون أنه ما دامت الإذاعة سورية وما دمتم بعثيين ففكرنا غير مقبول فيها ، تريدون أن نكتب مثلما تكتبون ، تنسون أن «فتح» ثارت من أجل كرامة الفلسطيني وهي لا تقبل أن تنزل إلى مرتبة التابع» .

انسحب أبو هشام معلناً أن «فتح» هي التي تنسحب من إذاعة يتحكم فيها البعثيون ، وتبعه معظم الفتحاويين منصاعاً لأمر صارم منه . وبقي أنيس وحده وعلى ثغره ابتسامة تعكس مرارة لا يعبر عنها بتمامها إلا البكاء . وإذاً ، فقد تسببت أنا داعية الوحدة الوطنية في أزمة لا تتفق مع مستلزمات هذه الوحدة . كنت قليل الصبر . وها أنا ذا أقرّ بالخطأ ، فأرجو أن لا تعده في

الكبائر !

في اليوم التالي ، رجع إلينا واحد من المنسحبين وكان هذا هو نصر شما الممثل المسرحي الذي يتعاطى العمل الإذاعي أيضاً ، واستخلصنا أن نصر أرجع إرجاعاً كي تبقى للمنسحبين صلة بالإذاعة ، ولم نكن مخطئين . فكلما احتاج أمثال أبي هشام هذا إلى إذاعة شيء كانوا يملون نصهم على نصر ، فيجيء نصر به إلينا ويقول : «الإخوة في عمان أرسلوا هذا النص على الجهاز اللاسلكي وطلبوا إذاعته» . وقد تقبلنا حكاية الجهاز هذه لنعفي أنفسنا من مماحكات لا لزوم لها . فزاد تواتر المواد المنسوبة إلى الجهاز ، وكانت بمعظمها مواد مما يمكن الاستغناء عنه . وصرنا نتندر بالجهاز ونصف أي مادة ركيكة بأنها وردت على الجهاز . وتقنا مرة إلى الترويح عن النفس بعد عناء نهار ومساء طويلين ، فتذكرنا نصر والجهاز . وكان نصر لحظتها قد استسلم لإغفاءة على كرسيه في حجرة مجاورة ، فطلبه على الهاتف الداخلي أحد المتواطئين معنا وأملى عليه نصاً قال إنه وصل تواً على الجهاز من الإخوة في عمان . هذا النص الذي صنعناه نحن بالطبع كان بمثابة بلاغ عسكري يعلن أن التدخل العسكري الياباني في القتال الجاري في الأردن قد ابتدأ وأن البوارج اليابانية أنزلت مشاة أسطول اليابان ومعداتهم في ميناء العقبة ، وأن هؤلاء يزحفون الآن باتجاه عمان . وحمل نصر ما أملي عليه وجاء إلى حجرتنا وقدمه لعبد الله . فتظاهر عبد الله بالدهشة الشديدة ، وتساءل ، موجهاً الحديث إلى نصر : «تدخل عسكري ياباني ! ؟» . وجاء جواب نصر كما توقعنا بالضبط : «نعم ، ياباني ، إنه الجهاز» .

مع الفصائل الأخرى ، واجهتنا مشاكل مماثلة وإن كان حجمها أقل . فلحجوم المشاكل علاقة طردية بحجوم الفصائل . ظل أحمد جبريل يتصل بنا بين وقت وآخر ويزودنا بنصائحه ويحثنا على رفع الصوت ، وكان له هو الآخر

جهازه . وواظب فضل شرورو معاون أحمد المسؤول عن الإعلام على زيارتنا . وكان صديقنا هذا يقدم نصائحه بطريقته التي لا تعرف معها متى يكون جاداً ومتى يكون هازلاً : «أعرف ، قبل أن تقولوا هذا بأنفسكم ، أنها غير نافعة ، لكنهم ، عندنا ، تعرفون ، يحبّون هذا» . ناس الصاعقة الفلسطينيون كانوا يتصرفون على أساس أن سورية هي سوريتهم هم ويرون أننا جميعاً في خدمتهم ويتعاملون معنا على هذا الأساس . الشعبية التي كانت علاقتها بسورية سيئة لم يظهر منها أحد . أما الديمقراطية فلا تحتفظ ذاكرتي بشيء عن دور ناسها في عمل الإذاعة ، إن كان لهم دور .

مشكلة أخرى أوقعنا فيها الجميع ، النداءات المرمزة التي تبثها الفصائل ويفترض أنها تعليمات وأوامر صادرة عن القيادات وموجهة إلى المقاتلين . وأنا أستطيع أن أجزم أن معظم النداءات كان مما لا لزوم له إلا التظاهر بوفرة النشاط . وقد كنا مرغمين على إذاعة أي نداء ، فمن منّا الذي يملك حق التمييز بين ما له لزوم وما ليس له ! ولأن الفصائل لم تتقن الترميز ولم يكن لأي منها شيفرة حقيقية معتمدة ، فكثيراً ما كانت الرموز بسيطة ومفضوحة . فأبو جهاد في نداءات جبهته هو أحمد جبريل الذي يعرف الجميع كنيته هذه بمقدار ما يعرفون اسمه . والوالد في نداءات «فتح» هو ياسر عرفات . وإذا استخدم أحدهم رمز الفارس الأحمر مثلاً فهذا يعني مسؤولاً في فصيله اسمه فارس . الرمان في النداءات يرمز إلى القنابل اليدوية ، والكوسا هي القذائف المدفعية والبطيخة هي اللغم ، أما البطارية أو السيارة فهي البطارية والسيارة وليس أيّ شيء آخر .

ولما كان الجيش السوري مشتبكاً مع نظيره الأردني وقيادته بحاجة إلى توجيه نداءات عاجلة ، فقد خشيت هذه القيادة أن يختلط الأمر على عساكرها مع النداءات الكثيرة التي نبثها . وقد رجت القيادة السورية الجميع

أن يقللوا نداءاتهم ، لكن دفق النداءات لم يخفّ ، بل اشتد بمضيّ الأيام . ومع زيادة العدد ، زاد عدد النداءات التي لا لزوم لها . وها أنا أتذكر فتحاوياً صديقاً لي أملى عليّ نداءً صدّره بكنيته التي أعرفها ووجهه إلى أصدقاء له أعرفهم وضمنه العبارة الوجيزة التالية : «العشاء جاهز ، نحن بانتظاركم» . وعندما راجعت صديقي بشأن لزوم ندائه ، حلف بالطلاق على أنه قد يكون أصدق النداءات جميعها ، ثم روى الحقيقة : «دعوتهم إلى العشاء في منزلي وقد تأخروا وأنا أحثهم على المجيء» . الحاج مطلق مسؤول في «فتح» له اسم شهير ليس لأنه يشغل موقعاً ذا خطورة خاصة بل لأنه يرأس الإدارة التي تنظم سجلات أعضاء «فتح» وتحتفظ بوقائع خدمتهم فيها ولا يستغني أي منهم عن خدماتها الإدارية . وقد وصلتني بالرجل علاقات مودة وكنت أستظرفه وكان سلوكه الذي لا تصله صلة بسلوك الحجاج مما يجتذب انتباهي إليه . الحاج مطلق هذا اتصل بي وأملى نداءً مقتضباً : «الهدية على الطريق ، أعلفوا الخيول . فجرّوا البطيخة !» . وقد أذيع النداء بالطبع . وفور إذاعته ، اتصل الحاج مُحنقاً «إيش هذا الذي عملته فينا» . وقال الحاج إن النص الذي أذيع من قبلنا أفسد الخطة ، فقد كان ينبغي أن تصل واو العطف ما بين الجمل ، واتهمنا بأننا نحن الذين نسيناها . وها أنا ذا أتذكر ما أنطقني به غيظي : «أكيد يا حاج أن مصير الثورة كله مربوط بواو العطف هذه» .

أما أهمّ مشاكلنا على الإطلاق فقد سببها تفاقم الخلاف بين كتلتي الحزب والحكم في سورية . كنّا ، عبد الله وأنا ومعظم الذين يديرون عمل الإذاعة ، محسوبين على كتلة القيادة أو من المتعاطفين معها . وكان هذا ، في نحو ما صحيحاً ، خصوصاً إذا تذكرت أن هذه الكتلة كانت أشدّ حزماً في دعم المقاومة . وكانت لعبد الله ولي ، خصوصاً لي ، مشاكل مع الكتلة الأخرى ، ولم يكن ناسها يثقون بنا . رأى هؤلاء أن الإذاعة السورية التي

حملت مع الأحداث اسماً فلسطينياً صارت خارج سلطتهم كلية ، فساءهم الأمر وشحن حساسيتهم إزاء أي كلام نذيعه ، فتابعونا بيقظة زائدة ، وأعطوا للكلام التفسيرات التي تمليها حساسيتهم . وإليك هذا المثل : فقد سمينا الحكومة الأردنية الجديدة الحكومة العسكرية أو حكومة العسكر أو ما إلى ذلك بما هو مطابق لحالها . وكان من المنطقي أن نهاجمها . ولم ننتبه إلى أن صفة العسكرية أو صفة العسكر أو ما يماثلها هي الصفات التي تطلق في سورية على الكتلة الأخرى ، ولا كان بإمكاننا في ذلك الظرف أن ننتبه إلى هذه النقطة . وحمل ناس الكتلة الأمر على محمل سوء النية ، وتصوروا أن هجومنا على حكومة العسكر الأردنية ينطوي على التعريض بهم ، وطالبوا بإبعادنا ، عبد الله وأنا ، عن الإذاعة ومنهم من هدد بحبسنا إن لم نُبعد . ولك أن تتصور أن مشكلة كهذه المشكلة شغلت شاغلي المناصب العليا في الدولة وحزبها الحاكم فيما المنطقة كلها على أكف مئات العفاريت ! وقد انتهى الأمر بالطبع إلى تسوية أملاها ميزان القوى ، فبقينا في الإذاعة شريطة أن نكفّ عن استخدام صفة العسكرية . ولم نهتد إلى صفة أخرى ملائمة للحكومة المتميزة ، فسميناها الجديدة . وقد ظلت هذه الحكومة جديدة في الإذاعة إلى أن سقطت . ولكم أشفقت على د . يوسف زعين وهو يجهد نفسه لتطييب خاطرنا ويرجو أن نلتزم ما تم الاتفاق عليه وهو غير مقتنع به !

وفيما نحن مستغرقون في ما أحاطنا من مشاكل ، طرأت مشكلة نجمت من احتدام القتال بين الجيشين السوري والأردني وما أثارته الخسارة الكبيرة التي تعرض لها اللواء الأردني المدرع الأربعون من ردود فعل . هنا يقتضي الأمر أن أتبسط في الرواية وأستطرد بعض الشيء . فلئن سلم بعضهم بما لا بدّ من التسليم به من نتائج مؤسية للاقتتال بين جيشين عربيين بذريعة ضرورتها لفك الحصار عن المقاومة ، فإن كثيرين في سورية ، خصوصاً في الجيش ،

ساءتهم المهمة التي اضطلع الجيش بها وعدّوها بغيضة . ولعل من المفيد أن أروي لك واقعة تصف مشاعر د . يوسف زعين بالذات ، هو الذي كان من أشدّ المتحمسين لإنجاد المقاومة ودفع الجيش السوري إلى القتال . فهذا الرجل ذاته لم يملك أن يحبس دموعه وهو يشهد معركة الدبابات الشهيرة التي وقعت بين الجيشين . وقد فاضت دموع الرجل فيضاً وأجهش بالبكاء أمام مشهد بعينه وقع عليه وهو يراقب المعركة . رأى رئيس حكومة سورية كيف حطّت قذيفة على دبابة أردنية فأشعلت فيها النيران . ثم رأى عسكرياً يخرج من فتحة الدبابة بعناء وقد اشتعلت النار في ملابسه وراقبه وهو يقاوم الحريق الذي يأكل جسده ، فانفجرت الدموع . وإذا كان هذا هو رد فعل المتحمس لقرار القتال فبإمكانك أن تستخلص ردود الفعل الأخرى ، خصوصاً ردود فعل الذين اعترضوا ، وكيف انعكس هذا على حالنا نحن الذين يتوجب علينا أن نشدد الهجوم الإذاعي كلما اشتد القتال بينما يتهمنا فرسان الجمل الثورية بأننا مقصرون .

و فيما التباينات آخذة في الاتساع ، جاء ما عزز ردود الفعل السلبية وشحذ استياء المستائين . فقد وجهت الولايات المتحدة إنذاراً حاسماً لسورية مطالبة إياها بوقف تدخلها العسكري وسحب قواتها فوراً من الأرض الأردنية . وهددت الولايات المتحدة بأن عدم الاستجابة للإنذار سيستتبع تدخل الجيش الأميركي ضدّ سورية وتدخل الجيش الإسرائيلي لصالح الأردن . ونصح الرئيس عبد الناصر السوريين بعد هذا الإنذار وما يحمله من مخاطر بوقف هجومهم ؛ كان استقلال سورية ذاته مهدداً والمنطقة مهددة بالاحتلال الأميركي أو بتوسع إسرائيلي جديد أو حتى بكليهما . والسوفيات ، وهم الذين عدوا القتال بين عرب وعرب قتال إخوة لا لزوم له وحثوا على الحوار ، تخوفوا هم الآخرون مما تخوف منه عبد الناصر ونصحوا بالتهدئة . أما الدول

العربية فلم ينجر منها صراحة إلى جانب المقاومة أو يؤيد التدخل العسكري السوري إلا أقلها فيما سعى الجميع إلى إطفاء اللهب . لم تعلن واشنطن أنها وجهت إنذاراً بهذه الصيغة ، ولم يعلن السوريون أنهم تلقوه . غير أن الظواهر الدالة على النذر الخطيرة تواترت : تحركات الأساطيل الأميركية في البحار ، واستنفار إسرائيل لجيشها ، واضطراب حركة الجيش السوري وتوقف تقدمه ناحية عمان ، واتساع مجهودات عبد الناصر لعقد قمة عربية طارئة ، والاستجابات السريعة للدعوة إلى القمة .

عرفت نبأ الإنذار الأميركي أول ما عرفته من فتوح الشريف الذي قال لي إنه عرفه من السفير المصري ممدوح جبّة . وحين تداولت في الأمر مع عبد الله ، اتضح أننا متفقان في الرأي على أن سورية لا تملك إلا أن توقف تدخلها العسكري ، ولم يبق أمام المقاومة المحاصرة في عمان إلا أن تتدبر أمرها في نحو أو غيره ، كما لم يبق إلا الأمل المعقود على نتائج القمة العربية ومساعي عبد الناصر لوقف القتال . ولئن كان من الممكن أن يصمد المحاصرون في عمان لبعض الوقت ، فليس وارداً في الحسبان أن يصدّوا تقدم الجيش نحو مواقعهم إلى الأبد .

لم يخل الأمر ، بالطبع ، من مستهينين بالإنذار الأميركي والتهديد الإسرائيلي . بل لقد وجد كثيرون ممن رأوا أن التدخل الأميركي سيحول المنطقة إلى ڤيتنام ثانية ويكرر أمجادها . واستحضرت من جديد مقولة الإمبريالية التي هي نمر من ورق ، ومقولة نقطة الزيت وإسرائيل التي ستضعف كلما تمددت ، وما إلى ذلك .

وفي ظل إحساسنا المشتد بالخطر ، داهمتنا المشكلة الطارئة التي أشرت إليها وكانت مشكلة من طبيعة فنيّة مهنيّة استعصت على الحل . فقد كنا نتلقى ما يردنا من بيانات المقاومة وبلاغاتها المنسوبة إلى الجهاز أو الصادرة

عن غيره دون أن نعوّل كثيراً على صدقيتها أو تنفعنا في استخلاص حقيقة ما يجري في عمان . وألزمتنا الحاجة متابعة الإذاعة الأردنية ليس لأن ما تبثه أصدق ، بل لأننا كنّا قادرين على أن نستخلص من تهويلاتها المزاج السائد على الطرف الآخر ونهيئ ردودنا عليه ونكتب ما هو مفيد لمواجهة التحريض المضاد الموجه إلى جمهور الأردن .

هذا المصدر فقدناه فجأة . ففي اليوم الذي وجه فيه الجيش السوري ضربته القاسية إلى اللواء الأردني المدرع الأربعين ، وهو اليوم الذي صدر فيه الإنذار الأميركي ، في هذا اليوم شدّدت الإذاعة الأردنية هجومها على سورية ، وفتحت ملفات الوضع السوري الداخلي الحساسة ، ومسّت مسائل سياسية واجتماعية وطائفية لتحريض الجمهور السوري ضد حكامه . ولم يجد الجانب السوري أفضل من إسكات الإذاعة الأردنية وحجب صوتها عن الجمهور . وهكذا شُغّلت أجهزة التشويش بأتم طاقاتها على هذه الإذاعة فغاب عنّا صوتها وفقدنا المصدر الذي لا غنى عنه .

وكم كان بعض المسؤولين الفلسطينيين خفيفاً . ففي الوقت الذي أربكنا فيه غياب هذا المصدر ، وفيما عبد الله منصرف إلى الحديث على هاتفه بأمل أن يجد وسيلة تصلنا به ، توجب علي أنا أن أرد على مكالمات هؤلاء المسؤولين . وها أنا ذا أتذكر حديثي مع الحاج مطلق . فعندما غاب صوت الإذاعة الأردنية ، استخلص الرجل أن شباب «فتح» في عمان قد دمّروها ، فاتصل بي ونقل استخلاصه المتعجل هذا على أنه نبأ بلغه للتو من الإخوة على الجهاز ، ثم أهاب بي حاثاً إياي على رفع سوية الزعيق في إذاعتنا : «أعطني صوتاً أعلى !» . وعندما أدرك الحاج أني لا أصدقه ، كرر التأكيد : «تلقيت النبأ بنفسي على الجهاز» . وسمعني الحاضرون في الحجرة وأنا أرد : «ما دام هو الجهاز فلا بد من أنك صادق . غير أن عندي نصيحةً لك ، تأكد

من أن جهازك موصول حقاً بالشباب في عمان ، فأنا أخشى أن يكون موصولاً بمصدر لا يصدق أبداً !» .

لم تفلح مساعي عبد الله في وصلنا بالصوت الذي غاب . تعذر الأمر من الناحية الفنية . فصرنا أسرى الجهاز أكثر مما كنّا ، بما يصل إليه حقاً من عمان وما ينسبه إليه المهتاجون في دمشق . وصار لا بدّ ، إذاً ، من أن تزيد نسبة الإنشائية في حديث الإذاعة والصراخ ويشتد التخبط . ولتعويض النقص ، توسعت في الاتصال بالقادة الموجودين في دمشق لحملهم على مصارحتي بالأنباء الصحيحة واستخدمت أساليبي المجربة التي صرت تعرف معظمها ، وكان أنجعها ادعاء وجود معلومات طازجة لديّ من المهم أن يطلع عليها هذا القائد أو ذاك . ولأن زحمة العمل لم تأذن لي بمغادرة مبنى الإذاعة ، فقد أفادت هذه الحيلة في استدراج المطلوبين إليها والاختلاء بهم .

بقي خالد الحسن أكثر من لجأت إليهم من هؤلاء موضوعية ، وإن بقي في الوقت ذاته حريصاً على اتخاذ موقف متشدد . كان المطروح عبر الاتصالات الدبلوماسية الناشطة بين العواصم ، وهو ما طرح على القمة منذ انعقدت ، أن يتوصل المتقاتلون في عمان إلى الاتفاق على وقف إطلاق النار . وقد انقسم الرأي الفلسطيني حول هذه النقطة . فأغلبية الموجودين في عمان مالت إلى القبول ، إلا أن أقوالها العلنية تأثرت بعاملين : الحاجة إلى إظهار التشدد لتحسين شروط الاتفاق ؛ والخشية من أن تتهم بالتخاذل ، فلم تنعكس النوايا المضمرة في الأقوال المعلنة . أما أغلبية الموجودين في دمشق فمالت إلى العكس . وقد تهيب كثيرون الاتهام بأنهم يخذلون المحاصرين المستمرين في المقاومة إذا جهروا بالدعوة إلى وقف إطلاق النار . ولدهشتي ، كان خالد الحسن من هؤلاء . وفي حواري مع صديقي حول هذه النقطة ، تجلت حساباته التي لا أوافقه عليها . لم تساور القائد الفتحاوي أي أوهام بشأن قدرة المقاومة

على إلحاق الهزيمة بالجيش الأردني بعد أن توقف تقدم الجيش السوري ، لكنه ظل أسير حرصه على تبرئة نفسه من مسؤولية التراجع .

كان خالد الحسن يعرف أن الجيش الأردني يتقدم ويضيّق الحصار على المقاومين ، وكان يدرك أن الوساطة العربية والضغوط التي يتولاها عبد الناصر ستفلح في إيقاف القتال وأن الأردن سيفلح في فرض بعض شروطه ثمناً لإيقافه : «سيتم هذا كله وصاحبك أبو عمار يعرف النتيجة» . قال محاوري هذا ثم أضاف : «ليتحمل هو وأصحابك أبو إياد وأبو جهاد وأبو مازن ومعهم غريمك أبو لطف مسؤولية التراجع ، لن أوفّر لهم السبب ليقولوا إن خالد الحسن ضغط علينا كي نتراجع» .

يومها ، قلت لمحاوري إن القيادة مسؤولية قبل أي شيء آخر . والقائد الحق يتخذ الموقف الصائب بصرف النظر عن تأثيره على شعبيته ، بل إن الشعبية لا تتأسس على قواعد متينة إلا إذا استندت إلى الموقف الصائب . لكن خالد الحسن تشبث بموقفه : «سهلٌ على صحافي أن يقول مثل هذا القول . أما أنا فلن أسلم رقبتي لمن يستطيع عضّها» . ولما ألحفت ، نهض أبو سعيد مظهراً حاجته إلى الانصراف وقال بنبرة مسترضية : «ليقل صاحبك أبو عمار علناً إنه يقبل إيقاف القتال وعندها يكون لكل حادث حديث من نوعه» . والحقيقة أن خالد الحسن أحرجني أنا بهذا القول بدل أن تحرجه أقوالي . فعرفات الذي يدير بنفسه المفاوضات مع الوسطاء ويناقش شروط وقف إطلاق النار بإمعان لم يكن قد قال علناً ما يشي بأنه يقبل . وكانت رسائل الجهاز الحقيقية ، فضلاً عن الرسائل المنسوبة إليه ، تحثنا على التصعيد . وكنّا نعرف أن الرسائل التي تصدر من عمان لا يمكن أن يبثها الجهاز فعلاً ما لم يصادق أبو عمار عليها .

في غضون ذلك ، وصل الرئيس السوداني محمد جعفر النميري إلى عمان مبعوثاً من عبد الناصر والقمة والتقى بعرفات في مبنى السفارة المصرية

بعد أن أفلحت جهود السفارة في إيصال القائد الفلسطيني إليها وتجنيبه المخاطر التي تترصده على الطريق . كانت علاقة النميري بعبد الناصر وقتها على أحسن ما يرام ، وكان يتمتع بالسمعة الطيبة التي وفرها التحالف الوطني التقدمي الذي يسند حكمه . وقد انتدب النميري ليضمن إخراج عرفات من عمان سالماً وإيصاله إلى القاهرة حيث تنعقد القمة . ولم أعرف بالطبع تفاصيل حديث النميري مع عرفات كلها إلا فيما بعد . أما في حينه فقد عرفت من التفاصيل ما وصل منها إلى القادة الموجودين في دمشق والقادة السوريين وما تلقته السفارة المصرية التي كان فتوح يبلغ إليّ كل ما يصل إلى علمه منها . وعرفت بالطبع ما روجته مصادر الأنباء العلنية . ومن هذا كلّه ، استخلصت ما عزز يقيني بأن عرفات سيقبل تسوية واقعية حتى وهو يناور لتحسين شروطها بقدر الإمكان . وعندما وصل عرفات آخر الأمر إلى القاهرة ، أدركت أن القائد الحريص على البقاء في مركز الخطر وتعزيز شعبيته لم يغادر الميدان لو لم يتأكد من قرب الوصول إلى تسوية ويكون مستعداً للقبول بها .

إن الوقائع المتصلة باجتماعات هذه القمة في المتناول ، وبإمكانك أن ترجع إليها إن شئت . لقد دارت أشق المساومات . واستخدم عبد الناصر ثقله بكامله ، ووضعت المملكة العربية السعودية ثقلها في الميزان . وانتهى الأمر إلى الإتفاق المعروف ، وضمن زعماء القمة تنفيذه . وتوقف القتال .

أوجب هذا الاتفاق أن يوقف جيش الأردن هجومه على المقاومة الفلسطينية ، وأوجب على المقاومة أن تسحب مسلحيها من المدن فلا يبقى لها فيها إلا بعض الأجهزة المدنية . وأباح الاتفاق أن يبقى للمقاومين الفلسطينيين قواعد مسلحة تتوزع مواقع الأحراش في منطقة جرش . وسقط بين ما سقط بعد القتال المرير والمكلف شعار المزايدين الصاخب : إسقاط النظام الأردني ، وظهر أن تحقيقه عزيز المنال . وانصبت أولى الزخات الباردة على المزايدات

اللاهبة كلها .

قبل التوصل إلى الاتفاق ، فيما مداولات القمة جارية وأملنا بنجاة المحاصرين معلق بنتائجها ، وصلنا نحن المحتشدين في الإذاعة إلى حالة مزرية . أمضينا قرابة أسبوعين لم نعرف فيهما من أوقات الراحة إلا الإغفاءات المتقطعة على كراسي العمل . حتى وجبات المطعم الفاخرة صارت مصدر غصات : حرجنا إزاء الوزير الذي يدفع أثمانها وتأذينا من إحساسنا بأن إخواننا المحاصرين يفتقرون إلى الطعام . انحطّت قواي الجسدية ، وفتكت بي آلام الظهر فتكاً لم تنفع معه الحبوب المسكنة . كل هذا دون أن أجرؤ على الشكوى . وهل كان من اللائق أن أشكو أوجاعي الشخصية في هذا الظرف ! وأرهق العمل والتوتر المستمر أذهاننا . ونفدت قدرة الأعصاب على الاحتمال . فتوفز الجميع . وصار أتفه الأسباب كافياً لإهاجة المشاعر . نسينا العناية بالمظهر أو النظافة . وفي جو أيلول / سبتمبر القائظ ، في الحجرات المكتظة بروائح الأجساد ودخان شتى أنواع التبغ ، انتهينا إلى حالة تثير الشفقة . ومكوثنا المتصل بعضنا مع بعض ، واختلافات الرأي في ما بيننا ، وجدلنا ، أوجدت حالة من الضيق الذي يصعب السيطرة عليه إلا بشق النفس ، وصار يكفي أن تصدر ملاحظة غير لائقة أو يختلف اثنان حول مسألة حتى ينفجر المخزون .

وفي ذاكرتي واقعة كادت تدفعنا ، عبد الله وأنا ، اللذين لم يتعاملا منذ تعارفا إلا بروح المودة ، إلى الاشتباك بالأيدي . جرى هذا بعد أن بلغ توتر معظم العاملين في الإذاعة حداً ينطبق عليه المثل : «انكش تولّع !» ولم يبق متماسكاً إلا عبد الله وأنا وقليلون آخرون لأن تماسكنا ضروري من أجل استمرار العمل ، السبب الوحيد الذي مكننا من مغالبة الانفلات . في هذا الوقت ، دأبت أنا على استنفار أقصى ما في إرادتي من طاقة . وسلحت نفسي باقتناعي بأن في عملنا بعد أي حساب جانباً مهنياً لا بدّ من التشبث

بمستلزماته . وروضت نفسي على مغالبة المشاعر التي يهيجها سوء الحال . والمهنية واحدة من السمات التي أتشبث بها في كل الأحوال . ويبدو أنني أفرطت في الاتكاء على مهنيتي في ظرف الهياج العام الذي كنا فيه وفوران المشاعر المحيطة بي ، فتصور الآخرون أني بلا عواطف ، وظنوا أن المصائب لا تحرك شجني . وأنا أتذكر أن خالي عمر هاتفني مرة وحدثني عن قلقه على عمي محمد الذي هو ابن عمه وأقربائنا الآخرين المقيمين في عمان ورجاني أن أستثمر صلاتي لعلي أحصل على ما يطمئن . وأتذكر كم كنت فظاً في الرد على الخال العزيز حين قلت إن مصير الأقرباء ليس هو الذي يشغل بالي في هذا الوقت ، وكيف أدهش الرد المحيطين بي كلهم . يقيناً إن عمي وأقربائي عزيزون عليّ وقلقي عليهم لم يقلّ عن قلق خالي . غير أنها الرغبة في التسلح بالإرادة ضد المشاعر الشخصية في أوقات الأزمات العامة ، وهي التي جعلتني أرفض رجاء خالي بفظاظة وأسفّهه . وبعد محاورتي مع الخال ، هذه التي أسخطت سامعيها وبضمنهم عبد الله ، رحت إلى الحمام لأداري اختلاجات الأسى التي أحرص على كتمانه . وقتها ، كنت أظن أن من المعيب إظهار عواطفي ، وأعدّ ذلك مما لا يليق بممتهن نضال وصحافة ، فلجأت إلى التستر . وفيما أنا في الحمام منصرف إلى تهدئة لواعجي ، بلغت إلى مسامعي ضجّة مصدرها الحجرة التي تركت فيها زملاء العمل ، فتعجلت العودة إليها ، فوقعت على مشهد لا أنساه .

كان عبد الله الجالس إلى مكتبه ممسكاً رأسه براحتيه مائلاً ناحية المكتب وهو مجهش في بكاء يهتز معه جسده بوقع تشنجات متلاحقة لا ترحمه ولا يحاول هو السيطرة عليها . وكان هذا هو حال الآخرين : بعضهم يبكي واقفاً أو جالساً ، وبعضهم يزعق أو يلوب والألم يعتصره أو يجمجم بكلام مفهوم أو غير مفهوم . ورأيت خليل العيلبوني الشاعر الفلسطيني الذي

تطوع للعمل مذيعاً وهو يقف ساكناً وقد اكتسى وجهه تعابير تعجز عن وصفها أي كلمات . ولم يكن أحد من الحاضرين في وضع يسمح لي بسؤاله عما وقع إلا منير الحمارنه . وأوجز منير النبأ الذي زعزع أصحابي : مذبحة في مستشفى الأشرفية في عمان وردت تفاصيلها على الجهاز . وقبل أن يكمل منير الرواية ، حشرج صوت خليل العيلبوني الذي يخنقه أساه : «لم يبق إلا أن نطلب من موشي دايان أن ينقذنا» . وغادر خليل الحجرة معلناً بصوت فتحه الأسى ذاته على آخره : «أنا ذاهب إلى الاستديو لأوجه نداء استغاثة إلى دايان لعلّ استنجادنا العلني بالعدو يثير نخوة الأشقاء» . وكان على أحد ما أن يمنع الشاعر المأزوم عن هذه الحماقة الخطيرة ، فجريت لاحقاً به ، وجاراني منير فأدركناه وهو يهمّ بدخول استديو البثّ المباشر ورجعنا به إلى الحجرة بعد أن هدأناه . وكان عبد الله قد هدأ هو الآخر بعض الشيء وحملت نظرته إشارة امتنان لتصرفنا . وبعدها ، أمكن أن أقرأ تفاصيل الرواية التي تحقق عبد الله من أنها وردت فعلاً على الجهاز .

صممت وأنا أقرأ التفاصيل على أن لا أهتاج حتى لا أبعث في الحجرة موجة اهتياج أخرى . تشبثت بمهنيتي وإرادتي ورحت أتبصر في الرواية . ويبدو أن عبد الله راقب تعابير وجهي وأنا أمرّ على التفاصيل المروعة فأسخطه أن تبدو تعابيري هادئة . كنت قليل الثقة بأنباء الجهاز . ووقعت في الرواية على تفاصيل لم يقبلها عقلي . وأعملت ذهني أنا الخبير بتهويلات الروايات الرسمية : أليس من المعقول أن تلجأ جماعتنا في عمان إلى التهويل لاستنهاض الضغط اللازم على الجانب الأردني . وأتممت القراءة دون أن يظهر عليّ الانفعال الذي ظهر على غيري ، وإن كان أساي كما أعتقد أعمق من أساهم . وإذا كنت أنت حريصاً على أن أكشف لك ما سترته آنذاك من مشاعري ، فأرجو أن تفهمني حين أقول إني عاجز عن وصفها وصفاً يلبي

فضولك . وكيف أصف خليط المشاعر التي انبثقت من مخزون القهر والآلام والمرارات والشكوك والضيق بسياسات الظالمين وسياسات الضحايا والتحسر على التضحيات المبددة والإحساس بالغبن والعجز ، كيف ، وبأي لغة ، ومن هو القادر على وصف هذا كله .

ولكي لا تخطئ الفهم ، أقرّ لك بأن الأمر كان أيسر على الوصف لو أني اقتنعت بأن الرواية صحيحة ، أما وقد ساورني الشك فيها فقد تعقدت مشاعري واشتد اختلاطها . وما أقسى أن تشك في رواية من هذا النوع في ظرف مثل هذا الظرف بينما تنهض أدلة أخرى تجعل من الجائز أن تكون الرواية صحيحة . ولكي لا تخطئ الفهم مرة أخرى ، عليّ أن أضيف أن الضيق بالتهويل لم يكن هو الأشدّ تأثيراً عليّ فقد كان هذا مما ألفته . أما الأشد تأثيراً فكان ضيقي بحاجة الضحايا إلى الدفاع عن أنفسهم بالتهويل . وليس مما يمكن المرور عليه مرور الكرام أن يحتاج الفلسطيني إلى المبالغة في تصوير ما يحل به من مصائب كي يستدر العطف أو التأييد لكأن المصائب الحقيقية الحالة به غير كافية على ضخامتها لاستنهاض الهمم . وأرجو أن تفهمني حين أقول إن الأقبح من الظلم هو التهاون في صدّه . وأقبح من هذا الأقبح وأشد بعثاً للأسى عندي هو اضطرار الضحايا إلى امتهان كرامتهم بالتفجع والنواح كي يدفعوا الآخرين إلى كفّ الأذى عنهم .

مرّ هذا في ذهني وكابدت مرارته . غير أن الإحساس بالمسؤولية طغى وسط الأسى المحيط . ووجدت أن عملنا لا بدّ من أن ينتظم كي لا تقع زلاّت كثيرة من نوع الزلّة التي أوشك خليل العيلبوني على إيقاعنا فيها . وهكذا ، دون الانتباه الى ما هو ضروري من الحصافة ، وجهت إلى عبد الله الذي ظل يراقب ردّ فعلي نظرة تعمدت أن تبدو باردة ، وقلت : «نبأ من الأنباء مرّ علينا مثله كثير ، وأنت تعرف أن جماعتنا تهول ، فما الذي أفقدك السيطرة على

أعصابك» . وما كان أقبح ما قلت وأسوأ وقعه ! مسكين أنا حين أفرط في ادعاء البرء من تأثير المشاعر الشخصية ، وما أشدّ ما أفرطت في ذلك الموقف ، ومساكين أصحابي حين يفرطون في إساءة فهمي ، وما أشد ما أفرطوا ! ظننت أني أهوّن الأمر على الأصحاب وأهدئهم . وكان هذا الظن إثماً كلّه . وإذا بي لا أفعل شيئاً سوى إثارة السخط وتأجيج الهياج من جديد . وكان عبد الله أعجل الأصحاب إلى التعبير عن السخط وأقساهم .

احتفظ هذا المتمرس بالعمل في الأزمات بتماسكه طيلة أيام القتال العشرة المنقضية فيما اختزنت روحه الآلام والمرارات . وبقي عبد الله قادراً على إدارة العمل الكبير والمتشابك دون أن تُحبط المثبطات عزيمته إلى أن جاء هذا النبأ عن مذبحة ، فانفجر المخزون . وفي ردّ فعله على مسلكي ، لم يفتقر قريبي وصديقي المهتاج إلى ضبط النفس وحده ، بل افتقر ، أيضاً ، إلى منطقه المألوف . وهكذا ، راح رفيق أيام الكفاح القاسي يزعق في وجهي بكل ما يرد على لسانه من قاموس الشتائم والاتهامات . وبلغ رد الفعل ذروة القسوة حين رماني عبد الله بهذه العبارة : «برودتك في التعاطي مع مآسي شعبك تجعلني أشك حتى في وطنيتك» . ولأن الضارة قد تنطوي على نافعة فإن قسوة الشتائم والاتهامات ألجمت ردّ فعلي الفوري ، فلم أرد على كلام عبد الله ولم أهجم عليه ولم نشتبك في عراك ، بالرغم من أن هذا كله ورد في البال .

وقتها ، سبق المذيع داوود يعقوب الجميع وهتف : «لا ، يا أبا منيف ، هذا فيصل ، حبيبك ، وحبيبنا كلنا» . وأدرك منير فداحة الألم الذي يعتصرني واختلاط مشاعري بين الحاجة إلى الرد وبين الحرص على ضبط النفس وتجنب ما هو أسوأ ، فأحاطني بذراعين حانيتين ، وقال بصوت جهير ليسمعه عبد الله المهتاج : «عبد الله أخوك المحبّ لك ، وما يقوله في لحظة غضب لا يعتدّ به ، وأنا واثق من أنه سيعتذر» . ثم همس منير في أذني بما يعرف أنه

سيلزمني ضبط النفس : «أنت أكبر من الحنق» . وحين اقتادني منير ليخرجني من الحجرة ، وجدني مطواعاً .

إني أعترف بأن الشتائم والاتهامات أحنقتني ، لكنها لم تجعلني أحقد على عبد الله . وقد كان منير بارعاً في إطفاء حنقي وإشعال حبّي للرجل الذي شتمني في ظرف يمكن لأي إنسان أن يرتكب فيه ليس الحماقات وحدها بل ربما الجرائم أيضاً . أبعدني منير عن الحجرة وعن مبنى الإذاعة كله ، وصحبني في مشوار لتهدئة الأعصاب ، فسرت وإياه على طريق بيروت الذي تكتنفه البساتين إلى أن وصلنا إلى مطعم الوادي الأخضر في الربوة . وهناك ظفرت بأول كأس بيرة أتناوله منذ زمن بدا لي طويلاً وأول وجبة أتناولها دون مزاحمة ودون تحرج . ثم عاد بي منير مشياً على الطريق ذاته إلى مبنى الإذاعة . وكان عبد الله قد استعاد هو الآخر هدوءه مثلما استعاد حضوره مديراً مقتدراً ومقدراً للمسؤولية ، فتلقاني بذراعين مفرودين وعلى وجهة ابتسامة سمحة ، لا بدّ من أنه اغتصبها في ذلك الظرف اغتصاباً لا لشيء إلا لتطييب خاطري . وشاء عبد الله الذي يعز عليه الاعتذار صراحة عن أي خطأ أن يعيد الجو إلى صفائه بيننا ، وبدل الاعتذار المباشر آثر الممازحة : «أعرف يا لعين أنك استفدت من حماقتي واستغليت الفرصة لتشرب كأساً رائقاً وتأكل وجبة شهية يدفع منير ثمنها» . وأدرك عبد الله أن مزاجي راق ، فجلس إلى مكتبه وقال وهو يناولني حزمة أوراق : «تمتعت بإجازة لم يظفر بمثلها غيرك ، ثلاث ساعات كاملة ، فعوضها بالعمل !» .

قد تسألني : هل وقعت إذاً مذبحة شنيعة في مستشفى الأشرفية وصدقت رواية الجهاز ؟ وجوابي هو هذا : في قتال الإخوة كل ما يقع شنيع حتى لو تعلق الأمر بالتراجم بالحجارة ، وكل طرف في هذا القتال يهوّل ، ولكل طرف جهاز .

١٠

رحل عبد الناصر فانهدت خيمة العرب

سموه أيلول/سبتمبر الأسود ، وكانوا على حق . وما وقع كان مأساة مريعة ذكّرت العرب بما هو مؤس في تاريخهم كله منذ حرب داحس والغبراء . ولم يكن لهذه المأساة أن تختم بأي حدث أفجع من الحدث الذي ختمت به فعلاً .

قبل هذا الحدث بساعات قليلة ، وصل ياسر عرفات إلى دمشق ، لم يكن الخارج لتوّه من المعمعة قادراً على العودة إلى عمان ، فاختار أن يجيء إلى العاصمة التي سندت المقاومة الفلسطينية والتي سيجيء إليها الخارجون من عمان بموجب اتفاق القمة . وكان عرفات خلال المعمعة قد عزز مكانته ، بقيادته القتال ، وإدارته المفاوضات ، ومناوراته أثناء انعقاد القمة ، وأرسى شعبيته قائداً حاذقاً يُقدم أو ينحني أمام العاصفة ، أو يحجم ، ينتقل من موقف إلى غيره ويتكيف مع التبدلات ، وذلك كله وفق ما يرى فيه مصلحة للقضية التي يتولاها . وقد وصل الرجل إلى دمشق ليس بهيأة الناجي من حصار لعين ، بل بزهو المنتصر ، وتصرف على هذا الأساس ، إنه ياسر عرفات الذي لا يتحرج أمام شيء ، حتى الهزيمة .

وكان من تجليات حرص عرفات على تكريم المنهمكين معه في المعامع أن

ابتدأ بزيارتنا في مبنى الإذاعة ؛ فعل هذا ليشكر المسؤولين السوريين الذين وضعوا إذاعتهم في خدمة الثورة الفلسطينية ويحيي الذين خاضوا حرب الإذاعة ويدلي ببيان وجد من الضروري أن يوجهه إلى المستمعين . وفي الإذاعة التي قدم عرفات إليها بعيد الظهر ، انعقد اجتماع فلسطيني حرص أبو عمار على أن أكون بين شهوده . وأطلع القائد الحاضرين على ما شاء أن يعرفوه من وقائع القتال والمفاوضات ، وتداول معهم الخطوط العامة للبيان الذي سيصدره ، ثم انفرد الرجل بعبد الله وبي فشرعنا في إعداد الصياغة . وقد توخينا أن يختم بيان عرفات فترة تفردنا بالإذاعة السورية ، وشئنا أن يتم هذا بأعجل ما يمكن حتى تعود الإذاعة إلى أصحابها ويعود صوت دمشق بعد أن غاب عن إذاعتها اثني عشر يوماً متصلة .

والواقع أن صياغة معظم الفقرات تمت بيسر ، فالأمر لم يَعدُ تلخيص ما قاله عرفات في الاجتماع . أما البند الذي نشأ حوله جدل فكان ذلك المتعلق بحساب عدد الضحايا . جاءنا أبو عمار برقم جعل عدد الضحايا على ما أتذكر اثنين وعشرين ألف شهيدة وشهيد . وبهذا الرقم ، أجمل عرفات الأرقام المهولة التي أوردتها بلاغات المقاومة أثناء القتال .

لم يكن أحد قد أجرى ، بعد ، أي إحصاء مدقق ولا كان بالإمكان إجراء مثل هذا الإحصاء في وقت قصير . غير أن التهويل في التقدير كان صارخاً . وبوصفي معارضاً مزمناً للتهويل وبما لي على عرفات من دالّة شخصية صرت تعرفها ، أبحتُ لنفسي أن أعترض بشدّة . واعترض عبد الله الذي تماثلت دوافعه إلى الاعتراض مع دوافعي مثلما تماثلت الحجج . قلت إن هذا الرقم غير معقول وما من أحد سيصدقه . وسقتُ الحجج كلها التي أسوقها في العادة حول أضرار التهويل . وطلبت أن نعلن رقماً أقرب إلى المعقول ونتحسب للمستقبل بالقول إنه رقم تقريبي ونعد الرأي العام بإعلان الرقم الدقيق عندما

يستوفى الإحصاء . لكن عرفات لم يأبه لحججي ولا للاقتراح ولا اهتم حتى بالدفاع عن صواب الرقم الذي جاء به ، ولم يكن هذا مما يشغل باله ، بل تشبث برقمه . فلما عاندتُ ، وجه أبو عمار إليّ تلك النظرة التي تظهر استخفافه بحججي وقرنها بحركة من يديه ، وتساءل مستنكراً : «مثالي ؟ !» ، ثم أورد ملاحظة أراد لها أن تبدو عابرة ، ولكنني أدركت أنها بيت قصيده : «هل كثير علينا لو لمينا قرشين من عرب الزفت اللي تركونا ننذبح . هل تستكثر على ولاد الشهداء اللي عايشين أن يشبعوا اللقمة !» . جبهني أبو عمار ، إذاً ، بحجة محرجة . وصار عليّ أن أتراجع ، لكنني لم أشأ أن أبدو فاقد المثالية فاقترحت أن نجعل الرقم دون العشرين ألفاً ، أي رقم دون هذا حتى لو كان تسعة عشر وتسع مئة وتسعة وتسعين . وأدرك عرفات أن المعترض استسلم لمنطقه هو ، فابتسم ، وأشرقت أساريره كلها ، وقال بنبرة يفيض منها الود : «خلّ الرقم زي ما هو يا فيصل ، وافهم عليّ ، أمّال !» . وكنت في الحقيقة قد فهمت وانتهى الأمر ، أو قل إني تهيبت مواصلة الاعتراض دون فائدة فاستسلمت ، وبقي الرقم المهول ، وتمت صياغة البيان . وغادر عرفات بعدها الإذاعة .

وكان داوود يعقوب على الهواء يقرأ بيان عرفات ، حين تلقى عبد الله مكالمة فأجهش في بكاء حارق وتشنجت يده على سماعة الهاتف . وبين دفقتي بكاء ، فاه عبد الله بالنبأ المروع : مات جمال عبد الناصر واكتملت المأساة .

استمر عبد الله في البكاء ، وبكى الحاضرون وفاضت دموعهم ، جميعهم ، ولم أبك أنا ، بل وجدتني ذاهلاً وبدا لي أن المحيطين بي يبكون لسبب أجهله ، وكان هذا هو الذهول خالصاً . لم تجمد الدموع وحدها ، هي التي جمدت منذ فجيعتي بأهلي في حصار الفالوجة في العام ١٩٤٨ ،

الحصار ذاته الذي كان عبد الناصر من أبطاله ، بل تجمدت المشاعر وتجمد الذهن ، أيضاً ، ولم أحس بشيء ولم أفكر بشيء .

تابعت موجة البكاء التي انداحت في الحجرة وكأن ليس فيها ما يخصني . ثم راقبت عبد الله وهو يغالب انفعاله ليستعيد القدرة على التصرف ويبحث عن مذيع لم يهدّه النبأ لينقل هذا النبأ المروع إلى المستمعين ، دون أن يتحرك فيّ حتى الحسّ المهني . ورأيت كيف عاد داوود يعقوب إلى الحجرة فأسلمه النبأ إلى البكاء ، فنشط بكاؤه بكاء الآخرين . ورأيت كيف تحامل عبد الله على لوعته ووقف إزاء داوود محاولاً تهدئته حتى يعود إلى الاستديو ويذيع النبأ . ورأيت داوود وهو عاجز عن لجم الانفعال الذي اكتسحه اكتساحاً . وسمعتني أقول وكأن القول يصدر عن شخص غيري : «لماذا لا يذيع داوود النبأ وهو يبكي ، أليس هذا هو الأليق» . ثم أحسستني أنسحب من الحجرة ، وأتوجه إلى المرآب ، فيخفّ السائق أبو رشاد إليّ بسيارته ويمضي بي باتجاه منزلي وهو يبكي ، وأستمع إلى مذياع السيارة فأسمع النعي الذي يقرؤه داوود وهو يبكي ، وأدخل المنزل ، وأتجه إلى حجرة النوم ، وأستلقي على السرير .

يقولون إن المقهور ينام نوماً عميقاً ويطول نومه . وقد امتد نومي في تلك الليلة حتى الصباح ، إلى أن أيقظني هاتف من عبد الله . لم يتطرق عبد الله إلى ذكر الحدث ، لكن عمق صوته وهدوءه الزائد عن المألوف أظهرا أن أساه لم ينقص . أراد الذي بهظه أساه أن أنوب عنه في تصفية شؤون صوت فلسطين صوت اللجنة المركزية لحركة المقاومة . ثم اتصل عطية الجودة ، ولعلك تتذكر أنه هو من كان المدير العام لهيأة الإذاعة والتلفزيون السورية وهو صديقي ، وطلب أن أجيء بسرعة لنتفاهم على التعليق السياسي الذي ينبغي أن أكتبه أنا في المناسبة الجليلة . ولم يأذن عطيه لي بالتفلت من أداء المهمة : «من

غيرك ، إن لم يكن أنت !» .

هيأت نفسي دون عناية ، وشربت فنجان القهوة . ودخنت سيجارة يومي الأولى وأشعلت ثانية منها . وخرجت إلى الشارع الذي ينتظرني فيه أبو رشاد وسيارته . كان الحزن هو ما ميّز شارع نوري باشا في ذلك الضحى ، مقر الشبيبة القائم إزاء منزلي كان هادئاً ، والفرن ، والدكاكين ، والمدرسة . وكان الهدوء حزناً . وأبو رشاد خالف عادته ، فلم يكن منصرفاً إلى تلميع سيارته كما هو شأنه وهو ينتظرني ، ولم يهذر ، بل جلس صامتاً وساكناً داخل السيارة ومضى بي وهو محتفظ بالصمت ، ولم يحدثني عن همومه العائلية كما ألف أن يفعل أو عن حكايات الذين ينقلهم بسيارته وغرائبها . وعندما سألت الصامت وراء المقود عما يبقيه صامتاً ، بقي نظره ممتداً أمامه ورد : «ألا تعرف !؟» .

لحظتها ، أشرفنا على مشهد ستظل ذاكرتي تختزن تفاصيله إلى الأبد . انفتح الشارع على الساحة التي ينتهي عندها شارع أبو رمانه ويتصدرها مبنى السفارة المصرية ، وأبطأ أبو رشاد حركة السيارة ، وقال : «إن كنت لا تعرف فانظر أمامك !» . ثم أوقف السيارة وحطّ رأسه على المقود واستسلم للبكاء . كان على مواجهتنا في شرفة المبنى العريضة صف من السيدات وهنّ يلبسن الملابس السوداء ويلوحن بمناديل سوداء هي الأخرى ويندبن ويبكين . وفي مشهد سيدات السفارة وحدادهن البليغ تمثلت لي مصر ، وفلسطين ، ودنيا العرب ، والعالم الثالث ، عالم عبد الناصر كله المفجوع برحيله . وانفجر مخزون أساي وفاضت الدموع التي احتبستها فاجعة ١٩٤٨ طيلة عقود .

يومها ، كتبت التعليق الذي يرصد فجيعتنا بعبد الناصر ، ولا بدّ من أن يكون واحداً من أصدق ما كتبت في حياتي .

قبل عبد الناصر مبادرة روجرز ، فكأنه ألقى قنبلة فجّرت سخط الشارع

العربي على السياسة الأميركية . شاء المثقل بالأعباء أن يظفر بهدنة حتى يتمكن من تقوية دفاعات مصر ضد أسلحة إسرائيل المتفوقة ، وتصور أن الآخرين يدركون دوافعه ، إلا أنه جوبه بحملة ساخطة وشنيعة ، ولم يظفر إلا بتأييد محدود ، متحفظ أو حيي ، فأثقل عليه الأمر وأضاف إلى أعبائه عبئاً بغيضاً . وقبل أيام من اشتعال القتال في عمان ، توجه الرجل إلى إحدى الاستراحات ، ولعله أراد أن يخلو بنفسه ويعيد فحص موقفه . وكان الرجل قد قضى منذ حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ أربعين شهراً متصلة مثقلاً بالمشاغل المضنية دون أن يحظى بيوم راحة واحد . وفي هذه المدة ، تعرض قلب عبد الناصر لهجمتين . وعندما اشتعل القتال في عمان والرجل في استراحته ، آثر معاونوه أن ينقلوا إليه أنباء مهوّنة . لكن ، اتضح أن الأمر أخطر من أن يطول إخفاؤه عن القائد المسؤول . وهكذا ، داهمت أنباء المأساة عبد الناصر مداهمة ، فرجع إلى مكتبه ، وانهمك في العمل الجهد .

نحى عبد الناصر حنقه على الذين أساءوا إليه من الفلسطينيين ، وواصل العمل ليل نهار لمساعدة المقاومة وكفّ الأذى عنها ، . وبذل من الجهد ما لا يقدر عليه حتى أعتى الأصحاء ، وأفلح في عقد القمة العربية وإدارتها إلى أن تم إبرام الاتفاق . وفي السياق ذاته ، أوجب معطوب القلب على نفسه أن يستوفي اللياقات اللازمة لاستقبال ملوك الدول العربية ورؤسائها الكثيرين وتوديعهم . وفي اللحظة التي أتم فيها آخر اللياقات ، وكان ذلك حين ودع آخر المغادرين ، داهمت قلب الرجل الهجمة القاضية .

في هذا الوقت ، فيما كنّا مجتمعين مع عرفات في الإذاعة ، كانت قيادة حزب البعث مجتمعة لتقييم نتائج القمة ، وكان بين أعضائها ساخطون على عبد الناصر . وقد اتهم هؤلاء عبد الناصر بأنه رضخ للضغوط الأميركية وخذّل عزائم العازمين على إسقاط النظام الأردني . وكان د . إبراهيم ماخوس عضو

قيادة الحزب نائب رئيس الحكومة وزير الخارجية في مقدمة الساخطين على مسلك الرئيس المصري . كان د . ماخوس بعثياً متقد الوطنية مجبولاً بالتشدد ، وكانت طموحاته كبيرة وعزيزة على نفسه . وقد اشتملت طموحات البعثي الذي لا يهادن بأن تتوحد الحركة الثورية العربية وتهزم الأنظمة والقوى المحافظة كلها وإسرائيل معها والصهيونية والأمبريالية وأن يرى فلسطين محررة والأمة العربية موحدة في دولة واحدة اشتراكية النظام . ولا أبالغ إن قلت لك إن الرجل كان يطمع في أن تتحقق هذه الأهداف كلها في حياته . وألف د . ماخوس أن يعدّ أي سلوك لا يتفق مع طموحاته مؤامرة دبرها ثلاثي لعين : الرجعية العربية والصهيونية والأمبريالية ، وأوكل إلى العملاء مهمة تنفيذها . ومع أن د . ماخوس كان يجلّ عبد الناصر حين يتحدى هذا المتآمرين ، فقد كان موقف ماخوس ينقلب إلى النقيض إذا رأى من عبد الناصر تهاوناً ويتّقد سخطه عليه . وهذا هو ما حصل في اجتماع القيادة . ولأن حافظ الأسد قاطع الاجتماع وبقي في مقره في وزارة الدفاع فقد كان هو أول من تلقى نبأ رحيل عبد الناصر الذي أبلغ إلى سورية على أجهزة الاتصال العسكرية قبل أن يبلغ إلى الجمهور بساعتين . وقد أرسل الأسد النبأ إلى اجتماع القيادة فبلغها فيما د . ماخوس ممعن في هجومه على عبد الناصر حائر بين احتسابه في عداد العملاء أو في عداد المتخاذلين . لكن ما أن داهم النبأ حتى انقلبت مشاعر ماخوس رأساً على عقب . وقال د . نور الدين الأتاسي الذي يرأس الاجتماع : «هذه كارثة تكمل الكوارث المتعاقبة» . وعقّب صلاح جديد : «انهدّت الخيمة التي تظللنا» . وتكلم ماخوس من جديد ، ليشيد هذه المرة بمآثر الزعيم الراحل ويعدد مزاياه ويحذّر من المخاطر التي تنجم من رحيله ويندب الحظوظ .

والواقع أن التعقيب الذي صدر عن صلاح جديد قد لخص أهم ما يمكن قوله عن هذه المأساة . شكل قادة البعثيين فريقاً ناشطاً في قيادة حركة التحرر

الوطني العربية التي يعدّ عبد الناصر أبرز قادتها . اتفق هؤلاء مع عبد الناصر حول أمور ، واختلفوا معه حول أمور أخرى ، وكثيراً ما اصطدموا به أو ناكفوه ، ولا يمكن القول بأنهم ، إذاً ، من أتباعه . إلا أن الأمر كان أشبه بعلاقات أعضاء الأسرة مع ربّ أسرتهم : يماحكونه فيما هم على يقين من سعة صدره وحلمه ويدركون أنه قادر في نهاية أي مطاف على إخراج الأسرة من المأزق . وقد انتهى عبد الناصر إلى أن يصير حقاً الخيمة التي يستظل بها حكام الدول العربية وناس المعارضة فيها ، المتفقون معه في الرأي والمختلفون . وكان هذا الزعيم الكبير هو الأقدر على اجتذاب الجميع إلى العمل العربي المشترك ، وهو الوحيد الذي استطاع أن يلزم كل دولة عربية بعمل شيء ما في مواجهة العدوان الإسرائيلي .

وبعد مأساة أيلول/ سبتمبر المزدوجة هذه ، تعاقبت على الساحة السورية التطورات الدراماتيكية التي لم يتمكن أحد من وقف تواترها المتسارع . هذه التطورات جرت وتزامنت مع محاولات تطبيق الاتفاق الفلسطيني الأردني فأثرت فيها . فسرعان ما رجعت القوات السورية التي اقتحمت حدود الأردن تحت راية جيش التحرير الفلسطيني إلى مواقعها مخلية المجال لجيش الأردن كي يحكم سيطرته من جديد على شمال بلده . وسرعان ما انسحب المسلحون الفلسطينيون من العاصمة الأردنية ، فتوجهت غالبيتهم إلى سورية وتوزعت البقية على مواقع معزولة في أحراش جرش . ومع كل خطوة ، نجمت عشرات المشاكل وتوجب أن تنشغل اللجان العربية التي أوكلت القمة إليها مهمة تنفيذ الاتفاق بحل هذه المشاكل . وفي غضون ذلك ، احتدمت الخلافات بين كتلتي البعث وانتهت إلى القطيعة بينهما وراحت كل كتلة تستنفر قواها للمجابهة الحاسمة ، وغابت فرصة تسوية الخلافات بالحسنى .

وجد حافظ الأسد في التطورات الجارية ما عزز وجهة نظره هو الذي لم

يتحمس لإقحام الجيش السوري في قتال الإخوة . وصار بإمكان الأسد أن يواجه خصومه بالقول إنه لو قبل الفلسطينيون قبل القتال ما اضطروا إليه بعده لما احتاج الأمر إلى أي قتال أو أي تدخل من الجيش السوري . والواقع أن زعيم الكتلة التي زادت قوتها نجح في تحريض غالبية العسكريين والكثيرين من المدنيين البعثيين ضد كتلة القيادة ووضع هذه الكتلة في موقع الدفاع عن النفس واستلّ قدرتها على المبادأة بالهجوم . وفي محاولتها لجم اندفاعة الأسد إلى حسم ازدواجية السلطة في الدولة لصالحه ، التجأت القيادة إلى الشرعية الحزبية . ولأن أنصار القيادة كانوا هم الأغلبية في مؤتمر الحزب القومي فقد شاءت القيادة أن تحتكم إليه . إلا أن الكتلة الأخرى احتجت بأن أعضاء المؤتمر انتخبوا قبل التطورات الجديدة فهم يمثلون ، إذاً ، واقعاً تبدل ولا يعتدّ بشرعيتهم . وما أن وجهت القيادة الدعوة إلى عقد المؤتمر حتى أعلن الأسد أنه سيقاطعه ولن يلتزم قراراته . وفي الأيام التي تلت توجيه الدعوة ، عاشت سورية وقتاً عصيباً على حافة انفجار يعرف الجميع أنه واقع لا محالة .

أما أعضاء حزب البعث ، وهم المعنيون أكثر من غيرهم بما يجري ، فقد اضطربت مواقفهم اضطراباً شديداً . كان أقل هؤلاء قد اصطف سلفاً مع واحدة من الكتلتين ، منهم من فعل هذا لسبب مبدئي ومنهم من اجتذبته مصلحته الشخصية . وبقي معظم البعثيين حائراً . فكتلة القيادة توفر ضمانة لاستمرار نفوذ الحزب ودوره والفرص المتيسرة لأعضائه في تولي شؤون الدولة ومؤسساتها . ولكن مسلك زعماء هذه الكتلة اتسم بالتزمت السياسي والتشدد التنظيمي والتقنين الشديد في إباحة الامتيازات . والكتلة الأخرى إن أثار احتمال انتصارها القلق على دور الحزب ودور مدنيّيه فهي على أي حال قوية ومن المتعذر تصفيتها . ثم إن بعض دعوات هذه الكتلة متميز وهو مما يتعاطف البعثي معه ، خصوصاً دعوتها إلى فك عزلة سورية عن محيطها

العربي وتغليب السمات القومية على السمة الطبقية .

لقد ركز معظم البعثيين أمله في أن يستمر حكم الحزب وراقب صراع الكتلتين في هدي تشبثه بهذا الأمل ، ومال إلى هذه الناحية أو تلك بمقدار ما لاحت فرصة تحققه . ومع احتدام الصراع في أيامه الأخيرة ، برزت ظاهرتان متوازيتان : تمايز سافر ؛ واختلاط في المواقع . ولئن تمايز خلصاء كل كتلة بعضهم عن بعض حدّ التنابذ ، فما أكثر الذين وضعوا رجلاً هنا وأخرى هناك وتحفزوا لتحديد خيارهم النهائي حين تنجلي نتيجة الصراع ! ولم يتسن إجراء حساب دقيق ، فترجرج المواقف لا يأذن بإجراء أي حساب . وفي الظاهر ، كما صرت تعرف ، كانت غالبية العسكر مع الأسد وغالبية المدنيين مع القيادة . أما في العمق فإن تعزيز الأسد لقوته خطوة خطوة على حساب قوة القيادة ضمن له أن تلحق غالبية المدنيين به حين تدرك أن السلطة آلت اليه .

وعلى هامش هذا ومن داخله ، وجد من حاولوا رأب الصدع ، بعثيون تصوروا أن وحدة الحزب هي ضمانة استمرار نظامه الحاكم ، آخرون خشوا أن يقيم الأسد نظام حكم عسكري صرف ، وما إلى هؤلاء من المسكونين بالهواجس والموصوفين عادة بذوي النوايا الطيبة . وفي هذا الجو ، تميز موقف الشيوعيين فظهروا في مقدمة الداعين إلى وحدة حزب البعث . وقد بذل الشيوعيون جهداً اتصل ليل نهار وهم يحاولون إطفاء نيران منازعات لا تنطفئ .

ولأن تشابك الوضع أتعبني حتى كدت أعجز عن قراءته ، فقد قصدت خالد بكداش متبعاً عادتي كلما تهت أو أوشكت على التوهان . وكان الأمين العام للحزب الشيوعي السوري إزاء منازعات البعثيين بعضهم مع بعض في حال لا يحسد عليه . فكتلة القيادة صاحبة الدعوات اليسارية كان فيها الناس الذين عملوا على شق الحزب الشيوعي وحرّضوا أعضاءه ضد زعامة بكداش

المقتدرة . وكانت هذه حكاية يراقبها بكداش بحذر ويتجنب نشرها حرصاً منه على التحالف القابل للعطب مع البعثيين ، مع أن الحكاية كانت تخصّه وتؤشر إلى شيء زائف في يسارية هؤلاء اليساريين . ولك أن تعرف أن صلاح جديد والعديد من أنصاره الذين حرضوا شيوعيين ضد بكداش منّوا هؤلاء بالتوحد معهم إن سيطروا على الحزب الشيوعي وأقصوا بكداش عنه . وكان في بال صلاح جديد وفريقه على ما يبدو صورة ما حصل في كوبا : كاسترو الذي اجتذب الشيوعيين إليه ، وإن تكن شائهة . أما العسكر ، هؤلاء المتهمون بأنهم على يمين قيادة حزبهم ، فكانوا يمنّون الحزب الشيوعي بتوسيع التعاون معه والسير على طريق التضامن العربي الذي يدعو إليه الشيوعيون لمواجهة إسرائيل والاحتفاظ بأطيب العلاقات مع الاتحاد السوڤياتي . وفي لقاءاتي مع بكداش بحثاً عن إيضاحات افتقرتُ إليها ، أدركت أن الحزب الشيوعي متمسك بدعوته إلى وحدة حزب البعث ، فإذا حسم الصراع لصالح الأسد فإن الحزب لن يعارض مسبقاً بل سيقرر موقفه في ضوء السياسة التي ستتبع . وقد قال بكداش ، وهو المعروف عنه أنه ينتقي كلماته انتقاءً دقيقاً حتى حين يتحدث في منزله إلى أخلص خلصائه : «نتعاون مع البعثيين ، أي بعثيين ، ما داموا ماضين في سياستين : مجابهة العدوان الإسرائيلي ؛ والاحتفاظ بعلاقة طيبة مع الاتحاد السوفياتي ، ولا نلغي التحالف بسبب أي سياسات أخرى مهما اعترضنا عليها» .

موقف الفصائل الفلسطينية كان أشدّ تعقيداً ، فهي لم تنس أن القيادة المهددة بالتنحية هي التي وفرت أعظم الدعم للفلسطينيين وجازفت حتى بوجودها حين احتاجوا إلى مجازفتها . إلا أن هذه كانت هي القيادة ذاتها التي ضاقت فصائل عدة ببعض أوجه سلوكها . أليست هي القيادة التي حاولت الهيمنة على «فتح» ذات مرة وأدى بها الأمر إلى حبس ياسر عرفات وخليل

الوزير وإخوان لهما بتهمة القتل ، أليست هي التي حبست د . جورج حبش وعملت على شق جبهته . ثم كيف تستطيع الفصائل أن تجهر بالتأييد لقيادة تشير المؤشرات كلها إلى أنها مولّية ، وهل تستطيع أن تستغني عن سورية حين يحكم حكام جدد ، خصوصاً أن لمعظم الفصائل علاقات بهؤلاء القادمين لا تقل عن علاقاتها بالآخرين . ولم يكن من شأن قيادة «فتح» بالذات أن تنسى أن حافظ الأسد هو الذي استخدم نفوذه من أجل تبرئة عرفات والوزير من تهمة قتل الضابط البعثي يوسف عرابي ويسر خروجهم من السجن . أضف إلى هذا أن معظم ناس الفصائل كان يرتاح إلى التعامل مع العسكر ، في سورية أو غيرها ، أكثر من ارتياحه إلى المدنيين ، فمع العسكر ، الأمر أبيض أو أسود ، يصير أو لا يصير ، فهو أريح .

وقتها ، لم أكن ، كما تعلم ، عضواً في حزب البعث كما كنت قبل سنتين . إلا أني لم أصر قليل الاهتمام بما يجري ولا قليل الاتصالات بالبعثيين . وبالنسبة لناس الكتلة الأخرى ، بقيت معدوداً من ناس كتلة القيادة حتى بعد طردي من الحزب . ألم أكن رئيس تحرير «الطلائع» وكاتب التعليقات السياسية اليسارية والداعية المثابر إلى مقاومة هيمنة العسكر أياً ما كانت عليه الكتلة التي تضمهم . ولقد وجدتني منهمكاً في الصراع محسوباً على القيادة حتى وأنا لا أكفّ عن انتقاد سياستها المتشددة ونهجها المغامر ولم ينفعني إصراري على القول إني محايد . والواقع أني لم أمحض تأييدي إلى جهة بالمطلق ، ولم أعاد أي جهة بالمطلق ، بل ألفت أن أحدد مواقفي في ضوء ما أقبل أو أرفض من سياسات . ولئن أيّدت بعض سياسات كتلة القيادة ، فقد جهرت بتأييدي للدعوة إلى التضامن العربي وتغليب متطلباته على متطلبات الخصومة مع الأنظمة العربية المحافظة . وكانت هذه بالذات دعوة ناقضتها سياسة كتلة القيادة فيما جعلتها الكتلة الأخرى محوراً رئيسياً من

محاور سياستها . وأنا أزعم أني كنت سأسعد لو عوملت من الطرفين بوصفي محايداً . لكنه كان وقت الاصطفاف ، فلم تلغني كتلة القيادة من حسابها لمناصريها ولم يكفّ ناس الكتلة الأخرى عن احتسابي في خصومهم .

وقد أدركت ما أدركه غيري في ذلك الوقت ، وهو أن انعقاد المؤتمر القومي للحزب سيستتبع تحرك الأسد وكتلته فوراً . فإن أتمّ الأسد التحرك فإن ازدواجية السلطة ستحسم لصالحه . ووجدتني أصل الليل بالنهار داعياً إلى تأجيل انعقاد المؤتمر حاثاً على التعقل . وفي مساء سبق يوم افتتاح المؤتمر ، سعيت إلى مقابلة أصحاب القرار في كتلة القيادة ، وقادني سعيي إلى مقر قيادة الصاعقة حيث وقعت على صلاح جديد ويوسف زعيّن مختلين فيها . وما أن أحيط المشغولان بالهم الثقيل علماً بوجودي حتى أذنا لي بقطع خلوتهما ، فكان في هذا ما شجعني على مزيد من الصراحة في حديثي إليهما . وقلت لزعيمي الكتلة المهددة بفقدان سلطتها ما أردت قوله كله . تكلمت قرابة ساعة وختمت كلامي برجاء أن يعملا على التأجيل فربما أمكن العثور على حل ما غير الصدام الذي نعرف نتيجته . بالطبع ، لم أكن الوحيد الذي نصح بالتأجيل ولا الوحيد الذي رُفضت نصيحته . وقد أفاض صلاح جديد في الرد عليّ وتبسط في شرح حججه . وكانت الحجة الأولى وحدها حاسمة الدلالة : سيتحرك الطرف الآخر إن انعقد المؤتمر وإن لم ينعقد ، ولانعقاد المؤتمر دور هام ، فهو يفقد الآخرين الشرعية الحزبية ويدمغ تحركهم بأنه تمرد عليها . ولم يخف أبو أسامة قناعته بأن حافظ الأسد سيسقط القيادة ويظفر بالسلطة . وكان الرجل معنياً في حديثه إليّ بتثبيت أمر واحد : أن يعرف الجميع أن القيادة سقطت ضحية دفاعها المستميت عن المبادئ . وما تزال ترن في أذني الكلمات التي ختم صلاح جديد بها كلامه : «ما دام لا بد من أن نسقط فليعرف الجميع أننا سقطنا شهداء ونحن ندافع عن الشرعية الحزبية وعروبة

فلسطين» .

في ظرف غير هذا الظرف ، كنت سأحسب ما قاله صلاح جديد مجرد كلام شعاري وسأواجهه بأنه تحرك هو نفسه قبل أربع سنوات وأسقط قيادة الحزب السابقة بقوة السلاح ولم يأبه للشرعية وأن ما يقوله عن فلسطين لا يميزه شيء عما قاله الذين أسقطهم هو . أما في الظرف الذي كنت فيه ، حين قال هذا الكلام رجل يعرف أن نجم سلطته آفل ، فلم أملك إلا أن أصمت .

وعندما رويت هذه الواقعة لخالد بكداش ، وكان صلاح جديد قد غدا حبيس سجن المزة العسكري ، عقب القائد الشيوعي الكبير بأسلوبه الوجيز : «هكذا هم رفاقنا البعثيون اليساريون ، تأسرهم الشعارات الكبيرة ، ولا يهتمون بمتطلبات الواقع العياني» .

في مساء اليوم التالي ، انعقد المؤتمر وسال كلام كبير كثير وشعارات كبيرة كثيرة . وتبارى المتكلمون في توجيه الاتهامات الى العسكر : افتراس الحزب ، وحرمان الأمة العربية من طليعتها البعثية ، وبيع فلسطين ، وما إلى ذلك . وحذر المتكلمون من أن العسكر سوف يغتالون الحريات . نسي هؤلاء أنهم حكموا البلد أو شاركوا في حكمه منذ سبع سنوات دون أن يقنعوا الأمة العربية بأنهم طليعتها ودون أن يبقوا من الحريات إلا أقلها ، كما نسوا أنهم اعتمدوا هم أنفسهم على العسكر . تفنّن هؤلاء في التخويف من ديكتاتورية قادمة ونسوا أنهم لم يقدموا نموذجاً للديموقراطية حتى يدافع الجمهور عنهم .

وفي الصباح ، صباح السادس عشر من تشرين الأول/ أوكتوبر ١٩٧٠ ، جرى ما كان متوقعاً : اقتيد معظم أعضاء القيادة وأنصارها العسكريين والمدنيين الكبار إلى السجن ، وسيطرت وحدات عسكرية تأتمر بأمر وزير الدفاع على المناطق الحساسة في البلد ، ونقلت الإذاعة إلى الجمهور البيان الأول للذين حسموا الصراع لصالحهم . حركة كلاسيكية مألوفة ، تمت بغير متاعب

تذكر ، ودون إراقة دماء . خصوم الحركة البعثيون سموها انقلاباً عسكرياً وتمرداً على الشرعية . أما أصحابها فسموها الحركة التصحيحية . ولما كنت كغيري من الناس أتوقع ما وقع ، فقد بكرت في إدارة مفتاح المذياع : تلاوة من آي الذكر الحكيم ، هذه التي لا بد منها في أي ظرف ، ثم موسيقى وأغان حماسية ، ثم البيان ، وما يذاع بين أغنية وأخرى من برقيات التأييد ، مما هو كلّه مألوف . وقد لفت نظري أن بيان الحركة التصحيحية لم يشتط في الهجوم على القيادة المنحّاة ، بل تركز على عرض أهداف الحركة الجديدة بأكثر مما تركز على الأخطاء السابقة . وكان لهذا عندي مغزى سافر الدلالة : حقق ناس الحركة نصرهم في الصراع على السلطة وهم يتطلعون إلى اجتذاب مؤيدي القيادة المنحاة إلى تأييدهم هم ، أما السياسة فقد يتبدل بعض بنودها إلا أن جوهرها سيظل على حاله . وأنا أتذكر كيف كرر البيان التأكيد على أن ما سقط هو عقلية التسلط والمناورة . وقد أطلق هذا التعبير لساني بتشنيعة فورية ما أسرع ما شاعت على الألسنة في دمشق : «خسارة ، فقدنا المناورة !» .

مساء اليوم ذاته ، سهرت في منزل د . نبيه ارشيدات ، وجاء إلى هذا المنزل عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري دانيال نعمة . وكان هذا رجلاً يبدو على الدوام متحمساً لشيء ما . وهو يتحمس خصوصاً لأي عمل ينهمك فيه ، ويفرط بلزوم وبغير لزوم في عرض الحجج التي تسوغ حماسه حتى لو عرف أنك مؤيد له . وأبلغ المتحمس حتى تلك اللحظة للقيادة المنحاة إلى نبيه الذي تتناوبه الهواجس أن الحزب كلّفه ، هو دانيال ، الالتقاء مع الذين سماهم جماعة صلاح جديد . وقال دانيال إنه اتفق مع الجماعة على القيام بمظاهرة ضد ما سماه حكم العسكر . وقضت الخطة التي اتفق عليها بأن يتجمع المتظاهرون غداً ، في ساحة السبع بحرات ، أمام مقر قيادة حزب البعث في العاصمة ، لتكون نقطة الانطلاق . ولما كان نبيه مثلي

غير واثق من توفر العدد اللازم لمظاهرة ذات وزن ، فقد عبر عن خوفه من الفشل . كان نبيه ، مثلي أيضاً ، واثقاً من أن الجمهور غير معني بالدفاع عن القيادة المنحاة وغير مشغول البال بمسألة الحفاظ على الشرعية في حزب البعث واستقامة الالتزام بنظامه الداخلي . ومثلي أيضاً ، قدر نبيه أن معارضي الحركة الجديدة قد يكونون كثيرين ، من أعضاء الحزب ومن غيرهم ، إلا أن معظمهم لن يجازف بالاشتراك في مظاهرة يعرف أن السلطة الجديدة ستواجهها بشدّة .

لكن دانيال بقي على حماسه ورأى رأياً مغايراً : «تعهدت جماعة صلاح جديد أن تحشد ما بين مائة ومائة وخمسين ألفاً ، فإذا جاريناك وحذفنا المبالغة فلنا أن نتوقع خمسين ألفاً على الأقل ، أضف إليهم الألوف التي يمكن أن يحشدها حزبنا !» . وتصور دانيال أنه قد بهر نبيه ، وهتف : «ألا يكفي هذا للتعبير عن موقف الجماهير واستعدادها للدفاع عن مكتسباتها التقدمية ! ؟» .

إلى هنا ، كنت أتابع حوار القائدين الشيوعيين صامتاً . كنت مغتاظاً لأسباب كثيرة ليس أشدّها قلقي على أصحابي الذين حبسوا أو حنقي عليهم لسوء تقديرهم الأمور ، فأججت تقديرات دانيال المهوّلة غيظي ، وفجرت ضيقي المزمن بالمزايدات ، وأطلقت لساني بتحدٍ غير مهذب : «سأقصّ عضوي إن جاء إلى الساحة أكثر من خمسمائة متظاهر !» . ولم يؤخذ الرجل المتحمس باعتراضي ، لا أخذ بجوهره ولا انتبه إلى قلّة الأدب ، بل واصل الجمع والطرح متشبثاً بسداد توقعه .

في الصباح التالي ، راقبت الساحة من مقر «الطلائع» القريب منها . توافد الذين لبوا الدعوة واحداً واحداً ؛ يصل الواحد منهم في هيأة عابر طريق ، ويتشاغل بأي شيء يسوغ وقوفه في المكان ، ويتجاهل الذين سبقوه ، تماماً كما كنا نفعل أيام انهماكنا في العمل السرّي . وقد سهُل على خبير مثلي أن يميز

نوعين من الوافدين : العازمين حقاً على الاحتجاج ورجال الأمن المرسلين لمراقبتهم . وقد ينبغي أن أقرّ دون أن أتعمد التطرف بأن عدد المتجمعين فاق المئات الخمس التي توقعتها فبلغ ما يقرب السبع ، غير أن عدد رجال الأمن من هؤلاء لم يقلّ عن مائتين . وحين لمحت عبد الله الأحمد عضو القيادة المنحّاة قادماً ، أدركت أن لحظة الانطلاق أزفت . كنت أعرف هذا الرجل معرفة تامة وأعلم أنه من الموالين لصلاح جديد . وما أن بلغ الرجل النقطة التي سيقود منها المظاهرة حتى تجمع الآخرون حوله ورفعوه على أكتافهم . وقد هتف هو بشيء ردده المحيطون به ، فبلغني صخب الهتاف . ولحظتها بالذات ، قبل أن يتردد هتاف آخر ، بدأت المعمعة ، وليس المظاهرة . نشب العراك بين رجال الأمن الذين أظهروا ما خبؤوه من هراوات ومسدسات وبين المتظاهرين . ولم يحتج الأمر لأكثر من دقائق قليلة حتى خلت الساحة من المحتجين ، بعضهم اعتقله رجال الأمن وبعضهم أفلح في الفرار . وكان عبد الله الأحمد بين المعتقلين ، وقد رأيت معتقليه وهم يحملونه إلى سيارتهم ويحشرونه فيها حشراً .

أسيت إزاء هذا المشهد ، هزالة الاحتجاج وضخامة سطوة الأمن والفوج الجديد الذي اقتيد إلى السجن . ووجدتني أغادر مكتبي وأتبع طرقاً جانبية تجنبني عبور الساحة والعيون التي تراقب أي حركة حولها . وفيما أنا مستغرق في الهموم ، نبتت أمامي قامة دانيال نعمة فجأة . ولكم استقبحت هذه المصادفة ! لم أكن في وارد الخوض في جدل أو الاستماع إلى إيضاحات ، فحييت القائد الشيوعي دون أن أتوقف . غير أن الرجل لم يبح لي المضيّ قدماً ، ولم يكن حماسه قد انطفأ أو نقص : «هل كنت في الساحة ؟» . قذفني بالسؤال صوت مجلجل ، فأجبت باقتضاب متعمد : «لا» ، ثم أضفت قبل أن يفيض هو : «ولماذا أكون فيها ؟» . وشئت أن أفلت من آسري ، غير أنه

لم يرحمني : «خسارة ! أحببت لو أنك شفت الجماهير وهي تستبسل في الدفاع عن مكتسباتها» .

بعد يومين ، عيّن ناس الحركة قيادة لتسيير شؤون الحزب تحلّ محل القيادة المنحاة وتحضر لعقد مؤتمر جديد ينتخب القيادة الدائمة . ولدهشتي ظهر اسم عبد الله الأحمد قائد الاحتجاج على الحركة في قائمة أعضاء القيادة المعيّنة . ولم يكن الأحمد هذا هو وحده الذي بدّل ولاءه ، فقد تبدلت ولاءات الغالبية ؛ بعضهم بدل ولاءه على عجل ، وآخرون تأنوا . وفي المحصلة ، التحق معظم أعضاء الحزب بالقافلة وسار وراء حاديها الجديد .

قائد بعثي آخر أعلى مرتبة من عبد الله الأحمد عاينت تحوّل ولائه ، إنه الأردني عضو القيادة القومية محمود المعايطة «أبو ساهر» . ففي زمن الازدواجية ، اصطف أبو ساهر مع أغلبية القيادة وأظهر الولاء لكتلتها وحضر المؤتمر القومي الحاسم وشارك في الصخب ، وكان من المفروض أن يحلّ به ما حل بغيره : أن ينتهي إلى السجن أو يتوارى عن الأنظار . غير أن ناس الحركة التصحيحية أبقوا الرجل طليقاً فبقي في منزله وراح يراقب التطورات . وإلى هذا المنزل ، جاء عدد كبير من البعثيين الحائرين ، جاء هؤلاء إلى قائدهم يستكشفون توجهاته ويستنصحونه . وقد استمهل أبو ساهر زواره قبل أن يفصح عن موقف نهائي . قال الرجل إن مصير الحزب هو أول ما يعنيه وأنه عازم على استكشاف موقف الحركة الجديدة من الحزب . وفي لقائه مع الأسد ، استخلص أبو ساهر أن راية الحزب باقية : «بكى رفيقنا حافظ الأسد على حال الحزب وأبكاني معه» .

لا أدري لماذا شعرت بأني أنتمي إلى الفريق الذي انهزم ، هل لأن صلتي كانت وثيقة بناس القيادة التي نُحّيت ، أم لأن فيّ ميلاً مزمناً إلى إظهار الشهامة ومناصرة الضعفاء . والواقع أن مشاعري اختلطت وأنا أراقب نجاحات

حركة الأسد في بسط هيمنتها على مؤسسات الحزب والدولة ، وتناوبتني ردود فعل متباينة . فمع الأسى والإحساس بالإندحار ، خلّف انفثاء دمل الإزدواجية الذي سمم حياة البلد نوعاً من الإحساس بالراحة . ولما لم يكن التمايز بين الكتلتين تمايزاً بين أبيض بتمامه وبين أسود بتمامه ، فقد اختلطت أيضاً الألوان . ولئن حملت التطورات الجديدة بعض النذر ، فقد انطوت أيضاً على عدد من الوعود .

وفي خليط المشاعر والألوان ، تميز شيء حاسم . فقبل الحركة ، احتفظت بصلتي بالبعثيين ، بالرغم من طردي من حزبهم ، وبقي انشغالي بالهم السوري الداخلي موازياً لانشغالي بالهمّ الفلسطيني . أما بعد الحركة فلم يعد يصلني بالهم السوري إلا ما يصل أو ينبغي أن يصل الفلسطيني به ، غاب إحساسي بأن الحزب هو حزبي والبلد هو بلدي ، وحل محلهما الحزب الشقيق والبلد الشقيق . وصار علي أن أعيد ترتيب أموري .

وكان أعجل ما واجهت هي مشكلة وجودي رئيساً لتحرير «الطلائع» . فقد أبقى العهد الجديد على منظمة الصاعقة بعد أن قلّص حجمها وأبقى منه ما هو لازم للشأن البعثي الفلسطيني وحده . وكان من المتعذر أن أتمتع في العهد الجديد بالنفوذ الذي توفر لي في العهد السابق أو الحماية والصلاحيات التي تمتعت بها في توجيه المجلة كما أريد . وهكذا ، قررت أن أستقيل . ولكني حرصت على أن لا تعدّ استقالتي تحدياً لأيما أحد . وقد نجم حرصي هذا من دوافع عدّة بإمكانك أن تدرج بينها خشيتي من أدفع ثمن التحدي دون لزوم . تشاورت في شأن استقالتي مع نبيه ومنير . كان الشيوعيون قد حزموا أمرهم على الاستمرار في التعاون مع البعثيين في ظل القيادة الجديدة ، فجاء رأي نبيه واضحاً : «احتفظ بأي موقع متاح لك وواصل النضال من الداخل !» . أما منير الذي يتفهم رغبتي في الخلاص فقد أظهر أنه يثق بحسن تقديري لموقفي

دون أن يحثني على شيء بعينه . وتشاورت أيضاً مع عبد الله الحوراني ، فأبدى هو الآخر تفهماً حمدته له وتميز عن منير بأن حثني على الاستقالة وأعانني في رسم التفاصيل . لم يكن عبد الله قد قطع صلته التنظيمية بحزب البعث فكانت مساعدته العملية لي فعالة . وعبد الله هو الذي تدبر الأمر مع مسؤول الإعلام في الصاعقة فجعل لاستقالتي وقبولها تاريخين يبدو معهما أن الأمر بتّ قبل وقوع الحركة التصحيحية ، تجنباً لأي تفسير للاستقالة قد يتسبب لي بأذى لا لزوم له . والمفاجأة الوحيدة في الترتيبات التي تمت بهدوء وتكتم أن عبد الله حل محلّي في رئاسة تحرير «الطلائع» . ولأننا ، عبد الله وأنا كلينا ، كنّا محسوبين بين أنصار العهد الذي سقط لتوّه وكنّا مندوبين لاتخاذ الموقف ذاته إزاء العهد الجديد فإن هذه المفاجأة بلبلتني بعض الشيء . لكنني لم أفاتح عبد الله ببلبالي خصوصاً أنه فعل أشياء كثيرة لصالحي . ويبدو أن صديقي وقريبي هذا هجس بشيء ، ولذا فإنه هو الذي بادر إلى تقديم الإيضاح : ستجري في حزب البعث دورة انتخابات جديدة ، وقد اعتزم هو أن يدخل المنافسة ، ومن شأن وجوده في رئاسة تحرير «الطلائع» أن يعزز فرصته في الفوز . وقد دخل عبد الله المنافسة فعلاً ، وتصدر تكتلاً في التنظيم الفلسطيني منافساً للتكتل الذي تصدره زهير محسن ، وفاز في المنافسة في مراحل الانتخابات كلها إلى ما قبل النهائية . وفي المؤتمر الذي أفرزته الانتخابات ، تساوى عددا ممثلي الكتلتين . فاحتدمت المنافسة . ثم تمكن زهير وأنصاره المؤيدون من قبل العهد الجديد من اجتذاب مندوب واحد من أنصار عبد الله أغروه بوظيفة كبيرة فظفر زهير وكتلته في السباق بأغلبية صوت واحد وتلقى عبد الله صدمة أسلمته من جديد إلى اليأس وانتهى أمره إلى الاستقلال عن تنظيم حزب البعث كلّه .

باستقالتي من «الطلائع» ، بقي لي الموقع الذي كنت أشغله في جريدة

«البعث» ، موقع الكاتب غير المسؤول عن أي إدارة . وكان رئيس التحرير الذي يبغضني ، أسعد صقر ، قد نحّي وانتهى أمره إلى السجن . وكان ناجي الدراوشة رئيس التحرير الأسبق الذي ضقت بجهله المهنة قد أعيد ليشغل هذا المنصب . وعدا هذا الاستبدال ، لم يطرأ على جهاز الجريدة أي تطورات تذكر . وقد بقي في الجريدة المحررون أنفسهم الذين كانوا فيها ، الموالون للقيادة السابقة وقد بدلوا ولاءهم ؛ والموالون للجديدة وقد انتعشوا ، والذين بين بين وقد تهيأت لهم فرصة الاصطفاف على جهة واحدة بعد أن زالت الازدواجية .

ويبدو أن أحداً ما قد أفهم الدراوشة أن وجود صحافي مثلي في الجريدة مفيد لها وللحركة الجديدة . فخصني الرجل بمعاملة اختلفت هذه المرة عن أي مرة سابقة ، وأتاح لي كتابة عامود يومي ، ولم يتشدد في مراقبة ما أكتب ، وقبِل أن يختص عامودي بالشأن الفلسطيني ومسائل الصراع العربي ـ الإسرائيلي .

وفي هيأة الإذاعة والتلفزيون ، بقي عطية الجودة مديراً عاماً ، فأبقى لي مهمة المشاركة في كتابة التعليقات السياسية خصوصاً حين تتناول الشأن الذي عزمت على التخصص فيه .

هنا ، أجد من المهم أن تعرف أني تمتعت بحرية أوسع في التعبير عن آرائي ، لا تستنتج أن العهد الجديد وفر مجالاً أوسع لحرية التعبير ، فقد كان البعثيون في هذا المجال سواء ، وكل ما في الأمر أني وجدت ، وقد ركزت اهتمامي على مسائل الصراع العربي ـ الإسرائيلي ، هوامش أوسع مع طروحات العهد الجديد . أضف إلى هذا أن خبرتي في تمرير آرائي صارت أغنى . وقد أضفى هذا وذلك على عامودي اليومي أهمية استثنائية ، فصارت وكالات الأنباء تقتبس منه قليلاً أو كثيراً كل يوم ، وتولى فتوح الشريف ترويجه عبر وكالة أنباء الشرق الأوسط وأكثر من الاتكاء عليه في رسالتين

أسبوعيتين إذاعيتين له تبثهما إذاعة القاهرة بصوته . وقد بلغت شهرة العامود حداً شاع معه أني أعكس في ما أكتبه وجهة نظر القيادة الجديدة المتجهة إلى قبول القرار ٢٤٢ وأحظى بدعم سري من حافظ الأسد .

هذه الإشاعة بلغت قوة انتشارها حداً بلبل حتى صديقي الدبلوماسي المحترف ألفرد مارتر سفير جمهورية ألمانيا الديمقراطية . وقد التقاني مارتر وصارحني : ناقش سفراء الدول الاشتراكية الإشاعة في اجتماعهم الأسبوعي ولم يصلوا إلى يقين ، فكلفوه بأن يستقصي الحقيقة . لم أكن أجد لزوماً لإطفاء إشاعة تنفعني ، ولو لم يكن مارتر صديقاً وممثلاً لدولة صديقة لأبقيته في دائرة الغموض التي أبقيت فيها آخرين غيره . أما وقد اختلف الأمر ، فقد صارحت الرجل بأني لا أتلقى توجيهات تزيد على ما يتلقاه أي صحافي في البلد ولا أحظى منذ حل رئيس الحكومة السابق د . يوسف زعين في السجن بأي رعاية أو حماية خاصة .

وإذا كان عامودي متميزاً فمبعث التميز أني أستند إلى معلومات أستقيها عادة من أوثق المصادر وأقرأ السياسة قراءة متبصرة وأضيف إلى التوجيهات ما أقدر على إضافته من قناعاتي . لقد استخلصت ميل العهد الجديد إلى تليين الموقف السابق المتشدد ضد مجهودات العرب والسوفيات التي مالت إلى التسوية السياسية ، وأضفت إلى استخلاصي رغبتي أنا في أن تشترك سورية في هذه المجهودات . واعتقدت أن تليين الموقف السوري سوف يضطرد بمقدار ما يعزز العهد الجديد وضعه الداخلي .

وبعد ستة شهور أو سبعة من وقوع الحركة التصحيحية ، انتدب ناجي دوراشة لمهمة في الحكومة الجديدة وأظن أنه صار وزيراً أو شيئاً من هذا القبيل وحل محله صديق لي هو صالح السغبيني . ولم يكن صالح صحافياً من قبل ، شأنه في هذا شأن ناجي ، إلا أنه كان أنبه من ناجي وأوسع أفقاً وأعظم

استعداداً لتحمل المسؤوليات . وكان صالح قد درس اللغة العربية في جامعة الأزهر في القاهرة ، ولعل ولعه باللغة كان السبب الذي جعل القيادة الجديدة تنقله من المنصب الإداري الذي شغله إلى رئاسة تحرير «البعث» . وبالنسبة لي ، كان هذا انتقالاً طيباً وملائماً . وها ذا أنا أشهد أن الجريدة لم تعرف منذ فارقها إميل شويري الموالي لقيادة ميشيل عفلق وصلاح البيطار رئيس تحرير آخر يحسن التعامل مع مرؤوسيه مثل صالح . وعلى قلة درايته بأمور المهنة ، كان الرجل مستقيم السلوك صادقاً ، وقد عوض قلة خبرته بإيلاء مسؤوليات العمل إلى مرؤوسيه الأكفاء والتعلم من خبرتهم . وتميز صالح باستعداده الدائم لحماية العاملين معه إزاء أي مضايقات قد تطالهم . وبوجود هذا الصديق على رأس التحرير ، أتيح لي أن أكتب في «البعث» أكثر أعمدتي أهمية وشهرة وأشدها اجتذاباً للقراء .

في غضون ذلك ، انشغل العهد الجديد أكثر ما انشغل بتوسيع القاعدة الاجتماعية لنظامه واجتذاب غير البعثيين إلى تأييده . وقدم العهد ترضيات ووعوداً للذين ضاقوا بشعارات العهد البعثي السابق المتشددة ، وظفر بمقدار من الشعبية لم يتوفر لسابقه . وفي الشأن العربي ، وسع العهد تعاونه مع خلفاء عبد الناصر في مصر ، وأيدت سورية في نحو سافر الدعوة إلى التضامن العربي محلّة إياها محلّ دعوة العهد السابق إلى وحدة القوى العربية الثورية . واحتفظ العهد الجديد بعلاقات التعاون مع الاتحاد السوفياتي ودول المنظومة الاشتراكية وخطا في هذا المجال خطوات وطدت هذا التعاون واجتذبت لسورية معونات السوفيات العسكرية والاقتصادية ودعمهم السياسي المتزايد . وعالج الأسد مرارات الصدام الذي وقع في سورية بين البعثيين والناصريين قبل سبع سنوات واجتذب معظم الناصريين إلى تأييد عهده مثلما اجتذب الشيوعيين . وبهذه السياسات ، تشكلت في البلاد برئاسة الأسد نفسه الجبهة الوطنية

التقدمية التي ضمت حزب البعث بوصفه الحزب القائد أي صاحب الدور الحاسم ، كما ضمت الشيوعيين ومعظم منظمات الناصريين . وجرى في البلاد استفتاء عام صار الأسد بنتيجته رئيساً للجمهورية ، وانتخابات عامة فازت فيها قوائم الجبهة ، وعاد خالد بكداش إلى البرلمان وبرز صوته فيه كما برز في قيادة الجبهة الوطنية .

هذا كله وفر لي فرصاً إضافية للجهر بآرائي بشأن ضرورة القبول بالقرار ٢٤٢ وشجعني على الإمعان في تمرير ما أستطيع تمريره من هذه الآراء عبر عامودي المنشور . وقد زادت شهرتي بوصفي داعياً مثابراً إلى التسوية السياسية . ومما ألفت أن أردده في هذا المجال ، اشتهر قولي المتكرر لأصحابي : «اقبلوا القرار ٢٤٢ قبل أن يجيء وقت تطلبون فيه ١٢١ ، أي نصف ٢٤٢ ، فلا تحصلون عليه !» . ولئن وجد من أعجبتهم دعوتي الى التسوية فقد وجد أيضاً كثيرون سخطوا علي ، وبعض هؤلاء ، بل أخصهم ، هم أصحابي البعثيون الذين ضمتهم سجون العهد الجديد .

وها أنا ذا أتذكر رد فعل د . يوسف زعين كما نقله إليّ أحد زواره من سجن المزة . فهذا الصديق الذي طالما حماني من الأذى وهو رئيس حكومة انطلق وهو في السجن من حرصه عليّ وقلقه على مستقبلي ، وتواترت نصائحه : «كفّ عما أنت مندفع فيه !» . لم يكن الرجل ساخطاً عليّ بمقدار ما بدا مشفقاً ، فقد رأى أن عهد الأسد متواطئ في مؤامرة هدفها تصفية قضية فلسطين والتحول بسورية من موقع العداء للإمبريالية إلى موقع ملاين ، وليس أقلّ من هذا . واعتقد صديقي أن العهد الجديد يستغل كما يفعل بغيري ميلي الذي يعرفه هو إلى التسوية والقبول بالقرار ٢٤٢ فييسر لي فرصة الكتابة لأحمل أنا كما يحمل أمثالي وزر التمهيد للموقف الملاين . وكان زعين على ثقة من أن عهد الأسد سيفصح عن هذا الموقف عندما يتوفر الظرف

الملائم لكشف المضمر ، وتوقع أن يعاقبني العهد ذاته بعد أن يستهلكني .

لم أشارك صديقي السجين رأيه في حكاية المؤامرة ، ولا كنت ممن يؤخذون بالأحاديث التي تدور حول مؤامرات . ولم أر في القبول بالقرار ٢٤٢ خدمة لأي إمبريالية . بل رأيت في الميل إلى التعقل خطوة طيبة وحبذتها . أما التحذير من العقوبة فلا يمنعني عن الجهر برأيي . لم تكن مآخذي على العهد الجديد قليلة ، ولم أغفل أن ناسه يعدونني من خصومهم أو أن أصدقائي سيقوا إلى السجن . لكني ، بتركيزي على ما ركّزت عليه ، وجدت هامشاً مشتركاً متاحاً فتشبثت به كما فعلت في السابق . ولم أكن قد صرت من الذين يحسبون حساب شعبيتهم حين يتعلق الأمر بإعلان القناعة .

وفي موازاة التطورات السورية ، شهدت مصر حصتها من التطورات العاصفة . فالسادات الذي خلف عبد الناصر بوصفه نائب الرئيس انتظر إلى أن استوفيت إجراءات تثبيته رئيساً ثمّ فتح النار على الناصريين اليساريين ، كما فتحها الأسد على نظرائهم البعثيين . ونحى السادات عن مواقع السلطة المختلفين معه في الرأي وغيّب قادتهم في السجون ثم راح يؤسس سلطته ذات الطبيعة الفردية ويتحول بسياسة مصر عن الثوابت التي أرساها عبد الناصر ، واحداً تلو آخر . وكان لميل السادات إلى الاعتدال دوافع مختلفة عن دوافع الأسد وأهداف مختلفة . لكن ، بالرغم من الفوارق ، تقاطع الميلان ، وتوفرت هوامش مشتركة . وعلى هذه الهوامش ، تعززت فرص التنسيق بين مصر وسورية واتسعت . ووجدت م . ت . ف . في تفاهم مصر وسورية قاعدة تستند إليها وتنهمك في نشاطها .

١١

هدية أمي من غزّة: حمام و فسيخ

انسحبت تأثيرات أيلول/ سبتمبر على الجميع ، قادة الفصائل وأعضائها والجمهور . ولأن الفاجعة كانت ثقيلة فإن الآثار جاءت بعيدة الغور . وأهم التأثيرات تجلى في الحفز على تمايز ثلاث تيارات : واحد انطلق من الإحساس بالإحباط فأمعن ناسه في الإرهاب وصار الإرهاب عندهم معادلاً للكفاح المسلح ؛ وثانٍ استخلص ناسه العبرة الصحيحة فمالوا إلى نبذ الأوهام وإلى البحث عن حلول ممكنة التطبيق ؛ وثالث أبهظته قسوة الفاجعة فأضمر الاستعداد للقبول بأي شيء . بكلمات أخرى ، بدأ التمايز بين التيارات التي ستتناوب توجيه العمل الوطني الفلسطيني : المغامر ، والثوري الواقعي ، والاستسلامي .

وحين أنسب بروز هذه التيارات إلى فترة ما بعد أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠ ، فهذا لا يعني أن بوادر كل منها غابت قبل ذلك أو أن حجومها تساوت ، كما لا يعني أن ظاهرة اختلاط المواقع قد غابت أو قلّت مساحتها ، فقد بدأ الإرهاب ، كما رأيت ، قبل أيلول/ سبتمبر ، غير أنه اشتد بعده وزاد عدد المنهمكين في نشاطاته والمفتونين به واشتدت دعوتهم إلى الانتقام . والثوريون الواقعيون وجدوا قبل الفاجعة ، إلا أن النتائج الماثلة سلحتهم بما يقوي دعوتهم ويوسع صفوفهم ، ولم يعد الأمر مقصوراً على الشيوعيين وأصدقائهم وحدهم .

وأما الاستسلاميون فقد وجدوا في كل وقت وقد عززت الفاجعة إحساسهم بالهلع . ولئن بدت الدعوة إلى الانتقام والإرهاب هي الطاغية بعد الفاجعة مباشرة ، فقد كانت الدعوة إلى الاستسلام مضمرة قبلها ، وصار على الدعوة الثورية الواقعية أن تشق طريقها ، ليس بدون مصاعب ، لكن بثبات .

هنا ، قد ينبغي أن تعلم أن التمايز هذا لم يجر على صعيد الساحة بإجمالها ، فقط ، بل جرى أيضاً ، داخل كل فصيل . ولئن بدا بعض الفصائل متجانساً فقد كان هذا تجانساً ظاهرياً أحكمته صرامة النظام الداخلي ، أما «فتح» المفتقرة إلى مثل هذا النظام فقد تميز داخلها باحتدام الجدل وبروز ممثلين للتيارات جميعها فيه .

على الصعيد العسكري ، استهلكت طاقة القواعد الباقية في جرش في المنازعات مع السلطات الأردنية وشحّت فرص العمل ضد إسرائيل . وفي سورية حيث بسطت الحركة التصحيحية سلطتها باقتدار ، احتفظت المقاومة الفلسطينية بما كان لها من قواعد ، وأمكن توسيع القواعد بما انضاف إليها من القوات الخارجة من الأردن ، غير أن السلطة المقتدرة أوجبت على الجميع أن يسلكوا بانضباط لم يألفوه ورهنت أي نشاط ضدّ إسرائيل بموافقتها المسبقة عليه . وكانت سياسة الحركة التصحيحية في هذا المجال واضحة : تجنب استفزاز إسرائيل والحيلولة دون توفير أي ذرائع تجيز لها الاعتداء على سورية . في هذا الوضع ، اتجهت الجهود حكماً نحو البديل الوحيد المتاح : الساحة اللبنانية . فحدثت طفرة كبيرة في أعمال توسيع الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان . وهنا ، حيث السلطة ضعيفة والتناقضات الداخلية التي يمكن النفوذ خلالها كثيرة ، أمكن للمقاومة الفلسطينية أن تحطّ معظم رحالها وتصول وتجول وتعيد في لبنان حكاية الدولة التي داخل دولة . وهنا ، أيضاً ، وجد الجانب الفلسطيني في الحركة الوطنية اللبنانية القاعدة التي تسنده ، فتوسع الوجود

الفلسطيني المسلح ، كبر وامتدّ ، وتمدد من قواعده المقننة في معاقل الجنوب الحصينة أو في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين إلى المدن . وبكلمات وجيزة ، تكرر في لبنان ما جرى في الأردن ، فنشأت الدولة التي داخل الدولة ، واستتبع إنشاؤها المشاكل ، وراحت هذه المشاكل تتفاقم باضطراد .

ومنذ انتقل مركز الثقل الفلسطيني إلى بيروت ، زاد تواتر سفراتي إلى لبنان وجولاتي فيه ، حتى لقد صرت أجيء إليه مرة على الأقل كل أسبوع ، فيما انسدّت طريق عمان عليّ كما انسدت على أمثالي . وكما كان عليه الأمر عند عبور حدود الأردن ، صارت ورقة المرور التي يصدرها أي فصيل فلسطيني كافية وحدها لعبور حدود لبنان . وكان منزل طلال سلمان في بيروت هو مأواي الذي أحظى فيه بالضيافة وفرص الالتقاء بشتى أصناف الناس ، فيما بقي منزل حسن قريطم المعتزل الذي أتمتع فيه بحفاوة أبي بشار وزوجته وأتعرف على حال البلد وأسراره وأسمع أعمق التحليلات وأصدقها .

وكما كان شأن زياراتي للأردن ، صارت زياراتي لبنان مناسبات أوسع فيها علاقاتي وأتعرف على المزيد من العاملين في حقول النشاط العام . وقد ينبغي أن تعرف أن ساحة لبنان كانت أرحب بجميع المقاييس من ساحة الأردن . وفي بيروت المدينة العربية الأكثر انفتاحاً على أي جديد ، كانت الفرص أوفر . بالرغم من هذا ، لم أبلغ في بيروت مستوى الحميمية الذي توفر لي في عمان . ولعلي كنت بين أمثالي واحداً من قليلين لم تفتنهم المدينة التي تعدّها الأغلبية أكثر مدن العرب فتنة . هل نجم الأمر من الطابع الكوسموبوليتي للمدينة وقلّة ما يراه الزائر مما هو أصيل ؛ أم أنه التباين الصارخ بين مظهرها المديني العصري المبالغ فيه ومكنوناتها المتخلفة ؛ أم هي شدّة الزحام ، زحام البشر والمتاجر والبنوك والأبنية والأفكار والأحزاب والمنظمات وأماكن اللهو وغيرها ؟ لست أدري على وجه اليقين . وكل ما أدريه أن ضيقي

بالمدينة كان يبدأ منذ وصولي إليها ، وهو ضيق متحكم لا يبهت إلا في الساعات التي أخلو فيها إلى أصدقاء حميمين وتتوفر فرص المسارات . أما في غير بيروت ، فكان الأمر مختلفاً . ففي رياق ، مع نايف خير الدين وأسرته وطيب معشره وكرمه الذي يفيض سلساً كما يفيض ماء نبع ، وفي شمسطار حين كان طلال يأخذني إليها فأحظى بمودة أهله وزوار منزلهم ، وفي طرابلس ، وفي الجبل ، وفي مدن الجنوب وقراه ، ناهيك بمخيمات اللاجئين الفلسطينيين ، كنت أحس أني موجود حيث ينبغي أن أكون ، وكان المقام يطيب لي ويعزيني عن الضيق الذي يخنقني في بيروت .

وها أنا ذا أتذكر وقائع سفرة إلى بيروت ، أتذكر التفاصيل لأن هذه السفرة اختلفت عن غيرها ، فلم أذهب من أجل عمل بعينه ولا بمبادرة منّي ، بل ذهبت تلبية لدعوة من أجل الترويح عن النفس . كان الداعي هو سعيد حمامي وقد اقترح علي وعلى فتوح أن نذهب إلى بيروت فلا نشغل أنفسنا بما ننشغل به في العادة ، بل نتمتع برحلة دون برنامج ودون أهداف مقصودة ونستكشف ما يتمتع به خلق الله العاديون حين يزورون المدينة . ومع الاقتراح ، تعهد سعيد أن يوفر لنا مكان الإقامة ونكون ضيوفه على مدى يومين . وهكذا ، حملتنا سيارة فتوح على الطريق الذي بدأ في ذلك الوقت توسيعه ، وبلغنا بيروت ونحن نمني أنفسنا بالمسرات . وعندما صرنا في مدخل بيروت في الحازمية حيث يعمل طلال في دار «الصياد» واقترحت أن نعرج على صاحبنا هذا ، اعترض سعيد وقال بنبرة مقرّعة : «قلنا إننا نريد أن نتمتع ، وأي متعة سنجدها عند صديقنا الذي يتصرف دائماً وكأن الحسين بن علي قتل أمس فقط» . ولما كنت أعلم أن سعيد يستطيب في الواقع لقاء طلال ، فقد نسبت رفضه الزيارة إلى تعجله إتحافنا بالمسرات الموعودة واستسلمت لمشيئته .

وبتوجيهات سعيد ، خلفنا الحازمية وراءنا وانحدرنا ناحية البحر ثم حاذيناه ونحن نعبر الرملة البيضاء . ثم ولجنا منطقة الحمراء ، وقادتنا إرشادات سعيد في شبكة شوارع المنطقة وأزقتها إلى أن ولجنا شارعاً صغيراً ووقفنا عند البناء الذي قال سعيد إننا سنقيم فيه . وكم كان الفارق كبيراً بين ضخامة هذا البناء وفخامته وبين البناء الصغير في الشياح الذي تقع فيه شقة طلال حيث ألفت أن أقيم . لكن ما أن ولجت الشقة التي أخذنا سعيد إليها حتى أدركت أني تعجلت مراودة الأماني . كانت هذه قاعدة لـ «فتح» ، كما يسمي المقاومون أي مكان يحلّون فيه . وقد استقبلنا عند الباب فتى منطفىء النظرات قليل الهمة ، ورد على تحيتنا بكلال ، ثم غاب بعد أن أشار إلى حجرة قال لسعيد إن بإمكاننا أن نستخدمها . وكانت تلك حجرة قذرة ، أقذر من أي مكان آخر في الشقة ، وقد توزعت مساحتها الضيقة نفايات من كل نوع . ولم يكن في الحجرة مما يلزم لإقامتنا إلا بضع فرش وبطاطين . وفكرت : ما من شيء تبدل حتى بعد الحلول في المنطقة الراقية . وتبادلت مع فتوح مشورة مهموسة بأمل أن نبحث عن وضع أليق ، لكن فتوح خشي أن يتأذى سعيد أو يسوطنا بلسانه ويتهمنا بأننا نترفع عن ما يرضى به الثوار . ورجاني فتوح : «دعنا نحتمل !» .

وبما هو مضيفنا ، اختار سعيد أن نذهب إلى كافتيريا الجامعة الأميركية لتناول الغداء . وكانت هذه مخصصة للطلاب والأساتذة والذين في حكمهم وليس من حقنا أن نتمتع برخص أسعارها . لكن التجاوزات التي ضاقت بها عمان تكررت في بيروت ، فصار أي شيء مباحاً . وسعيد هو الذي انتقى لكل منا ما يأكله . فكان من نصيبي كوب حساء لم أتعرف على المواد التي صنع الحساء منها وشريحة لحم رقيقة أصغر من الكف ، ولم يكن نصيب فتوح بالطبع أكبر أو أفضل .

وما أن فرغنا من ابتلاع لقمنا وسط الزحام والضجيج اللذين يغمران القاعة ، حتى وقف فتوح في هيأة مسرحية وهتف بنبرة توخى أن تبدو مرحة : «سعيد ! ضيفتنا بما فيه الكفاية وزيادة ، ومنذ اللحظة أنت ضيفي ، وفيصل ، فهيّا بنا إلى مطعم نشبع فيه !» . ولدهشتي ، لم يعتر سعيد أي حرج ، بل استجاب للاقتراح بابتهاج وأقرّ بأنه ما زال جائعاً . وفي مطعم «سلطان إبراهيم» في الأوزاعي ، غمرت المقبلات اللبنانية الشهية المائدة ، وجاء السمك مقلياً ومشوياً ، وشربنا حتى ما بعد الارتواء . وطاب الحديث وشعّ المرح وفاض لسان فتوح بأحلى التشنيعات . وتحمس سعيد كعادته كلما راق مزاجه وكلما شعّ الأنس في أي جلسة ، وبقّ اقتراحاً بدا لنا أنه كان يلوكه قبل الجهر به : «لماذا لا نذهب إلى كازينو لبنان» . وطاب لفتوح أن نتوج مرحنا بزيارة الكازينو الشهير . وكان تزمتي أنا قد انحلّ ، فلم أعترض .

لم يكن أي منّا قد زار المكان من قبل ، إلا أننا سمعنا وقرأنا الكثير عنه . وطاب لنا أن نتبع نزوتنا . ولم نحسب حساب أي عواقب ، بل اندفعنا إلى السيارة التي قادها فتوح وهو ثمل دون أن يعرف الطريق . وتضافر صخبنا في السيارة مع طرقات حبّات المطر على معدنها فحوّلنا وإياها إلى كتلة صخب منطلقة وسط الظلام . وبعد أن عبرنا بيروت من أقصاها إلى أقصاها ، وجدنا أنفسنا في منطقة خالية من الأبنية ولم نقع على عابر سبيل يرشدنا إلى طريق الكازينو ، فذهب بعض السكرة دون أن تجيء أي فكرة . ولم يجد فتوح بداً من أن يوقف السيارة عند مفترق طرق في حرش مظلم بانتظار أن يمر وسط العاصفة المشتدة من يدلنا على الاتجاه الصحيح . وبعد وقفة تلتها حركة ووقفات أخرى ، سطعت أمامنا أنوار المبنى المميز فتعجل فتوح الوصول إليه .

وما كان أتعس حراس الكازينو وبوابي مداخله المتتالية بالثلاثة الذين بلغوه عند منتصف الليل وحالهم هو هذا الحال الذي كنا عليه ! وكان أول ما

واجهناه هو إصرار الموكلين بالمدخل على منعنا من الدخول إليه . تصور هؤلاء على ما بدا لنا أننا من المتشردين فواجهونا دون أن يلزموا أنفسهم ما دربوا عليه من تأدب . وقال قائل هؤلاء بعد ما فاجأه مستوى خطابنا إن أنظمة الكازينو توجب على رواده أن يضعوا ربطات عنق . وقد توفر هذا الشرط لفتوح وحده . أما أنا فكنت ألبس أي شيء إلا ما يليق بهذا المكان . وأما سعيد فكان يلبس بذلة سفاري على قميص مفتوح الياقة متعدد الألوان . وكان من شأن هذا أن يحملنا على النكوص . إلا أن الحظر استفزّ سعيداً وأجّج عناده فأبى أن يستجيب لرغبتي ، بل استأجر من مكان في مدخل الكازينو مخصص لتأجير ربطات العنق واحدة لي وأخرى له ، ولفّ ربطته على رقبته كما لفّ ربطتي بنفسه ، وقال للواقف إزاءنا : «استوفينا الشرط» . عندها ، طالبنا رجل الكازينو بإبراز جوازات سفرنا أو هوياتنا الشخصية إن كنّا غير لبنانيين أو ما يثبت أن لنا أرصدة في البنوك إن كنّا من مواطني البلد . ولم يكن بحوزتنا ، سعيد وأنا ، سوى الأوراق التي تظهر أننا مناضلان في حركة المقاومة الفلسطينية ، وقد خجلت أنا من إبراز أوراقي في هذا المقام . إلا أن سعيد أشهر أوراقه بجرأة . وما أن وقعت عين رجل الكازينو على هذه الأوراق حتى أذن لنا بالدخول وهو لا يخفي وجله . وفي الداخل ، لم نفعل شيئاً يذكر ، لقد شئنا أن نتفرج على المكان ، فصرنا فرجة ، فتعجلنا المغادرة .

وفي الصباح ، باكرت طلال بالهاتف قبل أن يبرح منزله . وعرف صديقي أني موجود في بيروت منذ أمس ، وأخذ علي نزولي في مكان غير منزله وأصر على أن أجيء إليه مع سعيد وفتوح للغداء . وهكذا ، انتقلت بسرعة إلى الجوّ المعتاد ، وانتهت رحلة الترويح عن النفس .

على الغداء ، حيث وجدنا في انتظارنا عدداً من أصحاب طلال اللبنانيين ، دار الحديث حول ما ينشغل الجميع به : الوجود الفلسطيني المسلح المتنامي في

لبنان ودوره الآخذ في الاتساع في حياة البلد . لقد استخلصت أطراف الحركة الوطنية اللبنانية ما استخلصه ممثلو المسلمين في لبنان من أن هذا الوجود يدعمهم في صراعهم مع الأطراف الأخرى ويوائم في الوقت ذاته دعوتهم إلى مناصرة الشعب الفلسطيني ، وهي دعوة تشكل أحد مرتكزات شعبيتهم وسط جمهورهم . أما المعترضون فكانوا نوعين : الذين يتشبثون بعلاقة لبنان الخاصة بدول الغرب ويخشون أن يشكل الوجود الفلسطيني في لبنان سبباً للاحتكاك بينه وبين إسرائيل المؤيدة من الغرب ؛ والذين يضيقون بوجود العرب في لبنان ويقاومون محاولات دفعه نحو الانهماك في الشؤون العربية القومية العامة . وكان شهود غدائنا كلهم من المتعاطفين مع الفلسطينيين وحقهم في الكفاح من أرض لبنان ضد الاحتلال الإسرائيلي لوطنهم . غير أن هؤلاء كان لديهم كثير مما يأخذونه على سلوك المقاومة الفلسطينية . ولم يكن في المآخذ أي جديد بالنسبة لي . فما دار الحديث عنه مما يقع في لبنان عاينته أنا قبل هذا في الأردن . فهنا بقي الأمر على حاله : نشاط مضطرد ضد إسرائيل ، عمليات يقوم بها متسللون شجعان ، وقصف عبر الحدود موجه إلى شمال إسرائيل ، وخسائر فادحة تتكبدها المخيمات الفلسطينية والقرى اللبنانية ، وأحياناً المدن ، جرّاء القصف المدفعي والغارات الجوية الإسرائيلية وأشكال الانتقام الأخرى التي تنصبُّ خصوصاً على المدنيين . وتوسُّعٌ في وجود المقاومة بعيداً عن الحدود ، في العمق اللبناني، خصوصاً في المدن ،وخصوصاً في بيروت ، توسُّعٌ بعضه لازم للنشاط الموجه ضد إسرائيل وبعضه ناجم من الحاجة إلى إسناد الوجود الذي نشأ في المدن ، وكثير منه لا لزوم له .

وهنا ، كما في الأردن ، وثقت المقاومة صلاتها بقوى الحركة الوطنية اللبنانية وهي على العموم قوى تقدمية ، وبالقوى الممثلة للتيارات الإسلامية ، وهذه ، على العموم أيضاً ، قوى محافظة . وقد أنشئت الاتصالات مع قيادات

هذه القوى كما أنشئت اتصالات مع مؤيديها من وراء ظهر القيادات . والواقع أن المقاومة الفلسطينية قدمت لمؤيديها اللبنانيين عوناً يعتدّ به في حساب التحالف على قضية مشتركة . إلا أن المقاومة لم تتعفف عن تقديم ما يستهدف توليف القلوب أو تطويعها بالمال وشراء الضمائر . وما اختلف في لبنان عما كان عليه الأمر في الأردن تمثل في وفرة اللبنانيين الطامعين في الامتيازات الشخصية دون أن تغفل أن الذين استعصوا على الفساد كانوا غير قليلي العدد . والمؤسف أن الحدود غابت بين المفسدين والعصيين على الإفساد مثلما غابت الحدود بين المقاومة الفلسطينية والقوى اللبنانية الحليفة . وبمضيّ الوقت ، مع وفرة مواردها من المال والسلاح ، قويت سلطة المقاومة داخل التحالف ، وكبرت دولتها التي نشأت داخل الدولة ، وامتزج المجيد والخسيس ، الصادق الجاد والباطل الفاسد . وفي مقابل ذلك ، اشتدت شكوى الراغبين في السير على طريق قويم . وكانت هذه الشكوى هي أبرز ما برز على مائدة غدائنا في منزل طلال .

وفي منزل حسن قريطم ، حيث انفردت به ساعة ، سمعت من الصديق الذي يتابع التفاصيل على الجانبين اللبناني والفلسطيني كليهما دون أن تغيب عنه الأسباب العميقة للظواهر التحليل الذي يضع كل ظاهرة في نصابها .

وكان من رأي حسن أن المسؤولية عن الفساد والتجاوزات والسلبيات الأخرى العديدة مسؤولية مشتركة تتحملها المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية معاً ، وعلى النزهاء في الجانبين أن يشدّدوا الكفاح الداخلي ضد السلبيات دون أن يغفلوا أن التحالف ضروري ولا بد من استمراره وتوطيده لمصلحة لبنان ومصلحة الشعب الفلسطيني .

وفي طريق العودة إلى دمشق ، اقترحت على سعيد وفتوح أن نعرج على رياق ومنيتهما بوقت طيب نمضيه مع نايف خير الدين وأسرته . والحاصل أن

صاحبيّ وقعا معي على أفضل مما منيتهما به . فقد أحاطنا نايف بحفاوته وكرمه اللذين لا تصنع فيهما ونفعنا بحديثه الذي ينبع من قلب طاهر وخبرة عملية وسداد في الرأي . وقد حضرت الصفيحة البعلبكية والأخرى الشامية والكبب بأنواعها المقليّ والمشوي ، والمازوات التي يعدها نايف بيديه فلا تقع في أي مكان على ما هو أشهى منها . وطاب السمر . واختلى نايف بي وفاجأني بنبأ يوجعه ، فأخوه الأصغر منه معتقل في مصر . وقع الشاب الغرّ في قبضة تاجر حشيش من البقاع منّاه بالأجر الكبير وأرسله إلى القاهرة مع شحنة مخدر ، فعلق الغرّ في القبضة وتنكر التاجر له . وكان ألم نايف عميقاً ، ومثله كان عزمه على مساعدة أخيه في محنته . وكم أدهشتني قدرة المفجوع على إخفاء ألمه عن زوار منزله . وأخطرني نايف بأنه عازم على السفر إلى القاهرة . ولما كان لديّ العزم ذاته فقد تواعدنا على الالتقاء فيها .

هنا ، قد ينبغي أن أروي لك ما تم بشأن رفع اسمي من قائمة الممنوعين من دخول مصر ، فقد وفى السفير ممدوح جبّة بوعده وواصل جهوده إلى أن رفع الاسم من القائمة السوداء . وكنّا في كانون الثاني/يناير ١٩٧١ . وكانت الإعدادات جارية لعقد دورة جديدة للمجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة وقد تحدد الثاني من شباط / فبراير موعداً لعقدها . وهكذا ، واعدت نايف على أن نلتقي في هذا الموعد وتعهدت أن أضم جهدي إلى جهده لعلنا نفلح في حثّ أصدقائي المصريين على عمل شيء يخفف من محنة أخيه الشاب .

تعرف أنت أني عبرت أرض مصر في صيف العام ١٩٤٩ . كنت وقتها الطفل ابن التاسعة المنتقل مع جزء من أسرته من غزّة إلى دمشق للالتحاق بجزئها الآخر . ووقتها ، لم أر من أرض مصر إلا ما يراه طفل فقير عاجز حتى عن الانتباه إلى ما فيها مثلما هو عاجز عن الابتهاج . وأنا لم أر من مصر في تلك الرحلة إلا ما عبره القطار من صحراء سيناء والقنطرة وبورسعيد . فكنت

في الواقع كأني لم أزر مصر أبداً . وعلى هذا ، فقد عددت زيارتي في العام ١٩٧١ زيارة أولى . وكنت متوجهاً هذه المرة إلى القاهرة قلب مصر ومرآة أحوالها كلها ، هذه التي يطلق عليها المصريون كلهم اسم مصر ويقولون إنها أم الدنيا . وكان لي في مصر كثير مما يجتذبني إليها : الصحافيون والكتاب والسياسيون الذين تعرفت عليهم في شتى البلدان ، وما أتطلع إلى معاينته من الكنوز الثقافية التي سمعت بها أو قرأت عنها ، وما تعنيني معرفته من شؤون أخرى ، وما ينتظرني من مشاغل سياسية وصحافيّة .

وصلت إلى مطار القاهرة ومعي جواز السفر السوري الخاص الذي زودتني به وزارة الخارجية بوصفي محرراً في «البعث» مندوباً لمهمة خارجية . وكان اسمي مدرجاً على قائمة المدعوين لحضور دورة المجلس الوطني ، فلم أتعرض إلى أي متاعب تذكر . وكانت هذه بداية طيّبة للزيارة التي طالما تقت إلى القيام بها . وفي التاكسي ، على الطريق الطويل في الاتجاه إلى الفندق ، كان السائق أول من تبادلت معهم الحديث . قلت للسائق ، بعد أن أتم هو استقصاءه الذكي لاسمي وبلدي ومهنتي وغرض زيارتي ، إني أحبّ مصر ، وتعمدت أن أسأله عن عبد الناصر ، عن رأيه فيه . وها أنا ذا أتذكر سمرة وجه الرجل الكهل وتعابيره ، وأتذكر كيف فاق اهتمامه بسؤالي ما توقعته ، وأستحضرُ سحابةَ الأسى التي جللت كيانه كله ، ثم كيف أوقف الرجل السيارة على جانب الطريق الذي تكتنفه الصحراء وكيف بقي صامتاً للحظات بدا لي معها أن ثمة أمراً طارئاً داهمه فأرغمه على التوقف ، ثم كيف التفت ناحيتي بجسده ونظره وبدأ إجابته بهذه العبارة : «الرجل ده ربنا أكرمه بالوفاة» . ويبدو أن السائق ظن أن عبارته لم تشبع فضولي بالرغم من أنها حملت لي ما يزيد عما يمكن لكتاب أن يحمله . وصمت الرجل لحظات أخرى ، ثم أفاض : «الفلسطينيون ناس طيبون ، ربنا يفكّ كربتهم . أنا ذاتي

لاجئ . لا بد من أنك سمعت عن مهجري قناة السويس . أنا من الإسماعيلية . كنت فيها . . أقول لك إيه ؟ عزّ وجاه ، كنت بلا مؤاخذة ريّس مركب ، شغل ورزق كثير ، والآن . . .» . وفي هذا النحو ، واصل الرجل حديثه عن معاناته ومعاناة المصريين المهجرين ، فما أشبه اللاجئ باللاجئ ، إلى أن بلغنا فندق سكارابيه الذي أحل فيه قرب ميدان التحرير دون أن يتسنى لي أن أطرح سؤالاً آخر . وعندما قدمت للسائق سيجارة مارلبورو هي الثالثة التي قدمتها له منذ التقيته ، تأمل الرجل السيجارة وتناول حسابه ، وقبل أن ينصرف ، قال راجعاً إلى السؤال الأول : «تعرف أن المصريين لا يحصّل الواحد منهم في اليوم ثمن علبة السجائر المستوردة ، دي» ، فقاطعت محدثي بنبرة من يدفع عن نفسه تهمة : «اشتريتها من المطار . . . . .» ، لكنه لم ينتبه إلى حساسيتي ، بل أتم إجابته : «قلت لك إن ربنا أكرم عبد الناصر ، أخذه لعنده قبل ما يشوف الأسوأ» .

وكان أول ما فعلته حين حللت في الفندق أن بدأت البحث عن أخويّ لأمي محمد ورباح . ولعلك ما تزال تتذكر أني فارقت أخوي هذين قبل اثنتين وعشرين سنة حين فارقت غزة ثم لم أر أياً منهما . وكان محمد آنذاك في أول حبوه فيما لم يكن رباح قد بدأ الحبو . وأنا لم أنس أخويّ هذين مثلما أني لم أنس أمي ، وكنت أعرف أنهما مقيمان في القاهرة حيث يدرس محمد الرياضيات ويدرس رباح الطبّ . كما كنت أعرف أني أبحث عن شابين لو لقيت أياً منهما صدفة لما عرفت أنه أخي . وقد هتفت لمن أثق بأنه يعرف العنوان . وكان هذا هو عبد الله مهنا «أبو جهاد» عمهما الذي يقيم في القاهرة منذ سنوات . هل نسيت قائد الفصيل الشهير في المسمية الكبيرة ، إنه هذا العم . وقد كاد أبو جهاد يبكي حين قدّمت نفسي على الهاتف . بل إن الرجل بكى فعلاً عندما ذكّرته بأني ابن صديقه ورفيق جهاده الذي وافته المنية قبل

نكبة أهل البلاد .

وبانتظار أن يعثر أبو جهاد على أخويّ ، رحت أتصل بالأصدقاء الذين أحمل أرقام هواتفهم ، فما أكثر الذين خفّوا من هؤلاء إلى زيارتي وما أشدّ ما اكتظت الحجرة بجمعهم ! وكنت أروي لأصدقائي حكاية فراقي الطويل لأمي وإخوتي ، حين رنّ جرس الهاتف وجاءني صوت يشبه صوتي ، فسألت للتو : «هل أنت محمد أم رباح ؟» . كان المتحدث هو رباح ، الأخ الأصغر ، وكان محمد بجانبه . ولأني لم أتحرر حتى في هذا الوقت من حساب الحسابات الكثيرة ، فقد خشيت أن يتحرج أخواي حين يدخلان حجرتي ولا يتعرفان على أخيهما وسط الحشد . فقلت لرباح إني سأقف بانتظارهما بجانب مكتب الاستقبال وسأعرفهما حين يسألان عنّي . والذي حصل أن أخويّ وصلا أبكر مما قدرت وقدما إلى الحجرة ووقفا عند الباب وهما يتفرسان في الوجوه . ولم يخطئ حدسي ، ولو أخطأ فما كان أدق الشبه بيني وبين رباح ، وهو ما جعله يعرفني . وامتلكني الصوت الأخاذ : «أنا رباح يا فيصل !» ، وتلاه الصوت الآخر : «وأنا محمد أخو هذا الذي يدخل قبلي ولا يراعي أني أكبر منه» .

أتصور أنك مشوق لمعرفة مشاعري في تلك اللحظة ، فهل بإمكانك أن تهديني إلى لغة تصف هذه المشاعر . كيف يصف الكلام مزيج ما داهمني وما انفلت من مخزوني !

والواقع أني لم أنتبه في تلك اللحظة إلى أي مشاعر ، بل اندفعت نحو القادمين اندفاعاً وضممتهما إليّ معاً ، ثم لم أنتبه إلى ما أنا فيه إلا حين نبهني الصمت الذي أطبق فجأة وأخرس أصحابي المهذارين . ولو لم يدهم أصحابي ما ألجم حركتهم لتوجب عليهم أن يخلو المكان ويتركوا لنا فرصة المناجاة . غير أن خصوصية الموقف اجتذبتهم إلى البقاء ، ولعله الفضول ، أيضاً . ألم نكن جميعنا أعضاء في ما سميناها بين الهزل والجدّ حركة

الفضوليين العرب ! وكان مصطفى نبيل ، وهو أسلس المهذارين قولاً ، أول من اخترق الصمت : «انبسط ياسي فيصل ، آدي الشمل التمّ ، وعلى أرض الكنانة ، يا بختكم يا عرب ، ويا بختنا !» . وتمليت ملامح أخويّ وهيأتيهما فيما توالى الجاد والهازل من تعليقات أصحابي . وكأني شئت أن أستخلص في لقاء واحد ما كان من حقي أن أتشربه طيلة سنين ، فلم أشارك في الحديث حتى بعد أن انهمك محمد ورباح فيه . ومصطفى نبيل هو الذي تطوع باجتذاب انتباهي : «ساكت ليه ، مش عوايدك !» . وعندها ، تنبه صديق مصري آخر هو عادل حسين إلى ما ينبغي على أصحابي عمله : «بنا يا جماعة ، خلّوا الإخوة يتعرفوا على بعض !» . وحين تبارى الأصحاب ، حتى وهم يتهيؤون للانصراف ، في التعبير عن استغرابهم إزاء ما شتت الإخوة كل هذه السنين ، لم يفوّت سعيد حمامي فرصة تسييس اللحظة : «إنها الحالة الفلسطينية» .

أراد أخواي أن أنتقل فوراً إلى شقتهما . غير أن حاجتي إلى البقاء في الفندق القريب من مبنى جامعة الدول العربية القائم في ميدان التحرير حيث تنعقد اجتماعات الدورة غلبت توقي الى المكوث معهما أطول مدة ممكنة . وقد وعدت أخويّ بالمجيء إلى شقتهما كلما تسنى لي ذلك أثناء الدورة على أن أنتقل إليها بعد انتهائها وأخصص لهما بضعة أيام . وكان طبيعياً أن يتركز حديثنا على أمّنا الباقية في غزة . وكنت أنا تواقاً إلى التفاصيل . فتبارى الأخوان في إشباع توقي . وأجاب رباح على استفساراتي باتزان ، لكن دون بخل . وأطلق محمد للسانه العنان . فارتسمت الصور وتتابعت الحكايات .

وما أن انتهت الدورة حتى جاء محمد ورباح . وفي الطريق إلى مصر الجديدة ، طلب رباح من سائق التاكسي أن يعرّج على مرآب سيارات غزّة : «أرسلت الوالدة طرداً لا بدّ من أن يكون حافلاً بالأطايب فقد عرفت أنك

موجود هنا ، وعلينا أن نذهب لاستلام الهديّة» . وعقب محمد : «أحلف بالطلاق أن الست لبقة لم تنس الفسيخ» . ووضعنا الطرد في صندوق التاكسي . ثم استغرقنا الضحك الذي نشّطته تعليقات محمد الساخرة ، وغادرنا السيارة ونحن ما نزال نضحك ، ونسينا هدية أمنا في الصندوق . وعند باب الشقة هتف محمد : «الفسيخ !» ،ثم أضاف : «شغلنا أخوك الصغير رباح بالحديث عن أمّه فنسّانا أهمّ ما ينوبنا منها» . ولكثرة ما حذرني زوار مصر من قلّة أمانة سواقي التاكسيات ، اعتقدت أن الهدية ضاعت وانتهى الأمر . غير أننا كنّا ما نزال نتبادل اللوم حين سمعنا طرقاً ملحاحاً على الباب . وكان الطارق هو السائق . ولم يكن في هدية الوالدة فسيخ غزّة الشهير وحده ، بل كان فيها أيضاً أطعمة أخرى كثيرة أُحبّها : الكعك بأنواعه ، والزعتر ، والمفتول ، وفطائر السمبوسك المحشيّة باللحم والبصل ، والحمام ، والشاي الفاخر الذي تستورده غزّة ولا يوجد مثله في مصر . فما أحلى أن تكون لك أم متفهمة وحانية تتذكر ما أحببته وأنت طفل وتتحفك به ولو عن بعد ! ومع الطرد ، جاءت رسالة أملتها الأم التي لا تعرف القراءة والكتابة إملاء : «زوج الحمام المربوط بخيط هو لفيصل خصاً نصاً ، أمانة مني يحاسبكم الله عليها يوم القيامة» . وعلى هذا عقّب محمد ليغالب انفعاله : «يا فرحتي ! كان بوجهي أخ واحد ، والآن صارا اثنين ، الفلوس لرباح والحمام لفيصل ومحمد ما له إلا سوء السمعة وزنخ الفسيخ !» . ولما رأى محمد أن سخريته لم تضحكني أنا الذي فشلت في مغالبة الانفعال ، فقد أمعن في مغالبته هو لانفعاله : «عليّ الطلاق ، يا لبقة يا بنت مدلله ، لأحجّ إلى مكة خصوصاً لأمسك بأستار الكعبة الشريفة وأدعو الله أن يضعك تحت سلطتي لأمنعك من تدليل ابنيك هذين وإفسادهما» .

بين الأصحاب الذين اتصلت بهم فور وصولي إلى القاهرة ، كان

الصديقان حسين عبد الرازق وزوجته فريدة النقاش . وهما لم يخفّا فوراً الى الفندق ، فقد كانا ، كعادتهما دوماً ، مشغولين بأمر طارئ ، ولكنهما دعواني لأنضمّ إلى سهرة تنعقد في منزلهما في المساء ومنياني بوجود كثيرين ممن أعرف أو ممن أتوق إلى التعرف عليهم ، فخففت أنا إلى منزلهما .

اشتهر حسين وفريدة بأنهما زوجان متحابان ومتعاونان في الشأن العام كما في شأنهما الشخصي ، وكان نشاطهما في السياسة والصحافة والمجتمع ، نشاط كل منهما على حدة ونشاطهما معاً ، متميزاً . وقد ألفت أن أمازح صديقيّ هذين كلما لقيتهما ، أنا الذي التقاهما أول مرة في دمشق ، فأبدأ بهذا السؤال : «أما تزالان متحابين ، فمتى تتزوجان ، إذاً !» .

في تلك السهرة التي اكتظت الشقة الصغيرة بالمشاركين فيها ، بدأت مشوار تعرفي على أجواء المثقفين المصريين اليساريين في بلدهم ومعاينة ما يشغلهم من هموم وما ينتظم علاقاتهم بعضهم ببعض من إيجابيات وما يشوبها من سلبيات . ووسط الحشد الذي كثيراً ما يلتقي ناسه بعضهم ببعض ، صرت ، أنا الوافد الجديد ، محطّ الأنظار . وقد تعرفت هنا على كثيرين ممن قدّر لعلاقتي بهم أن تتوطد وتستمر . فهنا ، تعرفت على ميشيل كامل وزوجته الإيطالية التي تتحدث بالعربية بالسرعة التي تتحدث بها بالإيطالية والجرس ذاته ، وعلى رفعت السعيد وزوجته ، وسعد كامل وزوجته التي لا ترفع نظرها عنه وعن من يحادثه . وهنا بدأت صداقتي مع ا لمصري الرائع مهندس الكمبيوتر ، المثقف وصديق المثقفين علي مختار الذي تشابهت بدايتي مع بدايته إذ كان مثلي بعثياً ثم ترك الحزب ، وزوجته المخرجة السينمائية ، اللبنانية ، نبيهة لطفي التي كانت هي الأخرى بعثية وجاءت إلى مصر وغرقت في أجواء يسارييها وبزتهم جميعاً في التشدد وبقي لها من بعثيتها السابقة ولعها بالقومية العربية وشؤون العرب .

ودون أن يغيب الشأن الفلسطيني عن الحديث ، شغلنا موضوع الساعة الذي لا يفتقر إلى الصلة بهذا الشأن ، وكان آنذاك هو موضوع ازدواجية السلطة في مصر ، فما أسهل ما انهمكت في الحديث ، أنا الذي خبر ازدواجية السلطة في سورية وكابد تبعاتها . كان ورثة عبد الناصر قد انقسموا : فريق يتشبث بنهج الزعيم الراحل بتمامه وآخر يلتفّ حول الرئيس السادات ويتطلع إلى التفلت من هذا النهج . وكان لكل فريق مواقع يسيطر عليها في التنظيم الوحيد المأذون له بالعمل السياسي : الاتحاد الاشتراكي ، والجيش ، والحكومة ، ومؤسسات الدولة الأخرى ، تماماً كما كان عليه الحال في سورية ، وإن اختلفت الظروف . وكان حشد اليساريين الذي حللت فيه مبلبلاً إزاء الصراعات العلنية والخفيّة الدائرة وموزع الرأي . كانت الأغلبية تضيق بسلوك الفريقين ولا تولي أياً منهما ثقتها . وكان ثمة من يدعو إلى التروي في إصدار أحكام باتة ، ومن يدعو إلى مساندة هذا الفريق أو ذاك . كما كان ثمة من يدعو إلى نفض اليد منهما كليهما والعمل من أجل ثورة كاسحة .

ولم يكن من العسير أن أقع في خلفية المواقف على الدوافع والنزعات التي ترسمها ، وخصوصاً الدوافع والنزعات الشخصية . فالأمر هنا شبيه بما خبرته في الساحتين الفلسطينية والسورية . وشأن المثقفين متماثل على أي حال ، في أي مكان . كما لم يكن من العسير أن أتلمس آثار الخصومات الشخصية الظاهرة أو الخفيّة بين الموجودين . وبودي أن أقدّم لك مثلاً واحداً لتدرك كم كانت معقدة تلك الخصومات وكم أثرت على العمل المشترك الذي يفترض أن ينهمك الجميع فيه .

فقد كنت أعرف أن العلاقة بين صديقي القديم مصطفى الحسيني والصحافي الصديق فيليب جلاّب ليست على ما يرام . وقد بدأت الخصومة بين الاثنين منذ كانا كلاهما شيوعيين . وأسباب الخصومة ترجع إلى أيام

الخمسينات ، حين كان شيوعيو مصر موزعين على منظمات وكتل متعددة مختلفة في الرأي ومتنابذة . وقد دخل الاثنان السجن بسبب شيوعيتهما كما دخله شيوعيون كثيرون دون أن يوحدهم حتى هذا السجن . وكان مصطفى متشدداً في حكمه ، وكان يعدّ فيليب في المتهاونين ، فيما رأى فيليب في مصطفى دوغمائياً مفرطاً في انتقاد الآخرين . وها أنا ذا أتذكر الخطأ الذي أوقعني فيه فضولي وغياب حصافتي . فقد روى مصطفى لي أن فيليب الذي يزعم الانحياز إلى الطبقة العاملة لم يتورع عن استغلال العمال في صورة بشعة . وأورد صديقي حكاية غريبة ، فقال إن فيليب يملك تاكسيين ، وهو يشغل سائقين ويفرض عليهما أن يعملا ساعات كثيرة ويشجعهما على ذلك بتوفير الأفيون لهما . وكانت حكايات معين عن فيليب الذي رافقه معين في السجن قد رسمت لهذا الشيوعي صورة مغايرة تماماً لما تبثّه حكاية مصطفى . فوجدتني أسأل حسين عبد الرازق عن حكاية الأفيون وما يبلبلني بشأن فيليب . وقد ابتسم حسين يومها ، تلك الابتسامة التي سأعرف فيما بعد أنها تحتل وجه حسين كلما تعمد الزوغان ، وقال : «لماذا لا تستوضح الأمر من فيليب نفسه ، وستعرف رأيي بعد أن تسمع منه هو كما سمعت من صاحبك مصطفى» . وفي اليوم التالي ، انضممت آخر المساء إلى سهرة انتظمت هذه المرة في منزل نبيهة لطفي وعلي مختار . وما أن وقعت عين فيليب عليّ حتى بادأني الهجوم على مسمع من الحاضرين . وكان لا بدّ من أن أعتذر . فقد التقطتُ حكاية التقطها مصطفى كما تبين لي من الإشاعات التي تنداح للإساءة إلى اليساريين كلهم . ومع الاعتذار ، استخلصتُ العظة ، وهي عظة لم أغيّبها بعد ذلك أبداً : أن أتجنّب الإشاعات ولا أحشر نفسي بين خصومات اليساريين المصريين . ومنذ ذلك الوقت صار هؤلاء يعرفون الشعار الذي أهتدي به : كلكم أصحابي .

١٢

أبو عمار يأمرني: تفسح في القاهرة !

يوم افتتاح الدورة ، بكرت في الحضور إلى المبنى الكبير ذي الرواق والأبهاء الفسيحة . وهناك وقع نظري على محمود درويش مقبلاً وحوله جمع من أصحابه والراغبين في صحبته . وكان هؤلاء يتدافعون بأدب وغير أدب ليظلوا بلصق النجم الذي اندفع نحوه المصورون . ولعلك تتذكر كيف سبق لي أن تعرفت على محمود في صوفيا في العام ١٩٦٨ حين جاء هو إلى العاصمة البلغارية عضواً في وفد شبيبة الحزب الشيوعي الإسرائيلي «ركاح» إلى مهرجان الشباب العالمي . وإذا تذكرت هذا فلا بد من أن تتذكر المشاكل التي سببها لي هذا اللقاء وكيف أفضت إلى طردي من حزب البعث وإلصاق تهم شتى بي .

ولعل من المفيد أن تعرف أن محمود اغتنم بعد سنتين فرصة وجوده خارج البلد الذي يعدّ فيه إسرائيلياً وتدبر أمر التجائه إلى القاهرة . وقد رحبت القاهرة بالشاعر الفلسطيني الكبير وكرمته ، ونوه الرئيس عبد الناصر نفسه بأهمية حلوله فيها . وكان محمود قد استحق قبل هذا اللجوء مكانته الرفيعة في كوكبة رواد الشعر العربي الحديث . وبعد اللجوء ، أخذت قامة محمود الشعرية تطاول قامات الذين سبقوه من هؤلاء الرواد . والواقع أن محمود

استشرف الفارق بين إقامته المضيّق عليها في إسرائيل وبين الأرجاء المفتوحة للحركة والانطلاق خارجها. ولعل الشاعر المجبول بالحساسية إزاء سمعته ورهافة الحس قد التقط شيئاً أمضه كثيراً، فقد لاحظ وهو في إسرائيل أن معظم المفتونين بشعره يميزونه عن غيره ليس بموهبته التي يستحق أن يُميّز بها وحدها ولا بالقيمة الحقيقية لمنجزه الشعري، بل بموقعه هو الذي يقاوم مغتصب وطنه داخل هذا الوطن.

وفي موسكو التي أوفد إليها محمود من قبل حزبه الشيوعي ليدرس الماركسية اللينينية، تيسرت للشاعر فرصة إقامة طويلة خارج إسرائيل كما تيسر أن يقيم علاقات واسعة بعرب شيوعيين وغير شيوعيين. وهنا، تعرف محمود على سعيد حورانية. وكان سعيد قد توجه هو الآخر إلى موسكو للإقامة فيها من أجل العمل وليس الدراسة بعدما تعذر أن يجد عملاً ملائماً له في سورية. وهناك، أعاد سعيد سيرته المألوفة: المنزل المفتوح للأصحاب، وسخاء الروح واليد، والمتابعة المثابرة لشؤون الأدب والأدباء، والسهر في كل ليلة حتى صياح الديوك جميعها.

ولسعيد الذي يلتقط هواجس النفوس المعذبة كما يلتقط الرادار الموجات، باح محمود بهواجسه: ضيقه، وتوقه إلى الانعتاق. وبمضيّ الوقت، تبلورت فكرة التجاء الشاعر إلى عالمه العربي الفسيح.

وقتها، قدم سفير مصري متفهم ونافذ الكلمة، هو الشهير مراد غالب، ما يلزم من مساعدة. ووصل الشاعر إلى القاهرة.

ملابسات هذه الحكاية لم أعرفها أنا إلا بعد حين. أما وقتها فإن النبأ فاجأني، ولك أن تضيف أنه صدمني صدمة عنيفة، كما أن لك أن تعرف سبب الصدمة. فقد قست لجوء محمود بالمقياس السياسي العام وحده، وكان مقياسي حاداً كما صرت تعلم. واستهولت أن يترك الشاعر المعدود من رموز

المقاومة الوطنية ضد إسرائيل أرض وطنه باختياره . وقضيت بأنه يقدم بهذا أمثولة سيئة للصامدين في الوطن ويسيء إلى قضيتهم . وإلى هذا ، توجست في خروج محمود من أرض الوطن خروجاً على الحزب الشيوعي والشيوعية . وبمقياسي هذا ، كتبت مقالاً جعلت له هذا العنوان وصار له في حينه بعض الشهرة : «محمود الذي غادر سربه» . ولا بدّ من أن مقالي ساء محمود إن كان قد قرأه بنفسه أو ساءه أكثر إن كان المضمون قد نقل إليه من الذين ينافقونه بتضخيم إيذاء الآخرين له . وعندما التقيت محمود في رواق مبنى الجامعة العربية ، كنت ما أزال متأثراً بسلبيتي إزاء خطوته ، ولعله كان ما يزال متأثراً برأيي القاسي فيه . وهكذا ، لم نتقابل إلا كما يتقابل المتخاصمون .

حياني محمود ببرود ظاهر وإن لم تجعله اللباقة شديد الفظاظة . إلا أن هذا ، وقد انضاف إلى سخطي أنا عليه ، لم يجعلني أقل فظاظة أو يحملني على التأدب في حضرة الشاعر الذي تعلو قامته الأدبية قامتي علواً شاهقاً . وعندما نوه محمود بموقفي منه في صوفيا وفاه بكلمات شكر ، صاغ السخط وحده ردّي : «أنت غير مدين لي بأي شكر ، فقد فعلت ما فعلت تقديراً منّي لـ «ركاح» ، لم أفعله من أجل شخصك» . إلا أن محمود الذي لا تعوزه الفطنة في أي موقف ، بدا لي تلك اللحظة أكرم مني بكثير ، أو قل إنه كان أكثر مني سيطرة على نفسه ، فكتم حنقه ، ودعاني إلى زيارته في منزله . وهناك ، أصغى محمود إليّ وأنا أبسط رأيي بكامله ، وحاججني فيه ، وبسط هو دوافعه ، فلان السخط ، وتأسست بداية علاقة مستمرة به منذ ذلك الوقت .

نقطة واحدة في الحديث بقيت عالقة ، إذ أني أخذت على محمود التجاءه إلى غير منظمة التحرير : «ما دمت قد قررت مغادرة إسرائيل فلماذا لم تجئ إلى ثورة شعبك ؟» . ولم يقرّ محمود بأني مصيب في هذه النقطة ولم يدع أنه هو المصيب . وسألقاه بعد ذلك في لقاءات عدّة ، وسيتكرر الحديث

عن هذه النقطة ، وسينتهي الأمر بمحمود كما لا بد من أنك تعلم إلى الانهماك في شؤون شعبه وثورته ومؤسساتها ، وسيسألني : «هل أرضاك ما فعلته ؟» ، وسأجيب «نعم !» .

وأياً ما كان عليه شأني مع محمود ، فإن أعمال الدورة التي جئت لأشهدها استغرقتني . وقبل أي شيء آخر ، حضرت في الدورة الهموم التي اقترنت بفاجعة أيلول/ سبتمبر وأججت المزايدة التي بدت في ظل النتائج العيانية أبغض مما كانت في أي وقت سابق .

افتتحت الدورة بالمراسم التي تفتتح بها دورات المجلس في القاهرة . واتبع الرئيس السادات التقليد الذي كرسه عبد الناصر فرعى الافتتاح بنفسه . وكانت تلك هي المرة الأولى التي أشهد فيها هوس السادات بمظاهر الأبّهة . فقد وصل الرجل إلى المبنى مسربلاً بأناقته المدروسة ومحاطاً بحشد كبير من المرافقين الذين يحفّون به كما تحف النجوم بالقمر فيظهر تميزه . وعند الباب ، كان في الانتظار ياسر عرفات ونجوم العمل الوطني الفلسطيني . وقد صحب هؤلاء الرئيس إلى بهو مجاور لقاعة الاجتماعات حيث احتشد خلق كثير . وتزاحم الناس حول عرفات والسادات من أجل التقاط الصور معهما . وكم كان مثيراً أن تراقب زعيمين محبين للأضواء وهما معاً أمام آلات التصوير ! أما ما كان أشدّ إثارة فالمقارنة بين حركات السادات المدروسة والمضبوطة بضوابط شتى وبين حركات الذي لا يقر له قرار ولا يثبت على وضع . وعندما توجه الاثنان وحولهما الحشد الكبير إلى قاعة الاجتماعات ، تأنّى السادات وهو يلج القاعة ، ثم وهو يتجه إلى المقعد المخصص له على المنصة وبدا لي أنه يتأنى كي يطول أمد التصفيق الذي استقبل به . يومها ، كان السادات في إبان صراعه مع خصومه في السلطة في مصر وهو بحاجة إلى استثمار أي مظهر من مظاهر التأييد الفلسطيني له ، فلم يقصر في هذا المجال كما لم يقصر عرفات

في توفير الفرصة . وقد استغرق هذا كله وقتاً بدا لي دهراً مديداً . وكنت أكاد أنفلق بسبب ما عددته نفاقاً لا لزوم له لرئيس لم أر أنه يستحقه ، أنا الذي لم أعدّ السادات في أي وقت بين ممثلي وجه مصر الذي أحبّه . وفي خطابه ، استخدم السادات الأسلوب المنمق الذي يتقنه وأفرط في التنميق ، ثم لم يأت بجديد . ولأن كلام الرجل لم يستغرقني ، فقد راقبت حركاته وتمعنت في تعابير وجهه أكثر مما تابعت الكلام . وكان من الشائق ، كما ينبغي القول ، مراقبة التعابير التي تتلون وتتبدل لتوائم ما تتوخى العبارات الإفصاح عنه فتجتذب الانتباه أكثر مما تجتذبه العبارات .

في تلك الدورة ، انطلقت المناقشات من الاعتقاد بأن الثورة الفلسطينية تتعرض لمحاولات تستهدف تصفيتها . وانصب كلام كثير على مؤامرات قيل إن الأردن أعدها . وانشغل المتحدثون في مناقشة ساخنة لمشروع أعدّته القيادة الفلسطينية وسمّته «برنامج العمل السياسي والهيكلي للوحدة الوطنية لقوى الثورة الفلسطينية» . واشترك في المناقشة عدد كبير من الأعضاء . وظلت النبرة المزايدة هي الغالبة ، لكن الأذن المدققة كان بإمكانها أن تلتقط جديداً يحاول الإفصاح عن ذاته .

ولما كانت الرغبة في الانتقام هي التي حركت الألسنة فيما كان تأثير أيلول/سبتمبر الأسود ما يزال طازجاً ، فقد انطلقت الدعوة إلى إبراز مطلب إسقاط النظام الأردني في البرنامج . وبدا أن هذه الدعوة غير قابلة للاختراق . وقد واجه صوت العقل دعوة غابت عنها معطيات الواقع ، واجهها بحياء في الجلسات العامة وبشدّة في جلسات اللجان والكواليس . وكان هذا هو البروز الأول لصوت العقل بعد أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠ . وفي المحصلة ، أدرج المطلب في البرنامج الذي صوت عليه المجلس في جلسته الأخيرة بكثير من الضجيج ، لكنه غاب عنه عند نشره بمبادرة من رجل المناورات البارع ياسر عرفات . فهذا

الرجل الذي ترك للمزايدين أن يفرغوا ما في أجوافهم حتى اللحظة الأخيرة توجه إلى أعضاء المجلس بعد التصويت قبيل اختتام عمل الدورة وطلب منهم ، فيما هم يتهيؤون للانصراف ، أن يخولّوا اللجنة التنفيذية التي انتخبوها لتوهم حق تنقيح صياغة البرنامج . قال عرفات إن التعديلات الكثيرة التي أدخلت أثناء المناقشة على صياغة البرنامج جعلتها ركيكة ومن المعيب أن يصدر عن مجلس يمثل الشعب الفلسطيني برنامج ركيك الصياغة . وبهذه الحجة الدامغة ، انتزع عرفات حق التنقيح . وباستخدام هذا الحق ، أذيع النص الختامي بعد عودة الأعضاء إلى البلدان التي جاؤوا منها وقد خلا من الشعار الطنان . واللافت للنظر أن التقدميين من أعضاء الفصائل والمستقلين هم الذين حاولوا إبراز صوت العقل ، أو لأقل إن نسبة العقلاء بين التقدميين كانت كبيرة .

دعوة أخرى كانت في موضع المنافسة وانقسم التقدميون أنفسهم في الرأي حولها فأيدتها غالبيتهم واعترض عليها بعضهم ، وهي الدعوة إلى دولة واحدة في فلسطين كلها يعيش فيها العرب واليهود ، أو هي ، كما شاعت تسميتها ، الدعوة إلى الدولة الديمقراطية . اعترض المتزمتون على هذه الدعوة لأنها تنطوي على الإقرار لجميع اليهود الذين وفدوا إلى فلسطين بحقوق مساوية لحقوق أهلها العرب ، وعدّوا هذا إقراراً بأمر واقع لا يقرّون بشرعيته . وفي معارضتهم للدعوة ، تسلح هؤلاء بنص الميثاق الوطني الفلسطيني الذي قصر حق المواطنة في فلسطين المأمولة على أهلها العرب ولم يشمل من اليهود إلا من كانوا فلسطينيين ، أي اليهود الذين كانوا في فلسطين قبل بدء الغزو الصهيوني لها . أما بعض اليساريين فقد اعترض على الدعوة لأنه رأى فيها صياغة مواربة لشعار إزالة إسرائيل من الوجود الذي هو شعار غير واقعي . وفي سياق معارضته الدعوة ، تميز موقف عدد كبير من المؤمنين بالقومية العربية ،

تقدميين وسواهم ، فهؤلاء لم يعارضوا فقط الدعوة إلى مثل هذه الدولة في فلسطين ، بل عارضوا أي دعوة إلى أي دولة فلسطينية مستقلة ، بذريعة الحرص على التوجه نحو إقامة دولة العرب الواحدة الوحيدة من المحيط إلى الخليج .

لم يكن لي ، أنا العضو المراقب ، حق الكلام في الجلسات . فنشطت في الكواليس ، وكنت عالي الصوت ، صريحاً في الحثّ على نبذ المزايدة ومواجهة المزايدين . ولئن نفعتني كثيراً معرفتي الشخصية لمعظم أعضاء المجلس ، فإن صلاتي الصحافية نفعتني أكثر . فأمكن أن أروّج أفكاري على أوسع نطاق . وفي هذا كان سعيد حمامي شريكي الذي لا يكل ولا يهاب . وقد شكلنا ، سعيد وأنا ، ثنائياً جهر بالدعوة إلى التعقل وطالب بصياغة سياسة تضع للعمل الوطني الفلسطيني أهدافاً ممكنة التحقق وتجنّبه التوهان في سراب الأوهام . ووفرت نتائج أيلول/ سبتمبر الأسود الماثلة جواً استفدنا منه في الدعوة إلى إيلاء الواقع ما يستحقه من اعتبار . وهيأ نفوذ مصطفى الحسيني في «روز اليوسف» الفرصة لي ولسعيد كي نكتب في المجلة المصرية الشهيرة . وكتبت أنا مقالاً جعلت له هذا العنوان سافر الدلالة : «مشكلة العمل الفلسطيني سياسة لا» ثم كتبت غيره . وكتب سعيد في المنحى ذاته . وبدونا بهذا أشبه ما نكون بجنديين مقدامين يشقان درباً في حقل مليء بالألغام ولا يخشيان العواقب . ولئن أحنق ما كتبناه كثيرين حتى من أصدقائنا المقربين ، فقد تلقينا تشجيعاً سرياً من بعضهم وعلنياً من آخرين .

والواقع أن سعيد حمامي بزّني في الدعوة إلى الواقعية . ففي واقعيتي أنا ، انطلقت من الإيمان بأن الحدّ الأدنى المقبول في التسوية السياسية مع إسرائيل ينبغي أن يشتمل على إقامة دولة فلسطينية مستقلة في الأرض التي احتلتها إسرائيل من فلسطين في العام ١٩٦٧ ويبقى الباب مفتوحاً أمام

تطبيق قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة بقضية فلسطين وأخصها قرار التقسيم الذي صدر في العام ١٩٤٧ وقرار عودة اللاجئين . وإذا جاراني سعيد في هذا ، فمن باب الحصافة وحده دون أن يبدل اعتقاده بأن إقامة دولة الضفة والقطاع ستكون الحد الأقصى وليس الأدنى . إلاّ أن التمييز بين واقعية وأخرى ، بين حدّ للتسوية أو غيره ، لم يكن آنذاك في مركز الانتباه . وكيف ينشغل أحد بهذا التمييز حين تكون الأغلبية ممن يدينون أي واقعية !

وقد واصلت أنا الكتابة بعد أن رجعنا من الدورة كما واصلها سعيد . ولأننا كنّا ، كلانا ، على صلة وثيقة بياسر عرفات فإن الخصوم الذين يأخذون على الزعيم الفلسطيني أي إشارة دالة على التعقل ظنوا أننا نحظى بتشجيعه فراجعوه بشأن ما نكتبه فكان جواب عرفات هو هذا الذي أشهد بأنه مطابق لواقع الحال : «سعيد وفيصل يكتبان أشياء لا أوافق عليها ، إلا أنهما ابنان عزيزان من أبناء الثورة» . وما أكثر ما هاجمنا المزايدون واتهمونا كلينا كما اتهموا غيرنا من أمثالنا بأننا زمرة «مستزلمة» لعرفات ، وما أكثر ما تقولوا !

بعد الانتهاء من عمل الدورة وفي حمأة عقابيله ، بقيت في القاهرة أياماً أخرى ، وانتقلت إلى شقة أخويّ وخصصت لهما وقتاً كافياً ، ووثقت معرفتي بهما ، وتمتعت معهما بهدية أخرى أتحفتنا بها الوالدة وتزودت بالمزيد من حكايات أمي وطرائفها . وبهذا ، عوضت بعض ما فاتني وسعدت ، وخفّ إحساسي باليتم ، . وفي هذه الأيام ، تسنى لي أن أزور بعض مدن دلتا مصر وقراها وأعرف المزيد عن البلد الذي أحبّه وأوسع صلاتي فيه .

يقولون إن من يشرب من مياه النيل مرة لا بد من أن يعود ثانية إلى مصر . والواقع أني عدت بعد خمسة شهور .

وخلال الشهور الخمسة ، واصلت السلطات الأردنية عملها المثابر لاستكمال هيمنتها على البلد وتصفية الوجود الفلسطيني المسلح فيه .

لاحقت السلطات خلايا المقاومة الفلسطينية التي أُبقيت في عمان سراً وفتتتها واقتادت من وقعت عليهم أيديها إلى السجون . وحاصر الجيش الوحدات المسلحة الفلسطينية التي أجاز اتفاق القمة العربية بقاءها في أحراش جرش . فدافع المحاصرون عن وجودهم وتواترت الاشتباكات . وقد استفادت السلطات الأردنية من رخاوة رد الفعل العربي بعد رحيل عبد الناصر وغرق مصر في مشاكلها الداخلية وانصراف العهد الجديد في سورية إلى تثبيت مواقعه فيها ، فشددت الحصار وتوسعت في الملاحقات ، وتوجب على الجانب الفلسطيني أن يواصل التراجع . ولما تراكمت تلال من المتاعب ، اقتضى الأمر عقد دورة جديدة للمجلس الوطني الفلسطيني بعد خمسة شهور فقط من الدورة السابقة . فتسنى لي أن أجيء إلى القاهرة مرة أخرى . وما كان أحبّ هذا إلى نفسي !

انعقدت الدورة في حزيران/ يونيو ١٩٧١ . وكان السادات قد حسم وقتها مسألة ازدواجية السلطة في مصر وأتم ما أسماه حركة أيار / مايو ووضع قادة خصومه في السجن . وكانت المنازعات الفلسطينية الأردنية قد أحلّت مسألة تمثيل الشعب الفلسطيني في المحل الأول من اهتمام الفلسطينيين وأبرزت السؤال حول من يمثل هذا الشعب ومن يمثل خصوصاً سكان ضفتي الأردن الفلسطينيين : م . ت . ف . أم النظام الأردني . وفي ظل الخصومات المتفاقمة ، أوقع بروز هذا السؤال أعضاء المجلس الذين يحملون الجنسية الأردنية بين نارين ، أو بين نيران عديدة . فالواحد من هؤلاء مرتبط بثورة شعبه ومطالبه الوطنية من جهة ، فيما هو مضطر لمراعاة وضعه ومصالحه في الدولة التي يحمل جنسيتها ، من الجهة الأخرى . وقد عاينت ، بغير قليل من الأسى ، كيف كان كثيرون من هؤلاء حريصين على مصالحهم في الأردن واستمرار عيشهم فيه دون أن يؤيّدوا سياسة نظامه ، وكيف كانوا هم أنفسهم حريصين

أيضاً على صلتهم بالمقاومة الفلسطينية وولائهم لمنظمة التحرير دون أن يكونوا مفتونين بسياستها أو راضين عن أخطائها .

أضرب لك مثلاً ، إبراهيم بكر . فحين توسع وجود المقاومة في الأردن ذلك التوسع الصاروخي الذي تلا هزيمة ١٩٦٧ ، كان إبراهيم قد غدا شخصية مرموقة في عمان وصارت له في البلد مكانة كبيرة بوصفه واحداً من قادة الحركة الوطنية . وقد دخل إبراهيم بكر اللجنة التنفيذية للمنظمة وتكرر انتخابه لعضويتها وصار أميناً لسرها ، أي الرجل الثاني فيها ، دون أن يكف عن توجيه الانتقادات للسياسة الفلسطينية ، أو للسياسة الأردنية . وكانت في طبع الرجل شدّة تحول بينه وبين الرضى بالحدود الدنيا أو الحلول الوسطية . ولئن لم تستقم علاقات الرجل مع النظام الأردني ، فهي لم تستقم أيضاً مع رئيس اللجنة التنفيذية لـِ م . ت .ف . ياسر عرفات .

وقد ظل إبراهيم يأخذ على عرفات ما يعدّ وسطيته مثلما يأخذ عليه ما يعده تفرداً منه في القيادة واستهانة بصلاحيات الآخرين . وحين جئنا إلى الدورة الجديدة ، كان كيل إبراهيم قد طفح فقدم استقالته من اللجنة التنفيذية . وقد بدا لي ، أنا الذي عرفت الرجل معرفة لا بأس بعمقها ، أن قلق إبراهيم على وضعه في الأردن مع اشتداد الخصومة كان له تأثير على قرار الاستقالة . وأرجو أن لا تستخلص من هذا أني شككت في ولاء الرجل للمنظمة أو لقضية شعبه أو أني أشكك في جرأته أو قدرته على الثبات . كل ما في الأمر أن الذي ضاق بوضعه داخل سربه وجد نفسه مدعواً إلى تضحيات جسيمة وهو في هذا الوضع فلم تستطبها نفسه فآثر الاستقالة . ولأني تصورت أني وضعت يدي على شيء عميق ، ثم لأني كنت من أنصار النضال ضد السلبيات من داخل م . ت . ف . فقد ندبت نفسي لمحاولة ثني الرجل عن استقالته . ولم أكن الوحيد الذي ندب نفسه لهذه المهمة .

في هذا السياق، ضمتني إلى إبراهيم جلسة انعقدت في بهو فندق شبرد حضرها طلال سلمان، ومكرم محمد أحمد، وهو من كان آنذاك محرراً في «الأهرام»، ومصطفى الحسيني، ومصطفى نبيل. وكان فضولنا، نحن النواة المتماسكة لما سميناه حركة الفضوليين العرب، قوياً لمعرفة دوافع إبراهيم منه، وكنا عازمين كلنا على ثنيه عن الاستقالة. وفيما امتد النقاش، كان عضو اللجنة المركزية لـ «فتح» كمال عدوان جالساً إلى مائدة في البهو، وكان يراقبنا وهو قلق. وعندما جاء نادل في الفندق وطلب من إبراهيم أن يذهب إلى الهاتف لأن هناك من يطلبه، قلت، أنا المتنبه لوجود كمال: «صديقك كمال هو الذي أرسل النادل ليبعدك عنّا لأنه يخشى أن نستدرجك إلى البوح بما لا يحبّ»، فلم يستجب إبراهيم للطلب.

عليّ هنا أن أستطرد لأقول لك إن علاقتي بكمال عدوان لم تكن على ما يرام. لا يتعلق الأمر بيساريتي أو بيمينيته، بل بواقعة بعينها أفسدت العلاقة. ولكي تدرك مغزى ما جرى، عليّ أن أمعن في الاستطراد وأروي تفاصيل الواقعة، ولعلك تعلم أن هذا العضو الفعال والمثابر على النشاط في قيادة «فتح» جاء إليها كما جاء كثيرون غيره من صفوف الإخوان المسلمين وبقي وهو في «فتح» كما بقي آخرون وفياً للعقيدة التي نشأ عليها، واحتفظ في عداد ما احتفظ به ببغض الإخوان المسلمين للشيوعيين، وكان في هذا ما يكفي لتنفير الرجل مني ولكنه لم يكن سبباً للقطيعة لو لم تقع الواقعة التي أشرت إليها. فقد حدث أن شاباً من غزة منتمياً سراً إلى حزبها الشيوعي تيسرت له فرصة العمل سكرتيراً شخصياً لأمير من أمراء أسرة حاكمة في بلد خليجي. لن أذكر اسم الأمير فقد نسيته الآن. ولن أذكر اسم البلد فهذا مما لم تعد له أهمية. وسأسمي الشاب، هنا، ذكيّ ذلك أنه كان حقاً ذكياً، بل مفرطاً في ذكائه. وقد انتبه هذا الشاب إلى أن أميره ضالع في النشاط السري

العالمي لحركة الإخوان المسلمين ، فراح يراقب ما يقع عليه من وقائع هذا النشاط ، ودأب على الاحتفاظ سراً بنسخ من المراسلات الهامة التي تمرّ بين يديه ، حتى صارت في حوزته حقيبة مملوءة بوثائق خطيرة . وذات مرة ، وقعت بين يدي ذكي وثائق تظهر أن الأمير موكل بإرسال شحنة أسلحة إلى جزيرة آبا السودانية ، حيث يتمركز أنصار الإمام الهادي المهدي ويتهيأ هؤلاء للتمرد ضد النظام القائم الذي يرأسه النميري ويؤيده الشيوعيون . وقد حمل ذكي حقيبة وثائقه وجاء إلى دمشق وطرق باب منزلي .

كان عطية المقداد وعبد الرحمن عوض الله اللذان يترددان كما تعرف على منزلي قد أوصيا عضو حزبهما السري هذا بأن يتصل بي أو يراسلني إن احتاج لاتصال طارئ بهما . وعندما لم يجد ذكي قائدي حزبه ولم يمكن استقدامهما على عجل ، اضطر أن يبوح لي بأسراره ، وما أكثر ما اشتملت عليه حقيبة ذكي وما أخطر أسرارها ! وقد وجد السر الذي يخص السودانيين طريقة إلى المعنيين به . أما ما يخص كمال من هذه الحكاية فهو ما أظهرته واحدة من الوثائق وهو أن كمال كان موكلاً بالإشراف على مرور الأسلحة عبر الأردن في طريقها إلى السعودية ثم السودان . ولم أقدر وقتها عواقب اطلاعي على الأسرار الخطيرة ، ففاتحت سعيد حمامي بالأمر ، وكان مصطفى الحسيني الذي لا أخفي عليه أي سر حاضراً معنا . وطلبت من سعيد أن يتقصى ما إذا كانت قيادة «فتح» على علم بما أوكل إلى عضوها كمال أم أن التدابير تمت دون أن تعلم بها . وجاءني سعيد بالرد : لا علم لقيادة «فتح» بما جرى . ولأن سعيد مهذار ، ولأن قيادة «فتح» تقصت الأمر مع كمال ذاته ، فقد عرف المتهوم بما لا ينبغي أن يقدم عليه أني أنا الذي فضح السرّ . وفي غضون ذلك ، كنت أنا قد أدركت خطورة ما أوقعتني هذه الحكاية فيه ، فلجأت إلى الزوغان وقلت لسعيد ، وبأمل أن يلم لسانه : لعلي أسأت فهم ما قرأته .

وفي تلك الجلسة في بهو «شبرد» ، لم يتركنا إبراهيم بكر حتى بعد أن كرر كمال المحاولة . فجاء كمال بنفسه إلينا وقال وقد أرعش الحنق صوته : «إبراهيم ! ، أحذرك ، فأنت جالس مع صحافيين غير أمناء» . وكانت هذه شتيمة لا نستحقها . وكان أسرعنا إلى رد الفعل مصطفى الحسيني ، فقد قفز مستثاراً وفي نيته أن يشتبك مع الشاتم ، وتعجلت أنا الإمساك بمصطفى قبل أن تطال يده الهدف ، وأحطت به بذراعيّ وأوقفت اندفاعته . عندها ، صرخ مصطفى غير حاسب حساب العواقب : «أتشتم يا جبان ، أتظن أني أجهل حكاية الفلوس التي جاءت إليك من الهادي المهدي !» . لم أكن أنا قد تحدثت في أي وقت عن أي فلوس . ولم يكن في الوثائق التي اطلعت عليها ما ينمّ عن أن كمال قبض فلوساً من أيما أحد ، غير أنه حنق مصطفى ، وهو الذي أنطقه بهذه التهمة الجديدة .

لحظتها ، اختفى كمال فكأنه لم يظهر من قبل . ولم ينتبه إبراهيم المستغرق في مشكلته إلى مغزى عبارة مصطفى . غير أن ما حدث أو قيل وصل إلى صلاح خلف «أبو إياد» فأضاء شيئاً كان مستقراً في ذاكرته . وفي المساء ، جاء أبو إياد إلينا ، وقال بنبرة صوته المؤدبة : «باسم قيادة «فتح» ، أعتذر لكم عن الإساءة» . وشاء أبو إياد أن يستطرد ، غير أني ، أنا الراغب في طيّ المسألة ، قاطعته وقلت إن الأمر كله لا يستحق هذا الاهتمام ، وحاولت صرف الانتباه إلى موضوع آخر . ولكن المسؤول عن أمن الثورة لم يكن قد جاء في واقع الأمر من أجل تقديم اعتذار فحسب ، بل لغرض آخر لم تثنه مناورتي عن الإفصاح عنه . وقد توجه أبو إياد إلى مصطفى : «إيش حكاية فلوس الهادي المهدي ؟» . وأحال مصطفى سائله عليّ . كان مصطفى قد هدأ وصار راغباً في التملص : «الحكاية عند فيصل» ، وعندها جاء دوري لأتملص ، فلم أجد أفضل من إنكار معرفتي بأي شيء . وأدرك أبو إياد أني متحرج ، وكان

كعادته لبقاً ، فأرجأ الحديث إلى لقاء ضمني إليه في خلوة وفيه واجهني بغير مواربة : «سبق لك أن رويت الحكاية لسعيد . وفي السودان ، عاتبنا النميري بدعوى أننا قدّمنا العون للمتمردين على نظامه» . وقلت للرجل بعض ما أعرف وليس كلّه ، وعندما تشبث العازم على جلاء الحكاية بأن يعرف مصدرها ، قلت ما سأظل أردده في أي حال مماثلة : «حتى أمام القضاء لا يرغم الصحافي على كشف مصادره» . والواقع أني لم أكن عند أبي إياد مجرد صحافي . لكن القائد الذي يحترم نفسه احترم حاجتي إلى الكتمان .

وما أن انتهت دورة المجلس حتى عدت إلى دمشق . فقد وعدت رئيس التحرير صالح السغبيني المحتاج إلى وجودي بجانبه بأن لا أطيل غيابي عنه . وكان ثمة سبب آخر . فأثناء انعقاد الدورة ، شدد الجيش الأردني حصاره على الوحدات الفلسطينية المتركزة في الأحراش وباشر هجمات تستهدف القضاء على وجودها هناك . وقد عكر هذا مزاجي فلم أعد قادراً على الانصراف إلى أي شأن شخصيّ بما في ذلك شأن أخويّ التوّاقين إلى بقائي معهما ، وقوى دوافعي إلى العودة إلى عملي . وبعد أيام ، اكتملت في الأحراش مأساة المقاومة التي ابتدأت في عمان . كنّا ما نزال في تموز / يوليو ١٩٧١ ، وفيه جرت تصفية المواقع الأخيرة للمقاومة ، واستشهد القائد الفتحاوي الشهير أبو علي إياد وهو يقود المقاتلين الذين دافعوا عن وجودها ، وفيه وقعت أيضاً الحادثة الأشدّ إيلاماً حين توجه بعض الناجين من الحصار ناحية الأرض المحتلة ، لأنهم لم يجدوا طريقاً آخر للنجاة ، فتسلمتهم سلطات الاحتلال . وبدا الفلسطينيون خارج الأردن الذين تحدثت بياناتهم عن مجزرة رهيبة عاجزين عن فعل أي شيء إزاءها سوى الاحتجاج والتفجع .

بالنسبة لي ، . كان أوجع ما في هذا كله هو إدراكي أن ما وقع في الأردن هو ثمرة سياسات خاطئة وأخرى عاجزة ، سياسات مغامرة وأخرى متهاونة ،

مارسها الفرقاء جميعهم وهي سياسات لم تتوقف ، فلن يتوقف ، إذاً ، مسلسل نتائجها الفاجعة . وبتأثير الهم الذي يكوي الروح ويوتر الأعصاب ويؤجج آلام الداء اللعين الذي يستوطن عامودي الفقري ، كتبت تعليقي على الفاجعة ونشرته في عامودي الشهير . وفي هذا التعليق الذي ستعرف لماذا لا أنساه ، حاولت أن أتعمق سبب النزاع الذي أفضى إلى العداء الدامي بين من كانوا إخوة تفرض عليهم ظروفهم أن يتكاتفوا بدل أن يتقاتلوا . وقلت في التعليق الذي كسته المرارة إن سبب الأسباب التي توقد الخصومة بين م . ت . ف . وبين الأردن يكمن في تنازعهما حق تمثيل الشعب الفلسطيني وصياغة مستقبله ، هل تنفرد المنظمة الفلسطينية بهذا الحق فتمثل شعب فلسطين بأسره وبضمنه أبناؤه الذين يحملون الجنسية الأردنية ، أم يستأثر الأردن به وفي السياق ، قلت إن الفلسطينيين طامحون إلى أن يكون لهم كيان مستقل يعترف به العرب جميعهم ويحترمونه وأن تكون م . ت . ف . ، هذه التي يرى الفلسطينيون فيها كياناً معنوياً ، هي المسؤولة عن صياغة مستقبلهم وتوجيه عملهم لتأسيس كيانهم في وطنهم . ثم تساءلت أما آن الأوان لكي تقرّ الدول العربية كلها بحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير وتحترم كيانه ؟ واتبعت هذا القول بما ختمت التعليق به : كيف يمكن أن نطلب من دول العالم أن تؤيد حقوق الشعب الفلسطيني وتحترم كيانه حين تحجم دول عربية عن فعل هذا !

وعليّ أن أقرّ بأن التعريض بمواقف «دول عربية» انطوى من جانبي على التعريض بموقف سورية وليس الأردن وحده . ذلك أن سورية كانت تتسلح بدعوتها إلى دولة العرب الواحدة وتعارض التوجه إلى تأسيس دولة فلسطينية مستقلة . وكان هذا يغيظني فكيف تجيز سورية لنفسها أن تعترف بدول العرب العديدة كلها بما فيها دول كثيرة لا تتوفر لها من مقومات الكيان المتميز إلا رغبة ناسها في التميز ثم تأبى أن تقرّ مشروعية الدعوة إلى دولة مستقلة

للشعب الفلسطيني . وقد استخدمت كلمة كيان في التعليق بدل كلمة دولة لأن استخدام الأولى كان جائزاً في الإعلام السوري أما الدعوة إلى دولة فلسطينية فكانت من المحرمات .

وقبل أن أحدثك عن ردود الفعل على التعليق ، يجدر أن أروي لك واقعة أظن أنها أججت ردود الفعل هذه . فقبل سفري إلى القاهرة ، لبيت دعوة صديقي نور الدين محي الدينوف السفير السوفياتي إلى احتفال نظمته السفارة . وكان هذا ، إن لم تخنّي الذاكرة ، احتفالاً بيوم الصحافة السوفياتية ، وقد حظيت فيه كالعادة بحفاوة ورعاية متميزتين . وفي الاحتفال ، قادني السفير بيديه إلى حجرة جانبية دعا إليها كبار الحاضرين من قادة الأحزاب والوزراء والذين لهم أهمية خاصة . وهناك ، اتبع محي الدينوف التقليد المعروف فراح يقترح أنخاباً على شرف الحاضرين واحداً تلو الآخر ويشرب نخب كل منهم فودكا صافية . ابتدأ الرجل بالجالس على يمينه وعندما تمت الدورة ووصل إلي أنا الجالس على يساره ، كان قد شرب عدداً وافراً من الكؤوس وبهت تحفظه وانطلق لسانه . وهكذا ، أطنب السفير السوفياتي في مدحي واصفاً إياي بأني الصديق الكبير للاتحاد السوفياتي . وكان مما قاله السفير في مدحي إنني أنا الصحافي الذي كلما فتح هو جريدة «البعث» ووجد اسمي ما يزال فيها وعامودي اطمأن إلى أن سورية ما تزال بخير . ولم أنتبه أنا إلى أي شيء غير عادي في إطناب من لسان أفلتت الفودكا ضوابطه . غير أن نبيه ارشيدات الجالس بجانبي همس في أذني : «سيكلفك هذا المديح غالياً عند البعثيين» .

وبعد أن ظهر التعليق الذي أجازه رئيس التحرير كما يجيز أي مقال لي ، مضى اليوم الأول دون أن يقع ما يسوؤني . لكني فوجئت في صباح اليوم التالي حين وصلت إلى مكتبي في الجريدة مبكراً كالعادة بوجود دعوة لي

أبلغت إلى الجريدة مع بداية وقت العمل في الثامنة تطلب مني التوجه فوراً إلى مكتب العميد ناجي جميل . وكان هذا وقتها عضواً في قيادة حزب البعث وقائداً للقوى الجوية ورئيساً لمكتب الأمن القومي الذي يشرف على أجهزة الأمن كلها ، ولم تربطني به أي صلة شخصية تزيد على اللقاءات العابرة ، ولم يكن في ما أعرفه عنه ما يشجعني على السعي لتوثيق علاقتي به .

ولما لم يكن وارداً عندي الربط بين تعليقي وأجهزة الأمن أو القوى الجوية ، ولما لم يكن العميد هو المسؤول عن الإعلام في قيادة الحزب أو عن أي إعلام ، فقد هجست بأن استدعائي إلى مكتب العميد ربما تم بسبب تقرير ما تلقته الأجهزة عني ، وتعمدت أن أذهب إلى مكتبه في مقر قيادة القوى الجوية ماشياً فأتيح لنفسي وقتاً أستحضر فيه ما قمت به مما قد يستوجب المساءلة الأمنية . وقد استحضرت واقعة جرت أثناء انعقاد دورة المجلس الأخيرة في القاهرة . إذ أني أجريت هناك مقابلة صحافية خاصة مع ياسر عرفات وأرسلتها إلى جريدة «البعث» فنشرتها الجريدة ونقلت وكالات الأنباء مقتبسات منها ، فأثار هذا سخط بعثيّ عضو في المجلس لا يحبّ عرفات . وكان هذا العضو الذي أتذكر أن اسمه هو محمد ناصر ممن يصعب وصفهم باللباقة . وقد داهمني محمد هذا بسخطه وأنا واقف وسط حشد من المشاركين في الدورة ، وكان فظاً ليس في ما قاله فقط ، بل في النبرة المتعالية التي استخدمها : «مقابلة مع ياسر عرفات في جريدتنا ؟ لماذا لم تجر مقابلة مع الأمين العام للصاعقة ، ألا يعجبك زهير محسن ، وهل هذا لأنه هو الذي طردك من الحزب ، ألم يكفك أننا أبقيناك في الجريدة بعد الطرد ! ؟» . وسمع محمد منّي رداً قاسياً ، ففقد صوابه ورماني بتهديد سافر : «سنعود إلى دمشق ، وسنرى !» . وفي طريقي إلى مكتب العميد ، تصورت أن تقريراً من

محمد هذا هو الذي تسبب في استدعائي ، وهيأت نفسي للرد .

اختار العميد ناجي لمكتبه حجرة فسيحة ، بل قل صالة كبيرة . فعل حديث العهد بالسلطة ما يفعله أمثاله الذين يتصورون أن ضخامة حجرة العمل هي التي تدلل على علوّ المكانة ، وأقام العميد مكتبه في صدر الصالة أبعد ما يمكن عن مدخلها وملأ فراغها بعدد كبير من المقاعد الفاخرة . وعندما ولجت الصالة ، كانت المقاعد كلها مشغولة بالزوار ، وكان معظم هؤلاء من الضباط العسكريين من مختلف الرتب . وهكذا ، توجب أن أجتاز شبكة مديدة من النظرات التي أحاطت بي وأنا أعبر المسافة بين المدخل والمكتب . وكان أول ما لاحظته على الرجل الذي أتجه نحوه أن وجهه طافح بالحنق . وقد تعمد هو أن يظل في القعدة المتعالية التي اصطنعها ولم ينهض لاستقبالي ولم يتحرك من كرسيّه ولا مدّ يده للمصافحة ، ولم يدعني إلى الجلوس ، ولا كان بقربه مقعد شاغر أجلس عليه . وقد ملأني مسلك الرجل بالسخط ، أنا الذي صرت تعرف شدّة تأذي من الاستهانة بي . وأول ما فاه به الرجل الذي لم يرد على تحيتي كان تقريعاً لي : «ما هذه المواقف التي تفرضها على البلد فرضاً ؟» . ولأني لم أدرك ما يشير إليه هذا الحانق فقد سألت بنبرة مستنكرة وساخطة : «أي مواقف ، وأي فرض ؟» .

العميد الذي ألف أن يواجه تقريع رؤسائه له بالإذعان ولم يألف أن يواجهه مرؤوسه إلا بإذعان مثله والذي يعدني بالطبع أدنى مكانة منه ما كاد يسمع عبارتي حتى انفلت زمامه : «تتجاهل فعلتك ، من أنت حتى تفرض على القطر مواقف لا نؤيدها» . فكاد زمامي أنا الآخر ينفلت : «أنت تتهمني بما لا أعرف ، فلماذا لا تهدأ وتقول لي ما الحكاية» . ويبدو أن الرجل أُخِذ بجرأة الصحافي الذي يصرخ في وجهه ، فلم يهتد إلى ما يفعله إلا إلى استخراج ورقة من ملفّ موضوع أمامه وقراءة ما فيها ومطالبة الحاضرين بأن

يصغوا إليه .

كانت «لوريان لوجور» التي تصدرها دار النهار في بيروت باللغة الفرنسية قد التقطت ما في تعليقي من نفس يميزه عن الخطاب السوري السياسي الرسمي . وشاءت الجريدة التي تخاصم سورية أن تجسّ النبض وتستقصي ما إذا كانت ثمة بوادر تبدل في الموقف السوري ، كما قال لي فيما بعد عميد دار النهار غسان تويني . وقد ترجمت الجريدة تعليقي وتعمدت أن تجعل كلمة كيان دولة ونشرت منه مقتبسات في صدر صفحتها الأولى تحت المانشيت الرئيس : «موقف مفاجئ لسورية ، البعث تطالب بدولة فلسطينية» . وما قرأه العميد كان الترجمة التي أعدتها الجهات الرسمية للنص الذي نشر بالفرنسية فلم أتعرف فيه أنا على ما كتبته ولم أتذكره . وعندما ختم العميد قراءته ، جبهني بنبرة من وقع على ما يفحمني : «كيف تكتب مثل هذا الكلام» . ورددت أنا بثقة : «هذا كلام لست أنا كاتبه» .

العميد الذي لم يكلف نفسه عناء مقارنة الترجمة المكررة بالنص الأصلي المنشور في جريدة حزبه تلقى جوابي بهيأة من تلقى صفعة ، وما أسرع ما رماني بسيل من الشتائم والتهم . ووجدتني أنتفض من الحنق : «شتائمك لا تخيفني فهي عندي دليل ضعف ، واتهاماتك ، فلماذا لا ترجع إلى النص الأصلي» . وأُخذ العميد مرة أخرى بجرأتي ولم يعرف كيف يتصرف إلى أن أنجده سكرتيره حين أحضر جريدة «البعث» وقال لسيده : «التعليق هنا» . ومرة أخرى توجه العميد إلى زواره وقرأ بسرعة ما اختار قراءته من التعليق ثم سألهم وهو يلوح بالنص الأصلي والترجمة معاً : «أليس هذا الكلام هو هذا الكلام ؟» . وترددت في الصالة «نعم» صاخبة وانداح صداها . عندها ، اندفع كل ما في جوف الرجل إلى فمه وسال فيض آخر من الشتائم والتهم . وقد ميزت بين الشتائم والتهم اثنتين كررهما العميد الحانق أكثر من

غيرهما : «جاهل ، متآمر على الحزب» .

وعندما لم يعد بالإمكان أن أضبط رد فعلي ، فاض مخزوني أنا الآخر : «تقول : متآمر . هذه انتهينا منها منذ ثلاث سنوات وأنا خارج الحزب الآن . أما جاهل ، فاسمع : كل الذين يعرفونك يقولون عنك إنك جاهل ويضربون بغبائك الأمثال . أما أنا فكل من يعرفني يشهد لي بالذكاء وسعة المعرفة» . ولم أكن قد أنهيت كلامي حين رأيت أمامي رجلاً يهتزّ كله على مقعده ويعجزه الغيظ عن مقاومة الاهتزاز ، بل يعجز حتى عن أن يواصل تقريعي أو يقوم ليضربني هو الذي بدا لي شديد الرغبة في تأديبي . وكل ما فعله المحتقن بغيظه أن ضغط على زر الجرس وظل يضغط حتى بعد أن فزع إليه ناس مكتبه جميعهم ، ثم راح يصرخ : «برّة !» . وهذه التي تعني إلى الخارج تكررت ، ثم تبعتها : «اسحبوه ، خذوا هذا المتآمر إلى السجن ، من هنا إلى السجن فوراً !» . وفيما تولى موظفو مكتب العميد سحبي من أمامه ، سمعته يصدر أوامره : «خذوه إلى العقيد حكمت وقولوا إنه مرسل من قبلي !» . وهكذا ، أدركت أني مرسل إلى مدير المخابرات العامة .

في المكتب الذي أخذتني إليه جيب عسكرية ، في مبنى وزارة الدفاع ورئاسة الأركان العامة للجيش القريب من مبنى الإذاعة والتلفزيون ، وجدتني في جو مختلف تماماً من جميع الوجوه . فقد وجدتني هنا في حجرة سعتها معقولة وقد فرشت بأثاث يشي بذوق شاغلها الرفيع . ووقف شاغل المكتب أمامي بأناقة لا يشوبها التصنع ، واستقبلني مرحباً كما يُستقبل زائرٌ مرموق ، ثم انتقل من وراء المكتب وجلس على مقعد ودعاني إلى الجلوس قبالته ، ولم يجلس هو إلا بعد أن جلست أنا . وأدركت بغير عناء أني إزاء مسؤول غير ساخط عليّ . فشعرت بالاطمئنان ، وجلست براحة . ثم تقبلت بامتنان السيجارة التي قدمها الرجل إليّ . ونفثت أول الأنفاس بروّية ، وقلت قبل أن

يبدأ هو الحديث : «أنا لا أفهم لماذا يشغلون مسؤولاً كبيراً مثلك بتهم يختلقونها اختلاقاً ، ولا أقرّ أن أعتقل . لكنني إزاء استقبالك الكريم لي أضع نفسي في تصرفك ، وسأجيب بصراحة تامة على أي سؤال» .

والواقع أني التزمت الصراحة التامة خلال ساعة ونصف ساعة هما الوقت الذي استغرقه التحقيق . ولكي أكون أكثر صراحة عليّ أن أقرّ بأن الحديث كان أقرب إلى الحوار وتبادل الآراء منه إلى التحقيق .

بدأ العقيد حكمت الشهابي حديثه بمجاملة ذات مغزى ، فقال إنه يعرفني معرفة دقيقة حتى وإن لم نلتق قبل الآن . وذكر العقيد أن صديقين مشتركين هما العميد محمد الشاعر والعميد مصباح البديري حدثاه عني كثيراً ، وهو يعدني صحافياً كفؤاً ووطنياً مخلصاً ، ثم أفهمني في نحو غير مباشر أنه هو لم يكن ليأمر باعتقالي أو التحقيق معي بسبب التعليق وإن لم يتفق معي في الرأي . وقال العقيد إنه قرأ التعليق بإمعان ، أمس وأعاد قراءته اليوم وهو ينتظر وصولي ، ووصف التعليق بأنه مكتوب بذكاء شديد وعباراته توحي بأعمق مما يحمله ظاهرها . ومع ابتسامة مطمئنة ، قال الرجل عني إني أمرّر في مقالاتي آراء لا تتطابق مع سياسة الدولة ، ثم طرق الموضوع المشكل : «لا توجد في التعليق دعوة صريحة إلى إقامة دولة فلسطينية ، إلا أن قارئه يستنتج أنك تؤيد إقامتها ، فأنت لا تدعو إلى مجرد كيان» .

عند هذه النقطة ، شئت أن أقول شيئاً . إلا أن العقيد أشار بيده إشارة عنت أنه لم يتم كلامه : «وإذا كان هذا ما يستخلصه القارئ العادي فلك أن تتصور ما يستخلصه الذين يعرفون أنك تحثّ إخوانك على القبول بتسوية سياسية مع إسرائيل مقابل دولة صغيرة في الضفة والقطاع» . وفي شرحي لموقفي ، قلت إني أفهم الدعوة إلى الاستقلال الفلسطيني على أنها موجهة ضد إسرائيل وليس ضد الوحدة العربية . ثم بسطت رأيي الذي تعرفه وموقفي

من التسوية السياسية . وقلت إني أعرف أن ما أؤمن به مخالف للموقف السوري الرسمي ، لكني أُلزم نفسي بنفسي ألا أكتب في جريدة الحزب الحاكم ما يتعارض معه ، ولهذا ، تعمدت استخدام كلمة كيان ، وقد سبق لحزب البعث أن نشر في العام ١٩٦٤ مشروع خطة كاملة لتأسيس كيان فلسطيني ثم لم يتراجع عنه .

أصغى العقيد إلى شروحي بانتباه . وعندما وصلت إلى النقطة الأخيرة ، بدا كمن تذكر ما أوكل اليه ، فقطع سياق تبادل الآراء ، وقال إنه لا يود أن يتهمني بالتلاعب بالألفاظ ، فكان كأنه ينبهني إلى أني أتلاعب بها فعلاً . ثم عاد العقيد إلى مكتبه حيث جريدة «البعث» وقال وهو جالس إلى المكتب : «لنقرأ التعليق معاً !» . وقرأنا التعليق . وتوقفنا عند دلالات الألفاظ والعبارات . حتى دلالات علامات التنقيط توقفنا عند بعضها . وظل ما تبرزه السطور وما تبطنه حمالي أوجه كلاهما . واحتدم الجدل دون أن أقنع الرجل أو يقنعني ، فلا هو أقتنع ببراءة قصدي ولا أنا اقتنعت باستحقاقي الاتهام . مع هذا ، أمتعني الجدل مع رجل المخابرات المهذب والمتفهم . حتى لقد نسيت أني معتقل أو أن ما يدور هو تحقيق . ولم يصدر عن محدثي ما يذكرني بوضعي .

وقد استخلصت من حديث العقيد ما عزز استخلاصاتي السابقة . فالسياسة السورية في عهد الأسد تضمر ميلاً إلى التحرر من التشدد الموروث ، أما الإفصاح عن هذا الميل فما زال موضع مناقشة بين ناس العهد ولم يحسم أمره بعد داخل القيادة .

وحين وقف العقيد مؤذناً بانتهاء الحديث ، وقفت أنا ومددت يدي للمصافحة وشكرته على الاستقبال الرائق وكدت أردد عبارات الوداع على أساس أني منصرف . لكن مدير المخابرات العامة أخرجني من توهمي : «سأرسلك إلى مكان قريب وستكتب هناك إجابات خطيّة على الأسئلة .

وتذكّر أن عليك أن تقنع الذي أرسلك إليّ . أما أنا فإني أفهمك وأقدرك !» . تجنب الرجل ذكر كلمة سجن أو كلمة تحقيق وتطوع بنصيحة مفيدة ، وكان هذا كرماً زائداً منه وقد قدرته له ، ثم صحبني إلى الباب وقال لأحد معاونيه : «خذوا الأستاذ إلى الرائد عدنان !» .

أُخذت إلى فرع التحقيق العسكري الذي يرأسه رائد له هذا الاسم . وهناك سُلمت إلى ديوان الفرع كما تسلم بضاعة موصّى عليها . وقد أكرمني موظفو الديوان الذين لم أميّز رتبهم بسبب ملابسهم المدنية وأجلسوني على كرسي بينهم . وعندما عرف هؤلاء تهمتي ، تذكر واحد منهم أنه قرأ التعليق دون أن يستوقفه شيء غير عادي فيه ، وجاء آخر بالجريدة وقرأه لزملائه . وتبادل هؤلاء نظرات وشت بأن الأمر ليس أمر تعليق في جريدة . ولحظتها ، لحظتها فقط ، تذكرت محي الدينوف ونخبه وإطراءه لي وتحذير نبيه لي من العواقب .

كان العميد ناجي جميل من القوميين المتعصبين الذين لا يرتاحون لزيادة الحضور السوفياتي في البلد وبروز الشيوعيين في الحياة السياسية . وسطعت فكرة : هذا الرجل قد لايكون غبياً بالمقدار الذي يتحدثون عنه . وداهمتني الهواجس .

أما الرائد عدنان فأوضح منذ أُدخلت عليه أنه غير مسؤول عن مشكلتي وأني عنده مجرد وديعة لحساب العميد ناجي . وصارحني الرائد بأنه قرأ التعليق فلم يجد فيه ما يسوغ حنق العميد عليّ . ثم قدّم رئيس فرع التحقيق قائمة أسئلة مكتوبة وقال إنه أوصى بأن أبقى في الديوان إلى أن أفرغ من كتابة إجاباتي عليها . كان جرس صوت الرائد قاسي الوقع . ويبدو أن الصوت اكتسب قسوته من نشأة صاحبه في المنطقة الجبلية التي تشي لهجته بأنه منها ومن المهنة . إلا أن سلوك الرجل إزائي خلا من أي قسوة . وقد حاول

الرائد أن يعرف ما إذا كان ثمة شيء خاص وقع بيني وبين العميد ناجي . استفهم الرجل عن هذا بعدما أكد على أنه لا يحقق معي بل يسأل بدافع الفضول الشخصي ، وأغلب ظني أنه لم يصدقني حين قلت إني لا أعرف .

مكوثي في حجرة الرائد وفّر لي فرصة ما ظننت أني سأظفر بها . فقد جاء إلى الحجرة رجل من «فتح» يعرفني وأعرفه وهو يحمل رتبة نقيب في قوات الثورة الفلسطينية ويشغل موقعاً في قيادة تنظيم «فتح» في سورية . جاء الفتحاوي مراجعاً في شأن من الشؤون ، ففوجئ بوجودي . وفيما هو واقف باستعداد في حضرة الرائد السوري ، ألقى النقيب الفلسطيني عليّ نظرة مستفهمة . ولم أكن أجهل أن الرجل قليل الفطنة كما لم يكن بإمكاني أن أجيب على تساؤله بكلام سيسمعه الرائد ، فضممت معصميّ في حركة يفهم منها أي إنسان أني معتقل . ومنيت نفسي بأن القيادة الفلسطينية ستعرف مكان اعتقالي .

ولم أحتج إلا إلى وقت قصير كي أنهي ما كتبته . غير أن موظفي الديوان أبقوني عندهم وظلوا يجاذبونني أطراف أحاديث متنوعة وأنا أراقب عملهم . وفي جلستي تلك ، جيء إلى الديوان بموقوفين غيري ، فكان واحدهم يصل بصحبة الذين جلبوه ، فيتسلمه موظف في الديوان ، ويسجل اسمه في سجل ، أو يغفل هذا إن قضت التعليمات بالإغفال ، ثم يفتشه ويفرغ ما في جيوبه ويوجب عليه أن ينزع ربطة العنق وأربطة الأحذية والحزام ، ثم يقتاده إلى الداخل . وعندما حلّت الساعة الثالثة بعد الظهر ، غادر الموظفون الحجرة واحداً إثر آخر إلى أن بقي فيها واحد منهم فقط ، وهو من كان أشدّهم تعاطفاً معي وهو ذلك الذي كان قد قرأ التعليق . وبعد تردد ، قال الرجل بادي الحرج : «لا بدّ من وضعك في الزنزانة» . ولكي لا يزيد حرج الرجل ، بادرت بنفسي إلى إفراغ جيوبي وفك الحزام وأربطة الحذاء ، وهتفت متصنعاً المرح :

«أنا جاهز» . وأشار هو إلى معصمي : «الساعة إن سمحت !»

وكان في الزنزانة التي قادني إليها الرجل حشيّة ومخدّة وبطانية ووعاء لقضاء الحاجة له غطاء ، وكان لها نافذة يجيء منها ضوء النهار فأدركت أني حظيت بمعاملة متميزة . وقبل أن يقفل عليّ الباب ، سألني الرجل عما إذا كنت بحاجة لشيء ، فقلت إني أود لو أمكن أن يعرفوا في الجريدة مكان وجودي . فهمس الرجل : «هم يعرفون ، أصحابك قائمون قاعدون من أجلك» . وما كنت بحاجة إلى أكثر من هذا لأعلل نفسي بالأماني الطيّبة . وتذكرت أني لم آكل شيئاً طيلة النهار . وذكرت هذا للرجل ، فما أسرع ما أحضر طاسة طافحة بالطبيخ الذي يأكله العسكر ورغيفاً من خبزهم الكبير ! وأتيت على ما يأتي عليه جائع نهم . ثم سرى الخدر فنحّى الهواجس ، واستسلمت لنوم عميق ، لم ينتزعني منه إلا صرير باب الزنزانة حين انفتح ثانية وانتصبت أمامي قامة سجان جديد ، وكان الليل قد أطبق .

داهمتني لحظتها الهواجس : إنهم يعذّبون في الليل ويبدو أن دوري قد حلّ . وإذا شئت أن تعرف ما إذا كنت قد خفت ، فلتعرف إذاً أن ترقب التعذيب قد يكون أشق من التعذيب ذاته ، غير أن صوت المنتصب عند الباب حمل مغزى مغايراً : «إفراج» . كلمة واحدة لم يفه الرجل بغيرها ، حتى لقد خشيت أني أخطأت السمع ، فليس من المألوف أن يُفرج عن نزيل زنزانة منفردة بهذه السرعة . وحين تبعت إشارة السجان إليّ بأن أتبعه ، سرت وراءه ومعي هواجسي .

في حجرة الضابط المناوب ، أبلغ إليّ شاب يجلس وراء مكتبه وهو في ثياب النوم أنه تلقى للتوّ أمراً بالإفراج عني ، ولم يفته أن يضيف أن الإفراج عن موقوف في مثل هذه الساعة أمر غير مألوف : «إنها العاشرة» ، قال الشاب هذا ليؤكد على فكرته . ولا أدري لماذا تهيأ لي أن الضابط يحس بالأسف

لأني أنفد بجلدي . وبعد أن أعيدت إليّ أشيائي ، عرض الضابط أن توصلني سيارة التحقيق إلى منزلي ، وعندما تلقى رفضي لم يلحّ : «تذكر ، نحن لم نسئ معاملتك» . ولم يضف إلى هذا ولو كلمة وداع .

الإفراج المفاجئ وغير المتوقع أسلمني إلى هاجس بغيض . فقد تذكرت واقعة قديمة جرت أيام ازدواجية السلطة . فقد اعتقل وقتها شاب شيوعي من معارفي ، فاشتكى حزبه الذي كان له وزير في الحكومة ، وصدرت التعليمات إلى الجهاز الذي يعتقل الشاب بالإفراج عنه . وخرج المعتقل فعلاً من المبنى الذي احتجز فيه . لكن سيارة تابعة لجهاز آخر كانت على الرصيف في الانتظار وحملت الشاب إلى مكان آخر لم يعرفه المهتمون بالإفراج عنه . وبالرغم من أن العقيد عبد الكريم الجندي ، وهو من كان آنذاك رئيساً لمكتب الأمن القومي ، قد اهتم شخصياً بسلامة هذا الشاب ، فقد تعذر عليه تحديد الجهة التي تحتجزه ، وانتهت الحكاية بعد أيام بجسد الشاب ملقى على رصيف في المدينة وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة . وأغلب الظن أن الذين ألقوا الجسد على الرصيف تصوروا أنه فارق الحياة .

تذكري لهذه الحكاية هو الذي جعلني أرفض عرض الضابط . وعندما وجدتني على رصيف شارع بيروت في الهواء الطلق ، انتعش مزاجي دون شك ، غير أن الهاجس لم يبرحني بل انتعش هو الآخر . كان الشارع خالياً من المارّة . وكنت بحذاء مقرّات عسكرية . فتضخم هاجسي . وما سمعت صوت سيارة إلا تهيأ لي أنها اللحظة المخيفة . وغنيّ عن البيان أني امتنعت عن استخدام تاكسي ، بل توجهت إلى منزلي ماشياً وأنا أتلفت حولي . ولم يبارحني الحذر حتى بعد أن تركت شارع بيروت الخالي وغمرتني أضواء شارع أبو رمانة وصخب الساهرين فيه .

وفي المنزل ، وجدت في انتظاري حشداً كبيراً من الأصحاب . كان نبيه ،

هنا ، ومنير ، ومحمد الشاعر ومصباح بديري ومندوب أرسله ياسر عرفات وآخرون كثيرون . ولم أكد أفرغ من التحيات حتى وصل صالح السغبيني . وعرفتُ سرّ المعاملة الإستثنائية التي حظيت بها .

كان صالح يعرف ما يعرفه غيره عن فظاظة العميد الذي استدعاني فباشر منذ حلوله في مكتبه الاتصالات اللازمة لحمايتي . وتابع صالح ما جرى خطوة خطوة ، ولم يكفّ عن الاحتجاج . واتصل رئيس التحرير الذي يحترم مسؤولياته بمدير المكتب الصحافي للرئيس حافظ الأسد ، وهو صديقي المتعاطف معي الفلسطيني أسعد كامل إلياس ، وطلب أن يصل رأيه إلى الرئيس : «أجزت نشر التعليق فأنا ، إذاً ، المسؤول ولا تجوز معاقبة الكاتب» . وعندما عرف صالح أني وضعت في زنزانة منفردة ، شدد احتجاجاته وعرض أن يحلّ محلي أو يزاملني ، وطلب أن يقابل الرئيس . واستخدم ياسر عرفات نفوذ الفلسطينيين في سورية وعلاقاتهم ، وعمل كل ما يمكن عمله لحمايتي . وبذل آخرون ، بعثيون وغير بعثيين ، جهودهم بعد أن عممت زوجتي نبأ اعتقالي على أوسع نطاق .

وبإلحاح منه ، حظي رئيس تحرير «البعث» بلقاء مع الرئيس الأسد في المساء . ودعي العميد ناجي إلى هذا اللقاء . وانتهى الأمر بتسوية : أن يفرج عني فوراً ، على أن أسرح من العمل في الجريدة وأمنع من الكتابة لأي من أجهزة الإعلام في البلد .

عند هذه النقطة من رواية صالح ، وجّه نبيه ارشيدات إليّ النظرة التي أعرف أنها تقول : هل صدقتني ، ثم قال : «هذا هو بيت القصيد ، لعبوها ، لعبوها من لعبها كي يمنع فيصل عن الكتابة» . وعقب صالح : «اشترطوا أن يُمنع أيضاً حتى عن دخول مقرّ الجريدة» .

لم أنتبه وقتها إلى قسوة العقوبة مع أن فيها أقسى ما يمكن أنّ يعاقب به

صحافي . تركز انتباهي على نجاتي من الحبس . وابتهج الجميع ، على أي حال ، بسلامتي ، بمن فيهم بالطبع نبيه . إلا أن صالح ظل بادي الاستياء ، وقد صارحني بأنه قبل التسوية لأنها أخرجتني من السجن دون أن ترضيه بنودها الأخرى . وقال صالح إنه يفكر في الاستقالة . وكان من الطبيعي أن أحثّه أنا على الاستمرار في منصبه . وهم على أي حال لم يبقوه في الجريدة مدة طويلة بعد هذه الواقعة .

في اليوم التالي ، تلقت الجريدة قرار فصلي من العمل الصادر عن القيادة القومية لحزب البعث وعليه توقيع أمينها العام المساعد ، أي مساعد الأمين العام حافظ الأسد ، عبدالله الأحمر . وجاء صالح بالقرار إلى منزلي . وجاء معه محاسب الجريدة . أراد صالح أن يستخدم صلاحياته لأحصل على أفضل تعويض نهاية خدمة ممكن ، فاكتشف وقتها ما كنت أعرفه وأهمله ، وهو أن العاملين في «البعث» غير مسجلين لدى مؤسسة التأمينات الاجتماعية ، وأني لن أحصل ، لهذا ، على أي تعويض . وكان لدى المحاسب عرض رضي صالح به على مضض لأنه لا بديل له وشاء أن يستمزج رأيي فيه . فقد اقترح المحاسب حتى لا أسرح دون الحصول على شيء أن تطبق الجريدة عليّ ما نص عليه قانون العمل القديم . وعني هذا أن أحصل على أجر نصف شهر عن كل سنة من سنوات خدمتي الخمس الأولى وأجر شهر عن أي سنة تالية . قبولي الإقتراح كان سيوفر لي مبلغاً أضأل مما استحق لو كنت مسجلاً في التأمينات ، أما الرفض فلا يوفر أي مبلغ . وكان البديل عن الرفض أن أتوجه إلى محكمة العمل وأقاضي قيادة الحزب الحاكم . فهل كان في متناولي إلا قبول اقتراح المحاسب ! .

تلقيت تعويضي المنقوص في اليوم ذاته . وقررت ألا ينقضي النهار قبل أن أسدد ما عليّ من ديون جميعها . وقد سددت في ذلك النهار فعلاً ما وفي به

المبلغ ، وأرجأت تسديد البقية إلى أن يتبدل الظرف . وهكذا ، وطّدت نفسي على مواجهة البطالة وأنا خالي الوفاض . ونمت تلك الليلة مرة أخرى نوماً عميقاً . ألسنا نعرف أن نوم المقهور يعمق ويمتد .

وفي الصباح ، تلقيت هاتفاً مبكراً : «طلب الختيار أن أوقظك وأدعوك إلى تناول الإفطار معه . يريد أن أن يراك قبل أن يزحمه الآخرون» . ووصلت إلى مكتب الـ «٢٣» وأبو عمار يصلي . لم يكن هذا وقتاً عادياً للصلوات المفروضة ، لكنها عادة عرفات وطبيعته وحساباته . وقد انتبهت منذ وقت طويل ، أنا الذي لم ينس ما درسه من أحكام الفقه الإسلامي وقواعد العبادات ، إلى أن قائد الثورة الفلسطينية المسلحة يستفيد في صلواته من رخصتين أُبيحتا لأمثاله ؛ فبما هو على سفر دائم فهو يجمع الصلوات وبما هو محارب دائم فهو يقصرها . وبالجمع والقصر . ،كان عرفات يصلي مرة واحدة في اليوم ولا يكررها إلا إذا اقتضت ذلك الظروف ، كأن يكون في جمع يؤدي صلاة جماعة أو يكون عنده زوار يحرص هو على أن يعرفوا أنه متدين مواظب على أداء الفرائض . ولم يطل انتظاري ، إذ سرعان ما فرغ عرفات من صلاته وأتم الدعاء الذي يعقبها ثم فرغ لي .

استقصى أبو عمار تفاصيل ما جرى لي بعناية وظل يحثني على الإفاضة . وفي غضون ذلك ، أدخل الإفطار ، وكان كالعادة وجبة متواضعة ، فهو لا يأكل في مقرّات الثورة إلا ما يأكله المقاتلون العاديّون . وبالرغم من ولعه بالطعام الجيّد وقدرته على التهام الكثير منه فهو يأكل في هذه المقرات القليل . وبعد الإفطار ، انتقل عرفات إلى كرسيه وراء مكتبه . واستعادت تعابير وجهه سمات القائد المتمرس ، وقال : «دعوتك لأقول لك إننا معك ، صحيح أنك تكتب أشياء لا أوافق عليها ، لكنك ابن هذه الثورة ولن أسمح لهم بأن يذلّوك» . واكتسى وجه عرفات صرامة منذرة : «ليس ما تكتب هو الذي

يغيظهم ، إنه النفس ، يغيظهم أن عندهم فلسطينياً مستقلّ الرأي مرفوع الرأس ، يجوّعونك لتخفض رأسك ، تعرف من الذين أعنيهم» . قال عرفات هذا وأدى حركة أراد أن أفهم منها أنه يخشى أن يكون في الحجرة جهاز تسجيل خبأه الذين عناهم بكلامه . فلم أملك أنا إلا أن أردد : «أنا فاهم» وأخفض رأسي احتراماً وامتناناً لأريحية هذا الرجل ، ولولا هذا لبدوت أبله وناكراً للجميل .

وفيما كان تحرجٌ دوافعه كثيرةٌ يطوقني ، أمسك أبو عمار سماعة الهاتف وخاطب شخصاً على الطرف الآخر : «سيجيئك فيصل حوراني فادفع له ما يطلبه !» ، وأعاد السماعة إلى موقعها ، ثم وجه الخطاب إليّ : «أبو أسامة محمد ، اذهب إليه ، وخذ ما يلزمك لتعيش بكرامة !» .

يقيناً إن مبادرة عرفات أحلّت في نفسي الطمأنينة التي افتقدتها منذ أدركت أني مفلس . ولو انسقت مع حاجتي وحدها لقبلت العرض بغير تردد . وقد كنت أعرف أن «فتح» ألزمت نفسها تقديم العون لأي فلسطيني ناشط في العمل العام إذا شحت موارده أو قطعت بسبب نشاطه ، حتى لو لم يكن من أعضاء «فتح» أو مؤيديها . غير أني كنت أعرف أن عون «فتح» لا يقتصر على المحتاجين إلى العون وحدهم ، بل يشمل أيضاً من تحتاج هي إلى تأليف قلوبهم أو تليين عدائهم أو ضمائرهم . وإزاء هذا العرض الذي بدت نزاهته سافرة ، لم أتمكن من تنحية الدوافع الأخرى عن بالي ، فاستحوذ عليّ تزمتي المزمن ضد الشبهات : عشت مرفوع الرأس ، أحصل لقمة عيشي وعيش أسرتي بكدّي وأرضى بأقل مما أستحق كي لا يأسرني فضل أحد عليّ أو يقيّدني التعود على التمتع بالامتيازات ، وليس في نيتي ، خصوصاً في هذا الظرف الذي يبهظني فيه ذلّ الحاجة ، أن أتبدل . وبتأثير تزمتي ، نبت الهاجس المحذّر : إياك أن تقع في ما وقع فيه غيرك ، احتفظ بتميزك ! ووجدتني أرد على عرض الرجل

الكبير بخلاف ما تمليه الحاجة : «كرامتي أجدها في العمل وما أزال قادراً على عمل الكثير ، وفي مؤسسات م . ت . ف . متسع لأمثالي . وأنا لا أقبل أن آخذ من مال الثورة عوناً بغير عمل» .

لم يخامرني أي شك في أن عرفات التقط هاجسي . ولم يترك هو الأمر ملتبساً : «لا تظن أني أجهل حرصك على نقاوة ضميرك ، ما أنشف راسك ! نحن نشتري بالمال الساقطين ، وليس المناضلين» . قال عرفات هذا وفي نبرة صوته شيء من الحنق ، وكان حنقاً حقيقياً كما بدا لي ، وأغلب ظني أنه انتبه ، وهو الفطن ، إلى ما ينطوي عليه رفضي من تشكيك بدوافع عرضه ، لكنه هدأ النبرة بعد لحظة صمت ، ثم عرض حجته . لم يكن في استطاعة رئيس م . ت . ف . بعلاقاتها المتشابكة مع سورية أن يندبني إلى عمل فيها في اليوم الذي يسرحني رئيس سورية من العمل : «افهم ! لا بدّ من أن يمرّ بعض الوقت إلى أن ينسوك ، ثلاثة شهور ، هل هذا كثير ؟ !» . وكانت هذه حجة دامغة . لكن ، صعب علي وقد أشهرت تزمتي أن أتراجع : «عندي ما يكفيني لثلاثة شهور ، فاعفني من الذهاب إلى المالية !» . لم يكن هذا صحيحاً كما صرت تعرف . لكنه الإباء العنيد وهو الذي يشعل عنادي حتى حين لا يكون للعناد لزوم .

ما أقوى ذاكرة ياسر عرفات حين يعزم على أن لا ينسى ! ظللت ألقاه طيلة الشهور الثلاثة التالية ، وكان يقع لي أن ألقاه مرة أو أكثر في يوم واحد دون أن يجيء على ذكر هذا الموضوع أو يلمح إليه . وفي ختام الشهور الثلاثة ، في اليوم الأخير من أيام ثالثها بالضبط ، استدعاني أبو عمار استدعاءً ، واستقصى خياراتي . وكان من شأني أن ألتحق بعمل في دائرة الإعلام والثقافة أو في الدائرة السياسية لأن هذا هو ما تؤهلني له خبرتي . وقد اخترت الدائرة السياسية لأن خالد الحسن كان هو رئيسها ولأن العميد عبد الرزاق

اليحيى كان قد صار مديرها العام . وهكذا صرت رئيس قسم في هذه الدائرة . كنا حين عُينت لهذا الموقع قد صرنا في تشرين الأول/ أوكتوبر ١٩٧١ ، وكان عدد العاملين في مركز الدائرة التي تشرف على مكاتب م . ت . ف . لا يزيد عن عدد أصابع اليدين ، وهم موزعون بين دمشق وبيروت والقاهرة . وكانت الاستهانة بالعمل السياسي ما تزال ماثلة .

وقع عرفات قرار تعييني وصار عليّ أن أنصرف ، لكنه استبقاني إلى أن تخلو الحجرة من زواره . وعندما صرنا وحدنا ، قال عرفات : «ستذهب في البداية إلى القاهرة ، لا تجادل ! ابق هناك إلى أن ينساك الذين هنا ، ولا تقم بأي نشاط يلفت انتباههم إليك ! إن اتبعت نصيحتي فسيصير بإمكاني أن أعيدك إلى دمشق بعد ستة شهور» .

لم ينتبه أبو عمار إلى أنني أحبّ القاهرة وأتوق إلى الذهاب إليها . وأغلب الظن أنه توقع أن أعترض ولما وجدني صامتاً ظن أني مستاء ، فكرر : «اسمع منّي ، ابتعد لبعض الوقت ، لا أريد بطولات ، تفسّح في القاهرة ، وبعدها يجيء وقت العمل الكثير !» .

ولم أجادل . لقد سعدت بالفرصة المؤاتية .

وقبل أن أنصرف ، سألني أبو عمار هذا السؤال : هل هي المرة الأولى التي تعاقب فيها على وطنيتك الفلسطينية . فاجأني السؤال وأعاد إليّ شريط معاناتي الطويل في حزب البعث . وأغلب الظن أني جمجمت برد غير واضح . ولكن ما أثاره السؤال انداح بعد أن انصرفت . وقد تنبهت إلى حقيقة أني انتقلت فعلاً من قومية البعث العامة إلى الخصوصية الفلسطينية . ولم يكن هذا عندي انتقالاً من موقع إلى نقيضه بل تمركزاً في الخندق الملائم لي داخل الموقع ذاته وتخصصاً . وليس ذنبي أن بعض ضيقي الأفق يضعون الوطنية الفلسطينية في موقع متعارض مع القومية العربية . تماماً كما أنه ليس

ذنبي أن بعض هؤلاء يضعون الوطنية والقومية كلتيهما في تعارض مع الأممية . لقد أبحت لذهني السياسي أن ينفتح على مداه الواسع ، فأنا فلسطيني عربي وأمميّ في آن . وهذه الصفات كلها تتفاعل في ساحة واحدة .

١٣

أبو سلمى ومدرسة ضيقي الصدر

في شهور بطالتي الثلاث ، تسنى لي أن أقضي في المنزل وقتاً أطول مما ألفت قبلها ، فأدركت كم أنا مقصر بحق الأسرة وكم كانت خسارتي كبيرة حين حرمت نفسي من متعة التواصل مع صغيراتي النابهات . وبتوفر الوقت ، اتبعت مسلكاً جديداً . وبدل الرعاية النوعية التي كنت أتصور أني وفرتها للصغيرات ، حرصت على أن أخصص لهن أوقاتاً لرعاية التفاصيل أيضاً والتمتع بصحبتهن . ثم صممت على أن يظل للصغيرات أوقات لا تجور عليها أي مشاغل : أول المساء دائماً للصغيرات ، والأصباح الباكرة قبل التوجه إلى المدارس ، وأيام الجمعة . وصار هذا في أسرتنا تقليداً لم أحد عنه بعد ذلك . وما أكثر ما صرنا نفعله صحبة في هذه الأوقات حتى بعد أن تواترت المشاغل العامة من جديد ولم يتوفر لنا غيرها .

كانت لمى كبرى بناتي الثلاث قد أتمت السادسة وانتقلت من روضة الأطفال إلى الصف الابتدائي الأول . وكانت لينا قد أتمت الخامسة . وأما ليلى التي أتمت سنتها الأولى فكان حبوها قد بدأ يتحول إلى خطو وثغاؤها قد أخذ يتشكل في أولى الكلمات . ولما وجدت نفسي مطالباً بأن أمضي ستة شهور على الأقل في القاهرة قبل العودة إلى دمشق فقد قررت أن لا أحرم أسرتي

الهناء العائلي المتحقق لنا . وما أن صار قرار تعييني للعمل الجديد في يدي حتى انبثق القرار الشخصي : الأسرة معي إلى القاهرة .

وكعادتي كلما اندفعت إلى تنفيذ قرار شخصي ،لم أحسب حساب الأكلاف ، ولم أستقص ما إذا كان راتب الوظيفة في القاهرة كافياً . وقد تركت شقتي في دمشق ذات الإيجار القديم المنخفض في رعاية منير الحمارنة ، وتعهد صديقي دفع إيجارها ، فضمنت بهذا أن تظل لي عندما أعود . وفي القاهرة ، حللت فور وصولنا إليها في شقة أخوي . ثم بدأت البحث عن شقة في الحيّ الذي يقع فيه مقرّ م . ت . ف . وعن مدرسة للمى وروضة أطفال للينا وما إلى ذلك مما هو ضروري . وعندها ، فقط ، نبتت الحاجة إلى الحساب .

كان الراتب الذي أحصل عليه في القاهرة مما يمكن الرضى به لو حصل عليه مواطن مقيم . وقد جبت شوارع حي الدقي بصحبة دلاّلي البيوت وشوارع أحياء مجاورة بحثاً عن شقة مفروشة يلائم إيجارها دخلي . واستقصيت تكاليف المدارس التي يتوجب على الوافدين أن يوفّوها ، هم الذين لا يحق لهم التمتع بمجانية التعليم التي يتمتع المواطنون بها . تطلعت إلى مدارسَ وروضاتِ أطفال راقية ، ثم خفضت مستوى تطلعاتي وظللت أخفضه حتى كاد يبلغ القاع . وفي المحصلة ، حصلت على شقة إيجارها ستون جنيهاً في الشهر ومدرسة وروضة كلفتهما عشرون وصرفت النظر عن وضع ليلى في أي دار حضانة . ثمانون جنيهاً فيما كان صافي راتبي خمسة وثمانون وبضعة قروش .

غاض ، إذاً ، أمل التمتع بالإقامة أو قل إن هم تدبير المعيشة شاب أي متعة . ولجأت إلى الاستدانة ، إذ ما كان أعجل أصدقائي إلى مدّ يد العون وما كان أشدّ تزمتي حين تشبثت بأن أعد عونهم ديناً ! وتعلق أملي بوعد سابق

كنت قد تلقيته من مجلة «الصياد» اللبنانية . فبعد إقصائي عن الصحافة السورية ، حاول طلال سلمان كما حاول آخرون أن يجدوا لي منبراً أبثّ منه أفكاري وأحصل منه على ما يقيم الأود . وزكاني طلال لدى صاحب دار الصياد ولا بدّ من أنه أفرط في التنويه بكفاءتي وإطرائي . ولكن الشهور الثلاثة في دمشق انقضت دون أن أتمكن من الالتقاء بالرجل . وبعد شهر أو اثنين من وصولي القاهرة ، جاء إليها أركان دار الصياد ، سعيد فريحه صاحبها ، وابنه عصام الذي يصرّف العمل بالنيابة عن أبيه ومعهما طلال . وجئت إلى الرجل المسن في جناح إقامته في فندق هيلتون النيل ، فوجدته منصرفاً بكليته إلى التلفزيون . ولم يبادلني المولع بالتلفزيون إلا عبارات قليلة متقطعة دون أن يوليني انتباهه . بالرغم من هذا ، فهمت أن صاحب الدار يرحب بمساهمتي في عمل المجلة ، ولكنه أحالني إلى ابنه . وأخضعني الابن إلى تحقيق مدقق ، ونبش في أفكاري ، ثم سألني هذا السؤال : «ولماذا لا تكون مراسلنا في دمشق ؟» . ووجدتني غير قادر على الكذب ، فعرف عصام مشكلتي ، وبهت : «هَيْك !» . وتحوّل ترحيب اللبناني بي إلى رغبة سافرة في الخلاص مني : «مكتبنا في القاهرة فيه مراسلون كثيرون وأنت هنا غريب لاتنفعنا» . لكن «من أجل عيون طلال» ، كما قال عصام بنبرة ممّنة ، «لك أن تكتب مقالات من وقت لآخر ، مرة ، مرتين ، في الشهر» . ثم لم يفت عصام أن يشرح وهو يصرفني : «نحن ندفع مكافأة المقال الواحد اثني عشر جنيهاً ونصف جنيه» . ولو روجعت أعداد «الصياد» في تلك الفترة فسيقع المراجع على مقالات لي ، ذلك أني تحاملت على كبريائي بسبب حاجتي القاهرة وأرسلت بضعة مقالات . لكني سرعان ما توقفت لأني لم أحتمل قسوة شروط آل فريحة ومماطلتهم في الدفع معاً .

وقتها ، كان صديقي القديم هايل عبد الحميد الذي كثيراً ما حدثتك عنه

هو معتمد إقليم «فتح» في مصر، أي ممثل «فتح» في البلد والمسؤول عن تنظيمها والمشرف على نشاطاتها فيه، وكان لقب «أبو الهول» المشتق من اسمه والملائم لظرف مصر قد تلبسه فصار لا يُخاطَبُ إلا به. جدّدت صلتي بصديق أيام الطفولة ورفيق المشوار الأول على طريق العمل السري والكفاح الوطني. ولكن الذي انقضى لم يكن له أن يعود بتمامه. ولئن بقيت الصداقة وبقي الود والاحترام، فإن دروب المشاغل والآراء تمايزت. وكان هو قد غدا كثير الأشغال ولم يبق له وقت لشؤونه الخاصة، فصعب علي أن أشغله بشؤوني. بالرغم من هذا، وربما بسبب عمق المودة، استقصى أبو الهول أحوالي بالتفصيل وأدرك حاجتي إلى المال وعرض المساعدة. جاء العرض من صديق، وبدا طابعه شخصياً، لكن العارض كان مسؤولاً في «فتح»، فتحرجت، ثم لم أقبل. لم يدرك هايل سرّ إبائي، فساءه رفضي إذ رأى فيه دليلاً على أني لم أعدّه صديقاً حميماً. وشابت غمامة رفضي صفاء علاقتنا، وقلّت لقاءاتنا حتى لقد تصور بعضهم أننا متجافيان.

في هذا الجوّ، وصل عرفات إلى القاهرة. لعلك تعرف أن هذا الرجل هو من مواليد القاهرة، ولد فيها في العام ١٩٢٩ بعد عامين اثنين من وصول أسرته القادمة من خان يونس، هذه الواقعة بين مدينة غزّة وبلدة رفح، والروايات التي وصلت إليك وذكرت أنه ولد في القدس التي هي مدينة أمّه أو في أي مدينة أخرى هي روايات أنشأتها دوافع سياسية في المقام الأول. وفي القاهرة، نشأ عرفات ودرس دون أن تنقطع صلته بفلسطين. فقد عادت أسرته إلى خان يونس فأمضى فيها سنتين وهو تلميذ في الابتدائية. وجاء عرفات إلى فلسطين شاباً في العام ١٩٤٨ متطوعاً مع المجاهدين الذين قدموا من مصر ونشط في صفوف «الجهاد المقدس» المنظمة المسلحة التي قادها عبد القادر الحسيني. وفي القاهرة، أسهم عرفات في تأسيس أول رابطة لطلاب

فلسطين الجامعيين وتكرر انتخابه رئيساً لها سنة بعد سنة . وبعد تخرجه ، سافر عرفات إلى الكويت من أجل العمل ، ثم صار زعيماً لـ «فتح» ، ثم رئيساً للجنة م . ت . ف . التنفيذية ، وراح يشرق ويغرب في الدنيا الواسعة ، دون أن يبارحه الحنين إلى مهوى فؤاده : القاهرة .

وصل عرفات إلى الشقة الصغيرة التي يشغلها في شارع شامبليون في وسط البلد المكتظ بالسكان والحوانيت وعربات الباعة . وكانت هذه شقة وضعها الصحافي المصري فاروق القاضي في تصرف «فتح» منذ قرر أن يترك كل شيء وراءه ويلتحق بالثورة الفلسطينية ويتخذ لنفسه اسماً جديداً هو أحمد الأزهري . ومن هذه الشقة ، هتف لي سعيد حمامي الذي كان بصحبة عرفات ، فخففت إليها . وكان الفطور المجلوب من الحوانيت المجاورة جاهزاً فانضممت إلى المائدة . ومع الطعام ، عاودنا ، سعيد وأنا ، محاولتنا إقناع رئيس م . ت . ف . بضرورة زيارة مقرها ، هذا الذي صرت أنا من العاملين فيه . لم يكن عرفات يستلطف ممثل المنظمة في مصر جمال الصوراني ، فكان يتجنب زيارة المقر . أما نحن فرأينا أن الزيارة ضرورية . ولأمر ما ، ربما كان هو إلحاحنا الشديد ، أبدى عرفات شيئاً من اللين وقَبِلَ أن يزور المقرّ ، على أن تكون زيارة قصيرة ، خاطفة كما قال . وهتف سعيد إلى الصوراني وأخطره بالزيارة .

وتدفق عشرات الفلسطينيين إلى المقرّ ، وأحاطوا بعرفات ، واشتد تزاحمهم على الاستئثار به وهم يتنافسون في دعوته إلى الغداء . وجلجل في المقر الجرس الصاخب للأيمان المغلظة والحلفان بالطلاق والصياح بالحجج التي يسوقها كل واحد من الداعين للتأكيد على أسبقيته في حق الظفر بشرف استضافة الزعيم الكبير . وكانت جلبة ضاق عرفات بشدّتها ، هو الذي لم يكن راغباً في إيلاء أيما أحد هذا الحق . وفي تململه بضيقه ، وجه عرفات إلينا ، نحن الذين ورطناه ، نظرات لائمة . وشاء سعيد أن يُنقذ الموقف فأعلن

بصوته الذي يصعب أن يعلو عليه أي صوت : «أبو عمار أعطى كلمته لفيصل ووعد بأن يتناول الغداء مع أسرته» .

فاجأني هذا الإعلان مفاجأة غير مريحة في واقع الأمر . فقبل كل شيء ، كان يسوؤني أن أُحسب في عداد المتنافسين على استضافة أي زعيم . ثم إن جيبي كان خاوياً . ولم يكن في المنزل ما يليق تقديمه لأي ضيف . وفوق هذا ، لم أكن من الذين يحبّون أن يُحشروا حشراً دون رغبتهم أو إذنهم المسبق في أي مسألة . أما عرفات فصمت إزاء إعلان سعيد صمتاً أريباً ، وابتسم ابتسامة عكست امتنانه لتصرفه ، ولم يفطن بالطبع إلى ما كان يشغل بالي . وهكذا ، وُضعتْ على عاتقي مهمة لست مهيئاً لحملها . وفي تصرف يبدو أن حرجي هو الذي أسعفني في ابتكاره ، همست في أُذن سعيد بحزم : «حطّ في جيبي عشرة جنيهات ، وإلا فإني سأعلن أني لم أَدع أحداً إلى أي غداء !» . واضطر سعيد الذي لا يعد في المسرفين إلى التضحية . وأمكن بعدها أن أُوصي على الأطعمة اللازمة .

في منزلي ، تصرف عرفات كأنه في بيته ؛ نحّى العقال والكوفية ، وتخفف من الحذاء العسكري والملابس الثقيلة ، واتخذ قعدة مريحة على الصوفا وعابث البنات ، وتبسط في الحديث مع ربّة المنزل . وكم أدهش أبو عمار ابنتي لمى حين ذكرها ، هي التي لم تتذكر ، أنه تلقى منها قبل ثلاث سنوات صفعة على خدّه ! وكانت تلك حكاية كدت أنا نفسي أنساها لو لم يستحضرها هو : «كنت في منزلكم ، ذلك الذي في شارع نوري باشا في دمشق ، ولكنك بدل أن تحييني صفعتني لأن لحيتي طويلة وصرخت في وجهي لماذا لا تحلق ذقنك ، فهل تعجبك لحيتي الآن» .

وكعادته في استقصاء الأحوال الشخصية للمحيطين به ، استدرج عرفات أم بناتي إلى الحديث ، فعرف ما صرت تعرفه عن ضائقتنا المالية ، ولم يزد عن

أن قال وقتها : «هذي بسيطة» . ولأمر ما ، فطن الرجل في تلك اللحظة لضرورة إبلاغ أمر وجوده عندنا ورقم الهاتف إلى مكتب «فتح» . وكان هذا الإجراء الضروري قد غاب عن بالي . فعجّلتُ بالاتصال . وجاءني على الهاتف صوت هايل . ولم أنتبه في عجلتي إلى أن من الواجب دعوته هو الآخر إلى الغداء . وكانت هذه ، بمقاييس العلاقة بين الأصدقاء ، كبيرة ارتكبتها بحق صديقي ، وقد مضى وقت طويل قبل أن يغفرها .

وفي اليوم التالي ، جاءني مراسل من مكتب «فتح» وسلمني مغلفاً أرسله لي أبو الهول . وفتحت المغلف ، فوقعت على مئتي جنيه ، ورقتين كبيرتين . وما أسرع ما حزرت أنا الذي يعرف ما يعرف ، وما أشدّ ما تحرجت ! قرر عرفات معونة شهرية لي تدفعها «فتح» وكلف معتمدها بأن يرسلها إليّ ليتجنب هو حرج مواجهتي بها . وما دام أبو الهول قد صار عارفاً بحساسيتي ، ولما كان إلى هذا مستاءً منّي ، فقد تجنب أن يُسلمني المبلغ بنفسه . ولما كان في قبول المبلغ حرجاً لي وفي إعادته إساءة لهايل ، فقد اهتديت إلى حل وسط . فكتبت إقراراً بأني استلمت المبلغ من «فتح» بمثابة دين أتعهد سداده . وسلمت الإقرار للمراسل في مغلف هو الآخر مغلق . وبعد أيام ، أعدت الورقتين في مغلف مغلق آخر . ثم لم يفاتحني أبو الهول أو غيره بشيء حول هذا الموضوع ، ولم يتكرر العرض . ولكن عرفات دأب على التنويه بتعففي كلما جاء على ذكري . أما أبو الهول فإن استياءه تلاشى بمضي الأيام إذ تغلبت دواعي الصداقة على اختلاف الأطباع .

لا تظن أن إقامتي هذه في القاهرة كانت نكداً كلها . فقد بقيت قادراً بعد أي حساب على تدبر أمر طعام الأسرة . وألفت الصغيرات تبدّل ظرفنا ، ولم يكن متطلّبات . وسعدنا جميعنا بالوقت المديد الذي نقضيه صحبة كما سعدنا بما لقينه من حفاوة أصدقائي وكرمهم واهتمامهم بتعريف أسرتي على

ما هو مفيد وممتع . وأمكن أن أعيش في القاهرة حياة حافلة . ولئن اختلفت الظروف بعض الشيء ، فقد ظل الحال في جوهره كما كان عليه في دمشق ، انهماك في الشأن العام وعلاقات واكتساب خبرات جديدة .

كان هناك أخواي وعنايتهما بالصغيرات . وكانت هدايا أمّي التي تضاعفت حجومها وزاد تواترها منذ انضمامنا إلى مستهلكيها وتعددت أطايبها . وتأكد لبناتي بالملموس أن لهن في الوطن المحتلّ جدّة طيبة ، وتأجج توقهن إلى التعرف عليها . وإذا لم توفر المدرسة المتواضعة لابنتيّ التلميذتين ما يعتدّ به من معرفة أو مباهج ، فإن عنايتي الشخصية واختلاطنا بنخبة مثقفي القاهرة والوافدين إليها وفّرا للتين بلغتا السادسة والسابعة ما يفي بالحاجة ويفيض وأججا لدى الصغيرتين الولع المبكر بالمعرفة والاهتمام بالشؤون العامة . وقد تكفلت السيدة بدر زوجة صديقي رسام الكاريكاتير بهجت عثمان تزويد الصغيرات بأجمل ما حصلن عليه في حياتهن من دُمى . وكانت بدر ، ثم ظلت ، أبرع من عرفت من فناني الدمى المصريين وأقدرهم على استشفاف الحس الشعبي الأصيل العريق . وبهجت ، هذا الذي هو نفسه طفل في إهاب رجل ، هذا المدمن على حبّ الأطفال ، فعل الكثير . وكان مصطفى الحسيني وكثيرون غيره يحاورون لمى ولينا كما يحاورون البالغين فينمون إحساسهما بالنديّة ويدربونهما على الجدل . وما أكثر الذين يمكن أن أعدد أسماءهم في هذا المجال !

وظل طلال كثير التردد على القاهرة . ولم يفته في أي مرة أن يخصّ بناتي بشيء يبهجهن . ومع طلال ، صار نايف خير الدين يجيء فتجيء معه مباهج تجعل زيارة الصديقين عيداً . لم تفلح جهودنا في التخفيف من محنة الشاب السجين ، أخي نايف . فقد كانت اليد شديدة على مهربي الحشيش ، خصوصاً صغارهم ، خصوصاً حين يكونون من الغرباء . ولم يملك نايف المال

الكافي لتليين شدّه اليد هذه . بالرغم من هذا ، ظل المهموم بهمّ أخيه وأسرته المتروكة في رياق يتردد على القاهرة ويحاول . وقسم نايف وقت فراغه من النشاط العام الذي يتولاه في لبنان بين رياق والقاهرة . وبمضيّ الزمن ، ألف نايف احتمال المحنة واستعاد مزاجه العفيّ دون أن يفقد الأمل في العثور على وسيلة تخفف عن أخيه .

وفي مقرّ المنظمة ، في مجال العمل الذي عُينت له ، لم أفلح في أن أجعل الأمر فسحة ، مجرد فسحة . لم يوكل أيما أحد إليّ أي مهمة بعينها . ولم يكفّ عرفات عن تحذيري من إتيان ما يذكر «الذين أعرفهم» بوجودي . وخالد الحسن «أبو سعيد» كان يثق بي ويقدر كفاءتي وقدرتي على المبادرة ، بل يبالغ في التقدير . وقد اكتفى صديقي الذي صرت أنا مرؤوساً له بأن وضع توقيعه وختم الدائرة على أوراق بيضاء تركها لي وأجاز لي أن أستخدمها إن احتجت إليها في أي عمل أبادر إليه . ووقع أبو سعيد أيضاً أوراق مهمات تبيح لي أن أسافر وأصرف نفقات السفر من الصندوق القومي إن احتجت إلى ذلك .

وهكذا ، اقتصر ما أؤديه من عمل رسمي على مشاركتي في عدد من اجتماعات جامعة الدول العربية واجتماعات أخرى من هذا النوع . وتوفر لي وقت طويل أقضيه كما أشاء . ولكني ، أنا المعتاد منذ صغري على العمل الكثير في كل يوم ، صرت أبحث عن مهام أنشغل بها . ولأني معتاد على بدء عمل يومي مبكراً ، فقد صرت أجيء إلى مقرّ المنظمة فور توجه ابنتيّ إلى المدرسة القريبة في وقت لا يسبقني أحد من العاملين فيه إلا الموكلون بالتنظيف وعاملة المقسم وجمال الصوراني الذي بدا لي أنه يصحو من النوم قبل أن يصحو أي ديك . وكنت أقضي في المقر ساعة أو اثنتين ، أستمع إلى حكايات جمال الصوراني ، هذه التي تبدأ دائماً بغزّة وتدور حولها ولا تنتهي

إلا بها ، أياً ما كان عليه الموضوع الذي نتطرق إليه . وكنت أتصفح من جرائد اليوم ما لم أتصفحه في منزلي . وفي غضون ذلك تنبت الأفكار حول مهام جديدة . ثم أنشغل خارج المكتب ، حيث يمتزج الشخصي والعام كما هو شأني في أي ظرف . ولك أن تقول إني تعرفت في هذه الفترة على أبرز نجوم الصحافة والأدب والفنون والفكر السياسي المصريين ، ممن لم أتعرف عليهم قبلها ، ووثقت علاقتي بكثيرين منهم . ولم يقتصر الأمر على المصريين وحدهم ، بل شمل ناس البلاد العربية المقيمين في القاهرة والذين يزورونها . وما كان أكثر هؤلاء ! أليست مصر كما يسميها ناسها هي أم الدنيا ، وما هي الدنيا إن لم تكن هذا الجوّ المترع بالأصحاب والعلاقات !

ومع هذا التوسع في العلاقات ، ومع المطالعة التي وجدت لها وقتاً أوفر ، والأسرة التي أمتعني الانشغال بشؤونها ، زادت معرفتي بشؤون مصر والعالم العربي كله ، والعالم الإسلامي ، وشؤون العالم الثالث والعلاقات الدولية . كانت المنتديات الخاصة التي تضمني مع الأصحاب ، مثلها مثل الندوات والمؤتمرات العامة ، مصادر أتزود منها بأتمّ المعارف وأكثرها طزاجة وأحسّن بها قدرتي على التحليل والجدل وأتسلح بما يشحذ ملكة التعبير ويجوّدها . وكان رئيسي خالد الحسن ، مثله مثل أي قائد فلسطيني أو متصل بالفلسطينيين يلم بالقاهرة ، حريصاً على الاستماع إليّ شديد الثقة بما أزوّده به من معلومات أو آراء . وكنت أعتزّ في داخلي بدوري هذا وأتصور أني أؤثّر في الشأن السياسي ، ولم يكن تصوري بغير أساس ، حتى حين كان الزهو يدفعني إلى الإفراط في تزيين دوري .

وإلى هذا ، بل قبله ، تابعتُ بالطبع تطورات الساحة الفلسطينية ، تابعتها بإمعان شديد في واقع الأمر . وكان أميز ما ميّز هذه الساحة في ذلك الوقت هو التردي المضطرد في العلاقات الفلسطينية ـ الأردنية . فمأساة جرش تموز/

يوليو ١٩٧١ ظلت تفعل فعلها وفاجعة استشهاد أبي علي إياد حولت الشهيد إلى رمز للانتقام وأنعشت أجواء المزايدة . لكن الجوّ المأساوي لم يلغ الحاجة إلى التهدئة مع الأردن وطيّ ملفّ الاقتتال . ومع بروز مشاكل كثيرة في لبنان ، تعززت هذه الحاجة . وفي النهاية ، أفلحت وساطة سعودية مثابرة ومعها وساطة مصرية في جمع وفدين ، فلسطيني وأردني ، في مفاوضات دارت في جدّة بإشراف السعوديين .

كان رئيس الوزراء القوي وصفي التل هو رئيس وفد الأردن ، فيما كان خالد الحسن رئيساً للوفد الفلسطيني . وقد انعقدت جولة المفاوضات الأولى بينما كنت أتهيأ للانتقال من دمشق إلى القاهرة ، ثم توالت الجولات بعد ذلك وأنا في القاهرة وأطلعني أبو سعيد أولاً بأول على ما دار فيها ، والواقع أن المفاوضات جرت على مستويين ؛ مستوى يشترك فيه أعضاء الوفدين كلهم ، وهو المستوى الذي بدت الخلافات فيه عصية على الحلّ ؛ ومستوى يقتصر على رئيسي الوفدين ومعهما الأمير السعودي وزير الدفاع سلطان بن عبد العزيز ووزير الخارجية السعودي عمر السقاف . وهذا هو المستوى الذي بقيت فيه طريق التفاهم مفتوحة وتبلور مشروع اتفاق شديد السرية ثم تواعد معدو المشروع على الالتقاء في القاهرة حيث سينعقد مجلس الدفاع العربي ويمكن وضع اللمسات الأخيرة على مشروعهم .

وصل خالد الحسن إلى القاهرة مبكراً . وجاء الأمير سلطان في موعد الاجتماع . وتلقى وصفي التل تحذيرات سرية وأخرى علنية تنذره بأن الفلسطينيين الناقمين سوف يغتالونه وتنصحه بعدم السفر إلى القاهرة ، لكنه جاء ، فقد كان يعرف ما لا يعرفه محذوره ويحرص على إتمام ما بدأ به . وشغل وصفي التل جناحاً في فندق شيراتون النيل ليقيم بقرب الأمير السعودي . وقتها ، لم يتسن لي الاختلاء بخالد الحسن في زحمة انشغاله ،

وهكذا ، تابعت ما يجري كما يتابعه الصحافيون ، غير أن ما أعرفه عن المفاوضات ميّزني عن كثيرين وإن جعل فضولي لمعرفة الخاتمة أشدّ من فضولهم . وشاء صحافيون كثيرون أن يجروا مقابلات مع رئيس حكومة الأردن . إلا أن المنهمك في مشروع سرّي حساس ردّ الطلبات المنهالة عليه ، ولم يقبل سوى طلب «الأهرام» ، ورئيس تحريرها هو الصحافي النافذ محمد حسنين هيكل . وهكذا ، ظفر صديقنا إحسان بكر بموعد مع وصفي التل . كنّا في الثامن والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر . وكان الموعد في الرابعة بعد الظهر .

يومها ، صحبني مصطفى نبيل إلى الغداء والثرثرة في منزله ، في حيّ الدقي ، القريب من الشيراتون . وكان مصطفى ينفس على إحسان ظفره بالموعد الفريد الذي يتوق هو نفسه إلى مثله . ولم يطب لمصطفى البقاء في المنزل فاقترح أن نذهب إلى الفندق : «تعال نشوف إحسان قادر يعمل إيه» . ولأن محرك سيارة مصطفى العتيقة استعصى على الاستجابة له ، فقد استوقفنا تاكسياً : «إلى الشيراتون ، يا ريّس !» ، وجاء الرد : «شيراتون إيه يا عمّ ! اليهود قتلوا الرجل قدّام الشيراتون ، أنا لسّ معدي من هناك والدنيا قايمة قاعدة !» . بلغنا الفندق فيما رجال الشرطة يستكملون الطوق الذي ضربوه حول المكان . واخترقنا فرجة في الطوق .

كان جثمان وصفي التل ما يزال على الأرض إزاء الباب الخارجي . وكان كل شيء أمام الفندق وفي بهوه قد اختلط بكل شيء . ووجدنا نفسينا ، مصطفى وأنا ، تائهين وسط حشد مضطرب .

وفيما أنا أخوّض في الزحام الذي فصلني عن مصطفى ، فاجأتني صرخة من إحسان بكر : «أنت الآخر هنا !» . فلما اخترقت الاكتظاظ ودنوت من صاحبي ، هتف إحسان بنبرة المروّع : «تعال شوف صاحبك خالد

الحسن ، جالس في الكافتيريا ، ماذا لو تعرف الحراس الأردنيون عليه !» . وبهذا ، لفت إحسان نظري إلى ما ينبغي عمله للتو : إبعاد القائد الفلسطيني عن موقع الخطر . ولم يكن أمامنا مكان أقرب من منزل إحسان . فأخرجنا صاحبنا ، الثائر على ما جرى ، من الباب الخلفيّ ، واجتزنا به الشارع جارين جرياً ودافعينه دفعاً ، وأقنعناه بأن يمكث في المنزل إلى أن تنجلي الأمور .

وفيما انشغل إحسان باتصالات هاتفية متتالية ، استمعت أنا إلى ما باح لي به خالد الحسن في ذلك الظرف وهو يكاد يتميز من الحنق . وعرفت الحكاية الكاملة لمفاوضات المستوى الثاني . وعلمت أن الاتفاق الذي توخى هذا المستوى إبرامه قد تم بين وصفي التل وخالد الحسن في جناح الأمير سلطان ، في الساعة الواحدة من فجر اليوم الذي كنّا فيه ، يوم اغتيال وصفي . وانكشف لي سر أقدّر أن الذين عرفوه من الفلسطينيين وقتها لا يزيد عددهم عن عدد أصابع اليد الواحدة . وكان هذا سراً خطيراً حملت ثقله . وبإمكانك أن تعرف أني لم أكتب شيئاً عن حادث اغتيال التلّ ، فلم أجار الذين فرحوا ولم أُوخذ بمواقف الذين أظهروا الاستياء . ولك أن تعرف أيضاً أن بعض ما قيل عن مصرع رجل الأردن القوي انطوى على نفاق أو مكابرة ، فيما انطوى معظم ما قيل على جهل كامل بملابسات الحادث .

تصور العابرون الذين شهدوا الحادث أن الإسرائيليين هم الذين اغتالوا الرجل ، ألم يكن التلّ عضواً في مجلس الدفاع العربي المنعقد كما يتوهم الرأي العام لإعداد الخطط العسكرية المشتركة في مواجهة إسرائيل ! وبهذا التصور ، لاحق ضابط شرطة مصري مقدام مطلقي النار إلى أن قبض على واحد منهم . وفعل آخرون ما فعله الضابط فوقع مطلقو النار في القبضة . وعندما عرف ضابط الشرطة أن من حرمه هو من النجاة كان فدائياً فلسطينياً ، أعلن ندمه ، وصرح بهذا للصحافة ، فعكس المزاج المصري العام المتعاطف مع

الفلسطينيين والضاغط على السلطات الرسمية كي لا يتعرض مغتالو التلّ إلى العقوبات .

الفلسطينيون أظهروا ابتهاجاً عاماً ، إنه المظلوم حين ينتقم له أحد من ظالمه . وفي مخيمات اللاجئين ، تبادل الناس التهاني وقدّم بعضهم المشروبات والحلوى كما يحصل في الأعياد . وفي أوساط المقاومة ، أظهر المتشددون فرحهم ودعوا إلى مزيد من الانتقام ، وجارى المعتدلون الجوّ السائد . وفي هذا الجوّ ، أعلن ياسر عرفات أن اليد الفلسطينية نفّذت حكم الشعب الفلسطيني بإعدام وصفي التل .

الاستثناء الوحيد من الموقف الفلسطيني العام تجلى في رد الفعل المعلن من قيادة الصاعقة ومن يجارون قادتها في مجاراة الموقف السوري ويفرطون كثيراً في مجاراتهم له . فالعهد الجديد في سورية كان ، في سياق دعوته إلى التضامن العربي ، قد أفلح في تطبيع العلاقات مع الأردن . وقد عزى المسؤولون السوريون نظراءهم الأردنيين بوفاة التل واستنكروا اغتياله . وهذا هو ما فعله الأمين العام للصاعقة عضو قيادة حزب البعث القومية زهير محسن الذي كان رئيساً للدائرة العسكرية في م . ت . ف . وهو الذي أبّن وصفي التل في جلسة التأبين التي عقدها مجلس الدفاع العربي فور اغتياله . وقد أفرط زهير في تعداده لمناقب الراحل والتفجع عليه . وهو ما فعله ، أيضاً ، العميد مصباح بديري الذي أفرط هو الآخر في التفجع .

وقد أحرجني سلوك قائد جيش التحرير ، صديقي ، هذا ، حرجاً كبيراً . ذلك أني كنت قد ساهمت بدور كبير في إقناع عرفات بتعيين مصباح للمنصب الذي يشغله . وكان مصباح قد تعهّد أمامي لياسر عرفات بأن ينصرف إلى تطوير جيش التحرير ولا يسبب أي مشكلة للقيادة السياسية . لكن صاحبي لم يفِ بتعهده ، بل قلب ظهر المجن لقيادة المنظمة وجعل أول

همومه معارضة عرفات . وفي ردّ فعله على اغتيال التلّ ، ذهب مصباح بعيداً ، فصدم المزاج العام بغير رفق وخصص معظم وقته للتشنيع على عرفات و«فتح» . ووقتها ، ذكّرني عرفات بتزكيتي مصباح ؛ لم يقرعني أبو عمار ، لكنه قال ما هو عندي أوجع من التقريع : «في التحليل السياسي أنت معلّم . أما في فهم الرجال فيلزمك الكثير» .

في الأردن ، أبّن الملك حسين وصفي التل ونوّه بمزاياه وخدماته للمملكة ، وجارى المسؤولون الأردنيون ملكهم . وأصارحك بأني ، أنا الذي أطلعه خالد الحسن على السر ، حرصت على تقصي ردود الفعل بإمعان ، وقد افتقدت في التأبين الأردني تلك الحرقة التي يفترض أن تسمه لغياب من له وزن الراحل . ولعلي ما كنت لأنتبه إلى شيء ، لو لم أطلع على ذلك السر .

وأياً ما كان عليه الأمر ، فإن اغتيال التل على أيدي شباب من «فتح» أوقف المفاوضات وأجج النزاع المشتعل بين الأردن و م . ت . ف . وأطلق جولة جديدة من جولات داحس والغبراء التي طال أمدها .

وفي سياق المعارك الكلامية وغير الكلامية بين الجانبين ، أعلن الملك حسين مشروعه الشهير ، مشروع المملكة العربية المتحدة ، ورأى الفلسطينيون في المشروع دعوة إلى إعادة السيطرة الأردنية على الضفة الغربية ومواجهة التوق الفلسطيني إلى الاستقلال . وتصورت القيادة الفلسطينية أن الأردن تفاهم سراً مع إسرائيل حول هذا المشروع . فاتقدت الهواجس القديمة وانضاف إليها ما استجد . وتداعى الفلسطينيون إلى إحباط المشروع . ولا أظن أن رد الفعل الفلسطيني على أي مشروع أردني قد بلغ الدرجة من الحدّة التي تجلت في رد الفعل ضدّ مشروع المملكة العربية المتحدة . وما انفجر كان ، كما شهدته ، هو مخزون الضيق المتراكم طيلة عقود ، وليس الضيق بالمشروع الأخير وحده . وقد جاء الانفجار شديداً وشاملاً . حتى خالد الحسن المتعقل في

العادة والراغب في إقامة صلة طبيعية مع الأردن والذي مضى بعيداً في مفاوضاته مع وصفي التل لتحقيق هذا الغرض ، حتى أبو سعيد أخرجه المشروع الأردني عن أطواره كلها . اليسار واليمين ، المتشددون والمعتدلون ، الذين أرادوا طيّ النزاع مع الأردن والذين أرادوا غير ذلك ، الفلسطينيون جميعهم ثاروا ، وكانت ثورتهم عارمة .

وفي سياق ردود الفعل ، دعي المجلس الوطني الفلسطيني إلى عقد دورة جديدة . وانعقد على هامش الدورة مؤتمر شعبي ضم أعضاء المجلس ومثل عددهم من الشخصيات الفلسطينية المختارة فبلغ العدد ما ناف على خمسمائة عضو . وتسنى لي قبل ختام فترة إقامتي في القاهرة أن أشهد هذه التظاهرة الكبيرة . جاء الأعضاء كالعادة من كل مكان في القارات الخمس فيه فلسطينيون ، وكان بينهم أصحاب كثيرون لي . وفيما شهدت اجتماعات المجلس الوطني المناقشات المعتادة ، الهادئ منها وغير الهادئ ، الخطير وغير الخطير ، فقد انتصب في المؤتمر الشعبي منبر للكلام المرسل ، دون مناقشات .

أحمد الشقيري ، كان قد استعاد ثوب المحاماة القديم خصيصاً كي يدافع عن المتهمين باغتيال التل أمام القضاء المصري . وقد قدم الرجل مرافعة سياسية طويلة ضد النظام الأردني ووضع اليد على ذريعة قانونية تجيز الإفراج عن مغتالي التل بكفالة ، واستعاد بعض حضوره العملي في ساحة اهتمامات الفلسطينيين . وكان الشقيري منذ استقالته من رئاسة المنظمة قد امتنع عن المشاركة في اجتماعات المجلس الوطني بالرغم من أنه عضو دائم العضوية فيه .

وقبل الدعوة إلى المؤتمر الشعبي ، كنت مع مصطفى نبيل وطلال سلمان في منزل الشقيري ، وأجرى طلال مقابلة صحافية لمجلة «الصياد» ، وانصبّ حديث الزعيم الفلسطيني كله على انتقاد سياسة المقاومة الفلسطينية

وقادتها . وبعد ذلك ، توجه وفد من قادة المقاومة إلى منزل الشقيري ، وكان أبو إياد على رأس الوفد ، وحمل إليه دعوة لحضور المؤتمر الشعبي ، فقبل الرجل الدعوة ولم يضع سوى شرط واحد : أن يُخلي بينه وبين المنبر ولا يُقيد حديثه بوقت محدد .

وفيما المؤتمر منعقد ، وبعد أن تحدث الشقيري فيه على مدى ساعتين متصلتين ، اطّلع قادة المقاومة على النقد القاسي الذي وجهه الشقيري إليهم ، اطلعوا على النقد بعد أن راق الجو بينهم وبين منتقدهم ففاجأتهم حملته عليهم . وعاتب أبو إياد الرئيس السابق للمنظمة . وتحرج الشقيري في ذلك الجوّ فاجتهد أن يتنصل من مسؤولية الكلام الذي نشرته «الصياد» وأنكر معرفته بالأمر : «أنا لا أعرف هذا الطلال السلمان» . ولكن جمال الصوراني تدخل وقال لرئيسه السابق بحضور أبي إياد : «لكنها ، يا أبا مازن ، لغتك وألفاظك» . فازداد حرج الشقيري وأمعن في التنصل : «يزورني فيصل حوراني وهو صديق لطلال هذا ، ولعله . . .» . وجاءني أبو إياد معاتباً إياي أنا هذه المرة . ولم أفوّتها أو أبيّتها ، بل صحبت معاتبي إلى الشقيري واقتبست بلاغة الرجل البليغ : «يتقولون عليك أنك تتهمني بنقل الكلام» ، وتلقيت إجابته بل قل إن أبا إياد تلقاها : «معاذ اللّه ، أنت خير الناس» . ثم حسم الأمر عندما اكتشفنا أن مصطفى نبيل التقط صورة للقائنا الشقيري في منزله وفيها الشقيري وهو يتحدث وطلال مقابله وهو يكتب الحديث . ونشر طلال الصورة في «الصياد» وتحتها هذا التعليق : «الشقيري : أنا لا أعرف هذا الطلال السلمان» .

في هذه الأثناء ، كانت «فتح» قد أشهرت ما عرف باسم «منظمة أيلول الأسود» . وكان هذا اسماً نسبت «فتح» إليه عدداً من العمليات الخارجية الانتقامية التي أقدمت عليها في دنيا العرب أو خارجها . وصارت منظمة أيلول الأسود عنواناً للانتقام ودخلت به «فتح» على طريق العمليات الخارجيّة

المسلحة التي لم أتردد أنا في وصف معظمها بأنه إرهاب . وانتعش المنطق ، إيّاه ، انتعاشاً كبيراً : «العالم يتجاهلنا فمن حقّنا أن نضرب في أي مكان لنجتذب الإنتباه» . وفي الجولة الجديدة من داحس والغبراء الفلسطينية ــ الأردنية ، أُدخلت «أيلول الأسود» على الخط الساخن .

ولئن اجتذب الإرهاب الانتباه حقاً فإن السخط على الفلسطينيين كان هو حشو هذا الانتباه . وبدا الأمر لي في هذا النحو : شاءت الضحيّة أن تعكس إحساسها بالظلم فوقعت في ما يسوّغه ، واستثمر الأعداء أخطاء الضحيّة فأمعنوا في ظلمهم ! ومع اعتراضي على ما اعترضت عليه وشدّة انتقادي له ، لم تتزعزع قناعتي بأن مطالب الشعب الفلسطيني انطوت على مقدار هائل الحجم من العدالة ، ولا يجوز أن تُنتقص عدالتها بسبب أي سلوك يتبعه أيما أحد . وإلى هذه القناعة ، استند قرار ألزمت نفسي به ولم أتزحزح عنه . فأنا ابن الخندق الفلسطيني ، خندق المظلومين ، وسأظل فيه إن كان ضعيفاً أو قوياً ، إن أخطأ ناسه أو أصابوا ، إن أحسنوا السلوك أو أساءوا ، إن تشددوا وإن لانوا . وبركوني إلى قناعتي وقراري ، توفرت لي راحة الضمير ، فأنا لا أقصّر في انتقاد ما أراه سلبياً ، غير أن سلبيات خندقي لا تعميني عن رؤية إيجابياته . ولقد كانت هذه ، مثلها مثل السلبيات ، كثيرة .

ولكي أسلح نفسي بالعزيمة اللازمة للتشدد ضد السلبيات ، وجدتني مضطراً إلى الإفراط في الانحياز إلى الإيجابيات . وربما أوقعني هذا في أي مبالغة في تقدير الحجوم ، لكنه هو الذي عزز إحساسي بالانتماء إلى خندق المظلومين وإلى الوطن المغدور . وإذا كان السكوت على أخطاء المظلومين فيه ضرر كبير لهم ، فإن في التعالي عليهم بادعاء الطهرية أو بدعواها ضرراً أكبر . وقد يكون أيما إنسان طاهراً حقاً ، ولكن طهريته وحدها لا تنفع خندقه إن لم ينهمك فيما هو منهمك فيه أياً ما كانت عليه طبيعة هذا الخندق .

مرة أخرى ، وفى ياسر عرفات بوعده لي . فما أن انقضت على إقامتي في القاهرة ستة شهور حتى أمضى إجراءات عودتي إلى دمشق . واحتاج الأمر إلى بضعة أسابيع لتهيئة نفسي وأسرتي . ومع أول الصيف ، في العام ١٩٧٢ ، عدت إلى المدينة التي نشأت فيها ، وتسلمت عملاً حقيقياً في الدائرة السياسية ، وغرقت من جديد في الأجواء التي تستغرقني .

كنّا في الدائرة في دمشق اثنين ، عبد الرزاق اليحيى مديرها العام وأنا . وكان الشاعر الذائع الصيت عبد الكريم الكرمي «أبو سلمى» مسجلاً بين العاملين في الدائرة إلا أنه كان يتولى عملاً مستقلاً يعفيه من أي مسؤوليات فيها . فقد كان أبو سلمى رئيساً للجنة الفلسطينية للتضامن مع شعوب آسيا وإفريقيا واللجنة الفلسطينية للسلام . وكان الشاعر بحكم عمله هذا وتوقه المزمن إلى الترحال كثير الأسفار ، لا يعود من رحلة إلا لكي يتهيأ لرحلة تالية . ولم يكن للدائرة عندما عدت أنا إلى دمشق مقرّ مستقل . وقد خصص مكتب م . ت . ف . في دمشق حجرتين للدائرة . وكان عبد الرزاق يشغل واحدة منهما وأبو سلمى يشغل الثانية . أما أنا فصار لي ، أو علي ، إن شئتَ ، أن أتنقل بين الحجرتين ، حسب الأحوال .

رافق أبو سلمى مسيرة الحركة الوطنية الفلسطينية في دوريها الكبيرين ، قبل الهجرة من فلسطين وبعدها ، وصار من أعلامها . وعندما تأسست م . ت . ف . في العام ١٩٦٤ ، كان أبو سلمى لاجئاً في دمشق التي سبق أن أقام فيها للدراسة وهو فتى قبل نكبة الفلسطينيين . وشهد أبو سلمى تأسيس المنظمة بوصفه واحداً من المؤسسين وبقي فيها بقيّة حياته كلها . واحتفظ أبو سلمى في دمشق ببعض سمته اليسارية التي اقترنت باسمه منذ كان وهو في فلسطين معدوداً صديقاً للشيوعيين ، دون أن يبتّ صلاته بالآخرين . وكان الرجل متشدداً في موقفه السياسي الوطني . فقد تشبّث حتى النهاية بالإيمان

الذي نشأ عليه : فلسطين التي من النهر إلى البحر عربية ، كانت وينبغي أن تظل ، فكان ، بخلافي ، من الرافضين ، ولكنه كان مثلي ضيّق الصدر إزاء السلبيات ، سلبيات الرافضين وغيرهم ، يأخذ على الرافضين ما يعدّه غباء وضيق أفق وتخلف فكر واستهانة بالعمل السياسي ، ويأخذ على غيرهم هذا وغيره . وقد كافح أبو سلمى ضد السلبيات ما وسعه جهده وامتدّ كفاحه سنوات وعقود ، ثم انتهى مع تقدمه في العمر إلى ما ينتهي إليه من يطول تجذيفهم ضد التيّار وتحول إلى السخرية . والواقع أن المكافح العتيق شكل مدرسة تكاد تكون نسيج وحدها ، فسيحة الأبهاء متعددة الاهتمامات . وما أكثر ما تعلمته في هذه المدرسة .

وفي السن الذي عملت فيه إلى جانبه وقد تجاوز الستين ، انطوت شخصية الكرمي على هذا التباين الذي يصعب وصفه بالكلام . إنه التباين الذي يصعب أن تصير الشخصية موحّدة بدونه . فقد كان الرجل قادراً على فهم دوافع الناس ، إن سمت وإن انحطّت ، واستخلاص ما يبقيه بينهم في الحالتين ، لا يبهره السموّ الظاهر أو يدفعه إلى مجاراة مدّعيه ، ولا يحمله الانحطاط على اعتزال الوالغين فيه . ودون أن يكفّ عن الانتقاد ، كان أبو سلمى يقدم نصيحته لطالبها بحمية وسماحة نفس فيما هو يتميز غيظاً لأنه يعرف أن طالب هذه النصيحة لن يهتدي بها . وكان الرجل يبدو واسع الصدر وهو يتحدث إلى زواره ، فما أن يغادروه حتى ينفجر ضيقة بهم وبسلوكهم ومواقفهم ، هم أنفسهم ، وضيقة باضطراره إلى التعامل معهم .

وقد التقطت أنا هذا التباين ، فشجعت الرجل الكبير على البوح بمخزونه . فصار جلّ حديثنا تبادلاً للآراء والمعلومات ، ليس حول مزايا الآخرين ، بل حول سقطاتهم . وقد كنت أنا معدوداً بين الذين يتقنون الاستغابة ذات المستوى الراقي ولي في هذا رأي طالما سمعه أصحابي مني وهو أن الاستغابة

وظيفة ممتعة من وظائف الجسد لا غنى عنها . ولكنني أقر بأن صاحبي الكرمي قد بزّني . وكان في الساحة الفلسطينية وفي كل ما حولنا كثير مما يوفر لنا هذه المتعة ويشحذ لساننا . ولم تكن مزاحاً كلها دعوتنا ، أبي سلمى وأنا ، إلى تأسيس جمعية لضيقي الصدر . بل إننا كدنا نشهر ، حقاً ، مثل هذه الجمعية وندعو أصحابنا إلى الانتساب إليها .

وبين الذين توثقت معرفتي بهم في تلك الفترة أُدباء فلسطينيون كثيرون . وصار من ألصق هؤلاء بي اثنان عرفتهما قبل ذلك ، وكان هذان يتوادّان ويتخاصمان دون انقطاع ، لكن دون أن تهن الصلة بينهما . فصرت أنا الثالث الذي يحقق التوازن ولم يعد بإمكان أي منا أن يستغني عن الآخرين . أتحدث عن القاص رشاد أبو شاور الذي له مثل سنّي تقريباً ، وعن الشاعر أحمد دحبور الذي يصغرني بما لا يقلّ عن سبع سنوات .

ينحدر رشاد من أسرة فلاحية هُجّرت من قريتها ذكرين في قضاء الخليل في العام ١٩٤٨ وألجئت إلى الإقامة في مخيم للاجئين قرب أريحا . وقد اجتذب الشيوعيون الناشطون في المنطقة أبا رشاد إلى صفوفهم ؛ جذبه إليهم دفاعهم عن الفقراء ومعارضتهم لحكم الملك عبدالله دون أن يتعمق الرجل نصف الأمي عقيدتهم . وعندما لوحق الشيوعيون في العام ١٩٥٧ ، التجأ أبو رشاد مع غيره من ناس الحركة الوطنية الأردنية إلى دمشق ، وهناك تعرف على أهلي وصار صديقاً لجدّي وخالي نافذ . وقد لحق رشاد بأبيه في دمشق وهو فتى يتطلع إلى أن يصير شيئاً مذكوراً . وفي مرحلة تأسيس المنظمات الفدائية ، وجد رشاد نفسه في جبهة التحرير الفلسطينية ، جبهة أحمد جبريل ، وأغلب ظنّي أن الصدفة وحدها هي التي هدت رشاد إلى هذه الجبهة بالذات . أما هو الذي كثيراً ما ووجه باللوم لوجوده في جبهة صغيرة مضطربة الأحوال فقد فسر الأمر على نحو مختلف . وهو الذي قال لي أنه اختار

الفصيل الصغير لأن فرصة البروز فيه متوفرة بسهولة .

أحمد دحبور ابن أسرة من حيفا هجّرت في عام النكبة إلى سورية . وفي حيفا كان أبو أحمد واحداً من شطار مينائها الذين أفلح الشيخ عز الدين القسام في هدايتهم إلى درب الجهاد . وقد تزوج أبو أحمد صبية كانت قد افترقت عن أهلها ثم جاءت إلى حيفا لتبحث عنهم فلم تقع عليهم فتعرفت عليها جدّة أحمد وزوجتها لابنها . وكانت ولادة أحمد في العام ١٩٤٦ واحدة من ثمرات الهداية والزواج . وبعد الهجرة ، نشأ أحمد في مخيم اللاجئين في حمص ، في جوّ العوز الشديد الذي انحدرت إليه حال الأسرة . ونشأة أحمد في هذا الجوّ تقدم أنموذجاً لما كابده أبناء المخيمات حتى تتوفر لهم اللقمة التي تقيم الأود والمأوى والكساء وتظهر ما صنعه هؤلاء الأبناء لكي يتعلموا وينموا ثقافتهم . إنه أنموذج الإنسان الذي لا يهدّه الحرمان ، بل يحفزه على تطوير ذاته والانهماك في العمل في الحقل العام . وفي أول شبابه ، تقرّب أحمد من حزب «البعث» وتبع يسارييه . ولكن مقام الشاب قرب هذا الحزب لم يطل ، فما أن اشتهرت المنظمات الفدائية الفلسطينية حتى وجد نفسه في «فتح» وفيها بقي . وفي غضون ذلك ، انطلق صوت أحمد الشعريّ ، صوت الولد الفلسطيني الذي صاغته هموم اللجوء ومخيماته ، ثم امتدّ واتسع إلى أن بلغ الشأو الذي تعرفه أنت .

ولأمر ما ، وجد رشاد وأحمد فيّ صديقاً يحرصان على إدامة الصلة به حتى ونحن مختلفان في أشياء كثيرة . كان صاحباي من الرافضين ، بل كانا من عتاتهم ، وكانت آرائي تصدمهما . وكان الاثنان لا يتهاونان في انتقادي ، حاضراً وغائباً ، والتحريض ضد دعوتي إلى التعقل ، وتدبير المقالب لي . إلا أني كنت صبوراً معهما فيما ظلا يمحضانني وداً لا يتأثر بالخلاف . وفي ظني أن حالنا ، نحن الثلاثة ، كان يعكس الحال العام : نختلف ونتخاصم وقد

نتعارك دون أن يفرط واحدنا بالآخرين . ألم نكن جميعنا في خندق المظلومين ، الصالحين منّا والطالحين ، فهل كان في مقدورنا حين يتوفر المنطق السديد إلا أن نتشبث بوحدتنا في خندقنا حتى ونحن نتقاتل فيه .

وها أنا ذا أتذكر واقعة يجدر أن أرويها لك . فقد كتب رشاد مقالاً ضدّي في «الطلائع» . وكان البعثي عبد الرحمن غنيم ، وهو صاحب قذائف الحرب النفسية الذي يبغض مواقفي بغضاً يذكر بأحقاد القبليين ، قد صار رئيساً لتحرير المجلة بعد أن تركها عبدالله الحوراني . وعبد الرحمن صديق لرشاد . وفي مقاله ، هذا ، هاجمني رشاد هجوماً مقذعاً كما ينبغي أن يقال ، فاتهمني بأني أردد ما يقوله الصهيونيون وأدعو إلى ما يدعو هؤلاء إليه وأفرّط بحقوق الشعب الفلسطيني . وقد اقتبس صاحبي من أقوالي مقتبسات مجتزأة أظهر بها أن ما أقوله مماثل لما تقوله غولده مائير رئيسة حكومة إسرائيل المفرطة في بغضها للفلسطينيين واستهانتها حتى بوجودهم ذاته .

قرأت مقال رشاد في مكتبي في الصباح . وهتف كثيرون إليّ بسببه . ثم انصرفت إلى أشغال يومي المعتادة . وكان من عادتي أن أترك مكتبي في الواحدة بعد الظهر فأذهب إلى مكتب وكالة الأنباء الفلسطينية «وفا» حيث يعمل أحمد ويجيء رشاد . وكنّا معتادين على تناول غدائنا معاً في معظم الأيام . فإما أن نذهب لتناول السمك المقلي في محل صغير في القصاع يقدم السمك فيه صيادٌ فلسطيني عتيق لاجئ اسمه أبو جورج ، وإما أن نذهب إلى منزلي حيث يستطيع صاحباي أن يقيلا بعد الغداء فلا يضطران إلى أن يذهبا إلى حيث يقيمان في مخيم اليرموك البعيد ، فيتسنى لكل منا أن يباشر نشاطات بقية اليوم دون عناء . وقد جئت يومها كعادتي إلى مقر «وفا» . وكان أحمد ورشاد كلاهما هناك . ويبدو أن أحمد توقع مشاحنة صاخبة أو أنه ، كما وصفت أنا مسلكه ساخراً ، خشي أن يضطر إلى اتخاذ موقف مع واحد

منّا ضد الآخر فاختفى . أما رشاد الذي توقع أن أداهمه بالهجوم فقد تشاغل بالحديث مع الموجودين . وصبرت على هذا إلى أن صارت الساعة الثانية ، موعد انصرافنا المعتاد . فقطعت دفق حديث رشاد وخاطبته بالنبرة الودودة المألوفة : «غداؤنا ينتظرنا ، فهيّا بنا !» .

وفي نصف الساعة الذي استغرقه مشوارنا إلى منزلي ، خضتُ في مواضيع كثيرة إلا موضوع المقال . فتصور رشاد أني لا أريد أن نتعارك في الشارع . لكني فعلت الشيء ذاته في المنزل ، قبل الغداء ، وأثناء تناوله ، ومع أكواب الشاي التي سبقت القيلولة ، وبعد قيلولتنا . وتصور رشاد في كل مرة أني أرجئ العراك إلى التي تليها . ولكن وقت مغادرتنا المنزل حلّ دون أن أتطرق إلى الموضوع .

وها أنا ذا أتذكر أننا كنّا ننحدر في شارع الصالحية المكتظ بالمتسوقين والعابرين ، حين وقف رشاد فجأة واستوقفني بحركة جعلها غيظه فظة : «فلقتني ، قل شيئاً ، أي شيء ، سكوتك يذبحني !» . هنا ، وصلت بعزمي على إيجاع صاحبي بخطيئته وحدها الذروة : «أنا لم أصمت أبداً ، فعن أي شيء تريدني أن أتحدث»؟ ! . وحقق عزمي غرضه ، فرشاد هو الذي انفجر بالصوت العالي : «عن مقالي الذي لعنت فيه سنسفيل أجدادك وألقيت سمعتك في الوحل ، ألم تقرأه ؟!» . ولم أرحم صاحبي المهتاج : «لماذا تتصور أني أستاء حين تشبهني بأشهر رئيسة حكومة . ثم إنك تخدمني حين تشهرني بهجومك عليّ» . وأدرك رشاد المفتون برياضة الملاكمة والذي مارسها أني تغلبت عليه في هذه الواقعة بالنقط والضربة القاضية معاً ، وأقر بهذا . وأكملنا مشوارنا ضاحكين .

لم يكن صبري على هجمات رشاد أو أحمد أو أي من أمثالهما حلماً كله أو تشبثاً بمستلزمات الصداقة . فقد كان في الأمر شيء أكثر تعقيداً مما

يبدو في الظاهر . كنت أضيق برفض الرافضين وتطرفهم دون أن أهمل التمييز بين المزايدين الكذابين وبين المخلصين لقناعاتهم ، بين المتبجحين ثقيلي الظل وبين الذين يعرضون قناعاتهم دون إثقال . وكان أحمد شديد الاقتناع بموقفه فكنت أقدّره مع اعتقادي أنه خاطئ . وكان رشاد ظريفاً ظرفاً يجعلك تسامحه حتى لو أشهر في وجهك سكيناً وليس مجرد لسان أو قلم . والأهم من ذلك أن الإحساس بالظلم الفادح هو الذي يجعل الرافض الحقّ رافضاً ، ولم يكن من الممكن أن أجافي صاحبيّ لأن إحساسهما بالظلم عميق . ثم إن أمري أنا نفسي كان كلّه من هذه الناحية معقداً . فقد اندفعت في الدعوة إلى تسوية سياسية لأني تصورت فيها إنقاذاً لما بقي واستعادة لما تمكن استعادته من أرض الشعب الفلسطيني وحقوقه . فعلت هذا بعدما بدا لي أن استعادة كل شيء متعذرة . غير أن توخّي الممكن لم يجعلني أقلّ ضيقاً بفداحة الظلم الواقع أو أكثر أملاً بأن تمحو التسوية الظلم كلّه . كان فهمي السياسي يحثني على التجذيف ضد التيار الغالب آنذاك . بينما انطويت بما أنا ضحيّة على الإحساس بالمضاضة إزاء ما توجب السياسة التضحية به . ولئن ضاق السياسيّ فيّ بسلوك المضموضين بالظلم فإن المضموض فيّ بالظلم ذاته بقي على استعداد لأن يفهم أقرانه ويعذرهم حتى وهو يخطّئ سلوكهم ويسلك في نحو مختلف .

ولا بدّ من أن موقفي من أصحابي الرافضين قد انطوى على هذا التباين : أجد في تشددهم ما يعكس توقهم إلى العدالة الصافية فأغبطهم بوعي أو بغير وعي ، وأضيق في الوقت ذاته بهم لأنهم بالإصرار على الظفر بالعدالة الصافية يفوّتون فرص الظفر بالعدالة الممكنة . وأرجو بعد هذا أن لا تستغرب إن قلت لك إن عدد أصدقائي الشخصيين من الفلسطينيين الرافضين بقي في كل الأحوال مساوياً لعدد غير الرافضين ، وربما زاد عليه !

١٤

كمال ناصر أو الضمير الذي اغتالوه

كثيراً ما قورن حال الثورة الفلسطينية بحال العنقاء الأسطورية ، هذه التي تحترق ثم تنبعث من رمادها مرّة تلو أخرى . إنه تشبيه لا يفتقر إلى ما يسوّغه . لكن ، إذا شئت الدقة ، فإن وهج الثورة لم ينطفئ بتمامه وهي لم تتحول كلها إلى رماد في أي مرة فهي ، إذاً ، عنقاء من نوع خاص ، تحطّ أو تصعد حسب تبدل الأحوال وتظل حيّة في كل حال .

والحال التي أعقبت أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠ وتموز/ يوليو ١٩٧١ ، حفرت منحدراً أُريد للمقاومة الفلسطينية أن تنحدر فيه . إلا أن في الأغوار هي الأخرى ذرى . وقد لا تبدو ذرى الأغوار شامخة ، غير أن التشبث بها يعكس إرادة الصعود ويُبقي توقدها ، فيظل من الممكن توفير الإحساس بالسموّ والتحليق أعلى فأعلى .

لم تتوقف ، إذاً ، محاولات الصعود . صحيح أن هذه المحاولات لم تسر كلها في خطوط مستقيمة أو لم تستخدم وسائل ناجعة . لكن ، صحيح ، أيضاً ، أن مداومة العزم على مقاومة الانحدار انطوت على الرغبة في اكتشاف الوسائل الأنجع وتلمس الاتجاه الأصوب . فالتوجه إلى الإرهاب ، بما هو تعبير عن اليأس والإحباط ، زامنه التوجه نحو الواقعية السياسية ، وهو ما عبر عن

بقاء الأمل في الخلاص . لم يتمايز التوجهان دفعة واحدة ، بل بقي الاختلاط في مواقع كثيرة . لكن عدد الذين أيّدوا صياغة أهداف ممكنة التحقيق ظل في ازدياد . حتى النشاط الإرهابي وُجد بين المنهمكين فيه والمؤيدين له من تصوروا أنه وسيلة للضغط على إسرائيل وحلفائها كي يتراجعوا عن التعنت ويقبلوا المساومة ، تماماً كما وجد بين الداعين إلى التسوية من اعتقدوا أن الحديث عنها مفيد في تزيين العمل الذي يستهدف القضاء على إسرائيل .

ولعلي لا أجانب أي صواب لو قلت لك إن شخصية الشخص الواحد انطوت على التباينات كلها . وقد عرفت كثيرين انهمكوا في المقاومة المسلحة ضد إسرائيل وتحمسوا للإرهاب وحثّوا على تنشيط الجهد السياسي في آن واحد . وأنا لا أجانب الصواب أبداً إن قلت إن ياسر عرفات بالذات مثّل هذا كلّه كما مثل بالطبع غيره ، بما هو أيضاً متباين . فقد رعى أبو عمار نشاط أيلول/ سبتمبر الأسود كما رعى العمليات المسلحة الموجهة ضد الاحتلال وظل داعية عالي الصوت لتحرير فلسطين ، لكنه وسع العلاقات مع مصر التي تمحورت سياستها حول قرار التسوية السياسية ، القرار ٢٤٢ ، وبذل جهداً سرياً وعلنياً لإقامة علاقات مع الاتحاد السوفياتي أشدّ المتحمسين لتطبيق هذا القرار ، ورعى الفلسطينيين الداعين علناً إلى التسوية حتى وهو يعلن اختلافه معهم ، وحماهم . وتحدى أبو عمار متزمتي «فتح» وأصر على أن يتمثل الشيوعيون الفلسطينيون في المجلس الوطني . وفي مجالسه ، كان عرفات يكرر : «يا ليت !» ، يقولها إن دار الحديث على تحرير فلسطين كلها ، ويقولها ، أيضاً ، إن دار على استعادة جزء منها ، ويقولها ، أيضاً وأيضاً ، حين يخلط الحديث بين هذا وذاك ويعدّ استعادة بعض فلسطين خطوة نحو تحريرها كلها .

ومنذ عودتي إلى دمشق ، عدت إلى سيرتي المألوفة فيها : الانهماك في

المشاغل وقد صار جلّها فلسطينياً ، طيلة النهار ، ومصاحبة صغيراتي أول المساء ، والسهر مع الشلة ، مع نبيه ارشيدات وحنّا مينه ومنير الحمارنة وسعيد مراد وسعيد حورانية الذي رجع من موسكو ، بقية المساء إلى ما بعد منتصف الليل والتمتع بحوارات الشلة ومسامراتها والاستفادة منها . وزاد تواتر سفراتي إلى بيروت ، حيث استقر مركز الثقل السياسي والعسكري الفلسطيني . وقد كانت أنباء العمليات الخارجية (أقرأ غالباً : الإرهابية) هي الطاغية على أي اهتمام . وكما يحدث إزاء الأعمال الصارخة ، غطت هذه الأنباء على أنباء عمليات بطولية حقيقية وفعالة نفذها المقاومون في الأرض المحتلّة . ولأن معارضتي للإرهاب كانت حازمة لا يعتريها أي وهن ، فقد وجدتني أجذّف في دوامة لا ترحم . وفي غضون ذلك ، لم أنقطع عن زيارة القاهرة ، بل ظللت أجيء إلى أم الدنيا هذه مرة كل شهر أو اثنين ، أو كل ثلاثة شهور على أبعد تقدير . وحين لا تتوفر المناسبة الملائمة ، كنت أتصيد المناسبات تصيداً أو أجيء إلى المدينة التي أحببتها حتى بدون مناسبة .

وقد كنت في بيروت يوم ارتهنت مجموعة تنتسب إلى أيلول/ سبتمبر الأسود الوفد الرياضي الإسرائيلي إلى أولمبياد ١٩٧٢ في ميونيخ في ألمانيا الفيديرالية . وأوصلت هذه العملية سخطي على العمليات الخارجية إلى ذروته ، حتى لقد كدت أفقد صوابي . تصور مخططو العملية أنهم وقعوا على صيد ثمين في مناسبة تتركز عليها الأنظار فبإمكانهم ، إذاً ، أن يجتذبوا أشد الانتباه . أما أنا فأخذت على هؤلاء ، زيادة على المآخذ المألوفة ، تقصُّدهم هذا الصيد بالذات في هذه المناسبة بالذات . ولم أتصور أن الغباء يمكن أن يقود إلى ما هو أسوأ من هذا : أصحاب قضية عادلة يريدون أن يجتذبوا الانتباه إلى قضيتهم فيهاجمون نجوم رياضة في أولمبياد عالمي ويعرضون أنفسهم لفضيحة قاسية أمام أعين المشاهدين الذين يتابعون شاشات كل تلفزيون في كل مكان

في العالم ! ونادراً ما سخطت على أي من ناس ربعي في أي مرة بمقدار ما سخطت هذه المرة . وسخطي هو الذي حملني على أن أكتب ضد عملية ميونيخ هذه بقسوة شديدة . ولعلي كنت بين ناس المقاومة الوحيد الذي نشر رأيه ضد العملية . وأظن أنني الوحيد الذي عارضها بمثل هذه القسوة .

وقد يدهشك أني نشرت رأيي في مجلة «إلى الأمام» أعلى مجلات الرفض الفلسطيني صوتاً وأشدها حماساً في الحثّ على العمليات التي من نوع عملية ميونيخ . أما كيف توفرت لي هذه الفرصة فلهذا حكاية يجدر أن أرويها . فقد كان رئيس تحرير المجلة هو فضل شرورو ، وكان ، كما صرت تعرف ، من أصدقائي ، وهو المسؤول عن الإعلام في قيادة جبهة التحرير الفلسطينية التي استقلّت ثانية عن الجبهة الشعبية وصار اسمها الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ، والمجلة هي الناطقة باسم هذه الجبهة . وكثيراً ما حثني فضل هذا على الكتابة لمجلته . وكنت أزوغ بدعوى أنهم في جبهته لا يحتملون آرائي . وفي تلك الزيارة لبيروت ، وفيما أنا لائب أبثّ آرائي ضد العملية ولا أجد من يجرؤون على نشرها ، لقيني فضل وكرر دعوته إياي إلى الكتابة ، فتحديته بما أعرف أنه يثير حميته : «سوف أكتب إن تيقنت من أنك تجرؤ على نشر ما أكتب» . واستجاب صاحبي للتحدي : «من يدك إلى المطبعة ، بلا أي تدخل» . وهكذا ، كتبت أنا ونشر هو . وفي واحد من المقالات ، قلت إن اللجوء إلى الإرهاب هو سلوك اليائسين . وشددت على أن ليس من حق اليائس أن يتصدى لقيادة شعب ويسيء إلى سمعته وقضيته . وقد جعلت للمقال هذا العنوان الذي يلخص فحواه : اليائس يذهبُ إلى بيته .

وعندما وصلت المجلة التي فيها هذا المقال إلى من يهتم بها في القاهرة ، كنت أنا قد جئت إليها . هنا ، دعاني أبو إياد إلى الالتقاء به في مقهى في ميدان العتبة ألف أن يدعوني إليه كلما شاء أن يلقاني خارج مقرّات العمل .

لم يكن أبو إياد قد نسي تكتمي على مصدر معرفتي بحكاية كمال عدوان والأسلحة التي نقلت إلى جماعة الهادي المهدي في جزيرة آبا في السودان، فكان ما يزال عاتباً عليّ. وقد تحدث الرجل عن مقالي، أنا المزدهي بتجذيفي ضد التيار، بنبرة بدت لي غير لائقة. وعندما حذّرني أبو إياد من أنني أجلب لنفسي المتاعب وأجازف بالتعرض للخطر، عددت أنا تحذيره لي إنذاراً، فقد كان هو من يصفه الإعلام بأنه قائد أيلول/ سبتمبر الأسود، وثرت في وجهه: «لست أنا ممن يخشون التهديد حين يتعلق الأمر بالحاجة إلى الجهر بما أرى أنه صواب». سأدرك بعد أن أهدأ أن الرجل لم يهددني بل شاء أن يلين معارضتي القاسية لنشاط له هو صلة به. ولكن تأذي من كلام أسأت فهمه نفع على كل حال. ففي حرصه على إعلان تقديره إياي ومحبته، أقسم أبو إياد قسماً طالما انتفعت به ما دام هو حيّاً: «سأعمل على حمايتك حتى لو اتخذت مواقف لا أرضى عنها». والحاصل أن أبا إياد لم يحمني في ذلك الظرف فقط، بل في كل ظرف مماثل.

في هذه الفترة، انهمكت في العمل الجاري لتأسيس الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين، أو تجديد تأسيسه. فقد سبق أن تأسس اتحاد للكتاب، دون الصحافيين، في غزة في العام ١٩٦٦، في عهد رئاسة الشقيري لمنظمة التحرير وبتأييد منها. لكن عضوية هذا الاتحاد الذي ترأسه المترجم الشهير خيري حماد اقتصرت على عدد محدود، وظلت فعالياته محدودة هي الأخرى وتضاءلت بعد التبديل الذي طرأ على قيادة م. ت. ف. وفي العام ١٩٦٩، مع البروز الكبير للعمل الفدائي وتوسع نشاط الحركة الوطنية الفلسطينية، برزت فكرة توسيع الاتحاد وضم الصحافيين إليه. إلا أن التطورات العاصفة التي صرت تعرفها أرجأت تنفيذ الفكرة. وقد انتعشت الفكرة من جديد في العام ١٩٧٢، انتعشت مع اشتداد المواجهة الفلسطينية

لمشروع المملكة العربية المتحدة وتقوّي الميل إلى إبراز الكيان الفلسطيني المستقل . وفي صيف هذا العام ، تشكلت لجنة تحضيرية عامة رئيسها كمال ناصر وفيها غسان كنفاني من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وماجد أبو شرار وناجي علوش من «فتح» وآخرون . وقد استشهد غسان بعد وقت قصير من تشكيل اللجنة ؛ أودت بحياة السياسي والأديب المشهور قنبلة فجرت سيارته في بيروت وهو داخلها ومعه طفلة هي ابنة أخته . واستقر في الأذهان أن عملاء الموساد الإسرائيلي هم الذين اغتالوا غسان على هذا النحو الفاجع . وحفز استشهاد غسان روح التحدي لدى حملة الأقلام فانتعش العمل لتأسيس الاتحاد الكبير الجامع .

في سياق هذا العمل ، أوكلت لي ولأنيس الخطيب وآخرين نسيت الآن أسماءهم مهمة تسجيل الأعضاء المقيمين في سورية . ولا بدّ من أنك حزرت أن هذا العمل فتح ميداناً آخر للتنافس بين الفصائل الفلسطينية . ولما كانت «فتح» هي الأكبر ، فقد حرصت كالعادة على الإستئثار بالحصة الكبرى . ولما لم يكن بين أعضاء «فتح» العدد الكافي من الكتاب والصحافيين الممارسين حقاً لتوفير أغلبية كبيرة لها ، فما أكثر ما جرى تنسيب من ليسوا كتاباً أو صحافيين ليستوفي العدد اللازم . حتى لقد جاء إلى أنيس من فصيله مرة ثلاثون طلب انتساب دفعة واحدة وليس بينها طلب واحد لكاتب أو صحافي نعرفه أو نسمع باسمه . وكانت هذه الطلبات جميعها مكتوبة بخط يد واحدة على ورق من نوع واحد وقد أُضيف إلى الأسماء جميعها صفة واحدة : طالب وله ميول أدبية . وجاء أنيس إليّ بالأوراق وهو بادي التحرج ، و«فتح» هي «فتح» وليس أقلّ من هذا ، وهو ملزم بتنفيذ مشيئتها . ولأن أنيس ينفر من التزوير فقد استند إلى تشددي . ولكم تندرنا بغباء الذي اقترف هذا التزوير الساذج !

ولئن أفلحنا في دمشق في التقليل من التزوير فإن أمثالنا لم يفلحوا بالمقدار ذاته في كل مكان . وفي المحصلة ، اتفقت قيادات الفصائل على تحديد عدد أعضاء المؤتمر التأسيسي بثلاثمائة وثلاثين وتوزيع الحصص . وخُولت كل قيادة بأن تبعث إلى المؤتمر عدداً من الأعضاء يساوي الحصة المخصصة لفصيلها في الاتفاق ، بصرف النظر عن صلة هؤلاء الأعضاء بالقلم . وزاد الموكلون بعقد المؤتمر أعداداً أخرى ، كل حسب مزاجه ومصلحته ودرجة نفوذه . وعندما انعقد المؤتمر ، جاء كتاب وقراء ، بل جاء أيضاً من ليسوا كتاباً أو قرّاء . ولقد رأيت بأم عيني صبّاب قهوة في مكتب تابع لأحد الفصائل وهو يعلق على صدره بطاقة العضوية ويصول ويجول . وأظن أنني أنا الذي ألف الطرفة التي عكست واقع الحال : وصل إلى قاعة جمال عبد الناصر في الجامعة العربية في بيروت حيث انعقد المؤتمر رجلٌ بادي المهابة . واستوقف الموكلون بتدقيق العضوية الرجل وسألوه عن اسمه فقال : أبو الطيب المتنبي . وكان هذا اسماً للشاعر الذي لا ينبغي لأي عربي أن يجهله . إلا أن مستوقفي الرجل سألوه : «إلى أي فصيل ينتمي الأخ ، بلا صغرة» .

والاستهتار بكل قواعد العمل التنظيمي عاينته في المناقشات التي جرت حول مشروع النظام الداخلي للاتحاد . لا يتسع المجال هنا لرواية الكثير ، فلأرو لك حكاية واحدة دالّة ، فقد وقع في اللجنة التي عنيت بالانضمام إليها خلاف حاد حول بند من بنود شروط العضوية . أراد نصف أعضاء اللجنة أن يكون لأي كاتب أو صحافي أردني حق في العضوية مساو لنظيرهما الفلسطيني . وأراد نصف الأعضاء الآخر أن يكون للأردني الذي ينشط في مؤسسات الثورة الفلسطينية ، وحده ، هذا الحق فيتساوى الأردني بهذا مع العرب الآخرين . ومع امتداد الجدل ، برز خالد أبو خالد في مقدمة النصف الأول ، وتقدمت أنا النصف الثاني . وقد اشتدّ الجدل واحتدّ دون أن تتوصل

اللجنة إلى اتفاق . كنت أستند إلى منطق يصعب دحضه بالمنطق . واستند خالد إلى حماس يصعب إطفاؤه . وهكذا ، انتقل الخلاف إلى جلسة المؤتمر العامة وفيها ارتجل خالد خطبة لاهبة وقال بين ما قاله إن الذين يميزون بين الفلسطيني والأردني هم عملاء الامبريالية والصهيونية والرجعية ، ولم يقل ما هو أقلّ من هذا . وحظي خالد بتأييد الحاضرين الذي عبّروا عنه بتصفيق صاخب ومتصل . وكان بين من صفّقوا لخالد نفر من الذين أيّدوا رأيي أثناء النقاش في اللجنة .

الواقعة الأهم بين وقائع المؤتمر ، كانت ، كما هو الحال في أي مؤتمر فلسطيني ، هي تلك المتصلة بانتخاب قيادة الاتحاد الجديد ، أو الأمانة العامة ، كما سماها النظام الداخلي . هنا ، أيضاً ، توزعت الفصائل الحصص وأعطى اتفاقها لـ «فتح» ومن تثق هي بتأييدهم لها حق رئاسة الاتحاد ونصف أعضاء أمانته العامة وجعل لكل فصيل عضواً . وفي ضوء الاتفاق ، تشكلت قائمة المرشحين التي يسمونها قائمة الوحدة الوطنية . غير أن كثيرين من غير أعضاء القائمة كانوا أهمَّ من أعضائها وأكفأ وأجدر بتولي القيادة . وشاء بعض هؤلاء أن يجرّب حظه في منافسة قائمة الوحدة الوطنية . فرشح معين بسيسو نفسه ، وهو من تعرف ، وكذلك رشح نفسه شفيق الحوت وهو شيخ الصحافيين الفلسطينيين . ولك أن تتصور مستوى مؤتمر صوت فيه مئات الأعضاء فلم ينل معين أكثر من خمسة عشر صوتاً ، ولم تبلغ الأصوات التي نالها شفيق الثلاثين ! سيروج معين الطرفة التي رويتها لك . وسيكتب شفيق أنه كان مؤتمراً للكتاب والصحافيين والقراء ، وسأضيف إليه أنا : «وذويهم أيضاً» ، وذلك لأني لقيت في المؤتمر عضواً قدم إليه من السعودية ومعه زوجته فمنحت الزوجة بطاقة عضوية حتى لا تبقى في الفندق وحدها عندما ينشغل زوجها بالاجتماعات .

لكن أخطر ما جرى وقع عندما أظهر فوز الأصوات وهو مشرف على نهايته أن ممثل الصاعقة في قائمة الوحدة الوطنية لم يظفر بما يكفي من الأصوات لإنجاحه . وقد اعتقدت قيادة الصاعقة أن هذه النتيجة تؤكد على أن «فتح» غدرت بحليفتها الصاعقة . ووضع زهير محسن مسلحي فصيله في حالة استنفار وهدد بالويل والبثور ، وعظائم الأمور ، أيضاً . وبدا أن الوحدة الوطنية ، هذه التي كانت ضرورية ضرورة حياة أو موت ، مهددة بخطر لعلعلة الرصاص .

جاءني كمال ناصر وهو يرتعش من الحنق وروى لي ما جرى خارج المؤتمر ، وقال : «أنت ، يا صوت العقل ، خلّ العقل يدبرها مع هؤلاء المجانين !» . وكان أول ما اقترحته أن نوقف فرز الأصوات حتى نتجنب إعلان النتيجة قبل الاهتداء إلى حل يحقن الدماء المهددة بالهدر ، وقبل كمال الاقتراح .

كان ضيف المؤتمر ، الصحافي المصري إبراهيم عامر هو من أوكلت إليه رئاسة لجنة الفرز ، فجئت إليه باقتراحي وشرحت المسوغات بمقدار ما أسعفني التعجل والحرج . إلا أن الرجل رفض ، ثم كرر الرفض حتى عندما جاء إليه كمال ناصر بنفسه . وتمّ الفرز فاتضح أن ممثل الصاعقة لم يفشل فحسب ، بل إن ترتيبه جاء الرابع وليس الأول ، بعد آخر الناجحين . فاستفحلت الأزمة واشتدت النذر . أما الحلّ فقد ابتكره غيري ولم يكن للعقل أو صوته دخلٌ فيه : ضُغط على أحد الناجحين حتى استقال فحلَّ محلّه الأول في الفاشلين ، ثم ضغط على هذا ، وتكررت العملية إلى أن صار ممثل الصاعقة عضواً في الأمانة العامة .

وبهذا المؤتمر ، توفرت لرشاد أبو شاور فرصة جديدة كي يهاجمني . فقد كنت واحداً من قليلين اعترضوا على شعار المؤتمر الذي صار شعاراً للاتحاد :

«بالدم نكتب لفلسطين» . رأيت أن من المعيب تبني مثل هذا الشعار ، واعترضت . وعقّب معين بسيسو : «يكتبون بالدم لأنهم لا يعرفون كيف يكتبون بالحبر» . أما رشاد المفتون بالشعار الدامي فهاجمني على أساس أني أرفض الشعار لأني أكره الدم ، وعدّ كرهي للدم نقيصة .

وفي دمشق التي رجعت إليها مساء يوم انتهاء المؤتمر ، رن جرس الهاتف في منزلي في صباح اليوم التالي وجاءت الدعوة المألوفة : «الختيار يريدك على الفطور معه» . وكانت في الانتظار مهمة عرضها أبو عمار وشرح دوافعه إلى ندبي أنا بالذات لها : «تكون بجانب جمال الصوراني حتى لا تضيع الفرصة» . ولم أكن بحاجة إلى تشجيع ، فالسفر إلى القاهرة يسعدني أياً ما كانت عليه طبيعة أي مهمة .

كان على جدول أعمال مجلس جامعة الدول العربية مذكرة تطلب إنشاء صندوق عربي للشهداء الفلسطينيين تساهم كل دولة عربية في رأسماله بنسبة مساهمتها في ميزانية الجامعة وتديره هيأة مستقلة . وكانت اتصالات واسعة قد جرت لتوفير الموافقات اللازمة . وقد اتضح أن الجزائر تتصدر المؤيدين فيما تصدرت السعودية المعارضين . وصار على اجتماع مجلس الجامعة الذي نُدبت إلى المشاركة فيه أن يحسم الخلافات . كانت السعودية تقدم للفلسطينيين معونات متعددة الأشكال وكثيرة ، وكانت تقدمها إليهم ، إلى من تختاره هي منهم أو من فصائلهم ، مباشرة ووفق الأحوال وتُفضّل هذا الاسلوب . ومن هنا ، جاء اعتراض السعودية على تأسيس صندوقٍ دائمٍ الاشتراكُ فيه ثابت وملزم . وكان محمود رياض ، الأمين العام لجامعة الدول العربية ، قد وعد باستخدام ثقله كلّه لإنجاح المشروع الحيوي للفلسطينيين وتعهد أن يلين اعتراض المعترضين .

وفي الاجتماع ، جلسنا ، سعيد كمال زميلي في الدائرة السياسية وأنا ،

وراء جمال الصوراني رئيس وفد م . ت . ف . بوصفنا عضوين في الوفد ، وقدّم محمود رياض للموضوع تقديماً طيباً ، ثم تكلم مندوب الجزائر ، وكان هذا إنساناً بادي النباهة ، وشاء ، هو المتحمس للموضوع ، أن يسحب البساط من تحت أقدام المعارضين ، فراح يعدد ما يمكن أن يورده هؤلاء من انتقادات ليردّ عليها ويفندها . هذه المناورة المألوفة ، بل البارعة ، فات مغزاها على رئيس وفدنا . وظن الصوراني أن المندوب الجزائري يشكك في سلامة المشروع ، فاستاء ، وتابع الاستماع إلى الحديث وهو أسير الانفعال ، فتفاقم سوء الفهم مع إمعان الجزائري في استعراض الانتقادات . وعندما قال الجزائري إن من الممكن أن تُستخدم أموال الصندوق لغير الغرض الذي رُصدت له ، وقبل أن يفند حجة المعترضين هذه ، جلجل صوت الصوراني : «كرامةُ شهدائنا أعزّ علينا من حفنة فلوس تدفعونها ، واللّه هو المغني ، لا نريد فلوسكم» . وطلب جمال الذي سيطر سخطه عليه وقف النقاش وسحب الموضوع من جدول الأعمال . وما أعجل ما أيّد المندوب السعودي هذا الطلب ! ولم تفلح محاولات محمود رياض استبقاء الموضوع ومواصلة النقاش حوله . فقد تفنن الصوراني الذي لم يهدأ سخطه في عرض الأسانيد التي تظهر أن م . ت . ف . هي صاحبة المشروع ومن حقها ، إذاً ، سحبه . وفي مجلسي خلف رئيس الوفد ، حيث لا يحق لي الكلام ، لم أملك أن أفعل شيئاً .

جمال الصوراني ذاته ، علق في الاجتماع في نقاش غريب مع د . سيّد نوفل الأمين العام المساعد للجامعة . فقد ساق الحديث عن الشأن الفلسطيني د . سيّد إلى التنويه بقداسة فلسطين ، وذكّر في سياق هذا الحديث بأن السيد المسيح ولد في «بيت لحم» . ولدهشة الجميع ، هدر في القاعة اعتراض : «هذا حكي مش مضبوط» ، وكان الصوراني هو المعترض . ولم يدرك د . سيد ما الذي يعترض عليه رئيس وفد فلسطين ، أهو القول بقداسة فلسطين أم القول

بأن السيد المسيح ولد في بيت لحم، فتساءل بهدوء: «إيه الحكاية؟». فابتسم الصوراني ابتسامة الواثق بأن لديه ما يدهش: «إسمع يا سيدي! ألم يقل القرآن الكريم: ﴿وهزّي إليك بجذع النخلة تسّاقط عليك رطباً جنيّاً﴾؟». فأقر د. سيد بأن نعم. واتسعت الابتسامة على وجه الصوراني وهو يسأل وكأنه استدرج مناظره إلى فخّ: «طيّب، هي بيت لحم فيها نخيل؟!». وقبل أن يفوه د. سيّد بشيء، تابع الصوراني وهو يوجه خطابه إلى الحاضرين كلهم: «أين يوجد النخيل في فلسطين؟»، وقبل أن يرد أيما أحد على السؤال، وصل الصوراني إلى بيت قصيده، وهتف بنبرة الظافر: «في غزة!».

في هذه الزيارة أيضاً، كرر أبو إياد محاولة استقصاء مصدر حكاية كمال عدوان والأسلحة. كان القائد الفتحاوي قد التقى الرئيس السوداني مؤخراً وكان هذا قد كرر العتاب. وتشبثت بالسر ليس لأنه مما ينبغي إخفاؤه على مسؤول الأمن الفلسطيني، بل لأني لم أشأ أن تصير عادة فأصير مطالباً بكشف مصادري كل مرة. ثم إن سخطي على العمليات الإرهابية كان ما يزال على حاله، بل إنه اشتد. فهذه العمليات كانت قد تحولت إلى موجة عمياء كاسحةوصارت أقرب ما يكون إلى موضة انتشرت كما ينتشر وباء. وإذا ظلت البلاغات حافلة بالذرائع التي صرت تعرفها، فقد كنت أعرف ذرائع لا تتحدث عنها أي بلاغات وكان كثير منها قبيح، أقبح من الذرائع المعلنة. ولم تعد الهجمات تستهدف مصالح إسرائيلية أو أميركية أو ما يمكن نسبته إليها، فحسب، بل اتسعت دائرة الأهداف، ثم صار المهاجمون يخبطون خبط عشواء ويتصيدون أي فرصة سانحة. ولم تقتصر الدوافع على الانتقام المتسربل بنوازع وطنية، بل امتزجت بها روح متاجرة بغيضة، خصوصاً حين كانت فصائل صغيرة هي التي تشن الهجمات. وقد شنّت هجمات ليس لها هدف سوى الابتزاز.

وها أنا ذا أتذكر واقعة رواها لي أحد المشاركين فيها . فقد استخدمت فتاة منتمية إلى أحد الفصائل لابتزاز عربي خليجي واسع الثراء . كان الثريّ في إجازة للمتعة على أحد شواطئ إسبانيا فتقربت الفتاة منه وأغوته . وما أن صار الغاوي ومغويته في السرير في الفندق حتى اقتحم الحجرة أقرباء مزعومون للفتاة وهم مسلحون وهددوا الرجل المرعوب بالفضيحة والانتقام . ثم رضي الرجل بالطبع أن يشتري الستر والسلامة ببضعة ملايين . راوي الواقعة رواها لي في معرض تأكيده على أن عمله لم يكن سهلاً ، فقد توجب عليه بعد أن صحب زملاؤه الفتاة وانصرفوا أن يبقى مع الخليجي سبع ساعات كاملة ليراقبه إلى أن يتصرف زملاؤه بالشيك ويغادروا إسبانيا . ووجه الصعوبة تمثل في احتمال راوي الحكاية لرائحة الغائط طوال هذه الساعات . ذلك أن الخوف الذي أفقد الخليجي السيطرة على وظائف جسده جعله يتغوط وهو في السرير .

لكن ، كما يحفز شيء على ضدّه ، حفز الإمعان في الإرهاب وتشتت أهدافه وتعددها على التنبه إلى مخاطره ، وأخذت المعارضة تشتد إلى أن كسرت اندفاعة الموجة . ولم يبق من الإرهاب بعد ذلك ، خصوصاً بعدما قررت «فتح» ذاتها إيقاف العمليات الخارجية ، إلا انداياحات متفرقة ومتباعدة .

في كانون الثاني/ يناير ١٩٧٣ ، جئت إلى القاهرة لحضور دورة جديدة للمجلس الوطني . كنّا في إبّان الشتاء وبرده . إلا أن الجدل بين تيار الرافضين وتيار غير الرافضين ظل ساخناً . وأمكن أن يسجل كل فريق نقاطاً لصالحه دون أن يُحسم الجدل . وفي هذه الدورة ، فقد خالد الحسن منصبه في قيادة م . ت . ف . فلم يعد رئيساً لدائرتها السياسية . وصار لي رئيس جديد هو محمد يوسف النجار «أبو يوسف» . وكان هذا معدوداً من قادة «فتح» النافذين ، وقد

تولى عدداً من المسؤوليات السرية ومنها الإشراف على بعض العمليات الخارجية . وكان غريباً ، بالنسبة لي ، أن توكل رئاسة الدائرة التي هي بمثابة وزارة خارجية إلى رجل العمل السري هذا ، والواقع أن اختياره للمنصب صدمني . غير أني ألفت بمضيّ الوقت غرائب «فتح» والعجائب التي تجيء بها المنافسات العلنية أو المستترة بين قادتها . ووطدت نفسي على الاستمرار في العمل مع رئيس الدائرة الجديد ، ذلك أنه كان ، بصرف النظر عن ملاحظاتي ، رجلاً يمكن الركون إليه .

وما أن عدت إلى دمشق حتى وصل استدعاء من رئيس الدائرة الجديد يطلب أن ننضمّ إليه ، عبد الرزاق وأبو سلمى وأنا ، في اجتماع يعقده معنا في بيروت . وفي الاجتماع ، قال أبو يوسف إن سلفه خالد الحسن قد زكاني لديه ووصفني بأني من الذين يمكن الاعتماد عليهم . وطلب أبو يوسف أن أنتقل إلى بيروت لأنه يريدني قريباً منه . هذا الطلب ، وقد وضع بصيغة فيها تكريم لي ، أحرجني . فأنا لا أحبّ الإقامة في بيروت ، ولا أرغب في أن أصير لصيقاً برجل يشرف على نشاطات لا أقرّها . ثم إن الراتب الذي أحصل عليه لا يكفي لإعالة أسرتي إن نقلتها إلى حيث الغلاء الفاحش وأكلاف المدارس المرتفعة . وفي محاولة التملص ، ألمحت إلى الهمّ المالي وحده . فقال أبو يوسف : «هذه بسيطة» . وأدركت مغزى القول . فهي بسيطة حقاً عند «فتح» وستتكرر العروض التي رفضتها دوماً . وشئت أن لا أترك الأمر ملتبساً : «ألتزم قاعدة لا أحيد عنها . أرفض أن أتقاضى مالاً من أي فصيل» . وتدخل عبد الرزاق الراغب في بقائي معه في دمشق : «هكذا هو صديقنا ، فلا تجادله !» . ويبدو أن رفضي الذي سبق حتى تقديم العرض قد ساء الذي لم يألف أن تُرفض عروض المعونة . وربما ظن أبو يوسف أني لا أتشبث بهذه الذريعة إلا لأني أرفض الانتقال . وهو على أي حال لم يتراجع : «عليك ، إذاً ، أن تتدبر

أمرك بالراتب الذي تتقاضاه من م . ت . ف .» . إلا أني لم أستسلم للتوّ : «ليقل لي أحد كيف يمكن أن تغطي سبعمائة ليرة لبنانية نفقاتي ونفقات الأسرة في بيروت دون أن أحتاج إلى قبول ما يثقل على ضميري ؟» . لكن الرجل المستاء لم يستسلم ، هو الآخر : «الواجب يفرض أن تكون هنا ، نحن في ثورة يجازف الناس فيها بأرواحهم ، اتّبع ضميرك كما تشاء !» . وعندها ، استسلمت .

اتبعت ما طلبه رئيس الدائرة . واتبعت كذلك ضميري واهتديت إلى تدبير لا يوجعه : تبقى الأسرة في دمشق حيث إيجار الشقة وأكلاف المعيشة المنخفضة ومدارس بناتي المجانية ، وأتدبر أنا في بيروت أمر طعامي بأقل نفقة وأبيت في مقرّ الدائرة . وانفض الاجتماع ، على أن ينعقد اجتماع آخر بعد أيام وأجيء أنا إليه ثم أبقى . وعندما غادرنا الاجتماع وصحبت رئيس الدائرة ، رجل العمل السري ، إلى حيث تقف سيارته ، لاحظت كيف وقف هو أمام المبنى ليحاور أشخاصاً كثيرين من طلاب الحاجات . ولم أملك أن أكتم دهشتي : «تتولى ما أعلمه ، وتتصرف كأنك محام في بلد مستقر ، وتغفل المخاطر» . كنت أشير بهذا إلى وقوفه دون حراسة في الساحة المكشوفة لأي مترصد ، في الشارع المكتظ بالسيارات والمارة ، وإطالته الوقوف دون حذر .

وها أنا ذا أتذكر كلمات محمد يوسف النجار وهو يفسر لي بقاءه بغير حراسة ، أتذكرها لأنها كانت آخر ما سمعته منه : «هل يرضيك أن يقول الناس عنّي إني أهاب الموت فأحيط نفسي بالحراس !؟» .

وفي يوم الاجتماع ، نهضت من نومي مبكراً إذ كانَ علي أن أبرح دمشق وأبلغ بيروت في الموعد ، في العاشرة صباحاً . وتعجلت إعداد نفسي للسفر . وفيما أنا منصرف إلى حلاقة ذقني : داهمني النبأ الذي بثته إذاعة إسرائيل في أول نشراتها الإخبارية . داهمت وحدة كوماندس إسرائيلية تسللت إلى

بيروت في الليل منازل ثلاثة قادة فلسطينيين : كمال ناصر ، وكمال عدوان ، ومحمد يوسف النجار ، وفتكت بهم .

أسلمني النبأ إلى حالةٍ وَهَنَ فيها إحساسي بما أقول أو أفعل ، واختفى ما يحيط بي . ولا أدري كيف وجدتني مع نبيه ارشيدات في سيارة عبدالله البرقاوي صديقي رئيس شعبة مخابرات جيش التحرير الفلسطيني والسيارة متجهة إلى بيروت . وقد انتبهت إلى نفسي حين بدأنا ننحدر ناحية البحر والبحر ممتد أمامي . فداهمني الأسى . وهل كان للأسى في هذا الظرف إلا أن يكون عميقاً وموجعاً : كمال ناصر الذي لا مثيل له . وكمال عدوان الذي يرحل قبل أن تنصلح علاقتي به ، أنا الذي حمّلت سلوكه ما لا يحمّله هو له . وأبو يوسف ، هذا الذي بدأت أنجذب إليه لتوّي وأكتشف مزاياه . وعربدة القوة الإسرائيلية ، والظلم ، وعجز الضحايا عن الدفاع عن أنفسهم في بلاد الغربة .

وفي بيروت ، انداحت الحكايات حول عملية الاغتيال ، فاستمعت إليها كما يستمع الناعس في حجرة إلى صخب أصحابه فيها . ولم أخرج كلية من ذهولي إلا حين سمعت قولاً قبيحاً صدمني . فقد قال ضيّق أفق أعرفه معرفة تامة إن ما جرى كان مؤامرةً تواطأ عليها بعض القادة الفلسطينيين لتصفية غيرهم . ففجّر هذا القول مخزن الضيق الذي يثقل على صدري ، ووجدتني أصفع القائل صفعة دوّيها هو الذي أعاد إليّ صحوي . وأدركت أن انتمائي لناسي قويّ .

وقد أنسى فواجع كثيرة . وقد يبهت تأثير أي فاجعة ، إلا فجيعتي بكمال ناصر . كانوا قد صاروا يلقبونه الضمير ويخاطبونه بهذا اللقب . وكان هو يعتز باللقب الجليل . أما أنا فكنت في حياته أتندر باللقب الذي حلّ محل اسم الشاعر ولا آخذه على محمل الجدّ ، أنا الذي ظللت أرى في كمال شاعراً ،

وأجد الشعر في قوله ، وفي حركته ، وفي سكونه ، ولا أقرّ بأن ثمة لقباً أجلّ من لقب شاعر ، دون أن أغفل أن كمال كان ، إلى هذا ، حقاً ، ضمير الثورة . وقد اقتحم مغتالو الضمير حجرة نومه . وكان للحقد على الناطق الرسمي باسم م . ت . ف . قبح الموت وقسوته فتعمد مغتالوه إطلاق النار على لسانه ، اغتالوا لسان الضمير . ظل كمال يهاب الموت ويهجس به طيلة حياته ، لكنه ظل يحوم دائماً حول النار ولا يبتعد عن مواقع الخطر إلا ليرجع إليها بأعجل ما يستطيع ، حتى وهو يجهر بخشيته منه . الفراشة التي يجذبها ما يسلمها إلى حتفها ، هذا هو ما كانه كمال . لم يدَّع يوماً أنه شجاع ، لكنه عاش كما يعيش أجرأ الشجعان . بطولة كمال كانت هي حياته ذاتها ، وقد عاشها بطولها وعرضها ، على امتداد الهم الفلسطيني والهموم العربية كلها . ولشدّ ما استخففت رواية الذين زعموا أن كمال ناصر قُتل وهو يطلق الرصاص على مهاجميه ! هل رأى أحدٌ فراشة تموت وهي تطلق الرصاص ؟

سيسجل تاريخ الثورة الفلسطينية أن اغتيال القادة الثلاث في بيروت شكل نقطة تحول في مسيرتها في لبنان . وقد شهدت بنفسي مظاهرة نصف المليون رجل وامرأة وقد تقدمها ممثلو الفعاليات السياسية اللبنانية كلهم وهي تطالب بتوفير الحماية للثورة الفلسطينية ضد عربدة القوة الإسرائيلية . وشهدت كيف تحوّل التعاطف الشعبي الكاسح مع الضحايا إلى رافعة . لقد انبعثت العنقاء مرة أخرى ، كما في كل مرة .

١٥

في مهرجان الشباب لم أفعل ما يفعله الشباب

حلّ فاروق القدومي في رئاسة الدائرة محل رئيسها الراحل . كان الاسم الحركي إبراهيم المغربي قد خرج من التداول . وبقي للرجل اسمه الأصلي مثلما بقيت شخصيته وآراؤه وأوجه سلوكه التي لا أرتاح أنا إليها . ويبدو أن الرجل كان يبادلني ضيقاً بضيق ، بل لعله كان لا يطيقني . وصار لضيق رئيسي الجديد بي فائدة ، فقد طُويتْ فكرة انتقالي إلى بيروت . فبقيتُ في دمشق في الأجواء التي ألفتها .

في ذلك الوقت ، نُشرت روايتي الأولى «المحاصرون» . كتبت مسودة هذه الرواية في أوقات فراغي بعد إقصائي عن الإعلام السوري وعندما أقمت في القاهرة . وقد طبع من الرواية ثلاثة آلاف نسخة نفدت جميعها ، لدهشتي الشديدة ، خلال شهور ، مع أنها بيعت في سورية وحدها . ولما كانت هذه رواية رديئة بالمقياس الفني فقد بحثنا ، أصدقائي وأنا ، عن سرّ رواجها . وفي مناقشات الشلة ، التقت الآراء على أن الرواية التي تناولت أحداث عمان وجرش الساخنة عرضت أداء المقاومة الفلسطينية بصدق غير مسبوق وهذا هو سبب الإقبال على قراءتها .

وفي ذلك الوقت ، أيضاً ، في صيف ١٩٧٣ ، تسنّى لي أن أشترك في

رحلة لا تُنسى ، الهدف برلين عاصمة ألمانيا الديمقراطية ، والمناسبة انعقاد مهرجان الشباب العالمي فيها . أُشرِكْتُ في إعداد التحضيرات الفلسطينية للمهرجان لأن ربعي عدّوني ، أنا الذي حضر مهرجان صوفيا ، خبيراً وجعلوني عضواً في اللجنة التحضيرية . وفيما التحضيرات جارية ، وصل تيسير قبعة إلى دمشق . كان صاحبي وغريمي هذا قد قضى سنتين في السجن الإسرائيلي بعد مغامرته في الضفة الغربية التي حدثتك عنها . وقد شهدت فترة سجن تيسير حملة دولية واسعة استهدفت الضغط على إسرائيل حتى لا تبقيه في السجن كما فعلت بغيره ممن أتموا فترة العقوبة التي حكم عليهم بها . وهكذا ، خرج تيسير من سجنه نجماً . ولأمر ما ، استقتل تيسير كي يصير رئيساً لوفدنا . وعندما اتضح للذي غيّبه السجن عن أجوائنا أن ياسر عرفات هو صاحب القرار الأول حتى في هذا الشأن وأني أنا صديقه من المتصلين بعرفات ، باح لي برغبته وأمل في مساعدتي ، ثم دخل سعيد حمامي على الخط . وتداولنا الأمر مع تيسير ووضعنا شروطاً قبلها صاحبنا كلها . وكان بين الشروط واحد اهتممت أنا شخصياً بالتأكيد عليه : ألا يحظر الاتصال بأعضاء ركاح القادمين إلى المهرجان ، أي ألا تعاد الحكاية التي اكتويت بها في صوفيا في المهرجان السابق . وبعد أن كبّلْنا تيسير بتعهداته القاطعة ، توجهنا سعيد وأنا إلى عرفات . واقتضى الأمر جولة مداولات أخرى وشروطاً أخرى وضعها القائد ورضي تيسير بها . وكان أول شروط عرفات أن يتشكل الوفد وفق تقديره هو وأن يتبع تيسير التعليمات التي يصدرها هو وليس أي مصدر آخر : «أنت رئيس وفد فلسطين وليس وفد الجبهة الشعبية» .

وفي المحصلة ، سمي تيسير رئيساً ، وتشكلت قيادة للوفد سميت أنا عضواً فيها . وتولى عميد الفنانين الفلسطينيين إسماعيل شموط إعداد الترتيبات الفنية . إسماعيل هو الذي صمم الزي الموحد لأعضاء الوفد ، الشابات

والشبان ، فجاء الزي ببساطته المتعمدة على أروع ما يكون عليه زيّ .

هنا ، سأصارحك بأن هاجس العمليات الخارجية لاحقني . وخلال متابعتي لهذه العمليات ، لاحظت أن عملية ما ، خطف طائرة ، أو مداهمة صالة ترانزيت ، أو إلقاء قنبلة على منشأة مدنية ، تقع في بلد أو غيره في كل وقت يبدو فيه أن سمعة الفلسطينيين تتحسن أو أنهم يحققون مكسباً أو أن إسرائيل في مأزق . وقد بحتُ بهاجسي هذا في خلوة مع عرفات حضرها سعيد حمامي ، وأتبعت البوح بالتحذير : «المهرجان مناسبة عالمية يتجلى فيها الوجه الإيجابي لكفاح الفلسطينيين وتأييد التقدميين لهم . وأنتَ في المهرجان ضيف شرف ، وفي هذا تعزيز لمكانتك ومكانة الثورة ، وأنا أخشى أن تشوّه عملية خارجية هذا الوجه» . فأبدى عرفات تفهمه لهذا التحذير وجزم : «فتح» لن تفعلها .

حملتْ وفدَنا الذي بلغ مائة وثلاثين باخرةُ ركاب كبيرة وأنيقة خصصها الاتحاد السوفياتي لنقل الوفود العربية التي تجمعت من دول المشرق في ميناءي طرطوس السوري وبيروت اللبناني . وكان في الباخرة التي تولى شبّان سوفيات خدمتنا فيها كلُّ ما هو لازم للإقامة والرياضة والترفيه والنشاط الثقافي . وبالنسبة لي ، كانت هذه هي المرة الأولى التي أركب فيها باخرة من هذا المستوى . وقد صعد بعض وفدنا الفلسطيني إلى الباخرة مع الوفود التي تجمعت في طرطوس وانضمت إلينا بقيةُ وفدنا والوفود الأخرى في بيروت . وأبحرت الباخرة إلى قبرص حيث انضم وفدها إلينا ، ثم إلى اسطنبول ، ثم عبرت المضيقين الشهيرين إلى البحر الأسود ورست بنا في ختام إبحار ستة أيام متصلة في ميناء كونستنزا الروماني . وكانت تلك ، بأجوائها التي يعطرها ألق الشباب ، رحلة العمر .

إلا أن عربنا ، وخصوصاً منهم فلسطينيينا ، لا يتقنون التمتع بالراحة ولا

ينحّون الهموم التي تشغلهم مهما طابت الأجواء ، حتى وهم في عرض بحر هدأت صفحته وصفت سماؤه ورقت نسائمه . أما هموم الرحلة ذاتها فما أشدّ ما أرهقنا بعضها . وقد بدأت هذه الهموم مع بداية الرحلة حين حظر الأمن السوري على الذين تعرف عليهم من أعضاء الحزب الشيوعي الأردني الصعود إلى الباخرة ، لا لشيء إلا لأن علاقة الحزب لم تكن آنذاك على ما يرام مع سورية ولأن الموكلين بتشكيل الوفد الأردني ، وهم في المقام الأول الشيوعيون ، لم يخصصوا للبعثيين الأردنيين النسبة الكبيرة في الوفد التي طلبوها . وتوالت الهموم مع الخلافات التي نشأت حول توزع الحجرات والكبائن والأسرة الموجودة فيها . ومع الخلافات ، غلبت الفوضى وانتعشت الوساطات فتعززت هذه الفوضى . ثم جاءت المشاكل التي يشغلها سعي الشبان إلى الاحتكاك بالشابات ، وما كان أكثرها !

ولأن آلام الداء الذي يستوطن عامودي الفقري كانت تفتك بي ، فقد عزمت على منح نفسي فترة راحة ، وأعلنت هذا بصريح العبارة : «سأمنع نفسي عن أي شغل ، بما فيه الشغل على البنات ، وسأنصرف إلى السباحة والتمارين الرياضية وأتمتع بالشمس والهواء النقي» . ولم يلبث أن انضمّ إليّ آخرون ، خصوصاً أصحابي الذين فشلت محاولاتهم التقرب من الشابات والشابات الباحثات عن حسن السمعة . وما هو إلا يوم وبعض آخر حتى صارت شلتنا أكبرالشلل ، وصار عدد الشابات فيها أكثر مما في أي شلّة . فطاب السمر وانتعش المرح ، وصدحت الموسيقى وحلا الرقص . وصار بار الباخرة يؤوينا آخر المساء فيمتدّ السهر . ولو كان على الباخرة ديوك لصاحت جميعها قبل أن يؤوي أي منا إلى مهجعه .

انضمّ إلى شلتنا بعدما تأكد حضورها البارز اثنان رفضا الانضمام إليها في البداية لأنهما رفضا شرطي بأن لا شغل على البنات . الاثنان هما عماد

شقور بمرحه المتميز وقد رضخ للشرط بعد أن أعياه الجري دون طائل ؛ وأحمد دحبور بشهرته شاعراً ووجهه الذي يجتذب الأنظار ، هو الذي يشبه الممثل عمر الشريف حتى لتكاد تتصور أنه توأمه . وقد رضخ أحمد للشرط لأنه ، حسب تشنيعي عليه ، لم يجد في هذا الجوّ متقدمات في السنّ يأنس إليهن . واجتذبت سمعة الشلة جميلة صيدم «أم صبري» زوجة صديقي القائد الفتحاوي ممدوح صيدم «أبي صبري» الذي كان قد توفي قبل وقت قصير . وقد ظلت أم صبري تتذكر زوجها وتتحسر على غيابه طيلة الوقت ، وكانت تتذكره بحرقة أشدّ : «آه لو كان هنا !» ، كلما ظفرنا بلحظة مرح . فتوجب علينا أن نواسي المفجوعة ، وإن ظل من الممكن أن نستغيبها حين نغيب عن نظرها .

ولأن للشعر دوراً في أي محفل عربي ، ومحفلنا على الباخرة فيه هذا العدد من السميعة الخالين من المشاغل ، ولأن كل وفد صحب شعراء من بلده ، فلم يكن شاعرنا أحمد دحبور في الميدان وحده . وقد نبتت ، ونحن نراقب مناورات الشعراء بعضهم إزاء بعض ، فكرة تنظيم أمسية شعرية . فتحمس صديقي السوري عطية الجودة للفكرة بما هي فرصة لنشاط . وتعهد السوفياتي أليك فامين توفير ما يلزم لإنجاح الأمسية ، وبرزت أعقد المشاكل : من يسبق من على المنبر ومن يتأخر . جاء الوفد السوري بشيخ شعراء البعث سليمان العيسى ، فكرمناه بأن جعلناه آخر من يصعدون منبر الأمسية فيكون مسك الختام . وشاء أحمد دحبور أن يتقدمه فايز خضور نجم الشعر السوري الحديث الطالع فيما شاء فايز أن يعقب أحمد . شاء كل من الشاعرين أن يسبقه أخطر منافسيه ليختار هو بعده ما يبزّ منافسه . واحتار أليك بين الفلسطينيين والسوريين . وانحاز عطية لفايز وانحزت أنا لأحمد بالطبع . وأجرينا قرعة فظفر أحمد بمراده ، وتصور أنه ظفر به بسبب نفوذي ، فلم أصحح تصوره .

وعندما صعد فايز المنبر ، كان محقوناً باستيائه وانعكس احتقانه على مسلكه ، فبادأ الجمهور الذي صفق تحية له بعبارة صدمت هذا الجمهور : «لا تصفقوا لي ، استمعوا إلي أولاً ، وإذا لم يعجبكم شعري فابصقوا عليّ !» ، فخسر استجابة المستمعين له حتى قبل أن يسمعوا شعره ودون أن يبصقوا على أيما أحد . واختار أحمد أشهر قصائده آنذاك وأشدّها اجتذاباً للجمهور : الولد الفلسطيني ، وتفنن في إلقائها وظفر بأتمّ استجابة . وألقى شعرهم شعراء كثيرون إلى أن جاء دور مسك الختام . وقد تفنن عريف الأمسية ، وهو سوري ، في تقديم سليمان العيسى فأطنب وأطال . وما أن ألقى شاعر البعث الأول أول أبياته ، وقبل أن يتمّ الثاني ، حتى هدر في السماعات المثبتة على الجدران صوت مدبّرة المطعم مذكراً ركاب الباخرة بأن موعد تناول العشاء قد حل وفات ، فعليهم أن يتوجهوا فوراً إلى المطعم . هدر الصوت بالروسية . وارتبك الشاعر الذي يربكه في العادة أي شيء ، وانتظر إلى أن هدأ الصوت فأعاد إلقاء بيته الأول . لكن الصوت الهادر بالروسية قاطع صوت الشاعر وهو يلقي البيت الثاني : وهكذا ، عربية ، وروسية ، صوت الشاعر الذي ازداد توتره وصوت مدبرة المطعم الذي اشتدت نبرته الغاضبة . ولم يتح لنا أن نعرف بقية بيت سليمان العيسى الثاني .

كانت هذه كلها مشاكل مسليّة . أما المتاعب المضنية فواجهناها منذ وصولنا إلى كونستنزا . فهم في رومانيا لم يكونوا على وفاق مع السوفيات ولم يُبدوا أي حفاوة بنا نحن الذين أوصلتنا إلى مينائهم باخرة سوفياتية . أُبقينا على الرصيف عدّة ساعات تحت شمس الصيف اللاهبة . ثم حضر قطار عتيق . وَوُضع كلّ ثمانية منّا في مقصورة مخصصة لستة أشخاص . وفاض العدد عن عدد المقاصير ، فاكتظت الممرات . وفي غضون ذلك ، لم يهتم أحد بتقديم الطعام لنا . وعندما جيء إلينا بعد أن تحرك القطار بوجبات معبأة في

أكياس ورقية اتضح أن ما فيها كان خبزاً جافراً ولحماً مبرداً له رائحة تسدّ أي شهية . وبإمكانك أن تتصور ما حلّ بي ، أنا الذي بقي في هذا الوضع أربعة وأربعين ساعة متصلة ، وأيَّ آلام فتكت بظهري ! ولولا وقفتان قصيرتان في هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا حيث هبطنا من القطار لنستمع إلى ترحيب شبيبة البلدين بنا ، ولولا أن الهنغار والتشيك زودونا بوجبات يمكن أكلها ، لما أمكن أن أصل سالماً إلى برلين .

بحثت في القطار عن تيسير قبعة فعرفت أن صاحبنا هذا فارقنا في كونستنزا وأتم الرحلة إلى برلين بالطائرة . اختار تيسير ما يريحه وضن عليّ أنا المريض بأن أصحبه في رحلة الطائرة التي أستحقها وأحتاج إليها أكثر منه . وكان تيسير ونحن في الباخرة قد خذلني أيضاً وأخلّ بشرطي عليه . فقد طلبت أنا عقد اجتماع لوفدنا الفلسطيني لنناقش الموقف من وفد ركاح . أردت أن يذهب كل عضو إلى المهرجان وهو على بينة من الأمر ، فلا تتكرر حكاية صوفيا . وفي الاجتماع ، قلت رأيي كاملاً . وتوقعت أن يدعم تيسير هذا الرأي ، خصوصاً أنه مدين لركاح بالكثير من الجهود التي خففت عنه في السجن الإسرائيلي ووسعت حملة التضامن العالمي معه . إلا أن صاحبي تذرع بأنه رئيس للوفد كلّه ، المتحمسين منه لركاح والمعارضين ، فهو يمتنع لهذا عن تحديد موقف . ولم يكن هذا من تيسير سوى حياد ظاهري . فهو لم يتورع عن التعريض بآرائي : «أنا من قلقيلية ، نعم ، لكن فلسطين كلها وطني مثلما هي وطن الفلسطينيين كلهم» . بهذا قدم تيسير لحديثه ، ثم ختمه بالتحريض : «لو كانت فلسطين ملكاً شخصياً لآل قبعة لربما جاز لي أن أفرط بها وأسامح الإسرائيليين وأميّز بين شيوعي وغير شيوعي فيهم . ولكن فلسطين ليست ملكاً شخصياً أجود به على أعضاء ركاح ، فتناقشوا ، وقرروا ما يريح ضمائركم !» .

بمتاعب القطار والسخط على تيسير، وصلت إلى برلين وأنا جاهز للعراك مع أيما أحد. ولو بقي لي حَيْلٌ فعلاً لتعاركت مع تيسير دون شك. كان هو في محطة القطار بين الذين جاءوا لاستقبالنا، ويبدو أنه استشعر شيئاً فقد تجنبني بل تجنّب أن تلتقي نظراتنا. وتوجب بعد كل تعبنا أن نقف في ساحة المحطة ساعة لا لشيء إلا لنستمع إلى خطب الذين يهنئوننا بسلامة الوصول. وكانت خطبة تيسير هي الأطول، وكم حقدت عليه!

وخلافاً للوفود التي أقامت في أبنية السكن الجامعي وما يماثلها من مجمعات كبيرة، خصص الألمان مكاناً منعزلاً لإقامة وفدنا، مكاناً يسهل، كما قالوا هم، حمايتنا فيه، وهكذا، حللنا في مدرسة تكتنف بناءها أفضيةٌ فسيحة ويضرب حولها رجال أمن علنيون ومتخفون نطاقاً لا يخترق. وبدا كل شيء في المدرسة على ما يرام، الترتيب، والنظافة، وانتظام الخدمة، وتوفر كل ما نحتاج إليه. ولم ينس مضيفونا أن يخصصوا لأعضاء الوفد الفلسطيني حتى مصاريف الجيب.

ياسر عرفات كان في المهرجان واحداً من سبعة ضيوف شرف تركزت عليهم الأضواء واستقطب هو معظمها. وقد خصصت لإقامة الزعيم الفلسطيني استراحة كبيرة من استراحات الدولة وتفرّغ لمرافقته حشد من المسؤولين والسكرتاريين والحراس. هذا الاهتمام بعرفات، ومثله الاهتمام بوفدنا عكسا اهتمام ألمانيا الديمقراطية بالشأن الفلسطيني وحرصها على إبرازه والتعريف به.

وها أنا ذا أتذكر زيارة عرفات لوفدنا في مكان إقامتنا. لم نُخطر بالزيارة مسبقاً، ففوجئنا بقدوم عرفات المباغت وفوجئ به القائمون على خدمتنا. وصل أبو عمار وسط حشد من الفلسطينيين والألمان الذين يحفّون به، ودخل المكان كما يدخل أي مكان يصل إليه: اقتحاماً، فخففنا إلى استقباله. ولا

أظن أن أحداً سعد بهذه الزيارة أكثر مما سعدت بها مضيفاتنا الألمانيات ، فقد توفرت لهن الفرصة ليمثلن أمام صاحب الكوفية الشهير ويخدمنه مباشرة ، كما توفرت فرصة التقاط الصور معه . وفي القاعة الكبيرة ، حيث توزعت موائدها القادمين والمرحبين بهم ، اقتيد عرفات إلى مائدة تتصدر القاعة وكان فاروق القدومي معه وجلسنا نحن أعضاء قيادة الوفد حوله . ولم تهتد مضيفاتنا إلى ما هو أهمّ من الشمبانيا لإظهار الحفاوة بالزائر الكبير فجئن بصناديق منها . وجاءت إلى مائدتنا كبيرة المضيفات ووقفت بجانب عرفات وفتحت أول الزجاجات وهمت بملء قدحه . راقبت هذا وأنا مدرك أن عرفات لن يشرب ، وطاب لي أن أعرف كيف سيتصرف . لم يكن من السهل أبداً إحراج عرفات ، إلا أنه بدا لي لحظتها محرجاً ، لكنه سرعان ما اهتدى إلى مخرج فأشار إلى معدته إشارة فهمت بها المضيفة أنه لا يشرب لأسباب صحية . وكان لاستخدام عرفات هذه الذريعة دون غيرها مغزى سرعان ما استثمرناه نحن الذين ليس في معدنا ما نشكو منه . وما أن أتمت المضيفة ملء أقداحنا حتى جلجل صوت فاروق القدومي في القاعة : «كأس الأخ أبو عمار ، يا إخوان !» . ولكم أغاظ سلوكنا عرفات ، فهو لا يجيز أن نشرب في حضرته ، ونحن فاجأناه وفوّتنا عليه فرصة منعنا . وقد ظل عرفات يبتسم للمضيفات السعيدات ويشتمنا نحن بالعربية : «إسكروا يا أولاد الكلب ، استغلّوا الحرج اللي أنا فيه !» . والواقع أن ما أمتعنا كان هو ، بالذات ، استغلالنا لحرج الرجل الكبير .

خصص منظمو المهرجان واحداً من أيامه العشرة ليكون يوم تضامن مع الشعوب العربية ضد الاستعمار والعدوان . وشاء مسؤولو الوفود العربية كلها أن تتركز النشاطات على الشأن الفلسطيني وحده ، وانهمكوا مع الوفد الفلسطيني في الإعداد لهذا اليوم . وهكذا ، انتظمت في يوم واحد عشرات الفعاليات ،

ندوات ، ومسيرات ، ولقاءات تضامن ومحاضرات ، وعروض أفلام ، وموسيقى ، وحلقات دبكات ، ورقص ، ومقابلات صحافية ، وولائم . وفي هذا اليوم ، كُرّست الثورة الفلسطينية في المهرجان بوصفها وريثة الثورة الفيتنامية ، وسلَّم ضيفٌ شرف فيتنامي الراية لياسر عرفات .

وفي سياق الفعاليات ، نُظم مؤتمر صحافي انعقد في المركز الذي بني خصيصاً لخدمة ألوف الصحافيين . وتحدث عرفات وحده في المؤتمر . كانت صالة المطعم التي تشغل طابقاً كاملاً في المبنى الكبير هي المكان الذي تنعقد فيه المؤتمرات الصحافية . وقد أُخلي جانب من الصالة من الموائد وأقيمت منصة جلس إليها عرفات فيما جلس قبالته قرابة مائة صحافي من مختلف الجنسيات جاءوا خصيصاً من أجل مؤتمره . وتوزعت موائد المطعم الباقية مئات أخرى . ويومها ، بدا أبو عمار في أحسن ما عرفت من حالاته ، فتلقى الأسئلة ، بما فيها أكثرها استفزازاً ، وهو هادئ لا تفارقه الابتسامة ، وقدم إجابات بارعة وسديدة . وقد أضفت الترجمة إلى الإنجليزية التي تولاها صديقي مازن الحسيني عضو اللجنة الدولية لمهرجان الشباب براعة إضافية على الإجابات واجتذبت أشدّ الانتباه . وفي مراقبتي لما كان يجري ، لاحظت أن الصحافيين الذين جلسوا إلى الموائد بعيداً عن المنصة أبدوا هم الآخرون اهتماماً بحديث الزعيم الفلسطيني ولم يصدر عنهم ما يشوش الجوّ .

وحين ضمّنا مجلس عرفات في استراحة الضيافة في المساء لتقييم حصاد اليوم الطويل ، قدّمت تقييماً للمؤتمر الصحافي انطوى على هذا الذي ذكرته لك . وكان في الجالسين صحافيٌّ من الذين يتملقون الزعيم الفلسطيني وقد تابع هذا حديثي بهيأة من ينتظر أن أزلّ فيدخل هو على الخط . ولما وفى حديثي بكل ما يمكن قوله عن المؤتمر وجاء بمجمله إيجابياً ، أُسقط في يد مترصدي . غير أن محترف التملق لم يعدم وسيلة يتميز بها ، إذ ما أن فرغت

أنا من حديثي حتى تناول هو الكلام : «لم يعرف الأخ فيصل واقعة مهمة» . وكانت الواقعة التي أضافها المتملق ، أو قل : اختلقها ، هي هذه : تعجل ليونيد بريجنيف معرفة ما يقوله ياسر عرفات في مؤتمره الصحافي . وليونيد بريجنيف ، إن كنت قد نسيت هذا الاسم ، هو من كان رئيس الدولة في الاتحاد السوفياتي والأمين العام للحزب الشيوعي الذي يحكمها والمتربع على واحدة من قمتي التوازن النووي الذي يحكم عالم الناس الأرضي ويؤثر على موقفهم من السماء . ووفق رواية المتملق ، اتصل بريجنيف بسفيره في برلين طالباً أن يزوده السفير بأقوال عرفات بأعجل ما يستطيع . ولأن السفير كان صديقاً للشعب الفلسطيني معجباً بعرفات وصديقاً شخصياً للراوي ، فقد شاور هذا الراوي في الأمر . وبنتيجة المشورة ، وَصَل خطٌّ هاتف مباشر صالة المؤتمر بالكرملين ، وجلس بريجنيف على نهاية الخط ، واستمع إلى ترجمة فورية لما قاله الزعيم الفلسطيني . وإلى هذا كله ، أضاف الراوي أن بريجنيف سعد بما سمع وقرظ سفيره على جهده .

قد تسألني عما إذا كان عرفات يصدق متملقيه . وجوابي اليقيني أن الرجل كان أذكى من أن تجوز عليه الحكايات المهوّلة ، إلا أنه ألف الاستماع إليها واستثمار ما يبتكره المنافقون لمصلحته .

وأياً ما كان عليه الأمر فإن أيام المهرجان توالت وأنا مستغرق في المشاغل والهموم والمشاكل . ولئن حرص تيسير على الوفاء بتعهداته لعرفات ، فقد أهمل معظم ما تعهده لي ولسعيد ، خصوصاً ما توخيناه حين رسمنا خطة تجعل عملنا منتظماً وتظهر نشاطاتنا بمظهر عصري لائق . وهكذا ، غاب النظام ، واضطرب التنظيم ، ووقعت الأعباء الكثيرة على عواتق الذين بادروا إلى حملها ، وتبعثرت جهود الآخرين . وقد توجب علي أن أمضي وقتي متنقلاً من مكان إلى غيره ومن مشكلة إلى أخرى دون توقف .

بالرغم من هذا، لم يخل الأمر من المباهج. فقد أسعدني أن ألتقي الذين قدموا من «البلاد»، ناس ركاح وغيرهم، هؤلاء الذين التقيتهم بالرغم من تعليمات تيسير الخاتلة. وأسعدني خصوصاً أن أتعرف على فيليتسيا لانغر المحامية اليهودية الشيوعية التي كرست جهدها للدفاع عن الفدائيين الفلسطينيين أمام المحاكم الإسرائيلية والتخفيف من معاناتهم. كما أسعدني أن أقع في الوفد المصري على صديق هو واحد من أعزّ أصدقاء العمر. لست أدري أي صدفة جاءت ببهجت عثمان في عداد الوفد المصري. لكن، ما كان أطيب الصدفة التي وفرت لي أن ألقى صديقي هذا في برلين! ولئن ضقت أنا بكثرة مشاغلي في وفدنا فقد ضاق بهجت بقعود وفده عن النشاط وتجاهل الوفد لوجوده هو الفنان الكبير فيه. وهكذا، لازمني بهجت منذ وقعت عليه في يوم المهرجان الخامس، بل قل إنه انتقل عملياً إلى الوفد الفلسطيني ووضع موهبته وحيويته وريشته النفاذة في الخدمة. وشكلنا، بهجت وأنا، ثنائياً ينتزع من وقت المشاغل لحظات للمسارة ويبتكر الطرائف المرسومة والمحكيّة ويوزعها.

وفي إحدى الأماسي، تاقت نفسي إلى الانعتاق من أسر الهموم الفلسطينية، فصحبت عماد شقور في جولة من جولات سعيه المتكررة إلى المتعة بعد أن اشترطت عليه أن نتمتع على طريقتي أنا وقبل هو الشرط. وفي تجوالنا المرسل بغير خطة، انتهينا إلى «السنتروم» أي مركز المدينة والساحة التي تتوسطه حيث ينتصب برج برلين الشهير وهامته التي تقول لك إن طموح البشرية إلى الأعالي مستمر. هنا، كانت جموع الشباب الذين لا تثقل عليهم الهموم التي تثقل على كواهلنا تلتقي كل مساء وترقص على وقع الموسيقى التي تصدح على امتداد الساحة الفسيحة. ووجدنا أنفسنا مندمجين في الجمع الراقص تحت الأضواء التي تتناوب فيها الألوان مع إيقاعات الموسيقى،

ووجد كلٌ منّا بين ذراعيه ألمانية يراقصها .

ويبدو أن عماد راود ألمانيته عن شيء واستخلص أنها مستجيبة . وقد اجتذبني عماد أنا وألمانيتي إلى خارج المجمع ، وهمس : «لا بد من أن نفعل ما يفعله الشباب» وعلي أن أقر بأن الهمس أثّر فيّ ، مع أنني ، أنا ابن الرابعة والثلاثين ، لم أكن ذلك الشاب الذي يندفع بغير حساب إلى مغامرة عابرة . وعندما صرنا في الشارع تحت أضواء النيون الساطعة ، تأملت وجه الفتاة فصدمني أني أصاحب طفلة لا يزيد عمرها في أي تقدير عن عقد ونصف عقد ، وكانت الفتاة الأخرى في العمر ذاته . ولحظتها ، غابت السكرة ، كما يقولون وجاء ما حرّك ضميري : إنني في سن والد الفتاة ولعماد مثل سنّي فما أخبث أن نستغل طيبة طفلتين ! ووجدتني أسأل الفتاتين : «متى تذهبان في العادة إلى النوم» ، فجاء الجواب : «في العاشرة» . فنظرت إلى ساعتي : «تأخر الوقت كثيراً» ، ثم تمنيت للفتاتين ليلة طيبة وجذبت عماد وابتعدت به عنهما . ولم يستسغ عماد مشاعري التي سماها أبوية في غير محلّها ، بل رماني صراحة بهذه التهمة : «معقد !» ، ثم لم يكفّ عن تقريعي إلا بعد أن وعدته بأن نفعل معاً في اليوم التالي ما يفعله الشباب .

وكان اليوم التالي يوماً للتضامن مع كوريا فقلت لأصحابي : «تضامنت مع هذا البلد منذ كنت تلميذاً في المدرسة الإعدادية ونلت بسببه فلقة على يد الشرطة فوفيت بواجبي تجاه هذا البلد كله» . تنصلت ، إذاً ، من مهمة التضامن مع كوريا في كفاحها ضد الإمبريالية وتضامنت مع عماد في كفاحه الآخر . ولأمر ما ، طابت صحبتي لعماد في ذلك اليوم ، فانقاد لي ولم يتشدد في معارضتي . وفي جو تغلبت فيه الرغبة في الهذر على الرغبة في الإيقاع بأي فتاة ، جلنا في الشوارع ساعتين أو ثلاث . وعندما استوقفنا أول فتاتين وعرضنا عليهما صحبتنا ، تبين أنهما مشغولتان في ذلك اليوم ، إلا أنهما على

استعداد للتفرغ لنا في اليوم التالي . ولكي لا أبدو كأني أفوّت فرصة أخرى على عماد ، وافقت على عرض الفتاتين وتحدد الموعد : «غدا ، العاشرة صباحاً أمام فندق بيرولينا» . كنت أعرف أني لن أجيء إلى هذا الموعد . وكان عماد يعرف ، فقدّر مناورتي أنا الذي لم يشأ أن يحرمه من الفرصة إن شاء استغلالها . غير أن صاحبي كان متعجلاً ، فاستوقفنا فتاتين أخريين ، فتكرر التذرع بالمشاغل ، فكررت المواعدة : «العاشرة صباح غد أمام بيرولينا» . واستهوت مزحتي عماد هذا الذي قد ينسى أمه وأباه ذاتهما إذا تعلق الأمر بمزحة بارعة . وصار هو الذي يستوقف أي فتاتين ويضرب لهما الموعد ذاته : «العاشرة . . .» . حتى لو كانتا على استعداد لمصاحبتنا فوراً . ثم لم يذهب أي منا إلى الموعد ، شغلني التضامن مع بلد ما ، وتأخر نوم عماد فلم يصح إلا بعد العاشرة .

هذه الوقائع أجّجت شوقي إلى الألمانية التي آمل في أنك ما تزال تتذكر حكايتي معها ، نينا التي رافقتني قبل سبع سنوات في زيارتي الأولى لألمانيا الديمقراطية وصار لي معها شأن تبعته شجون . لم أنس نينا في هذه السنوات ، ولكن مشاغلي المتتالية وسفراتي المتواترة وانتقالاتي من حال إلى غيره طغت على اهتمامي بها ، والخشية من الرقابة التي تتلصص على المراسلات منعتني عن متابعة الكتابة لها . وعندما وصلت إلى برلين ، أدرت رقم هاتف نينا فاتضح أن الرقم وكذلك الشقة صارتا لغيرها ممن لا يعرف عنوانها الجديد ، وهاتفت بعض من تعرفت عليهم معها فلم يعرف أحد أين هي . وعلى كثرة ما شغلني في المهرجان ظل الشوق إلى نينا يراودني . وربما كان في هذا ما يفسر عزوفي عن فعل ما يفعله الشباب . وعندما دنت نهاية أيام المهرجان وتصورت أني ساغادر برلين دون أن التقي نينا ، اشتدّ ضيقي . لكن الفرج لا يطيب إلا حين يبزغ في إبّان الضيق . وكم طاب لي أن أتلقى دعوة خاصة

للبقاء في برلين بعد انتهاء المهرجان ضيفاً لمدة أسبوع على قسم الصحافة في وزارة الخارجية ، فقد أدركت أنه صار بإمكاني ، إذاً ، أن أجد وقتاً للبحث عن التي أتوق إليها . هذه الدعوة وفرها لي ، على ما بدا لي ، صديقي القديم ألفرد مارتر . وكان ألفرد قد ترك منصب سفير بلده في دمشق قبل بعض الوقت ونُقل إلى برلين حيث أُوكل إليه منصب هام في مقر اللجنة المركزية لحزبه الإشتراكي الألماني الموحد الحاكم . وفي جلسة ضمتنا واستعدنا فيها شؤوننا الحميمة ، رجوت صديقي أن يعينني في بحثي عن نينا فعرف ما عرفته من تبدل وضعها ، دون زيادة . ثم جاءت هذه الدعوة فجأة فحزرت أن ألفرد هو الذي اقترح توجيهها إلي .

وفي المساء الذي سبق مغادرة الوفد ، وكنّا قد فرغنا من نشاطات المهرجان ، حملني الشوق المتأجج إلى فندق بيرولينا الذي شهد لقائي الأول بنينا . وهناك جلستُ في البار وسرحتُ مع الذكريات ، وداهمني هذا الهاجس : ماذا لو لم أعثر عليها أنا الذي ما تأخر إلا بأمل اللقاء . ومع الهاجس ، انبعثت الفكرة الهادية فجأة ، فلجأت إلى دليل الهاتف ورحت أهتف لكل صاحب اسم في دليل برلين يحمل لقبها العائلي بأمل أن يعرفها أي منهم . وبعد عناء ومشاحنات ، ردّ صوت رجل مخمور وقال بإنجليزية يتخبط في إنشائها : «نعم ، أنا أخو نينا ، ما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك؟» .

وما أن حصلت على رقم التي اتضح أنها تسكن في ضاحية بعيدة حتى هتفت لها . وجاء الصوت ، فرحاً وغير مفاجأ : «كلمني أخي منذ لحظة ، فأدركت أن غريب الأطوار الذي يتصل بالغرباء بعد منتصف الليل لا بدّ من أن يكون أنت» . ثم غاض الفرح فجأة : «اسمع ، تبعد ضاحيتي عن برلين ثلاثين كيلو متراً ولا يمكن أن أجيء الآن . أنا في وضع لا يسمح بإطالة

الحديث ، انتظرني صباح الغد ، في العاشرة ، في بيروليننا !» . وقد انتظرت بالطبع . غير أن الانتظار امتدّ ساعة واثنتين دون أن يجيء أحد . وتناوبتني الهواجس ، هل بدلت رأيها ، من أنا بالنسبة لهذه الألمانية بعد غياب سبع سنوات ، لماذا أذنت لنفسي بأن أزعجها . وقررت أن لا أتصل ثانية . إلا أن قراري تبدد بعد لحظات ، فطلبتها وأنا حانق عليها وعلى نفسي . وجاء صوت مرتبك وعبارة وجيزة : «لا أستطيع أن أشرح لك . انتظرني في الثالثة بعد الظهر ، سأجيء بالتأكيد» . وقد جاءت .

كانت القامة التي تميزها حيويتها الشديدة محتفظة بتميزها ما تزال ، وإن بدت صاحبتها منهكة . وكان الوجه الذي بقي له جماله كلّه شاحباً شحوباً ظاهراً . غريتا غاربو مرة أخرى ، إلا أنها حزينة هذه المرة .

بسبب حكايتها القديمة معي ، عانت نينا كثيراً بعد افتراقنا ؛ هذا هو ما ابتدأت بقوله حين شرعت تقصّ علي ما جرى لها في غيابي . كانت علاقة نينا بزوجها معطوبة قبل أن أتعرف عليها . ذكرت هي لي شيئاً عن هذه العلاقة في زيارتي السابقة لكني لم أتوقف عنده . والآن ، في اللقاء المتجدد ، فاضت التفاصيل . زوج نينا عالم فيزياء يعمل في مؤسسة أكاديمية ، التقته نينا وهي في إبّان افتتانها بالشيوعية وأحبته بالرغم من أنه ليس عضواً في حزبها . كان للزوج شخصية مركبة أو قل : مزدوجة ، فهو يجاري الشيوعيين وأعداء النازية في النهارات حين يكون بين الناس ثم يجد نفسه مشدوداً إلى أفكار النازيين حين يحلّ بمنزله في الأماسي ، ويبدو أن الرجل كان يتمزق بين التأثيرين . أما نينا فكانت حازمة في كرهها للنازية . وجاء وقت بلغ فيه حال الزوج حداً لم تعد هي تطيقه . وكان هذا هو الوقت الذي التقيتها فيه أول مرة . وربما كان هذا هو سبب انجذابها إلي ، ليس لأن التي تبغض زوجها قد تنجذب إلى غيره بل لأنها أدركت كم أنا متحرر من النوازع العنصرية . ولعلك

تتذكر كيف استقصت نينا، وقتها، موقفي من اليهود وكيف أعجبها أني مبرأ من أي مشاعر لاسامية. أحبتني نينا حباً لم يبهته غيابي الطويل عنها، هكذا قالت، أحبّت الشخصية المختلفة عن شخصية زوجها، هكذا فسرت أنا الأمر. لم أكن الوحيد الذي أنشأت نينا علاقة به من وراء ظهر زوجها، لكنني الوحيد الذي ظلت متعلقة به وهو ناءٍ عنها. وفي واحدة من مشاحناتها المتواترة مع زوجها، باحت نينا الغاضبة بمشاعرها، ذكرتني في معرض المقارنة بين تحرري من العنصرية بالرغم من ظروفي وعنصريته هو مع أنه يعيش في دولة جعلت إطفاء الروح العنصرية على رأس جدول أعمالها. وعرف الزوج الحكاية ونسب إليها فتور زوجته وأفرط في الالتجاء إلى الكحول. وانتهى الأمر إلى انفصال الزوجين بقية السنوات التي غبت أنا خلالها. وفي هذه السنوات، بقيت ثمرة الزواج الوحيدة، وهي ابنة جميلة، عند أمها. وحاول الزوج أن يستعيد زوجته ويعود إلى العيش مع ابنتهما، حاول، وكرر المحاولة دون انقطاع. وظلت نينا تصدّه مرة بعد أخرى. وحين لانت نينا أمام رجاءات الزوج ووعوده لها بأن يتبدل وحاجة ابنتها، حدث ما لا يقع إلا في الحكايات؛ فقد ظهرت أنا في أول ليلة يقضيها الزوج مع زوجته بعد انفصال سنين: «كنت معه في السرير، وحاولت أن أطوّع نفسي للاستجابة له. وفي اللحظة التي ظننت أني أفلحت في تغييبك عن مخيلتي، جاءت مكالمة أخي وعرفت أنك موجود وقريب».

أدرك الزوج ما أدركته نينا، إلا أنه تشبث بفرصة المصالحة، وأنذرها: «إن ذهبت إلى هذا العربيّ فلن تري وجهي مرة أخرى ولن تراه ابنتنا». وكان هذا إنذاراً من السهل أن تستهين نينا به: «لا تشوقني رؤية وجهك، والبنت كبرت بما فيه الكفاية». وهدد الزوج زوجته الجافية بأنه سوف ينتحر، فلم تحمل هي تهديده على محمل الجد: «سأذهب إلى موعدي، ولك أن تفعل

بنفسك ما تشاء !» . وفي الصباح ، هيأت نينا نفسها للخروج واتجهت ناحية الباب فوجدت أن زوجها أقفله وأخفى المفتاح ، وعندما تلقت مكالمتي الثانية كان الجدل بينهما ما يزال متقداً ، بقي هو على عناده وحزمت هي أمرها : «سأخرج إلى الموعد الجديد ، وإن منعتني فإني سأستنجد بالشرطة» .

شئت أن أعتذر لنينا عما سببته لها من أزعاج ، لكنها أوقفتني : «أنت لست مسؤولاً عما حصل ، هذا رجل فاشيّ وجبان ، تصور أنه ، عالم الفيزياء هذا ، حمل سكيناً وهددني بها ! إنس أمره !» . وكانت أمامنا سبعة أيام حافلة . جاء المرافق الذي أوكلت إليه وزارة الخارجية أمري ومعه برنامج غني ، لقاءات ، وجولات ، وزيارات لأماكن أثرية وأخرى حديثة . واكتشفت نينا أن المرافق من معارفها القدماء وسرعان ما تفاهمت معه فسمح لها بأن تصحبنا إلى أي مكان نذهب إليه ، فلم نفترق طيلة الأسبوع ، لا في الليل ولا في النهار .

أما بقية الحكاية أو قل : خاتمتها ، فإني سأستبق سياق حديثي إليك وألبّي فضولك إلى معرفتها . ولك أن تعرف ، إذاً ، أن علاقتي أنا الآخر بزوجتي ساءت واستفحل سوؤها وانتهى الأمر بعد سنوات إلى الطلاق ، وإني جئت بعد الطلاق إلى برلين في مهمة أخرى . وكان أن لقيت نينا بالطبع فعرفت أن زوجها صالحها مرة ثانية بعد فراقنا الثاني ، غير أن حياتهما لم تنتظم . تفاقمت عقدة الرجل ، وانكبَّ على الشراب إلى أن أدمن ، وكادت هي الأخرى تدمن الشراب ، واتصلت المشاحنات ، كل هذا فيما البنت تكبر وتتشرب الجوّ الكريه . وبعد واحدة من المشاحنات ، ترك الزوج نينا وابنتهما على الشرفة وتوجه إلى المرآب وأخرج السيّارة ، ثم وجه مقدمها ناحية صخرة في طرف الحديقة وصدمها ومات داخل السيارة .

في تلك الزيارة ، دعتني نينا إلى منزلها الجديد في برلين ، وأعدت مائدة

لائقة ، وكانت البنت التي غدت شابة حاضرة ، وكان على المائدة طفل في السادسة ظاهر الذكاء تبنته نينا وضمته إلى الأسرة بعد انتحار زوجها . ولم يَفُتْني أن ألاحظ أن الشابة والطفل لا يرحبان بوجودي حتى وإن تصرفا بأدب . وعندما أرادت نينا أن تستبقيني لأبيت عندهم وعرفت الشابة ذلك ، قالت هذه شيئاً بالألمانية ، وأضاف الطفل شيئاً ، وكان سخطهما أظهر من أن يخفيه أي تأدب . وعندما جذبتني نينا جذباً لتدخلني حجرة النوم ، وقف الاثنان بباب الحجرة صراحة وسدّا الطريق .

لحظتها ، هجست بأن الحكاية القديمة قد تتكرر . وبدل حجرة النوم ، توجهت إلى باب الخروج . وفهمتْ نينا ، فارتدت معطفها على عجل وقالت : «سأذهب معك إلى الفندق» . ثم سارت نينا بجانبي وهي صامتة إلى أن بلغنا موقف الباص . هناك ، قالت نينا كلمتين : «أنت تفهمني» ، وقبلتني قبلة وداع ، وعادت إلى أسرتها ، ثم لم أرها بعد ذلك ولم أسمع عنها .

١٦

في الحرب: ظرف طارئ وفرصة لم تدم

عدت إلى دمشق نادماً بعض الشيء على أني تخلفت عن ربعي مع أنني وصلت إلى المدينة ، أنا الذي جاء بالطائرة ، في اليوم ذاته مع الوفد الذي عاد بالقطار والباخرة . وغرقت بكليتي في الجو المشحون بنذر الحرب التي تتواتر في أجواء المنطقة . كنّا في أواخر صيف ١٩٧٣ ، فكنا قاب قوسين ، إذاً ، أو أدنى من الحرب العربية ـ الإسرائيلية الرابعة .

وقتها ، لم يصدق كثيرون أن النذر تشي حقاً بأن الحرب واقعة لا محالة . أما أنا فقد صدقت . لم أكن أَصدق فراسةً من المكذبين . لكني أتقنت الربط بين الإشارات المتفرقة فأفلحت في استخلاص دلالاتها الصحيحة .

سمى الرئيس أنور السادات العام ١٩٧٢ عام الضباب . وقد انصرم العام دون أن ينجلي ضباب الرئيس المصري عن شيء . بل إن ما فعله الرجل في هذا العام جعل من العسير أن يصدق أحد أنه يعتزم الدخول في حرب ضد إسرائيل . وعندما سمى السادات العام ١٩٧٣ عام الحسم ، لم يقتنع الناس بأنه سيحسم أي شيء ، خصوصاً أن الرجل أوغل في تدابيره التي ألبت الرأي العام ضدّه . وفي سورية ، لم يقل الرئيس حافظ الأسد شيئاً زيادة على القليل الذي ألف قوله دون الإفصاح عن نواياه المخبأة .

أما خلف ضباب السادات وتكتم الأسد ، فكان من شأن المراقب المدقق أن يستخلص أشياء لا تفصح ظواهر الأمور عنها بسهولة . وفي الوقت الذي أحدثك عنه ، كانت الاتصالات المعلنة والمكتومة ، السياسية والعسكرية ، بين القيادات السورية وبين القيادات المصرية ناشطة نشاطاً لم أته في فهم مقاصده . وكانت التدريبات العسكرية على أنواع بعينها من القتال تتوالى ، والمناورات ، والاستنفارات التجريبية التي اشتد تواترها . وكان أصحابي في المؤسسة الاستهلاكية ، وأقربهم إليّ منير الحمارنة رئيس قسم التخطيط ومنير الحمش المدير العام ، منهمكين في تخزين الاحتياطات الغذائية وحجبها عن الأعين . ولم يفتني أن ألاحظ الصلات التي انتظمت بين ناس المؤسسة الاستهلاكية وبين مؤسسات عسكرية مما لا يوجبه عمل المؤسسة المدنية في الأحوال العادية . وكان تكتم أصدقائي الدبلوماسيين السوفيات قد اشتد فأوحى إليّ اشتداده ذاته بأنهم منصرفون إلى أمر غير مألوف .

في غضون ذلك ، أصدر السادات قراراً بتنحية قرابة مائة وخمسين صحافياً مصرياً عن العمل في المؤسسات الإعلامية . وكان أصحابي من الصحافيين المصريين بين المنحيين ، بل إن بإمكاني القول إن جلّ الذين نحّوا كان من أصحابي ، ومعظمهم كان من نجوم الصحافة ومن الداعين إلى التشدد في مقاومة العدوان الإسرائيلي . وقد اقترنت التنحيات بإجراءات مهينة ، إذ أُحيل الصحافيون إلى العمل في مؤسسات لا صلة لها بمهنتهم . وكان من ذلك ، مثلاً ، أن عبد الرحمن الخميسي الأب الروحي لأجيال من الفنانين والأدباء والصحافيين ، أحيل إلى العمل في وظيفة ثانوية في شركة باتا ، المؤممة ، للأحذية .

أفزعني ما وقع للصحافيين ، خصوصاً أنه تزامن مع إقدام السادات على طرد الخبراء السوفيات العاملين مع الجيش المصري . فعزمت على السفر إلى

القاهرة لأكون بجانب أصحابي في محنتهم وأستقصي أحوالهم . وشجعني عرفات على السفر وواعدني على اللقاء في القاهرة . وهناك ، وجدت أصحابي وقد استعدّوا للعراك مع السلطة وراحوا ينظمون صفوفهم ويحرّضون ويحشدون الأنصار . وما أن وصل عرفات إلى القاهرة حتى استدعاني واختلى بي . وفي هذه الخلوة ، صدر لي من عرفات واحد من التوجيهات السافرة القليلة التي لا يصدرها إلا نادراً . دعاني أبو عمار إلى أن لا أتأثر بما سماه هبل أصحابنا ، وذكرني بأن الضغوط المناصرة للصحافيين أفلحت في حمل السلطة على عرض تسوية تعيدهم إلى مؤسساتهم الإعلامية ، وحذر من موقف أصحابي الذين يركبون رؤوسهم الحامية ويضعون شروطاً بين يدي قبولهم التسوية لا ترضى بها السلطة . وقال عرفات إن الحرب على الأبواب ولو اشتعلت الحرب وهؤلاء خارج الصحافة فستفوتهم الفرصة إلى الأبد وستنجح السلطة في تصويرهم على أنهم عملاء للسوفيات وسيصدقها كثيرون . ثم صدر التوجيه : «تفرغ لأصحابنا ، لا تُضع لحظة ، وأَقنعهم بأن يقبلوا أي تسوية مهما قست شروطها ويكفوا عن منازعة السادات !» . وأوصاني أبو عمار بأن لا أطلع أصحابنا على أن له دخلاً في الموضوع .

وإذا كان عرفات قد كلفني أنا هذه المهمة فلا أشك في أنه كلّف آخرين غيري المهمة ذاتها في صورة أو أخرى وأن كثيرين غيره فطنوا إلى ما فطن إليه هو وتجنّدوا للمهمة دون تكليف . وهكذا ، نشطت خلال أيام حملة هائلة التأثير لتسوية المشكلة وكنت أنا بالطبع واحداً من المنهمكينً فيها . وقد خضت أشدّ المناقشات لأقنع أصحابي بالتهدئة . وقدمت مسوّغي : الحرب على الأبواب . ولأن أصحابي ألفوا السخرية من الكلام عن الحسم فقد شملوني بسخريتهم وشككوا في نباهتي . ولم أخلف أنا وعدي لعرفات ، فلم أقل لأحد إنه هو الذي أكد لي على أن الحرب قادمة .

وقتها ، وصل إلى القاهرة فاروق القدومي ورافق عرفات في لقاء مع السادات . ويبدو أن رئيسي الجديد في الدائرة السياسية ، هذا ، قد تلقى التوجيه ذاته الذي تلقيته أنا فتحامل على ضيقه بي وطلب أن أرتب لقاء له مع زعماء الصحافيين المنحيين على أن لا يعرفوا أن اللقاء يلتئم بناءً على طلبه . وما أسهل ما أمكن إقناع نبيهة لطفي وعلي مختار بتنظيم سهرة في منزلهما ، ففاروق صديق قديم للاثنين منذ كانوا كلهم بعثيين والصحافيون من أعزّ أصدقائهما . وقدّم القدومي تحليلاته فجابهه أصحابي بما يغايرها . فلم يجد المتكتم على السر بداً من البوح به : «أبلغ إلينا الرئيس السادات رسمياً» وكرر «رسمياً» وشدد عليها «أن الحرب قادمة ، وطلب أن نستعد لها ، ولم يبق إلا تحديد ساعة الصفر» . وكانت واقعة الإبلاغ الرسمي هذه جديدة حتى علي أنا .

رجعت إلى دمشق وأنا أشدّ يقيناً بأن على الأبواب حرباً استعدت مصر وسورية لها . ويحت بهذا لأصدقائي ، فكان منهم المصدق والمشكك والمكذب . وفي سهرة الشلّة طغت توقعاتي وردود الفعل ضدها على الحديث . واستمع منير الحمارنة إليّ وهو صامت ، وحين انصرفنا همس في أذني : «توقعاتك دقيقة» ، ثم لم يضف شيئاً .

بعد أيام ، كنت في الطريق إلى منزلي لأستقبل الرائد عبداللّه البرقاوي رئيس شعبة مخابرات جيش التحرير الفلسطيني الذي دعوته إلى العشاء . فعرّجت على فرن الرئيس في أعلى شارع الصالحية لأشتري الخبز . وهناك ، لفت نظري أن ضابطاً كبيراً يقود فرقة مدرعة مرابطة في الجبهة جالس في سيارة جيب عسكرية مموهة بانتظار سائقه الذي يشتري له الخبز . وعندما جاء عبداللّه البرقاوي ، قلت له بثقة لا وهن فيها : «ستبدأ الحرب غداً» ، ثم تمثلت بقول الشاعر «وإن غداً لناظره قريب» . وفي الصباح ، هتف عبداللّه : «جاء

غدك ولم تبدأ أي حرب» . وللحق ، فقد تصورت أني أخطأت استخلاص الاستنتاج السديد لمغزى مشهد قائد الفرقة ، ولكنني كابرت وقلت لعبداللّه : «لم ينته النهار بعد ، ما زلنا في أوّله» . فرنّت في الهاتف ضحكة ، وانتقل صديقي إلى موضوع آخر .

في الظهيرة ، عرّجت على السوق العتيق لأشتري فاكهة المنزل . فلاحظت بغير عناء حركة تسوق ناشطة في نحو غير مألوف . وشهدت بنفسي كيف راحت أسعار البضائع ترتفع من لحظة إلى التي تليها فلا يمتنع طالبوها عن الشراء . ما أشدّ حساسية السوق ؛ لقد استشعر التجار شيئاً في الجوّ فاستثمروا الفرصة ! وما أن بلغت منزلي حتى أعلنت الإذاعة أن الحرب ابتدأت . وبعد دقائق ، داهمني عبداللّه البرقاوي مداهمة كادت تمزق سماعة الهاتف : «دقة غريبة في التنبؤ ، هل أنت جاسوس خطير أم أن لك منصباً سرياً أعلى من منصبي» . فقلت لصاحبي إن المخابرات كثيراً ما تبدد الوقت والجهد والأموال الطائلة ثم لا تستخلص ما يستخلصه صحافي مدقق . وأعدت على مسامع صاحبي ما رويته لك مما جعلني عارفاً بأن الحرب قادمة ، ثم شرحت ما استخلصته عن موعدها حين رأيت قائد الفرقة بجانب الفرن . فما كان لضابط له منصب هذا الضابط وامتيازاته أن يركب جيباً مموهة ويهتم بتوفير الخبز لأسرته بنفسه لو لم يكن على يقين من أنها الحرب . ومسكين عبداللّه البرقاوي صاحبي هذا ، أصفه بأنه مسكين لأنه صار منذ تلك الواقعة أسير ما أقوله له كلما تعلق القول بأي شأن عام ، فاضطربت حاله مع رؤسائه ، ولم يعد قادراً على اتباع السلوك البيرقراطي الذي ترسمه أوامرهم . تسيس ضابط المخابرات ولم تعد تقاريره مجرد رفع لمعلومات ، بل دخل إليها التحليل ، فلم يلبث أن وجد نفسه معزولاً من وظيفته ثم من الجيش كله ، ولم تنتظم أحواله بعد ذلك . أما أنا فانضاف إلى ملفي لدى أجهزة الأمن أني أفسد

ضباط الجيش .

في أيام الحرب ، تحول مكتبي في النهار ومنزلي في الليل إلى مركزين إعلاميين يقصدهما الصحافيون الذين وفدوا إلى دمشق . مصادر الأنباء في سورية شحيحة في العادة ، وهي أكثر شحاً في الظروف الطارئة . ولهذا ، صرت أنا بالنسبة للصحافيين لقية تشبثوا بها . وأنا أتذكر أني أحصيت عدد المحتشدين في منزلي ذات مساء ففاق العدد الستين . وقد تسنى لي أن أخدم زملاء المهنة ، فأخدم سورية وأوفر التغطية اللازمة لدور الفلسطينيين في الحرب . وربما كان هذا دوراً محدوداً إذا قورن بدوري مصر وسورية . إلا أن م . ت . ف . كانت بحاجة إلى البروز وسط الصورة واستقطاب ما يمكن استقطابه من اهتمام . ألم يعلن عرفات أن الفلسطينيين فتحوا الجبهة الثالثة . لقد كان الرجل كعادته فطناً ، فالذي لا يحارب قد يسهل استبعاده من الصورة بعد الحرب .

في ذلك الوقت ، تمتع الجمهور بمفاجأتين كل منهما مذهلة : صواريخ سام ٦ سوفياتية الصنع التي حمت سورية من عربدة الطيران الإسرائيلي المتفوق . وانتظام عملية التموين انتظاماً لم يشهده البلد في أي وقت آخر ووفرة المواد المعروضة للبيع وقدرة الدولة على إبقاء أسعارها في المتناول . وقد صار الكلام لفريقين : العسكريين ، ورجال التموين المدنيين .

فريق العسكريين تصدره حافظ الأسد . نحى رئيس الجمهورية بذلته المدنية وارتدى زيّ الميدان العسكريّ وعليه رتبة القائد العام للجيش وشاراته . وانتقل الرئيس من القصر الجمهوري إلى غرفة العمليات وتفرغ لإدارة شؤون القتال . وكان في فريق العسكريين أصدقاء لي كان في مقدمتهم العميدان محمد الشاعر ومصباح البديري اللذان صرت تعرفهما . وكان كل من العميدين موكلاً بمهامّ تجعله في العارفين بما يجري : الشاعر الذي يقود مؤسسة

الإنشاءات العسكرية السورية ، والبديري الذي يقود جيش التحرير الفلسطيني الذي أُخضع في الحرب لغرفة العمليات السورية مباشرة وكُلّف القيام بعدد كبير ومتواتر من العمليات الخاصة . وبهذا ، كما بغيره بالطبع ، تسنى لي أن أتابع ما يجري على ساحة القتال . وفريق التموين ، كنت أعرف ، كما صرت أنت تعرف عني ، كثيراً من قادته . ولأن إعلان الحرب حرر منير الحمارنة من ثقل الأسرار التي كتمها طويلاً ، فما أكثر ما عرفت عن جهود هذا الفريق وإنجازاته .

خارج مجال هذين الفريقين ، لم يكن للمسؤولين الآخرين في الدولة كثير مما يفعلونه مما يتصل بالحرب . وما أكثر ما وقعت على أصحابي من الوزراء والقادة السياسيين وهم لائبون يتسقطون الأنباء أو متجمعون لتزجية الوقت بشتى الوسائل . وفي مقرّ رئاسة الحكومة حيث أُنشئ ملجأ حصين ، انتظمت حلقة كان من بين تسلياتها لعب الورق ، وكان عبدالله الأحمر وهو المعدود حسب البروتوكول الرجل المدنيّ الثاني في الدولة من روادها . وفي مربع ليلي شهير توقف العمل فيه أثناء الحرب ، انتظمت حلقة أخرى . كان المربع يشغل قبواً في مبنى كبير تشغل إحدى الوزارات عدداً من طوابقه . فاستخدم الوزير القبو ملجأ واجتذب إليه آخرين من زملائه وأصحابه .

جيش التحرير الفلسطيني في سورية كان في واقع أمره لواء مشاة خفيف التسليح وكان مدرباً على ما يجعل عناصره أقرب ما يكونون إلى المغاوير أو الكوماندوس . وقد تولت وحدات من هذا الجيش مهمة مباغتة المواقع الإسرائيلية الخاصة في الجولان المحتل والسيطرة عليها أو مهمة تطهير مواقع حيوية أخرى ، وأفلحت في تحقيق أهدافها ، فسهلت تقدم الجيش السوري لتحرير منطقة الجولان المحتلة . وعندما واجه المتقدمون الهجوم الإسرائيلي المضاد واضطروا إلى التراجع وهم يقاتلون ، نشطت عمليات الجيش الفلسطيني

لإنجاد المواقع المهددة . وقد تميزت كتيبة قادها رائد من أصحابي هو طارق إبراهيم بأنها شكلت رأس الحربة في الهجوم الذي انطلق من بلدة نوى باتجاه فيق . ووصلت كتيبة طارق فعلاً إلى قرية العال القريبة من فيق هذه . وعندما اضطرت الكتيبة إلى التراجع ، نجح طارق في إعادتها سالمة إلى الموقع الذي انطلقت منه .

وفي عمليات السيطرة على عقد حصينة أو إنجاد مواقع مهددة ، تميز في نحو خاص ما قام به ضابط مقدام ومتواضع هو النقيب عطية الذي نسيت الآن للأسف اسم عائلته . وكان عطية لا يعود من عملية إلا ليتسلم من العميد مصباح أمر عملية أخرى . وظل النقيب يواصل روحاته وغدواته دون انقطاع ويأبى أن يستريح بين أي عمليتين إلى نهاية الحرب .

وفي إدارة عمليات جيش التحرير ، تجلت خبرة مصباح العسكرية . واستفاد الضابط المشهود له بالشجاعة من معرفته الدقيقة بمواقع الجولان ، وأسعفه حماس الضباط والجنود الفلسطينيين وثقة قيادة العمليات السورية بعمق دوافع المقاتل الفلسطيني . وتوالت البطولات . كنت أقول لمصباح دائماً : «أنت عسكري ممتاز» وأحثه على تجنب التدخل في العمل السياسي . وكان صاحبي يسعد بتقريظي دون أن يستجيب للنصيحة ، فكان يبدد ثمرات سمعته الحسنة عبر المشاكل السياسية التي ينهمك فيها .

وليد الكبير ، هل تتذكر صديقي هذا الذي احتمل التهمة الشنيعة حين ادعت فتاة من القنيطرة أنه هو أبو الجنين الذي تحمله هي دون زواج وما نجم عن الادعاء الكاذب من هموم ، وليد هذا كان قد صار وقتها ضابطاً في الجيش الفلسطيني ، وأُوكلت إليه مهمة اقتحام موقع إسرائيلي حصين قائم على ظهر تبّة يكتنفها سهل منبسط ومكشوف . وقد توجب على وليد أن يهاجم الموقع عبر السهل بوحدة صغيرة ، بالأسلحة الخفيفة ، دون تغطية

جوية . أدرك وليد ، كما قال لي هو نفسه ، أن اقتحام الموقع بهذه الإمكانيات متعذر ، لكنه أدرك ما بدا أن القيادة توختة ، فمشاغلة العدو واجبة ، فنفذ المهمة بحميّة وتلقى أثناء التنفيذ طلقة رشاش اخترقت ذراعه وفتّتت جانباً من لحم العضد وأتت على عصب الحركة فيه ، ورفض أن يذهب إلى المستشفى . اكتفى المصاب بالإسعاف الميداني الذي أوقف النزيف ثم رجع إلى مصباح وأخفى عن قائده خطورة إصابته وندب نفسه لمهمة جديدة .

في هذه الحرب ، تعرفت على فلسطيني لا أنساه حتى مع أني نسيت للأسف اسمه . كان هذا غزاوياً يجرّ معه حكاية طويلة فصولها كثيرة . ففي منتصف الخمسينات التحق هذا الإنسان بالكتيبة الفدائية التي شكلها المصريون في قطاع غزّة وأوجعت عملياتها الجريئة الإسرائيليين . ولعلك تتذكر أن نشاط الكتيبة توقف بعد حرب ١٩٥٦ . وقد عانى صاحبنا الفراغ الذي عاناه زملاؤه كلهم وتقلب مثلهم على ظروف شتى إلى أن تشكل جيش التحرير الفلسطيني فالتحق بقوة عين جالوت التي أنشئت في القطاع وتسنى له أن يشهد الحرب الثالثة في العام ١٩٦٧ ويكون من المدافعين عن خان يونس . وبعد أن سيطر الإسرائيليون على القطاع ، توارى الرجل عن الأنظار ووجد طريقه إلى حلقات المقاومة السرية فانهمك فيها وصال وجال ما أمكنه ذلك إلى أن ضاق الخناق على المقاومة فاضطر إلى مغادرة القطاع ووصل إلى الأردن . وكانت المقاومة الفلسطينية هناك في إبّان نشاطها فوجد صاحبنا نفسه في صفوف «فتح» . وعندما أُخرج المقاتلون من الأردن ، انتقل هو معهم إلى سورية ، ثم إلى لبنان ، وهو باقٍ في «فتح» . وقبل أن تشتعل الحرب التي تعرفت عليه أثناءها ، جاء من صار فدائياً محترفاً إلى سورية لسبب من الأسباب . لم يكن صاحبنا يميز بين فصيل وغيره فالكل عنده فدائيون ، ولم يعرف أن جيش التحرير الذي تحتفظ قيادته بسجلات نظامية لعناصره قد عدّه

فاراً لأنه لم يلتحق به من جديد بعد مغادرته غزّة . ومن أين لفدائيّ تجرفه العواصف من مكان إلى آخر أن ينتبه إلى قيود البيروقراطية !

والحاصل أن صاحبنا اكتشف عندما وصل إلى الحدود السورية قبل أيام من بدء الحرب أن جيش التحرير عمم اسمه من أجل إلقاء القبض عليه . ولم تنفع الشروح المنطقية . فالأوامر هي الأوامر وخصوصاً أوامر أيّ اعتقال . وهكذا ، سيق الرجل إلى قسم التحقيق في مخابرات جيش التحرير الفلسطيني وأُودع سجيناً في قبو المقرّ الذي يشغله القسم . ولما كان سميح جبر رئيس القسم صديقاً لي وكان يعرف مقدار ولعي بحكايات الفلسطينيين فقد روى لي حكاية سجينه . وقال سميح إنه يدرك أن الموقوف غير مذنب في واقع الأمر وأنه احتفظ به في ظرف لائق وكتب إلى رؤسائه طالباً الإذن بطيّ ملفه والإفراج عنه . ولأن الحرب بدأت قبل أن يجيء الإذن ، ولأن سميح أشفق على المحتجز في القبو بغير ذنب ، فقد أذن له بمغادرة محبسه في النهارات والتجول بحرية على أن يعود إليه في الليل .

وقتها ، كانت صواريخ سام ٦ التي فوجئ الإسرائيليون بوجودها في حوزة السوريين قد أوقعت القيادة الإسرائيلية في حال أشبه ما يكون بالهستريا . إذ أن تلك كانت هي المرة الأولى التي تفقد فيها إسرائيل السيطرة على الجوّ . وكان طيّارون سوريون شجعان يتصدون بجرأة للطائرات الإسرائيلية فتشتد الهستيريا الإسرائيلية . ولأمر ما أغلب ظني أنا أنه الغيظ ، أعلن موشي دايان ، وهو من غدا وزيراً للدفاع في إسرائيل ، أن القيادة السورية تحتمي بملجأ في دمشق تظنّه حصيناً . وأنذر دايان بأنه سيدك هذا الملجأ على رأس القيادة المحتمية فيه . كان الملجأ الذي أشار إليه دايان حصيناً حقاً ، وكان دايان يعرف أنه غير قابل للاختراق حتى لو أمكن اختراق شبكة الصواريخ . لكنه الغيظ ، وربما الحاجة إلى رفع معنويات منهارة والتباهي ، وهي التي أرسلت طائرتين

إسرائيليتين بهدف قصف الملجأ . وقد أسقطت الصواريخ السورية طائرة قبل بلوغها سماء المدينة ، وأسقطت الثانية وهي في سمائها بعد أن تمكنت الطائرة المغيرة من رمي المدينة بحمولتها . وكانت الحمولة صواريخ جو ـ أرض هائلة الحجم . فانفجر صاروخ في عراء مجاور لمبنى دار المعلمين وألحق به أضراراً دون خسائر في الأرواح . وكان هذا هو العراء الذي اعتقدت القيادة الإسرائيلية أن الملجأ المستهدف قائم تحته . ودمّر صاروخ آخر المبنى الذي يشغله المركز الثقافي السوفياتي وقتل شخصين كانا فيه . وحطّ صاروخ ثالث في حديقة مدينة السكن الجامعي ، قرب مبنى فيها مخصص لسكن الطالبات ، دون أن ينفجر .

كان صاحبنا الغزاوي قد غادر قبوه المجاور للمدينة الجامعية وراح يتجول في المنطقة حين رأى ما رآه غيره : الصاروخ الذي حطّ في الحديقة والرعب الذي أثاره في المنطقة كلّها . ورأى الناس المرعوبون رجلاً لا يعرفونه وهو يزحف باتجاه الصاروخ ، ثم رأوه وهو يتفحصه ، ثم شهدوه وهو يمتطيه كما يمتطي الإنسان دابّة . ثم أدهش الناس الذين كبر جمعهم وقلّت جلبتهم أن الرجل الذي وشت حركاته كلها بثقة عالية بالنفس استلّ علبة سجائره من جيبه واستلّ من العلبة سيجارة وأشعلها ومجّ نفساً عميقاً ونفث الدخان بهدوء وبعدها انصرف إلى معالجة الصاروخ .

تعرف الفدائي المتمرس على طبيعة البلاء المتحفز على أرض الحديقة ، ولاحظ بيسر جهاز التوقيت الذي زوّد به صاروخ زنته نصف طن ، وعرف أن أمامه اثنتي عشرة دقيقة ، وكان هذا عند الرجل الواثق بنفسه وقتاً كافياً أباح له أن يتصرف بهدوء ويبهر بهدوئه المراقبين . أنقذ الفدائي المنطقة من كارثة ، وظفر بحريته الكاملة للتو ، وشاعت حكايته ، وتفنن الناس في الإشادة ببطولته . وغني عن البيان أني وجدت حكاية فلسطينية مجيدة أُخرى أوجه

الصحافيين إلى الاهتمام بها . وما أكثر الصحافيين الذين جمعتهم بصاحب الحكاية .

ووسط الإشادة الجماعية ببطولة الفدائي وكفاءته وحسن تصرفه ، بدا شخص واحد فقط مغتاظاً ، شخص واحد هو صديقي مصباح البديري . أما ما الذي أغاظ مصباح ، وسلوك الرجل هو هذا السلوك الرائع ، فإليك بيانه : وقف الفدائي على الصاروخ بعد أن أبطل مفعوله ولوح بكوفيته للجمهور ، وهتف : «تعيش الثورة الفلسطينية ويعيش ياسر عرفات !» .

هذا الرجل لقيته آخر مرة في السوق العتيق حين ذهبت للتسوق بعد الحرب . لمحني هو وسط الزحام فجاء إلي : «أتدري بم كافأني صاحبك العميد مصباح أنت الذي اقترحت المكافأة : أعطاني خمسين ليرة وقرعني لأني هتفت لعرفات ، إهانة ومبلغ لا يشتري عبوة حشيش !» .

ضحايا المركز السوفياتي الذي دمره صاروخ الانتقام كانوا اثنين لم يوجد في المبنى في ظروف الحرب سواهما : المدير العربي للمركز د . محمد أمين صديقي وأخو صديقي الأقدم المحامي مصطفى أمين ، وسيدة سوفياتية حزنت المدينة كلّها عليها . لم يكن محمد مضطراً إلى المجيء إلى المركز الذي أوقفت الحرب نشاطاته ، لكنه رأى في وجوده فيه واجباً فقضى شهيد التزامه الواجب . أما السيدة السوفياتية فكانت لها حكاية استدرت دموع الذين يحزنهم موت الناس الشجعان . فقد رافقت هذه السيدة جيش بلادها الأحمر في زحفه وهو يحارب النازيين من موسكو إلى برلين ، كانت ممرضة شهدت أهوال الحرب على أقسى جبهاتها وأسعفت بيديها آخر جندي سوفياتي أصيب في القتال الطاحن في مبنى الرايخستاغ الألماني . وبعد الحرب ، عادت السيدة إلى مهنتها مدرسة للغة الروسية ، وبهذه الصفة أُرسلت إلى دمشق . الناجية من أهوال أهول حرب فتك بها صاروخ أرسله مأفون حرب مغرور لا

لشيء إلا ليقول إن يد جيشه طويلة ويتباهى .

أما نبيه ارشيدات ، هذا الذي أشاركه ويشاركني السراء والضراء ، هذا الذي يحزنه همي أكثر مما يحزنني ويحزنني همه أكثر مما يحزنه ، نبيه الذي تتجلى في الأزمات أجلّ مزاياه ولا يهدأ ولا يكفّ عن البحث عن مفيد يحققه ، فكان في أيام الحرب كتيبة لوحده . لم يحوّل نبيه عيادته إلى مقرّ للنشاط العام كما فعل في الحرب السابقة ، ذلك أن حال الخدمات العامة في البلد انتظم فلم تحتج إلى تنظيم نبيه له . ولم أحْتَجّ أنا هذه المرّة إلى ما فعلته في حرب العام ١٩٦٧ حين قارنت عيادة نبيه بقصر سمولني الذي أدار لينين منه أحداث الثورة البلشفية . لكن نبيه صار هو نفسه سمولني متنقلاً .

أدرك نبيه أكثر مما أدرك غيره أن حرب تشرين الأول/ أوكتوبر ، هذه التي سميت على الجانب العربي باسم حرب رمضان أيضاً وسماها الإسرائيليون حرب يوم الغفران ، مختلفة عن الحروب التي سبقتها كلّها . لم يتأثر رأي نبيه بتفاصيل الكرّ والفرّ المتعاقبين ، لم يبهره تقدم الجيش السوري حين تقدم في بداية الحرب ، ولم يزعزعه التراجع حين دُفع هذا الجيش إلى التراجع . وقد اتفقت أنا ونبيه على أن أهم ما وقع تمثل في نقطتين : أن الجانب العربي بادر إلى حرب تحرير في وقت تصور الإسرائيليون أن العرب عاجزون عن المبادرة ، وأن الجيوش العربية أوقعت خسائر ظن الإسرائيليون أنها غدت عاجزة عن إيقاعها بهم . واستخلصنا منذ البداية أن الوقت الذي ظلت إسرائيل فيه قادرة على الفتك بالعرب دون أن تدفع الثمن قد انقضى . وآمنّا بأن طريق التسوية على أساس القرار ٢٤٢ قد انفتح هذه المرة ، وسيصعب على إسرائيل سدّه ثانية .

كان مع نبيه راديو ترانزستور لا يفارقه . وكانت سيارة الموسكوفيتش التي اقتناها نبيه منذ سنوات هي المهرة التي يتنقل بها من مكان إلى مكان . وكان

ألق نبيه وثباته يحلاّن حيث يحل . وكان احتضان صاحبي الدائم للترانزستور مادة لواحدة من الطرائف التي روجتها أنا عنه . فقد زعمت أن صديقي لا يصدق إلا الجهاز الذي يخصه هو ، وإذا وُجِدَ هو في مجلس فيه جهاز آخر مفتوح على محطة بعينها وبث المحطة أخباراً فإن نبيه يفتح جهازه هو على المحطة ذاتها حتى يتأكد من أن أحداً لا يخدعه . كوت نبيه لوعة الأكاذيب والروايات المهولة التي افترست الصدق في حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ ، فصمم في الحرب الجديدة على أن لا يصدق إلا ما يتحقق بنفسه من أوثق المصادر من صدقه . وقد أفرط نبيه في التحقق ، حتى لقد بزنا نحن أصحابه جميعنا .

الصديق الذي أرجأت الحديث عنه حتى الآن هو فؤاد قدري أو أبو قدري وفق الكنية التي لا نذكره إلا بها . عرفت هذا الرجل الذي يكاد يكون في سنّ والدي أول ما عرفته حين كان تبدُّل أحواله قد أسلمه إلى بؤس يثير الأسى . فقد نشأ أبو قدري ابناً لإقطاعي واسع الأملاك من زعماء الأكراد في شمال سورية فشبّ فارساً يتمتع بالجاه والنفوذ والثروة ، خليّ البال من الهموم ، فحظي بما يحظى به أبناء الإقطاعيين ، وسلك سلوكهم ، ولم يفوّت منه لا الحسن ولا القبيح .

أما التبدل الذي أوصل ابن الإقطاعي إلى سوء الحال في نهاية المطاف فوقع أوله منذ انتقل من إقطاعية أبيه في منطقة الجزيرة البعيدة والمعزولة إلى دمشق العاصمة ، تمّ الانتقال وأبو قدري شاب بعد سقوط ديكتاتورية أديب الشيشكلي . وقد جاء أبو قدري إلى العاصمة عضواً في مجلس النواب الشهير الذي عادت به إلى سورية مظاهر حياتها النيابية . حل الابن في المجلس محل أبيه الذي ظل يمثل منطقته في البرلمانات السابقة فلما تقدم به السن أفسح المجال لابنه . جاء سليل الإقطاع إلى العاصمة وقت أن كان صوت التحالف

الذي ضمّ البعثيين والشيوعيين والبرجوازيين التقدميين هو الأعلى فيها . وتعرف أبو قدري إلى زعماء التحالف وانجذب خصوصاً إلى خالد بكداش . لم يصر ابن الإقطاعي عضواً في الحزب الشيوعي ، لكنه صار حين يتعلق الأمر بالشيوعية ملكياً أكثر من الملك . وفي التجمع البرلماني الذي ضم أغلبية أعضاء مجلس النواب ، صار أبو قدري قطباً وأُوكلت إليه مهمة أمانة سرّ التجمع وشهد التطورات العاصفة التي انتهت بوحدة مصر وسورية في دولة واحدة . وكان هذا الكردي السوري هو الذي حمل راية الوحدة العربية مع وفد مجلس النواب السوري وسلمها إلى عبد الناصر .

مع هذه التحولات ، مع انتقال الإقطاعي إلى مقدمة صفوف التقدميين ، ومنذ آلت إليه حصته من إرث أبيه ، قرر أبو قدري أن يعوض فلاحي إقطاعيته عن إساءات أسرته وإساءاته هو شخصياً إليهم فتخلى عن أرضه لفلاحيها قبل أن يصدر أي قانون للإصلاح الزراعي وتفرغ للعمل العام وحده ، وكان سعيداً وارتاح ضميره . ثم جاء الوقت الذي اضطهد فيه الشيوعيون فلحق بالرجل نصيب وافر من الأذى ونضبت موارده ، وساءت أحواله . وانتهى الأمر بالرجل الذي يعلي شأن المبادئ وأخلاق الفرسان إلى الانزواء في شقة مجاورة للشقة التي سكنت أنا فيها في حي الأكراد . وهناك تعرفت عليه .

وعندما اشتد الضيق على الرجل وأسرته بعد صبر سنوات ، ولم يعد للصبر مطرح ، خطا أبو قدري خطوته الأولى نحو إصلاح أحواله ، فاتصل بأخوته الذين كانوا ساخطين عليه لأنه اتبع درباً غير دربهم ، واستعان بهم وأنشأ شركة للاستيراد والتصدير . استفاد القادم من عالم السياسة إلى عالم الأعمال من سمعته الحسنة وثقة الآخرين به ولقي التشجيع لدى ممثلي الاتحاد السوفياتي الذين عرفوه ناشطاً في حركة السلم وداعية مثابراً لتحسين العلاقات مع السوفيات ، فانفتحت أمامه الأبواب وتيسر له عمل كثير .

استعاد عزيز القوم الذي انحدرت أحواله لبعض الوقت مكانته المالية وبقيت له فروسيته . فبقي وفيّاً لأصدقائه حدّ التزمت ، واستبقى صلته بالعمل العام . وصار أبو قدري ، كما يمكن وصفه بكلمات قليلة ، مؤسسة للنفع العام والخاص .

وأنا لا أنسى أن صديقنا هذا موّل مبادرة أقدمنا عليها ، معين بسيسو وسعيد مراد وأنا ، بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة . وكانت تلك مبادرة أملتها نزوة طيبة ، إذ تصورنا أن من الواجب علينا أن نرد الجميل للكتاب السوفيات الذين تضامنوا مع العرب . ولم يكن في سورية وقتها منظمة للكتاب ، فتطوعنا نحن الثلاثة للمهمة ، ووجهنا دعوة منّا لثلاثة كتاب يختارهم اتحاد الكتاب السوفيات وأملنا في أن يكون الروائي جنكيز ايتماتوف واحداً منهم . لم يأت ايتماتوف ، بل جاء الشاعر الكبير قيسين كولاييف ومعه المستشرقة تاتيانا براقدينا والروائي الأرمني سيفونتس . وتوفرت للثلاثة ضيافة لم يكونوا ليحصلوا على مثلها حتى لو كانوا ضيوف الدولة ، وكان ذلك بفضل أريحية الذي موّل رحلتهم وغطّى التكاليف كلها وهو أبو قدري .

أبو قدري هذا جعل مكتبه منتدى نجيء إليه مبادرين أو يدعونا هو في أي مساء ، فنأكل ونقصف ونسمر ونشاهد الأفلام التي لا ترى في مكان عام ، دون أن تكلفنا هذه المتع إلا الاستجابة لرغبة صاحب المكتب الذي يسعده أن يسعد أصحابه . وفي أيام الحرب ، أبقى أبو قدري منتداه هذا مفتوحاً على مدار الساعة . ولأن المكتب يقع في وسط المدينة ، فما أكثر الذين جاءوا إليه وما أكثر ما شهد من مناقشات !

وها أنا ذا أتذكر مناقشة حامية كان قطباها حنّا مينه و د . رزق اللّه هيلان وكان شهودها كثيرين . حدثتك عن حنّا فصرت تعرف شيئاً عن صلتي به . ولك أن تعرف أن حنّا صاحب مزاج متوقد أبداً ، وهو رجل الأبيض والأسود ،

إن تحمس لرأي فهذا هو الذي لا رأي غيره ، وإن أحبّ شخصاً رفعه إلى القمة ، وإن أبغض شخصاً هبط به إلى الحضيض . أما زرق اللّه فهو عالم فيلسوف ، متأنٍ في كل شيء يعمله أو يفكر فيه ، لا يصدر حكماً إلا بعد تمحيص شديد ولا يقبل رأياً إلا بعد إخضاعه لمائة ميزان ، لا تستثيره ظواهر الأمور ، لا المألوف منها ولا الغريب ، والأنباء الجديدة ، حتى لو كانت طارئة ، لا تستخفّه . والنقاش الذي ذكرته تناول حكاية التكنولوجيا التي نشط الحديث عنها في ذلك الظرف . فالذين كانوا قد أفرطوا بعد هزيمة ١٩٦٧ في الحديث عن افتقار العرب إلى التكنولوجيا أفرطوا في الحرب الجديدة في الحديث عن امتلاك العرب لها ، وقد تركز النقاش في منتدى أبي قدري على ما إذا امتلك العرب هذه التكنولوجيا حقاً أم أنهم ما زالوا مفتقرين إليها . وكعادته إن تحمس لشيء ، تشبث حنا بالقول إن الفجوة التكنولوجية بين الدول العربية وإسرائيل قد زالت وانتهى أمرها . أما زرق الله فأثار الشكوك حول هذا القول . تحدث حنّا بحماس فيما احتفظ رزق اللّه بهدوئه فأثار الهدوء مناظره زيادة على ما هو ثائر .

استخدم رزق اللّه لغة الفيلسوف العالم وتكلم بالفصحى . وفي محاولته لكبح جماح حنّا ، دعانا رزق اللّه إلى أن نعرّف التكنولوجيا أولاً «إذ لا يجوز أن نصدر أحكاماً باتة على مسألة قبل أن نعرف ما هي» ، ثم شرع في استعراض التعاريف المتعددة للتكنولوجيا . إلا أن الصبر أعوز حنّا فانتهر رزق اللّه بحدة : «خلصنا من التعاريف المعقدة ، أنت وتعاريفك العلمية هذه ، ألم تر كيف اقتحم جنودنا مرصد جبل الشيخ وتغلبوا على التكنولوجيا الأميركية والإسرائيلية المكومة فيه !» . والواقع أن وحدة سورية خاصة كانت قد اقتحمت فعلاً قمة جبل الشيخ هذه ، حيث أقام الإسرائيليون بعد احتلالهم إيّاها في العام ١٩٦٧ مرصداً مزوداً بأحدث وسائل الرصد . ولكننا كنا نرى أن

الوحدة اقتحمت القمة بجرأتها وليس بسبب أي تكنولوجيا متفوقة . وكان الحديث عن جرأة الوحدة هو الذي قاد إلى حديث التكنولوجيا . وقد شاء رزق اللّه أن يذكّر بهذا ، غير أن حنّا انتهره ثانية : «الجرأة والإقدام محسوبان في التكنولوجيا أيضاً ، فاعفنا من فلسفات المبهورين بتكنولوجيا إسرائيل وأميركا!» .

نقاش الأديب مع العالم أوصلنا إلى نقطة حرجة وأدخلنا في حلقة مفرغة . وشئت أن أطفئ حدة النقاش ، أنا الذي أميل إلى رأي العالم ولا أرغب في أن أجبه حنّا بما يستفزّه ، فلم أهتد إلا إلى المزاح : تريد يا دكتورنا العزيز أن تجعل من حنّا عالماً ينشغل بمعاينة الظواهر ودراسة المقدمات واستقصاء التعريفات ووضع الفرضيات وتفحص البراهين والقيام بالتجارب قبل الوصول إلى أي استخلاص . هذا ظلم . فحبيبنا حنّا فنان قبل أي شيء وبعده ، وصاحب مزاج متفائل ، والتكنولوجيا عنده أُنثى مرغوبة قد تستجيب وقد لا تستجيب ، وها هو ذا يرى أنها في هذه الحرب قد استجابت ، فلا تتعبه وتتعبنا وتتعب نفسك ، انظر إليه ، ألا ترى أنه يتمتع وقد صارت التكنولوجيا الشهيّة في أحضانه !

في بداية مداخلتي ، شملني حنّا بنظرة مشجعة . غير أن صديقي الذي لا يفتقر إلى الذكاء أو الحساسية ، سرعان ما التقط سخريتي ، فغاضت النظرة المشجعة وحل محلها برم سافر . ولما كان دافعي إلى التدخل هو نقل الحديث إلى نقطة أخرى ، ثم لما كنت قد بدأت بشيء وأعوزتني الحصافة ، فقد وجهت الخطاب لحنّا : «على ذكر الأنثى ، يستوقفني في رواياتك شيء ، السمك كلّه ، عندك ، إناث ، ألا يوجد في السمك ذكور؟» . وكلفني هذا التعريض سخط حنا عليّ ومقاطعته لي لبضعة شهور . وكانت تلك عقوبة قاسية عليّ أنا الذي يحبّ حنا ، لكني تكبدت قسوتها بإذعان لأنه بدا لي

أنها عادلة أيضاً .

أشدّ أوقات هذه الحرب وقعاً على نفوسنا عشناه أثناء تلك الساعات التي وصل الهجوم الإسرائيلي المضاد فيها إلى سعسع وبدا أن طريق دمشق تفتقر إلى دفاعات كافية لصد الهجوم .

في أيام الحرب الأولى ، اكتسحت القوات السورية معظم مناطق القطاع الجنوبي في الجولان المحتل ؛ ألم أقل لك إن كتيبة طارق إبراهيم بلغت مشارف فيق . وفي القطاع الأوسط ، تجاوزت القوات المحررة القنيطرة . أما في القطاع الشمالي ، هذا الذي يبدأ بمحاذاة جبل الشيخ ويشتمل على أكثر مناطق الجولان وعورة ، فإن اندفاعة القوات السورية تعثرت . وهنا ، وقعت فرقة الدبابات التي أوكلت إليها مهمة تحرير هذا القطاع في أفخاخ إسرائيلية مضادة للدبابات لم يُحسب حسابها من قبل ، فتأخر تقدم الفرقة . وعندما جاء الهجوم الإسرائيلي المضاد وأسلحته الوافرة والصواريخ الحديثة المضادة للدروع ، تعذر التقدم . وقد شاعت رواية تقول إن قائد الفرقة ، وهو هذا الذي رأيته أنا عند فرن الرئيس ورويت لك حكايته مع الجيب والخبز ، اتصل بغرفة العمليات وطلب الإذن بوقف هجوم فرقته المتعثر ليعيد تقدير الموقف وأن الأمر صدر إليه بمواصلة الهجوم . وقيل إن قائد الفرقة سلم بعد ذلك قيادتها لمعاونه وأنهى حياته بطلقة من مسدسه . لكن لم يظهر ما يؤكد صحة هذا الذي قيل . إلا أن شيوع الرواية عكس الوضع في القطاع الشمالي وما أدى إليه من اضطراب الهجوم السوري في القطاعين الآخرين أيضاً . وهكذا ، اكتسح الهجوم الإسرائيلي المضاد المناطق التي حررها السوريون من أرضهم المحتلة ، وتجاوزها إلى سعسع . وفي هذا الوقت ، كان الإسرائيليون الذين مُنوا على جبهة السويس وسيناء المصرية بهزيمة حارقة قد اخترقوا مواقع المصريين وعبروا قناة السويس وأحدثوا غربها ثغرة أخذوا يوسعونها ويحاصرون الجيش الثالث

الموجود فيها ، وكان السادات قد وافق على وقف إطلاق النار .

تجمعت هذه الأنباء في منتدى أبي قدري في آخر الليل فافترسني القلق . يومها ، عدت إلى التدخين بعد انقطاع عنه دام سنتين كاملتين ، ورحت أدخن سيجارة إثر أخرى ولا أظفر بما يهدئني . وجاء نبيه الذي لم يعد ترانزستوره يطمئنه ، وجاء منير الذي يخزن أسراراً كثيرة ، واكتظ المكان بالوافدين والهواجس . واتصل خالد بكداش بالهاتف باحثاً عما يطفئ قلقه . وتطلعت العيون إليّ برجاء أن أذهب إلى حيث يمكن استطلاع الأنباء . فلم أجد بداً من أن أذهب إلى مصباح البديري .

كنّا في وقت الفجر . وكان عميد جيش التحرير قد عبأ آخر وحداته وأرسلها لتنضمّ إلى تجمع طارئ جرى تحشيده في منطقة المعظمية ليسد طريق الإسرائيليين إلى دمشق إن تقدموا نحوها . وكان مصباح قد زار غرفة العمليات السورية وسأل عن الرئيس حافظ الأسد فعرف أن الرجل توجه بنفسه إلى المنطقة التي يتم تحشيد القوات فيها . وبدا مصباح مطمئناً إلى أن منطقة المعظمية صارت خطاً أحمر لن يجتازه الإسرائيليون حتى لو وصلوا إليه . وقد أكد مصباح على هذا في نحو يأذن بالثقة في تقديره للوضع ، ثم لم يفته حتى في هذا الظرف أن يعرض بياسر عرفات وينتقد البلاغات والتصريحات التي تصدر عنه . ولما لم أكن في مزاج يؤهلني لاحتمال الحماقة ، فقد رجوت صديقي أن يصمت لكنه لم يستجب للرجاء ، فاتجهت إليه وأقفلت فمه عنوة بيدي . وبالرغم من هذا ، ظل فم مصباح يبق كلمات ضد عرفات .

أثناء أيام الحرب ، سقط الحظر الذي يمنعني من الكتابة لأجهزة الإعلام السورية ، سقط جزئياً ومؤقتاً كما ينبغي أن يقال . حدث هذا بعد أن اشتكى خالد بكداش أمام اجتماع قيادة الجبهة الوطنية التقدمية من الفارق الكبير بين

ما يبثه الإعلام وبين مزاج الجمهور . وكان وزير الإعلام آنذاك هو جورج صدقني الذي كان عضواً في قيادة حزب البعث أيضاً . جُبل جورج هذا ، وهو خريج مدرسة كان يملكها الجزويت وأرسوزيّ متعصب ، على بغض مزمن للشيوعيين والاتحاد السوفياتي فوجه الإعلام في نحو يتجاهل الدور السوفياتي بينما كانت مشاعر الجمهور تفيض بالامتنان لهذا الدور . وقد قصر إعلام يديره وزير من هذا النوع في مجالات أخرى عدّة ، خصوصاً مجال إبراز الوجه العصري التقدمي للمطالب العربية . وهذا كله اشتكى منه بكداش في الاجتماع الذي يحضره الوزير . وطالب بكداش باجتذاب الكفاءات المبعدة عن الإعلام : «الوطن يخوض معركة عادلة لتحرير أرضه المحتلة وعلى الإعلام أن يفتح صدره للوطنيين جميعاً» . ويبدو أن الوزير شاء أن يتذاكى فطلب من الأمين العام للحزب الشيوعي أن يزوده بأسماء من يقترحهم للكتابة . ظن خريج المدرسة الجزويتية أنه سيستدرج بكداش إلى البوح بأسماء من يعتمد الشيوعيون عليهم ونسي أنه إزاء سيّد الحذرين : «ألا يعرف وزير الإعلام أسماء الكتاب الوطنيين في البلد !» . أربكت عبارة بكداش الوزير ، لكن القائد الشيوعي الذي يدفع في اتجاه بعينه لم يرحم المرتبك : «وسع يا أستاذ جورج صدرك ، وافتح عينيك ، فالوطنيون التقدميون موجودون في كل مكان !» .

عرفت هذه الواقعة في اليوم الذي وقعت فيه ، من بكداش نفسه . وفي اليوم التالي ، اتصل بي صديقي عدنان بغجاتي ، وهو من كان رئيساً لاتحاد الكتاب المؤسس حديثاً ، وأوكلت إليه مهمة تنظيم مساهماتهم في الإذاعة والتلفزيون أيام الحرب . وحثني عدنان على نسيان المرارات السابقة ورجاني أن أجيء إلى اجتماع طارئ ينعقد في مقر الاتحاد ويشارك فيه الوزير صدقني . وذهبت إلى الاجتماع بصحبة منير الحمارنة الذي تلقى من عدنان رجاء

مماثلاً . وهناك ، وجدنا كثيرين من أمثالنا الذين يضيقون بمواقف صدقني وتزمته ، وكنا مستعدين حتى للعراك معه .

والحقيقة أن الوزير الذي كان أول المتحدثين وخاطب المجتمعين بنبرة متعالية لم يلبث أن أسلمنا رقبته بسهولة . فقد جلب صدقني معه ورقة التوجيهات التي تصدرها قيادة حزب البعث الحاكم إلى مسؤولي الإعلام في الدولة ليسترشدوا بها وأفهمَنا أنه يسترشد بهذه الورقة وهو يزودنا بتوجيهاته . ولما كان عطيّة الجودة قد أطلعنا ، منير وأنا ، على الورقة مسبقاً فما أسهل ما اكتشفنا أن الوزير يسترشد ببعض البنود ويغفل غيرها ، يأخذ ما يلائم تزمته ويتجاهل ما قد يلائمنا . وقد عدد صدقني ، مثلاً ، المواقف التي ينبغي إبرازها إزاء الفرقاء العرب والأجانب ، فحثنا على أن نشيد بدور الرئيس السادات ، والملك السعودي فيصل ، والملك الأردني حسين ، ولكنه تجاهل العراق الذي أرسل نجدة عسكرية لدعم الجبهة السورية . وتوقف صدقني عند الرئيس اليوغسلافي جوزيف تيتو : «هذا الصديق الكبير للعرب ، الذي لا ينام منذ بدأت الحرب ، والذي يتصل بالرفيق حافظ الأسد مرة كل ساعة أو اثنتين ليطمئن على الأحوال» . ومضى صدقني في هذا النحو إلى أن جاء في نهاية المطاف على ذكر الإتحاد السوفياتي فلم يزد على أن قال : «إياكم أن تتعرضوا له بسوء !» . وكان هذا أسوأ ما يمكن أن يقوله وزير إعلام في بلد لم يكن له أن يخوض أي حرب لولا معونة الاتحاد السوفياتي ولا يمتنّ جمهوره لموقف بمقدار ما يمتن للموقف السوفياتي . عندها ، رفعت يدي طالباً الإذن بالكلام ، غير أن منير سبقني : «كلهم رائعون ، الزعماء الذين كلفوا أنفسهم مشقة إصدار بيانات التأييد ، وتيتو الذي برى أصبعه وهو يدير قرص الهاتف ، هؤلاء كلهم تنبغي الإشادة بهم . أما الاتحاد السوفياتي الذي عوض مصر وسورية خسائر حرب حزيران/ يونيو العسكرية وأسهمت أسلحته كما أسهم خبراؤه في تطوير

جيشيهما وإعدادهما للمبادرة ، الذي غمر البلد بمعوناته الاقتصادية ، والذي يجنّد سياسته ودبلوماسيته وعلاقاته الدولية للدفاع عن عدالة المطالب العربية ، أما الاتحاد السوفياتي هذا فليس له علينا إلا أن نتجنب ذكره بسوء» .

بثّ منير سخريته واستحوذ على انتباه الحاضرين وتأييدهم له ، ثم هتف وهو يوجه إلى الوزير نظرة متهمة : «هذا التوجيه مخالف لتوجيهات قيادة الحزب الحاكم ، مخالف لبيانات قيادة الجبهة الوطنية التقدمية ، ومخالف خصوصاً لمزاج الجمهور وصادم لوطنيته ، ولا يصدر إلا عن كاره لوطنه ، ولولا أن الذي أصدره هو وزير الإعلام لقلنا إنه صادر عن جاسوس» .

قال منير ، إذاً ، كل ما يمكن أن أقوله أنا وأكثر منه . وتوقعت أن يهتاج الذي تلقى التهمة . لكن صدقني تطامن : «قلت ما قلته بصفتي كاتباً مثلكم وليس وزيراً . وسأترك لكم توجيهات القيادة ، تتدارسونها مع الرفيق عدنان وتنظمون عملكم !» . ثم غادر الاجتماع .

كان نبيه ارشيدات أسعد أصحابي بعودتي إلى الكتابة للإذاعة والتلفزيون السوريين . تصور الذي يفتنه في العادة كل ما أكتب أن الحظر قد سقط إلى الأبد . ولكن أمل نبيه سرعان ما خاب . فما أن توقفت الحرب وقبلت سورية وقف إطلاق النار حتى عاد الحظر . انتهى الظرف الطارئ ، فانتهت الفرصة الطارئة ، وعادت حليمة السورية إلى عادتها القديمة .

١٧
فرعون زهوٌ بنفسه، فلِمَ أحبّه؟

يتوقف صخب الأسلحة فيهدر صخب الكلام وينتعش الحديث عن التسويات السياسية . أليست الحرب استمراراً للسياسة فلماذا لا تصير السياسة استمراراً للحرب . والواقع أن الرئيس السادات استبق وقف إطلاق النار وأطلق مشروعاً للتسوية . فعل حليف سورية في الحرب هذا دون تشاور مع السوريين وقبل أن ينجلي الموقف على جبهتهم أو يتوقف القتال .

طرت إلى القاهرة . أعجلني مائة سبب . ولكم وجدت الوضع هذه المرة مختلفاً عن أي مرة سابقة !

عدّ المصريون عبور جيشهم قناة السويس وتدميره خط بارليف وفرار الإسرائيليين المدافعين عن الخط الحصين معجزة تحقق بها التعويض عن مذلات هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧ . وقف المانع المائي وخط التحصينات التي أُقيمت إزاءه بمثابة سدّ أمام الأمل بتحرير سيناء . فلما شق المصريون هذا السد بدا أن طريق تحقيق الأمل قد انفتح ولن ينسدّ ثانية . فارتفعت المعنويات واستعاد المدنيون والعسكريون توازن الروح . لقد تمّ الانتقام من الهزيمة وظفرت مصر بنصرها . غير أن شيئاً طارئاً اخترق الإحساس بالنصر وإن لم يبطله ، أو قل : إنهما شيئان ، الثغرة التي أحدثها الجيش الإسرائيلي غربيّ القناة وإعلان

السادات مشروع تسويته قبل أن تنجلي الحرب عن نتائج حاسمة .

بلغت القاهرة ، إذاً ، وفيها هذا المزيج من مشاعر الزهو بالنصر العسكري والقلق من أن تبدد السياسة نتائجه . وكان أصحابي قد عادوا إلى الصحافة وانهمكوا في المعمعان . بل إن من هؤلاء من أعاد النظر في موقفه السابق من السلطة وخطّأ نفسه ، ومنهم من قدّم اعتذارات علنية عن سوء ظنه بالرئيس السادات . وكان إحساس الجميع ، أصحابي وغيرهم ، بعظمة مصر وكبر دورها العربي والعالمي متضخماً إلى حد أقلقني أنا نفسي ، وأنا الذي يحب مصر ويحبّ خصوصاً أن يكبر دورها ويفرحني أن تظهر عظمتها .

لمست شيئاً من هذا التضخم قبل أن أتوجه إلى القاهرة ، لكني حسبت ما عاينته حالة فردية فلم يقلقني . ففي دمشق قابلت محمد عودة ، وكان الصحافي الكبير صاحب الاسم المحترم قد نحّي عن الإعلام مع الذين نحّوا فخرج في جولة طويلة انتهت به إلى دمشق قبيل بدء الحرب ثم احتجزته الحرب فيها . جئت إلى عودة في فندقه أول ما وصل فوجدته بائساً يائساً ينعى كل شيء ولا يرى فرجة أمل . ثم جئت إليه بعد أن عبر جيش مصر القناة واخترق الجيش السوري حصون الجولان فوجدته ، بالطبع ، في حالة مغايرة ، وأسعدني أنه اجتاز أزمته . كان معي في هذا اللقاء صديقنا المشترك التلفزيوني الهنغاري الذي آمل في أنك ما تزال تتذكره ألايوش كروديناك . وفي حديثنا مع عودة ، اتفقنا ، ألايوش وأنا ، على أن هذه الحرب سوف تفتح الباب أمام إمكانية تطبيق القرار ٢٤٢ ، وظننا أن عودة متفق معنا في هذا الرأي . لكن المنتقل لتوّه من قاع اليأس إلى أفضية الزهو سخط سخطاً لم يتوقعه أي منّا فأنّب صاحبنا الهنغاري على ما عدّه استهانة منه بعظمة مصر مستنكراً أن يتصور الشيوعي أن مصر العظيمة ستكتفي بتطبيق القرار ٢٤٢ وحده ، ثم انفجر في وجهي أنا : «فيكم أنتم العرب شيء ضد مصر ، هذا

العبور لن يؤدي إلى تحرير سيناء وحدها، إنه بداية زوال إسرائيل».

لا أريد أن تفهم أن كل من لقيته في مصر بعد انتهاء الحرب كان مثل محمد عوده الذي لقيته في أيامها الأولى. إلا أن من لم يفتنهم حديث المعجزات في درجة أو غيرها كانوا قليلين. ومن هؤلاء كان مصطفى الحسيني ومكرم محمد أحمد ومصطفى نبيل، ومعهم ومع أمثالهم رحت أتقصى الصورة. وكان في البال سؤال كبير: «كيف أفلح الإسرائيليون في إحداث الثغرة غربي القناة وتبهيت ألق الانتصار المصري وإطفاء اندفاعة الهجوم الناجح الأولى؟». وسأتعبك لو رويت مئات التفاصيل التي وقعت عليها. ويكفي أن تعرف أن ما استخلصته انصب كله في مصبّ واحد: القصور عن الإحاطة الشاملة بمتطلبات عمل كبير. وقد كان هذا القصور في بعض أوجهه فاضحاً إلى حد تعذر معه تداركه أو حتى تحديد المسؤولية عنه.

سأضرب لك مثلاً استقيته من حديث تيسر لي مع عميد في هيأة تخطيط العمليات في وزارة الدفاع أخذني أحد أصحابي الصحافيين المصريين إليه. فقد احتشد الجيشان المصريان الأول والثالث غربي قناة السويس على امتداد القناة متهيئَين لعبورها. وقضت الخطة الموضوعة بعبور القناة وتدمير عُقد خط بارليف والاستمرار في الهجوم إلى أن تصل القوات المصرية إلى الممرات الحصينة في عمق سيناء المتحكمة في الحركة فيها، وذلك كله، حسب الخطة، قبل أن تعبئ إسرائيل احتياطيها العسكري وتنظم الهجوم المضاد. وخلال إعداد الخطة وفي أي وقت لاحق، ظل في البال أن النقطة التي تنتهي عندها منطقة الجيش الأول وتبدأ منطقة الجيش الثالث تشكل نقطة ضعف ويمكن أن تخترقها أي قوة إسرائيلية تصل إلى غرب القناة. ولمواجهة هذا الخطر، خُصص لواء كامل للمرابطة إزاء هذه النقطة ومقاومة أي خرق ومشاغلة الخارقين إن كانت قوتهم كبيرة إلى أن تصل النجدات

لصدهم . والذي حصل في الواقع أن العبور تم وعُقد بارليف دمرت . لكن الوحدة الإسرائيلية التي اخترقت نقطة الضعف هذه لم تجد من يقف في وجهها ، ثم لم يأت من يصدها . واللواء الذي خصص لهذه المهمة لم تكن أي من وحداته في المكان الذي خصص لها . فمن الذي أبعد لواءً بكامله ، ولماذا أبعد ، وكيف وهنت اليقظة ، ولماذا استهين بالخرق عند بدايته حتى بعد العلم بوقوعه ، هذه وغيرها كثير أسئلة لم يتوفر لي جواب يقيني على أي منها . وما ينطبق على هذه الأسئلة ينطبق هو ذاته على أي أسئلة يثيرها أي موضوع آخر .

في دمشق ، استخلص السوريون أن حليفهم المصري أرادها حرب تحريك تنشط مساعي التسوية السياسية فيما أرادوها هم حرب تحرير تستعيد الأرض المحتلة ، وسخطوا على السادات . وعندما شرع المصريون في التفاوض مع الإسرائيليين لفك الحصار عن الجيش الثالث وسحب القوات الإسرائيلية من غرب القناة ، رأى السوريون أن السادات ممعن في التساهل إزاء الشروط الإسرائيلية وغير معنيّ بالربط بين مصير الجبهتين اللتين باشرتا الحرب معاً ، فازداد سخطهم على الرجل ونبتت التصدعات التي زعزعت في نهاية المطاف التحالف المصري السوري . وعندما باشر السادات لقاءاته المتواترة ومحادثاته الخلوية مع وزير الخارجية الأميركية هنري كيسنجر ، بلغ سخط السوريين الذروة وجهروا به . وفي هذا الجوّ ، وجد الفلسطينيون أنفسهم تحت تأثير الموقفين المتضاربين وتوزعت المواقف الفلسطينية بين مؤيد لهذا وبين مؤيد لذاك ، وحار كثيرون .

في غضون ذلك ، جهرت دمشق لأول مرة بقبولها القرار ٢٤٢ هي التي قبلت أيضاً القرار ٣٣٨ الذي أصدره مجلس الأمن الدولي بتأثير الحرب الجديدة . ولكن دمشق أعطت لموافقتها على القرارين تفسيراً تميز موقفها به عن

موقف السادات المتجه إلى التساهل . والحقيقة أن تفسير دمشق للقرار ٢٤٢ تطابق مع ما كان عليه تفسير عبد الناصر : الانسحاب الإسرائيلي الكامل إلى حدود الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ ، وضمان الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني . أما القرار الجديد ٣٣٨ ، فرأت دمشق فيه تحديداً لآلية تطبيق ٢٤٢ ، وهو تحديد يخصّ الأمم المتحدة وحدها بحق رعاية التطبيق . وعندما جهر السادات بميله الصريح إلى الولايات المتحدة الأميركية واعتقاده أنها تملك ٩٩ بالمائة من أوراق الشرق الأوسط ، عنى هذا استبعاد دور الاتحاد السوفياتي والاستهانة بدور الأمم المتحدة ، فاعترض السوريون وانفكّ التحالف وحلّ محله التنابذ وتبادل التهم .

في هذا الوضع الجديد ، باشرت سورية حرب استنزاف عبر خطوط وقف إطلاق النار الجديدة ، وكان الهدف واضحاً : التشويش على المفاوضات التي يجريها السادات مع الأميركيين والإسرائيليين من وراء ظهر سورية ، وإرغام الراغبين في استقرار الشرق الأوسط على التدخل لحمل إسرائيل على الانسحاب .

ولئن ماجت الساحة الفلسطينية بالتفاعلات قبل أن يصل الأمر إلى هذا الحد ، فإن هذه التفاعلات اشتدت بعده : آراء متعددة ، متفقة أو متفاوتة ، أو متضاربة ، واختلاط مواقع ، وجدل محتدم ، ونزاعات ، واتهامات . وفي إبان هذه التفاعلات ، راح الموقفان الرئيسيان يتمايزان ويشتد تمايزهما : موقف القابلين بالانهماك في مجهودات التسوية السياسية وموقف الرافضين . وغني عن البيان أني وجدتني غارقاً في هذا كلّه بكليتي وواتتني الفرص لأفصح عن آرائي دون جمجمة وبغير نقصان ، وصرت كما يمكن لك أن تحزر بسهولة صاحب واحد من أعلى الأصوات في الدعوة إلى قبول م . ت . ف بمبدأ التسوية السياسية وحسم التردد الذي يسم موقفها .

وبتأثير حرب تشرين الأول/ اوكتوبر والآفاق التي فتحتها ، ومع التأثير المتميز لحرب الاستنزاف السورية ، هبّ جمهور الأرض المحتلة في الضفة والقطاع إلى واحدة جديدة وشديدة من انتفاضاته المتعاقبة . وتشكلت الجبهة الوطنية التي نظمت نشاط هذه الانتفاضة وصار للشيوعيين دور ظاهر فيها . وأظهرت الجبهة ميلاً غير متستر إلى الواقعية السياسية وحثّت قيادة م . ت . ف . على حسم الخلافات بشأن التسوية بين أطرافها والانهماك في المجهودات التي تستهدف تحقيقها . أما القوى الرافضة فإن تأثيرها داخل الأرض المحتلّة لم يكن حاسماً . ولهذا فقد تركز نشاط الرافضين في الخارج ، خصوصاً في مخيمات اللاجئين في لبنان وسورية وتجمعات الفلسطينيين في البلاد البعيدة . وانتهى الأمر إلى أن شكلت الفصائل الرافضة تحالفاً رسمياً تصدرته الجبهة الشعبية وسانده العراق وليبيا وحمل اسم جبهة القوى الفلسطينية الرافضة للحلول الاستسلامية ، وذلك مقابل تحالف واقعي ضم «فتح» والصاعقة والشيوعيين والجبهة الديمقراطية والنسبة الكبرى من المستقلين سياندته سورية وغيرها . ووضعت التطورات أمام الجميع أسئلة المصير : هل نواصل الدق على الجدار الصخري أم نسعى إلى الظفر بما هو ممكن ، فلسطين التي من النهر إلى البحر هذه التي يزداد الأمل بتحريرها نأياً مع أي تطور جديد ، أم الدولة الفلسطينية في الضفة والقطاع ، العزف الناشز وسط جوقة عربية ودولية تسعى إلى تسوية ، أم الانسجام ؟

وفي سياق الجهد الإسرائيلي لقمع انتفاضة ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ التي أحدثك عنها ، أُبعد ثمانية من زعماء الجمهور عن الأرض المحتلة دفعة واحدة . تصورت سلطات الاحتلال أن هؤلاء هم قيادة الانتفاضة أو قادة الجبهة الوطنية ، فاعتقلتهم في يوم واحد وألقتهم في براري وادي عربة عند الحدود مع الأردن . إنه الطرد من الوطن وهو أوجع ما تعرض له الفلسطينيون ،

الزعماء منهم وغير الزعماء .

تحتفظ ذاكرتي بأسماء ستة من الثمانية الذين أبعدوا . وهؤلاء هم عربي عواد مسؤول التنظيم الشيوعي في الضفة ، وجريس قواص ، وضمين عوده زميلا عربي في قيادة التنظيم ، وعبد الجواد صالح رئيس بلدية البيرة المنتخب ، ود . وليد قمحاوي القومي العربي السابق ، وعبد المحسن أبو ميزر البعثي الذي حدثتك عنه عندما كان رئيساً لتحرير جريدة «البعث» في دمشق ، وكان قد رجع إلى القدس قبل سيطرة الإسرائيليين عليها وصار فيها محامياً مشهوراً .

وصل الثمانية إلى عمان وحظوا باهتمام واسع ، رسمي وشعبي ، واستقبلهم ملك البلاد ، وتعامل الجميع معهم بوصفهم قادة الأرض المحتلة والانتفاضة التي أزعجت إسرائيل ، وأفردت وسائل الإعلام العربية كلها مساحات وافرة لتغطية أنبائهم . وقد هزّ هؤلاء مشاعر الرأي العام هزاً عميقاً حين توجهوا إلى جسر الملك حسين على نهر الأردن وحاولوا اختراق الحراسات الإسرائيلية والعودة إلى الوطن . فهذه كانت مظاهرة شاهدها ملايين الناس على شاشات التلفزيون وقد رمزت إلى العناصر المؤثرة في الحالة الفلسطينية كلها وأبرزت الميل الفلسطيني الآخذ في التشكل ، الميل إلى استخدام الوسائل السلمية ، إلى جانب العنف ، في الدفاع عن الحقوق . وبعد عمان ، جاء الثمانية إلى دمشق . وهنا ، أيضاً ، استقبلوا باهتمام واسع . وفي دمشق ، تسنى لي أن ألتقي المبعدين ؛ كانوا بالنسبة لي رسل الأرض المحتلة المبشرين بالواقعية السياسية وبإمكانهم أن يلعبوا دوراً مؤثراً في إغناء الجدل داخل م . ت . ف ، وجمهورها وترجيح كفة الاتجاه الذي أتمناه ، فسعيت إلى التعرف على من لا أعرفهم منهم .

في هذا الظرف ، تجلّت براعات ياسر عرفات كلّها وهو يسعى للظفر بمقعد

للفلسطينيين في عربة التسوية فتوثقت صلتي به زيادة على ما هي وثيقة واشتد تأييدي لمساعيه . كان ركاب العربة الرئيسيون هم المصريين من العرب ، والإسرائيليين من الجانب الآخر ، والأميركيين والسوفيات . أما السوريون فبدوا في وضع من اشترى التذكرة ثم لم يلتحق بالعربة لأن برنامج الرحلة لم يعجبه . وفي سياق السعي إلى تطبيق القرار ٣٣٨ المعطوف على القرار ٢٤٢ ، صدرت الدعوة إلى عقد مؤتمر دولي ترعاه الأمم المتحدة ويرأسه كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وتحضره الدول المتصارعة . واتفق على أن ينعقد المؤتمر في جنيف . وقد قبلت إسرائيل الدعوة إلى مؤتمر جنيف هذا ، وقبلها ، أيضاً ، كل من مصر والأردن ، ورفضتها سورية .

انقسام العرب هذا صبّ زيتاً جديداً على الجدل الملتهب بين الفصائل الفلسطينية أو داخل كلّ فصيل منها . الجبهة الوطنية في الأرض المحتلة جهرت بتأييدها للمؤتمر وحثت قيادة م . ت . ف . على السعي لتمثيل الفلسطينيين فيه . وفي مقابل هذا ، عدّت جبهة الرفض المشاركة في مؤتمر جنيف خيانة وليس أقل من ذلك ، وأنذرت بأنها ستستخدم السلاح ضد من يجرؤون على المشاركة . وفي حالات بعينها ، استخدمت جبهة الرفض السلاح فعلاً لإخافة الذين يدعون إلى المشاركة . وفي «فتح» ، ظهر الميل إلى المشاركة في سياق الميل الأعمّ إلى التسوية ، لكنه لم يفصح عن نفسه بصراحة . ولشدّ ما تشابكت الدوافع والآراء وتعددت المواقع واختلطت على الساحة الفلسطينية !

ولئن كان في مقدور ياسر عرفات أن يواجه جبهة الرفض ويهمل تأثير العراق الرافض للتسوية ، فإنه لم يستطع تجاهل الموقف السوري وتأثيره كما لم يستطع مجاراة الموقف المصري بعد أن أظهر السادات تهاوناً غير مسبوق وتضاءلت شعبيته بين الفلسطينيين . وقد أدرك عرفات أن معركته داخل

الساحة الفلسطينية هي معركة مقاومة التأثير العربي غير المواتي لسياسته فيها . ولما كان من المتعذر تنحية هذا التأثير ، فقد صار لا بدّ من اجتذاب المرتكنين إليه إلى هوامش مشتركة مع «فتح» وحلفائها . والحقيقة أن عرفات استثمر إلى أبعد الحدود ميل جمهور الأرض المحتلة نحو التسوية ليضغط على معارضيها في الخارج . ومن هنا ، أحاط عرفات المبعدين الثمانية برعاية غير مسبوقة وعمل على تكريسهم متحدثين باسم هذا الجمهور وقادة له ليستفيد من هذه المكانة . وفي سياق الاستثمار المقصود ، نظمت للمبعدين جولات متصلة أشرف عرفات بنفسه على إعداد تفاصيلها وأُتيح لهم أن يواجهوا مجموعات الشتات الفلسطينية في كل مكان أمكن الوصول إليه ويحاوروها . كما نظمت للمبعدين زيارات رسمية لعدد من العواصم العربية ليحاوروا المسؤولين وقادة الرأي فيها . ثم جاء وقت تتويج جهود المبعدين بزيارة إلى مصر .

وقتها ، رنّ الهاتف المبكر : «الختيار يدعوك إلى الفطور» . وقال أبو عمار في خلوتنا كلاماً موجزاً ومستقيماً : «مصر هي أهم محطة في جولة المبعدين ، وأنت تعرف مصر جيداً ، ولك فيها صلات مؤثرة ، فلا بدّ من أن ترافقهم !» . وعندما قرأ عرفات في ردّ فعلي ترددي ، ظن أني أستصغر المهمة . وكان هذا الظن في الواقع صحيحاً ، فقال قاطعاً عليّ طريق الاعتراض : «أنت عندي أهم من أي واحد منهم ، وأنت لا تهتم بالشكليات . نريد أن نكسب الإعلام المصري ، ولا أجد لهذه المهمة من هو أكفأ منك إلا واحداً هو ابن عمك عبد الله وقد عرضتها عليه فرفضها لأنه يهتم بالشكليات ، فلم يبق سواك» . ووضعت شرطاً وحيداً : أن لا يتدخل أحد في ما سأفعله لجعل الزيارة ناجحة . فأصدر عرفات تعليماته بأن أكون أنا المسؤول عن زيارة الثمانية إلى القاهرة وتنظيم برنامج الزيارة ، وطلب إبلاغ التعليمات إلى قيادة إقليم «فتح»

في مصر كي تقوم بما يلزم لتسهيل المهمة .

وقتها ، كان صديقي أبو الهول قد ترك هذا الإقليم وصار معتمداً لإقليم «فتح» في لبنان قبل أن يصير عضواً في اللجنة المركزية وحلّ محله في القاهرة معتمد لا تربطني به إلا معرفة بعيدة . ويبدو أن إيلائي ، أنا غير الفتحاوي ، مسؤولية الزيارة قد ساء هذا المعتمد . فعندما وصلنا إلى مطار القاهرة ، لم نجد في استقبالنا إلا بعض معاوني المعتمد الثانويين . أما من المصريين فكان في استقبالنا في المطار المسؤول عن الشأن الفلسطيني في المخابرات العسكرية العقيد إبراهيم الدخاخني . وكان من السهل أن أستخلص سبب هذا المستوى غير اللائق من الاستقبال : غاب معتمد «فتح» لأنه مستاء ، وأبلغ إلى الجهات الرسمية نبأ الزيارة بما يقلل من شأن الزوار . ثم اتضح أن مكتب «فتح» لم يفعل أي شيء عدا هذا ، فلم يحجز فندقاً ولا أحضر سيارات ولا أبلغ نبأ الزيارة إلى أي جهة سياسية . وهكذا ، توجب علي أن أباشر كل شيء بنفسي وأبدأ من الصفر .

كنت أعرف مصر حقاً معرفة جيدة وكنت أعرف ، أيضاً ، ربعي . وما أسهل ما عوّضت بعض قصور الذين تعمدوا التقصير إلى أن أرغمتهم على تدارك ما بقي منه .

تدبرت أمر الفندق وأنا بعد في المطار . وجلب العقيد الدخاخني سيارات من إدارته القريبة فحملتنا إليه . وما أن حللنا في الفندق وذهب أصحابي إلى استلام حجراتهم حتى اتصلت بإحسان بكر محرر الشؤون الفلسطينية في «الأهرام» ، فخفّ الصديق المصري الذي يعُدّ نفسه فلسطينياً أكثر من الفلسطينيين إليّ . وفي الصباح التالي ، صدرت جريدة «الأهرام» التي يقرؤها أكثر من مليون مصري وفيها نصف صفحة كاملة عن الزوار والزيارة وأهميتهم وأهميتها . فتراكض صحافيو مختلف المؤسسات الإعلامية إلى الفندق ، ولم

يبق علي إلا أن أختار الذين يستحقون مقابلة زعماء الأرض المحتلّة وأذبّ الآخرين .

كانت «الأهرام» دولة للصحافة وبحماسها للزيارة تحمست لها الدولة المصرية كلها . وهكذا ، ازدحم البرنامج : لقاءات مع رئيس مجلس الأمة الدكتور سيد مرعي وأعضاء الحكومة الرئيسيين كلهم وقادة المنابر السياسية ، واجتماعات عمل مع مختصين ، وحوارات مع مفكرين ، وموائد تكريم ، ومقابلات مع الصحف والإذاعات والتلفزيون ، وما إلى ذلك ، اهتمام ، وحفاوة ، وتغطيات إخبارية لهذا النشاط كله مثيرة ووافية . وفي هذه الأثناء ، تحدد موعد اللقاء الذي طلبناه مع الرئيس السادات .

سأتعبك كثيراً لو رويت التفاصيل . ولكني سأروي وقائع اللقاء مع ممدوح سالم وهو من كان آنذاك نائباً لرئيس الحكومة ووزيراً للداخلية ، وصار بعد ذلك رئيساً للحكومة .

كانت وزارة الداخلية منهمكة في الصراع المديد مع طلبة جامعات مصر المعارضين للسلطة الساخطين على ما يعدّونه تهاوناً منها إزاء إسرائيل وتبعية للولايات المتحدة . وكان لعضو مجموعتنا عبد الجواد صالح ابن ، هو صالح ، يدرس في القاهرة وقد انهمك في نشاطات الطلاب ضد السلطة ، فأبعدته وزارة الداخلية عن مصر . وشاء عبد الجواد أن يراجع الوزير بشأن ابنه ليظفر للابن بإذن بالقدوم إلى مصر ليؤدي امتحانات الجامعة . وآثرت أنا الانتظار إلى أن تلتقي المجموعة كلها الوزير حيث من الأفضل أن يطرق الموضوع واحد منها غير الأب . والواقع أن ممدوح سالم لم يحوجنا إلى أي مناورة ، فهو الذي طرق الموضوع بنفسه : «إزيّك يا أبو صالح ، وازّي صالح» ، فرد عبد الجواد بنبرة برمة : «صالح زي أبوه . أبعدت إسرائيل الأب ، وأبعدت مصر الابن» . وكانت هذه مقارنة من شأنها أن تسخط أي مسؤول ، غير أن الوزير المصري

ابتسم ابتسامة المتفهم : «صالح ولد جدع ، بس هو زوّدها حبتين ، وعلى كل حال حقك وحقّه علينا» . قال ممدوح سالم هذا ثم أبلغ إلينا أنه وقّع لتوه على قرار يأذن لصالح بالعودة إلى مصر وتأدية الامتحانات .

وفي الليلة التي سبقت لقاءنا مع السادات ، وصل ياسر عرفات إلى القاهرة ، فخففنا إليه واحتشدنا حوله في الشقة الصغيرة . كان أصحابي مبهورين بالاستقبالات التي حظوا بها في مصر ، فكانت أساريرهم منبسطة وأمزجتهم رائقة ، ولم يفتهم أن ينوّهوا بجهودي . وشاء عبد المحسن أن يسجل نقطة لصالحي ما عددته أنا بمثابة رشوة قد أطالب منه بما يقابلها ، فقال أمام عرفات : «بذل فيصل جهداً مشكوراً» ، وهمّ بإضافة شيء ، غير أن عرفات قاطعه : «جهد مشكور ؟ بس ! حصلتم على اهتمام لا أحصل أنا نفسي عليه ، وتقول مشكور ، بس !» . وبمعرفتي بعرفات ، أدركت أن عبارته هذه تنطوي على شيء من السخط ، فكأنه أراد أنْ يقول إني ذهبت إلى أبعد من المطلوب . وما أعجب شأن عرفات حين يتعلق الأمر بأضواء الإعلام ، فها هو الشأن الفلسطيني قد ظفر باهتمام إعلاميّ استثنائي تمّ ، بمعنى ما ، بناءً على طلبه فلا بد أن يسعد به وأغلب ظني أنه سعد به حقاً ، وها هو بالرغم من هذا ساخط لأن الاهتمام تركز على سواه !

في الفندق ، قلت لأصحابي إن نتائج اللقاء مع السادات هي التي ستقرر ما إذا كنتم قادة يتحدثون باسم الأرض المحتلة أو مجرد زوار يجيئون إلى القصر الجمهوري للتحية . وأرغمت أصحابي إرغاماً على وضع خطة مفصلة لسلوكهم في اللقاء . وقد اتفقنا على أن يشرح عبد الجواد صالح الوضع في الأرض المحتلة وما تتعرض له على أيدي سلطات الاحتلال الإسرائيلي وما تتوق إليه وتنشده من مساندة مصرية . كما اتفقنا على أن يتسلم عبد المحسن الكلام بعد عبد الجواد فيوجز التصور الفلسطيني لبنود التسوية السياسية المقبولة :

انسحاب إسرائيل من الضفة والقطاع والحمة المحتلة، وممرات تصل المناطق الثلاث هذه بعضها ببعض، والدولة المستقلة، وعودة اللاجئين والتعويض. وخططنا أن يختتم عربي عواد الحديث فيأتي إلى ما يأخذه جمهور الأرض المحتلة على السياسة المصرية وتوجهها نحو استرضاء الولايات المتحدة واستبعاد الاتحاد السوفياتي وما إلى ذلك مما صرت تعرفه. وتوقفنا طويلاً عند العبارة التي ينبغي أن يستخدمها عبد الجواد صالح في مفتتح الكلام وما توجبه طبيعة اللقاء من مجاملات. وانتهينا إلى الاتفاق على نص العبارة. وقد احتفظت ذاكرتي بهذا النص لطول ما تناقشنا حوله وكثرة ما رددته مع عبد الجواد وقتها حتى يحفظه عن ظهر قلب فلا ينقص منه ولا يزيد عليه: «جمهور الأرض المحتلة يثمن تضحيات الشعب المصري وبطولة جيشه الذي عبر القناة بقيادتكم».

كان علينا أن نجيء إلى مقرّ إقامة الرئيس السادات في الجيزة في العاشرة صباحاً. وكان معتمد «فتح» قد تعهد إحضار السيارات التي ستنقلنا. لكن الموعد أزف دون أن تحضر السيارات أو يظهر أي معتمد. فصار لا بدّ من أبادر. وهكذا، وصلنا المقرّ الرئاسي في قافلة من ثلاث تاكسيات. وتوجب أن نقدم إيضاحات كثيرة لحراس الحاجز الأمني الذي يسدّ مدخل الشارع القصير المفضي إلى المقر. فأذن لنا أن نعبر الحاجز على أن نتوجه إلى المحرس القائم قبيل مبنى المقر مشياً على الأقدام. وهكذا، بدونا من أول أمرنا مراجعين وافتقدنا المهابة اللازمة للزوار ذوي الأهمية. وعند المحرس، استوقفنا حرّاس آخرون وتكررت الأسئلة والإيضاحات. وقبل أن نبلغ مدخل المبنى الذي نقصده، استوقفنا رجال أمن بملابس مدنية يشغلون ما يشبه أن يكون مكتب دخول، وأصر هؤلاء على أن نشرب الشاي بصحبتهم، واحتفوا بنا، نحن الفلسطينيين الجدعان حسب تعبيراتهم، بأن رفعوا الكلفة.

وعندما أمكن أن نلج أخيراً مدخل القصر الذي يقيم فيه الرئيس ، اقتادنا موظفو مراسم إلى حجرة منعزلة وأحضروا مزيداً من الشاي . وهنا ، توجب أيضاً أن ننتظر ونحن نتسقط أي نأمة تشي بأننا سنظفر باللقاء الموعود . وكنّا نشرب الدورة الثالثة أو الرابعة من أكواب الشاي حين التقطت آذاننا جرس حركة هابطة نحونا من الدور العلوي للقصر وميّزنا صوت عرفات وصوت السادات . فتعجل أصحابي تنحية أكواب الشاي التي لم يتموا شربها ووقفوا كما يقف جنود أقبل عليهم جمع جنرالات ، وتهيؤوا للقاء ، وانصبت نظرات العيون على مدخل الحجرة ، فيما سكن الصمت والترقب جوّها . وعندما دنت الخطى واشتد اللغط ، اشتد التنبه واشتد معه تصلب الأجساد المنتصبة وتحسست الأنامل أزرار السترات . وفي اللحظة التي لاحت فيها أمام العيون قامة السادات ومعه أبو عمار ، اندفع أصحابي ناحية باب الحجرة . غير أن الزعيمين لم يتوقفا ، بل تابعا سيرهما الوئيد في الممر ، وأخذ وقع الخطى يتلاشى إلى أن غاب . بالرغم من هذا ، بقي أصحابي واقفين . وفيما هم أسرى خليط المشاعر المسيطرة ، دخل الحجرة موظف مراسم ووراءه خادم يحمل دورة جديدة من أكواب الشاي . فدعا الموظف الواقفين إلى الجلوس وطمأنهم : «حتشوفوا الريس قريب ، بإذن الله» . ودار الخادم بالأكواب على الجالسين .

لم يكن لأي خطة أن تبقى في البال بعد معاملة كهذه المعاملة وقلق بهذه الشدة التي اتسم بها قلق أصحابي . وقد توجست أن ينسى هؤلاء ما اتفقنا عليه ، فذكّرت به هامساً ، فتلقيت إجابة موافقة أومأت بها النظرات ، إلا أنها كانت واهنة . وفي داخلي ، أدركت مغزى الموقف : زعيم الفلسطينيين عند السادات هو واحد وهو ياسر عرفات ، وللآخرين منزلة الرعايا ، ولا داعي لتصعيب فرص الضغط عليهم بإكثار عدد الزعماء . وفي خلفية هذه المعاملة ،

كمنت حقيقة أن السادات لم يكن مرتاحاً لمواقف ممثلي الأرض المحتلة ولا للانتفاضة التي تشوش مساعيه إلى التفاهم مع الأميركيين والإسرائيليين . وهؤلاء القادمون من الأرض المحتلة إما فتحاوي قد يقبل التوجه إلى التسوية لكن ليس عبر استرضاء أميركا والتساهل مع إسرائيل ، وإما شيوعي ، أو بعثي ، أو قومي عربي ، أو أي من هؤلاء الذين يضيق رئيس مصر بهم وبمواقفهم المتشددة . وكان أصحابي قد أفصحوا عن هذه المواقف في وسائل الإعلام ولقاءاتهم مع المسؤولين . وكان عربي عواد قد جهر صراحة بأن السادات أساء للمصالح العربية حين أدار الظهر للسوفيات ولسورية وتوجه نحو الأميركيين والإسرائيليين . وكان عبد الجواد صالح قد حضر قبل ثلاثة أيام أمسية احتفالية نظمها له طلبة مصريون يساريون من أصدقاء ابنه صالح وقال في الأمسية عن السادات ما يقوله هؤلاء عنه ووافقهم على رأيهم حين وصموا السادات بالخيانة .

ورد هذا كله في بالي وأنا أنتظر مع المنتظرين في الحجرة المنعزلة . وسطعت في ذهني حقيقة أخرى نبهني إليها وجود عرفات مع السادات : هذا هو ، إذاً ، ما توخاه الزعيم الفلسطيني من زيارة المجموعة إلى مصر ، أن يستمع المصريون إلى أنصار التسوية المتشددين فيستعين هو بالتشدد أو يحتج به في مساوماته مع السادات وتليين الضغوط التي يصبّها الرئيس المصري عليه . وأغلب الظن أن السادات أدرك هدف عرفات هذا أو وجد من نبهه إليه .

وأياً ما كان عليه الأمر ، فقد جاء من دعانا إلى التوجه إلى مقابلة الرئيس . واقتادنا موظف مراسم إلى قاعة فسيحة يقف السادات في صدرها وعرفات بجانبه . وما أن ولج أصحابي مدخل القاعة حتى انطلقوا ناحية الرئيس بغير نظام ، فتزاحموا وتدافعوا ، بل قل إنهم تسابقوا إليه وتحقق السبق لاثنين منهم هما عبد المحسن أبو ميزر وجريس قوّاص . وتدافع هذان الاثنان

أمام الرئيس وغلب عبد المحسن منافسه فكان أول من حظي بالمصافحة . وتصادف أن كان عبد المحسن وجريس كلاهما يلبسان سترتين متماثلتين اشترياهما معاً من محل واحد في دمشق . ولأمر ما ليس من الصعب استخلاص دلالته ، أرسلت الرئاسة إلى الصحف صورة الرئيس مع هذين الشخصين وحدهما ونبأ استقباله للوفد . وبنشر الصورة . بدا كأن الرئيس استقبل وفداً يلبس زيّاً موحداً كما هو شأن الكشافة ، مثلاً .

بعد استكمال المصافحات ، ضمت الجميع حلقة انعقدت في ركن يتوسط القاعة . ووقتها أتيح لي أن أتأمل السادات عن قرب . وعلي أن أقول لك إن هذا اللقاء مع السادات جرى بعد يومين أو ثلاثة من فكّ الحصار الإسرائيلي عن الجيش الثالث المصري . فلم يكن غريباً ، إذاً ، أن يتسربل السادات بزهو فاق ما يسربله في العادة . لقد كان أمامي رجل شديد الازدهاء بنفسه ، مفرط في إحساسه بعظمة ذاته ، يلبس زيّاً عسكرياً فُصل له من الغبردين الفاخر ، وقد قيل لي إن الباريسي بيير كاردان هو الذي فصله ، ويُتوج رأسه بقبعة مزينة بشارات المارشالية المذهبة ، ويحتضن تحت إبطه عصى المارشال أو يلوح بها بيده حسب الأحوال ويوجه إلى جلسائه نظرة تحطّ عليهم من علٍ ، وتظل النظرة هي ذاتها إن كان يتحدث أو إن كان يصغي ، إن نظر إليهم مواجهة أو مجانبة ، ولا تتبدل إلا حين يشرد ، إذ أنها تتوجه مع الشرود إلى أعلى . وفكرت ، مستحضراً آراء أصحابي المصريين : هذا رئيس جمهورية يرى نفسه فرعوناً ويجتهد كي يعامله الناس على هذا الأساس .

لست أظن أن أياً من أصحابي قد انتبه إلى ما انتبهت أنا إليه أو شغلته الهواجس التي شغلتني . بل يبدو أن ما أثار ضيقي بهذا الفرعون هو ما بهر أصحابي وجعل معظمهم يتطامن في حضرته . وقد نسي هؤلاء ، إلا واحداً منهم ، ما اتفقنا عليه . وبدل العبارة التي حفّظناها لعبد الجواد عن ظهر قلب ،

افتتح أبو صالح الحديث بهذه العبارة : «في الأرض المحتلة يلهج الناس بذكرك ويقولون إن صلاح الدين الأيوبي قد عاد» . وها أنا ذا أتذكر النظرة الحارقة التي وجهها أبو عمار إليّ خطفاً عندما فاه عبد الجواد بعبارته ، فقد حملت النظرة اتهاماً لي بالتقصير في إعداد أصحابي للقاء . ولم أكن في وضع يأذن بالدفاع عن نفسي . فاكتفيت بحركة من يديّ قالت للائمي إني بذلت جهدي ولا ذنب لي إن كان أصحابي ممن لا يُركن إليهم . وإذا كان عبد الجواد وهو المشهود له بالجرأة قد قال هذا الذي قاله فبإمكانك أن تتصور دون عناء ما الذي قاله عبد المحسن وهو المشهور له بأنه يتملق أي صاحب نفوذ . وحده عربي عواد لم يخرق الاتفاق ، بل إنه أخذ على عاتقه أن يقول ما لم يقله زميلاه . لم يفت عربي أن يردد في مطلع حديثه العبارة التي اتفقنا عليها ، غير أنه دخل بعدها إلى موضوعه : «لا أخفي عليك يا سيادة الرئيس أن الجماهير في الأرض المحتلة قلقانة» . تحدث عربي باللهجة التي تجعل القاف كافاً وبيّن أسباب القلق وأفاض في التحذير من مخاطر التساهل مع إسرائيل ورهن التسوية بإرادة الولايات المتحدة واستبعاد السوفيات . لكن صراحة عربي ، وقد تحدث بعد المبهورين بالسادات ، أظهرته صوتاً ناشزاً داخل السرب .

السادات تحدث ، تحدث طويلاً في واقع الأمر ، ولكنه كان حديثاً مرسلاً يشبه حديث صاحب مضافة ريفيّة لزوار مضافته العابرين . شتم السادات السوفيات في مطلع حديثه : «طردتهم من مصر» ، قالها بنبرة مباهية ، نبرة من طرد محتلّين من أرض وطنه ، ثم أضاف : «بالجزمة» ، أي بالحذاء ، وكرر الرجل شتائمه للسوفيات في ثنايا حديثه كلّه . وحظي البعثيون بشتائم وافرة من الرئيس ، سماهم البعثيين العيال ، أي الأطفال ، وأمطرهم بشتائمه وكرر تحذيره لعرفات من الاعتماد عليهم . ثم تحدث السادات عن التسوية المنشودة ، عن مساعيه مع الأميركيين ؛ تحدث بنبرة الأب الذي يواطئ أولاده على

تفويض الأمر له والثقة به وبقدرته على تحقيق العجائب : «الورق كله في يديّ ، وأنا أناور . العيال البعثيون يظنون أني أفاوض لافك الارتباط مع الإسرائيليين ، هؤلاء عيال ليس لهم في السياسة ، فافهموني أنتم ، أنا أفاوض لأفك الارتباط بين أميركا وبين إسرائيل . ثقوا بي ولا تتعبوني !» . قال السادات هذا وكثيراً مما هو في السياق ذاته ، وظل ينظر بين مقطع وآخر ناحية عرفات ويكرر : «اسمع يا أبو عمار ، لا تقل لي رفض وما رفضش ، حبش والعيال البعثيين . أعطوني أنتم ورقكم وسيبوني أناور» .

في ثنايا حديثه المرسل واستطراداته الكثيرة ، بسط السادات تصوره لبرنامج التسوية السياسية مع إسرائيل وحصة الفلسطينيين فيها : «حرب ؟ لا حرب بعد هذه الحرب . قلت هذا علناً وها أنا ذا أكرره بيني وبينكم ، الولايات المتحدة تحارب مع إسرائيل وأنا لا قدرة لي على محاربة أميركا ، فأنا أفاوض» . ورسم السادات جدولاً للخطوات التي رأى أنها ستتعاقب نتيجة المفاوضات : فتح قناة السويس للملاحة الدولية مقابل انسحاب إسرائيل من سيناء ، إنهاء حالة العداء بين مصر وإسرائيل مقابل الانسحاب من الأرض العربية التي احتلت في العام ١٩٦٧ كلّها وإقرار إسرائيل بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني . أما الاعتراف المصري بإسرائيل وتبادل التمثيل الدبلوماسي فيجيء عند قيام الدولة الفلسطينية المستقلة في قطاع غزّة والضفة ، وقال إن هذا هو ما يقدر عليه جيلنا أما البقية فتحققها الأجيال القادمة . فصل السادات هذه البنود واحداً واحداً مواصلاً شتمه السوفيات والبعثيين ومطالبة الفلسطينيين بأن يكفّوا عن مضايقته أو تكبيل يديه : «سيبوني أناور !» .

أصغى عرفات إلى حديث السادات دون مقاطعة مطرقاً برأسه معظم الوقت ؛ لا شك في أنه سمع هذه الوعود أكثر من مرة ولا شك في أنه لم يطمئن إليها كل الاطمئنان . سيقول عرفات لي بعد سنوات في معرض

تفسيره لعلاقته بالسادات ومقارنتها بعلاقته مع حافظ الأسد : «السادات كذّاب أعرفه ، فمن السهل أن أتعامل معه» . أما أصحابي فقد غادروا المقرّ الرئاسي وهم ما زالوا مبهورين . وأما أنا فما أن بلغنا الفندق حتى انفجرت : «جعلتم اللقاء جلسة لمقايضة النفاق بالأكاذيب ، بهركم زي المارشالية والكلام المعسول فنسيتم أنكم قادة وجلستم أمام الرجل مثل تلاميذ في حضرة معلم جديد» .

لم أنبهر بالسادات ، ليس لأني أشدّ حصانة من غيري ، بل لأني أعرف أنه تحدث أمامنا بلغة مختلفة عن لغة حديثه مع الأميركيين . وكان صديقي مكرم محمد أحمد ، وهو الصحافي النافذ في «الأهرام» ، قد حصل من مقرّ الرئاسة على محضر لقاء ضمّ السادات وهنري كيسنجر وأطلعني عليه فاستخلصت أن رئيس مصر متشبث بضرورة انسحاب إسرائيل من سيناء ومتساهل في أي شأن آخر . حتى عندما اقترح السادات على كيسنجر أن يلتقي عرفات ولو سراً ، زيّن الرئيس المصري لرئيس الدبلوماسية الأميركية فوائد اللقاء على أساس أن عرفات رجل معتدل يقبل المساومات ومن السهل التفاهم معه . وعندما رفض كيسنجر الاقتراح ، لم يتشبث السادات به . لكن السادات ظل يمنيّ عرفات بإمكانية عقد اللقاء . أما لماذا رفض كيسنجر الالتقاء بعرفات أو كيف سوغ رفضه ، ففي هذا أيضاً وفي رد فعل السادات عليه ما عزز اعتقادي أن السادات مستعد للتساهل في الشأن الفلسطيني إلى أقصى حد . فقد قال كيسنجر إن الرأي العام الأميركي يعدّ عرفات رمزاً للإرهاب وأنا لا أستطيع الاجتماع به . وعرض كيسنجر من جانبه على السادات أن يستخدم نفوذه لإقناع عرفات بالكفّ عن العمل المسلح ، وتبديل طبيعة المجلس الوطني الفلسطيني من مجلس فصائل مسلحة إلى مجلس شعب ، وما إلى ذلك مما هو مثله .

وتعهد السادات أن يبذل جهده في هذا المجال . وما أكثر الضغط الذي مارسه السادات على الفلسطينيين ليستجيبوا لمطالب كيسنجر !

كان هذا كلّه في بالي وأنا أصغي للرئيس ، ثم وأنا ألوم أصحابي ، «رافقتكم بوصفكم قادة لانتفاضة الأرض المحتلة . أما وقد تصرفتم في نحو مختلف ، فأنا أعدّ مهمتي معكم منتهية» . وغادرت الفندق وأقمت مع أخويّ في شقتهما .

نقلت إلى إحسان بكر ما دار في اللقاء مع السادات وبحت له بشكوكي وهواجسي . ونقل إحسان ما رويته له إلى رئيس التحرير محمد حسنين هيكل . وقتها ، كنا في أواخر كانون الثاني/ يناير ١٩٧٤ ، وكانت علاقة هيكل بالسادات قد انحدرت إلى أسوأ قاع . ولعلك تعرف أن هيكل ساند بعد وفاة عبد الناصر كل مساعي السادات للاستئثار بالسلطة والتخلص من منافسيه . والواقع أن هيكل سخّر خبرته وبراعاته كما سخر «الأهرام» لصالح السادات . تصرف هيكل مع السادات بروح الحليف صاحب الرأي المستقل ومهندس السياسات وليس بروح التابع . ويبدو أن الصحافي الكبير بدا متطلباً أو أن السادات لم يطق استقلال رأيه . ولم يلبث أن وقعت الواقعة بين الاثنين بعد تفرد السادات بالسلطة وانقلب التحالف خصومة . وقد اتضح أن هيكل يشكّ في وعود السادات للفلسطينيين أكثر مما يشك فيها أي إنسان آخر . وعندما نُقل إلى هيكل ما قاله السادات لنا ، شاء المطلع على تفاصيل السياسة المصرية أن يحرج الرئيس الذي يتحدث بلغتين فأمر بأن تنشر قصة لقائه مع القادة الفلسطينيين وتعهداته لهم خبراً أول في صدر صفحة «الأهرام» الأولى مع مانشيتات كبيرة .

وبعد بضعة أيام ، زرت تحسين بشير أحد موظفي الخارجية المصرية الذين ألحقهم السادات بهيأة مستشاريه . وكنا غارقين في حديث اللقاء مع السادات

وما تنطوي عليه وعوده من ختل حين رن جرس الهاتف ، فسمع تحسين نبأً تبدلت معه سحنته ، ونقله إليّ : وقع الرئيس السادات الآن قرار تنحية هيكل عن «الأهرام» .

في هذه الزيارة لمصر ، زرت الشريط المحرر من سيناء . استجاب المشير أحمد إسماعيل وزير الدفاع حين قابلته مجموعتنا لطلبنا . فكنّا بين أوائل المدنيين الذين زاروا المنطقة بعد فكّ الحصار عن الجيش الثالث . وفي هذه الزيارة ، صحبنا عقيد المخابرات إبراهيم الدخاخني . ولأن الرجل الذي عمل مع الفلسطينيين طويلاً يعرف شدّة فضولهم فقد وضع شرطاً صريحاً : «ستقابلون عسكريين ، فلا حديث في السياسة ولا أسئلة حول الموضوعات الحساسة !» . ثم لم يفلتنا العقيد من رقابته هو الذي كان على كل حال دمثاً ، بل تدخل بسفور كلما تصور أن الحديث قد يقود إلى المحظورات . مع هذا ، وبالرغم منه ، حرصت على أن لا تفوتني دلالة ما نراه أو نسمعه ووطدت نفسي على اختراق محظورات العقيد كلما تسنى لي اختراقها .

وفي الطريق إلى مدينة السويس ، توقف سائق الحافلة التي تقلنا ليلتقط عسكرياً ماشياً . فعل السائق هذا دون أن يستأذن عقيده . وتيسر لي أن أسمع الحديث العفوي الذي فاض على لسان العسكري . كان هذا جندياً محترفاً خاض حرب ١٩٦٧ وشهد حرب الاستنزاف واشترك في الحرب الأخيرة . وأول ما لفت نظري أن الجندي الذي وجد نفسه فجأة بين مجموعة من الشخصيات ذوي الشأن فيها عقيد ذو مهابة لم يتهيب لا في حديثه ولا في قعدته ولا في حركاته . وحين سأل عبد الجواد الجندي عن مشاعره ، قال هذا ما بدا أنه كان على رأس لسانه : «الآن ، رجعت إلينا الروح» ، ثم أضاف قبل أن يوقفه تدخل العقيد : «بس يا ريت خلّونا نكمل !» .

وفي مكتب ضابط كبير في مدينة السويس ، عرفت تفاصيل المعركة

التي دارت هنا حين وسع الإسرائيليون ثغرتهم ووصلوا إلى أطراف هذه المدينة . فهنا بالذات توقف مدّ الثغرة . وبوجود عقيد المخابرات وتدخله ، لم يفصح الضابط عن رأيه في الذين أوقفوا المقاومة ، لكن رأيه هذا تجلى في عرضه للوقائع : «ظللنا نقاوم إلى أن جاء الأمر بوقف إطلاق النار» . وعندما حاول عبد المحسن اختراق تحفّظ الضابط ، تدخل العقيد بنبرة صارمة : «قلنا ما فيش أسئلة في المواضيع الحساسة» . وقال الضابط الكبير : «رويت لكم الذي أعرفه ، والبقية يعرفها حضرة العقيد» ، وقرن القول بنظرة متبرمة .

على الطرف الآخر ، في سيناء ، زرنا واحدة من عُقد خط بارليف الذي اخترقه المصريون . كنّا قد صرنا حشداً كبيراً بعد أن انضم الينا مرافقون من عسكريي المدينة ، ولم يعد بمقدور العقيد أن يحيط برقابته الجميع . فانفلتُ من الحشد وباريتُ الرائد المصري الذي استولت وحدته على العقدة ، وقلت للشاب الذي له قامة فارس وصلابتها : «أخذتوها إزاي ، العقدة المنيعة دي ؟» . استخدمت اللهجة المصرية حتى لا يتحفظ الرائد ، ولست أدري ما إذا كان قد عرف أني من الضيوف أو تصور أني مصري . وقد رد الرائد على كل حال بعجلة من أراد أن يتفرغ للضيوف : «دول جريم يا بيه» أي أن المدافعين عن العقدة فرّوا .

ركن الإسرائيليون إلى المانع المائي الذي تصوروا أن المصريين غير قادرين على عبوره ، وحصنوا أنفسهم خلفه في مواقع منيعة صرفت على بنائها مليارات واستخدمت أحدث تكنولوجيا ، واطمأنوا إلى متانة وضعهم وغذوا في أنفسهم الاستهانة المزمنة بالعرب . وما أن عبر المصريون المانع المائي وداهموا خط الدفاع المنيع حتى انهار الاطمئنان وفرّ العسكريون الإسرائيليون ووقع بعضهم في الأسر ، تماماً كما فرّ عسكريون مصريون أو وقعوا في الأسر في العام ١٩٦٧ حين فوجئوا بوصول الإسرائيليين إلى مواقعهم هم الذين قيل

لهم إن جيشهم هو أقوى جيوش المنطقة وركنوا إلى هذا القول . وباريتُ الرائد مرة أخرى ونحن نتجول في الموقع الحصين : «كان من المنطقي أن تستمروا في الهجوم ما دامت المقاومة الإسرائيلية قد انهارت ، فما الذي أوقف اندفاعتكم» . وقبل أن يتفوه الرائد بكلمة ، وصل العقيد : «اتفقنا على أن لا أسئلة» .

أثناء انشغالي بالمبعدين وجولاتهم ، انشغل طلال سلمان بالمشروع الذي نقله من مرتبة الصحافيين الذين يتدبرون معيشتهم بالكاد إلى مرتبة أصحاب الصحف الأغنياء . فخلال عمله مع آل فريحة محرراً للشؤون العربية في «الصياد» ، أنشأ صديقي اللبناني الطموح علاقات نافعة لآل فريحة وله مع رئيس ليبيا العقيد معمر القذافي وغيره من معاونيه . كان طلال كما تعرف ناصرياً وكان هؤلاء يعدّون أنفسهم ناصريين أيضاً . فكان من اليسير ، إذاً ، أن تنشأ العلاقة . وعبر طلال ، قدمت ليبيا معونات كثيرة لدار الصياد . وكان من المفروض أن يحصل طلال على نسبة من المعونات ، إلا أن أصحاب الدار خاتلوه ولم يعطوه إلا ما يشبه الفتات . وهكذا ، اندفع طلال في مشروع لحسابه الخاص وحده . وجاء يوم فاتحنا صديقنا فيه بما توصل إليه : عرض ليبي بتمويل جريدة يومية تصدر في بيروت ويكون طلال صاحبها ورئيس تحريرها وسياستها عربية قومية فيها فسحة للتعبير عن الآراء المختلفة . وأظهر طلال حرصه على استشارتنا نحن أصدقاءه ، فظفر بتأييد أغلبيتنا وتشجيعها له . وتعهدنا أن نكتب للجريدة ونعمل ما نقدر عليه لدعمها . وهكذا ، صدرت «السفير» «صوت الذين لا صوت لهم» ، وفق العبارة التي اعتمدها طلال شعاراً للجريدة ، واحتلت مكانة متقدمة في الصحافة اللبنانية فور صدورها . وكان هذا إنجازاً إن موّله حكام ليبيا فقد حققه طموح طلال وجلده والعون المثابر ، التطوعي وغير التطوعي ، الذي وفره للجريدة عشرات الفنانين

والصحافيين من أصدقاء طلال ومعارفه في دنيا العرب كلها . وكان طبيعياً أن أصير من كتاب «السفير» ، أنا الذي لم أكن عند صدورها مرتبطاً بأي صحيفة .

صدور «السفير» وفّر لي منذ آذار / مارس ١٩٧٤ منبراً مسموعاً أنشر فيه آرائي . والحق أني ظفرت بهذا المنبر في وقت اشتدت فيه حاجتي إليه . ذلك أن الجدل بين مؤيدي التسوية السياسية ورافضيها كان في إبّانه ، وكان من الطبيعي أن أنهمك فيه بكليتي مدافعاً عن التسوية ومهاجماً رافضيها . وما أكثر ما توجب على طلال أن يحتمل بسببي ، فهو نفسه كان في الرافضين ، والمموّلون كانوا كذلك ، بل كانوا من المحرضين المثابرين ضد أي تسوية سياسية من أي نوع . ثم إن تيارات الرفض الفلسطينية كانت في لبنان قوية وصلاتها بزعماء ليبيا متينة . بالرغم من هذا ، لم يتدخل طلال في ما أكتب ولم يمنع نشر أي مقال كتبته إلا في ما ندر . وهكذا ، أطلقت لقلمي العنان على آخره . وانضاف ما أكتبه إلى ما يفيض به لساني في المجالس . وما أكثر ما قلت شفاهة وكتابة ! وقتها ، وجهت هجماتي ضد جهتين : جبهة الرفض التي أصف سياستها بأنها مغامرة ، وجبهة التهاون التي أصف سياستها بأنها استسلامية . وطال السادات نصيب وافر مما كتبته ضد الاستسلام .

١٨

جدي يطالب باركلز بنك بريع أملاكه في المسمّية

مع احتدام الجدل بين القابلين بالتسوية والرافضين ، بدت الساحة الفلسطينية بصدد بلورة موقف يرتهن به المصير الفلسطيني كلّه . ولكي لا تطغى وسائل العنف على الحوار وتفضي إلى صدوع يصعب رأبها ، تشكلت لجنة ضمت ياسر عرفات كما ضمت الأمناء العامين للفصائل المتنوعة الرئيسية ، الرافض والقابل ، واختير المبعد عبد المحسن أبو ميزر ليمثل الجبهة الوطنية فيها . وهذه هي اللجنة التي اشتهرت بالاسم المشتق من عدد أعضائها : اللجنة السباعية ، وهي التي أوكلت إليها مهمة البحث عن الهوامش المشتركة وبلورة الموقف الجديد ، واتفق على أن تظل مداولاتها سرية إلى أن يتبلور الموقف .

لم يكن عبد المحسن هو الأمين العام للجبهة التي مثّلها ، ولم يكن أهم أعضاء قيادتها أو حتى عضواً مهماً في هذه القيادة . بل إن ثمة من زعم أن الرجل لم ينتسب إلى الجبهة إلا بعد إبعاده عن الوطن . لكن عبد المحسن اختير لعضوية اللجنة لأنه بعثي قديم منتقل إلى أجواء م . ت .ف . ومقبول لدى قيادة «فتح» أو لدى عرفات بالذات ، بمقدار ما هو مقبول لدى الآخرين ، خصوم «فتح» مثل حلفائها . وهكذا ، استثمر عرفات وجود عبد المحسن في

المداولات السرية ليخفف به غلواء الحلفاء والخصوم . وأدرك عبد المحسن أن عرفات هو الزعيم الأقوى في الساحة فجند كفاءته وعلاقاته واختلاط مواقعه لخدمة الخط الذي يبشر به هذا الزعيم ولعب في هذا المجال دوراً نقله ، هو القائد المغمور في سديم القادة الفلسطينيين ، إلى مرتبة النجوم .

امتدت مداولات اللجنة السباعية زمناً طويلاً ، ستة شهور ، على ما أتذكر ، وأخفيت معظم وقائعها عن الإعلام . وقد تسنى لي ، كما تسنى لعدد قليل جداً من أمثالي ، الاطلاع على أدق مداولات هذه اللجنة ، وذلك ، بالطبع ، بسبب صلتي بمعظم أعضائها . وانعكس ما أعرفه عن المداولات في المقالات التي أكتبها فجاءت مقالاتي متميزة بالنسبة للقارئ وجعلتني بالنسبة لمن يعنيهم الأمر بمثابة محاور . واشتدت جرأتي ، في ما أنشر من آراء وما أعرضه في كواليس القادة .

وفي المحصلة ، صاغت اللجنة البرنامج الذي صار أشهر برامج م .ت . ف . بالرغم من أنه أوجزها صياغة وأقصرها . وضم هذا البرنامج عشر نقاط ، فعرف باسم برنامج النقاط العشر ، فيما سمي رسمياً برنامج العمل الوطني المرحلي . وفي النقاط العشر ، امتزج أو تجاور خليط الآراء والمواقف التي كانت تعصف بساحة العمل الوطني . ووضع كل من المتحاورين المختلفين شيئاً ما في البرنامج يخصه حتى يتمكن من الدفاع عنه أمام أنصاره . أما بيت قصيد دعاة التسوية الأول فقد تمثل في النص على إقامة سلطة وطنية فلسطينية على أي جزء يتم تحريره من الأرض الفلسطينية ، مما عني إلغاء الارتهان السابق بين إقامة أي سلطة فلسطينية وبين تحرير فلسطين بكاملها . وكان لدعاة التسوية بيت قصيد آخر . وقد تمثل هذا في الدعوة إلى أن تناضل م . ت . ف . بالوسائل كافة ، وليس بالكفاح المسلح وحده . وقد يدهشك أنت أن تكون مثل هذه الدعوة موضع خلاف في أي وقت . لكن عليك أن تتذكر كيف نص

الميثاق الوطني على أن الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد ، لتدرك أهمية دعوة البرنامج إلى إضافة الوسائل الأخرى بما هي كسر لقيود نص الميثاق ! أما الرافضون فقد رضوا أو استرضوا بنقاط نصّت على أن تكون السلطة الوطنية المنشودة سلطة مسلحة ومقاتلة ، وأن يعدّ قيامها في أي جزء من فلسطين منطلقاً لتحرير البقية ، وما إلى ذلك من ترضيات لفظية .

وبهذا المشروع ، ذهبت القيادة ، في حزيران/يونيو ١٩٧٤ ، إلى المجلس الوطني الفلسطيني الذي عقد دورته الثانية عشرة في القاهرة . وهنا ، تجدد الجدل والمناورات ومحاولات النكوص . لقد فهم الرافضون والقابلون أن إقرار المجلس لمشروع البرنامج المرحلي يعني إطلاق يد قيادة م . ت . ف . لتنهمك في مجهودات التسوية السياسية وتقبل بحل يعيد إلى الفلسطينيين ما احتل من أرضهم في العام ١٩٦٧ ، أي الضفة وقطاع غزة ، ولا شيء أكثر من هذا . ولكي يقطع عرفات طريق النكوص ، وافق على إضافة نقطة أخرى إلى المشروع ، وهي تلك التي أوجبت على القيادة أن تعود إلى المجلس الوطني قبل أن تبتّ في أي تسوية مع إسرائيل .

وفي ختام مداولات المجلس التي امتدت أطول من المألوف ، صادق الأعضاء على البرنامج الجديد بما يشبه الإجماع ، ولم يعارضه سوى أربعة أعضاء . وإذا كنت مشوقاً لمعرفة الذين عارضوا الإجماع فلن أحيلك إلى المصادر التاريخية ، بل لك أن تعرفهم هنا : الشاعر البعثي يوسف الخطيب ، والكاتب القومي العربي سعيد حمود ، وصاحب بنك بيروت للتجارة عضو مجلس إدارة البنك العربي المتعاطف مع الجبهة الشعبية رفعت النمر ، والبعثي السابق المنتقل إلى «فتح» الذي طالما حدثتك عنه الكاتب ناجي علوش .

وقد يدهشك أن تعرف أن سعيد حمامي ، داعية التسوية الجريء والمثابر ، كاد يجعل المعارضين خمسة وليس أربعة فقط . فقد أراد سعيد أن

يتضمن برنامج م . ت . ف . اعترافاً صريحاً بالقرار ٢٤٢ وساءه كثيراً بقاء الجوّ الرافض للقرار . ولولا أن ياسر عرفات لجم معارضة سعيد هذه بحزم لصوت صاحبي فعلاً ضد البرنامج .

وبإقرار برنامج النقاط العشر ، تكرست الغلبة لتيارات الواقعية السياسية في م . ت . ف . كما تكرست زعامة عرفات ولم يبق ما يزعزعها . وها أنا ذا أتذكر مقالي الذي نشرته «السفير» عشية المصادقة على البرنامج والعنوان الذي تصدره : «مبروك لعرفات» .

وفي اللجنة التنفيذية الجديدة التي ضمّت أغلبية من مؤيدي التسوية ، احتفظ فاروق القدومي برئاسة الدائرة السياسية فبقي إذاً ، رئيساً لي . وكان فاروق ، كما سيظل شأنه ، موزع المشاعر بين الرفض والقبول ، يلتزم سياسة «فتح» ، أو سياسة ياسر عرفات ، بالذات ، ويسعده أن يتميز عنها في آن . ولأني انهمكت في الكتابة تأييداً لخطّ التسوية وهاجمت الرافضين والمتردّدين ، فقد سخط عليّ كثيرون . وكان القدومي واحداً من هؤلاء . واستدعاني القدومي إلى مكتبه في بيروت ، وخيرني بين الكتابة وبين العمل في الدائرة . استند رئيس الدائرة إلى حجة : «نحن بمثابة وزارة خارجية ، وفي أي وزارة خارجية لا يجوز للموظف أن ينشر مقالات سياسية دون إذن مسبق من رئيسه» . ولم تكن هذه ذريعة منطقية بأي حال . ولم أرحم أنا مستخدمها : «أنا كاتب ولست موظفاً بيروقراطياً ، والدائرة السياسية مؤسسة في ثورة وليست وزارة خارجية» . قلت هذا ثم عددت أسماء عاملين كثيرين في الدائرة كانوا يكتبون لشتى الصحف . ومن هؤلاء ، بل من أبرزهم ، وربما أبرزهم جميعاً ، كان صديقنا المشترك شفيق الحوت . فشفيق الذي هو مدير مكتب م . ت . ف . في بيروت التابع للدائرة السياسية ككل المكاتب كان في الوقت ذاته رئيس التحرير الفعلي ليومية «المحرر» اللبنانية ، وكان يكتب ،

مثلي ، وينتقد . وفيما أنا أتحدث ، أخذت ورقة من أمام رئيسي هذا وكتبت سطراً واحداً : «بعد اعتراضك عى آرائي المنشورة في الصحافة ، أرجو اعتباري مستقيلاً من الدائرة !» . وقبل أن أنصرف قلت لمن تعرفت عليه منذ زمن طويل : «بهذا تنتهي علاقة الرئيس والمرؤوس ، فهل يمكن أن نصير أصحاباً» .

تصور القدومي أن موافقته على استقالتي بعد أن دفعني إلى تقديمها سوف تسخط ياسر عرفات . ولم يكن تعجل الحسم من طبيعة هذا الرجل ، بل إن من الصعب احتسابه في الحاسمين ، فتأخرت موافقته على الاستقالة . فأرسلت إلى رئيسي هذا طلباً بمنحي إجازة بانتظار البت في استقالتي ، وتعمدت القول إني بحاجة إليها كي أرتب أوضاعي الجديدة . لم أكن ممن يطلبون إجازة ولا كنت بحاجة إليها ، لكنها كانت وسيلتي إلى المناكفة . وبعد أيام ، جاءني من رئيس الدائرة مغلف واحد فيه ثلاثة قرارات : الموافقة على طلب الإجازة ، وتسميتي عضواً في وفد م . ت . ف . إلى مؤتمر عربي ينعقد في وقت هذه الإجازة ، والموافقة على استقالتي . ولم يصدق حتى أصحابي في شلتنا المسائية أن القدومي وقع القرارات المتباينة الثلاث في وقت واحد ، بل ظنوا أنّي إنما أشنّع صورة الرجل ، وقال نبيه : «تحررت من سلطته ، فكفّ عنه !» .

استدعاني عرفات ، كان لديه ما يؤاخذني عليه إذ أني لم أستشره في استقالتي من موقع عينني هو له ، إلا أنه لم يفرط في المؤاخذة ، فقد كانت لديه مهمة جديدة لي : «عبد المحسن أبو ميزر جديد على عملنا ، فلا بدّ من أن تعمل أنت معه .» كان عبد المحسن قد اختير عضواً في اللجنة التنفيذية وسمي رئيساً لدائرة استحدثت للتوّ هي دائرة العلاقات الوطنية وشؤون العائدين ، وها هو ذا عرفات يندبني لأكون بجانب العضو الجديد وأشيل العمل المطلوب لتأسيس دائرة جديدة . ولأن لي مع البعثي القديم تجربة

سابقة ، فقد أدركت أني مطالب بما أضيق به ، وحاولت التملص . لكني ، في النهاية ، رضختُ أمام إصرار عرفات : «تبقى معه إلى أن ينتظم عمل الدائرة الجديدة ويتعرف هو على الجوّ ، وبعدها يصير لكل حادث حديث» .

وهكذا ، من القدومي إلى أبو ميزر ، من بعثي سابق إلى بعثي أسبق منه ، من منتقل إلى فتح علناً إلى ممالئ لها في العلن والسر ، صرت في وضع المنتقل من سلطة شهاب الدين إلى سلطة أخيه . وما كان أمضه من وضع ! وقد زاد الوضع مضاضة لأن عبد المحسن سُمي الناطق الرسمي باسم اللجنة التنفيذية فانضاف إلى آلامي ألم التعامل مع الصحافيين بصفتي معاوناً للناطق . وآلم من هذا كان ألم التعامل مع الناطق نفسه . فقد كان هذا شكّاكاً بطبعه ، وهيّاباً ، وقليل المعرفة بسراديب الساحة التي ينطق باسمها ، فما أكثر ما تعب وأتعبني وأتعب الصحافيين ، وما أسرع ما انفضّ معظم هؤلاء عنه ولجأ إلي أنا !

وأيّاً ما كان عليه أمري مع عبد المحسن ، فبعد أربعة شهور من تبني المجلس الوطني لبرنامج النقاط العشر ، أي في تشرين الأول/ أوكتوبر ١٩٧٤ ، سنة بعد حرب ١٩٧٣ ، تبنى مؤتمر القمة العربي المنعقد في الرباط مشروعاً عربياً عاماً للتسوية مع إسرائيل فيه تأكيد على حق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير المصير وإقامة دولة مستقلة . وبهذا ، سقطت الاعتراضات العربية على الإستقلال الفلسطيني ، خصوصاً الاعتراض الأردني والآخر السوري ، وتكرس حق م . ت . ف . في تمثيل شعبها . ثم ، بعد شهر واحد من القمة العربية ، ألقى ياسر عرفات خطابه الأول الشهير أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك ، وظفرت م . ت .ف . باعتراف الأمم المتحدة بها ممثلة لشعب فلسطين ومُنحت صفة العضو المراقب في المنظمة الدولية .

جبهة الرفض ، هذه التي استدرجتها براعة عرفات إلى قبول برنامج

النقاط العشر ، فطنت بعد فوات الأوان إلى أن العبارات التي قصد بها استرضاؤها لم تطمس سمة البرنامج الأساسية بما هو برنامج للتسوية . ولم يلبث أن تنكرت الجبهة لموافقتها على البرنامج وراحت تؤلب الجمهور ضدّه وتعبئ القوى لإسقاطه . ومع التعبئة ، غاض التغني بالوحدة الوطنية وانتعشت لغة الشتائم والاتهامات . استبسل الرافضون في الكفاح ضد التسوية ، واستخدموا من الأسلحة النظيف وغير النظيف ، لكنهم ، على ما حققوه من نجاح هنا وآخر هناك ، كانوا يخوضون معركة هي في مجملها خاسرة . وقائع هذه المعركة التي لم أراقبها فحسب بل انهمكت فيها أيضاً عززت قناعتي بأن الجمهور الفلسطيني غالباً ما يكون أعقل من قادته وأكثر واقعية .

وأنا أتذكر اليوم الذي خطب فيه عرفات في الأمم المتحدة . هذا اليوم سبقته حملة تحريض شرسة نظمتها جبهة الرفض ضد زيارة رئيس م . ت . ف . إلى الأمم المتحدة . كان الرافضون يهاجمون الإشارات التي والى عرفات بثّها عن الاستعداد للتسوية ، وقالوا إنه متوجه إلى المنظمة الدولية ليعلن الاستسلام ، وأعدوا العدة لتبلغ حملة الاحتجاجات ذروتها أثناء إلقائه خطابه . وقتها ، كنت في «السفير» أتابع أنباء الزيارة وأخوض الجدل الممضّ مع الرافضين من العاملين في الجريدة وأتهيأ لكتابة مقالي . ورسم رسام الكاريكاتير ذو الشهرة الواسعة ناجي العلي عرفات في صورة خائن يعرض الاستسلام الفلسطيني من على منبر الأمم المتحدة . وسلم ناجي الكاريكاتير لينشر في عدد اليوم التالي وانصرف مبكراً على غير عادته . أراد ناجي أن يشهد بعينيه احتجاج المخيمات الفلسطينية فتوجه إلى واحد منها . لقد أحببت ناجي وصادقته بالرغم من أني لا أقرّ تطرفه السياسي . رأيت في ناجي الفنان العفوي صاحب الضمير الحساس وأغفلت ما عدا هذا وتسامحت

مع شططه . وقد داعبت ناجي وهو يهم بالانصراف : «لي أصدقاء متطرفون مثلك اتهموني ذات يوم بالخيانة ، أنا الذي سبقت عرفات في الدعوة إلى التسوية ، ثم بدّلوا رأيهم ، فمتى ستبدل أنت رأيك» . ورد ناجي : «لن تفرح بها !» ، ثم غادرنا . وحين حانت لحظة إطلال عرفات على الجمعية العامة ، تحشد الموجودون في «السفير» أمام جهاز التلفزيون وشدهم المشهد : إطلالة الزعيم الفلسطيني بكوفيته وزيّه ، ووقوف أعضاء الجمعية العامة تحية له وتصفيقهم الشديد والمديد . وقد أصغيت إلى الخطاب الذي أعرف أن نخبة من كتاب فلسطين ساهمت في إعداده ، ومنهم إدوارد سعيد ، وأن محمود درويش زيّنه باللمسات الأخاذة التي ميزته .

وفيما راح أصحابي في «السفير» يتجادلون حول مضمون الخطاب وردود الفعل عليه ، انصرفت أنا إلى كتابة مقالي عنه . ثم ، فيما أنا مستغرق في الكتابة بعيداً عن صخب الجدل ، جاء من همس في أذني بأن ناجي العلي رجع ورسم كاريكاتيراً جديداً طلب نشره بدل السابق . وقال الهامس : «سيدهشك الفارق بين الاثنين» . وخففت إلى حجرة طلال سلمان حيث كان ناجي جالساً وكان المحررون محتشدين حوله وحول الرسم الجديد . وفي هذا الرسم ، خرج ناجي عن مألوفه ، فلم يقدم مشهداً ساخراً ، بل قدم فتاة ذات وجه صبيح تلبس الثوب الفلسطيني ذا التطاريز وقد تشكلت في عينها دمعة تأثر . وما أعمق ما أثر فيّ التعبير الذي انطوى الرسم عليه ! وجئت إلى حيث يجلس ناجي مطرقاً برأسه . وظن هو أني سجلت نقطة عليه فاستبق أي تعليق مني : «لا ، لم أتبدل» . انضم ناجي إلى الذين حشدتهم جبهة الرفض في مخيم صبرا ليهتفوا ضد عرفات لحظة ظهوره على الشاشة ، ورأى ما الذي جرى بالفعل . فقد أُخذ المحتشدون بالاستقبال الحفيّ الذي حظي عرفات به من ممثلي دول العالم ، وأحسّوا بالزهو والفخار ، فلم ينتظروا أن يبدأ

الخطاب ، بل انتظموا في حلقات دبكة وأطلقوا أهازيج الفرح بدل صرخات الاحتجاج . روى ناجي هذا ، ثم سألني بنبرة من يسأل نفسه : «هل تظن أني بغير إحساس ؟» .

خرجت من معمعة العمل لإعلاء صوت العقل كما يخرج محارب من أرض معركة طالت جولاتها ؛ كنت منهوكاً ، لكني كنت سعيداً أيضاً . لقد صلت وجلت في معركة سياسية فكرية امتدت سنوات ، عملت لوحدي أحياناً ومع آخرين أحياناً أخرى ، وعاركت بهوادة وبغير هوادة ، وها نحن قد صرنا أغلبية .

لماذا غرقت في هذا الشأن أكثر من غيره ، ما الذي حملني على التضحية بانتظام الحياة الشخصية والتعرّض لسخط كثيرين لا لشيء إلا ليتكرس الاتجاه إلى التسوية ؟ قد تطول الإجابة ، وقد أقع على أسباب عدّة ، وقد أرجح سبباً على آخر في وقت أو غيره . أما سبب الأسباب فهو هذا : إنه الوعي الذي تيسر لي أن أنميّه وهو ما جعلني أدرك أن استعادة عروبة فلسطين كاملة وإخراج اليهود كلهم منها أمران متعذرا التحقيق ، فلا بدّ ، إذاً ، من تسوية ، والمطلوب أعجل من أي شيء آخر هو أن يتوقف التوسع الإسرائيلي وتقوم للفلسطينيين دولة في أرضهم ، فهذا هو بداية الطريق الطويل إلى كسر عدوانية الصهيونية وتحرير العرب ، واليهود أنفسهم ، من سطوتها .

غرقي في المعمعان جعلني أهمل حتى ما لا يجوز إهماله من شؤوني الشخصية . وقد كان الشأن الصحي بين أخطر ما أهملت . تواترت التهابات عيني الوحيدة مرة بعد أخرى ، ولكني لم أكفّ عن إجهادها . ولولا عناية صديقي طبيب العيون نشأت الحمارنة بي ورعايته المثابرة وبراعته وحزمه في إلزامي اتباع العلاج لفقدت هذه العين . وإلى الهواجس المتصلة بحال عيني ، استفحل الداء الذي يسكن عامودي الفقري : اضطرد تكلس الغضاريف وصار

الألم حاداً ومستمراً ، ألم ثلاث وثلاثين فقرة معطوبة وعشرات المناقير التي أنبتها التكلس . وأحنى عطب العامود الفقري ظهري وقفع العضلات ، فصارت لقامتي هيأة قرد دون أن تتوفر لي مرونته . وصارت الحركة موجعة والجلوس موجعاً وكذلك التمدد . أما النوم فصار كوابيس . ولم تتيسر لي العناية بصغيراتي إلا في الحدود الدنيا لما رسمتُه منذ قررت أن أخصص أوقاتاً للعناية بهن في أي ظرف . وأهملت أهلي ، جدتي التي تحبني وتشتاق إلي ويقلقها غيابي ، وجدي القلق أبداً على أحوالي ، وامرأة الجدّ التي تفتقدني دوماً ، وأخوالي ، نافذ الذي تصالحت معه بعد طول مخاصمة واستقامت علاقتي به وعطرها الحب الذي حل من جديد محل النفور ، وعمر المقل في الكلام دون أن يكون أقلّ حنواً ، وأخوالي الصغار من صار منهم شاباً ودخل الجامعة ومن لا يزال في المدارس ، وخالاتي ، شفيقة الرائعة ، وهيام التي اهتمت إلى جانب العمل في التدريس بدراسة التاريخ في الجامعة ، هيام الرائعة هي الأخرى ، وسهام الصغيرة التي راحت تكبر وتبرز نباهتها .

وكما يحدث لمحارب فرغ من معركة في حرب طويلة الأمد ، أوليت شؤوني الخاصة بعض الاهتمام دون أن أكف عن الاهتمام بالشأن العام ، فشددت التزامي التفرغ لشؤون صغيراتي في الأوقات المخصصة لهن ، وزرت أهلي وكررت الزيارة .

كان خالي نافذ الذي نأى بنفسه عن النشاط السياسي المباشر قد حقق لنفسه مكانة كبيرة في المؤسسة العامة للجمارك وصار من أهم الخبراء في مجاله وحظي بسمعة محترمة بما هو مستقيم ونظيف اليد . لم يعن هذا أن نافذ كفّ عن متابعة التطورات السياسية والجهر برأيه فيها . والواقع أن خالي هذا ظل على إيمانه السابق : ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بقوة أفعل منها . وبهذا الإيمان ، كان نافذ من مؤيدي اللجوء إلى الكفاح المسلح ، إلا أنه تشدد في

انتقاد الفصائل الفلسطينية ومهاجمة قادتها ، وشكك في قدرتهم على الثبات . وفي الجدل بين دعاة التسوية والرافضين ، ظل خالي على رفضه ، ورأى الخال في أي تسوية تسلم باغتصاب الصهيونيين أي جزء من فلسطين خيانة ، وعد الداعين الى التسوية مغفلين حين لا يكونون خونة وجواسيس . ولم يسلم الرافضون أنفسهم من انتقادات خالي فهم ، عنده ، نصابون يتاجرون بالرفض ويضمرون الاستعداد للاستسلام حين تتوفر لهم السيطرة على قيادة م . ت . ف . ألم يكن قابلو التسوية هم أشدّ رافضيها إلى وقت قريب . وكان خالي يعرف موقفي ، لكنه يتجنب الإساءة إليّ . وكم كان طريفاً أن يتحدث نافذ أمامي عن القابلين كأني متفق في الرأي معه هو وليس معهم !

جدّي عبد المجيد انتهى إلى قناعات لا يقبل بشأنها أي جدل : حق الفلسطينيين في وطنهم «ثابت ثبات الأرض» ، يقولها بالفصحى ويكرر «ثابت ثبات الأرض» كلما شكك أحد بامكانية استعادة فلسطين لأهلها . آمن جدّي بأن الفلسطينيين سيعودون إلى وطنهم «معززين مكرمين ، لا محالة» . وظل لإيمان الجدّ بالحقوق الوطنية قوة الإيمان الديني وطبيعته ، فهو غير قابل للنقاش . ووفر هذا الإيمان لمن عصفت الزعازع بحياته القدرة على التماسك . وزعماء البلاد الحقيقيون ، عند جدي ، ظلوا هم الذين أقرّ لهم بحق الزعامة منذ كان في البلاد ، «الرتوت» ، الأصلاء ، أبناء الأصلاء ، الحاج أمين وإخوانه الذين أبوا الإقرار بأي حق لليهود ، شذاذ الآفاق ، في فلسطين . أما هؤلاء الزعماء الجدد الذين نبتوا من حيث لا يدري أحد ، هؤلاء الذين بلا أصل ، فليسوا ، عند جدّي ، سوى «زعلطيّة» أو «زعران» ، أو أجراء عند الحكام الظالمين ، أو جواسيس ، إنهم يسرحون ويمرحون ويثيرون الضجيج لكنهم لا يجيئون بشيء ولا يبدلون المقدَّر . والمقدر هو ما أراده الله ، وقد قضت حكمة ربّ العالمين كما آمن جدّي بها بأن يتجمع اليهود في فلسطين حتى

يمكن القضاء على فسادهم وأطماعهم دفعة واحدة . وعند جدي ، لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ويهزموهم ، يستشهد جدّي بالحديث الشهير بهذا الشأن ويركن إلى النبوءة ركوناً لا يزعزعه شيء . وقد زرت جدي مرة وعنده صديقنا القديم سعدي العالم . وشاء سعدي أن يستثير جدّي : «رضي عرفات بأن يبيع فلسطين لليهود ، أعضاء المجلس الوطني وافقوا ، وابن بنتك العزيز معهم» . فقاطع الجدّ مستفزّة : «زعلطية ، لا في العير ولا في النفير ، قلت لك هذا ألف مرة ، وعرفات على رأسهم» . وتجاهل جدّي إشارة سعدي إليّ . غير أن هذا لم يفوّتها : «وهذا الذي من نسلك ؟» فقال الجد : «هم خونة أما هذا فأهبل وأنا أدعو الله ليل نهار أن يهديه» . لم يقرّ جدّي في أي وقت من الأوقات بأني كبرت وصار لي حق اتخاذ الموقف الذي أقتنع به . بالنسبة للجد ، بقيت أنا الولد المحتاج إليه هو كي يقص أظافر قدميه .

جدتي هي الأخرى كان لها آراؤها في السياسة ، تتفق مع الآخرين بأن البلاد لأهلها وليس للغرباء وتصغي إلى ما يقولونه ، إلا أنها لا تجاري أحداً في شتم أحد : «هم يجرّبون ، خلهم يجربوا» ، تقول هذا وتتشبث بقاعدة التوازن : «لن يصير إلا ما قدّره ربُّ العالمين» . والصغار ، هؤلاء الذين ظلوا بالنسبة لي الصغار حتى وقد كبروا ، هؤلاء كانوا لا يتحدثون في السياسة بحضور الكبار إلا أن يؤمّنوا على رأي أو يتبرموا إزاء آخر . أما حين أخلو لهم ، فما أيسر ما كانت ألسنة الصغار تنطلق . وعند هؤلاء ، كنت أقع على شتى الآراء .

صلتي بالأهل أججت شوقنا جميعاً إلى لقاء أُمّي ، انصرم ربع قرن دون أن نراها . ولما كان من المتعذر أن يذهب أي منّا إلى غزة الواقعة تحت الاحتلال الإسرائيلي ، فلم يبق إلا أن تجيء هي إلينا . وقد أرسلنا لأمي رسالة مشتركة عبر الصليب الأحمر ، وكررنا الرسائل ودعمناها برسائل شفهية . كنّا نعرف المصاعب ، الحصول على إذن السفر ، والسفر ذاته ، من غزّة إلى الضفة ،

إلى الأردن ، ثم إلى سورية ، والأوراق التي تتعامل جهة بها وترفضها أخرى . كما كنا نعرف أن زوج أمي مريض أقعده المرض في الفراش وهو بحاجة إلى عنايتها المستمرة . غير أن هذا كله لم يجعل شوقنا أقل . وفي الفترة التي أحدثك عنها ، جاءنا من أمّي ما يبشر بأنها عقدت العزم على المجيء ، تحسن حال الزوج ، وصار علينا أن ننتظر استكمال الإجراءات لنظفر بالبشارة .

في هذه الأثناء ، وربما بتأثير الرغبة في أن تراني أمي وأنا في حال لا يحزنها ، قررت أن أعمل شيئاً لمعالجة الداء الذي استفحل أمره . وأجريت جولة استشارات طبية . لكني لم أسمع إلا ما سمعته قبل سنوات : هذا داء لا شفاء منه ، والعلاج الفيزيائي وحده قد يجعل أذاه أقل إلا أن ما يلزم منه لدائي غير متوفر في دمشق . وحثني أصحابي على نشدان العلاج في الاتحاد السوفياتي ، وكان قد شاع أن للسوفيات باعاً طويلاً في معالجة الأمراض المستعصية . ولم يكن هذا قد غاب عن بالي في أي وقت . غير أن كثرة الأشغال وتواترها المستمر واعتقادي أني لاينبغي أن أغيب عن الساحة منعتني من نشدان الفرصة . ثم إن الذهاب إلى الاتحاد السوفياتي كان يوجب أن أطلب خدمة شخصية ، وهذا ما تجنبته بغباء .

لم يكن هذا مثالية فارغة كما حلا لبعض أصحابي أن يصفه ، ولا عناداً غير لائق بعاقل مثلي كما وصفه نبيه ، بل كان تحسبات وجدتها أنا صحيحة وتشبثت بها . فقد أنشأت علاقات طيّبة مع سوفياتيين كثيرين دبلوماسيين وصحافيين ، مقيمين وزائرين ، علاقات قوامها الشأن المشترك الذي هو شأن عام ، وحظيت بثقة هؤلاء واحترامهم وسعدتُ بهما . فصرت أخشى أن تتبدل نظرة هؤلاء إليّ إن استثمرت علاقاتي بهم من أجل منفعة شخصية . خالد بكداش كان آخر من تدخل : «هذه طهرية لا تنفع أحداً» ، وهو الذي حسم الأمر وعلمني درساً جديداً في الأممية . فالاتحاد السوفياتي ، كما شرح

بكداش، لم يقم ويستمر ويتطور بجهود تقدمييه وحدهم، بل بجهود التقدميين في كل مكان. وإذا كان من حق أي محتاج حتى لو لم تكن له مساهمات في الشأن العام أن يظفر بعون بلد الاشتراكية الأول فلماذا لا يكون هذا من حق صحافي وكاتب ومتمرس في العمل العام، مثلي: «أنت تطلب حقاً وليس حسنة».

عرض بكداش أن يرسلني حزبه إلى العلاج ضمن منح العلاج التي يوفرها له نظيره السوفياتي. غير أني رفضت هذا العرض، لكنني وعدت المهتم بصحتي بأن أطلب العلاج بنفسي: «لماذا أحرم محتاجاً غيري من منحة مخصصة لكم. لي أصدقاء سوفيات كثيرون، سأطلب مساعدتهم». ثم استكثرت أن أطلب العلاج من صديقي محي الدينوف، أو قل إنني توهمت أن الطلب سيحط من قيمتي عند السفير الكبير. ولكنني فاتحت في الأمر صديقاً آخر أدنى مرتبة من محي الدينوف. وتعهد هذا بنقل طلبي إلى الجهات المختصة، ولم يخطر ببال أيّ منّا أن يُرفض الطلب. وتصورت أن المسألة لا تعدو مجرد الوقت اللازم للمراسلات. وتوقعت أن أظفر بالعلاج وأرجع إلى دمشق قبل أن تصل أمي إليها. وهيأت نفسي على هذا الأساس.

هنا، في هذه الحكاية، سأتلقى من البيروقراطية السوفياتية أول صدمة. فقد انتظرت الرد المأمول شهراً، واثنين، حتى ثمانية. ولما جاء الرد في نهاية المطاف كان الرفض. وبدا هذا لي ولأصحابي بمثابة نكتة ممجوجة. فقد استقبلت موسكو من أجل العلاج ألوف السوريين والفلسطينيين. وكانت حالات كثيرين من هؤلاء أقلّ استحقاقاً للعناية من حالتي، ولم يكن إلا لقليلين منهم الصلات التي كانت لي. لكن، ليس الرفض هو الذي صدمني، بل سبب الرفض. فهذا الرفض الذي أُبلغ إليّ دون أي تفسير تحول إلى حكاية طنطنت أصداؤها في الأوساط التي تعرفني فاستاء من استاء

وشمت بي من شمت . وصار لا بدّ من أن أتوجه إلى محي الدينوف . والواقع أني كلمت صديقي السفير محتجاً وخاطبته بنبرة انطوت على السخط . وفي رده علي ، عاتبني الرجل لأني لم أتوجه إليه هو منذ البداية ، فأدركت أن طلبي لم يُبلّغ إليه . ثمّ وعد الرجل بأن يتقصى سبب الرفض وتعهد أن أظفر بالموافقة على العلاج في أي حال من الأحوال . ولم يطل الوقت ، جاءت الموافقة ، وكشفت استقصاءات محي الدينوف سر الرفض فجاءت الصدمة .

ذهب طلبي الأول إلى وزارة الخارجية في موسكو وتنقل بين دوائرها إلى أن بلغ موظفاً يعنى بشؤون الفلسطينيين ، في مكتب ، في دائرة من دوائر الوزارة . وأحال هذا الموظف الطلب إلى اللجنة السوفياتية للتضامن مع شعوب آسيا وإفريقيا الموكلة وحدها آنذاك بالعلاقة مع الفلسطينيين . فجال الطلب على دوائر اللجنة إلى أن تلقاه الموظف المختص في المكتب الذي يعنى بشأن الشعب الفلسطيني . وبما أنني صحافي ، فقد أحيل الطلب من قبل اللجنة إلى اتحاد الصحافيين السوفيات . فوقع الطلب هناك بالصدفة في يد من يعرفني فأحاله هذا إلى وزارة الصحة مع تزكية الاتحاد له . ولأمر ما ، هو سطوة الروتين في أغلب ظني وتهيب البيروقراطيين المزمن من تحمل المسؤولية ، أحالت الوزارة طلبي إلى الجهات الأمنية ، فأحالته هذه إلى مندوبها في دمشق المكلف بشؤون الفلسطينيين الأمنية فيها . ويبدو أن هذا الرجل كان بيروقراطياً تقليدياً وهياباً إزاء أي مسؤولية فاتبع الوسائل المعتادة في الاستفسار عنّي . وفي سعيه لاستقصاء المعلومات ، لجأ هذا البروقراطي إلى قائد شيوعي سوري يعرفه وطرح السؤال بالطريقة التي يستخدمها رجال الأمن الأغبياء حين يتذاكون : «قيل لي إن هذا الصحافي الفلسطيني معادٍ للسوفيات ، فما هو رأيك» . ويبدو أن القائد الشيوعي ظن أن سائله يهزل ، ذلك أن موقفي من السوفيات كان أشهر من أن يحتاج سوفياتي موكل بالشأن الفلسطيني إلى السؤال عنه .

وبظنه هذا ، أجاب القائد الشيوعي هازلاً بدوره : «أوه ، هذا إنسان قومي شوفيني معادٍ للسوفيات !» . فأخذ رجل الأمن السوفياتي الإجابة بظاهرها واكتفى بها ما دام قد حصل عليها من قائد شيوعي . وهكذا ، رُفض طلبي لأن المؤسسة الأمنية اعترضت عليه ، وضاعت ثمانية شهور انضاف إليها الشهر الذي استغرقته مساعي محي الدينوف قبل أن أظفر بالموافقة .

في غضون ذلك ، حصلت أمي على إذن الزيارة وتحول حلم اللقاء بها إلى حقيقة .

يحصل ساكن غزة على إذن بزيارة الأردن مدته شهر واحد . وإذا احتاج الزائر إلى زيارة سورية ، كما هو شأن أمي ، فعليه أن يتوجه إلى السلطات الأردنية فتمنحه هذه وثيقة سفر مؤقتة ليدخل بها سورية التي لا تتعامل مع أي وثائق صادرة عن إسرائيل أو ممهورة بأي ختم إسرائيلي . وما أن وصلت أمي إلى عمان حتى خفّ خالي نافذ إليها . ولأني صرت منذ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠ ممنوعاً من دخول الأردن ، فقد عجزت عن أخفّ أنا الآخر إلى المدينة التي صارت أمي فيها . وتوجب عليّ أن أنتظر طيلة الأيام التي احتاجتها إجراءات الحصول على الوثيقة الأردنية ، وكان هذا أصعب انتظار .

فارقت أمي في العام ١٩٤٩ حين كنت ابن عشر سنوات . وها هي ذي فرصة اللقاء تلوح بعد ست وعشرين سنة فراق ولكبرى بناتي العمر الذي كان لي أنا حين ودعت أمي على رصيف محطة القطارات في غزة وتسلمتني دروب المنافي وأبعدتني عن الأم والوطن كليهما . لم أكن ، إذاً ، الطفل الذي ينتظر أوبة أمه لتطعمه أو تعتني به . إلا أن شيئاً من هذا الطفل حضر من جديد واشتعل الفضول : ست وعشرون سنة متصلة ، فأي أم هذه التي سألقاها وأي ابن هذا الذي ستراه هي ، وأي مشاعر !

قبل أسابيع من مجيء البشارة بالزيارة المأمولة ، تعرضت لمشكلة جديدة

مع جهاز أمن سوري . وقتها ، كنت قد ندمت على رضوخي لمشيئة ياسر عرفات وقبولي العمل مع عبد المحسن أبو ميزر مرؤوساً له واشتدت رغبتي في التفلت . وكانت مساهماتي في «السفير» قد أشهرتني كما لو أنني واحد من الكتاب المتفرغين للجريدة . ويبدو أن طلال سلمان المطلع بالطبع على معاناتي شاء أن يسعفني ، فكرر عرضاً قديماً بأن ينشئ مكتباً لجريدته في دمشق إن قبلت أنا أن أتولى إدارته . ولما وجد طلال لدي ميلاً إلى القبول ، جاء إلى دمشق لإنفاذ الفكرة . وصحبت أنا طلال في زيارة لصديقنا المشترك وزير الإعلام أحمد اسكندر . وقال أحمد إنه كان سيرشحني لهذه المهمة لو لم يهتد طلال إليّ بنفسه ، وتعهد أن أظفر بموافقة وزارته في أقصر وقت . وبدا ، خلافاً لهواجسي ، أن مسألة اعتمادي من قبل السلطات السورية ستسير على ما يرام . لكنني تلقيت بعد أيام استدعاءً لمراجعة فرع الأمن الخارجي في المخابرات السورية . وكان هذا هو الفرع ذاته الذي حُقق معي فيه في العام ١٩٦٨ بعد لقائي محمود درويش في صوفيا .

وفي الموعد المحدد ، بل قبله ، قدّمت نفسي إلى موظف الاستقبال في الكوخ المنتصب على الرصيف أمام المبنى ، وتلقيت الأمر بأن أنتظر على هذا الرصيف . وهناك ، فيما أنا أتمشى والهواجس تتناوشني ، وقعت عيني على رشاد أبو شاور على الرصيف ذاته . استدعي صاحبي هو الآخر لسبب ما . والتقى النظر بالنظر فتواطآ ، فلم يكلم أحدنا الأخر . فلسانك يصير حصانك فعلاً في مثل هذا الموقف بالذات . وحين دعيت إلى الدخول ، قادني حارس مستهين بي إلى مكتب رجل قدَّم لي نفسه على أنه أبو مهند ، ولم يذكر رتبته أو منصبه ، وبقي جالساً وراء مكتبه ، ودعاني إلى الجلوس على كرسيّ قبالته .

بدأ الرجل بداية غريبة : «أنت تعرف أن لحم أكتافك هو من فضل القطر العربي السوري عليك» . هو بعثي ، إذاً ، هذا الرجل ، وها هو ذا يمنني بفضل

لا دخل له فيه ، وعليّ أن أجاريه : «لسورية عليّ أفضال كثيرة ، علي وعلى غيري» . ولم يفطن الرجل إلى مدلول عبارتي كما رميت إليه أنا ، بل تابع بنبرة من تصور أنه طوقني بالفضل : «هذا يعني أن من واجبك رد الجميل» . فقلت وقد بدأت أشتمّ مرمى الحديث محاولاً اجتذاب رجل المخابرات إلى الإفصاح عنه : «نعم ، رد الجميل واجب . . .» ، وأردت المتابعة ، لكنه قاطعني بنبرة من استحوذ على بغيته وانتهى الأمر : «إذاً ، اتفقنا ، نحن بحاجة إلى الاستفادة من خبرتك» .

كنت ، إذاً ، إزاء رجل خفيف ومتعجل ، فانحلّ تهيبي وأسعفتني أناتي : «أنا من الذين يحبّون تسمية الأشياء بأسمائها ، فما الذي تريده منّي بالضبط ؟» . فراح الرجل ، وقد فطن على ما يبدو إلى أنه تعجل استدراجي ، يلوك الكلام لوكاً : «أنت صحافي ، ولك في منظمة التحرير مكانة ، تقابل الزعماء والقادة ، وترى صحافيين كثيرين وذوي شأن ، و . . .» ، ظل يلفّ ويدور دون أن يحدد ما يريد ، فرميته رمياً بهذه العبارة : «تريدني مخبراً عندكم» ، وتعمدت أن تعكس نبرتي أشدّ الاستنكار .

ومن حجرة الذي فشل في التفاهم معي ، نقلت إلى حجرة أعلى واستقبلني رجل أعرف من هو . كان هذا هو الرائد علي خير بك ، وكنيته أبو غزوان ، وكان نائباً لرئيس فرع الأمن الخارجي ، وكان يوصف بأنه من عظام الرقبة ، أي من الذين يعتمد النظام عليهم ويتمتعون بالثقة . وقد استقبلني أبو غزوان بمودة وأظهر حرصاً على اللياقات ، وأبلغ إليّ بعبارات فصيحة أنه يقدرني ويحترمني ، وقال إنه يتابع ما أكتب ويستفيد منه . وبنبرة اعتذارية ، قال الرائد إني أسأت فهم ما عرضه أبو مهند ، فأنا عندهم أكبر من مخبر ، وما يحتاجون إليه مني هو الاستفادة من ملكة التحليل السياسي المتفوقة لدي : «أنت أستاذنا» ، قالها أبو غزوان ظاناً على الأغلب أنه يوقعني بمديحه لي ، ثم

أضاف : «المخبرون عندنا كثيرون ونحن لا نريدك واحداً منهم ، ولو كان من حقّي أن أطلعك على أسماء الكتاب والصحافيين الذين يعملون معنا لشاب شعر رأسك» .

تكرر الجدل ، وتبسطت أنا فيه تَبُسّطاً مراعياً محدثي معي . وفي المحصلة ، بقي رجل المخابرات مصراً على استخدامي ، وتشبثت أنا برفضي . وفي تبسطي مع الرجل ، أو قل في سعيي إلى تجنّب اصطدام يؤذيني ، عرضت على الرائد أن يزورني في أي وقت يشاء ، في المنزل ، أو المكتب ، إن كان ما يتطلع إليه هو ، حقاً ، الاستفادة من تحليلاتي السياسية . وتذرع هو بأن زيارته لي قد تحرجني بما هو رجل مخابرات معروف . فرددت أنا بأني لا أتحرج ، فأنا أقابل ناساً من شتى الأصناف كل يوم ، وأنا لا أعقد معه اتفاقاً سرياً ، وسأقول في حضوره ما أقوله في حضور غيره : «اسأل الذين عرفوني ، أنا لا أتحدث بلغتين !» .

وأمام إصراري ، خطا أبو غزوان خطوة أخرى ، خطاها محاذراً في واقع الأمر : «لو كنت شخصاً آخر لضغطنا عليك ، نحن نملك الوسائل ، أنت تعرف ، بيدنا أن نمنعك من العمل ، أو نخرجك من البلد ، أو . . .» ، فأوقفت استرساله ، وتابعت بنفسي فكرته مجارياً نبرته : «أو أن نضعك في السجن ، أعرف هذا وأحسب حسابه ، لكني وطدت نفسي على أن لا أرضخ له» . وعندما شرع الذي بدا لي أن صراحتي لا تسوؤه في قول شيء جديد ، قاطعته ثانية أو قل إن ضيقي بهذا الحوار هو الذي قاطعه : «لك أن تعرف أني دخلت دمشق أول مرة حافياً ، فإن طردت منها فسأخرج وفي قدميّ حذاء على الأقل ، وإن سجنت فسأظفر بثلاث وجبات أنا الذي طالما جاع في حياته» . ولأمر ما ، لعله تأثر الرجل بصدق تشبثي بكرامتي ، عادت النبرة الاعتذارية ، وكرر أبو غزوان القول بأني أسأت الفهم مرة أخرى ، فهمه هو هذه

المرة ، وأكّد على أنه لا يهددني بل يحذرني : «لدي طلب اعتمادك مراسلاً للجريدة اللبنانية ، وعندنا قاعدة ، لا نعتمد مراسلاً لصحيفة خارج القطر ما لم يعمل معنا ، وأنا أريد أن أساعدك» . وقبل أن أتفوه بشيء ، قال هو : «لا تستعجل ، فكر أكثر ، وتذكر أننا نحترمك ونريد الاستفادة منك !» .

استدعاني أبو غزوان مرة أخرى . واستنجدت بعدها بعبد الله البرقاوي . أردت أن يساعدني مسؤول مخابرات جيش التحرير الفلسطيني عند زميله السوري . وقابل عبد الله رئيس الفرع ذاته ، وكان هذا رائداً آخر نسيت اسمه . وكرر عبد الله على مسامع زميله رفضي العمل مخبراً واستعدادي لاستقبال أي ضابط مخابرات علناً إن كان الهدف حقاً هو هذا الذي تحدث عنه أبو غزوان . وسمع عبد الله الرد : «أي تحليل ! أنا أحلل سياسة لربّ السماء ، أريده مخبراً» . وجاءني عبد الله وقد أسقط في يده : «لن يحلّوا عنك حتى لو طُويت مسألة مكتب الجريدة كلّها ، فتدبر أمرك !» .

عندها ، صار لا بد من الاستعانة بياسر عرفات ، فتوجهت إلى بيروت واقتحمت خلوة فيها هو وأبو إياد ورويت ما وقع لي . أبو إياد قال : «بسيطة ، سنقابل الرئيس الأسد بعد أيام ومن الممكن أن نفتح الموضوع معه» . أما أبو عمار فوجد حلاً أبسط : «يكفي أن تقول لهم حين يستدعونك إنك أطلعتني على الأمر ، هم يريدونك مخبراً لتتجسس علينا ، فليعرفوا أننا عرفنا !» . والواقع أني لم أُستدع مرة أخرى . فقد رويت واقعة حديثي مع أبي عمار وأبي إياد لواحد من زوار مكتبي أعرف أنه مخبر متستر وضمنت بهذا أن تصل الرسالة . ومع أن هواجسي بردت بعض الشيء ، فقد بقي ما يكفي لأن أظل متوجساً وأترقب ما يخيف . والحق أني كنت خائفاً .

في هذا الجو ، جاءت زيارة أمي .

هتف خالي نافذ من عمان : «سنكون أنا والوالدة في دمشق بعد

ساعات ، فلا تتحجّج بالمشاغل ، هي مشتاقة لك !» . فذهبت إلى بناية القاري ، إلى حيث يسكن أهلي . وهناك تجمعنا ، أنا ابنها ، وجدي أبوها ، وجدتي أمها ، وزوجة الجد ، وأبناؤه من الزوجتين ، إخوتها وأخواتها كلهم . ووحّدنا انتظار اللحظة المرتقبة .

وما أن جلجل بوق السيارة في الشارع معلناً وصول الزائرة حتى هبّ الجميع وتزاحموا على الدرج الضيّق وكل منهم يريد أن يهبط إليها قبل غيره ، الجميع إلا أنا . فقد أبقاني في مقعدي شيء لا أملك القدرة على وصفه ، شيء امتزج فيه مزاج الطفل المعقد الذي كنته حين فارقتها ومزاج الرجل الذي صرته وأنا بعيد عنها ، وعناد الاثنين . وانضاف إلى المزيج حرصي الفظ على أن أبدو ممن لا تستخفهم العواطف ومعه حرصي المزمن على التميز : أنا بين هؤلاء جميعهم الوحيد الذي هو ابن المرأة القادمة والوحيد الذي عاش بغير أم طيلة هذه السنين ، أنا أقربهم إليها وأكثرهم حاجة ولن أخلط عاطفتي ببحران العواطف التي تساويني بهم . وما دام هؤلاء لم يقدّموني عليهم في السلام على أمّي فليفرغوا من سلاماتهم ، في الشارع ، أو على الدرج ، وسأسلم عليها عندما تتفرغ هي للسلام عليّ وحدي .

هبطت الضجة الدرج ثم صعدت ثانية تتقدمها لهفة أمي ونداؤها : «أين هو هذا الولد العنيد ؟!» . كنت عنيداً حقاً ، وكان عنادي بغيضاً ثم صار أبغض . فقد غالبت عواطفي حتى بعد أن سمعت النداء وهزتني لهفته . وقد انتظرت إلى أن ولجت أمي باب الشقة ، أما منذ ألقيت نفسي بين ذراعيها ، فقد غاض كل شيء إلا سعادتي باللقاء .

كيف أصف شخصية أمي . نحتت خمسون سنة من المعاناة شخصية سيدة كل ما فيها متين ، شدّتها متينة وعذوبتها متينة وفيها الذكاء الفطري الذي شحذته الخبرة المتنوعة . كان لأمي حضور لا يفلت أحد من تأثيره ، إلا

أنه لا يثقل على أحد ، وكانت لها قدرة على التصرف لا تحتاج معها إلى اصطناع المجاملات . لم تعد لبقة هي تلك الفتاة الجميلة التي يفتن جمالها الناظرين . إلا أن ابنة الخمسين احتفظت من جمال فتوتها بصباحة الوجه وصفاء العينين وأضافت مهابة الكهولة فظلت لها جاذبية آسرة . وعناد الأيام الغابرة لم يفارق أمي كلُّه ، فقد بقي منه ما يكفي لتحصينها ضد الانسياق مع العواطف المداهمة ، عواطفها التي تعتمل في روحها والعواطف التي يغرقها بها الآخرون .

أولت أمي جدتي ، أمّها ، القسط الأوفر من اهتمامها . وكانت الجدّة كما أدركت أمي بسداد شديد أحوجنا إلى هذا الاهتمام . ولاحظت أمي كيف أن الجدة فقدت القدرة عل الإبصار دون أن تقرّ بهذه الحقيقة . واستحضرت أمي حالة جدتي الكبيرة ، أمّ أمّها ، التي صارت هي الأخرى عمياء مع تقدم سنها دون أن تقرّ بذلك . وتجاهلت أمي بالطبع ما رأته وأباحت لأمها أن تفيض أمامها في وصف الأشياء . وإزاء جدّي ، أبيها ، سلكت أمي كما تسلك الابنة الوفية ، لكنها لم تبح للجد أن يتصور أنها نسيت إساءاته القديمة . وأبقت أمي أباها في المنطقة الوسط بين الشك واليقين بشأن مسامحتها له ، وذلك دون أن تقسو عليه . ومع امرأة الجدّ ، أم عدنان التي لها عمر أمي ، تعاملت القادمة من غزّة كما كانت تتعامل مع ضرّة أمها ونحن في المسميّة ، بروح الصداقة ، ولم تدس أمي أنفها في خلافات شقّي الأسرة ، بل عاملت سكان الشقة التي فوق والأخرى التي تحت بمساواة ودون محاباة . وإزاء شفيقة التي حرمتها الظروف من أشياء كثيرة ، أظهرت أمي تعاطفاً لا يوهنه أي حساب دون أن تشوهه بإظهار أي شفقة .

وعاملت أمي أخاها نافذ بمودة واحترام ، إلا أنها لم تمكنه من أن يمارس عليها السطوة التي له على الآخرين . والشيء ذاته فعلته أمي إزاء أخيها عمر .

أما غالب فما أسرع ما اكتشفت المرأة الفطنة أن أخاها هذا مختلف عن إخوته . وكان غالب وقتها قد أمعن كثيراً في سلوكه الذي لا ترضى الأسرة عنه ولا يتفق مع نهج سلوكها المستقيم . فاستبقتْ أمي بينها وبين أخيها هذا مسافة لم تأذن له باجتيازها ، لكنها لم تتدخل في شؤونه . وأما إزائي أنا فتصرفت الأم منذ البداية باعتباري بين الجميع الوحيد الذي يخصها بكليته ، فلم تتحفظ في شيء أو تخفي عنّي شيئاً ، ولم تتح لي أن أتحفظ أو أتكتم .

زيارة ، أمي هذه كانت موسم أعياد للأسرة . ولا شك في أن بناتي سعدن بالزيارة وأعيادها أكثر من أيما أحد . تحققت بناتي من أن جدتهن التي يسمعن عنها هي حقيقة ماثلة ، واجتذبت الشخصية المتحررة من التزمت بناتي فلم يفارقن جدتهن إلا في أوقات الدراسة . وبحضور أمي ، انضاف إلى جوّنا شيء جديد وبقي فيه : أغاني المسمية التي كنت أنا نفسي قد نسيتها . حفّظت أمي حفيداتها الأغاني ودربتهنّ على أدائها وغنتها معهنّ . وما زالت بناتي حتى بعد أن كبرن وصرن سيدات تامات النضج يرددن ما حفظنه في تلك الزيارة . وليس من النادر إلى الآن أن تجبهني أي من بناتي ، كلما شاءت أن تعبر عن رفضها لطلب مني بهذا المقطع ذي اللحن الحيوي : «سكرنا البيارة ، سكتر يا ناطور !» ، أي : أقفلنا البيارة ، انقلع أيها الناطور !

الحفاوة والأفراح والولائم المتواترة لم تحجب عن عيني الزائرة النافذتين سوء أحوالنا . ألفت السيدة التي باعدت دروب المنفى بينها وبين ذويها أن تتباهى في غزة بمنجزات أقربائها في دمشق وتنسب إليهم جلائل الأعمال . فنافذ ، كما تصوره أمي لقريناتها في مكان إقامتها البعيد ، هو سيد الناس ، وراتبه ومرتبته يجعلانه في مقام وزير ؛ وعمر هو حاكم المال في سورية لا يتصرف حكام البلد بمال دون مشورته ؛ وأنا أشهر الصحافيين وأعظمهم ، غدائي مع وزير وعشائي مع رئيس وياسر عرفات ذاته لا يبتُّ بأمر قبل أن

يعرف رأيي فيه ؛ جميعنا ميسورو الحال ، متزوجون من أجمل النساء ، وأنسباؤنا من أشرف الأسر . تحكي أمي هذا وهي مقتنعة بصوابه بمقدار حاجتها إلى التباهي به . فلك أن تتصور ما الذي أصاب المعجبة بأقربائها إلى هذا الحد حين عاينت أحوالنا وعرفت ما نحن فيه . خذ حالي أنا ، ابن هذه الأم ، مثلاً : بيتي بالأجرة ، أذهب إلى عملي ماشياً أو في الباص ، أتدبر أمر معيشتي بالكاد وكثيراً ما ألجأ إلى الاستدانة ، وأسير على مسامير القمع ، هاتف منزلي مراقب ، والمنزل ذاته ، وقلما أمضي ليلة بغير هواجس .

وها أنا ذا أتذكر الحديث الذي كشف لي خيبة أمل أمي بأحوالنا . ساهرتها على الشرفة بعد أن نام الآخرون ، وفتحت هي مخزونها : «نافذ يقترب من الخمسين ولم يتزوج ، مسكنه شقة صغيرة بالأجرة بالرغم من أنه مسؤول كبير قادر على أن يلعب بالمال لعباً . عمر الذي يدير مال الدولة يسكن في منزل عتيق يملكه أنسباؤه ، منزل لا يسع ثلاث عنزات ولا تدخله الشمس . غالب فلتان لا يحلل ولا يحرم بالرغم من أنه كان الأول في الجامعة ، وأنت . . . أكرمتني بخاروف أحلف أنك اشتريته بالدين ، فماذا أقول . أنا زائرة لا يجوز أن أتدخل . لكني ، يشهد الله ، سأنفلق» . قالت أمي هذا وكثيراً مما هو مثله ، ثم صمتت لحظات ، وبعد ذلك قالت بنبرة هازلة : «أحمد الله لأن اليهود لم يحتلّوا هذه البلاد ، تصور لو أنهم احتلوها واتصل الناس بعضهم ببعض وعرف أهل غزة أحوالكم ، تصور فضيحتي أمام نساء غزة !» .

من أمي ، من أحاديثها والحكايات التي ترويها ، عرفت عن غزة ، عن أمزجة الناس وسلوكهم وموقفهم من الاحتلال ما لم تنقله الكتابات أو أحاديث النخبة . عند أمي ، الوقوف ضد الاحتلال شيء طبيعي مثل الوقوف ضد أي وباء ، وتضامن الضحايا طبيعيّ هو الآخر . واليهود عند أمي أصناف .

تتحدث أمي عن اليهود وهي تعني اليهود الإسرائيليين . وهؤلاء أغلبهم أعداء ، رأتهم في غزة جنوداً يقتلون الناس أو يذلونهم أو يسوقونهم إلى المعتقلات أو يضيقون عليهم بشتى الوسائل ، ورأتهم موظفين يحتمون بهؤلاء الجنود ويتسلطون على أرزاق الناس وحركتهم . وقبل لجوئها إلى غزّة ، رأت أمي من اليهود أولئك الذين اغتصبوا أرضها وأرض أهلها ودمروا القرى وألجؤوا سكانها إلى أسوأ حال . غير أن أمي لا تستبعد وجود آخرين من نوع مختلف : «أصابع يديك لا يشبه الواحد منها الآخر» ، تقول هذا وتضيف : «بلى ، عرفت يهوداً طيبين ، قبل النكبة وبعدها» .

وقد حكت أمي لحفيداتها حكاية عجوز جاء إلى غزّة فور احتلال إسرائيل لها وراح يسأل المواطنين في أزقة حيّ الشجاعية عن لبقة بنت عبد المجيد الحوراني زوجة حسن مهنّا ويذكر كنيتها : أم فيصل . كان هذا يهودياً يتكلم العربية بلهجتها الفلسطينية فأثار بحثه عن أمي فضول الناس لكنه أثار أيضاً حذرهم . وطال بحث الرجل دون أن يقدم له أحد إجابة شافية إلى أن وقع على امرأة من صاحبات أمي قوية الشكيمة مثلها ومقدامة : «ما الذي تريده يا يهودي من ابنة المسمية ، ألا يكفي ما نزل بنا على أيديكم !؟» . ولدهشة هذه المرأة ، تعرف الرجل عليها هي الأخرى وخاطبها باسمها وذكّرها بنفسه فتذكرته وقادته إلى منزل أمي . وكان هذا هو الطبيب الذي ذهبت إليه أمي في كل مرة احتاجت فيها إلى علاج ثم لم تره بالطبع منذ ١٩٤٨ . وفي اللقاء المتجدد بعد تسعة عشر عاماً ، بكى الطبيب العجوز ، «بكى بحرقة تفتت الأكباد» ، قالت أمي ، وأضافت : «بكى حتى أبكاني معه على الأيام الخوالي ، ولعن الذين فرقوا بيننا ، فلعنتهم أنا الأخرى ، وكل إنسان يلعن الذين في باله» .

حكت أمي عن يوم ضمها فيه في الضحى مع صاحباتها مجلس يثرثرن

فيه قبل عودة رجالهن لتناول الغداء ، فقطع دوي انفجار ثرثرة النساء : هذا فدائي رمى شيئاً على جنود إسرائيل وسيلاحقونه ، وقد يلتجئ الملاحق إلى أي منزل في الحي . وتفرقت النساء بسرعة . وخفّت أمي إلى دارها : «أشعلت بابور الكاز تحت جميزة باحة الدار ووضعت عليه ماء ورحت استحم حتى قبل أن يسخن الماء» . فعلت أمي هذا وفعلته نساء كثيرات . فمن يدري إلى أي دار سيلجأ الملاحق . ولو اقتحم الإسرائيليون الدار ، حتي والفدائي مختبئ فيها ، فسيعرفون أن ثمة امرأة تستحم وسيستنتجون أن من المحال أن تستحم امرأة من غزة في باحة دارها إذا كان في الدار غريب : «الفدائيون ، حبّات عيوني ، يكسبون فينا أجراً ، ونحن نستحم كلما هاجموا دورية في حيّنا» . قالت أمي هذا بنبرة فيها اعتزاز ، ثم حذرتنا : «لا تحكوا الحكاية لإخوتي ، فهؤلاء غير شكل ، وقد لا يعذرون» ، ولكنها حكتها لهم بنفسها بعد ذلك ، فلم يستنكر أحد منهم سلوكها .

الأعياد لا تدوم ، ولو دامت لما صارت أيامها متميزة . وسرعان ما جاء اليوم الذي توجب فيه على الزائرة أن تغادرنا ، فلو تجاوزت مدّة الإذن الممنوح لها لخسرت حقها في العودة إلى وطنها خسارة أبدية ، فهذا هو قانون الاحتلال الإسرائيلي .

هيأت لأمي مفاجأة توخيت أن توفر لها ما تتباهى به أمام صواحبها . سألت أمي عن تقديرها لعدد الصاحبات العزيزات عليها . وجلبت ثلاثين كنزة صوفية ، أو بلوفر ، هدية ، واحدة لكل صاحبة . ولا شك في أن المفاجأة أبهجت أمي ، لكنها أظهرت السخط إذ تصورت أني أضفت إلى ديوني ديناً جديداً . أهلي أشفقوا هم الآخرون عليّ غير أنهم أجازوا تصرفي . ولك أن تعرف أني حصلت على الكنزات الثلاثين دون أن أدفع قرشاً . ففؤاد قدري لا يخذل أصدقاءه . وهو الذي انتقى الكنزات من بين أجود النماذج التي يسوّقها

وأصرّ على أن أبهج بها العائدة إلى غزّة وصاحباتها .

مفاجأة جدّي كانت مما يتفق حقاً مع شخصية الرجل الذي لا يقرّ أبداً بأن أي حق من حقوقه في الوطن قد ضاع أو يمكن أن يضيع . استخرج جدّي من محفوظاته العزيزة الأوراق التي تبين علاقته مع باركليز بنك في يافا وحدد مطلبه من ابنته : على أمي أن تذهب إلى هذا البنك وتستقصي مصير حسابات جدّي فيه وترسل إليه ما بقي منها .

كان جدي يعرف أن أملاك الفلسطينيين ، حقولهم وعقاراتهم ، ومشاريع عملهم ، قد وضعت بعد تهجيرهم من وطنهم في تصرف مؤسسة أسمتها إسرائيل حارس أملاك العدوّ الغائب . وقد تابع جدّي كما تابع غيره مآل هذه الأملاك فعرف أن المؤسسة الإسرائيلية تتصرف بها استثماراً وتأجيراً ، تقبض الريع وتفي بالالتزامات من ضرائب وغيرها وتحرص على أن يظهر في سجلاتها كل سنة أن الحصيلة صفر . وكان مغزى ما تفعله المؤسسة الإسرائيلية واضحاً لكل من تابعوا الأمر : تغييب إمكانية مطالبة أصحاب الأملاك بمداخيلها في أي وقت تغييباً كاملاً . لكن جدّي استخلص ما هدته إليه حاجته ؛ فتصور أن لحقوله في المسمية وضعاً خاصاً يجعلها خارج سلطة المؤسسة الإسرائيلية المخادعة . فأنت تعرف أن جدّي رهن قبل سنة من هجرته حقوله لباركليز بنك مقابل القرض الذي موّل به مشروعه الكبير . ولأن البنك بريطاني والبريطانيين عند جدي هم المتحكمون بالعالم ، فقد تصور صاحب الحقول المرهونة أن البنك احتفظ بسلطته عليها واستوفى من ريعها قرضه . ولأن لجدّي في البنك أصحاباً ، فقد تصور أنهم حفظوا له في حسابه عندهم ما فاض بعد استيفاء القرض ، وظل يهدهده الأمل بأن يحصل على ماله .

حاججت أمي أباها ، أرادت أن يدرك أن الزمن تبدل ، قالت إن إسرائيل نهبت الأملاك وريعها وكل ما وقعت عليه يدها مما تركه أهل البلاد : «إنهم

ينهبون أرض الناس وحقوقهم ، الآن أيضاً ، فكيف يعيدون ما نهبوه قبل سبعة وعشرين سنة» . غير أن جدي أسكت ابنته بحزم : «أنت لا تفهمين ، الأرض لأصحابها ، هذه أملاك شخصية ، إسرائيل أو غيرها ، الملك ملك ، والبنك إنجليزي ، بريطانيا العظمى ، والذين يعملون فيه أصحابي ، أكلوا من زادي ولا ينسونني ، وما عليك إلا أن تذهبي إليهم !» .

تابعت الجدل ، وكنت بحاجة لإرادة عشرة أشخاص صلبي الإرادة كي أحجب أساي فلا يصدر عني ما يكسر أمل جدّي أو يجرح شعوره . وقلت لأمي مرتكناً إلى فطنتها : «اتبعي ما يطلبه أبوك ، لن تخسري شيئاً ، على الإنسان أن يجرّب !» . فأخذت أمي الأوراق والتفويض الذي أعدّه الجد ، ورضي جدّي . وعندما خلت أمي بي ، أرادت أن تبقي الأوراق عندي : «الإسرائيليون يفتشون الداخلين ولا يجيزون إدخال أي ورقة . لا أريد أن يأخذوني إلى التحقيق ويتعبوني بأسئلتهم» . وكنت صريحاً مع أمي : «يعزّ عليّ أن أتواطأ ضد جدّي ، لن أحتفظ بأوراقه من وراء ظهره» . عندها ، بدا أن أمي فطنت لشيء فقالت متراجعة : «سآخذ الأوراق ، التحايل على عكاريت المعبر ممكن ، لست أقلّ من غيري» . فهل فطنت أمي إلى أن أوراق أبيها تزودها بجديد تتباهى به ، ضخامة الأملاك والحسابات التي في البنوك ؟ لم يكن ذلك مقاماً ملائماً أسأل فيه أمي عن شيء مثل هذا .

١٩

طردت من موسكو ثم منعت من دخولها

جاءت الموافقة على العلاج وحصلت على تأشيرة الدخول، وفي الوقت ذاته، سميت عضواً في الوفد الفلسطيني الإعلامي إلى قمة عدم الانحياز. فعزمت على التوجه إلى كولومبو، عاصمة سيريلانكا، حيث سينعقد مؤتمر القمة والتوجه منها إلى عاصمة السوفيات. وهيأت نفسي لرحلة طويلة. الشخصي والعام، هكذا هو الأمر كلما أوليت الشخصي شيئاً من الاهتمام.

تجمعنا في مطار دمشق، الوفد الإعلامي، زياد عبد الفتاح صديقي البعثيّ السابق مثلي وهو من كان المدير العام لوكالة الأنباء الفلسطينية «وفا» وسيدة من معاونيه وأنا، وبعض أعضاء الوفد الرسمي، فاروق القدومي وعبد المحسن أبو ميزر وآخرون. وكان عبد الحليم خدام وزير خارجية سورية ومرافقوه مسافرين على الطائرة ذاتها التي ستقلنا جميعاً إلى كراتشي ثم إلى كولومبو فتسنى لي أن ألقاه في صالة الشرف. ويبدو أن الرجل الذي لم أره منذ وقت طويل شاء أن يظهر أمام رفاق الرحلة أن له مونة عليّ فخصني بعنايته وخاطبني بنبرة تشي برفع الكلفة: «لم أرك منذ سنين، لماذا لا تزورني؟». فسمع هو كما سمع الآخرون الإجابة التي ليس عندي غيرها: أتبع قاعدة، فحين يصير أي من أصحابي وزيراً أتوقف عن زيارته إلى أن تسقط الحكومة،

فهل تتوقع أن أزورك في وقت قريب» . وكان خدام يعرف أن حكومته لن تسقط فلم يُسقط في يده : «لن تحصل ، إذاً على جواز السفر الخاص الذي طلبته لك م . ت . ف . إلا بعد عمر طويل . لن أوافق على الطلب ما لم تزرني» . وكانت هذه ، كما قد ينبغي أن تعرف ، بداية مناسبة لرحلة أصحب فيها فاروق القدومي وعبد المحسن أبو ميزر كليهما . فاهتمام الوزير السوري بي وهو صديق لرئيسي السابق ورئيسي الحالي ، جعل هذين اللذين يستثقلني كل منهما أقل جفاءً تجاهي وأكثر وداً .

لن أحدّثك عن اكتشافاتي في كراتشي التي أمضينا فيها نهاراً وليلة ، ولا في سيريلانكا ، فهذا الجانب من آسيا عالم لا يحيط به حديث موجز . ولن أحدثك عن المؤتمر ، فقد كان واحداً من المؤتمرات التي تُرى خطيرة عن بعد فإذا دنوت منها فكلام كثير يسيل بحساب وبغير حساب ثم لا يبقى من المؤتمر مما هو مهم إلا تأثير انعقاده ذاته . كما لن أحدثك عن أي معاناة مع زملاء الرحلة أو أي مسرات ، فقد صرت تعرف جوّنا وما فيه مما هو مؤسٍ أو سارّ . شيء واحد يعنيني أن تعرفه وهو أن سمعة الثورة الفلسطينية بلغت حتى في هذا العالم النائي مرتبة القداسة . وقد كانت لياسر عرفات في كولومبو شهرة بين الناس لا تقل عن شهرته في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين أنفسهم .

كان القدومي هو رئيس وفد م . ت . ف . إلى اجتماع وزراء الخارجية الذي يسبق القمة . وكان من المفروض أن يجيء عرفات ليرأس وفد هذه القمة . وفيما نحن منشغلون باجتماعات وزراء الخارجية ، اكتظت شوارع العاصمة السيريلانكية بالجمهور الذي يترقب وصول زعيم الثورة الفلسطينية . والذين وفدوا لهذه الغاية من خارج العاصمة ناموا في الشوارع . ولما لم يكن أحد على يقين مما إذا كان عرفات سيحضر أو لا يحضر المؤتمر بنفسه ، فقد

طلبت سلطات البلد أن نزودها بالخبر اليقين . واتصلنا بالزعيم الذي سبب اكتظاظ الشوارع بمترقبي قدومه مشكلة للسلطات ، فعرفنا أنه لن يتمكن من الحضور . كانت بدايات الحرب اللبنانية الأهلية قد اتسعت في ذلك الوقت ، وقد طرأ ما يرغم عرفات على البقاء في بيروت .

وهكذا حلّ القدومي محل عرفات في رئاسة وفد القمة أيضاً .

هنا ، في سيريلانكا ، تكشفت لي جوانب في شخصية فاروق القدومي لم أكن أعرفها . وهنا ، أيضاً ، أفضى هذا كما أفضى اطلاعه على نشاطي وأنا في إبان عمل كبير إلى تحسين صلتي بهذا الرجل . كنت آخذ على القدومي تأثر قراراته في الشأن العام بمزاجه الشخصي . وهذا مأخذ لم يسقطه سلوك الرجل لا في سيريلانكا ولا بعدها . ولو قلت لك إن عدد أعضاء الوفد الذي أحاط القدومي نفسه به كان مساوياً لعدد أعضاء وفد الصين وربما أكبر لعددت الأمر غريباً . لكن هذا الأمر كان فيه ما هو أغرب فمعظم الأعضاء أُلحق بالوفد لا لشيء إلا لأن الرجل يستطيب صحبته . وكان من هؤلاء ثلاثة أعرفهم يشركهم القدومي في أي وفد يرأسه وكل واحد من الثلاثة مدير لمكتب من مكاتب م . ت . ف . في قارّة غير قارة الآخر . والثلاثة كلهم كانوا أعضاء في حزب البعث في منظمة الكويت حين كان فاروق القدومي فيها ومرتبة كل منهم كانت في الحزب أعلى من مرتبته ، وكلهم انتقل من البعث إلى «فتح» كما فعل هو .

ويبدو أن الرجل الذي صار رئيساً لهؤلاء في م . ت . ف . استطاب أن يستخدم سلطته ليجمعهم حوله ، مرؤوسين له كلما أمكن ذلك . أما ما تكشف لي من شخصية الرجل وجذبني إليه فهو ظرفه حين يكون خارج زحمة العمل وولعه في التبسط مع جلسائه وقدرته على إشاعة الأنس دون تصنع .

أتيح لي أن أعرف هذا بعد حادثة قد لا تكون ذات أهمية في حدّ ذاتها إلا أن دلالتها على حالنا هي التي لها أهمية . فقد حدث أن مراسلة لوكالة الصحافة الفرنسية لقيت واحداً تعرفه من المحيطين بالقدومي وطلبت أن يزودها الوفد بالأنباء . اسم هذه المراسلة دانيال وقد نسيت اسم عائلتها . وكانت لدانيال شهرة واسعة بالإضافة إلى شهرة وكالتها . وقد رأيت بنفسي كيف أوقف وزير خارجية الجزائر عبد العزيز بوتفليقة السيارة التي تقله في الشارع وهبط منها ليسلم على دانيال هذه ويتودد إليها . أما هذا الذي لقيته دانيال من أعضاء الوفد الفلسطيني فكان رجلاً سأسميه هنا نهّاز ، ذلك أنه كان نهاز فرص لا يحلل ولا يحرم كلما تعلق الأمر بمنفعة يحصل عليها أو أذى يلحقه بخصم . وقد أحال نهاز هذا دانيال عليّ : «ستجدينه في المركز الصحافي أو مبنى المؤتمرات ، ولك أن تعتمدي عليه !» . ولم أشأ أن تعرف الفرنسية رأيي في نهاز ، ولم أصحح انطباعها هي التي ظنت أنها تنقل إلي أمراً منه ، بل اكتفيت بأن قلت لها إنها تستحق معاملة خاصة بتوجيه من نهاز أو بدونه . وأتبعتُ القول بخدمة فورية ، فزودت المراسلة الفرنسية بنص كنت قد حصلت عليه للتو وكان هذا هو النص الذي اتفق وزراء الخارجية العرب جميعهم على أدراجه في البيان الختامي للمؤتمر . وفرحت دانيال بالسبق الصحافي وشكرتني .

النص الذي أحدثك عنه حصلت عليه من أحد مرؤوسي القدومي ، وهو واحد من ثلاثة يلعب رئيس الدائرة السياسية معهم لعبة «تريكس» الشهيرة . لاعب التريكس هذا هتف لي : «إياك أن يعرف أبو اللطف أني أنا الذي أعطاك النص !» . ولما استقصيت سر الهلع الذي يرعش صوت المتحدث ، جاء الإيضاح : «رئيس الدائرة ثائر لأنك أعطيت النص للصحافة ، فتلقّ وعدك وحدك ، ولا تفضحني !» .

التقت الفرنسية نهاز وامتدحتني أمامه ونوهت بما فعلته من أجلها . فاستاء نهاز الذي يسوؤه أن يُذكر أيما أحد بخير ، وتوجه إلى القدومي بهيأة المحبط : «لنحزم حقائبنا ونرجع من حيث جئنا ، خرّب فيصل ما عملناه لأنه أراد أن يتودد إلى امرأة !» . وفي هذا النحو ، أمعن نهاز في تحريض رئيسه علي ، وقال إن نشر النص قبل اعتماده من القمة يوفر للأمبريالية فرصة الاطلاع عليه فيمكنها من العمل لمنع اعتماده ، وهكذا : «ضاع جهدنا وضاعت القضية ، كشفنا خطتنا أمام الامبريالية واستنفرناها ضدنا» . ولم يكن لنميمة بهذا المنطق المتهافت أن تحرض أيما مسؤول لو لم يكن المسؤول هو هذا الذي أحدثك عنه . وقد استجاب القدومي للتحريض ، وأغلب ظني أنه تصور فعلاً أن الأمبريالية صارت بالمرصاد وأني أنا الذي زودتها بما يمكنها من النجاح ، فسخط عليّ ، وثار ، وهدد ، وتوعد .

وما أن عرفت هذه الحكاية حتى بادرت من جانبي إلى الاتصال بالقدومي : «الحمد لله ، أنت حيّ ! إذاً ، لم تقض أمبريالية نهاز عليك» . بدأت بهذا ، فأرغمت الساخط عليّ على الإصغاء ، وأمعنت في السخرية : «تصور ! عشرون وزير خارجية عرب يجتمعون في كولومبو فلا تعرف الأمبريالية ما الذي انتهوا إليه . تصور ، الأمبريالية بجبروتها احتاجت إليّ لتعرف ما الذي جرى وتحبطه !» . وبسخريتي : ملكت انتباه القدومي بكامله ، وأضفت : «من الذي يجهل أن أمبريالية كل واحد من هؤلاء موجودة معه في جيبه حيث يمكن أن تسجل ما يقوله أو يسمعه» . صورة الأمبريالية التي في جيب كل وزير خارجية ومعها آلة تسجيل أطربت القدومي فانحل سخطه وجلجلت ضحكته عبر السماعة : «لعنة الله عليك يا نهاز !» .

بعد تسوية المشكلة على هذا النحو ، دعاني فاروق القدومي إلى حضور احتفاله بعيد ميلاده الذي حلّ أثناء انعقاد المؤتمر . وفي الاحتفال ، تكشف لي

الوجه الذي أجهله من شخصية الرجل . فقد ضمنا الجناح الذي يقيم فيه في الفندق الفاخر ، وهو الجناح الذي كان مخصصاً لإقامة عرفات إلى جانب أجنحة رؤساء الدول . وبعد أن صفَّيتُ حسابي مع نهاز بحضور الجميع وسمع هذا مني ما يستحقه ، أخرج فاروق القدومي شبابته من حقيبته الدبلوماسية ، وعزف ، وغنى ، وارتجل رجزاً خص كل واحد منا بمقطع منه ، فإذ أنا أمام رجل يعرف كي يمرح ويجتذب جلساءه إلى المرح ويسعدهم . ومنذ ذلك الوقت ، ظل يسعدني أن أظفر بالقدومي في أي مناسبة تظهر هذا الوجه من شخصيته .

بعد انقضاء المؤتمر ، جلت في أسواق كولومبو مع أمثالي من فقراء أعضاء الوفد . يومها ، اشتهر من أنباء التسوق أن السيدة جيهان زوجة الرئيس المصري أنور السادات اشترت جوهرة قيل إن ثمنها بلغ خمسة وسبعين ألف دولار . وفي معرض التهوين من دلالة المبلغ ، قيل أيضاً إن هذه لم تكن أغلى جوهرة اشتراها المتسوقون العرب . أما أنا فاشتريتُ دمية ثمنها ثلاثة دولارات . وكانت هذه دمية خشبية لراقص سيريلانكي صُممت بحيث تتحرك تلقائياً كلما هززتها ، فاشتهيت أن أفرح بها بناتي . ولأني أعتزم الذهاب إلى موسكو ، وليس إلى دمشق ، وقد أبقى طويلاً في موسكو ، فقد جئت بالدمية إلى صديقي محمود الخالدي ممثل م . ت . ف . في سورية ليحملها معه إلى أسرتي . وكان محمود قد أتم حزم حقيبته وأقفلها وعندما فتحها اتضح أن لا مكان للدمية فيها . وشاء الرجل أن ينحي بعض حاجاته ، فأبيت أنا . وفيما نحن نتجادل ، وصل إلينا عبد المحسن أبو ميزر ، فعرض دون تردد : «أنا آخذ الدمية» . وفهمت أنا بالطبع أن رئيسي هذا يعرض حمل الدمية إلى أسرتي وفاجأتني أريحيته ، وشكرته . غير أن مفاجأة أخرى ما لبثت أن صدمتني . فقد تسلم عبد المحسن الدمية بعناية وتفحصها بأناة ثم أخرج حافظة نقوده

وسألني : «كم ثمنها؟» . عندها ، فقط ، أدركت أن الرجل يريد الدمية لابنته ولم يشغل باله أني اشتهيتها لصغيراتي . وقبل أن ينفجر حنقي أنا ، انفجر محمود : «هذه دناءة» . فلم يستحِ المستهدف بهذه الشتيمة ، بل طوى حافظته وأعادها إلى جيبه وراح يراقب محمود وهو يعالج حقيبته كي تتسع للدمية ، ولم يخفِ رغبته في أن تضيق الحقيبة بها .

عندما خططت أن أتوجه إلى موسكو من كولومبو ، لم أنتبه إلى أن خط الرحلة يعيدني إلى الشرق الأوسط ، ولو انتبهت إلى هذا ، لرجعت مع أصحابي إلى دمشق في رحلة الخطوط الجوية الباكستانية المريحة . إنني ضعيف في الجغرافيا ، كنت وبقيت . وهكذا ، توجب أن أنحشر في طائرة ايرفلوت السوفياتية المكتظة بالركاب والحوائج وأطير طيلة الليل ، أنا الذي لا يستطيع أن ينام أثناء أي رحلة . وفي الصباح الباكر ، وصلت إلى مطار موسكو مهدود القوى وقد برّحت بي آلام الظهر . وكنت أتوقع أن أجد سعيد مراد في انتظاري . إلا أني لم أجد أحداً .

بارح صديق العمر هذا دمشق قبل سنة وانتقل إلى موسكو . استحوذت شؤون السينما على صاحبي فتطلع إلى التخصص فيها ، وأسعفته علاقاته فحصل على منحة دراسية في معهد السينما الشهير . لم يمنع سعيد عن العودة إلى مقاعد الدراسة أنه كان يقترب من الأربعين ، لم يكفه أنه صار كاتباً مشهوراً حتى في حقل النقد السينمائي ، لم يقعده عن تحصيل المعرفة أنه كان ربّ أسرة ، فهوس المعرفة الراقية عند هذا الإنسان الذي أعدّه من خيرة المثقفين السوريين كان أقوى من أي موانع . وحين هاتفت منزل سعيد ولم يرد أحد ، هدتني الحاجة إلى الاتصال بالسفير السوري . وكان هذا هو صديقي القديم جميل شيّا وهو من كان في السابق وزيراً للإعلام . وأوضح جميل سر تخلف سعيد عن استقبالي ، فصاحبي كان في رحلة إلى جنوب

روسيا وكان من المقرر أن يرجع في اليوم السابق ليوم وصولي ، إلا أن طارئاً ألغى رحلة الطائرة ، وسيصل سعيد اليوم ، وما علي إلا أن أجيء الى منزل السفير حيث يمكن أن أستريح إلى أن يصل صاحبي . وهكذا ، توجب أن تبدأ رحلة العلاج التي طالما ترقبتها ، ليس بالمشاكل فقط ، بل بالسياسة أيضاً .

وفي الصباح التالي ، استقبلني في وزارة الصحة الموظف الذي أحيل إليه طلب علاجي ، وقال الرجل وهو ينتقي كلماته : «زكّاك محي الدينوف وأنا أعرفه واحترمه وأريد لك أن تظفر بأفضل علاج ، فاسمعني جيداً !» . فأصغيت بانتباه ، فعرفت أنهم سيحيلونني إلى مكان للعلاج لا يحال إليه الأجانب في العادة ، «وهو أفضل مكان لمعالجة مرضك» . ولم أفهم لماذا يبدو محدثي متردداً ما دام الأمر كذلك ، لكن سرّ تردده سرعان ما اتضح : «لن تكون إقامتك في هذا المكان مريحة ، أما العلاج فأنا أضمنه ، والقرار لك» .

وفي وسط البلد ، في شارع بتروفكا الذي يبدأ من ناحية البولشوي تياتر ، أو المسرح الكبير ، الشهير . مرّت السيارة بين صفّي الدور الكبيرة العتيقة أو قل الڤيلات أو القصور الصغيرة من طراز القرون السالفة وتوقفت أمام بوابة دار تحمل الرقم ١٥ . ثم ولجنا البوابة إلى حديقة تفصل بين مبنيين في الدار ، واحد كبير وآخر أقل حجماً . وسأل مرافقي عن اسم بعينه فأُرشدنا إلى المبنى الكبير . وقال المرافق : «هذا هو المكان الذي ستقيم فيه إن قبلت النصيحة» . وكانت هذه في السابق داراً لتاجر موسكوبي فحوّلتها السلطة السوڤياتية إلى مقر لمعهد أمراض الروماتيزم التابع لأكاديمية العلوم . وكان هذا معهداً تجري فيه البحوث ويتدرب فيه طلاب الاختصاص . وقد خصصت بعض حجرات المبنى لاستقبال المرضى من ذوي الحالات الصعبة ، المرضى المحظوظين في واقع الأمر .

استقبلتني طبيبة حفظت اسمها للتو ثم لم أنسه بعد ذلك أبداً على غير

عادتي مع الأسماء . إنها ايدا بافلوڤنا . وكانت هذه سيدة تخطت الأربعين ولها حضور قوي ولسان فصيح . درست الطبيبة أوراقي قبل أن أجيء إليها . وفي حجرة المعاينة ، أجرت من بدا لي أنها مهتمة بحالتي فحصاً سريرياً متأنياً ، ثم أكدت أن حالتي معروفة وكل ما في الأمر أني تأخرت طويلاً في علاجها : «لم أر قبل الآن مريضاً أهمل علاج داء بختييرف تسعة عشر سنة . إن هذا يجعل فرصة الشفاء متعذرة ، لكني آمل في أن نتمكن من فعل شيء يوقف نمو المرض» . ثم أجرت الطبيبة حواراً مع مرافقي لم يترجمه لي وبعدها وجهت خطابها إليّ : «معهدنا ليس مستشفى ، والحجرات المخصصة للمرضى قليلة ، وليس عندنا حجرة نخصصها لك وحدك ، ستقيم عندنا في حجرة فيها ستة أسرة وهي مشغولة باستمرار ، وأنا أخشى أن يضايقك هذا الوضع» . فقلت محاولاً كسر الشكّ : «ليس المكان ، بل هو العلاج ما يعنيني» . ولم تؤخذ هي بقولي ، بل أجابت : «كلهم يقول هذا في البداية ، لكنك ستجيء إليّ وتشكو . أنا طبيبة وبهذه الصفة أقول لك : مكانك هنا . وأنا شيوعية ، وقد قيل لي إنك صحافيّ ، فأخشى أن تتصور أن بلادنا تفتقر إلى مستشفيات ملائمة ، فاعرف ، إذاً ، أن عندنا مستشفيات أفخم من الفنادق الفخمة ، وهذه هي التي يأخذون إليها الأجانب» . وأردت أن أقاطع المتدفقة في شرح لا لزوم له ، غير أنها أشارت إلي أن اصمتْ ، وأكملت : «لن أخفي عليك رأيي في أن الذين يفضلون العمل في تلك المستشفيات هم أطباء انتهازيون ، هؤلاء يتعاملون مع المريض بما يريحه لا بما يوجبه الطب . . .» .

امتدّ الحديث على هذا النحو مع أن مراميه وضحت منذ بدايته . فقطعت حديث الشيوعية بفظاظة : «ليس من حقك أن تعديني في المترفين أو المفسدين ، ولك أن تعرفي أني كنت حافياً وأنا في سنّ العاشرة» . فتبدّلت نبرة محدثتي المتشككة : «هذا يكفي ، ولك أنت أن تعرف أننا نعرف هنا

حال شعبك ونتعاطف معه» .

أدركت طبيبتي التي ضمتني إلى حجرة الأسرّة الستة أني مريض صبور ، ولاحظت أن ما أشكو منه فعلاً ليس سوء الإقامة في حجرة مكتظة بل طول أوقات الفراغ . ففقرات العلاج ، وكله فيزيائي ، رياضة ، ومساجات ، وطيف كهربائي ، وما إلى ذلك ، كانت خمس فقرات أو ستّاً كل يوم ، وكانت كلها تنتهي في الواحدة أو الثانية بعد الظهر ، ثم يمتد وقت فراغ إلى الصباح التالي . ولم أجد بين المرضى أو الممرضات من يتحدث غير الروسية التي لا أعرف منها سوى ثلاث كلمات : سباسيبا ، وخرشو ، وبلوخا ، أي : شكراً ، وحسن ، وسيء . وقد حلّت إيدا بافلوڤنا بعض المشكلة بأن هدتني إلى قاعة المطالعة في المكتبة . وجلب سعيد كتباً . فصار بإمكاني أن أقرأ حتى السادسة مساءً موعد إقفال هذه المكتبة . ثم حلّت السيدة المتفهمة بقية المشكلة فأعطتني مفتاح حجرة مكتبها لأستخدمها متى أشاء بعد انصرافها . فصار بإمكاني أن أواصل المطالعة أو أكتب دون إزعاج . وفي هذه الحجرة ، كتبت مسودات الفصول الأولى من روايتي الثانية : «بير الشوم» حفزني على كتابتها الأحاديث التي كنت أتبادلها مع ايدا بافلوڤنا ، كلما تسنى لنا مترجم وتسنى لها هي وقت فراغ ، عن حال الشعب الفلسطيني .

أما مشكلة الحوار مع نزلاء المعهد من المرضى ، هذا الحوار الذي تتيسر لهم فرصه بين فقرات العلاج وفي استراحة الغداء وفي يومي العطلة الأسبوعية ، السبت والأحد ، فلم تلبث هي الأخرى أن ظفرت بحل لها ، وما كان أحسنه من حلّ ! ففي أول يوم أحد تلا دخولي المعهد ، كنت أتشمس في الحديقة حين تقدم اثنان من المرضى ناحيتي ، سيّدة شابّة لها وجه جميل وفي نظراتها وعود ، ورجل متوسط العمر لوجهه ملامح مستقرة تشي بقوة شخصيته وله قامة عملاق . أدرك الاثنان أني أجنبي لا يعرف لغة البلد

فاتخذا المبادرة إلى التعارف ، وكانا كلاهما يتحدثان الإنجليزية . قالت السيدة : «أنا اليانورا أدرّس اللغة الإنجليزية في مدرسة مسائية . وقال الرجل : «أنا بيوتر ، أمثّل البيروقراطية السوفياتية التي أتمنى أن لا تكون لديك فكرة عنها حتى لا ترفض صحبتي» . وكان هذا موظفاً في قسم العلاقات العامة في وزارة التجارة الخارجية . وبوجود اليانورا وبيوتر و تعاونهما أو تناوبهما على مساعدتي ، انفكّت عزلتي ووجدت طريقي إلى المرضى الآخرين وانهمكت في همومهم ومساراتهم ، وكم كان هذا كلّه ممتعاً !

أمضيت في المعهد ستة أسابيع . وتولاني معالجون مثابرون ومهرة . ورحت أحسّ بتحسن جديد في كل يوم . وظلت إيدا بافلوڤنا ، هذه التي لا تكل ولا تملّ ، هي المايسترو الذي ينظم عمل فريق المعالجين ويشرف على كل كبيرة وصغيرة في برنامج علاجي . كانت الطبيبة التي تتهيأ لشغل مقعد الأستاذية مسؤولة عني وعن المرضى الخمسة الآخرين في الحجرة . وكانت تجيء إلينا في التاسعة ، حين نكون قد فرغنا من تأدية تمارين صباحية مقررة وتناولنا فطورنا ، فتفحصنا فحصاً سريرياً . واحداً ، واحداً ، وتسجل الملاحظات في ملفّ كل واحد منا ، ثم تطلقنا إلى الفقرات التالية ، وتجيء إلى كل منا أثناء تأدية أي منها وتحاور المعالجين وتؤكد إرشاداتها السابقة لهم أو تضيف إليها ، وتسجل في الملفات ملاحظات أخرى . وكانت الطبيبة تعاود الفحص السريري ذاته في الحجرة في الخامسة بعد الظهر قبل موعد انصرافها في السادسة .

سعيد مراد واظب على زيارتي بعد ظهر كل يوم ، وزوجته هند كانت تصحبه . وقد ألف الصديقان أن يجلبا كل ما قد أحتاج إليه وكثيراً مما يظنان هما أني محتاج إليه . وكان طبيخ المنزل ، هذا الذي يتفنن سعيد في إعداد أشهى أطباقه الدمشقية ، يصل إلى المعهد بكميات وافرة . وكنت أوزع ما

يجلبه صديقاي على المرضى فأتلقى من هؤلاء نصيباً مما يجلبه إليهم ذووهم ، وتتوسع العلاقات وتتوطد . ولأن سعيد وجميل شيّا أذاعا نبأ وجودي في قيد العلاج بين الأصدقاء العرب والسوفيات ، فقد كثر زواري . حتى لقد صرت ، أنا الغريب ، أكثر المرضى عدد زوار وأوفرهم هدايا . وصار لي بعد ظهر كل يوم في الحديقة حلقة كبيرة تدور فيها شتى الأحاديث . ولم تكن فترة العلاج هذه التي طالت ، ثقيلة أو مملة بأي حال من الأحوال .

في هذه الأثناء ، وصل خالد بكداش إلى موسكو وهتف لي : «بودي أن أزورك ، لكن بماذا تنفعك الزيارة ، أنا أفكر بشيء أفضل ، فترقب مفاجأة !» . ولم يطل ترقبي . ففيما المرضى على وشك أن يبرحوا الحديقة ليعدوا أنفسهم لتناول العشاء ، عبرت بوابة الدار الكبيرة سيارة تشايكا سوداء ، وهبط منها رجل عليه مهابة ذوي السلطة . وفيما المرضى يتبادلون الآراء حول سر زيارة السيارة الرسمية والرجل ذي المهابة ، فوجئ الجميع وأولهم بيوتر واليانورا بظهور سكرتيرة المديرة العامة للمعهد في الحديقة واصطحابها إياي إلى حجرة رئيستها . أما حين رآني هؤلاء أرجع ليس إليهم بل إلى السيارة فلا بد من أن هذه المفاجأة أذهلتهم .

وفي فندق الحزب الشيوعي حيث يقيم خالد بكداش ، ظفرت بصحبة الرجل الكبير وكرم روحه وحفاوته ، كما ظفرت بالوجبة التي انتقى هو أطباقها ومشروباتها فاشتملت على ما لا يقع مثلي عليه إلا في هذا المكان . وقد سألني بكداش عما إذا كنت بحاجة إلى مساعدته . ولما أجبت بأني لا أريد أن أتعبه ، قال الرجل الفطن : «أعرف البيروقراطية السوفياتية أكثر منك ، وأعرف تعقيداتها ، فإن كانت لديك مشكلة فحدثني عنها ، لا تتردد !» . وكانت ثمة في الواقع مشكلة . فقد كنت بحاجة إلى مصح فيه مياه معدنية أستكمل فيه العلاج الذي بدأ في المستشفى . وأفضل مصحات المياه المعدنية

موجود في الجنوب على شاطئ البحر الأسود في مدينة سوتشي . وكانت طبيبتي قد أنبأتني بأنهم لم يفلحوا بعد في حجز سرير لي هناك . رويت هذا للمحتفي بي ، فقال هو : «أنا أذهب أيضاً إلى سوتشي حين أحتاج إلى علاج . الطلب شديد على المصحات ، لكن لا تقلق !» .

قبل مغادررة المعهد ، احتجزتني ايدا بافلوفنا ساعة كاملة في مكتبها وتولى سعيد الترجمة . بينت الطبيبة لي حالتي بالتفصيل ، تاريخ الداء وتطوراته : «ولو أنك جئت إلينا في سنوات المرض الخمس الأولى لأمكن أن تشفى منه شفاءً تاماً» . وجزمت طبيبتي بأنهم قاموا في المعهد بأقصى ما يمكن عمله . وقد تحسنت الحالة تحسناً ملحوظاً «إلا أننا لم نفلح في وقف نمو المرض . أفلحنا في إبطاء نموه وليس في وقفه» . فالداء الذي يسكن عامودي الفقري داء نادر خصوصاً في بلادنا ، وأنا مصاب بواحدة من أندر حالاته . والحياة التي أحياها بما فيها من إجهاد وتوتر وسفر متواتر لا تفعل شيئاً أكثر من أنها تجعل السيطرة على دائي متعذرة . وبعد الشرح ، تواترت النصائح والإرشادات : تبديل نمط الحياة التي أعيشها تبديلاً جذرياً ، وتجنب البرد والإجهاد والتوتر ، والكف عن السفر ، ومزاولة الرياضة كل يوم ، واتباع دورات للعلاج الفيزيائي أربع مرات في العام ، وأقلّه مرتين . هذا إن شئت أن لا يفتك الداء بي فأتعرض للشلل أو . . . أو ينتهي كل شيء .

يومان في موسكو بعد المعهد ، ثم جاء موعد إقلاع الطائرة إلى سوتشي ، وأربع ساعات طيران ، فإذ أنا على شاطئ البحر الأسود في مدينة المصحات هذه .

في المطار ، استقبلتني سيدة شابّة تامة الأناقة قدّمت لي نفسها : ڤالنتينا ميخائيلوڤنا وقالت إنها هي مرافقتي . وحملتني سيارة فاخرة إلى المصح الذي وفّرته لي عناية خالد بكداش بي والذي يحمل اسم المدينة : مصح سوتشي .

وفي الطريق ، فاض مخزون المرافقة من المعلومات . فسوتشي مدينة حديثة كلها ، أُنشئت بعد قيام السلطة السوڤياتية بأمر من لينين ذاته لتكون منتجعاً للشغيلة . ومنشآت المدينة ليست سوى مصحات للمرضى أو بيوت راحة لقضاء الإجازات أو منازل للعاملين فيها . والمصح الذي أحل فيه واحد من مصحين في هذه المدينة يعودان إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، وفيه ينزل ضيوف الحزب من غير الشيوعيين أما الضيوف الشيوعيون فينزلون في المصح الآخر .

وكان المصح الذي حللت فيه مبنى من عشرة طوابق أقيم بين ماء البحر وبين تل مجاور وله مدخلان : واحد من ناحية الماء في الطابق الأول وثانٍ من ناحية التل موصول بهذا التل في طابقه الأخير . ولحجرات الإقامة كلها شرفات تطل على فضاء البحر . وعلى التل حدائق متصلة تمتد على مساحة ثلاثين هكتاراً . وقد نسقت الحدائق بحيث تضمّ أنماطاً ، كل منها اقتبس من بلد من بلدان العالم التي تشتهر بتنظيم الحدائق المتميزة . وقد زرعت في الحدائق أشجار مجلوبة من بلدان العالم كافة ، حتى لقد كان منها شجرة برتقال قالت المرافقة إنها جلبت من فلسطين . ألسنا في بلدٍ ، الأممية هي أبرز بنود العقيدة التي أقامت نظامه الاشتراكي . وقد خصصت لي في هذا المبنى حجرة في طابقه الثامن ، حجرة فسيحة ، فاخرة الأثاث ، فيها مذياع وتلفزيون وثلاجة ولها شرفة فسيحة ، هي الأخرى ، فيها مقاعد للجلوس وللاستلقاء ومائدة .

وقد أعدوا لي في المصح برنامج علاج اتبع ما نصحت به طبيبة المعهد . وكان علاجي يبدأ في التاسعة وينتهي في الواحدة بعد الظهر . وكان بين فقرات العلاج التوجه كل يوم إلى منطقة الحمامات المعدنية . فكانت سيارة المصح تنقلني إلى حمامي وتنتظرني إلى أن أفرغ منه وتعيدني إلى مصحي :

أبهة، ونظام، ووسائل علاج حديثة، ومكتبة، وصالة موسيقى ورقص، وحدائق، وكل ما هو فاخر. بالرغم من هذا، لم أحسّ بالبهجة، ولم أئتلف مع المكان. فقد انتقلت من الجوّ الحميم الذي أحاطني في المعهد، من العفوية والأريحية والعلاقات التي تنشأ وتتشكل دون تصميم مسبق، إلى هذا الجوّ الذي فصّل كل شيء فيه تفصيلاً محكماً، بما في ذلك سلوك العاملين الذين يتولون أمري وحتى ابتساماتهم.

كنت أستيقظ في السابعة لأكون في صالة الطعام التي يأكل فيها ثمانمائة نزيل في وقت واحد في الثامنة، وأذهب بعد الإفطار إلى مدرب الرياضة الذي ينتظرني هو وأدواته في الطابق الأول قرب الماء فأعيد بإشرافه التمارين ذاتها كل يوم لمدة ثلاثين دقيقة لا تزيد ولا تنقص وأتلقى التوجيهات ذاتها بالألفاظ التي يعرفها من الإنجليزية، الألفاظ التي لا تتبدل ولا يتبدل وقت النطق بها، ثم أذهب إلى جهاز الطيف الكهربائي وممرضته التي تستقبلني بابتسامة جعلني ثباتها أتصور أنها مركبة على ثغرها تركيباً بحيث تستطيع هي أن تنحيها أو تعيدها إلى مكانها حسب مقتضى الظرف أو أنها جزء من زيّها الرسمي، ثم إلى الرياضة الجماعية مع أشخاص لا يتبدلون ولا يتبدل موقع أي منهم في الصالة ومدربة لا تتبدل وقفتها ولا الكلمات التي توجه بها الحركات ولا النبرة، ثم إلى المساجة، هذه التي تخصص لي أربعين دقيقة وتجوس أناملها في جسدي كأنها أصابع آلة في حركة لا تزيد شدتها ولا تهن في أي مرة ولا تتبدل اتجاهاتها، ثم تجيء سيارة الحمامات التي يتوجب علي أن أنتظرها عند المدخل الأعلى في مكان حددته خطوط بيضاء، تصل السيارة في موعد لا يتقدم أو يتأخر وتقف في المكان المحدد لا تحيد عنه لا إلى أمام ولا إلى وراء وتمضي بي عبر الشوارع ذاتها بسرعة تظل هي هي في كل شارع كل مرّة، وتلج السيارة منطقة الحمامات وتقف في مكان مخصص لها

ربما منذ الأزل ، فأنزل منها وأعبر أبواباً وممرات وأصعد أدراجاً وأدخل مقصورة وأغطس في بانيو في مياه كبريتية لا هي حارة ولا هي باردة ، وتجيء ممرضة تقيس نبضي ثم تنصرف لتعود إليّ عندما ينبئها جرس في المقصورة بانتهاء وقت حمامي فتلفني بمناشف بيضاء كثيرة وتمددني على أريكة وتأمرني بأن أهدأ خمسة عشر دقيقة ثم تقيس نبضي ثانية . . . وهكذا كل يوم إلى أن أرجع إلى مصحي وأكرر بقية فقرات العلاج بالطريقة ذاتها ، ثم يتكررالغداء ، ثم راحةُ ما بعد الغداء في الحجرة ، والمشي في الحدائق استعداداً للعشاء ، والعشاء ذاته . وفي المساء ، تتكرر فقرات التسلية : رقص يؤديه مرضى مفاصل على إيقاعات بطيئة اختيرت لتلائم حال مفاصلهم ، أو مشاهدة فيلم ناطق بلغة لا أعرفها ، حتى العاشرة ، وبعدها يجيء وقت تناول كوب لبن فيشرب كل نزيل كوبه ويتوجب عليه أن يؤوي إلى حجرته . كل هذا وأنا متوحد في الليل كما في النهار .

استمعت فالنتينا إلى شكواي من الملل . وكان لديّ ما يزيد على ما رويته لك . فلا أحد في المصح رغب في التحدث إلي . كان وقت عمل العاملين مشغولاً بالمهام التي لا تبقي وقتاً للثرثرة معهم ، ولم يكن بينهم أصلاً من يعرف غير الروسية . وكان النزلاء كلهم ، مواطنين وضيوفاً ، من كبار المسؤولين . ويبدو أن هؤلاء عرفوا أني صحافي . ومن هو الذي يتحدث في وقت راحته أو علاجه إلى صحافي . وفي اليوم التالي لشكواي التي يبدو أنها نقلت إلى الرؤساء ، جاءت فالنتينا بما توسمت هي أنه الحل : ستخصص هي ساعة من وقت عملها لي ويمكن أن نتحدث حول أي شيء ، وسيكون من حقي أن أغادر المصح كل يوم بعد الظهر وأجول في المدينة جولة حرّة شريطة أن أتجنب ما يضرّ بصحتي . وكانت الشروط حازمة : «لا كحول ، ولا إجهاد من أي نوع ، ولا تدخين ، ولا تعرض إلى ما يثير التوتر» .

ساعة الحديث المقررة مع ڤالنتينا ، كنا نقضيها في مكتب المرافقات . ويبدو أن المرافقة تصورت في البداية أني سوري : «هل تعرف من الذي أقام في حجرتك قبل مجيئك؟» : . ولما لم أعرف بالطبع ، قالت المرافقة بنبرة أرادت بها على ما يبدو أن تبهرني : «أم الرئيس حافظ الأسد ، وكم كانت امرأة طيبة !» . واندلح الحديث عن سورية ورئيسها وأمه التي كانت حقاً طيّبة ، فعرفتْ فالنتينا من ثنايا الحديث أني فلسطيني . وكان لدى المرافقة التي تقيم في هذا المكان النائي عن فلسطين ما تقوله ، فحضر الشأن الفلسطيني وشجونه حتى في هذا المكان حيث تحاصرني وصايا الأطباء لي بتجنب التوتر .

ففي حجرتي ذاتها ، أقامت ، أيضاً ، سيدة فلسطينية . وذكرت المرافقة اسم السيدة : أسماء الأفغاني ، وأضافت وقد ظنت أنها بهرتني : «تعرف بالطبع أنها مساعدة القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية» . وبالطبع ، لم أعرف . فالقائد العام الذي هو ياسر عرفات ليس له مساعدة عسكرية وليس بين الفلسطينيات أي سيدة تشغل منصباً عسكرياً كبيراً . والغريب في الأمر أني لم أتذكر الاسم بالرغم من أن صاحبته هي صديقة عزيزة لي ، فهي «أم أسامة» وهي من كانت زوجة لصديقي الأديب رسمي أبو علي ثم تزوجت بعد طلاقها منه صديقي المخرج السينمائي غالب شعث . غاب الاسم عن البال ، وبدا لي أن الصفة منتحلة انتحالاً وبدوت أنا أمام المرافقة السوڤياتية من الجاهلين . وفي المحاجة مع وثوق المرافقة من روايتها ، جاءت هذه بملف ، فاتضح الالتباس بشأن الصفة . ذلك أن الرسالة الفلسطينية التي طلبت العلاج لهذه السيدة وصفتها بأنها من مساعدات الأخ القائد العام ، و «القائد العام» هذه صفة ألحقت باسم عرفات منذ أضيف إلى مناصبه هذا المنصب فغلبت الصفات الأخرى كلها ، ومساعد عرفات أو مساعدته قد يكون أي

شخص دون أن يعني هذا بالضرورة أنه عسكري . أما المترجم الروسي للرسالة فقد خص السيدة بعبارة روسية يفهم منها فقط أنها مساعدة عسكرية . ومع الغرق في الشرح والاستنتاج ، ظل الاسم غائباً عن بالي ولم تحضر دلالته إلا عندما رجعت إلى دمشق فوجدت أم أسامة صاحبة الاسم ضيفة في منزلي .

نايف حواتمه كان في هذا المصح هو الآخر ، فكأنما كان لا بد من أن تلحقني سيرته إلى هذا المكان . جاء أبو النوف إلى هنا وكانت فالنتينا هي مرافقته . وقد بدت المرافقة وهي تتحدث عن الأمين العام للجبهة الديمقراطية مبهورة بقدرته على الشرح . وأقنع نايف فالنتينا بأن إسرائيل دولة معتدية ولا بأس لو أنها كفّت عن الوجود وحل محلها دولة ديمقراطية مسالمة يعيش العرب واليهود فيها بأمان ومساواة . وراحت حكايات ڤالنتينا عن حواتمه تتوالى ، فأستحضر أنا ما كان هو يرويه عن زيارته وحواراته مع السوفيات ، وكيف ألف أن يكرر : قلنا للسوڤيات ، أو : قال السوڤيات لنا ، دون أن يحدد مَن الذين تحدث إليهم من هؤلاء أو ينفي انطباعي بأنه يعني ناساً من القيادة . وتذكرت لقاءً لي مع نايف جرى في طرابلس الغرب ، في ليبيا ، قبل مجيئي هنا للعلاج . وقتها ، كنت في زيارة إلى العاصمة الليبية أجريت خلالها حواراً طويلاً مع الزعيم الليبي العقيد معمر القذافي من أجل نشره في «السفير» ، وكان طلال سلمان معي . وقبل أن نبرح طرابلس ، وصل ياسر عرفات إليها ومعه سرب من القادة الذين نعرفهم ، فتوجهنا إلى زيارتهم . وهناك وقعنا على حواتمه .

كنا في القصر الذي أنزل فيه عرفات والقادمون معه ، وكان هذا هو القصر المخصص لإقامة وليّ العهد قبل سقوط النظام الملكي . وقد جاء حواتمه إلى طرابلس الغرب بعد أن وعده أبو إياد بتدبير لقاء له مع القذافي . يومها ، طلب أبو النوف أن يختلي بي وبطلال . فضمتنا حجرة فخمة هي تلك التي كانت

مخصصة لنوم زوجة وليّ العهد . وأفاض محدثنا في عرض ما أنجزه خلال محادثاته المتواترة مع السوفيات ، ثم بلغ الذروة حين قال إنه أقنعهم بما عجز أصدقاؤهم العرب جميعهم عن إقناعهم به فسلم السوفيات بضرورة العمل على إزالة إسرائيل من الوجود . ولك أن تعرف أني كنت يومها فظاً في إنزال نايف عن الشجرة التي قال إنه أصعد السوفيات إليها ، وقد رددت على ادعائه بما حمله على التراجع عنه فوراً : «لم يقولوا صراحة إنهم اقتنعوا ، لكن حديثهم معنا اشتمل على هذا المعنى» . وإذاً ، فإن السوفيات الذين أقنعهم حواته بضرورة إزالة إسرائيل كانوا هم هذه المرافقة ومن على شاكلتها . ولم تدرك ڤالنتينا وهي تتوخى التسرية عني بحديثها أنها إنما تنكأ جروحي في وقت خصص لي من أجل أن أنسى أي جروح .

والحاصل أن ضيقي بجوّ المصح جعلني أتطلع إلى يوم انتهاء دورة العلاج بلهفة ، لكن تصبري لم يسعفني إلى النهاية . وقد فوجئ سعيد مراد حين هتفت له قبل أربعة أيام من الموعد وقلت : «أنا قادم إليك هذا المساء» ، فسعيد يعدّ سوتشي جنّة وقد منّاني عندما توجهت إليها بأني سأظفر فيها بأتم المتع .

وفي موسكو ، عند ايدا بافلوڤنا ، تكرر الفحص المدقق ، وتكرر التشديد : «بدّل نمط حياتك فهذا لا بد من تبديله !» ؛ وعندما سألتها عمّا سيحصل إن لم أفعل ، تكررت الإجابة السابقة : «ما قد يهدد هذه الحياة بالشلل أو النهاية» . ثم عندما سألت عن الأوان المرتقب للكارثة ، قالت : «بيدك أن تعجل وقوعها أو تؤجله» . وجاء دوري لأقول ما انتهيت إليه ؛ وعرفت الطبيبة المشفقة على أن نمط حياتي الراهن هو الوحيد الذي يجتذبني ولن أبدله لأي سبب من الأسباب . قلت للطبيبة إن هذا النمط يبقيني في مركز الأحداث . وهذه أحداث تؤثر فيّ إن بقيت في مركزها وان نأيت عنه

ويطاردني تأثيرها حتى في حجرة النوم ، وأفضيت بخلاصة خبرتي : إن بقائي في مركز الأحداث يخفف من وقعها عليّ . قد أكون في دوامة ، لكني إن خرجت منها فسأكون كمن يخرج من نفسه ، وهل يُخرج الإنسان من نفسه إلا الموت : «في نمط الحياة هذا أجد علاجي ، الداء وغيره ، خصوصاً أوجاع الروح التي يصعب أن أشرحها لك . وإذا صح ظنك فصارت حياتي قصيرة فلتكن غنية بدل أن تطول وهي مقفرة» .

والحقيقة أني فكرت ملياً بعد أن عرفت عن مرضي هذا الذي عرفته . وقد وطدت نفسي على أمر لم أحد عنه أبداً : سأولي صحتي بعض العناية ، وسأحاول أن أتبع ما يتيسر من دورات العلاج الفيزيائي . غير أني لن أبدل ما أنا فيه ولن أكفّ عن الانهماك في الشأن العام والكتابة .

استغرقت رحلتي الأولى إلى الاتحاد السوفياتي هذه تسعة أسابيع . ولأني قضيت معظم الوقت في المعهد أو المصح فأنا لم أر من معالم البلاد إلا أقلّ من القليل . بالرغم من هذا ، لقيت مواطنين من مختلف المستويات ومقيمين . وتأملت في ما أمكن أن أعاينه . وأضفت الحصيلة إلى الكثير الذي أعرفه من قبل . وكوّنت جملة من الانطباعات . لقد كنت شديد الاهتمام ببلد الاشتراكية الأول هذا ، ولك أن تعرف أن انطباعاتي عنه ضمت الإيجابي والسلبي وتماوجت فيها الألوان والأطياف .

بلد كبير ، متخم بالثروات المادية والقدرات البشرية ، واقتصاد جماعي له جبروت ، ونظام سياسي هائل السطوة على كل شيء ، ومنجزات كثيرة متحققة فعلاً : السكن المضمون لكل إنسان ، والعمل ، والتعليم المجاني في كل مراحله ، والطبابة ، والمزايا المتوفرة للأطفال ، والضرورات الأخرى كلها ، الغذاء الكافي والمشروبات ، ووسائل الثقافة المبذولة لأي راغب فيها ، وفرص تمضية أوقات الفراغ بكلفة رمزية أو حتى بدون كلفة ، منجزات جليلة دون

شك ، لكن معها عيوباً ليست قليلة وأخطرها عيوب البيروقراطية ، وسطوة النظام الجمعي التي تبهظ المبادرات ، وما تنبته البيروقراطية من فساد .

وفي تموجات الطيف ، تباينت الرغبات . وقد ظهر على أحد الحدّين أولئك الذين خبروا الأوقات القاسية السالفة الذين عاينوا مآسي الحروب المنقضية ، الأهلية والعالمية ، وافتقروا فيها حتى إلى الخبز والمأوى ، فقد شهد هؤلاء كيف تغلب النظام السوفياتي على الظروف وأعاد بناء البلاد بعد تدميرها مرتين خلال ثلاثين سنة ووفر لمواطنيها حياة آمنة كما وفر ضرورات العيش . هؤلاء كانوا سعيدين بما هو متوفر . وكان على الحدّ الآخر مواقف الذين لا يعدّون أنفسهم مسؤولين عن مآسي الماضي ولا يكتفون بما هو متحقق . هؤلاء تركزت أنظارهم ليس على ما يظفرون به بل على ما يفتقرون إليه ، ليس على الماضي بل على الراهن . وبالقياس لطموحات هؤلاء ، الطموحات المفتوحة على أرقى ما هو موجود في العالم ، كان ما يفتقرون إليه كثيراً ، فكانوا يتذمرون .

لكن حسبتي لميزان الإيجابيات والسلبيات في ما شاهدت ، رجحت الإيجابيات ، بل رجحتها في نحو حاسم . كنت مفتوناً بالاشتراكية ففتنتني منجزاتها الماثلة في بلدها الأول ، وكنت منحازاً إلى نظام البلد ولم أخف انحيازي أو تثنيني عنه سلبيات هذا النظام .

رجعت إلى دمشق وقد تحسن مظهري تحسناً ملحوظاً ، استقامت القامة ، ولانت الحركة ، وبدا لمن لا يعرف طبيعة دائي أني شفيت منه وخلقت خلقاً جديداً . وقد حرصتُ على دوام هذا التحسن . فصرت أُؤدي التمارين الرياضية ، وأتوخى تجنب الإفراط في الجهد وتجنب التوتر . غير أن هذا الحرص راح يهن بمضيّ الأيام ؛ أوهنته متاعب العمل في الدائرة ، وهموم الحرب الأهلية في لبنان وما اقترن بها مما يستفزُّ أمتن الأعصاب ، واضطراري إلى

التنقل باستمرار بين دمشق وبيروت والأسفار البعيدة ، وازدياد مساهماتي في الكتابة ، وبوادر الأزمة التي انتهت إلى صدام بالسلاح بين المقاومة الفلسطينية والقوات السورية في لبنان ، وما إلى ذلك مما يصعب استحضاره الآن كله .

احتملت العمل مع عبد المحسن أبو ميزر سنة ، وزيادة ، عانيت خلالها أمرّ ما تعرضت له مع رئيس عمل . وعندما بلغ ضيقي حداً لا حدّ فوقه ، ذهبت إلى عرفات وشكوت : «عملت مع هذا الرجل بأمر منك ، وسأفترض أنها كانت عقوبة ، أفليس لكل عقوبة أوان تتوقف عنده !» . وصمت عرفات ، وكان معنى هذا أنه يحبذ استمراري في أداء المهمة ، لكنه لا يرغمني على الاستمرار إرغاماً . وما أن وفر لي عبد المحسن ذاته أول فرصة للانفلات من ضيقي حتى اغتنمتها . ولهذه الفرصة حكاية يجدر بي أن أرويها لك ، ففيها أيضاً ما يدلّك على حالنا .

كنّا في العام ١٩٧٦ . وعندما حان وقت الاحتفال بيوم الأرض الفلسطيني ، تقرر تنظيم مهرجان خطابي في مخيم اليرموك . ولما كانت الأزمة بين م . ت . ف . وبين سورية في إبّان تعقيداتها ، فقد تشدد المسؤولون السوريون في مراقبة النشاطات الفلسطينية . وشاء الفلسطينيون أن يجعلوا المهرجان مرآة تعكس وحدتهم فأعدّوا قائمة خطباء تضم ممثلي فصائلهم كافة . وكان الشيوعي عربي عواد واحداً من هؤلاء . وهذا ما ساء عبد المحسن لأنه يعدّ زميله المبعد هذا منافساً خطيراً له . واستثمر المستاء سوء العلاقات بين حزب عربي عواد وبين حزب البعث الحاكم في سورية ، ولم يترك أحداً ممن يعنيهم الأمر إلا ذهب إليه وحرضه ضد عربي ، إلى أن حذف اسم الخطيب الشيوعي من القائمة . وقد وصل عربي إلى دمشق قادماً من بيروت غير عارف بما جرى ، وجاء إلى مكتبي فعرفه منّي . وأُبلغ إلى عبد المحسن أن عربي موجود عندي ، فاقتحم مكتبي وبادر زميله حتى قبل التحية : «لماذا شطبوا

اسمك من قائمة الخطباء ؟» . ولم أحتمل ، أنا العارف بما فعله مدعي البراءة هذا ، هذه الخساسة ، فتدخلت مخاطباً إياه : «لم يعرف عربي ، بعد ، دورك ، الآن ، في حضورك ، عليه أن يعرف أنك أنت السبب» . ثم توجهت إلى عربي وشرحت له : «قال زميلك هذا للفتحاويين إن عربي سيهاجمهم في خطابه ، وقال للسوريين إنه سيحرض الجمهور عليهم ، وأمضى أمس ساعة كاملة مع عبد الله الأحمر الأمين العام المساعد لحزب البعث ولم يغادر مكتبه إلا بعد أن صدر قرار منعك من الخطابة» .

ثار عبد المحسن وزعق في وجهي : «كيف تقول هذا وأنت موظف عندي» . وكان في هذه الزعقة ما يكفي لينفجر مخزوني ، فرميت الزاعق بما أخرجه الانفجار من شتائم ، ثم رميته باستقالتي . ولك أن تعرف أن علاقتي مع هذا الإنسان انتظمت من جديد بعد أن وافق على استقالتي .

سعد عبد الله الحوراني بتحرري من العمل الذي يعرف كم أضيق به ، وكان عبد الله لا يحبّ عبد المحسن كما كان ، مثلي ، يضيق بدسائسه . وعرض عبد الله عليّ العمل في دائرة الإعلام والتوجيه القومي التي كان هو مديرها العام وكان ياسر عبد ربه رئيسها ، وما أسهل ما وافق الياسران : ياسر عبد ربه وياسر عرفات ، وباشرت عملي الجديد .

وفي أواخر الصيف ، صيف ١٩٧٦ ، سافرت إلى موسكو مرة ثانية وتسلمتني من جديد عناية إيدا بافلوفنا وخبرتها ، شهر في المعهد ، وثلاثة أسابيع في سوتشي ، في مصح انتقيته أنا بعد التشاور مع سعيد وسعدت بإقامتي فيه ، ومسودة فصول أخرى من روايتي «بير الشوم» . وحين أوجزت ايدا بافلوفنا النتائج ، تكرر التحذير ، بل تحول إلى إنذار : «ما دمت متشبثاً بخط حياتك هذا فأنت تجعلنا عاجزين عن مساعدتك بما يوقف نمو المرض . وعليّ أن أنبهك ، فقد يقع المحذور في أي لحظة ، وعليك أن تعرف أنه يجيء

دون إنذار مسبق !» .

أرعبني الإنذار . وزادت نبرة سعيد الذي ترجمه من رعبي . ليس الموت هو ما أخشاه . قد لا يبدو الأمر منطقياً بالنسبة لك ، لكنه هو هذا بالنسبة لي . فمنذ نجاتي من مجزرة سوق غزة التي شهدتها في العام ١٩٤٨ ، لم أعد أخشى أي خطر من هذه التي يسمونها أخطار الموت ، حتى أنني نادراً ما أفكر بالموت . أما ما أخشاه فهو الشلل الذي تخوفني الطبيبة من احتمال تعرضي له حين لا يكون الموت . وما أخشاه في الشلل ، أكثر ما أخشاه ، هو الوضع الذي يسبب إزعاجاً متصلاً للمحيطين بي ويجعلني عالة عليهم . وقد أنبتت الخشية فكرة : «لماذا لا أنتقل إلى مكتب م . ت . ف . الذي افتتح مؤخراً في موسكو فأحظى بدورات علاج منتظمة وأجد وقتاً أوفر للكتابة المتروية ، كتابة الروايات مثلاً ، وأبتعد عن مسببات الإجهاد والتوتر . وكما يقع حين تعزز الهواجس فكرة فتسيطر عليك ، أقنعت نفسي بأن فكرتي سديدة : بضع سنوات في موسكو ، أربع سنوات أو خمس ، أمكّن الأطباء من السيطرة على المرض المعاند وأنجز بضع روايات ، وكل هذا دون أن أصيراً قاعداً عن العمل أو تنقطع صلتي بالشأن العام . ثم جاء ما حسم الأمر حين اضطررت إلى الاستقالة مرة أخرى . فأنا لم أتفق مع عبد الله في أسلوب العمل في الدائرة ولم يكن بمقدوري أن أجيز له ما لم أقبله من غيره . كان هو قد تغيّر وكنت أنا قد تغيرت ، وتمايزت الأساليب ، ولأني كنت حريصاً على دوام صداقتنا ، فقد بقي لي حل وحيد : أن أستقيل ، فاستقلت .

بينت لعرفات دوافع رغبتي الجديدة . ولم يكن من شأن هذا الرجل أن يرفض طلباً لأيما أحد حين تمليه الحاجة إلى العلاج ، لكنه حذّرني : «إذا أعدت هناك سيرتك التي تحياها هنا فلن تحصل على أي فائدة» . وقد نصحني من وقع قرار تعييني نائباً لمدير مكتب موسكو بأن أركز همي كلّه على العلاج

وابتعد عن الهم اليومي : «العمل في موسكو ليس أريح من عملك هنا ، فاهتمّ بصحتك ، وحدها ، إلى أن تشفى !» . ولكم ندمت لأني لم أتبع هذه النصيحة !

ذهبت إلى موسكو فلم أنهمك في العمل وحده ، بل أحاطت بي أيضاً دسائس مدير مكتبنا فيها وغلاظات البيروقراطيين من السوڤيات . وصار علي إما أن أرضخ للغباوة والفساد وأوْجه السلوك الشاذة فيفتك بي ألم الرضوخ ، وإما أن أواجه مدير المكتب والذين يحمونه من بيروقراطيي السوڤيات وفاسديهم فتفتك بي توترات المواجهة . وقد أمضيت في هذا الحال سنة وبضع سنة ، لم تتوفر لي فرصة العلاج ، ولا فرصة الكتابة ، ولا الهدوء .

لن أذكر لك اسم مدير المكتب ، فهذا رجل رحل عن دنيانا منذ زمن ونسيه كثيرون . لكن ، لك أن تعرف أن الرجل كان قبل أن أعمل معه من أعزّ أصدقائي وكان وجوده على رأس المكتب بين الأسباب التي شجعتني على التوجه إلى موسكو لأكتشف أن مقالب الظروف قد تقلبُ أطباع االناس رأساً على عقب ، وهو ما جرى للصديق الذي كان فارساً وانقلب إلى إمّعة وكان أنظف من عرفت يداً فصار لا يستحي حتى من إشهار الفساد . ومنذ وصولي ، منذ اللحظة الأولى ، تحول الصديق القديم الذي طالما تقاسمت وإياه السراء والضرّاء إلى عدو لا يتورع عن استخدام أي وسيلة لإيذائي . هل ساء هذا الصديق القديم أن أصير بجانبه فأعرف كيف انقلب حاله ، أم خشي ما يعرفه عن دقة ملاحظتي فخشي أن أفضح ما يستره من شؤونه ، أم خشي أن يكون له نائب يراه هو ويراه كثيرون غيره أكفأ منه فيظهر قصوره . أغلب ظني أن هذه الأسباب كلها وكثيراً غيرها هي التي حولَت صديقي إلى خصم .

أما البيرقراطيون من السوڤيات فقد ساندوا هذا الرجل قبل أن انضم أنا إليه ووقفوا معه حين خاصمني . هؤلاء صدمتهم صراحتي وإصراري على

اتباع ما يمليه فهمي أنا لطبيعة العلاقات السوڤياتية الفلسطينية وليس فهمهم القاصر والجامد والمبطن بشوفينية الدولة العظمى التي يدعون هم ادعاءً أنهم من أمميها .

وها أنا ذا أتذكر وقائع آخر لقاءاتي مع الذي سأسميه هنا : د . الذي هو الحرف الأول من اسم من كان من المسؤولين الكبار في اللجنة السوڤياتية للتضامن الآسيوي الأفريقي التي تمر علاقات م . ت . ف . بالمؤسسات السوڤياتية عبرها . وكان د . هذا ، ضابطاً في الـ ك . ج . ب . وهو ممثلها في قيادة اللجنة . التقيت الرجل الذي طالما اصطدمت معه بعد وساطات كثيرة أفضت إلى الاتفاق على اللقاء حتى نناقش المشاكل الناشئة بيننا . وكانت هذه جميعها مشاكل ناجمة من اختلاف إجابتنا على هذا السؤال : هل ينشط مكتب م . ت . ف . وفق الحاجات الفلسطينية أم وفق تصور رجل الأمن البيروقراطي هذا لهذه الحاجات ؟ وحسم الإجابة على السؤال هو الذي يحدد طبيعة نشاطاتي أنا الذي يعدّ نفسه صديقاً مخلصاً للسوڤيات دون أن ينسى بالطبع أنه فلسطيني . وفي اللقاء مع الرجل ، تولى الترجمة بيننا موظف في اللجنة يتقن العربية إتقاناً تاماً وهو متعاطف معي ، فأفلح في نقل أقوالي ولم يهمل حتى دلالات تنوع النبرة .

هل ندير حديثاً رسمياً أم نتحدث كما يتحدث الأصدقاء ؟ بدأت كلامي بهذا السؤال . ولما أبدى د . رغبته في الصداقة ، قلت متعمداً أن أبلغ بموقفي منتهى الوضوح : «في هذه الحالة ، علي أن أقول لك إنني مؤمن بأن الاتحاد السوفياتي هو طليعة القوى الثورية العالمية . لكن هذا لا يعني ، عندي ، أن يصير كلّ سوفياتي ، بالضرورة ، طليعة لي ، أنا شخصياً» . هذه العبارات استمع إليها د . وظل صامتاً ، فأكملت : «آمل في أنك توافقني . وعليك بعد هذا أن تقر بأني أفهم في شؤوننا الفلسطينية أعمق وأكثر مما تفهم أنت ومن

حقي ، إذاً ، أن أنشط وفق فهمي ، ومن واجبك أن تساعدني ، لا أن تحدد لي شكل سلوكي» ، وفي رده عليَّ ، قال د . إنه سيتحدث هو الآخر بصراحة ، وقد فعل ، فبيّن أنه يرى فيَّ رجلاً مثيراً للمتاعب ووجودي في مكتب م . ت . ف . في موسكو لا يريحه . وقال د . إنه متفاهم مع مدير المكتب أتمّ التفاهم وهو مرتاح إلى سلوكه ومستاء من اعتراضاتي عليه .

عندها ، استعدت أنا السبب الذي أوقع آخر صدام بيني وبين المدير . فقد كتب هذا المدير مقالاً نشرته جريدة «أنباء موسكو» باللغات الأربع التي تصدر بها وفيه تأكيد من الرجل على أن البقرة في الكولخوز السوفياتي تدر من الحليب أكثر مما تدر أي بقرة في أي مكان في العالم . وذكّرت د . بأنه هو الذي نظم زيارة المدير إلى الكولخوز ، وقلت إني لا أستبعد أن يكون هو من نصح مديرنا بكتابة المقال ، فما الذي حصلنا عليه : أدرجنا ممثل م . ت . ف . في عداد المنافقين الرخيصين .

واستحضرت واقعة أخرى أوسع دلالة . فعندما قام الرئيس المصري أنور السادات بزيارته الأولى الشهيرة إلى إسرائيل ، قرر الطلاب الفلسطينيون والعرب الآخرون في موسكو تنظيم مظاهرة احتجاج تتجه إلى السفارة المصرية . كان سخط الطلاب شديداً ، وكانت موسكو ضدّ الزيارة ، فاستخلص هؤلاء أن السلطات تبيح لهم التظاهر دون عراقيل . غير أن د . قدّم إلى سلطات بلده تقريراً يقول فيه إن الطلاب الفلسطينيين يعتزمون إحراق السفارة واستعان بمدير مكتبنا فأيد هذا تقريره . فصدر قرار السلطات بمنع المظاهرة . ولكن الطلاب قرروا التحدّي . ونشأت مشكلة . وقد أيّدت أنا يومها حق الطلاب في التظاهر ، واختلفت مع د . في تقديره لسلوك طلابنا المرتقب ، فعدني من المحرضين . وإزاء إصرار الطلاب على خرق الحظر ، تدخل زميلي في المكتب ، الفتحاوي حكمت زيد وضممت أنا جهودي إلى جهوده لدى الطلاب ولدى

السلطات . وانتهى الأمر بأن أخذ الطرفان باقتراح بلورناه ، حكمت وأنا ، بعد أن تشاورنا مع زعماء الطلاب : أن تنطلق المظاهرة كما خطط لها وتصل إلى أول الشارع الذي تقوم السفارة فيه دون أن تبلغ مبنى السفارة ، وأن يقدم وفد منتقى من الطلاب احتجاجهم إلى السفير المصري . وتم كل شيء ، بنظام ، وهدوء ، تماماً كما توقعت ، وخلافاً لما توقعه د . ومدير المكتب . وبدل أن أتلقّى أنا أو حكمت شكر أي من هذين الاثنين ، زاد سخطهما علينا ، واشتدت ريبتهما حول طبيعة علاقتنا بطلابنا .

واستحضرت وقائع أخرى من هذا القبيل مما اختلفنا بشأنه ثم اتضح أني أنا الذي كان على صواب . وظننت أني أفحمت د . بل صرت على وشك أن أطالبه بالاعتذار عن إساءاته لي . لكن هيهات ! فرجل الأمن البيروقراطي لم يلن ، بل قدّم قراءة مختلفة لسلوك مدير المكتب ثم ختم كلامه بإبلاغ حاسم : «هذا كلّه درسناه واستخلصنا أن المدير غير قادر على التفاهم مع معاونيه الفلسطينيين ، وسنعمل على أن يبقى هو وحده في المكتب ، وسنزوده بمعاونين سوفيات لا يتعبونه مثلكم» .

كان د . صريحاً . إذاً ، كما وعد ، لكن أي صراحة ! لقد صدمت صدمة لم أبرأ منها لزمن طويل . وقلت للسوفياتي : «إنكم تطردونني» ، ووجدتني مدفوعاً إلى أن أضيف : «تظن أن هذا سيجعلني انقلب إلى عدوّ للاتحاد السوفياتي فيتسنى لك أن تزعم أنك كنت على حق حين عملت على طردي . لن تتوفر لك هذه المتعة . فأنا أؤيد الاتحاد السوڤياتي من موقع الوطني الفلسطيني التقدمي ولست أنوي أن أبدل هذا الموقع ، ولن أبدّله لأن بيروقراطيين ضيقي الأفق أساؤوا إليّ» . كنت بحاجة إلى قول هذا الذي قلته ، وأغلب الظن أني قلته كي ألزم نفسي البقاء على موقفي .

ومن هذا اللقاء ، خففت إلى الهاتف وناشدت ياسر عرفات أن يحررني

بأعجل ما يمكن ، وتلقيت وعده . غير أن قرار الطرد سبق قرار عرفات بنقلي .
وبعد أن أُخرجت من موسكو ، صدر قرار البيروقراطية بوضع اسمي في القائمة السوداء ، قائمة الممنوعين من دخول البلد التي ظللت طيلة عمري أدافع عن سياسته وأدعو إلى تمتين العلاقات معه .

لم يكن هذا جزاء سنمار ، ذلك أنه لم يفقدني حياتي كما فقد سنمار حياته . إلا أن معاملتي على هذا النحو كانت موجعة لي .

٣٠

صنت مخزون ذكرياتي كي لا يتلف

غادرت موسكو في صيف ١٩٧٨ خائب الرجاء مكلوم الروح مثقلاً بهمّ لم أكابد مثله من قبل. توخيت حين قررت الانتقال إلى عاصمة السوڤيات أن أظفر بعلاج وافٍ للداء الذي تعذبني آلامه، فلم أظفر حتى بما كنت أحصل عليه كلما جئت زائراً. وظننت أني أبتعد عن التوتر فوجدتني محاطاً بما يوتر أعتى الصابرين. وهكذا، نأيت عن المركز الفلسطيني ومتع معامعه الكبيرة وخبراته ولم أظفر وأنا ناء عنه إلا بالمتاعب والغرق في صغائر المماحكات. ولا أظن أني أخطئ إن قلت لك إن تلك التجربة كانت أمرّ تجارب حياتي السياسية. ولم يكن غريباً أن أستخلص العبر. ولك أن تعرف أني واحد من الذين قد لا يحفزهم النجاح على إعادة التفكير، أما الفشل فما أشدّ ما يحفز!

حزمت أمري بشأن علاقتي مع زوجتي. كانت العلاقة مأزومة قبل أن نجيء إلى موسكو. فلم تكن الأزمة طارئة، إلاّ أنها، في موسكو، تفاقمت. وقد ألفت أن أحتمل أي مزعج في علاقتي بأم بناتي إلى أن أدخلها مدير المكتب وصاحبه د. على الخط المأزوم لعلاقتي بهما. وطفح الكيل عندما تواطأ د. والمدير واستثمر الاثنان سخط أم البنات علي وحملاها على الإساءة

لي بأمل أن يجدا سبباً شخصياً يسوغ طردي من البلد . لن أروي لك ما فعله المتواطئان ، فأنا لا أثقل على أحد بهذا الهم .

ويكفي أن تعرف أن الفاسد الفلسطيني وحاميه البيروقراطي السوفياتي ذهبا بعيداً في استثمار سخط الزوجة الساخطة . وقتها ، اتخذت القرار الذي صار لا بدّ منه : الطلاق ، ومعه قرار يتممه : أن أتولى بنفسي تنشئة صغيراتي الثلاث وأجنبهن ما كابدته أنا في حياتي الشخصية المضطربة .

وكان أول ما فعلته فور عودتي إلى دمشق أن نفذت القرارين . كان صديقي أنيس الخطيب قد صار محامياً فوكلت إليه متابعة قضية الطلاق . ولم تكن أم بناتي بعد انفصالنا في وضع يمكنها من احتضان بناتنا ، فآلت رعاية الصغيرات إليّ دون مماحكات ، وتوفرت لهن الرعاية التي تنمي المفاهيم التقدمية كما توفرت لهن الحماية ضد التأثيرات والتدخلات المغايرة . وقد وطدت نفسي على أن أحتمل في هذين المجالين أي انتقادات وأرفض الرضوخ لأي ضغوط . وما أشدّ ما احتملت إلى أن انتظمت حياة البنات !

وحزمت أمري ، أيضاً ، بالنسبة لدوري في الحياة العامة ، فقبل هذه التجربة ، كنت سعيداً ، دون شك ، بانصرافي عن المناصب والمراتب وألقاب القيادة ، ولكني كنت ، أيضاً ، موزع الجهد على مجالات نشاط عدّة . أما بعد هذه التجربة ، فقد استقرّ يقيني بأني لا أصلح للعمل الدبلوماسي ولا أطيق العمل البيروقراطي . وكان ما استخلصته من أجل مستقبلي هو هذا : أنا كاتب ، وإذا صار لي أن أتقدم وأعزز مكانتي فلا بدّ من أن يكون هذا في مجال الكتابة . ومع الاستخلاص السديد ، نبت منذ ذلك الوقت القرار الذي ألتزمه إلى الآن : أن أركز جل جهدي على الكتابة وكل ما يمكنني من تجويد كتاباتي .

وهكذا ، استعدت علاقتي بجريدة «السفير» ، ودخلت مقالاتي أكثر

فأكثر في لباب المواضيع . ورجعت إلى ما أنجزته من مسودات «بير الشوم» ، وتابعت كتابة بقية الرواية ، وشرعت في تأليف كتاب جديد ، هو هذا الذي صدر بعد ذلك بعنوان «الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٦٤ ـ ١٩٧٤» . وفي المكتب ، توافقت مع عبد الرزاق اليحيى المدير العام للدائرة السياسية التي عدت إلى مقرها العام في دمشق على أن أتولى من المهام ما يلائم عزمي على الانصراف للكتابة ويهيئ لي أن أبقى في المنزل أطول مدّة ممكنة لأظلّ بجانب الصغيرات المحتاجات إلى رعايتي وأكتب فيه . وفي أقلّ من سنة ، أنجزت «بير الشوم» وأنجزت «الفكر السياسي الفلسطيني» . وكان من حظي أن شلّة أصدقائي الحميمين ، الشلة التي كانت تضمنا كل مساء ، استعادت ألقها بعد عودة سعيد حورانية من موسكو . ومع سعيد هذا ، ومنير الحمارنة ، ونبيه ارشيدات ، وحنّا مينه ، ومن تجتذبهم الشلة من غير هؤلاء ، ظل بالإمكان أن أظفر وسط مشاغلي الجديدة ، بأطيب الأوقات وأنفعها . وفي هذه الأثناء ، عملت ما يلزم كي أنتقل من الدائرة السياسية إلى مركز الأبحاث التابع لـ م . ت . ف . في بيروت فأتفرغ للكتابة كلية ، إلى أن أفلحت .

وقد وقعت لي مع سعيد حورانية فور عودتي من موسكو قصة تستحق أن أرويها لك . ذلك أن سعيد رجع إلى دمشق من موسكو قبل أن أنتقل أنا من عاصمة سورية إلى عاصمة السوفيات . وعندما تقرر انتقالي إلى موسكو ، لم يكن سعيد قد ظفر بعمل جديد فلم يكن بإمكانه أن يستأجر مسكناً مستقلاً ، خصوصاً بعد أن صارت المساكن تؤجر في السوق السوداء للتهرب من إلزامات قانون الإيجار وقفزت إيجاراتها إلى أرقام ليست في متناول ذوي الدخل المحدود . وكان سعيد يسكن في حجرة في الدار الكبيرة الموروثة عن أبيه حيث يتقاسم إخوته العديدون وأسرهم كبيرة العدد حجرات هذه الدار . ولم يكن لسعيد أن يرتاح في هذه الدار المسربلة بأشدّ التقاليد محافظة التي فرّ

منها وهو بعد فتى وألف العيش مستقلاً عن الأسرة في أجواء مختلفة .

ولما كنت قد حصلت للتوّ على شقّة جديدة خصصتها لي التعاونية السكنية التابعة لنقابة الصحافيين التي ساهمت أنا في إنشائها ، فقد عرضت على سعيد أن يسكن في هذه الشقة أثناء وجودي أنا في موسكو . وكنت أقدر أن تمتد غيبتي أربع سنوات أو خمساً كما ذكرت لك . فانتقل سعيد إلى الشقّة وأمكن أن يتزوج المرأة التي أحبّها وأحبته كما لم يحبّ أحد أحداً وهي الصديقة نادية خضور . وملأ سعيد الشقة بالأثاث الذي أحضره من موسكو والكتب واللوحات ودفء العلاقات ، وانتظمت أموره . وما كاد سعيد وزوجته يستقران في هذا الوضع ويستشعران هناءه حتى عدت أنا فجأة . وعلى كثرة ما كان يشغلني من هموم ، هجست بما تسببه عودتي من إزعاج لصديقيّ . ولم أجرؤ على الاتصال بسعيد ، بل نزلت في شقة خالي نافذ . ولم ألق سعيد إلا بعد أن عرف هو نبأ عودتي واتصل بي لائماً ومقرعاً .

أدرك سعيد أني أحشر نفسي في شقة أهلي الصغيرة وأرضخ للتقاليد التي أضيق بها لا لشيء إلا كي لا أزعجه ، فحنق ، وما أن وقع عليّ حتى أطلق لسانه بسيل من الشتائم ، وأصر على أن أجيء فوراً إلى منزلي ، كما وصف الشقة التي يشغلها . وقلت أنا لصديقي : «لن أنتقل إلى الشقة قبل أن تجد أنت مسكناً ملائماً بأجرة معقولة» . وعندما عرف سعيد أني أبحث عن شقة مفروشة لآوي إليها مع بناتي ، أخلى الشقة وأبقى أثاثه فيها وجاءني بالمفتاح : «لن أعود إلى شقتك أبداً» . هذه الخطوة التي وصفتها أنا بأنها حماقة جعلتني أتعجل استئجار شقة مفروشة ، فأرغمتني العجلة على دفع أجرة تعادل راتبي كله . وبقيت الشقة التي يؤثر كل منا صاحبه بها على نفسه ، إذاً ، خالية . ونشأ وضع عدّه بعضهم طريفاً ووجد آخرون فيه دليلاً على أن أخلاق الفرسان لم تنقرض .

فؤاد قدري الأفرس من أي فارس والحاضر دوماً للنجدة هو الذي ختم هذه القصة بنهاية بهيجة . لقد قدر صديقنا مغزى الوضع تقديراً صحيحاً وأدرك أن صديقيه عنيدان ، فندب نفسه لإيجاد الحل دون أن يشاور أياً منّا . وسرعان ما وفرت مساعي أبي قدري لسعيد شقة جميلة وفسيحة في مبنى مجاور للمستشفى الإيطالي في واحد من أحياء دمشق العريقة وأقربها إلى الأماكن التي يرتادها سعيد . ولم يترتب على المنتقل إلى هذه الشقة أن يدفع إلا أجرة تكاد تكون رمزية . وقد احتفلنا مرتين ، مرة بحلول سعيد ونادية في شقتهما ومرة أخرى بحلولي أنا وبناتي في الشقة الأخرى .

في هذه الأثناء ، اشتدت وطأة الحرب الأهلية في لبنان وزاد غرق الفلسطينيين في وحولها وتنوع تأثيرها على أوضاعهم ومصائرهم . حدثتك عن بدايات التواجد العسكري الفلسطيني في جنوب لبنان وتمدده إلى مخيمات اللاجئين والمدن . وهذه عملية لم تمض بغير متاعب مع السلطات اللبنانية . غير أن شعبية العمل الفدائي الفلسطيني في لبنان كما في محيطه فرضت على هذه السلطات أن تبتلع الحقائق الناشئة على أرض بلدها . ولأن المبلوع لم يكن مستساغاً ، فقد ظلت الصدامات تتواتر بين الفصائل المسلحة وبين جيش السلطة فتتدخل جهات لبنانية وأخرى عربية مؤيدة للمقاومة الفلسطينية ومؤمنة بحقها في العمل على أرض لبنان فتنعقد تسوية ويبرم اتفاق . وفي العام ١٩٦٩ ، وقع الطرفان أشهر هذه الاتفاقات ، وهو اتفاق القاهرة الذي تم التوصل إليه برعاية فعالة من الرئيس جمال عبد الناصر وضغطه ، فحصلت المقاومة على حق التواجد المسلح في البلد . وكان هذا تواجداً مقروناً بشروط كثيرة بيّنها الاتفاق . إلا أن ضغط الواقع وتعاظم التأييد للعمل الفدائي كانا أقوى من أي شرط . وفي أيار/ مايو ١٩٧٣ ، وقع اتفاق ملكارت ، ثم تلته اتفاقات أخرى ، وظل ضغط الواقع لصالح المقاومة هو الأقوى .

وكان هذا الواقع يفرض توسعاً مضطرداً في الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان بموازاة التوسع المضطرد هو الآخر للوجود السياسي والإعلامي والمالي . وظل الأمر كذلك إلى أن انفجرت الحرب الأهلية في نيسان/ إبريل ١٩٧٥ وانهمك الفلسطينيون فيها طرفاً متحالفاً مع فرقاء لبنانيين ضد فرقاء لبنانيين آخرين .

لن أحدثك عن هذه الحرب . أو قل إني لن أعيد عليك حديثها . فأنت الفلسطيني المولود بعد ١٩٤٨ ، أي بعد عام النكبة ، قد كنت من شهود الحرب التي عصفت بكل شيء في البلد الجميل وأوقعت خسائر وضحايا لم يسبق لها مثيل في أي حرب ، وربما كنت أنت نفسك من المشتركين فيها . وقد يكفي أن تعرف أني رأيت في الحرب الأهلية في لبنان ما يذكر بما جرى في الأردن أو يكرره . ولئن وجد من قال إن وقائع التاريخ تتكرر مرتين واحدة في صورة مأساة وأخرى في صورة ملهاة فقد كان التكرار في لبنان مأساة أوجع من مأساة الأردن . فهنا ، في لبنان ، دُفع الفلسطينيون إلى معركة ليست هي معركتهم الأصلية ، وكثيراً ما انهمكوا في القتال من أجل مكاسب ليست هي أهم ما ينبغي أن يقاتلوا من أجله . وقد تضاعفت السلبيات خلال هذه الحرب ، تماماً كما تضاعفت الإيجابيات . وانفتحت للفساد والممارسات الشاذة أبواب لم يوجد في الأردن مثلها ، تماماً كما أن الجهد الذي بذل لمقاومة السلبيات اشتد .

وهنا ، أيضاً كما كان عليه أمري إبّان أحداث الأردن ، صار علي أن أتابع الأحداث منتقداً السلبيات ، بل متشدداً في الانتقاد ، دون أن أتوه بشأن موقعي . فأمر موقعي في أي أحداث ينهمك فيها ربعي كنت قد حسمته منذ زمن طويل . وأنا ، كما سبق أن قلت لك ، ابن الخندق الفلسطيني ، أقول هذا وأكرره ، أظل مع ناسه ، ضعفاء كانوا أو أقوياء ، راشدين أو تائهين ، خاسرين

أو ظافرين . وقد بقي قراري كما كان دوماً : لن أغادر خندقي لأي سبب من الأسباب . وكان دافعي إلى هذا الموقف واضحاً عندي أتمّ الوضوح : الفلسطينيون جميعهم ضحايا للعدوان الإسرائيلي الواقع على وطنهم والمتواصل عليهم في الوطن وخارجه ، لا يبدّل هذه الصفة ولا يجعلها ثانوية أن يكون هذا أو ذاك من الفلسطينيين مخطئاً أو مصيباً ، سيء السلوك أو حسنه . وأنا الكاتب المعتزّ باتباع هدي ضميري لا أجد راحة الضمير إلا بانحيازي إلى الضحايا حتى لو لم أكن واحداً منهم ، فكيف وأنا كذلك !

وإلى أن تمكنتُ من الظفر بالعمل في مركز الأبحاث وانتقلت إلى بيروت وأقمت فيها مع صغيراتي ، انقضت قرابة سنة . في هذه السنة ، اشتدت حاجتي إلى السفر إلى لبنان . غير أن الحاجة إلى رعاية الصغيرات أوجبت أن تكون سفراتي قصيرة . وغالباً ما كنت أغادر دمشق في الصباح الباكر وأرجع في مساء اليوم ذاته أو صباح اليوم التالي على أبعد تقدير . وكان هذا يتكرر مرة أو اثنتين كل أسبوع ، فيرهقني ويؤجج آلام الظهر ويقصر وقت انصرافي إلى الكتابة . وقد حاولت أن أهتدي إلى وضع أوائم فيه بين واجباتي المتعددة فلم أهتد إلى مثل هذا الوضع وظل يعنيني هذا التوزع بين دمشق وبيروت ، بين أعمال المنزل ، وواجبات المكتب ، والكتابة . فشددت مساعي إلى الانتقال إلى مركز الأبحاث وبيروت . وصار الانتقال إلى بلد الحرب الأهلية مطلباً ينطوي على نشدان الاستقرار ، فأي مفارقة !

في هذا الوقت ، بدا أن الدائرة التي ارتسمت بدايتها مع أول القرن والتي قدر لي أن أعيش في كنفها سنين عديدة قد صارت على وشك أن تبلغ نهايتها . أعيدك إلى حديث جدّي عبد المجيد ، هذا الذي قد أشرّق أو أغرّب وأنحدر أو أصعد ولا أنساه . بدأت الإشارة إلى النهاية وأنا في موسكو . حمل الهاتف إليّ نبأ إصابة جدّي بجلطة دماغية . أبلغ خالي نافذ النبأ إليّ في

صورة مخففة . توخى الحريص على الواجبات الاجتماعية أن أعرف ما حلّ بجدي ، فهذا حقي ، لكنه شاء أن لا أتعرض في غربتي البعيدة إلى صدمة فهوّن الأمر : «أزمة بسيطة وقد عالجناها» . وبعد شهرين أو ثلاثة ، عندما رجعت إلى دمشق ، خففتُ إلى زيارة الجد . فاكتشفت أن المشرف على الثمانين طريح الفراش ، مشلول ، تتناوبه أوقات يغيب فيها وعيه أو يفقد الذاكرة . وقال خالي هشام ، وهو من غدا طبيباً من أبرع الأطباء : «تصلب الشرايين ، ونقص تروية الدماغ بالدم ، وهذا الشلل» .

ولك أن تتصور ما داهمني من مشاعر وأنا أعاين حالة جدي مفاجأ بها . فهذا رجل مدّ نشاطاته على امتداد ثمانية وسبعين عاماً وملأ بها أجواءنا قبل الهجرة من فلسطين وبعدها ، لم يكلّ ولم تقعده لا المصاعب ولا المصائب ، وها هو ذا قد انحصر وجوده في سرير صغير لا يبرحه ، في حجرة صغيرة ، في شقة صغيرة ، وغدا عاجزاً عن النهوض . وحين بحثت عند هشام عن أمل أتحايل به على هواجسي ، قال خالي الذي يشرف على علاج أبيه : «المنجّي هو الله وحده» . وعند خالي المتدين ، عنت هذه أن أترقب النهاية وأعدّ نفسي للفاجعة .

وبمضيّ الأيام ، سرى بيننا ، نحن أعضاء أسرة الجد ، هذا الشعور الذي لا نتكاشف بشأنه حتى ونحن جميعاً أسرى له : الجد مفارق لا محالة .

مرة أخرى ، أجدني في وضع من يعجز عن وصف مشاعره بالكلمات . لم أكن الطفل الغرّ الذي كنته قبل ثلاثين سنة حين فجعت برحيل جدّي الآخر سلمان . ولم أكن فتى قاصراً أو شاباً مفسداً أو رجلاً قليل المعاناة ، فلم أكن ، إذاً ، من الذين قد تهدّهم المصائب . لكن شيئاً من الطفل الذي كنته في المسمية ، وأنا ألوذ بكنف جدي عبد المجيد لأقع على ما يمتع أو يدهش ، بقي مخزوناً فيّ . وكان فيّ أيضاً شيء من ا لفتى الذي زعزعته الهموم

العائلية حين كان جدّي هذا هو الذي يحلّ المشاكل ويتوخى أن يوفر لي الاستقرار . وقد بقيت على الدوام أحسّ بهذا إحساساً غامضاً ، وكان هذا الإحساس يقوى ويشتد كلما صرت في حضرة الجدّ أو استحضرت ذكره وأنا ناءٍ عنه . وقد يدهشك أن تعرف أن جدّي ظل حتى إصابته هذه التي شلّته مصراً على أن يقصّ لي أظافر قدميّ ، وخصوصاً أظفر الإبهام المتيبس ، وأني كنت أستطيب ما يفعله الجد وأتوق إليه إن طالت غيبتي عنه . وطالما أمتعتني تعليقات الجد الساخرة ، هذه التي يعرّض فيها بكسلي وإهمالي وقلّة حيلتي أنا وجيلي كلّه . كنت أدرك أن تعريض الجدّ بي يعكس حبّه لي ورغبته في أن أكون ، أنا حفيده ، «أنشط خلق الله قاطبة» ، على حدّ التعبير الفصيح الذي يستخدمه . وقد يدهشك أن تعرف أن الأظفر المعاند لم يقصّ طيلة الفترة التي أمضاها جدي وهو طريح الفراش . كان فيّ شيء أقوى من معطيات الطب وتأكيدات العلوم كلها ، شيء يمنيني بمعجزة ، فقد يبرأ الجد من شلله فأظفر من جديد برعايته المستطابة .

في الأسرة ، اتفقوا بعد عودتي إلى دمشق على أن الوقت حان لإبلاغ النبأ إلى أمّي في غزّة وحثّها على المجيء لترى أباها المريض . وأدركت أمي المتمرسة بالمصائب مغزى الدعوة الطارئة ، فجاءت بأعجل ما أباحت إجراءات الاحتلال . واضطرت أمي إلى أن تجعل زيارتها قصيرة ، فزوجها المريض هو الآخر محتاج إلى رعايتها ولا بدّ من أن ترجع إليه بأعجل ما تستطيع . ففي غزّة ، حل بزوج أمي الذي هو صديق جدّي ومجايله ما حل بالجد في دمشق ؛ هدّه رهق الحياة المضطربة وداهمه ما أقعده في الفراش .

بقيت أمي بيننا أسبوعاً أمضت معظم وقته قرب الجدّ . لم تحتج المرأة الفطنة إلى ما يبين لها أن هذا سيكون لقاءها الأخير بأبيها . ولم تكن أمي ، هي التي تناوبتها المصائب الخاصة والعامة ، ممن قد تهدهم مصيبة جديدة .

غير أن تأثر المضطرة إلى المفارقة بحال أبيها كان عميقاً ، وكذلك كان أساها ، وهذا ما كاشفتني به دون مواربة : «لا يعرف الإنسان متى يأخذ الله أمانته ، ولكن أبي مصابحٌ مماس ، وعلي أنا أن أرجع إلى غزّة فما من هذا بد ويحزّ في نفسي أن يموت أبي ولا أشهد عزاءه» .

وقبيل مبارحتها إيانا ، ضمني مع أمي مجلس للعائلة التأم حول سرير الجد في فترة من فترات صحوه . ولا بدّ من أن الجد هجس هو الآخر بأن هذا قد يكون هو لقاءه الأخير بابنته المفارقة ، فأطلق لعواطفه العنان . وأقرّ الجدّ أمامنا بأنه قسا على ابنته في شبابها وظلمها لكنها ظلت بالنسبة له هي أحلى البنات وأذكاهن وأكرمهن وهي عنده «أحسن خلق الله قاطبة» . فاضت مجاملات الجدّ على أمي وكاد حديثه يبكينا . وبكى هو فعلاً ففاضت مع المجاملات دموع كاوية . ثم صمت الجدّ فجأة ، صمتاً تصورنا معه أن النوبة داهمته ففقد وعيه . وعندما نطق الجد من جديد ، وجه خطابه إلى أمي : «أحبّ أن ألقى وجه ربّي بصفحة بيضاء ، فسامحيني يا ابنتي !»

غاض انتشاء أمي بالمجاملات ، وصمتت . وشعرنا نحن بالحرج . فلم يكن أي منّا في وارد استحضار حكاية عفت عليها أزمان مديدة . غير أن مطالبة المريض ابنته بمسامحته أحضرت الماضي البعيد وأثقلت به على مجلسنا . فتشاغل كل واحد منا بشيء ، وهو يترقب في داخله ما الذي سترد به المطالبة بالمسامحة ، ما الذي تفكر به ابنة الخمسين وهي تستحضر الإساءة التي تعرضت لها قبل أن تبلغ العشرين . ولم يجرؤ أي منا على الإفصاح عما يدور في نفسه . وحدها ، زوجة جدي ، أم عدنان ، أفصحت عن موقف لا لبس فيه ، فوجهت إلى أمي نظرة تحثها على الجهر بالمسامحة . ولما بقيت أمي صامتة ، قالت أم عدنان للجد : «ما فات مات ، ونحن أولاد اليوم ، وقد سامحتك أم فيصل منذ وقت طويل» .

لك أن تعرف أني أنا نفسي ، وارث عناد أمي وعناد أمها ، لم أتوقع أن تمتنع الأم على مسامحة أبيها . والحقيقة أن أمي لم ترفض المسامحة ، إلا أن صمتها طال ، وحين نطقت قالت : «المسامح هو الله ، وهو أعدل العادلين» . نطقت أمي بهذه العبارة بنبرة وشت بأنها تصدر عن أغوار عميقة وتحمل أصداء عذابات ، إن عفا عليها الزمن حقاً فإن لها في الروح وقعاً منغصاً . وفي تلك اللحظة ، داهمت نوبة الإغماء جدّي فتحررنا من الحرج . وبعد صحوه ، لم يعد جدي ولا عاد أيما أحد إلى هذا الموضوع .

بعد سفر أمي ، سيطرت على جدّي رغبة راح يكرر الإفصاح عنها بإلحاح لا يلين : «أريد أن أرى المسمية قبل أن أموت» . وفي البداية ، لم يول أي منا هذا المطلب اهتماماً خاصاً ، فقد عددناه من هلوسات المرض . غير أن الجدّ أقدم على شيء خطير فأرغم الجميع على الاهتمام برغبته الطاغية . فذات صباح ، غافل الجدّ زوجته المنشغلة بشؤون المطبخ ، وانحدر عن سريره ، وزحف باتجاه باب الشقة ، وعبر الباب وتابع زحفه ناحية درج المبنى ، وذلك ، كما قال هو وهو يقرعنا ، كي يذهب بالرغم منا إلى فلسطين ويتوجه إلى مسميته التي نحظر نحن عليه الذهاب إليها .

كان من حسن الحظ أن أحداً ما أدرك الجدّ قبل أن يتحطم جسده على الدرج الحجري . لكن المغامرة التي شرع فيها ونجاحه في تحدّي قيود المرض أججا رغبة جدي في العودة إلى مسقط رأسه ومهوى فؤاده وزادا إلحاحه ، حتى لكأن رغبات حياته جميعها قد تكثفت في هذه الرغبة : «أريد أن أرى المسمية قبل أن أموت» . ولم تنفع أي شروح ، فالرغبة صارت هاجساً : «أريد أن أرى المسمية قبل أن أموت» ، وصارت العبارة تتكرر في أي فترة صحو بين إغماءتين ، وتظهر كم يتعذب المريض . وصار لا بد من عمل شيء ما لإطفاء الهاجس المعذّب .

وتذكر خالي عمر قرية حرّان العواميد التي تقع على طرف غوطة دمشق الشرقية في البرّ الذي يلي بساتين الغوطة ، وكانت هذه قرية تبدو للناظر إليها من بعيد كأنها المسمية . وحمل أخوالي الكبار أباهم في سيارة أخذتهم إلى محيط حران العواميد . وفي مكان ترى منه القرية ، أشار هؤلاء إليها وقالوا لأبيهم : «بإمكانك أن ترى !» . ولما بدا أن الحيلة جازت على المريض ، قال أخوالي : «لا نستطيع أن ندخل المسمية لأن الإسرائيليين يحتلونها» . ولئن لم يعد جدي إلى المسمية لا في واقع الأمر ولا في الوهم ، فقد رحل عن دنيانا وهو مؤمن بحقه في العودة إليها واثق من أن البلاد تظل لأهلها وليس للغرباء وسيعود أهل البلاد إلى بلادهم ذات يوم لا محالة .

أقفلت الدائرة صباح الثالث والعشرين من تشرين الأول / أوكتوبر ١٩٧٨ . وقتها كنت في طريقي إلى بيروت عاصمة الحرب والفواجع ، وما أن بلغتها حتى أرجعني إلى دمشق هاتف ملحاح ، فجئت مباشرة إلى حيث احتشد الناس أمام بناية القاري في زقاق مكتب عنبر .

لا شك في أن الحشد ضمّ كثيرين من معارفي ، ولا بد من أن بعضهم همّ بالسلام عليّ ، غير أني لم أنتبه لأحد ، بل وجدتني أصعد الدرج وأدخل شقة الجد . وهنا ، وجدت الموكلين بإجراءات الجنازة ، كان خالي هشام قائماً إزاء منصة خشبية مدد عليها جثمان جدي ، وهو يغسله ويستمطر الرحمات على روحه . وهذا هو المشهد المطبوع في ذاكرتي إلى الآن : هشام يغسل الجثمان بحركة امتزج فيها حرفيّةُ الطبيب ومشاعر الابن المفجوع وتصبر المتدين المؤمن ، دفقات ماء ، ودعاء «الله يرحمك يا أبي» ، ودموع تسح من العينين وتمتزج بالماء ، والجثمان الممدد ، القامة التي لحق بها هزال ظاهر دون أن تفقد المظهر الرشيق الذي ميز جدّي طيلة عمره ، والجلد الذي قرّحه طول المكوث على السرير دون أن يغيض رونقه ، والوجه الصبيح الذي طالما توالت

عليه التعابير ووترته ، وقد استراح .

وحين انتبهت إلى ما يدور خارج الشقة ، رأيت كيف ضاقت الفسح المتاحة أمام المبنى بحشد القادمين للاشتراك في الجنازة وكيف استطالت جموع الحشد فملأت زقاق مكتب عنبر ومداخل دوره والأزقة المتفرعة منه . ولاحظت أن عمي محمد قد وصل من الأردن ومعه حورانيون كثيرون . وكان أبناء الجد ، أخوالي السبعة ، حاضرين كلهم بالطبع . نافذ وعمر وغالب أبناء جدتي الذين صرت تعرف شيئاً عنهم . وكان هنا أيضاً أبناء أم عدنان ، فإلى هشام الذي هيأ الجثمان لمشواره الأخير على أتمّ وجه ، كان عدنان وهو من أتمّ دراسة الحقوق منذ سنوات وصار موظفاً في وزارة التموين ، ومروان الذي ضاق بالدراسة الجامعية والتحق بوظيفة حكومية ، وإحسان المتخرج لتوّه من كلية الهندسة المعمارية . وكانت هنا ، أيضاً ، خالتي شفيقة وخالتي هيام التي قدمت مع زوجها من الكويت قبل أيام ، وسهام أصغر خالاتي التي أنهت الدراسة الثانوية والتحقت بالجامعة طالبة في كلية الآداب .

بعد أمي ، نشّأ جدي هؤلاء الأبناء جميعهم وأنا معهم ، اثني عشر فتى وفتاة ، وهيأ لذكورهم وإناثهم فرص التعليم . بدأ بهذا حين كان ميسور الحال في المسمية ، وواظب عليه بعد أن انحدرت النكبة بأحوال اللاجئين إلى ما دون الصفر . وكان ما فعله الجد موضع تقدير الذين عرفوه جميعهم ، من أحبّوه منهم ومن أبغضوه ، الذين عرفوه هو معرفة شخصية أو الذين عرفوا أيّ واحد منا . ولم يفاجئني . إذاً ، أن يحتشد لوداع جدي هذا الخلق الكثير .

سرت مع أخوالي في مقدمة الجنازة كما توجب التقاليد . تعاقدت أذرعنا ووحّدت فاجعة فقد رب الأسرة مشاعرنا وسرنا خلف نعشه صامتين . وأُخذ الجثمان إلى الجامع الأموي ، إلى المكان الذي ألفه الجدّ وأحبّه . وحضرت الذكريات ، ففي كل متر مربع في الجامع ثمة ذكرى ما ، تخصني ، ولكم

صحبت جدي إلى هذا المكان وأنا طفل ! وقد صُلي على جثمان جدي في الركن من الجامع الذي ألف هو على مدى ثلاثين سنة أن يعقد فيه مجلسه اليومي ويؤدي الصلوات ، فما أكثر ما حضرني من ذكريات هذا المجلس ! وما أشدّ الأسى الذي جلّل وجوه شركاء المجلس الذين شهدوا صلاة الوداع ، هذه !

ومن الجامع في الاتجاه إلى مقبرة الدحداح ، عبرنا شبكة الأزقة الطافحة بعبق التاريخ وثقل الحاضر . فكل من يسكن بيتاً في هذه الأزقة أو يشغل حانوتاً يعرف الجد ، يعرفه ذوو الشأن كما يعرفه العوام ، كبار الأغنياء وصغار الكسبة ، العاملون والعاطلون عن العمل . ولم يصعب على أحد من هؤلاء أن يتعرف على صاحب الجثمان المسجّى في النعش المقفل . ومن الذي لن يعرفه حين يرانا ، نحن أبناءه كلنا ، ونحن نتقدم الجنازة . وكانت التعليقات المتأسية تتوالى : «الله يرحمك يا أبا نافذ ، عشت وخلفت !» .

وفي مقبرة الدحداح ، في المكان الذي أعرفه معرفة تامة منذ عشت بجواره مع الأسرة قبل خمس وعشرين سنة وألفت أن أقرأ القرآن على أرواح الثاوين فيه وأظفر ببعض القروش ، في هذا المكان ، شهدت المشهد الأخير في مشوار جدي على سطح الأرض ، ورأيت كيف أنزلوا جثمانه في حفرة القبر ثم واروه بترابها .

هنا ، بعد استكمال مراسم الدفن ، برز سعدي العالم . فهل ما تزال تتذكر صديق الأسرة القديم هذا ، ابن المسمية الذي لجأ إلى دمشق وهو شاب . برز الرجل ، وألقى خطبة التأبين بفصحاه المنمقة وصوته الذي لا يليق بشيء بمقدار ما يليق بالخطابة . وكما يحدث إذا خطب أي فلسطيني في أي مناسبة ، تطرق سعدي إلى نكبة أهل فلسطين ، ونوه بكفاحهم قبل النكبة ومعاناتهم وجلدهم وكفاحهم المتجدد بعدها . واستحضر الخطيب ما كدت أنا نفسي أنساه ، فذكّر سامعيه بأن عبد المجيد الحوراني الذي نودعه كان من

أبطال معركة باب الواد واستحضر هبّة أهل البلاد ونجدتهم المدافعين عن القدس في هذه المعركة . ونوّه سعدي بكفاح الجدّ بعد الهجرة ضد توطين اللاجئين الفلسطينيين خارج وطنهم . وعدد الخطيب وظل يعدد أشياء أخرى من هذا القبيل ، إلى أن غلبه التأثر وفاضت دموعه ففقد القدرة على مواصلة الخطابة .

حين يكون المفارق هو جدّك قد لا يطيب لك أن تسمع خطبة تتناول الشأن العام . لكن حين يكون الشأن العام ممتزجاً بالشأن الشخصي ، كما هو الحال الفلسطيني ، فإن الأمر يختلف . ولك أن تعرف أن تأبين سعدي لجدي قد سرّى عني وحرك فيّ شعوراً قلما انتبهت إليه قبل هذه المناسبة : الشعور بالفخار ، فأنا حفيد هذا الجدّ .

دُفن جدّي ، إذاً ، في دمشق ، وليس في المسمية كما تمنى طيلة عمره . لكنه إن لم يعد إلى المسمية فإن مكوثه منفياً عنها ثلاثين سنة لم يوهن توقه إلى العودة إليها ولم يزعزع إيمانه بحق العودة . وما أظن أن إيمان جدّي بحقه في العودة كان سيهن لو امتد أمد منفاه ثلاثين سنة أخرى . وما أكثر ما حدثنا الجد عن حياته في المسمية وأملاكه فيها حديث الواثق من أن هذا يخصه ولا أهمية لما فعله الغزاة . فالغزاة طارئون والبلاد تظل لأصحابها . وكم أوصى جدي أولاده وكرر الوصية بشأن الميراث الذي سيؤول إليهم من أملاكه في المسمية . كان الجدّ يعرف أن ميراثه سيقسم على الأولاد ، ذكورهم وإناثهم ، وفق قواعد الشرع الإسلامي ، ولم يعترض جدي على أحكام الشرع أو يستوقفه التمييز بين حصص الذكور وحصص الإناث ، فقد آمن بأن الشرع من وحي الله الذي يؤمن هو به ولا مجال للاعتراض على حكمة ربّ العالمين . إلا أن جدي شاء أن تظفر سهام ، صغرى بناته وأبنائه ، بحصّة إضافية تزيد على ما يخصها به شرع السماء . وقد سمى جدّي حقلاً بعينه

من حقوله وطلب من أبنائه أن يوافقوا على تخصيصه لأختهم هذه . آثر الجد سهام بأجود حقوله وبيّن السبب : الأبناء كلهم أكملوا تعليمهم أثناء حياته إلا هي . ولطالما سألت نفسي : هل هذا هو السبب حقيقة ، هل هو السبب الوحيد ، أم أن جدّي كان يعوض بهذه الوصية عن إحساس خفيّ بالذنب الذي عذبه لأنه حاول أن ينتزع من كبرى بناته ، أمي ، ميراثها من زوجها الأول ، أبي . وأياً ما كان عليه الأمر ، فأنا لم يَفُتْني أن ألاحظ كم تبدل هذا الإنسان . فأن ينازع أب بنتاً على ميراثها الشرعي ذات يوم ثم يحرص بعد أربعين سنة على أن ترث بنت أخرى ما يزيد على حصتها ، فهذا تطور لا يفوت مثلي الإنتباه إلى دلالته .

أماسي العزاء الثلاث ونهاراته قضيتها كلها مع الأهل ؛ خلّفت حتى المشاغل الملحة وتفرغت لاستقبال المعزين . إني أحبّ من التقاليد هذه التي تعزز تضامن الناس بعضهم مع بعض إزاء الفواجع وتشرك المعارف في مواساة المفجوعين . ثم إن اتباعي التقاليد لم يكن التزاماً مني بواجبي تجاه ذكرى الراحل العزيز ، فحسب ، بل كان أيضاً استجابة لإحساس نما في هذا الظرف : إن لي أهلاً يستحقون أن أنتمي إليهم .

كانت علاقتي بخالي نافذ قد راقت ولم يبق من آثار الخصومة القديمة إلا الذكريات التي أستحضرها لاستخلاص العبرة : يستحق خالي هذا أن أحبّه بمقدار ما أحبني . ويستحق أن أقدره بمقدار ما ضحى لنسعد نحن . أما الاختلاف في النظرة إلى الحياة أو السلوك فليس له أن يشوّه هذا الحبّ . وكان خالي عمر ، وهو الذي لم تنشأ بيني وبينه أي خصومة في أي وقت ، يكنّ لي حبّاً صافياً ، إن لم يفصح عنه بالكلام ، فقد نمّ سلوكه عنه . حتى غالب ، هذا الذي شذّ عن سلوك الآخرين ، كان قد انتهى إلى تجنّب أي احتكاك بي أو التسبب في أي مضايقة . وقد قرّ في ظني أن خالي غالب يكنّ لي مشاعر

خاصة . وفي وقفتنا نحن أهل الراحل عند مدخل دار العزاء ، لاحظت حرص غالب على تجنيبي ما يجهدني ويثير آلام ظهري وكيف كان يقدمني إلى المعزين من معارفه بصفتي ابن أخته العزيز «الكاتب الثابت على المبادئ» . والصغار ، ها أنا ذا أسميهم الصغار بالرغم من أن أصغرهم كان قد تخرج من الجامعة ، ظلوا على حبهم إياي . ولم يتبدل أخوالي الصغار حتى بعد أن فرقتنا المشاغل المتنوعة والأفكار المختلفة . وما أصدق من قال : «ربّ أخ لك لم تلده أمّك !» . وأم عدنان ، زوجة جدّي التي صارت أرملة ، هذه التي كانت أحنَ علي من أمهات كثيرات بالرغم من أنها لم تلدني ، بقيت كما كانت ، وبقيتُ أنا بالنسبة لها ابناً عزيزاً ومستودعاً لأسرارها . وجدتي مدللة ، ما أعمق مشاعر هذه المرأة وأثبتها ! وشفيقة ، الخالة التي لا ينضب معين حنانها وحبّها لي ولبناتي أبداً . وهيام التي تشعرني دوماً بأني إزاء أخت لا حدّ لطيبتها وحنانها وتفهّمها ورغبتها في المساعدة ، وسهام ، الصغيرة حقاً التي صرت ألاحظ كيف تكبر وتنمو مداركها وتتوطد ثقتها بنفسها وصلتها بالحياة . سهام التي كلما انتبه أحد إلى أن لقبها العائلي هو ذاته لقبي وسألها عن طبيعة صلتها بي ، كانت تجيب : «أنا خالته» فتظهر أن اعتزازها بي لا صلة له بما لاسمي من شهرة ، كم أحببتها واعتززت بصلتي بها !

في أيام العزاء الثلاثة ، أمضينا ، أهلي وأنا ، النهارات في واحدة من الشقتين ، التي فوق أو التي تحت ، والأماسي في منزل هيام وزوجها الذي خصصناه لاستقبال المعزين من الرجال لأنه منزل فسيح . وها أنا ذا أتذكر كيف خطر لي أن أستقصي مشاعر جدتي إزاء رحيل جدي . أنت تتذكر ما رويته لك مما فعله جدّي بزوجته هذه قبل أكثر من أربعين سنة ، وكيف جاءها بضرّة . وإذا كنت تتذكر الحكاية كلها . فأنت تتذكر ، إذاً ، ما جرى بعد ذلك ، وكيف قاطعت جدتي زوجها منذ ذلك الوقت مقاطعة صارمة لم تلن في أي

ظرف . وما حملني على استقصاء مشاعر جدتي كان هو ما عرفته عن سلوكها في العزاء . فهي لم تقف حيث وقفت نساء الأسرة ، أم عدنان وخالاتي ، عند مدخل الشقة لاستقبال المعزيات ، بل جاءت إليهن معزية وجلست داخل الشقة كأي معزية ليست من أعضاء الأسرة . وكانت دلالة هذا السلوك سافرة : الزوج فقدته الجدّة منذ عقود . والذي رحل للتو لم يكن زوجاً لها ، بل كان زوج أم عدنان وحدها . وعندما سألت جدّتي عن مشاعرها سؤالاً مباشراً ، جاءني الجواب الوجيز : «جدّك الآن بين يدي ربّ العالمين ، بما له وبما عليه ، والربّ مسامح كريم» . ولم تزد الجدّة على هذا كلمة واحدة ، حتى بعد أن ألحفت في طرح الأسئلة .

في الأماسي الثلاث ، توالى على دار العزاء ألوف الناس ، أقرباء وأنسباء ، وأصدقاء ، ومعارف لجدّي أو لأي منا نحن أبناءه ، جاء هؤلاء فرادى أو جماعات . ومرّ أمامي ناس من شتى الأصناف والمراتب ، ناس من الأحزاب السياسية والفصائل الفدائية ، وآخرون مستقلون ، نشطاء في حقول العمل العام ومنصرفون إلى شؤونهم الشخصية ، فنانون ، وكتّاب ، وصحافيون ، وموظفون ، وحرفيون في شتى المهن ، مدنيون ، وعسكريون نظاميون أو فدائيون ، قادة وعناصر ، عاملون ، ومتقاعدون ، وعاطلون عن العمل ، ناس أتفق معهم في الآراء وآخرون أختلف معهم . جاء الأحياء من معارف جدّي كلهم ، القدماء الذين كنت ألقاهم حين أصحبه في مجالسه ونزهاته وجولاته في الأسواق ، والمستجدون الذين لم أتعرف عليهم . والذين ماتوا من هؤلاء جاء أبناؤهم وأحفادهم فذكروني بهم . انفتح بحر الذكريات وحضر شهودها ، وحضرت معها حكاية جدّي من أولها ، وحكايات الفلسطينيين في المنفى ، والأحداث التي تعاقبت ، الخاص منها والعام .

ومن أعماق حزني ، استخلصت مخزوني ، وجلوته ، وأعدت تثبيته في

الذاكرة كأني خشيت أن يبرحها بعد أن رحل جدّي . كنت كمن تتوفر له مناسبة يفرغ فيها من المشاغل فيعود إلى صور العائلة فينسقها ويثبتها في ألبومات ويخزنها في مكان لا تتعرض فيه إلى التلف . وقد رأيت أنت ، وأنت تقرأ ما رويته لك ، أن مخزوني كان وافراً وأني صنته صيانة لائقة وتعهدته بالرعاية فلم يتلف . وأنا أكتب هذه السطور الأخيرة بعد عقدين انقضيا منذ رحيل جدّي . ولقد شهدت في العقدين أحداثاً أخرى وعرفت ناساً أكثر فيما واصلت التطوح على دروب المنفى دون توقف أو خلاص . ولا شك في أن بإمكاني أن أروي لك الكثير زيادة على ما رويت . غير أني أخشى أن لا أضيف الى ما تعرفه جديداً . فقد كان كل ما شهدته أنا بعد العام ١٩٧٨ استطراداً للمرحلة التي تبلورت منذ ذلك العام عندما توجه أغلب الفلسطينيين إلى القبول بالتسوية السياسية وصاغ المجلس الوطني مطلب إقامة دولتهم المستقلّة على أرض الضفة والقطاع . وهناك سبب آخر يمنعني عن الاستطراد في الرواية إلى أبعد مما رويت . ذلك أنك أنت المولود بعد النكبة قد كبرت وصرت من شهود هذه المرحلة وقد تكون من صناع أحداثها ، وأنت الذي بإمكانه أن يكمل الرواية ويؤثر في الأحداث .

لقد أسمعتك جلّ ما عندي ، وربما أكثره أهمية ، فدعني أسمع منك بل دعني أرَ فعلك أيضاً . وإذا لم يسعف العمر فليسمع منك وير الآتون بعدي ! والباقي من حكاية المنفى ما يزال ، كما أراه ، طويلاً ، تماماً كما كان المنقضي منها . ودروب المنفى التي تطوحت أنا عليها ما تزال ممتدة . ومن يدري فقد تتشعب أيضاً وينشأ من كل درب دروب جديدة . إن بقية الحكاية عندك .

صدر للمؤلف

● الرواية

١- المحاصرون ، دمشق : المطبعة التعاونية ، ١٩٧٣ .

٢- بير الشوم ، بيروت : دار الكلمة ، ١٩٧٩ .

٣- سمك اللجّة ، دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٨٣ .

● الدراسات

١- الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٦٤ - ١٩٧٤ ، دراسة للمواثيق الرئيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت : مركز الأبحاث - م . ت . ف . ، ١٩٨٠ .

٢- العمل الغربي المشترك وإسرائيل ، الرفض والقبول ، نيقوسيا : شرق برس ، ١٩٩٠ .

٣- جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨ - ١٩٤٨ ، نيقوسيا : شرق برس ، ١٩٩٠ .

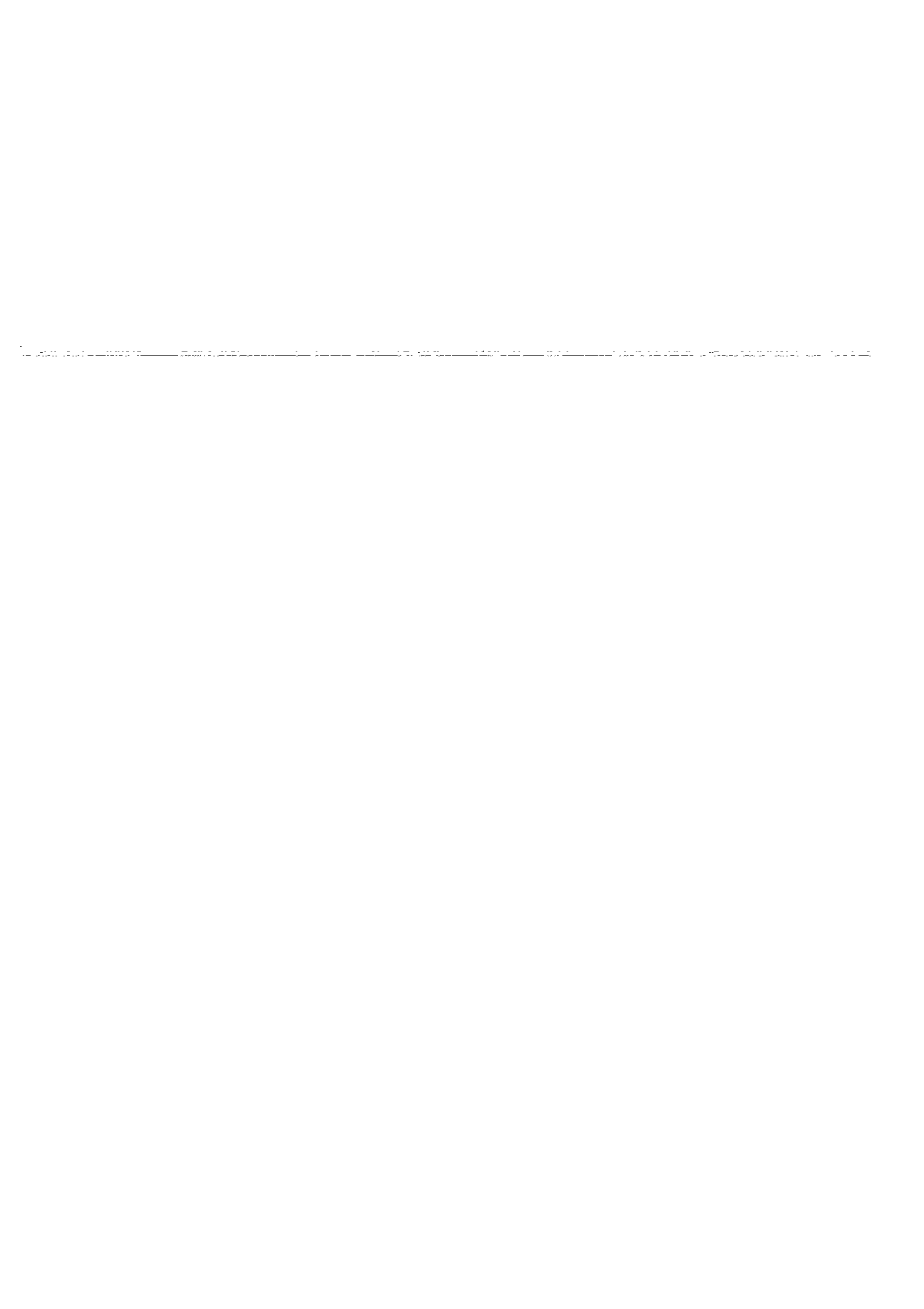
● الشهادات

١- دروب المنفى ١ ، الوطن في الذاكرة ، دمشق : دار كنعان ، ١٩٩٤ .

٢- دروب المنفى ٢ ، الصعود إلى الصفر ، عمان : دار سندباد ، ١٩٩٦ .

٣- دروب المنفى ٣ ، زمن الأسئلة ، عمان : دار سندباد ، ١٩٩٨ .

٤- دروب المنفى ٤ ، الجري إلى الهزيمة ، رام الله : مواطن ، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية ، ٢٠٠١ .



THE ROADS OF EXILE
WHERE IS THE REST OF THE TALE ?
AUTOBIOGRAPHY

دروب المنفى (5)

أين بقية الحكاية ؟

وجدت في مجلس عرفات عدداً من الّذين أعرفهم ومنهم سعيد حمامي ، الّذي غدا من المقرّبين جدّاً إلى الزعيم ، وحين دخلت المجلس قدّمت فتوح ليدخل قلبي ثمّ تبعته ، فهل أدرك عرفات ما توخّيته حين لم أجئ بمفردي ؟ لست أدري . لكنّني لا أستبعد هذا الاحتمال ، والواقع أنّ الرجل هبّ لاستقبالنا باشاً ، وأخلى لنا مكانين بجانبه ، وتجاهل أنّه استدعاني وحدي ، وقال إنّه استدعانا كلينا ليخصّنا وحدنا ، نحن أقرب الصحافيّين إليه ، بحديث عن عشّ النسور ووقائع لم تنشر من قبل . بدّل عرفات إذاً خطّته ، وعرض ، كعادته ، صفقة عرضاً غير مباشر : أحكي ما تنفردان بنشره فينفعكما السبق الصحافيّ وتسامحان وأسامح . وبدل معاتبتي أو لومي ، استغلّ عرفات وجود الصحافيّ المصريّ فشاء أن يعلّمني ، أنا الفلسطينيّ ابن الثورة، كيف تروى الوقائع في نحو تستفيد الثورة منه ، وما كان أعجب ما رواه الرجل في ذلك اللقاء !

في هذا النحو ، حيث يمتزج السرد القصصيّ والتحليل المعمّق مع الرؤية الشخصيّة ، يواصل فيصل حوراني تقديم شهادته ؛ وفي هذا الكتاب تغطّي الشهادة الحقبة بين ١٩٦٨و١٩٧٨، فترصد التحوّلات الكبرى الّتي جرت فيها ، وتضع مكنوناتها وأسرارها تحت الضوء .

« أين بقيّة الحكاية » هو الجزء الخامس من ملحمة « دروب المنفى » الفلسطينيّة، الّتي تفرّغ الكاتب لكتابتها طيلة اثنتي عشرة سنة ، وقد صدر منها أربعة أجزاء : « الوطن في الذاكرة » ، « الصعود إلى الصفر » ، « زمن الأسئلة » ، « الجري إلى الهزيمة » ؛ وها نحن نقدّم للقارئ مسك ختام هذا العمل الأدبيّ الفلسطينيّ المهمّ.

الناشر

ISBN 5593-441-25-1

